المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد 43 ـ السنة السادسة عشرة ـ 1410هـ ـ 1990م

تصدر عن

الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب

بغداد

المؤرخ العربي

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

العدد 43 السنة السادسة عشرة
1410هـ ـ 1990م

هيئة التحرير

شروط نشر البحوث في المجلة

1 ـ ان يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.

2 ـ ان يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

3 ـ ان لا يزيد عدد صفحاته عن (50) صفحة.

4 ـ ان لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.

5 ـ تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.

6 ـ يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، وثبت إسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

7 ـ يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأكل كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين.

8 ـ بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات او الندوات أو كان مستلاً من رسالة او إشراف عليها مقدِّم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث.

9 ـ لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحَّد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.

10 ـ يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص، ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.

11 ـ رتِّبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبِّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لا تسترجع إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.

12 ـ يرجى تدوين إسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية.

ترسل البحوث باسم مدير التحرير
ص.ب: (4085)بغداد ـ الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت: 448006

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

. الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (50) دينارا، وفي خارج العراق (150) دولاراً امريكياً.

٢ . للمؤرخين في داخل العراق (20) دينارا، وفي خارج العراق (60) دولارا امريكيا.

٣ . لطلبة التاريخ في داخل العراق (10) دينارات، وفي خارج العراق (30) دولارا امريكيا.

مجلة المؤرخ العربي
العنوان:
اتحاد المؤرخين العرب
ص . ب: 4085
العراق: بغداد

بطاقة الاشتراكات

150 دولار للمؤسسات الرسمية
60 دولار للمؤرخين
30 دولار لطلبة التاريخ

ارجوا قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

يرجى ارسال قائمة بالحساب
تجدون طيا صكاً بقيمة .... دولار
الاسم: ....
العنوان: ....
المدينة: ....
القطر: ....
التاريخ: ....

Subscription Card

Please enter my subscription for

One year $ 150.00 for Institutions
$ 60.00 for Historians
$ 30.00 for Students of History

Address:

Union of Arab Historians
P.O.Box: 4085
Baghdad - Iraq

Please bill me

Check enclosed for $....................
Name....................
Address....................
City....................Country....................
Date....................

المحتويات(*)

(*) المحتويات باللغة الانكليزية على الجهة اليسرى من المجلة.

دور الوثائق والمخطوطات

عروض الكتب

رسائل الماجستير في التاريخ والآثار

المقدمة

لقد ثمن اتحاد المؤرخين العرب كل المؤرخين المتميـزين الذين اسهموا بكتاباتهم ونشاطاتهم في خدمة الحقائق التاريخية أو اعادة كتابة تاريخ الأمة وفق أسس سليمة محافظين على الأمانة التاريخية واظهارهم للجوانب المشرقة التي كانت تعيشها أمتنا وإبراز أوجه الحضارة العربية الاسلامية المختلفة بمايخدم حاضر الأمة ومستقبلها.

وقد كان من بين اهتمامات الاتحاد الكثيرة، استحداثه دائرة (وسام المؤرخ العربي) واصدار قراره التاريخي بمنح وسام المؤرخ العربي للمؤرخين العرب الذين أسهموا في خدمة التاريخ العربي من الذين يحملون لقب الأستاذية في مختلف فروع الدراسات التاريخية في جامعات الوطن العربي، اضافة إلى منحه للمؤرخين الذين قدموا عطاءً متميزاً للتاريخ العربي الاسلامي أو اسندوا مسيرة كتابة التاريخ.

وباشرت دائرة وسام المؤرخ العربي مسؤولياتها فقامت بمفاتحة الجامعات في الوطن العربي والجهات المعنية لترشيح من يستحق هذا الوسام، وفق الأسس والضوابط المشار إليها. وبدأ الاتحاد في العراق حيث تم توزيع هذا الوسام في احتفالات مهيبة حضرها عدد من المسؤولين ونقلتها وسائل الاعلام كما تم في الأقطار العربية منح وسام المؤرخ العربي في ضوء الأسس والضوابط المقرة، للمؤرخين المتميزين والمبدعين وعلى الشكل الآتي:

١ ـ المملكة الأردنية الهاشمية.
٢ ـ دولة البحرين.
٣ ـ الجمهورية التونسية.
٤ ـ الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
٥ ـ جمهورية جيبوتي.
٦ ـ جمهورية السودان الديمقراطية.
٧ ـ الجمهورية العربية السورية.
٨ ـ جمهورية الصومال.
٩ ـ دولة فلسطين.
١٠ ـ الجمهورية اللبنانية.
١١ ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى.
١٢ ـ جمهورية مصر العربية.
١٣ ـ المملكة المغربية.
١٤ ـ جمهورية موريتانيا الاسلامية.
١٥ ـ جمهورية اليمن الديمقراطية.
١٦ ـ الجمهورية العربية اليمنية.

وقد أكدت دائرة الوسام على الجهات المعنية في الأقطار العربية التي لم ترسل قوائم من يستحقون الوسام، بضرورة ارسالها بغية استكمال منح الوسام لكافة الأقطار العربية.

كما ناشدت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب الجمعيات التاريخية وأقسام التاريخ في الأقطار العربية، ليرسلوا السيرة العلمية لكل من منح الوسام وصورته الشخصية بغية إعداد دليل بحملة وسام المؤرخ العربي، استعداداً لطبعه باللغات العالمية المختلفة لتعريف العالم بالمؤرخين العرب المبدعين.

وتستعد الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، لإقامة احتفال كبير للمؤرخين الذين يحملون وسام المؤرخ العربي بعد استكمال منحه في كافة الأقطار العربية، توزع خلاله الدالية الذهبية المطعمة بالعقيق التي تبرع بها سمو ولي عهد امارة رأس الخيمة، لحملة الوسام، والتي تسلمها الاتحاد مؤخراً.

وبعد استعراضنا لدور ونشاط إحدى دوائر الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب نضع بين أيديكم هذا العدد الجديد من مجلتنا ونعاهدكم بالحفاظ على سمعتها الرفيعة التي نالتها على الصعيدين العربي والعالمي، بفضل بحوثكم الأصيلة وتعاونكم الصادق، وسنبذل أقصى الجهد من أجل تطوير أبوابها لكي نضمن وصولها إلى مختلف بقاع الدنيا وتغدو ممثلة لمدرسة تاريخية عربية مميزة راجين من المولى عز وجل أن يوفقكم وايانا لما فيه خير الأمة وسؤددها.

بحوث التاريخ
الحديث والمعاصر

التعاون العربي الأفريقي
جذوره وأبعاده ومشكلاته (*)

مدثر عبد الرحيم الطيب

السودان.

لا شك أن إزدهار التعاون العربي الإفريقي أثناء السنوات الأخيرة، من أهم التطورات المعاصرة في ميدان التعاون الإقليمي، ويتوقع أن تكون له آثار كبيرة: ليس فقط في مستقبل الشعوب المعنية بصورة مباشرة، بل في مستقبل غيرها من الأمم والشعوب كذلك.

وسنعرض في هذه الدراسة الوجيزة، لبعض الجوانب الرئيسية من هذا الموضوع الهام ناظرين ـ أولاً ـ في الجذور الحضارية لهذه التجربة الهامة وتطوراتها التاريخية، ثم في أبعادها ومعالمها المعاصرة الرئيسية، ثم نعرض ـ ثالثاً وأخيراً ـ لأهم المشكلات التي اعترضت وما زالت تعوق تطور التعاون العربي الافريقي اليوم، محاولين استكشاف ما يمكن تبنّيه من ملامح المستقبل، والآثار المحتملة لهذه التجربة.

الإطار التاريخي والحضاري

لعله من نافلة القول إنه ليس في الإمكان تفصيل الكلام في هذا المقام في تاريخ هذه التجربة وتطورها عبر السنين. حسبنا الإشارة، إجمالاً، إلى أن عوامل جغرافية وتاريخية مختلفة جعلت التعاون العربي الافريقي أمراً ضرورياً وحتمياً في الوقت ذاته.

وتعود أهمية العوامل الجغرافية المعنية في هذا الصدد، ليس فقط لما قضت به تلك العوامل من تجاور بين العالمين العربي والإفريقي، بل أيضاً ـ وأهم من ذلك ـ لما نتج عن هذا الحوار من تداخل، بل تلاحم وثيق، بين الاقليمين، خاصة في الأجزاء الشمالية والشرقية من القارة الافريقية. ومن ثم أصبحت هذه المناطق الواسعة الهامة عربية وأفريقية في ذات الوقت، دون أن ينشأ عن ذلك أي تنازع أو تنافر بين المقومات العربية والافريقية المنصهرة في حياة شعوبها وسكانها. ويرجع هذا التخالط والانسجام، إلى أن كلاً من العروبة والافريقية تشكل رابطة حضارية وسياسية وإنها ليست رابطة عنصرية أو عرقية. ولذلك فإن كلاً من الرابطتين، توحد في ثناياها شعوباً مختلفة من حيث العنصر والعرق، كما أن الرابطتين، تلتقيان ـ بناء على ما تقدم ـ وتتداخلان تداخلاً طبيعياً لا تنافر فيه ولا تناقض(1).

ويمكن أن ننظر إلى هذه الحقيقة من زاوية أخرى، فنقول إن معظم العرب المعاصرين افريقيون، وذلك لأن سكان افريقيا الشمالية يكونون ما يزيد على ستين بالمائة (٦٠٪) من سكان الوطن العربي كله ـ بما في ذلك مهد العروبة الأول في آسيا العربية. وبالطريقة نفسها، يمكن أن يقال ـ صدقاً كذلك ـ إن ثلث الأفارقة المعاصرين عرب، وذلك لأن أهل افريقيا الشمالية، يكونون نحو الثلاثين بالمائة (٣٠٪) من مجموع سكان القارة الافريقية.

(*) يتضمن هذا البحث ترجمة للمحاضرة التي كان الكاتب قد ألقاها حول نفس الموضوع بالمعهد النيجيري للعلاقات الدولية (Nigerian Institute of International Affairs) في العاصمة النيجيرية ليغوس مساء يوم ١٧ يناير ١٩٧٩. وقد نشر نص المحاضرة في سلسلة محاضرات المعهد المذكور باللغة التي ألقيت بها أصلاً (أي الانجليزية) نفس العام. ثم نشر البحث بالعربية لأول مرة في السياسة الدولية، القاهرة، أبريل ١٩٨٢.

(١) راجع في ذلك مثلاً:

كتاب زكي حازم نسيبه **The Ideas of Arab Nationalism** (Cornell, 1959) وكتاب Colin Legum: **Pan Africanism** (London, 1962) خاصة فيما يتعلق بالزنجية والشخصية الافريقية، انظر ايضاً بحثي «Arabism, Africanism and Self-Identification in the Sudan» في Journal of Modern African Studiel, 1970.

ومهمـا تكن الزاويـة التي ننظر منهـا إلى الأجزاء الشمـاليـة والشمالية الشرقية من القارة الافريقية، فلا شك أن هذه الأقاليم وسكانها، تشكل نقاط التقاء فريـدة، تتلاحم في إطـارها العـروبة والأفريقية تلاحماً مادياً وبشرياً وثيقاً كما تقدم.

وقد انبثقت عن التفاعل الذي وقـع بين العـوامل الجغـرافية والتاريخية التي ربطت بين العروبة والافريقيـة على النحـو الذي ذكرنا، عدة ظواهر حضاريـة هامـة نلمسها اليـوم في حياة عـدد كبير من المجتمعات الافريقية المعاصرة.

من أبـرز تلك الظـواهر، أن أهم اللغـات الافريقيـة المعاصرة وأوسعها انتشاراً ـ إلى جانب العربيـة نفسها ـ هي السـواحلية والهوسوية. وتتميز كل منهما بأنها مزيج من العـربية واللهجـات الافريقية القديمة.

وما يقال عن السـواحلية والهـوسويـة في هذا الصـدد، يقال وينطبق أيضاً على عدد من اللغات واللهجات الافريقيـة الأخرى، بما في ذلك الصومالية والهررية (نسبة إلى مدينة هـرر) في منطقة القرن الافريقي، والفلانية في أجزاء القارة الغربية.

أضف إلى ذلـك، أن هذه اللغـات جميعهـا، قـد كتبت، وظلت آدابها تكتب قروناً عديدة، بالحروف العربية.

وقـد كان من الطبيعي والحـال هـذه، أن اهتم الكثـيرون من الـدارسين خـاصة من المؤرخـين المهتمـين بـالكشف عن جـذور الحضـارات الافريقيـة وأصـولهـا في الحقب السـابقـة لهيمنـة الاستعمـار الأوروبي ـ بتعلم اللغة العـربية والآداب الافـريقيـة المكتوبة بالحروف العـربية التي سبقت الإشـارة إليها. ذلـك أن اللغـة العربيـة ـ إلى جانب مـا احتوتـه المراجـع التي كتبت بها أصلاً من كنوز هامة في التـأريخ للشعـوب الافريقيـة ـ يمكن أن تعتبر ـ بحق ـ أماً تولدت عنهـا اللغات الافـريقية العـريقة مثـل السواحلية والهوسوية وأخواتها ـ ولا شك أن الصلة بين العربية وتلـك اللغات، يمكن أن تقـارن بالصلـة القائمـة بين اليـونـانيـة واللاتينية القديمتين، وبين عدد من اللغات الأوروبية الحـديثة في المجموعتين الأنجلـوسكسونيـة الشماليـة، واللاتينيـة الجنوبيـة جميعاً(٢).

وليس من قبيل الصدف، أن كـان الدكتـور ادوارد بلايـدن (Dr. Edward Blyden) ـ وهـو من آباء القـومية الافـريقيـة، ويحتـل مكـانة في تـاريخ الفكـر الافريقي يمكن أن تقـارن بمكانـة جمال الدين الأفغاني في تاريخ النهضة الاسلامية المعاصرة ـ من أكبـر المهتمين بهذا الأمر وأولهم. ولذلك ارتحل إلى مصر وسوريا ليتعلم اللغة العربية فيهما، تمهيداً لإدخالها في مناهج الدراسة بالجامعة الليبـيرية التي كـان قد عـين أستـاذاً بهـا قبـل نحـو قـرن من الزمان(٣).

ولا يقـل دور الديـانات في التـوحيد بـين الشعـوب العـربيـة والافريقية عن دور الألسن واللغات. فقد قـدرت نسبة المسلمـين بواحد من ثلاثة من مجموع سكان القارة(٤)، وهي نسبة ما زالت تتزايد بسبب تزايد المسلمين وانتشار الاسـلام بين الافـريقيين. وتختلف تقـديرات هـذه الزيـادة بالمقـارنة مـع المسيحية بنسب تتراوح بين إثنين إلى واحد، وعشرة إلى واحد(٥).

هذا ومن المعلوم أن عـدد المسلمين من الأفـارقة غـير العرب، يـزيد كثيـراً على عـدد المسلمين العـرب في القارتـين الآسيـويـة والافريقية مجتمعتين.

وغني عن القـول، إن الفضـل في انتشـار الاسـلام واللغـة العـربيـة ـ بـين الشعـوب الافريقيـة وغـيرهـا من المجتمعـات الانسانية ـ إنما يعود أصلاً لما غـرسه الاسلام ونماه في قلـوب معتنقيه من قيم سلوكية واجتماعيـة تضمنت استعداد المسلمـين في كـل زمان وكـل مكان لـلاختـلاط والتـزاوج مـع من عـاشرهم وجـاورهم من شعـوب وقبـائـل. وقـد نتـج عن اختـلاط العـرب المسلمـين وتزاوجهم بسكـان القارة الافـريقيـة الأصليـين ـ من القبط، والنوبة، والبـربر والـزنوج والبـانتو الـخ ـ تولـد شعـوب إسلامية مختلفـة الأعراق والألـوان، استعـرب بعضهـا بسبب اسلامها استعراباً تاماً، أصبحت معه جزءاً لا ينفصم عن كيـان الأمة العربية الحديثة، بينما ظلت جماعات أخـرى محافظـة على لغـاتها وثقـافاتهـا القديمـة وفي نفس الوقـت الذي ارتبطت بـه بالعرب وببقية الشعوب الاسـلامية بـواسطة الاسـلام وما انبثق عنها من مختلف المؤثرات اللغوية والحضارية.

---

(٢) انظر كتاب:

William D. Codey, **The Negroland of the Arabs** (First pub. 1841, repub. in London, 1966); also Tadeus 7 Lewicki, Arabic External Sources for the History of Africa (London, 1972).

Thomas Hodgkin, **Nigerian Perspectives** (Second ed., Oxford, 1976).

(٣) انظر المقدمة التي كتبها Samuel Lewis لكتاب Edward Blyden, **Islam and the Negro Race** (Edingurgh, 1967), p. 8.

(٤) Ibrahim Abu Lughod, **The Islamic Factor in African Politice** (Orbin, vii, 2)

مقتطفاً في دراسة علي مزروعي:

Ali Mazrui **Political Values and the Educated Class in Africa** (London, 1978), p. 136.

(٥) James Kritzeck and B.H. Lewis, **Islam in Africa** (N.Y., 1968), p. 2.

ولعل من أوضح أمثلة ذلك، الشعوب الناطقة بالسواحلية في شرق القارة الافريقية. وقد انصهرت فيها العناصر العربية انصهاراً عرقياً ولغوياً تاماً لعله يتجاوز في اكتماله التلاحم العظيم الذي حدث كذلك بين مجموعات كبيرة من القبائل البربرية الوافدة من المناطق الصحراوية وشمال القارة الافريقية، وبين من جاورهم من الشعوب الفلانية التي اندمجت بدورها في القبائل الهوسوية المتاخمة لها من النواحي الجنوبية.

وهكذا كان الاسلام، وما زال، عاملاً أساسياً من عوامل الترابط والتلاحم بين الشعب العربي والشعوب الافريقية: دينياً، وعرقياً، وحضارياً.

اضف إلى ذلك، أن المسيحية التي دانت لشتى مذاهبها شعوب افريقية مختلفة أثناء القرون الأخيرة، عريقة الوجود في العالم العربي، تتجاوز - من حيث العراقة والقدم - المسيحية الأوروبية التي منها استمدت بعض الشعوب الافريقية دياناتها ومذاهبها الحديثة، منذ عهود الاستعمار والاكتشافات الأوروبية.

الأسس السياسية المعاصرة

إضافة لما سلف به الذكر من الروابط الحضارية والانسانية المنبثقة عن التداخل الجغرافي والتاريخي بين العالمين العربي والافريقي، فقد جمعت بين هذين الاقليمين الهامين، عوامل سياسية واقتصادية تعود أساساً إلى التجارب المتماثلة والمصالح المشتركة بين العرب والأفارقة، خاصة في ميادين النضال من أجل التحرر من هيمنة الاستعمار الأوروبي الذي كان قد فرض سيطرته عليهما معاً ثم، بعد تحقق الاستقلال السياسي، في مواصلة السعي والجهد من أجل التنمية الاقتصادية. وتحقيق العدالة الاجتماعية في البلاد العربية والافريقية.

ونظراً لأن مصر كانت من أسبق البلاد العربية والافريقية لتحقيق قدر كبير من الاستقلال السياسي والاقتصادي، خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كان من الطبيعي أن تلعب دوراً قيادياً في دعم الحركات التحررية والاستقلالية: ليس فقط في الجزائر والمغرب وتونس وغيرها من البلاد العربية. بل أيضاً في كينيا والكونغو وجنوبي القارة الأفريقية.

وبنفس الطريقة - إن لم يكن بدرجة أكبر وأبعد - فقد أصبحت الجزائر، بعد أن انتزعت استقلالها في أعقاب حرب تحريرية ضروس نادرة المثال، وما زالت، درعاً متيناً وسنداً قوياً للحركات والاتجاهات التحريرية السياسية والاقتصادية والثقافية في مختلف بقاع العالم، وخاصة في بلاد العالم الثالث: آسيوية وافريقية وامريكية لاتينية.

وعلى نفس النهج سارت غانا - وقد كانت أسبق البلاد الافريقية غير العربية لتحقيق استقلالها السياسي - خاصة على عهد الرئيس الراحل كوامي نكروما الذي بذل جهوداً كبيرة في دعم الحركات الاستقلالية خاصة في جنوبي القارة الافريقية.

في هذا الإطار التاريخي، عقد أول مؤتمر للبلاد الافريقية المستقلة، وذلك بدعوة من الرئيس نكروما، في عاصمة بلاده (أكرا) في ابريل عام ١٩٥٨. وقد كان من قبيل الصدف المبشرة بالخير والازدهار لمستقبل التعاون بين العرب والأفارقة، أن الدول الست التي اشتركت في ذلك المؤتمر الرائد (وهي أثيوبيا ومصر وغانا وليبيريا والمغرب والسودان) قد جاءت قسمة بين البلاد العربية والافريقية، من حيث الهوية الثقافية الحضارية، وإن جمعت بينهما هموم القارة الافريقية وتطلعات شعوبها، عربية وغير عربية.

هذا وقد ظلت نفس الروح مزدهرة تربط بين تلك الدول - لاسيما التي عرفت منها بمجموعة الدار البيضاء - إلى أن أنشئت منظمة الوحدة الافريقية، إذ ضمنت ميثاقها، فأصبحت بذلك صفة ملازمة لها[٦].

ولكن مرَّ عقد كامل من الزمان بعد إنشاء منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٢، دون أن تترجم تلك الروح والمبادىء إلى أعمال وأفعال، لا في تصرفات المنظمة الافريقية، ولا في تحركات الجامعة العربية. بل إن كثيراً من الدول الأعضاء في المجموعتين، ظلت تنتهج سياسات مناقضة تماماً لمصالح وصيفاتها الأخر. ولعل أوضح مثل لذلك، أن عدداً من البلاد الافريقية غير العربية، أقامت علاقات دبلوماسية واقتصادية - بل وعسكرية - حميمة مع اسرائيل، بينما ظلت بعض الدول العربية، تتعامل تجارياً واقتصادياً مع حكومة جنوب افريقيا وغيرها من النظم الاستعمارية والعنصرية القائمة عندئذ في جنوب القارة الافريقية.

وقد نتج عن تلك التصرفات المتناقضة مع مبادىء المنظمة والمتجاهلة في ذات الوقت لما بين الدول الأعضاء فيها من مصالح وأهداف، نتائج وخيمة نذكر منها، على سبيل المثال، سقوط مشروع القرار الذي تقدمت به الصومال في أعقاب العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ طالبة فيه من منظمة الوحدة الافريقية شجب العدوان الصهيوني، ودعم مصر بوصفها دولة افريقية وقع عليها العدوان. سقط المشروع الصومالي، وأجازت المنظمة بدلاً منه بياناً باهتاً عبر عن «قلق» الدول الأعضاء تجاه احتلال

(٦) انظر مثلاً كتاب: Zdenek Cervenka, **The Organization of African Unity and its Charter** (London, 1968).

جزء من أرض مصر من قبل دولة أجنبية، كما عبر عن «تعاطف» الدول الأعضاء مع مصر، وعن التزام تلك الدول بالسعي في نطاق الأمم المتحدة لتحقيق جلاء قوات الاحتلال عن الأراضي المصرية(٧).

إلا أن الوضع تحول تحولاً كبيراً أثناء السنوات الخمس التالية.

وقد نتج ذلك التحول عن عدد من العوامل والأسباب: من أهمها تزايد اقتناع الأفارقة مع مرور الأيام بعدم جدوى الاعتماد على الدول الغربية في دعم الاستراتيجية الافريقية الهادفة لتحرير جنوب القارة من سيطرة الأنظمة العنصرية، وذلك في وقت أخذت الدول العربية ـ الآسيوية والافريقية جميعاً ـ في التجارب بصورة أكثر صدقاً وفعالية مع الأفارقة، في دعم جهودهم الرامية للانعتاق من هيمنة النظم الاستعمارية والعنصرية في جنوبي القارة الافريقية.

وفي تلك الفترة أيضاً، تكشفت حجب الدعاية الاسرائيلية ومساعيها الدبلوماسية التي كانت قد أوهمت الكثيرين في القارة الافريقية بأن اسرائيل صديقة الأفارقة وحليفهم الطبيعي واتضح، على العكس من تلك الادعاءات، أن اسرائيل لم تكن فقط صديقة حميمة للدول الغربية التي ظلت تدعم النظم العنصرية في جنوب القارة الافريقية بالمال والخبرات والسلاح، بل اتضح أيضاً أن اسرائيل ـ كما أبانت التقارير السنوية للجنة الأمم المتحدة الخاصة بمقاومة التمييز العنصري ـ قد غدت حليفاً مباشراً لتلك النظم الاستعمارية والعنصرية، وإنها ظلت تقوي صلاتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بصورة مطردة مع حكومة جنوب أفريقيا.

بل، فوق ذلك كله، نشرت عدة مصادر أخرى ـ من بينها هيئة الاذاعة البريطانية ولجنة التحرير المتفرعة عن منظمة الوحدة الافريقية ـ تقارير أوضحت أن عدداً من المرتزقة والخبراء العسكريين الاسرائيليين، شاركوا بصورة مباشرة في الحملات العديدة التي كانت النظم العنصرية في جنوب القارة الافريقية توجهها لضرب حركات التحرير الوطنية، بينما نشرت تقارير كثيرة أخرى، عن إسهام اسرائيل وخبرائها في دعم صناعة الأسلحة النووية على وجه الخصوص(٨).

ولا غرابة مطلقاً في ازدهار الصداقة والتحالف بين حكومتي اسرائيل وجنوب افريقيا على النحو المتقدم: بل، على العكس تماماً، يمكن أن ينظر إلى ذلك التحالف غير المقدس، بوصفه نتيجة منطقية معقولة لطبيعة النظامين والمصالح المشتركة بينهما.

فالنظامان القائمان في اسرائيل وجنوب افريقيا، كلاهما استعماري يعتمد على القوة والارهاب في إرساء دعائمه في أرض لم تكن أرضه أصلاً، ثم في قهر الوطنيين والسعي لكسر شوكتهم أمام جبروته. وكلاهما عنصري يستلهم مبررات وجوده من فلسفة استعلائية خاطئة، يدّعي أصحابها بناءً عليها، أنهم أفضل عنصراً وأسمى عرقاً من أصحاب الأرض الأصليين. وكلاهما ـ ثالثاً، ولذلك كله ـ حليف طبيعي لقوى الاستعمار العالمي: منه منشؤه، وعليه اعتماده، وإليه ولاؤه ومعاده(٩).

وإذا كان الدهاء السياسي والمكر الدبلوماسي والاعلامي قد نجحا أول الأمر في إخفاء الحقائق وتمويهها على الكثيرين، فقد تكشفت تلك الحقائق جلية عارية بعد حين، فأدركها كل باحث عنها ـ بمن في ذلك المسؤولون الموجهون في المنظمة الافريقية والجامعة العربية على السواء.

أما في نطاق المنظمة، فقد ازداد الأمر وضوحاً لما رفضت اسرائيل الاستجابة للجنة السلام الافريقية عام ١٩٧١، فكان رفضها بمثابة التأكيد لما سبق أن علم من نهجها التوسعي وسياستها المناقضة للمبدأ القانوني الدولي الذي يقضي بتحريم الاستيلاء على الأراضي بالقوة.

ولم يكن مستغرباً، والحال هذه، أن تبنت المنظمة في مؤتمرها التالي الذي عقد في الرباط عام ١٩٧٢ مشروع قرار شديد اللهجة لم يقف عند حد الادانة لإسرائيل وسياستها التوسعية بل التزمت دول المنظمة بموجبه، بمنح مصر مساندتها الفعالة من أجل استرداد الأراضي المحتلة.

وقد زاد الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين تلك المعاني ايضاحاً وتثبيتاً أثناء مؤتمر المنظمة الذي عقد في أديس أبابا العام التالي، إذ قال إنه لا يجوز لأفريقيا أن تتخذ موقفاً معيناً من الاستعمار في جنوب القارة، ثم تقف موقفاً آخر من نفس ذلك الاستعمار في شمال القارة.

---

(٧) انظر: Zdenek Cervenka. **The Unfinished Quest for Unity in Africa and the OAU** (London, 1977), p. 158.

(٨) نفسه.

(٩) من الكتابات التي ركزت على هذا الجانب من الموضوع:

Richard P. Stevens and Abdel Wahab Elmesiri: **Israel and South Africa.** (New York, 1976) and
Ibrahim Abu Lughod and B. Abu Laban (ed.)
Settler Regimes in Africa and the Middle East: **The Illusion of Endurance,** Wilmette, Ill.: Medina University Press, 1974.

ومن هذا المنطلق، أصدرت المنظمة في التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٩٧٣ قراراً أصبح نقطة تحول في تاريخها وفي تاريخ التضامن السياسي بين العرب والأفارقة المحدثين. فقد تضمن القرار تحذيراً رسمياً لاسرائيل، بأن رفضها الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة يعتبر اعتداءً على القارة الافريقية وتهديداً لوحدتها، وأن الدول الأعضاء في المنظمة تعتبر نفسها لذلك مدعوة لأن تتخذ ـ منفردة أو بصورة جماعية ـ أية اجراءات سياسية واقتصادية مناسبة لصد ذلك العدوان.

وفي أثناء الشهور الأربعة التالية، وضعت هذه الأقوال موضع التنفيذ من قبل ثمان دول أعضاء في المنظمة: وذلك بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل. وبعد اندلاع نيران القتال في اكتوبر ١٩٧٣ حذت إحدى وعشرون دولة أخرى، حذو الثمان الأول، فقطعت علاقاتها مع اسرائيل تباعاً أثناء الأسابيع القليلة الواقعة بين الرابع من اكتوبر والثلاثين من نوفمبر. واستمر عدد الدول الافريقية المقاطعة لاسرائيل يتزايد أثناء الأسبوع الأول من ديسمبر، حتى بلغ اثنين وأربعين، أي جميع الدول الأعضاء في المنظمة الافريقية، باستثناء الأربع الواقعة تحت النفوذ المباشر لجنوب افريقيا، وهي ملاوي وليسوتو وسوازيلاند وبتسوانا[١٠].

وهكذا استجابت الغالبية العظمى من الدول الافريقية غيرالعربية لزميلاتها العربيات التي كانت أكثرها أيضاً قد قطعت علاقاتها مع حكومات جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا، وذلك باتخاذ موقف مماثل من اسرائيل. وبذلك بلغ التعاون العربي الافريقي درجة عالية من التنسيق والفعالية في مجال العمل السياسي.

نحو تعاون أشمل: المال والاقتصاد

ولكن التحالف السياسي بطبيعة الحال، لم يكن ليكفي أو يؤتي ثماره المرجوة، ما لم ترافقه وتدعمه جهود مماثلة في ميادين التعاون الاقتصادي.

ومن ثم فقد قام نزو ايكانجاكي، السكرتير الاداري لمنظمة الوحدة الافريقية، في نوفمبر ١٩٧٣ مناشداً الدول العربية. استعمال سلاح البترول والمقاطعة الاقتصادية في مقاومة النظم العنصرية القائمة في جنوب القارة الافريقية. وفي يوم ٢١ نوفمبر تبنت المنظمة الافريقية، نداء سكرتيرها بصفة جماعية. وطلبت المنظمة ـ إضافة لذلك ـ توفير أقدار كافية من النفط للدول الافريقية وبأثمان مخفضة، وذلك نظراً لأن تلك الدول (ولا سيما التي لا تنتج النفط منها) قد أُضيرت كثيراً ـ ليس فقط بزيادة الأسعار التي أعقبت قطع البترول عن الدول الغربية التي كانت تعتمد عليها في تأمين حاجتها من المواد النفطية، وإنما أيضاً بانخفاض الكميات المصدرة إليها من تلك الدول بعد المقاطعة العربية.

واستجابة لتلك النداءات، أعلن رؤساء الدول والحكومات العربية عقب اجتماعهم الذي عقد في الجزائر بعد ذلك بأسبوع واحد: فرض مقاطعة نفطية صارمة على النظم العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا والمستعمرات البرتغالية، وقطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين بعض الدول العربية وبين النظم العنصرية في القارة الافريقية، ودعم حركات التحرر الافريقية من قبل الدول العربية، سياسياً ومادياً[١١].

وإضافة لما تقدم دعا الزعماء في اجتماعهم المذكور إلى عقد مؤتمر قمة عربي افريقي مشترك يكون الغرض منه بحث الوسائل اللازمة والسبل المؤدية لتوسيع ودعم التعاون العربي الافريقي في كل الميادين وعلى جميع المستويات.

وتأكيداً لاعتزامهم سلوك نهج عملي في تحقيق ما دعوا إليه، قرر الزعماء العرب في الاجتماع نفسه، إنشاء مصرف عربي خصيصاً لدعم التنمية الاقتصادية في القارة الافريقية ـ وقد افتتح البنك المعني في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٥ وذلك في الخرطوم، العاصمة السودانية، وبرئاسة مدير تونسي مقتدر وكان رأسمال البنك الأولي ٢٣١ مليون دولار، ثم زيد المبلغ عام ١٩٧٧ إلى ٧٤٠ مليون دولار[١٢].

وبذلك أصبح البنك قناة رئيسية من القنوات الموجهة للمعونات الاقتصادية العربية للقارة الافريقية خارج دائرة الاتفاقات الثنائية.

وكما قد يتوقع، فإن البنك العربي للتنمية الاقتصادية في القارة الافريقية، ينسق مساعيه التنموية والاقتصادية مع بنك التنمية الافريقي الذي كانت منظمة الوحدة الافريقية قد أنشأته في داكار عاصمة الجمهورية السنغالية[١٣].

وقد سار البنك منذ إنشائه سيرة محمودة أشاد بها عدد من

(١٠) انظر كتاب Cervenka الأخير، ص ١٦٤.

(١١) E.C. Chibwe: **Afro-Arab Relations in the New World Order** (London, 1977), p. 75.

(١٢) كانت التسمية المقترحة أصلاً لهذا البنك هي «المصرف العربي للتنمية الصناعية والزراعية في افريقيا».

(١٣) للاستزادة من التفاصيل المتعلقة ببنك التنمية الافريقي راجع كتاب Chibwe المذكور أعلاه سيما صفحات ٧١ إلى ٧٨.

الخبراء والمسؤولين الأفارقة في دعم مشاريع التنمية المقدمة من قبل مختلف الدول الافريقية، وذلك بمد الحكومات المعنية بالخبرات الفنية التي تحتاج إليها، إضافة إلى اقراضها المبالغ اللازمة لانشاء وتسيير مشاريعها التنموية مقابل فوائد متهاودة تتراوح بين ١ بالمئة و٦ بالمئة(١٤).

هذا وكانت منظمة البلاد العربية المصدرة للنفط، قد أنشأت عام ١٩٧٤ صندوقاً خاصاً بدعم مشاريع التنمية الافريقية، وذلك بتمكين الحكومات الافريقية التي أضيرت بزيادات أسعار النفط عقب عام ١٩٧٣ من الحصول على قروض مالية عاجلة مقابل فوائد اسمية، وكان الصندوق قد أنشىء برأسمال قدره مائتا مليون دولار زيدت فيما بعد إلى أربعمائة مليون دولار.

ونظراً للتشابه الكبير بين أغراض الصندوق والبنك، فقد أدمجت إدارة الصندوق في إدارة المصرف منذ ابريل (نيسان) ١٩٧٦: ولكن ما زالت مساهمات الصندوق في دعم مشاريع التنمية الافريقية تتزايد داخل هذا الاطار الاداري الجديد.

وثمة مؤسسة ثالثة تعنى بتوجيه المعونات العربية للبلاد الافريقية، وهي الصندوق العربي للعون الفني لافريقيا ـ وكان هذا الصندوق قد أنشىء عام ١٩٧٣ برأسمال قدره ١٥ مليون دولار زيد فيما بعد إلى ٢٥ مليون دولار. وتختلف هذه المؤسسة عن سابقتيها في اختصاصها بالمعونات الفنية دون المالية، ثم بأنها تشمل بعنايتها جميع أقطار القارة الافريقية، عربية وغير عربية، بينما تحصر المؤسستان الأوليان جهودهما في دعم مشاريع التنمية الاقتصادية في البلاد الافريقية غير العربية.

هذا واستجابة لطلب تقدمت به منظمة الوحدة الافريقية لمد الدول الأعضاء فيها بالمزيد من المعونات، فقد التزمت الدول العربية أثناء مؤتمر القمة العربي الافريقي المشترك الذي عقد في القاهرة من السابع إلى العاشر من آذار (مارس) سنة ١٩٧٧: بدفع بليون ونصف من الدولارات دعماً وعوناً لزميلاتها الافريقيات. وقد وصفت الاستجابة العربية في تلك المناسبة من قبل بعض المراقبين ـ وبحق ـ بأنها مدهشة فاقت كل تصور.

وإضافة إلى ذلك الالتزام المالي الضخم، فقد تمخض مؤتمر القمة العربي الافريقي المشترك، عن عدد من القرارات الهامة القاضية بتنسيق جهود الدول المعنية في ميادين التجارة، والتعدين، والزراعة، والصناعة، وصيد الأسماك، والغابات، والطاقة، والمياه. كما أصدر المؤتمر بياناً وبرنامج عمل، استهدفا تقوية التعاون السياسي والدبلوماسي، وتنسيق الجهود في ميادين التربية والثقافة والعلوم وسائر الشؤون الاجتماعية. وبذلك وضع أساس صرح شامخ وبرنامج طموح من أجل التعاون الشامل بين الدول العربية والافريقية.

ونظراً لأن الدول العربية والأفريقية الستين التي اجتمع ممثلوها في ذلك المؤتمر التاريخي كانت في واقع الأمر كتلة من أعظم الكتل الدولية المصدرة للنفط والمواد الأولية الأخرى، فقد كان من البديهي أن برنامج العمل الذي تبنته عندئذ ـ إذا وضع موضع التنفيذ ـ ستكون له آثار تاريخية خطيرة وكبيرة، ليس فقط في حياة العرب والأفارقة الذين يهمهم الأمر بصورة مباشرة، بل في مسار العلاقات الدولية عامة، ولا سيما في تطور العلاقات بين الدول الفقيرة والدول الغنية في العالم.

عقبات على طريق المستقبل

تناولنا في الصفحات المتقدمة من هذا البحث الجذور الحضارية والثقافية للتعاون العربي الافريقي، ثم تحدثنا عن الانجازات التي استكملت داخل ذلك الإطار في ميداني التعاون السياسي والاقتصادي.

أما في الصفحات التالية، فنعرض لبعض المشاكل التي واجهت التعاون العربي الافريقي، وما زالت تعرقل تقدمه حتى اليوم.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه ابتداء وقبل التعرض لتفاصيل أية من المشكلات التي سنديرعليها الحديث، أن التعثر ـ لا سيما في بداية الطريق كما هي الحال بالنسبة لما استحدث مؤخراً من نظم التعاون بين البلاد العربية الافريقية ـ أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا شذوذ. نعلم ذلك من التجارب المماثلة التي جرت وما زالت تجري بغية التنسيق والتوحيد بين الدول الأعضاء في مختلف المنظمات الاقليمية: بما في ذلك الجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الافريقية. بل إن تجارب الكثير من الدول والأقطار المفردة ـ خاصة في بلاد العالم الثالث ـ لتثبت لنا أيضاً، أن دعم التعاون والتكامل حتى بين أهل البلد الواحد، ليس من الغايات التي يمكن إدراكها من أول وهلة، ودون التعرض لكثير أو قليل من المشاكل والمصاعب. ولكن التجارب دلّت كذلك على أن إخلاص النوايا، ووضوح الفكر، والمثابرة في السعي، لا بد أن تؤدي إلى النجاح في حل المشكلات وتخطي العقبات: محلية كانت، أو قومية، أو اقليمية.

إن من أولى المشكلات التي واجهت التعاون العربي الافريقي في أعقاب أزمة الطاقة الشهيرة عام ١٩٧٣/١٩٧٤ هي تلك التي نشأت بسبب الاقتراح الذي كان قد تقدم به بعض دول منظمة

(١٤) المصدر نفسه.

الوحدة الافريقية إذ ذاك: مطالبة الدول العربية المصدرة للنفط، ببيع كميات كافية منه للدول الافريقية بأسعار منخفضة عن الأسعار التي كان يجري التعامل بها عندئذ في الأسواق العالمية.

ولكن الدول العربية المعنية ـ مع تقديرها للاعتبارات السياسية القائمة عندئذ ـ رأت ألا سبيل للاستجابة لذلك المطلب، بالرغم مما أبدته نيجيريا بوصفها أكبر الدول الافريقية غير العربية انتاجاً للنفط أول الأمر، من استعداد لبيع نفطها للبلاد الافريقية الأخرى بأسعار مخفضة. وقد اعتمدت الدول العربية في رفضها الاقتراح على ثلاثة أسباب رئيسية:

أول تلك الأسباب: أن أسعار النفط إنما كانت تحدد ـ لا بواسطة تلك الدول العربية وحدها ـ بل من قبل منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبيك) التي تشمل عضويتها العديد من الدول غير العربية: آسيوية وافريقية وأمريكية لاتينية، وتعتبر بعضها من أكبر الدول المصدرة للنفط في العالم: مثل ايران وفنزويلا.

أما السبب الثاني: فهو أن ثنائية الأسعار كانت ستفتح الباب عريضاً لشركات النفط التي تعتمد عليها البلاد الافريقية ومعظم بلاد العالم الثالث في تأمين حاجاتها النفطية للتلاعب بتلك الأسعار بغية زيادة أرباحها بطرق غير شرعية.

أما ثالث الأسباب التي رفض الاقتراح من أجلها، فهو أن ثنائية الأسعار كانت ستؤدي ـ لا محالة ـ لقيام سوق سوداء يعاد فيها تصدير كميات النفط المشتراة بأسعار مخفضة لتباع بأسعار أعلى ـ مما يضر بمصالح المستهلكين والمنتجين جميعاً.

بناءً على تلك الأسباب، استقر الرأي آخر الأمر، على أن تؤمن حاجة البلاد الافريقية من النفط العربي، ولكن دون الالتزام بفكرة الأسعار المزدوجة. وعوضاً عن العمل بتلك الفكرة، أخذت البلاد العربية المنتجة للنفط (كما رأينا أعلاه) تعمل على إنشاء أرصدة خصصت للتخفيف الفوري من حدة الأزمات التي تعرضت لها البلاد الافريقية نتيجة ارتفاع الأسعار العالمية، كما أنشأت البلاد العربية عدداً من المصارف وصناديق النقد لدعم مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد الافريقية.

وبالإضافة إلى كل تلك الجهود والاجراءات الجماعية، فقد كانت هناك أيضاً، وبطبيعة الحال، مجموعة لا يستهان بها من اتفاقيات التعاون الثنائية بين مختلف الأقطار العربية والافريقية.

ومن المشكلات الكبرى التي ما زالت تواجه التعاون العربي الافريقي أيضاً، أن كثيراً من المستثمرين من البلاد المنتجة للنفط (من العرب، والنيجيريين وغيرهم... الخ) ما زالوا يؤثرون استثمار أموالهم ـ لا في البلاد الفقيرة غير المنتجة للنفط في العالمين العربي والافريقي حيث تشتد الحاجة لتلك الاستثمارات ـ بل في أوروبا وأمريكا، حيث تقل الحاجة إليها كثيراً عما هي عليه في أفريقيا والبلاد العربية، وحيث يمكن أن تستعمل تلك الاستثمارات، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، لعرقلة المشاريع التنموية والاستراتيجيات السياسية أيضاً في البلاد العربية والافريقية جميعاً.

أما أسباب هذه التصرفات التي تعود بالأذى والضرر على بلاد أصحابها ومقترفيها، فليست بخافية. ولعل أهمها الحرص على ضمان تلك الاستثمارات وسلامتها. ولكن ذلك من الأمور التي تنبهت معظم الدول الافريقية والعربية الراغبة في اجتذاب الخبرات ورؤوس الأموال الأجنبية لأهميتها، وسنت القوانين اللازمة لتأمين الاستثمارات الأجنبية بناء عليها.

ثم إن الإعلان وبرنامج العمل الصادرين عن مؤتمر القمة العربي الافريقي المشترك الذي عقد في القاهرة في مارس ١٩٧٧ قد أكدا كذلك ـ ليس فقط على ضرورة دعم وتشجيع الاستثمارات والتجارة الاقليميين بين الدول ـ وإنما، أيضاً، على احترام وحماية سيادة الدول على ثرواتها.

ولكن الوضع لم يزل على ما كان عليه.

وكما قال الرئيس الزامبي كينيث كاوندا أثناء مؤتمر القمة العربي الافريقي المشترك فإن مأساة العرب والأفارقة فيما يتصل بهذا الأمر إنما نتجت عن انعدام الوحدة بينهم، وعن عجزهم المشترك في تنسيق ثرواتهم الطبيعية والانسانية الضخمة وتعبئتها بما يحقق مصالحهم. ثم عن سوء تقديرهم لما أوتوا من مقدرة للنمو والتقدم اعتماداً على أنفسهم. وأخيراً، نتيجة لقلة ثقتهم في بعضهم.

وقد ضرب الرئيس كاوندا الأمثلة لكل ذلك، مشيراً إلى أن زامبيا ما زالت تشتري ما تحتاج إليه من الكاكاو الذي تنتجه غانا من أسواق لندن، كما تشتري النفط السعودي من نيويورك. وبالمثل فإن الدول العربية، ما زالت تشتري ما تحتاج إليه من تبغ وشاي ونحاس تنتجه البلاد الافريقية من الأسواق الأوروبية، في نفس الوقت ما زالت البلاد الافريقية تعتمد فيه على المصارف وأسواق النقد الأوروبية، للاستدانة بغرض تمويل مشاريع التنمية فيها.

وغني عن القول ان كل تلك الأوضاع مما ينبغي أن يغير ويصحح ـ عاجلاً ودون تأخير.

وثمة مجموعة ثالثة من المشاكل التي تقف بين البلاد العربية والافريقية (بل وبلاد العالم الثالث بصورة عامة) وبين ما تصبو إليه حكوماتها وشعوبها من تعاون وتقدم. وترجع تلك المجموعة من المشاكل، إلى أن الدول المعنية ذات كيانات سياسية واقتصادية هشة تجعلها عرضة، على الدوام، لتغلغل المصالح الأجنبية وهيمنتها عليها بطرق مباشرة أو غير مباشرة.

التعهدات المقدمة من البلدان العربية ومؤسسات التنمية المولة أساساً من هذه البلدان إلى افريقيا ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨ (بملايين الدولارات)

البلد أو المؤسسة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع الكلي
البلدان العربية الأعضاء بمنظمة البلدان المصدرة للنفط	٣٣٩,٩٣٨	٥٥٨,٣١٤	٦٠٤,٥٩١	٤١٢,٢١٢	٤٧٣,٣٤٨	٢٣٨,٨٥٠
الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي			٠,٠٥٠			٠,٠٥٠
المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا		٨١,٦٠٠	٦١,٩٠٠	٦٦,٢٤٠	٧٧,٨٧٠	٢٨٢,٦١٠
الصندوق العربي لتقديم القروض للدول الافريقية	٧٩,٨٥٠	٧٢,١٥٠	٥٦,٠٠٠	١٣,٢٤٤		٢٢١,٧٤٤
الصندوق العربي للمعونة الفنية للبلدان العربية والافريقية			٠,٤٥٧	٢,٥١١	٢,٩٢٤	٥,٩٠٢
البنك الاسلامي للتنمية			٧,٠٠٠	٢٥,٤٧١	٦٤,٥٤٨	٩٧,٠١٩
الصندوق الاسلامي للتضامن		٥,٩٥٠			٤,٥٠٠	٩,٦٥٠
الصندوق الخاص لمنظمة البلدان المصدرة للنفط			٧٧,٣٥٠	٦٨,٥٦٠	٧٤,١٠٠	٢٢٠,٠١٠
البنك العربي الافريقي	٢,١١٨	٦,٣٤٥	٩,٨٤٤	٤,٥٠٠	١,٠٠٠	٢٣,٨٠٧
البنك الدولي العربي			١,٥٠٠			١,٥٠٠
صندوق النقد الدولي (تسهيلات نفطية)	١٢١,٩٤٤	٢٦٧,٨٦٢	٨٣,٧٠١			٤٧٣,٥٠٧
المجموع الكلي	٥٤٣,٨٥٠	٩٩١,٤٢١	٩٠٢,٨٩٢	٥٩٢,٨٢٨	٦٩٨,٣٠٠	٣٧٢,٤٣٠٢

ومن المعلوم أن الأخطار التي تهدد بلاد العالم الثالث (والبلاد العربية والافريقية من بينها) في هذا الباب، لا تصدر فقط عن الدول المتقدمة والكبرى وأجهزتها المتخصصة في التجسس والتخريب، وإنما تأتي أيضاً من الشركات العالمية الضخمة وعملائها الدوليين والمحليين.

وبما أن مصالح تلك الدول والشركات، تصبح مهددة بأي نجاح كبير تصيبه الدول العربية والافريقية، متفرقة أو بالتعاون فيما بينها، فمن الطبيعي أن تكون الجهود المبذولة في هذا الصدد من قبل منظمة الوحدة الافريقية والجامعة العربية مثلاً، مستهدفة من قبل تلك الدول والشركات الكبرى. ذلك أن نجاح الدول العربية والافريقية ومثيلاتها في تعبئة شعوبها، واستغلال ثرواتها الطبيعية بما يحقق مصالح أهلها، يشكل تهديداً مباشراً لأنماط العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية القائمة، والتي تمكّن البلاد المتقدمة والشركات الكبرى من استغلال تلك الموارد

لمصلحتها، ومن الهيمنة على أجزاء كبيرة من العالم اقتصادياً وسياسياً، بل وثقافياً كذلك.

وقد شهد العالم ـ وما زال يشهد ـ أمثلة كثيرة للتدخل التخريبي لتلك الدول والشركات. لعل من أوضحها ما حدث بالأمس القريب من حروب وتخريب في كاتانجا، وبيافرا، وجنوب السودان.

وإذا كان التدخل الذي تم في مثل هذه الحالات الثلاث عسكرياً وسافراً، فإنه يحدث اليوم بوسائل خفية أكثر مكراً ودهاء، وبالتالي أشد فتكاً ومضاء، مستهدفة بصورة خاصة استراتيجيات التنمية والتعاون الاقليمي، التي تعتبر مشاريع التنمية والتعاون العربية الافريقية من أكثرها طموحاً وأجودها تصميماً.

وكما استخدمت الدول والشركات المعادية بالأمس أساليب الرشوة والفساد والاغتيال لاثارة الحزازات القبلية والنزاعات الاقليمية داخل عدد من البلاد كالكونغو والسودان ونيجيريا، فإن نفس تلك القوى ما زالت تسعى لتقويض جهود العالم الثالث الانمائية واستراتيجياته السياسية التعاونية، بإثارة النعرات العنصرية والعرقية، ومختلف ضروب الفرقة والتشتت بين الدول المعنية، بما في ذلك الدول والشعوب العربية والافريقية.

وكل ذلك، بالطبع، مما يستوجب المزيد من اليقظة والحذر وينبغي أن يشحذ همم البلاد المعنية، للابتعاد عن مهاوي الخلاف والفشل، والمضي قدماً في سبيل التعاون الرصين والعمل المحكم المتين[١٥].

(١٥) من الدراسات الجيدة التي انجزت بعد الفراغ من إعداد هذه المحاضرة، رسالة الماجستير التي كتبها السيد رحمة الله محمد عثمان بعنوان: Arab Aid to Africa, 1974-1977: Cooperation Between Underdeveloped Countries. وهي دراسة موثقة ناقدة أعدها بمعهد الدراسات الآسيوية والافريقية بجامعة الخرطوم عام ١٩٧٩ وعلها تنشر ـ بعد شيء من التعديل الطفيف في وقت قريب.

بدايات التوجه العثماني
نحو منطقة الخليج العربي

د. ابراهيم خليل أحمد

كلية التربية ـ جامعة الموصل.

١ ـ مقدمة

ثمة أحداث كثيرة وقعت منذ النصف الأول من القرن السادس عشر، ودارت في الخليج العربي أو حوله كان لها أثر كبير في جذب الدولة العثمانية إلى هذه المنطقة الحيوية من العالم، ومن هذه الأحداث الغزو الاستعماري، وخاصة البرتغالي وظهور الدولة الصفوية الفارسية. فبعد سيطرة العثمانيين على مصر واسقاط دولة المماليك فيها، أصبحت السويس قاعدة بحرية مهمة للتوسع في البحر الأحمر. كما أصبحت البصرة القاعدة العثمانية الثانية للتوسع في الخليج العربي. وقامت القطيف الواقعة على ساحل الخليج العربي بدور مماثل آنذاك في الصراع العثماني ـ البرتغالي.

إن مجهودات العثمانيين لم تنجح في الانفراد بالخليج العربي أو حمايته من الغزو الأوروبي وذلك لعوامل كثيرة. ولعل التنافس الأوروبي الاستعماري، وظهور الانكليز في المنطقة ودخولهم منذ العقد الأول من القرن السابع عشر، في صراع مستمر مع قوى أوروبية أخرى كالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين قد حال دون ذلك. إذ لم يأت القرن التاسع عشر حتى أحكمت بريطانيا قبضتها على الخليج العربي ولفترة دامت قرابة قرن ونصف تالين.

إن محاولتنا هذه تهدف إلى توضيح نقطتين مهمتين أولاهما رصد البدايات الأولى للتوجه العثماني في منطقة الخليج العربي وتبيان أسبابه وعوامله. وثانيهما متابعة نتائج هذا التوجه وآثاره على مستقبل الخليج العربي، ومعرفة ردود الفعل ازاء ذلك.

٢ ـ عوامل التوجه العثماني نحو الخليج العربي

كان العثمانيون طوال القرن الخامس عشر يتوسعون باتجاه أوروبا الوسطى والشرقية. وفي عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) حدث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية. إذ توقف زحفها على حساب الغرب الأوروبي أو كاد، واتجهت نحو الوطن العربي. ومهما تعددت الآراء واختلفت في تعليل هذه الظاهرة، فإن هناك سببين مهمين: أولهما الغزو الاستعماري الأوروبي (البرتغالي) للوطن العربي وثانيهما ظهور الدولة الصفوية[1]. ويتداخل مع هذين السببين، عامل مهم هو رغبتهم في الحصول على السيادة الفعلية على طرق التجارة المهمة أمثال طريق الحرير الذي كان يسير من تبريز إلى أرضروم وطوقات وبورصة. وطريق التوابل الذي كان يمتد من البصرة إلى بغداد وحلب[2].

أ ـ الغزو البرتغالي للخليج العربي

شهدت بداية العصور الحديثة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حركة مهمة للتوسع الأوروبي شملت مختلف أرجاء الكرة الأرضية. فقد فتح النشاط الاقتصادي في أواخر القرن الخامس عشر لأوروبا آفاقاً جديدة للتجارة والرخاء فاندفع الأوروبيون بحماس كبير يجوبون بحار العالم ومحيطاته بحثاً عن طريق جديدة توصلهم إلى الشرق. هذا بالإضافة إلى رغبتهم بالحصول على التوابل[3]، وكان البرتغاليون في مقدمة القوى الاستعمارية التي تحملت عبء حركة الاستكشافات الجغرافية، وقد تركزت نقاط الصدام بين البرتغاليين والعرب في منطقتين

(١) انظر: ابراهيم خليل احمد، **تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ ـ ١٩١٦**، (الموصل، ١٩٨٥)، ص ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢) انظر: صالح أوزبران، **الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ ـ ١٥٨١**، ترجمة عبد الجبار ناجي، (البصرة، ١٩٧٩)، ص ٢٧.

(٣) انظر: عبد الأمير محمد أمين «دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر» من بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد ١٥ ـ ٣٠ آذار ١٩٧٣.

مهمتين: الأولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وثانيهما المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الأحمر والخليج العربي[4].

لقد سبق البرتغاليون غيرهم من الأوروبيين في المجال الاستعماري، فبعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ تمكنوا من الوصول إلى الخليج العربي. ولم تأت سنة ١٥١٥ حتى بسط البرتغاليون نفوذهم على أغلب موانيء الخليج العربي وجزره وبنوا قلاعاً دفاعية حصينة في هرمز، ومسقط، وعمان، والقطيف، وصحار، والبحرين. وقد جاؤوا إلى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفناً كبيرة ذات أسلحة نارية فتاكة، لذلك لم يكن لسكان المنطقة قِبَلٌ بها فعجزوا عن مقاومتها في باديء الأمر. كما تميزت سياستهم بالقوة والعنف والتعصب الديني والعنصري[5].

لقد حول البرتغاليون طرق التجارة المارة عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر فالبحر العربي والعراق عن مجراها التقليدي. فحرموا منطقة الخليج العربي من مصدر أساسي من مصادر ثروتها وكانوا بالإضافة إلى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية جديدة، وكانت غاياتهم واضحة ومحددة أولها: الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم، وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين كانوا يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الأقصى إلى موانيء البحر الأحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها عبر مصر أو عبر العراق والشام إلى موانيء البحر المتوسط فأوروبا[6].

عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الأحمر كان الوطن العربي يمر في دور انحلال وتمزق سياسي وعسكري، في حين كانت الدولة العثمانية قد وصلت الذروة في قوتها السياسية والعسكرية، لذلك ظهرت بعض المحاولات العربية لتوحيد الجهود معها في مقارعة البرتغاليين. وقد اكتسبت هذه المحاولات أهميتها حينما أدرك العرب الطابع الصليبي للغزو البرتغالي وإصرار البرتغاليين على حرمان العرب من تجارتهم واغلاق البحر الأحمر والخليج العربي في وجه الملاحة العربية وكذلك رغبتهم في التقدم والاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين[7].

وبالرغم من أن خطط البرتغاليين تلك كانت فوق طاقتهم وقدراتهم في المنطقة إلا أن مغزاها يتجلى في أنها (تظهر لنا أن قادة البرتغال، على ما يبدو، لم ينسوا ما كان يسمى بالمثل الصليبية العليا)[8]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من أن رد الفعل على غزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل سيشمل قوى اسلامية أخرى كالمماليك في مصر والعثمانيين وهذا ما أظهره الملك البرتغالي عمانوئيل الأول الذي صرح «بأن العدو الذي يخشى ليس هو العرب الذين لا يوجد لديهم سوى مراكب تجارية يقاومون بها السفن الغربية البرتغالية المحكمة التسليح، وإنما هو سلطان مصر إذ لديه قوات قوية في البحر، وكذلك الأتراك العثمانيون الذين يحتمل أن يجيئوا لمساعدة أبناء دينهم... في الخليج العربي»[9].

وإزاء هذه الشكوك، أجرى البرتغاليون اتصالات مع القوى المعادية للعرب والمماليك والعثمانيين من أجل اقامة جبهة متحدة ضدهم. وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للتقارب البرتغالي الفارسي في سنة ١٥١٤ ـ ١٥١٥، والتقارب البرتغالي ـ الحبشي بعد سنة ١٥١٣ وهكذا حشد البرتغاليون في الربع الأول من القرن السادس عشر امكانات قوى عديدة لمناهضة التوسع العثماني في البحر الأحمر والخليج العربي واشتملت تلك القوى على فارس والحبشة وجنوب الهند[10].

غير أن المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع آنذاك، خاصة بعد فشل المماليك في محاولتهم حماية حدودهم الجنوبية، وإبعاد الخطر البرتغالي أثناء السنوات المتدة بين ١٥٠٦ و١٥٠٩ من جهة، واندحار الصفويين الفرس أمام

(٤) انظر: أحمد، المصدر السابق، ص ٢٦.

(٥) انظر: محمد بن خليفة بن محمد، **التحفة النبهانية لتاريخ الجزيرة العربية**، (القاهرة، ١٩٢٣)، ص ٢٤٢ ولمتابعة الغزو البرتغالي للخليج العربي انظر: محمود علي الداود «**العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ ـ ١٦٥٠**»، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد (٢) شباط ١٩٦١، ص ٢٣٩.

(٦) انظر: عبد الوهاب القيسي «موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية» مجلة الخليج العربي، البصرة، المجلد (١٢)، ١٩٨٠، ٤٦.

(٧) انظر ا، نيوتن، التوسع الاستعماري ونمو القوة البحرية، نشره جون. أ. هامرتن في: تاريخ العالم، المجلة (٦)، (القاهرة، لا. ت) ص ٢٩٠ وكذلك أحمد بوشرب «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر» مجلة الوثيقة، السنة ٢، العدد ٤، البحرين، (كانون الثاني ١٩٨٤) ص ١٢٠.

(٨) نيوتن، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(١٠) انظر: طارق نافع الحمداني «النزاع العثماني ـ البرتغالي: رؤية جديدة» في مجلة الخليج العربي (البصرة، ١٩٨٥)، ص ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

العثمانيين في معركة جالدران سنة ١٥١٤ من جهة أخرى[١١].

ب ـ ظهور الدولة الصفوية

نشأت الدولة الصفوية في بلاد فارس كحركة دينية. ثم تطورت إلى حركة سياسية في عهد الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤) الذي اتجه، بعد أن فرض هيمنته على ايران إلى التوسع باتجاه العراق باعتباره يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي. هذا فضلاً عن أهميته الاستراتيجية والاقتصادية، ووجود العتبات المقدسة فيه. وقد احتل الشاه اسماعيل العراق سنة ١٥٠٨ وبهذا أصبحت الدولة الصفوية متاخمة للحدود العثمانية، وظهرت عندئذ بوادر الاحتكاك. وكان لادعاء كل طرف بأحقيته في تزعم المسلمين والتستر وراء المذهبية التعصبية لتحقيق الأهداف التوسعية أثر كبير في الصراع بينهما، الأمر الذي أتاح المجال للمستعمرين البرتغاليين كي يركّزوا أقدامهم في الخليج العربي، ويسيطروا على سواحله ويتحكموا في منافذه[١٢].

إن معركة جالدران التي وقعت بين الطرفين سنة ١٥١٤ لم تحسم الصراع. إذ لم تؤد إلى انهيار احدى الدولتين بل اتضح لهما أن سقوط إحداهما سقوطاً مباشراً أمر متعذر لذا لا بد من اللجوء إلى وسيلة جديدة، ألا وهي محاولة إحدى القوتين الكبيرتين قلب ميزان القوى لصالحها، بنقل الصراع إلى خارج ايران أو الأناضول، وأن يجد هذا الصراع لنفسه مجالاً في المناطق الواقعة بينهما ولم تكن تلك المناطق سوى الأقطار العربية[١٣].

٣ ـ السيطرة العثمانية على مصر وأثرها في التوجه نحو الخليج العربي

كان المماليك هم الذين يحكمون الجزء الغربي من المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن، وذلك منذ أن انتزعوا السلطة من الأيوبيين في منتصف القرن الثالث عشر.. وبعد تغيير طرق التجارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة أوروبا مع الشرق إلى هذا الطريق الجديد بدلاً من مرورها بمصر، عانت الدولة المملوكية تدهوراً في أوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كان له أثر كبير في فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي[١٤].

وبالنسبة لعلاقات العثمانيين بالمماليك فقد مرت بمرحلتين مختلفتين: ففي المرحلة الأولى التي امتدت حتى أواخر القرن الخامس عشر، كانت العلاقة تتسم بالمجاملة حتى أن المماليك، حين تفاقم الخطر البرتغالي طلبوا المساعدة العسكرية من العثمانيين خاصة بعد أن حطم البرتغاليون أسطولهم سنة ١٥٠٩ قرب ميناء ديو[١٥]. فقد أرسل العثمانيون في كانون الثاني ١٥١١ مواد لبناء السفن، مع عدد من المختصين والفنيين إلى ميناء السويس. وعندما كمل بناء الأسطول عيّن السلطان المملوكي قانصوه الغوري سليمان ريس وهو قائد بحري عثماني رئيساً له فأبحر هذا من السويس سنة ١٥١٥ مستهدفاً الدفاع عن البحر الأحمر، وطرد البرتغاليين منه وإبعاد خطرهم عن مكة المكرمة[١٦].

وسرعان ما أدركت الدولة العثمانية، باعتبارها قوة اسلامية، أن مسؤولياتها تقتضي التعاون مع المماليك في مصر وتدعيم أسطولهم وتمكينهم من مواصلة الصراع ضد البرتغاليين. إلا أنهم عندما شعروا بأن المماليك باتوا غير قادرين على القيام بمهامهم كما ينبغي، قرروا التدخل في الأمر والعمل على اخضاع الوطن العربي. وأصبحوا يعتقدون أن وضع بغداد ودمشق والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم امكانات اقتصادية واستراتيجية ومعنوية كبيرة. ويبدو أن انتصارهم على الفرس في معركة جالدران قد أعطاهم ثقة عالية بأنفسهم، فاتجهوا للتوسع على حساب دولة المماليك وخاضوا معركتين مع الجيش المملوكي: الأولى في مرج دابق في الأراضي السورية في ٢٤ آب ١٥١٦. والثانية في الريدانية على الأراضي المصرية في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧، وكان من نتيجة المعركتين سقوط الدولة المملوكية ودخول اليمن والحجاز تحت سيطرتهم[١٧]. ومنذ ذلك الوقت بات السلاطين العثمانيون يضيفون إلى أنفسهم ألقاباً جديدة تدل على أنهم حُماة للحرمين الشريفين، ويريدون بذلك التأكيد على زعامتهم للعالم الاسلامي واضفاء الطابع الديني على توجهاتهم التوسعية[١٨].

---

(١١) انظر: احمد، المصدر السابق، ص ٣٤.
(١٢) انظر احمد، المصدر السابق، ص ص (٢ ـ ٣).
(١٣) انظر: Arnold Toynbee, A study of History, vol 1, (oxford, 1945), pp. 385-6.
(١٤) للتفاصيل انظر: محمد عبد المنعم السيد الراقد، **الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**، (القاهرة، ١٩٧٢).
(١٥) انظر: ابو البركات محمد بن احمد الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، ج ٤ (القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢١١).
(١٦) الحمداني، المصدر السابق، ص ١٨٨.
(١٧) انظر: احمد، المصدر السابق، ص ص ٣٤ ـ ٤١.
(١٨) الحمداني، المصدر السابق، ص ١٨٩.

٤ ـ السيطرة العثمانية على العراق والتوجه نحو الخليج العربي

بعد معركة جالدران ١٥١٤ احتل العثمانيون الموصل. وقد استخدمت الموصل كنقطة انطلاق للتوسع العثماني والتوغل في جنوب العراق. وفي عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦. انتزع العثمانيون بغداد من الفرس سنة ١٥٣٤ ووافق السلطان على الاعتراف بالشيخ راشد بن مغامس أمير البصرة العربي والياً عليها. ثم أرسلت في سنة ١٥٤٦ حملة عسكرية بقيادة اياس باشا صوب البصرة لتضعها تحت النفوذ العثماني المباشر. وسرعان ما اتجهت جهود العثمانيين نحو المناطق المحيطة بالبصرة، مثل الأحواز والقطيف والاحساء، فكان وصول العثمانيين إلى هذه المناطق يمثل بداية لصراع عنيف مع البرتغاليين في الخليج العربي[١٩].

كما بسط السلطان سليمان القانوني نفوذه على البحرين سنة ١٥٣٥. واستقبل وفوداً من القطيف تحمل معها رسائل الترحيب بالعثمانيين والرغبة في التعاون معاً للتصدي للبرتغاليين؛ وأرسل حاكم هرمز شرف الدين رسالة إلى السلطان يعرض فيها طلباً لإرسال مساعدة للتخلص من البرتغاليين في هرمز فاستجاب السلطان لذلك[٢٠].

وهكذا بدأت منطقة الخليج العربي تشهد تغييراً في موازين القوى وذلك بعد أن شهدت السنوات التالية لسيطرة العثمانيين على العراق واتخاذهم البصرة قاعدة بحرية، اهتماماً متزايداً في الخليج العربي. كما شهدت تواجداً أوضح للقوات العثمانية جعل لها دوراً بارزاً ومباشراً في الصراع الدائر في الخليج العربي مما كان له أثره على الأحداث القادمة[٢١].

والغريب أنه منذ استيلاء العثمانيين على العراق، ودخول الدولة العثمانية طرفاً مباشراً في الصراع في الخليج العربي، فإننا نلاحظ ندرة المعلومات عن تفاصيل الصراع والدور الذي كانت تقوم به الدولة العثمانية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الخليج العربي الحديث حتى أن مؤرخين معاصرين أمثال جلال زاده مصطفى وبيجو علي ابراهيم وجلبي لولو مصطفى علي لم يتطرقوا إلى تفاصيل الحوادث. ولم يكتب عن ذلك إلا صفوت بك الذي نشر بحثاً مقتضباً عنها[٢٢]. ومهما يكن من أمر، فإن القوات العثمانية بعد احكام سيطرتها المباشرة على البصرة سنة ١٥٤٦ اقتربت من الخليج العربي[٢٣]. ومن البرتغاليين الذين كانوا يتخذون من هرمز قاعدة لهم. وقد حاولت القوات العثمانية الهجوم على هرمز إلا أنها لم تتمكن، واستولت على جزيرة قيس، إلا ان البرتغاليين سرعان ما أخرجوهم منها[٢٤].

وقد وجه البرتغاليون حملة بحرية كبيرة من الهند إلى الخليج العربي لمهاجمة القطيف التي احتلها العثمانيون، ثم التوجه إلى البصرة، ولكن دون تحقيق أي نجاح يذكر. وقد وصلنا عن عملية القطيف التي تمت سنة ١٥٤٥ تقرير حرّره برنالدين دو سوزا Bernaldin de sousa أحد قواد الأسطول البرتغالي في الهند الذي جاء إلى هرمز لحمايتها من هجوم عثماني كان متوقعاً، وبما أن ذلك لم يتم، فإن قبطان هرمز أخبره كيف أن حاكم الاحساء استولى على القطيف سنة ١٥٣٩، الأمر الذي جعل ملك هرمز يطلب من البرتغاليين إرجاعها إليه. إلا أن قلة امكانات البرتغاليين البحرية آنذاك في الخليج العربي لم تكن كافية. وبما أن ملك هرمز قد تعهد بتحمل مصاريف الحملة، فإن البرتغاليين قبلوا بتجهيز حملة ضمت (٢٠٠) برتغالي، وحوالى (٧٠٠٠) من جنود ملك هرمز. وقد تم الهجوم على القطيف التي كان بها (٣٠٠٠) مقاتل، رغم كثافة القصف، فإن المدفعية لم تستطع إلا اسقاط قسم صغير جداً من السور استغله الغزاة لاقتحام المدينة والقضاء على مقاومة سكانها الباسلة[٢٥].

لقد سار العثمانيون على نفس السياسة الحزبية التي سار عليها المماليك، وهي إرسال الحملات البحرية العديدة إلى الخليج العربي والبحر الأحمر بقصد القضاء على الوجود البرتغالي في هذه المنطقة[٢٦]. وكانت الحملات العثمانية الأولى تنطلق جميعها من السويس. ولكن بعد احتلال البصرة، أخذت الحملات البحرية تخرج منها. لذلك أصبح العثمانيون وجهاً لوجه مع البرتغاليين وظهر أن العثمانيين أرادوا في البداية أن ينسّقوا بين مينائي السويس والبصرة، وذلك لقرب البصرة من مواقع البرتغاليين ومراكزهم في الخليج العربي من جهة، وامكانية

(١٩) للتفاصيل انظر: حسين محمد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني ١٥٣٤ ـ ١٦٣٨، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد سنة ١٩٧٥ وكذلك أحمد، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢٠) انظر: أوزبران، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٢١) انظر: مجلة الوثيقة سنة (١)، العدد (١)، يوليو/ تموز ١٩٨٢، ص ١٤٠.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٢٣) انظر: علاء نورس، **الطرق في العهد العثماني** (بغداد، ١٩٧٩)، ص ٢٤.

(٢٤) مجلة الوثيقة، السنة (١)، العدد (١)، يوليو/ تموز ١٩٨٢، ص ١٤١.

(٢٥) انظر: بو شرب، المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢٦) انظر: ميرلاي اسماعيل سرهنك، **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ج ٢ (القاهرة، ١٣١٤)، ص ٣٧ ـ ٣٩.

اتخاذها ملجأً للسفن العثمانية المنطلقة من السويس نحو الخليج العربي من جهة أخرى، إلا أنهم لم يوفقوا كثيراً وذلك لأنهم لم يكونوا آنذاك يمتلكون امكانات بحرية كافية(٢٧).

ومهما يكن من أمر فإن الخليج العربي شهد سلسلة من الحملات البحرية أولها الحملة التي قادها سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨ والتي ضمت (٢٠) ألف شخص مع (٧٤) سفينة بحرية مجهزة بالمدافع. وكان من أهداف هذه الحملة أن يحتل العثمانيون اليمن، ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن، ثم إغلاق مضيق باب المندب في وجوههم. وقد استولى سليمان باشا على بعض الموانىء العربية في حضرموت، واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس. ولقد استفاد العثمانيون من هذه الحملة في منع الحبشة من التدخل ضدهم، والتعاون مع العثمانيين آنذاك، وكذلك في التفرغ لإرسال حملات بحرية إلى الخليج العربي(٢٨).

وفي سنة ١٥٥٢ جرّد العثمانيون حملة منظمة بقيادة (بيري ريس) وقد تألفت الحملة من (٣٠) سفينة. وكان من أهداف الحملة الاستيلاء على (مسقط) والبحرين وهرمز وذلك لتهدئة أوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين ولكسر الطوق الذي فرضه البرتغاليون على التجارة في الخليج العربي(٢٩).

حاصر بيري ريس هرمز مدة شهر كامل، إلا أن تحصيناتها القوية التي أنشأها البرتغاليون خلال وجودهم منذ أربعين سنة، حالت دون سقوطها، فاضطر إلى التراجع نحو البصرة بعد أن تفرقت سفنه بسبب الضباب الكثيف، وتحطم بعضها بقرب صحار في عمان، بينما توجه هو بثلاث سفن إلى قلعة مسقط وأسر من فيها. وكان من بين الأسرى احدى القباطنة البرتغاليين ثم أغار على جزيرة هرمز وجزيرة برخت ووصل إلى البصرة حين جاءته الأخبار بأن البرتغاليين جمعوا سفنهم وأنهم يتجهون إليه في البصرة، فخرج متسللاً بما لديه من سفن قبل أن يصل البرتغاليون. وفي الطريق تحطمت واحدة من السفن الثلاث بالقرب من البحرين، وتوجه بالسفينتين الباقيتين إلى مصر. وقد أعدم بيري ريس في استانبول بعد أن وُجهت إليه تهمة الفشل في تحقيق أهداف العثمانيين في الخليج العربي وتشويه سمعة البحرية العثمانية(٣٠).

ثم واصل العثمانيون جهودهم ضد البرتغاليين في الخليج العربي، حين عين السلطان سليمان القانوني قائداً جديداً للأسطول هو سيدي علي ريس الذي كان يُعد من أبرز القادة البحريين العثمانيين آنذاك. وقد وصل سيدي علي ريس إلى البصرة سنة ١٥٥٣ وتسلم من الوالي العثماني هناك (١٥) سفينة وأقلع سنة ١٥٥٤ متوجهاً نحو مسقط التي ركز البرتغاليون دفاعها عنهم. ولم ينجح في الاستيلاء عليها. وتوجه بعد ذلك إلى القطيف وهناك سأل عن «العدو البرتغالي» فقيل له بأن البرتغاليين ليسوا في البحر. ثم اجتاز البحر إلى البحرين حيث أخبره حاكمها العربي مراد بأن البرتغاليين ليسوا في البحر كذلك(٣١).

كان مراد حاكم البحرين على علاقة وثيقة بالدولة العثمانية منذ زمن ليس بالقصير ويُستشف من المصادر العثمانية التي تتعرض لبدايات التوجه العثماني نحو الخليج العربي أن مراد هذا كان يحكم الجزيرة بموجب أمر سلطاني «براءتي همايون» ومعنى ذلك أنه كان يتمتع بحماية الدولة العثمانية(٣٢). لذلك، حظي عندما قام بكر بك الاحساء مصطفى باشا في سنة ١٥٥٩ ببعض الهجمات على البحرين، بدعم السلطان سليمان القانوني الذي أصدر تعليماته إلى ولاته، بأنه لا يحق لأي وال أو مسؤول كبير من العثمانيين، دون أخذ أمر من السلطان، أن يقض، بأي شكل من الأشكال مضجع الدول أو الأشخاص الذين يدخلون تحت حماية الدولة العثمانية(٣٣). وقام بعزل مصطفى باشا وكتب السلطان سليمان القانوني رسالة إلى حاكم البحرين أكّد له فيها استمرار العلاقة الودية بين البحرين والدولة العثمانية «وأنه من الممكن لحاكم البحرين التعايش الطيب مع الحكام العثمانيين في المنطقة وأن العثمانيين سيكونون يقظين لأي اعتداء برتغالي على سواحل البحرين، وأن الديوان السلطاني سيقدم كل مساعدة ممكنة(٣٤).

توجه سيدي علي ريس في سنة ١٥٥٤ إلى هرمز، وهناك اصطدم بأسطول برتغالي قوي يتألف من أربع وثلاثين سفينة وبسبب اطلاقات مدافع البرتغاليين والرياح المعاكسة القوية اندفع الأسطول العثماني دون خطة واضحة باتجاه السواحل

---

(٢٧) الحمداني، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢٨) للتفاصيل، انظر: فاروق عثمان اباظة، **عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨**، (القاهرة، ١٩٧٦)، ص ص ٥١ ـ ٥٤.

(٢٩) انظر: أحمد، المصدر السابق، ص ٤٤، وكذلك الحمداني، المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣٠) انظر: مجلة الوثيقة، السنة (١)، العدد (١)، يوليو/ تموز ١٩٨٢، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(٣٢) Ahmet Asrar, **Osmanlilarin Dini Siyaset Velslam Alemi,** (Istanbul, 1972), pp. 249-250.

(٣٣) انظر نص الرسالة في مجلة الوثيقة، البحرين، السنة (١)، العدد (١)، يوليو/ تموز ـ ١٩٨٢، ص ١٤٩.

(٣٤) Asrar, op. cit., p. 250.

الهندية. وفي ميناء سورات تفرق أعوان سيدي علي وتركوا ما لديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين إلى البصرة فاضطر سيدي علي ريس إلى العودة إلى استنبول[٣٥].

وبعد حملة سيدي علي ريس أرسلت إلى الخليج العربي بضع حملات عثمانية، إلا أنها لم تنجز أكثر من احتلال مؤقت لمسقط سنة ١٥٨١، وقد أجبرها الأسطول البرتغالي على الانسحاب[٣٦].

إن الحملات العثمانية المتوالية، بالرغم من عدم تكللها بالنجاح التام، ساهمت، بشكل أو بآخر، في اضعاف شوكة البرتغاليين في الخليج العربي. إذ لم يعد الطوق الذي فرضوه محكماً. على أنه لم يتحقق التخلص من النفوذ البرتغالي نهائياً على يد عرب الخليج أنفسهم. فمع أن خضوع البرتغاليين للعرش الاسباني بين سنتي ١٥٨٠ ـ ١٦٤٠ ووصول الانكليز والهولنديين إلى الخليج قد ساعد على اضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم إلا أن نمو قوة عرب عمان كان العامل الحاسم في طرد البرتغاليين[٣٧].

لقد ظهرت دولة اليعاربة في عمان سنة ١٦٢٤ وتولت مسؤولية الصراع ضد البرتغاليين ونجحت في عهد حكامها الأوائل وخاصة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ ـ ١٦٤٩) وسلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٦٨) وسيف بن سلطان (١٦٩٢ ـ ١٧١١) بالقيام بحركة تحررية. وتكشف الرسائل المتبادلة بين الغزاة البرتغاليين وائمة عمان عن أن العمانيين كانوا على إدراك تام لطبيعة الغزو البرتغالي وأنهم كانوا مصممين على المقاومة «فإن قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة. ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون...»[٣٨].

لقد اتسعت مقاومة عرب عمان للغزاة البرتغاليين. فتحررت صحارى ومسقط. وامتدت المقاومة إلى قواعد البرتغاليين وتلاعبهم في الهند وفي سواحل شرق افريقيا. وكان ميناء كنجان الصغير على الشاطىء الشرقي للخليج العربي آخر معقل للبرتغاليين دمّره العمانيون سنة ١٦٩٥[٣٩].

٥ ـ خاتمة

إن أسباب عدم نجاح العثمانيين نجاحاً تاماً في التصدي للبرتغاليين يمكن أن يعزى إلى عدم قدرتهم على التنسيق بين قاعدتهم الأولى في السويس وقاعدتهم الثانية في البصرة من جهة، وضعف امكاناتهم البحرية، وقيامهم بأعمال تعسفية إزاء السكان العرب من جهة أخرى.

كما أن الأسطول العثماني في القرن السادس عشر، كان مؤلفاً من سفن صغيرة غير قادرة على التأثير الفعّال ضد السفن البرتغالية المحيطية الكبيرة. يضاف إلى ذلك الصعوبة التي واجهوها عند تجهيز وإدامة أسطول تكفي قوته لمواجهة الأساطيل الأوروبية في البحر المتوسط والمحيط الهندي في الوقت نفسه، وذلك لانشغال الدولة العثمانية في هذه الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الفرس الصفويين[٤٠]. ولكن مع هذا فقد كان للتوجه العثماني نحو الخليج العربي أثر لا ينكر في الحد من الأطماع الفارسية في الخليج العربي والحيلولة دون نجاح التحالفات الفارسية ـ البرتغالية التي استهدفت المنطقة فترة من الزمن من جهة[٤١]. وضمان استمرار عملية تبادل السلع والبضائع التجارية عبر الخليج العربي طيلة القرن السادس عشر من جهة أخرى[٤٢].

---

(٣٥) انظر: سيدي علي ريس، **مرآة الممالك**، الطبعة التركية، استانبول ١٣١٣، ص ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣٦) انظر: أحمد، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣٧) انظر نص رسالة بعثها البرتغاليون إلى امام عمان سيف بن سلطان اليعربي وجواب الامام عليها في أوزبران، المصدر السابق، ص ص ١٤ ـ ١٥.

(٣٨) انظر: أحمد، المصدر السابق، ص ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٣٩) المصدر السابق.

(٤٠) القيسي، المصدر السابق، ص ٥١.

(٤١) كان من نتيجة اتصالات البرتغاليين ـ الفارسية ان تم التوصل إلى اتفاقية محددة بينهما. انظر: الحمداني، المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٤٢) اوزبران، والمصدر السابق، ص ص ٥٩ ـ ٦٠.

الدبلوماسية الأردنية في قرار حرب ١٩٦٧
نموذج عملي تطبيقي
في مدخلات ومخرجات القرار

د. سعد أبو ديّة

جامعة اليرموك ـ الأردن

مقدمة

كان الوضع على الحدود ساخناً... فقد بدأت اسرائيل استفزازها العرب، وبخاصة سوريا، باستغلال الأراضي في المناطق المنزوعة للسلاح... وتزايدت غارات الفدائيين وتلتها الغارات الانتقامية الاسرائيلية في الأراضي الأردنية والسورية على السواء... وكل ذلك مهد لحرب ١٩٦٧.

لقد حفزت غارات اسرائيل الانتقامية على المدن الأردنية كما حصل في العدوان على السموع في ١٣/١١/١٩٦٦ وعلى سوريا كما حصل في ٧/٤/١٩٦٧... وما تبع ذلك من أحداث مثل حشود اسرائيلية على حدود سوريا، حفزت مصر لاتخاذ اجراءات رادعة لسياسة اسرائيل، كاغلاق مضايق تيران أمام الملاحة الاسرائيلية وسحب قوات الطوارىء الدولية واعلان حالة الطوارىء وانضمام الأردن إلى مصر في معاهدة دفاع مشترك في ٣٠ أيار ثم انضمام العراق في ٤/٦/١٩٦٧.

وفي الخامس من حزيران هاجمت اسرائيل مصر فالأردن فسوريا ودمّرت معظم المطارات والطائرات واستغلت تفوقها الجوي وهاجمت الدول العربية الثلاث واحتلت اراضي منها: سيناء والضفة الغربية والجولان قبل وقف اطلاق النار بناء على قرار مجلس الأمن.

وستتناول هذه الدراسة قرارات أيار وحزيران وقرار تأييد مصر واغلاق خليج العقبة، وقرار الانضمام إلى اتفاقية الدفاع المشترك، وقرار الدخول في حرب ١٩٦٧. وسيكون التركيز على قرار الانضمام لاتفاقية الدفاع المشترك؛ وهذه القرارات كلها قرارات استراتيجية.

وقبل أن نخوض في الدراسة، نعرّف ما هو القرار الاستراتيجي وقبل أن نعرف القرار الاستراتيجي نقول إن هناك ثلاثة أنواع من القرارات:

١ ـ القرار الاستراتيجي.
٢ ـ القرار التكتيكي.
٣ ـ القرار التطبيقي.

القرار الاستراتيجي: يعتبر أهم أنواع القرارات الثلاثة ويتخذه أعلى صانع قرار وهو جلالة الملك الحسين. ويمتاز هذا النوع من القرارات بأنه يؤثر على ثلاثة متغيرات من متغيرات البيئة العملية «وسنتحدث بعد قليل عن البيئة العملية» ثم أن هذا النوع من القرارات يمتاز بطول استمرارية ما قد يتخذه القرار من وقت قد يمتد إلى سنتين.

القرار التكتيكي: وهو أقل أهمية من أنواع القرارات السابقة وقد يسبق القرار الاستراتيجي وقد يليه، ويؤثر هذا القرار على عنصرين من عناصر البيئة العملية.

القرار التطبيقي: وهو أقل أهمية من القرارات السابقة وهو يؤثر على عنصر واحد من عناصر البيئة العملية، وهو أقل أهمية من القرارين السابقين كما قلنا وهذا القرار تطبيقي كما يعني اسمه ويضعه وزير الخارجية لتطبيق القرار الاستراتيجي والتكتيكي بالطريقة المناسبة.

أما تعريف القرار نفسه فهو:

«اختيار بديل من عدة بدائل متاحة بحيث ينتج عنه تصرف معيّن في مجال السياسة الخارجية». والقرار السياسي يوضع من قبل فرد أو عدة أفراد، خوّل لهم القانون ممارسة الصلاحيات والسلطات في الأمور الاستراتيجية كما قلنا إلى ثلاثة أقسام ذكرناها... وأساس التقسيم هو: (١) أهميتها؛ (٢) تأثيرها على متغيرات البيئة العملية...

ما هي البيئة العملية؟

إن صانع أي قرار سياسي دولي في السياسة الخارجية لا يتحرك في فراغ ولا يصوغ قراراته دون اعتبار لمتغيرات عديدة ليست نابعة من ظروف بلده فحسب، بل انها استجابة لظروف خارجية فيها ضغوط عليه ولا يجد مناصاً من الاستجابة لها واخذها بالاعتبار. وهذه الظروف الخارجية والتي تسمى بالبيئة العملية الخارجية (تمييزاً لها عن البيئة العملية الداخلية التي تمثل الظروف الداخلية)... وتقسم البيئة الخارجية إلى قسمين:

١ ـ النظام الدولي، ٢ ـ النظام الاقليمي.

١ ـ النظام الدولي

باختصار هو التفاعل بين القوى العملاقة اقطاب النظام الدولي وهي: الولايات المتحدة ومن يسير في فلكها من الكتلة الغربية، والاتحاد السوفييتي ومن يسير في فلكه من الدول الشرقية.

إذن، النظام الدولي هو مجموعة وحدات سياسية مترابطة نمطياً من خلال عملية تفاعل[١] وسلوك كل وحدة سياسية محكوم جزئياً بسلوك الوحدات الأخرى... مثلاً، سلوك الولايات المتحدة وحلفائها وهما (وحدة أو قطب) يتأثر بسلوك الاتحاد السوفييتي وحلفائه، وهما (قطب آخر). مثلاً، تزايد حجم قطع الأسطول السوفييتي في البحر المتوسط يترتب عليه تزايد حجم قطع الأسطول الأميركي؛ والسلوك الأميركي في مفاوضات نزع السلاح في وسط أوروبا يترتب عليه سلوك آخر سوفياتي، وهكذا حتى في الشرق الأوسط... يتأثر سلوك كل وحدة سياسية أو كل قطب من أقطاب النظام الدولي بسلوك الوحدة الأخرى أو القطب الآخر. هذا النظام الدولي الذي عرّفناه باختصار، بأنه تفاعل نمطي بين وحدات سياسية هي أقطاب النظام الدولي الحالي، وهي: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي (قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كان أقطاب النظام الدولي: المانيا ودول المحور والحلفاء؛ وقبل ذلك بوقت كانت الدولة العثمانية ودول أوروبا).

وهذا النظام الدولي يؤثر كل التأثير في أي تصرف سياسي لدولة مثل الأردن أو غيرها من الدول. ويختلف التأثير من مرحلة إلى مرحلة، ذلك أن النظام الدولي الحالي مرّ بمراحل اختلفت في قوة تفاعلاتها وهي أربع مراحل:

١ ـ **المرحلة الأولى من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٨**، وكان التفوق فيها للولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتي حيث شهدت هذه المرحلة احتكاراً نووياً أمريكياً.

٢ ـ **المرحلة الثانية من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٥** شهدت هذه المرحلة نهاية الاحتكار الأميركي النووي وأصبح لدى الاتحاد السوفييتي سلاح ذري. واشتد التنافس بين العملاقين: الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وسميت هذه المرحلة بالمرحلة «الثنائية الجامدة»، يعني أن العلاقات بين القطبين كانت تنافسية وتمثل ما عرف بالحرب الباردة. والدول صغيرة كانت أمام خيار أبيض أو أسود: اما مع القطب الأميركي، واما مع القطب السوفييتي، ولا خيار ثالث فإما أبيض وإما أسود.

الدول العربية كانت في هذه المرحلة على علاقة ثنائية بفرنسا أو بريطانيا ذلك لأن فرنسا كانت ما زالت تستعمر بعض البلاد العربية، وكانت بريطانيا قوية التأثير وتستعمر بعض البلاد العربية، خاصة في الخليج العربي. أما الأردن فإن بريطانيا كانت قوية التأثير في حياته الداخلية ذلك أن الأردن لم يكن بعد قد عرّب الجيش.

٣ ـ **المرحلة الثالثة من ١٩٥٥ حتى ١٩٦٢**، في هذه المرحلة كان النظام الدولي أقل إحكاماً في تفاعلاته بمعنى أن حركة عدم الانحياز خلقت مجالاً للدول التي لا ترغب في أن تكون مع الأسود أو مع الأبيض، أن تكون مع اللون الرمادي وهو عدم الانحياز.

في هذه المرحلة، التي سميت بالنظام المرن الثنائي القطبية، وجدت الدول الصغيرة مجالاً للتحرك أكثر من السابق؛ وفي هذه الفترة ظهرت الصين كقوة، والسوق الأوروبية المشتركة، واستقلت معظم دول افريقيا حتى سمي عام ١٩٦٠ بعام افريقيا وأثّر ذلك على نظام التصويت في الأمم المتحدة إذ أصبح الإجماع حاصلاً بالنسبة لقضايا التفرقة العنصرية ومكافحة الاستعمار والتنمية.

٤ ـ **المرحلة الرابعة ١٩٦٢ ـ حتى الآن**. في هذه المرحلة اتجه النظام الدولي نحو تعدد الأقطاب، بمعنى أن التعايش السلمي بدأ يأخذ مكانة ولقد بدأت هذه المرحلة بحذر من الجانبين بسبب ما تميزت به هذه المرحلة، بما أطلق عليه اسم عصر الدمار الشامل الذي تميز بظهور أسلحة مدمّرة قيل إنها تدمر سطح الكرة الأرضية ست مرات.. واستمر الصراع (العقائدي)، لكن الحذر بقي علامة مميزة في أمور كثيرة. وشهدت هذه المرحلة جهوداً في تخفيف حدة التوتر وأسباب الصدام حيث تمت اقامة خط ساخن بين موسكو وواشنطن؛ لكن تدفق الأسلحة استمر من موسكو وواشنطن إلى حلفائهما.

٢ ـ النظام الاقليمي

تحدثنا عن النظام الدولي كعنصر أو متغير من متغيرات البيئة

(١) اعتمد الباحث في التعريف على آراء اليست.

العملية الخارجية تمييزاً له عن البيئة العملية الداخلية. أما المتغير الثاني فهو النظام الإقليمي.

النظام الإقليمي يختلف عن نظام التفاعلات الدولية وهو يمثل نظام تفاعلات دولية أيضاً، ولكن على مستوى اقليمي جغرافي... وهو يختلف عن النظام الدولي من حيث أنه يتعلق بمنطقة جغرافية معينة ويشمل ثلاثة فاعلين على الأقل، وان وحداته تدخل في شبكة معقدة من التفاعلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وبتبسيط شديد نقول: إن النظام الاقليمي في حالة دراستنا هذه هو تفاعل العلاقات العربية في المنطقة العربية وتأثيرها على صناعة القرار السياسي في أي بلد عربي[٢]...

ولقد نشأ النظام الاقليمي العربي نتيجة تفاعل العديد من العوامل، فالشعوب العربية عاشت بصفة دائمة تتكلم نفس اللغة وارتبطت بعدة عناصر مميزة... ولقد اعتبرت فترة قيام الجامعة العربية بداية لنشأة النظام الإقليمي العربي، والجامعة هي رمز النظام الاقليمي العربي.

وكما قلنا إن النظام الدولي مرّ بمراحل، فإن النظام الاقليمي العربي مر أيضاً بمراحل[٣]...

١ ـ **المرحلة الأولى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢** وكان عدد الدول العربية سبع دول.

٢ ـ **المرحلة الثانية ١٩٥٢ ـ ١٩٥٥** شهدت استمرار الاحتكار الفرنسي البريطاني للسيطرة على المنطقة وبداية عهود جديدة في مصر، وتولي الملك طلال الحكم في الأردن خلفاً للمغفور له الملك عبد الله؛ ثم مجيء الملك حسين إلى الحكم.

وتميزت هذه المرحلة بهدوء التفاعلات العربية.

٣ ـ **المرحلة الثالثة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٩** شهدت الضغوط على الأردن للانضمام لحلف بغداد، وشهدت الاتحاد العربي مع العراق وشهدت قيام الجمهورية العربية المتحدة... وزيادة الامكانات العربية.

٤ ـ **المرحلة الرابعة ١٩٦١ ـ ١٩٦٧** شهدت بداية عصر مؤتمرات القمة العربية وشهدت أيضاً ضعف الامكانات العربية، ووصول السلبيات العربية إلى أوجها، وتفاقم الحرب الباردة العربية، والصراع بين التيارين التقدمي والمحافظ وشهدت دحر الولايات المتحدة عن مواقعها في المنطقة العربية بعد حرب ١٩٦٧.

٥ ـ **المرحلة الخامسة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧** شهدت كثافة التفاعلات العربية بعد حرب ١٩٦٧ ومؤتمر الخرطوم والتفاهم العربي الأردني حتى رحيل عبد الناصر.

٦ ـ **المرحلة السادسة ١٩٧٧ ـ حتى الآن** شهدت الحرب العراقية ـ الايرانية، والغزو الاسرائيلي للبنان، وضعف الامكانات العربية إلى حد بعيد.

وهكذا بحديثنا عن النظام الدولي والنظام الاقليمي نكون قد تحدثنا عن متغيرات أو عناصر البيئة العملية الخارجية.

أما متغيرات أو عناصر البيئة العملية الداخلية فهي:

أ ـ الكتلة الحيوية ونعني بها السكان والاقليم.

ب ـ الخصائص القومية ونعني بها القوة العسكرية والقوة الاقتصادية.

ج ـ دينامية الحياة السياسية ونعني بها الرأي العام وقوى الضغط.

أ ـ الكتلة الحيوية

الهدف من حديثنا عن هذا المتغير هو الحديث عن أثر الاقليم أو الموقع الجغرافي والسكان.

أثّر موقع الأردن كثيراً في سياسة الأردن على نفس القدر الذي أثرت به جارات الأردن كمصر، مثلاً، فكلاهما ملتقى القارات الثلاث ومحط الأنظار لنزاع الحرب الباردة في وقت من الأوقات كما حصل في أزمة حلف بغداد عندما توجهت الأنظار للأردن للانضمام إلى الحلف لتكملة حلقة تطويق الاتحاد السوفييتي بدول متصلة جغرافياً ابتداءً من ايران وتركيا وحتى العراق والأردن.

ولقد شكلت الجبهة الطويلة مع اسرائيل تأثيرات ذات عدة أوجه، فهي استلزمت زيادة التسلح واعتماد أموال اضافية من الموازنة لشراء السلاح.

إن الحديث يطول عن أهمية الموقع الاستراتيجي للأردن، فهذه الأهمية تاريخية إذ إن الأردن جسر إلى جميع الدول المحيطة، ولقد علّق «بن غوريون» مدللاً على هذه الأهمية بقوله:

«إن احتلال الأردن عسكرياً لا يفرق الدول العربية بعضها عن بعض، فحسب، ولكن يقضي على آمال الوحدة العربية وروحها».

(٢) انظر جميل مطر وعلي الدين هلال «**النظام الاقليمي العربي، دراسة في العلاقات السياسية العربية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص ١٥٢).

(٣) اعتمدنا على تقسيم جميل مطر وعلي الدين هلال، المرجع السابق ص ٥٨ وما بعدها.

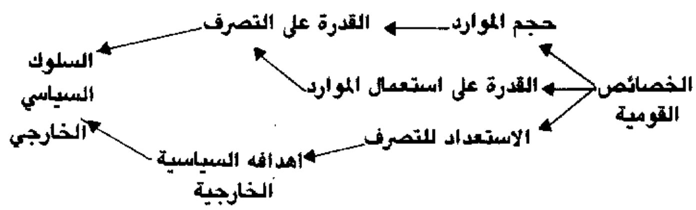
السكان: يلعب اعتبار عدد السكان دوراً فعلياً في قوة الدولة حيث إن هناك دولاً كثيرة يحسب حسابها في الساحة الدولية بعدد سكانها كالصين... صحيح أن النظرة التقليدية للكم تغيّرت وأصبح التركيز على الكيف إلا أنه يمكن القول: لو تساوت الشعوب في الثقافة والتقدم الاجتماعي والاقتصادي والوعي القومي والمهارات والتكنولوجيا، لو تساوت في كل ذلك، فإن عامل السكان يرجح الكفة لدولة على أخرى.

ولقد أثر وجود العنصر الفلسطيني في سياسة الأردن الخارجية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية... حيث إن الأردن أخذ بعين الاعتبار دوماً هذا الاعتبار؛ ولو نظرنا في ادراكات وعقائد الملك حسين لرأينا أن الملك حسين أخذ بالاعتبار دوماً موضوع القضية الفلسطينية بالاضافة لاعتبار الأردن كدولة مواجهة على أطول خط هدنة.

ب ـ الخصائص القومية

الخصائص القومية كموارد متاحة سواء أكانت قوة اقتصادية أو قوة عسكرية، تؤثر على مقدرة صانع القرار، وتحديد التوجهات العامة للسياسة الخارجية. والتفاوت يدفع صانع القرار إلى طلب مساعدات خارجية؛ وإذا كان التفاوت في القوة العسكرية فإن ذلك سيدفع الأردن وأي دولة إلى اتخاذ قرارات سلبية، لأن التفاوت في القوة العسكرية يشكل ضابطاً لصناعة القرار:

يمكن توضيح الكلام السابق بما يلي:



بيد أن الأمر المهم في استعمال الموارد هو مقدرة الدولة على استعمال الموارد. ليس مهماً أن تمتلك الدولة الموارد وإنما المهم أن تكون الدولة قادرة على استخدام تلك الموارد؛ فاليابان أقدر من غيرها على الاستخدام الفعّال للموارد. ولقد تغلبت اليابان على نقص الموارد... وسوف نبيّن بعد قليل، بأرقام احصائية، موقع الأردن الاقتصادي والعسكري، ومدى التفاوت بينه وبين اسرائيل باستخدام دراسة علمية اجراها كاتب هذا البحث.

ج ـ **ديناميـة الحيـاة السياسيـة**... ونعني بها جماعات الضغط والأحزاب والرأي العام، لم يعرف الأردن جماعات الضغط بمعناها المعروف، وجماعات الضغط تختلف عن الأحزاب كونها لا تسعى للوصول إلى السلطة وإنما تؤثر فقط على صانع القرار السياسي كما يحصل مع اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة... أما الأحزاب فإنها لم تنجح وفشلت تجاربها في الأردن لأسباب عديدة.

والرأي العام هو أحد عناصر دينامية الحياة السياسية ويؤثر كضابط أو مقدم على صناعة القرار...

وهكذا نكون قد تحدّثنا عن عناصر البيئة العملية أو متغيراتها سواء أكانت خارجية أم داخلية... وبقي أن نتحدث عن عامل البيئة النفسية، ويقصد بها مجموعة الادراكات والعقائد والمفاهيم والخصائص المرتبطة بصانع القرار. فالقائد السياسي يختار قراره ويبني تصرفه على ذلك التصور للعالم الخارجي. والواقع أن التصور هو رؤية القائد السياسي للعالم من خلال منظاره الذي ينظر به للعالم الخارجي.

وبعد أن تحدثنا عن متغيرات البيئة العملية والبيئة النفسية سوف نطبق ذلك على قرار ١٩٦٧ ونعرف تأثير كل متغير.

النظام الدولي

وقعت حرب ١٩٦٧ في الفترة الرابعة من النظام الدولي وتميزت في ظل توازن الرعب بعلامة مميزة هي الحذر كما قلنا أثناء الحديث عن تلك المرحلة.

ولقد شهدت الستينات جهوداً من العملاقين لتخفيف حدة التصادم؛ وعقد الجانبان كما قلنا اتفاقية «الخط الساخن». ولقد استخدم هذا الخط الساخن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أثناء أزمة الصواريخ الكوبية ثم الشرق الأوسط... وقبيل حرب ١٩٦٧ بدا أن هناك نوعاً من التفاهم توصل إليه الطرفان، وأخذا يميلان إلى الانفراج، حيث أعطى الانفراج للدول الكبرى فرصة احتواء النزاع سواء أكان عربياً صهيونياً في الشرق العربي، أم عربياً عربياً، وعدم ظهوره على السطح كما حصل في عام ١٩٧٠.

وتمثل الموقف الأمريكي في العلاقات الثنائية القوية مع اسرائيل في ادارة جونسون... الذي كان في قلق من تورط في حرب في الشرق الأوسط على غرار فيتنام، إذا خسرت اسرائيل الحرب. وبالرغم من أن مساعديه طمأنوه على قدرة اسرائيل على خوض الحرب والانتصار لوحدها، الا أنه بقي قلقاً، وكان يميل إلى نصح اسرائيل بأن لا تبدأ الحرب. ومع اندلاع الحرب أسرع وطالب الاتحاد السوفييتي بإنهاء القتال، وطالب أن لا تتدخل الدول الكبرى وأن تتعاون في حل النزاع. وفي نفس الوقت، وخوفاً على مصالح الولايات المتحدة في المنطقة العربية فإنه أعطى الانطباع بأن الولايات المتحدة لم تتدخل.

في ذلك الوقت وعلى الجانب الآخر كان الاتحاد السوفييتي لا

يريد الحرب بين العرب واسرائيل، وبدا وكأنه لا يعرف شيئاً عن اجراءات مصر واتخاذها القرار بإغلاق المضايق؛ لكن بعد القرار وفي ٢٤/ أيار كان عليه أن يساعد، لذلك صرّح بأنه سيقف إلى جانب العرب إذا ما هوجموا.

أما عن العلاقات الثنائية الأردنية مع أقطاب النظام الدولي فقد كانت: قوية مع الولايات المتحدة بسبب المساعدات الأمريكية التي شكلت ٧٧,٤٪ من قيمة المساعدات التي يتلقاها الأردن في ١٩٦٦ قبيل الحرب والأعوام التي سبقت ذلك. كما أن الولايات المتحدة دعمت الأردن سياسياً وعسكرياً في كافة المحن التي واجهها الأردن بحيث أن سياسة الولايات المتحدة تهدف إلى حماية الأردن؛ بيد أن هذه العلاقات الثنائية لم تكن على مستوى علاقة اسرائيل مع الولايات المتحدة التي كانت تتلقى المساعدات الأمريكية بلا حدود، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الأردن مضطر لأن يضحي بهذه العلاقة أمام الضغوط الاقليمية العربية، وهذا ما حصل فعلاً عندما حلت المساعدات العربية محل المساعدات الأمريكية.

باختصار نقول إن النظام الدولي شكل ضابطاً للأردن، لأسباب عديدة ذكرنا بعضاً منها، ونضيف أن الأردن لا يستطيع إلا أن ينساق أمام واجباته الوطنية حتى ولو ضحى بالعلاقة الثنائية القوية مع الولايات المتحدة التي تمثلت بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية.

النظام الاقليمي العربي

قامت الحرب في المرحلة الرابعة من النظام الاقليمي وامتدت من عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٧.

شهدت هذه المرحلة مراحل التغيير في المنطقة العربية وصراع التيارين المحافظ والتقدمي (الثوري)، كما شهدت هذه المرحلة اتساع شقة الخلاف وازدياد الأخطار والسلبيات في النظام العربي وبلوغها الذروة في مطلع عام ١٩٦٧ مما هيّأ للعدو لقيامه بالعدوان.

لقد تطورت الأمور التي قادت إلى حرب ١٩٦٧ تدريجياً بعد الانفصال السوري ١٩٦١ وقامت المحاور في العالم العربي ثم بدأت مؤتمرات القمة؛ وفي أواخر عام ١٩٦٣ استجاب الأردن لدعوة عبد الناصر لمؤتمر قمة عربي، وعاش الأردن فترة الثلاث سنوات التالية بهدوء بعد الوفاق مع مصر.

بيد أن الوفاق لم يستمر طويلاً بين المحافظين والتقدميين، إذ إن أموراً عديدة أفسدته: منها حرب اليمن واشتداد التنافس بين الملك فيصل وجمال عبد الناصر وظهور الحلف الاسلامي[٤]... غير أن أهم ما عكر صفو الأمور هو انقلاب سوريا في شباط ١٩٦٦ الذي غيّر مجرى الأمور، حيث إن سوريا تقربت إلى مصر على حساب التيار المحافظ ودعمت منظمة التحرير ضد كل ما هو محافظ وخصوصاً الأردن... وتغير موقف عبد الناصر الذي أعلن في ٢٢ تموز بأن لا لقاء مع الرجعية حتى تصلح مواقفها، وبعد ذلك وقعت مصر وسوريا معاهدة أو اتفاقية دفاع مشترك في ١٩٦٦/١١/٧.

ازدادت شقة الخلاف بين التيارين المحافظ بقيادة الأردن والسعودية، والتقدمي بقيادة مصر وسوريا وحصلت التطورات التالية:

في ١٩٦٦/١١/١٣ وقع العدوان الاسرائيلي على «السموع» الأردنية واتهم الملك حسين مصر بالتقصير بالدفاع، وأن الهيئة العربية الموحّدة التي انبثقت عن مؤتمر القمة العربي الأول لم تقم بواجبها الدفاعي.

الخصائص القومية

لقد كانت القوة الاقتصادية دائماً وفي مختلف الأوقات سبباً من أسباب القوة العسكرية، بسبب ارتباطها بها وكلما زادت الامكانات الاقتصادية زادت الامكانات العسكرية... وفي الأردن يلاحظ لدى الاطلاع على الجدول التالي أن المؤشرات تعكس ضعف مستوى الأردن أمام اسرائيل في ثلاثة متغيرات اقتصادية هامة، وهي: الصادرات ودخل الفرد والناتج القومي العام؛ وان هذا يشكل بالتالي ضابطاً لصناعة القرار السياسي في مسألة الدخول في حرب مع اسرائيل...

يلاحظ من الاطلاع على الجدول رقم (١) الذي اخترنا فيه أربعة متغيرات اقتصادية، وهي: السكان والصادرات والدخل القومي ودخل الفرد في الأردن وست دول أخرى في المنطقة، وهي: مصر والعراق ولبنان والسعودية وسوريا واسرائيل، خلال فترة بسيطة قبل الحرب[٥].

يلاحظ كما قلنا من الجدول السابق إن امكانات الأردن في المتغيرات السابقة عكست ضعف الامكانات الاقتصادية وان هناك تفاوتاً بين الأردن وجيرانه حتى ولو أخذنا كل بلد على حدة.

---

(٤) انظر كتاب: الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، **مهنتي كملك**، أحاديث ملكية، ترجمة غالب عارف طوقان، (عمان: نشرها بالفرنسية فريدون صاحب جم، ١٩٧٣)، ص ٢٠١.

(٥) قام الباحث بعمل دراسة كاملة عن امكانات الأردن الاقتصادية والعسكرية خلال عشرين سنة... وقارنها مع امكانات الدول الست السابقة بما فيها اسرائيل، ونظراً لكثرة الأرقام والمعادلات فإنه من المتعذر جداً إيرادها هنا والأفضل أن تخرج كاملة في دراسة خاصة.

جدول رقم (١)

يمثل متغيرات الامكانات الاقتصادية في عام ١٩٦٣

الدولة	عدد السكان(٧) بالملايين(١)	الصادرات(٢) بملايين الدولارات	الدخل القومي بملايين(٣) الدولارات وسعر السوق	دخل الفرد بالدولارات
الأردن	١,٩٧٦	٢٤	٣٧٠	٢٠٣
مصر	٢٩,٦٠٠	٥٣٧	٤١٠٩	١٧٤
العراق	٨,٢٦٢	٨٤٠	١٥٦٨	٢٠٨
لبنان	٢,٤٠٥	٦٢	٩٣٩	٤١٢
السعودية	٦,٧٥٠	١٠٦٦	١٣١٢	٢٠٤
سوريا	٥,٣٠٠	١٧٦	١٠٠٢	٢٠١
اسرائيل	٢,٥٦٣	٣٥٢	٢٢٦٥	٩٥٣

(*) تعني متغيرات.

وبعد أن تحدثنا عن الامكانات الاقتصادية بشكلها المطلق فإن الحديث ينتقل للقوة أو الامكانات العسكرية وقد استخدم الباحث ثلاثة متغيرات، هي: النفقات العسكرية وعدد أفراد القوات المسلحة ومعدل الانفاق على العسكري الواحد. ولتوضيح الصورة عن مكانة الأردن فإن الدراسة أخضعت الدول السابقة الست للبحث، وهي: مصر والعراق ولبنان والسعودية وسوريا واسرائيل...

يلاحظ من متغيرات الجدول رقم (٢) الخاصة بالامكانات العسكرية، وهي: النفقات العسكرية وعدد أفراد القوات المسلحة ومعدل الانفاق على الجندي الواحد (وهو مستخرج من تقسيم

جدول رقم (٢)

مقياس الامكانات العسكرية «المطلق» خلال عام ١٩٦٦...

الدولة	النفقات الدفاعية(١) بملايين الدولارات الامريكية	عدد أفراد(٢) القوات المسلحة	الانفاق العسكري(٣) على الجندي الواحد
الاردن	١٠٦	٥٠	٢١٢٠
مصر	٥٥٤	٢١٥	٢٥٧٧
العراق	٣٩١	٩٠	٤٣٤٤
لبنان	٣٩	١٩	٢٠٥٢
السعودية	٢٢٨	٤٥	٥٠٦٦
سوريا	٣١٤	٨٠	٣٩٢٥
اسرائيل	٤٢٨	٦٥	٦٥٨٤

النفقات على عدد الجنود في نفس السنة) يلاحظ أن هناك تفاوتاً بين مركز الأردن والدول موضوع البحث.

السؤال... هل تعطينا المتغيرات السابقة سواء أكانت اقتصادية أم عسكرية هل تعطينا فكرة عن امكانات الأردن...؟ من حيث المتغيرات التي اختيرت فهي تعتبر من أهم المتغيرات التي تعطي فكرة ايجابية أو سلبية عن امكانات الأردن والتفاوت بينه وبين الدول الأخرى.

بيد أن هناك ملاحظة يجب أن لا تغيب عن البال وهي أن جوانب غير مادية يجب أن نأخذها بعين الاعتبار، وخصوصاً ما يتعلق بمقدرة الدولة على استخدام الموارد وادارة الدولة والأهداف وتعبئة الامكانات.

على أية حال فإن التفاوت بين مركز الأردن وجيرانه في النواحي العسكرية والاقتصادية سيؤدي إلى اختلاف في السلوك السياسي وعلى الأقل سوف يشكل ضابطاً لصناعة القرار السياسي... وفي حالة هذه الدراسة سوف يشكل ضابطاً لانضمام الأردن لمصر في حرب مع اسرائيل.

دينامية الحياة السياسية

ابرز ما في هذا الموضوع هو تأثير الرأي العام على صناعة القرارات التي أدت إلى اشتراك الأردن في حرب ١٩٦٧. كان لاجراءات مصر بإغلاق تيران وشرم الشيخ امام الملاحة الاسرائيلية وسحب قوات الطوارىء الدولية صدى كبير في الأردن وتأثر الرأي العام الأردني... خاصة وان اجراءات مصر جاءت في فترة بلغت فيه ردود الفعل ضد اسرائيل واعتداءاتها على الأردن في ١٩٦٦/١١/١٣ وسوريا في ١٩٦٧/٤/٧ مبلغاً كبيراً. ولذلك فإن مصر عندما أعلنت اغلاق المضايق كان الرأي العام الأردني مهيأً لقبول ذلك، وأصبح مؤازراً ومعاضداً للحكومة في اتخاذ أي قرار. ولقد تهيّج الشعور المعادي لاسرائيل حتى ولأمريكا.

واستمر تأثير الرأي العام، وبالإمكان القول ان الرأي العام هو أقوى المقومات للأردن في قراره السياسي بالانضمام لاتفاقية الدفاع المشترك(٦).

البيئة النفسية

كان كل ما تقدم هو البيئة العملية بمتغيراتها الخارجية والداخلية وقد تحدثنا عنها وعن دورها في التأثير على صناعة القرار.

(٦) كان للمرحوم وصفي «راي» يقول إن رغبة الأردن في تشريف توقيعه وتنفيذ الالتزام الذي قطعه على نفسه هو السبب في دخول الحرب... انظر فيك فانس وبيار لويس **الملك حسين جريئاً مع اسرائيل** (بيروت دار النهار للنشر) ص ١٠٧.

بيد أن آثار البيئة العملية لا تنتج في السياسة الخارجية بشكل مباشر، ذلك لأن البيئة النفسية لصانع القرار هي العامل المباشر المحدد للسياسة الخارجية وأن جزءاً أساسياً من صناعة القرار وتكوين السياسة الخارجية لا يرتبط فقط بعوامل موضوعية ولكن بتأثير وادراكات القائد السياسي وهي التي تحدد صحة القرار والسياسة الخارجية، بمعنى أنه كلما كان تصور صانع القرار صحيحاً كلما صح القرار، وكلما قل التفاوت بين التصور والواقع كلما زادت صحة السياسة الخارجية....

والتصور هو رؤية صانع القرار للعالم كما يراه هو وليس كما هو في الواقع، وكما أشرنا، فإن صحة القرار تعتمد على التصور والتفاوت بينه وبين الواقع، وكلما كان التفاوت قليلاً كلما صحّ القرار. وهنا نشير لأهمية المعلومات التي يقول عنها «بولدنج» بأن تدفقها يشبه الرسائل التي تصل للإنسان عن طريق حواسه كيف كانت البيئة النفسية لصانع القرار الأردني في حرب ١٩٦٧ وكيف فهم الملك حسين أو تصور متغيرات البيئة العملية التي أشرنا إليها وتحدثنا عنها كما هي. وهل كان هناك تفاوت بين حقيقة متغيرات البيئة العملية وبين فهم وادراك وعقائد الملك حسين... بمعنى آخر هل تطابقت متغيرات البيئة العملية مع البيئة النفسية؟

الجواب أن عقائد الملك حسين أو البيئة النفسية كانت كما يلي:

فيما يتعلق بالنظام الدولي: كان الملك يعتقد بأن اسرائيل كسبت الرأي العام العالمي والعطف الدولي الذي أخذ يبتعد تدريجياً(٧).

النظام الاقليمي: كان الملك يعتقد أن المعركة مع اسرائيل لم يؤن أوانها، ونادى بعدم اعطاء فرصة لاسرائيل قائلاً:

«لازم نعمل المستحيل حتى ما نعطيه مبرر لفرض المعركة قبل أوانها»(٨).

كان الملك يعتقد أن منظمة التحرير تتسرع المعركة مع اسرائيل، وأن هذا سابق للأوان، ونادى بعدم اعطاء اسرائيل مبرراً لمعركة مع الأردن إذا استمرت غارات الفدائيين من خلال الأراضي الأردنية(٩).

واعتقد الملك حسين بأن سوريا كانت تريد جر مصر إلى معركة مع اسرائيل بأي طريقة من الطرق(١٠).

واعتقد الملك حسين بأن عبد الناصر لم يكن يريد الحرب وإنما كان يريد أن يجري مناورة لتخفيف الضغط عن سوريا، ولكن لم يعد بإمكانه أن يتراجع ويتصرف بشكل مختلف. يقول الملك:

«أنا متأكد من أن الرئيس عبد الناصر لم يعتقد فعلاً بأن الحرب ستنفجر، يُخيل لي أنه كان يريد المناورة لتخفيف الضغط عن سوريا»(١١).

أما من الناحية العسكرية فإن الملك اعتقد بأن هناك اختلالاً في توازن القوى بين العرب واسرائيل... وأن اسرائيل كانت تعمل جاهدة في سبيل امكاناتها العسكرية وتضع أسلحة حديثة وتنشىء جيشاً قادراً على استعمالها استعمالاً مجدياً. وكان الملك يشك في امكان تغلب مصر وسوريا على اسرائيل، ليس للسبب السابق فحسب، وإنما لتخطيط اسرائيل بعيد المدى والتنظيم والمراقبة والتدريب. واعتقد الملك بأن القيادة العربية الموحدة لم تؤمَّن لها الاعتمادات اللازمة حتى تتمكن من تحقيق الغاية من انشائها وتحقيق التوازن بينها وبين اسرائيل وأن المشاكل العربية قد أضعفتْ من التزامات تلك الدول تجاه تلك القيادة(١٢).

وهكذا بدت الأوضاع العسكرية العربية في نظر الملك غير مرضية ولا تسمح بالمواجهة مع اسرائيل، يقول الملك: «فبعكس اسرائيل لم يكن العرب قد وضعوا أي خطة عمليات موحدة أما نحن الأردنيين فقد حاولنا أن نضع ثقلنا في الميزان لتخفيف الضغط عن سوانا والتقليل من الأضرار التي ستحدث في حالة نشوب حرب وذلك كله دون أمل أن نربح هذه الحرب(١٣).

غير أن اعتقاد الملك أو بيئته النفسية بأن العرب سيخسرون المعركة فإنه قد اعتقد بضرورة الانضمام إلى مصر لعدة أسباب أهمها ضرورة الدفاع عن سوريا والعرب وعن كل شبر من أرض العرب يتعرض للعدوان الاسرائيلي والعدو المشترك للعرب وأن الأردن يعتبر ذلك واجباً قومياً(١٤) وأن اسرائيل في عدوانها لا

(٧) فيك فانس وبيار لويس، مرجع سابق، ص ٢٦، ٢٩.
(٨) خطاب الملك حسين، ١٩٦٧/١/٢٥.
(٩) نفس الخطاب السابق.
(١٠) الحسين، مرجع سابق، ص ٢٠٨.
(١١) فيك فانس، مرجع سابق، ص ٤٠.
(١٢) انظر فيك فانس، مرجع سابق، ص ١٤ ـ ١٦، ٣٧ ـ ٤٠.
(١٣) نفس المرجع، ص ٣٩.
(١٤) انظر خطاب الملك في ١٩٦٧/٥/١٥.

تفرق بين العرب إذا نشبت المعركة وكل العرب في نظرها شيء واحد في معتقدات الملك[١٥].

وتمشياً مع الموقف السابق في تقليل أضرار الحرب القادمة وإضعافاً لعزيمة الهجوم الصهيوني، فتح الملك الحدود أمام القوات العراقية، لكن بقي غائباً عن اعتقاد الملك بأن اسرائيل ستحوّل نتيجة هذه المعركة بسهولة لصالحها، إذ إنه بالرغم من اعتقاده بعدم نصر سوريا ومصر إلاّ أنه لم يتوقع نصراً اسرائيلياً بتلك السرعة والسهولة.

يقول الملك عن موقف مصر وسوريا: «ولكنني لم أعتقد قط بانتصارهما القادم، كما لم أكن لأتصور مطلقاً أن تحوّل اسرائيل نتيجة المعركة لمصلحتها بهذه السهولة»[١٦].

أهم الأحداث التي سبقت القرار

بعد السموع، والمعركة الجوية مع سوريا... استمرت انتهاكات اسرائيل واستمرت هجمات وغارات الفدائيين وردود الفعل الاسرائيلية عليها ووسعت اسرائيل أخبار هجمات الفدائيين ووصف الملك ذلك بأنه يهدف إلى اثارة عطف العالم بافتعال وضع شبيه بوضع عام ١٩٥٦[١٧]... وحشدت اسرائيل على حدود سوريا.

وفي ١٥/ أيار ١٩٦٧ أعلن عبد الحكيم عامر أعلى درجات الطوارىء في مصر وطلب سحب قوات الطوارىء الدولية من خطوط الهدنة.. وعند هذا الموقف رأى الملك حسين أن احتمالات الصدام قد زادت وعقد اجتماعاً استثنائياً حضره رئيس الحكومة وكبار الضباط. وبعد ذلك الاجتماع وضعت القوات الأردنية في حالة تأهب.

١٩/ أيار انسحبت قوات الطوارىء وحلت محلها قوات مصرية.

٢١/ أيار استدعت اسرائيل الاحتياط. وفي اليوم نفسه توترت العلاقات مع سوريا بانفجار سيارة ملغومة على الحدود وقطعت العلاقات الدبلوماسية وأصبح على الأردن إذا أراد التنسيق للمعركة أن يركز على مصر فقط.

٢٢/ أيار أغلق عبد الناصر تيران أمام الملاحة الاسرائيلية[١٨].

القرار

بقي الملك يتابع الموضوع منذ اجتماعه مع رئيس الحكومة وكبار الضباط يوم ١٨/ أيار وأعلن حالة التأهب.

في ٢٢/ أيار التقى الملك في الساعة الواحدة مع زيد الرفاعي مدير التشريفات الملكية وتباحث معه فيما أعلنه عبد الناصر عن اغلاق المضايق. ويروي زيد الرفاعي أنه سمع الخبر من اذاعة عمان، وعندما اطلع الملك عليه وجده يعرف بالخبر من نفس المصدر. كما يروى أيضاً أن الملك أخبره في ذلك اللقاء أن الحرب أصبحت أمراً لا مفر منه[١٩]. وبعد يومين من ذلك أيّد الملك قرار مصر، وطلب من العراق والسعودية بالطرق الدبلوماسية إرسال امدادات كإجراء احتياطي يدخل في نطاق اتفاقية الدفاع المشترك في عام ١٩٦٤.

وفي ٢٨/ أيار استمع الملك إلى خطاب جمال عبد الناصر الذي أعلن فيه استعداد مصر للحرب إذا أرادت اسرائيل ذلك. ويروي زيد الرفاعي أن الملك بعد استماعه للخطاب تأكد أن الحرب ستندلع وأنه قرر ارسال رئيس هيئة الأركان «عامر خماش» للقاهرة للاتصال بالقيادة العربية الموحدة والاطلاع على الخطط المعدة لمواجهة هجوم اسرائيل المحتمل. وكان عند الملك اعتقاد بأن اسرائيل إذا هاجمت مصر ستهاجم الأردن[٢٠]، وأن اسرائيل لا تفرق بين عربيّ وعربي.

ثم استدعى الملك السفير المصري في عمان «عثمان نوري» وأطلعه على رغبته في فتح الحوار مع عبد الناصر لتنسيق الوسائل الدفاعية بأسرع وقت ممكن. وفي ليلة ٢٩/ ٣٠ أيار وصل جواب مصر للملك حسين عن طريق سعد جمعة رئيس الوزراء الذي أبلغ الملك بترحيب عبد الناصر بمبادرة الملك.

في ٣٠/ أيار كان الملك حسين وسعد جمعة ورئيس هيئة الأركان وقائد سلاح الجو في طريقهم للقاهرة لتوقيع ميثاق دفاعي أو إحياء القيادة العربية الموحدة. ولقد وقع الملك معاهدة دفاع ثنائية على غرار معاهدة مصر وسوريا وعاد إلى عمان ومعه الشقيري...

في ١/ حزيران وصل عبد المنعم رياض رئيس هيئة الأركان للقيادة العربية الموحدة لتولي قيادة القوات العربية العراقية والأردنية والسعودية والسورية حسب قرارات المعاهدة...

(١٥) فيك فانس، مرجع سابق، ص ٣٠.
(١٦) نفس المرجع السابق.
(١٧) نفس المرجع، ص ٢٧، ٢٨.
(١٨) في سرد الأحداث تم الاعتماد على أرشيف: Kessing Facts on File.
(١٩) فيك فانس، مرجع سابق، ص ٣١.
(٢٠) المرجع السابق، ص ٣٢.

في ٣/ حزيران انضمت العراق لمصر وسوريا والأردن وفي نفس الوقت عقد الملك مؤتمراً صحافياً تنبأ به بنشوب الحرب خلال ٤٨ ساعة. وفي اليوم التالي دخلت القوات العراقية إلى الأراضي الأردنية ودخلت القوات الفلسطينية. وفي نفس الليلة اجتمع عبد المنعم رياض وعامر خماش وراجعا الموقف العسكري والاستعدادات العسكرية والاستراتيجية. ويقول الملك بأنه اختار الدفاع عن جهة محدودة جداً وبانتظار وصول العراقيين والسوريين حيث يمكن اعداد وصلة هجومية تقضي القيام بعمليات مشتركة بواسطة المدفعية والطيرات لتعطيل المطارات الاسرائيلية. وفي نفس اليوم أصدر الملك أمراً للطيران بأن يكون على أهبة الاستعداد.

وفي ٥ حزيران اذاعت القاهرة أن اسرائيل هاجمت مصر ووصلت تعليمات من عبد الحكيم عامر للجيش تطلب من الأردن فتح جبهة جديدة وفق الخطة التي رسمت. وعلى الفور أصدر عبد المنعم رياض أمراً للمدفعية باحتلال خطوط النار الامامية، واصدر أمراً للطائرات الأردنية والعراقية والسورية بأن تقصف القواعد الجوية الاسرائيلية للحد من النشاط المعادي للطيران... وفي نفس اليوم دمرت الطائرات الاسرائيلية القواعد الجوية الأردنية وعطلت فاعلية سلاح الجو...

وفي اليوم التالي بدا الأردن في موقف صعب، وكان أمام الأردن ثلاثة خيارات: ١) الصمود؛ ٢) اخلاء الضفة الغربية؛ ٣) اللجوء إلى الحل السياسي.

وفي نفس اليوم، السادس من حزيران الساعة ١١ ليلاً بتوقيت عمان، أصدر مجلس الأمن أمراً بوقف اطلاق النار دون شرط. وللأسف كان عبد المنعم رياض قد أصدر أمره بالانسحاب إلى الضفة الشرقية وعاد وأعطى أمراً مضاداً بالبقاء في المواقع التي بحوزتهم للاحتفاظ بأكبر رقعة من الأرض.

وفي ٧/ حزيران سقطت مدن نابلس والقدس وأريحا والخليل، وأعطى أمراً للجيش بالانسحاب إلى الضفة الشرقية. وفي اليوم التالي أبلغت الأردن الأمم المتحدة بقبول وقف إطلاق النار...

ردود الفعل الاسترجاعية

النظام الدولي

اشتد التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وقد أشار الملك حسين إلى أن الاتحاد السوفييتي قد جنى ثمار سياسة التحيز الأمريكية.

ولقد تأثر الموقف في فيتنام بسبب اغلاق القناة، الذي أثر على شحنات السلاح وعلى موقف الأسطول السوفييتي في المحيط الهندي... وتحسنت علاقات الأردن الثنائية مع الاتحاد السوفييتي، وبقي الأردن على علاقته مع الغرب.

العامل الاقتصادي والعسكري

خفض الأردن مشاريع التنمية الاقتصادية المقررة في خطة السبع سنوات ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ بمقدار ثلاثة ملايين دولار[٢١]، وأثرت المقاومة على انتاج الأغوار من المزروعات بسبب ردود فعل اسرائيل الانتقامية كما قلنا وارتفعت البطالة بسبب غياب الانتاج الصناعي في الضفة الغربية[٢٢].

انخفضت المساعدات الأمريكة للأردن بعد ١٩٦٧ من ٦٧,٩ مليون دولار في ١٩٦٦، إلى ١٩,٤ في ١٩٦٨ واعتمدت الأردن على المساعدات العربية.

عسكرياً

خسر الأردن كثيراً من معداته العسكرية وطيرانه وشكلت المنظمة الفلسطينية عبئاً على الأردن في مواجهة اسرائيل، واضطر الأردن إلى توفير الحماية لها. وبرزت مشكلة التسلح لأن الولايات المتحدة خفضت مساعدتها العسكرية للأردن بسبب اخلال الأردن بالسلاح الذي بيده كما يقول آرثر جولد بيرج مندوب الولايات المتحدة في هيئة الأمم[٢٣]. ولقد سبب هذا قلقاً للأردن لأن الأردن يعتمد في ٩٠٪ من تسلحه على الولايات المتحدة. لكن لم تلبث الولايات المتحدة أن أعادت في ١٤ شباط ١٩٦٨ روابطها التقليدية بتسليح الأردن.

الرأي العام والقوى الضاغطة

بعد ضياع الضفة كان الفلسطينيون في حالة فوضى، ولا مكان ولا مخرج لهم سوى الأردن، لذلك فإن العلاقات أخذت شكلاً خاصاً، ودخلت المقاومة الفلسطينية الأردن.

البيئة النفسية

لم يعد الاتحاد السوفييتي عدواً للأردن وتحسنت صورته، إذ يقول الملك حسين بعد زيارته للاتحاد السوفييتي في ١٩٦٧/١٠/٢:

---

(٢١) الاهرام ٥/ آب ١٩٦٧.
(٢٢) وزارة الثقافة والاعلام، دائرة المطبوعات والنشر، **الاقتصاد الأردني بعد ٥ حزيران ١٩٦٧** (عمان: ١٩٧٠) ص ٨ ـ ١١.
(٢٣) الاهرام ٧ تموز ١٩٦٧.

«وحاولت بعدما شكرت الروس على التأييد الذي قدموه للعالم العربي أن أبدد الغيوم السوداء التي كانت في السابق قد غشّت العلاقات بين موسكو وعمان».

ويقول واصفاً دور الاتحاد السوفييتي:

«ومنذ وقوع العدوان الاسرائيلي لم يتردد في توكيد صداقته»[٢٤].

أما عن هيئة الأمم فقد تعزز اعتقاد الملك بضعف مجلس الأمن والجمعية العامة وان اسرائيل تتحدى كليهما بكل غطرسة[٢٥]. وانها ما لم تقم بعمل فلن يصغي إليها أحد بعد اليوم[٢٦].

أما عن النظام الاقليمي فقد بقيت اسرائيل أحد أعداء الملك الرئيسيين، واعتقد الملك بأنها أصابها الغرور بعد النصر.

لكن الاستراتيجية قد تغيرت إذ أصبح الاعتماد على الحل السياسي والمناداة بالسلام... يقول الملك:

«... ومع أننا كنا مترددين في الماضي عن احتمال ايجاد حل، فإننا اليوم راغبون في المساهمة بأحسن جهودنا للعثور على تسوية عادلة سلمية دائمة»[٢٧].

أما تحقيق الهدف فقد اعتمد الملك فيه على الأسلوب الدبلوماسي[٢٨] المعتمد على تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لتحقيق ما يمكن تحقيقه[٢٩] وترك الأساليب الماضية. يقول الملك:

«سلكت في الماضي طريقاً مع الأسف، ثبت الآن أنها ما كانت الطريق التي تؤدي إلى الهدف، كانت اخطاء وكانت أسباباً أدت إلى كل ما وقع»[٣٠]. كما دعا إلى ترك السطحية والارتجال لأنهما من أسباب الهزيمة[٣١].

خاتمة

كان لقرار عام ١٩٦٧ المتضمن الاشتراك في الحرب إلى جانب مصر انعكاسات وردود فعل ما زالت إلى هذا اليوم. فلقد تغيرت الاستراتيجية العربية إلى الحل السياسي بناء على قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

ولقد نجم عن هذا القرار الكثير، سواءً أكان على صعيد علاقات الأردن الدولية أم الاقليمية أم الاقتصادية... أم العسكرية على النحو الموضح في الدراسة.

ونشير إلى أن هذه الدراسة التطبيقية العلمية قد أثبتت صدق التصور وعدم وجود تفاوت بين معتقدات الملك حسين وهي البيئة النفسية وبين متغيرات البيئة العملية، وبالرغم من صدق هذا التصور فإن الملك حسين امام واجبات الأردن الوطنية شارك في حرب ١٩٦٧.

(٢٤) خطاب الملك في ٢/١٠/١٩٦٧.
(٢٥) خطاب الملك في ٢٦/٧/١٩٦٧.
(٢٦) خطاب الملك في ٢/١٠/١٩٦٧.
(٢٧) خطاب الملك في ٧/١١/١٩٦٧.
(٢٨) خطاب الملك في ٨/٣/١٩٦٨.
(٢٩) خطاب الملك في ٨/١/١٩٧٠.
(٣٠) خطاب الملك في ٢٤/٨/١٩٦٧.
(٣١) خطاب الملك في ٢١/١٢/١٩٦٧.

الملك عبد العزيز وسياسة الموازنة بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية (١٩٢٦ ـ ١٩٤٥)

د. طارق نافع الحمداني

كلية التربية ـ جامعة بغداد.

١ ـ أبعاد سياسة عبد العزيز الخارجية

منذ اللحظة الأولى التي أقام فيها الملك عبد العزيز أسس دولته في الحجاز عام ١٩٢٦م/ ١٣٤٥هـ، أخذ يتطلع إلى الدخول في علاقات سياسية منظمة مع كثير من الدول الأجنبية، بخاصة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. فبعد عام واحد من اعلان استقلال مملكة الحجاز ونجد، أراد الملك عبد العزيز أن يعقد معاهدة جديدة مع بريطانيا لتنظيم العلاقات السياسية بين البلدين، وذلك بعد إلغاء معاهدة العقير المعقودة سنة ١٩١٥/ ١٣٣٤، التي أصبحت لا تصلح لأن تكون قاعدة لعلاقاتهما في العهد الجديد. وقد اضطر الانكليز للدخول في مفاوضات لعقد معاهدة في ٢٠ مايس/ أيار ١٩٢٧ (٢٨ ذي العقدة ١٣٤٥هـ)، نصّت في مادتها الأولى على اعتراف الحكومة البريطانية اعترافاً كاملاً باستقلال الدولة السعودية[1].

ويبدو أن ابن سعود[2] لم يكن مطمئناً لبريطانيا، وذلك لأنها كانت ما تزال تحتفظ بنفوذ سياسي قوي في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط، ولذا فقد تم الاتصال بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٢٨ بشأن الاعتراف بالدولة الجديدة[3]، الا أن الولايات المتحدة لم تنظر بأمر الاعتراف بالدولة السعودية لعدة سنوات، وذلك لأنه لم يكن لها أي اهتمام سياسي أو اقتصادي في المنطقة، وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٣٣ حيث وقعت معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة بين الحكومتين السعودية[4] والأمريكية[5].

ورغم اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة، فإن الرجحان السياسي كان ما يزال في صالح بريطانيا، التي كان نفوذها وممتلكاتها تحيط بالعربية السعودية من كل جانب، وكان من المحتمل أن تولد المتاعب والمشاكل، فكيف استطاع عاهلها الملك عبد العزيز أن يجعل من هاتين القوتين في حالة موازنة سياسياً واقتصادياً، وما هي الوسائل والأساليب التي استخدمها لتحقيق ذلك. للإجابة على مثل هذا السؤال لا بد من التعرف على المبادىء الأساسية التي انتهجها عبد العزيز، والتي استهدفت خدمة ومصلحة بلاده. وقد بنيت هذه الدراسة ـ في الأعم الأغلب ـ على مجموعة من الخطب التي ألقاها ابن سعود في عدة مناسبات، وعلى الرسائل التي بعثها عن طريق مبعوثيه السياسيين إلى بريطانيا والولايات المتحدة، فكانت بمثابة حجر الزاوية في الموازنة والموافقة.

كان لابن سعود علاقات وطيدة مع بريطانيا ترجع جذورها إلى الحرب العالمية الأولى، حيث قدمت الأخيرة مساعدات للملك عبد العزيز، في وقت كان لا يزال فيه بحاجة إلى المساعدة الخارجية. إلا أن تلك العلاقات بشكل عام، لم تكن خالية من شعور الحيطة والحذر، وذلك لشعور ابن سعود بأن بريطانيا لا تثبت على موقف

---

(١) امين سعيد، **تاريخ الدولة السعودية** (الرياض مطابع دار الهلال، بدون تاريخ)، ص ١٩٥.

(٢) ابن سعود، هو الاسم الذي يُسمّى به الملك عبد العزيز وذلك لشهرته وشعبيته، وهو ما سندرج على ذكره في ثنايا هذا البحث على سبيل الاختصار.

(٣) للتفاصيل انظر: John A. De Novo, **American interestes and policies in the Middle East, 1900-1939** (The University of Minnesota press, 1936), p. 360.

(٤) في عام ١٩٣٣ تم الغاء اسم مملكة الحجاز ونجد، وسميت باسم المملكة العربية السعودية.

(٥) انظر نصوص تلك المعاهدة في المصدر السابق من ص ٢١٤ ـ ٦.

ولا تستقر على سياسة، وفقاً لتبدل أهدافها ومصالحها[٦].

ففي مذكرة بعث بها عبد العزيز في أيلول ١٩٣٧/ رجب ١٣٥٦هـ، عن طريق وزارة الخارجية إلى الحكومة البريطانية بواسطة مفوضيتها بجدة يقول:

(لسنا بحاجة لأن نؤكد للحكومة البريطانية الصديقة، رغبتنا الشديدة في أن نسير في السياسة العامة التي لها علاقة بمصالحنا المشتركة، على خطة موحدة متفق عليها فيما بينها. وقد كانت هذه خطتنا التي سرنا ولا نزال نسير عليها، بالرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تقف في أكثر الأحيان، موقفاً سلبياً من حيث عدم رغبتها في التقيد بسياسة معيّنة ثابتة يسار عليها في المستقبل)[٧].

لقد بيّن ابن سعود في هذه المذكرة نهجه السياسي حيال بريطانيا، التي حظيت بصداقة المملكة العربية السعودية، وهو نهج امتاز بالثبات والاستقرار من جانب الثانية، وبالتغير وعدم الاستقرار من جانب الأولى. وتبعاً لهذا الأسلوب السياسي الواضح والمستقر، والمبني على حسن النية والموقف الودي والصادق، أراد ابن سعود أن يقرّ علاقاته مع بريطانيا. وهو ذات الأسلوب الذي اتخذه تجاه هذه الدولة بخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية برغم وجود صعوبات من وقت لآخر، وبرغم اتخاذ بريطانيا مواقف سلبية في بعض الأحيان تتعارض مع سياسة بلاده.

ولعل في التعليمات السرية التي أملاها الملك عبد العزيز على الأمير سعود في أوائل سنة ١٩٤٧م/١٣٦٦هـ، في أثناء زيارته الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية ما يوضح هذا المنحى، إذ يقول:

(إن الخطوط الأساسية لسياسة الفريق الواحد تجاه الفريق الآخر ظلت ثابتة وطيدة، وقد خبرنا الانكليز وهم خبرونا، وعرفناهم وهم عرفونا. ولذلك أصبح العمل فيما بيننا سهلاً والتفاهم هيّناً... برغم اتخاذهم مواقف سلبية أو غير ودية في بعض الأحيان)[٨].

ومع استمرار العلاقات التقليدية الحسنة بين العربية السعودية وبريطانيا فإن ابن سعود قد مهّد لتطور المصالح الأمريكية في بلاده، بداية لسياسة الموازنة التي أراد أن يمارسها بين بريطانيا والولايات المتحدة، خصوصاً وأنه لم يكن على ثقة تامة بسياسة الأولى. ويظهر ذلك في شعور الارتياح الذي أبداه عبد العزيز، من ترك الولايات المتحدة لسياسة العزلة والانقطاع التي كانت تسير عليها في الماضي، ودخولها معترك السياسة في منطقة الشرق الأوسط. كما عبّر عن ذلك باستبعاده (أي احتمال لقيام صعوبات سياسية (بين بلاده) والولايات المتحدة)[٩].

إن دخول السياسة الأمريكية في المنطقة ونشاطها بشكل واضح، قد أدى إلى تحول سريع في السياسة البريطانية، إذ أظهر السياسيون البريطانيون منافسة كبيرة لنشاط الساسة ورجال الأعمال الأمريكيين في المملكة العربية السعودية، بل انهم اتخذوا بعض المواقف التي تنم عن انحراف سياسة بلادهم التقليدية تجاه ابن سعود. وحدّد الأخير بوادر هذا الانحراف بأشكال مختلفة أهمها (عدول بريطانيا عن سياسة التوازن بيننا (أي بين ابن سعود) وبين خصومنا وشروعها في تقويتهم بصورة مباشرة وغير مباشرة)[١٠].

ورداً على هذا التغير في السياسة البريطانية، وخشية أن تؤدي إلى إلحاق الضرر ببلاده، فقد أكّد ابن سعود عدم تردده في اتخاذ أي عمل ضد بريطانيا، في حالة اتباعها سياسة تتعارض مع مصلحة بلاده، بسبب اتفاقه وتقربه من الولايات المتحدة، وقال بما نصه:

(ولكنها (أي بريطانيا) إذا اضطرتها الظروف القاهرة إلى مناهضة سياستنا بسبب اتفاقنا مع أمريكا، وإذا كانت تريد أن تقوم بنصرة سوانا علينا بسبب اتفاقنا مع أمريكا، فإننا في هذه الحالة نرى أنفسنا مضطرين إلى التفاهم بصراحة تامة وبدون مواربة ولا مخاتلة)[١١].

وبهذه الصورة حدد ابن سعود طبيعة سياسته مع الولايات المتحدة وبريطانيا، وهي عين الأسس التي أراد أن تدرج عليها مملكته في سياستها العامة. ولكن إذا كانت هذه هي الأسس النظرية لسياسة ابن سعود تجاه هاتين القوتين، فما هي الأبعاد

---

(٦) د. أحمد الطربين، (عبد العزيز آل سعود منشىء دولة وباعث نهضة)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السابع، السنة الثانية (تموز ١٩٧٦) ص ٥٩.

(٧) لقد ورد هذا النص في خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز** (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧) ج ٣، ص ١٠٨٣.

(٨) انظر نص تلك التعليمات في خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٧٤.

(٩) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧٤.

(١٠) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧٥.

(١١) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧٦.

العملية لهذه السياسة، وما هي الصعوبات والعقبات التي واجهتها في المجالين السياسي والاقتصادي.

٢ ـ ابن سعود وسياسة الموازنة بين بريطانيا والولايات المتحدة

في الوقت الذي أراد فيه ابن سعود أن يقيم نوعا من الموافقة السياسية بين بريطانيا والولايات المتحدة، فإنه سعى أيضاً إلى اقامة موازنة اقتصادية بينهما، وذلك لشعوره بأن الموازنة السياسية مرتبطة بالموازنة الاقتصادية. فبريطانيا مثلاً كان لها نفوذ سياسي واسع في منطقة الشرق الأوسط، أما الولايات المتحدة فقد كانت اهتماماتها في المنطقة ما زالت محدودة، فأراد ابن سعود أن يفسح المجال أمام هذه الدولة من أجل أن يكون لها نفوذ مماثل في مملكته، وكذلك هو الشأن بالنسبة للمصالح الاقتصادية ـ وبالذات الامتيازات النفطية. ذلك لأن الجزيرة العربية، على حد قول ابن سعود (شاسعة، وكافية لإرضاء أي مطمح ما خلا واحداً هو النيل من سيادتها، هذه السيادة التي كلفتنا غالياً جداً والتي نعتز بها ونفضل أن نموت فقراء على التفريط بشيء منها)[١٢].

وهكذا كان الملك عبد العزيز شديد التوق لضمان الحرية السياسية والاقتصادية لبلاده، تلك الحرية التي لا يمكنه التخلي عنها مهما كان الثمن غالياً. وكان هذا الخطاب موجهاً بالذات إلى الدول التي حظيت بامتيازات في بلاده، فأراد ابن سعود أن يلفت أنظار هذه الدول بأن حالة بلاده الاقتصادية على صعوبتها فإنها لن تكون موضوع مساومة ومقايضة.

ومما لا يمكن نكرانه أن العربية السعودية ـ التي تأسست حديثاً ـ كانت تعاني من مصاعب اقتصادية، وذلك لأن مواردها الرئيسية في العشرينات والثلاثينات هي موارد الحج، التي كانت تنقص أحياناً إلى حد كبير، وكانت بريطانيا تقدم مساعداتها للعربية السعودية من وقت لآخر، إلا أن تلك المساعدات لم تكن كافية، مما دفع ابن سعود للبحث عن موارد جديدة، وكان أبرزها النفط[١٣].

وصادف في هذا الوقت (أواخر العشرينات) نكوص الشركة الشرقية العامة المحدودة Eastern and general Syndicated Ltd التي يمثلها فرانك هولمز Holmes عن البحث والتنقيب عن البترول في الاحساء، ففسح هذا الأمر المجال أمام الأمريكيين للدخول في ذلك المعترك. إذ زار تشارلس كرين Crane ـ أحد أعضاء لجنة كنك كرين ـ جدة عام ١٩٣١، وكان أنذاك يبدي تعاطفاً مع القضايا التي تخص الوطن العربي، فناقش مع ابن سعود الامكانات الاقتصادية المتعددة لتنمية المملكة العربية السعودية، وكانت النتيجة تعهد كرين بإرسال مهندس تعدين للبحث عن المصادر المعدنية في السعودية. وبعد شهرين جاء كارل تويتشل Twitchell إلى جدة، وخلال فترة وجيزة قدم تقريره الذي أشار فيه إلى أنه متشائم من حيث امكانات توفر الموارد المائية، ولكنه متفائل إلى احتمالات وجود الذهب والبترول بصورة كبيرة[١٤].

وهكذا حاول عبد العزيز أن يستفيد في بداية الأمر من رأس المال البريطاني للبحث عن المصادر المعدنية في العربية السعودية، وعندما فشلت محاولات الانكليز، اتجه نحو الأمريكيين للاستفادة من خدمات تويتشل في التعدين. وبعد قيام الكثير من العقبات في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وجد تويتشل بأن (شركة نفط كاليفورنيا Standard oil of California) ترغب في الحصول على امتياز التنقيب عن النفط في السعودية. وجاء ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحكومة السعودية قد قررت المباشرة بمسألة البحث والتنقيب عن النفط ومنح امتيازاته وفق أفضل العروض، فتقدمت شركات انكليزية ونعني بها شركة نفط العراق Iraq Petroleum co وأخرى أمريكية، شركة نفط كاليفورنيا، وفضّل ابن سعود أن يعطي الامتياز للشركة الأمريكية في ٢٩ مايس/ أيار ١٩٣٣، وذلك للشروط المناسبة التي تقدمت بها الشركة الأخيرة على منافستها الانكليزية[١٥].

ومن المرجح أن قرار الملك عبد العزيز بمنح امتياز النفط للشركة الأمريكية قد كان قائماً على أساس أن الشركات الأمريكية ليس لها اهتمام بالقضايا السياسية وليس لها ارتباط بالحكومة الأمريكية أو خاضعة لنفوذها كما هو الحال بالنسبة

---

(١٢) انظر الخطاب الذي ألقاه الملك عبد العزيز في تشرين الثاني ١٩٣٨ في المركز الزراعي في الخرج، والذي يوضح نهجه السياسي والاقتصادي؛ بنواميشان، **عبد العزيز آل سعود: سيطرة بطل ومولود مملكة**، نقله إلى العربية عبد الفتاح ياسين (دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٥)، ص ٢٣٤.

(١٣) Joseph William walt, **Saudi Arabia and the Americans, 1928-1951**, unpublished ph. D. Dissertation, (North west university, 1960), pp. 431-2.

(١٤) Thomas A. Bryson, **American diplomatic relations with the Middle East, 1784-1975** (U.S.A. 1977), pp. 107-5.

(١٥) De Novo, op. cit., p. 207i see also David H. Finnie, **Desert enterprise: the Middle East oil industry and its local environment** (Harvard university press, 1955), p. 36.

ومن الجدير بالذكر أن شركة كاليفورنيا للنفط قد عقدت بعد حصولها على الامتياز اتفاقات مشتركة للبحث عن النفط في السعودية مع شركة تكساس Texas Company عام ١٩٣٦، فأصبحت تعرف بعدئذ باسم كالتكس Caltex.

لشركة نفط العراق الانكليزية[16]. وعلاوة على ذلك فإن ابن سعود توقع أن يمكّنه منح الشركات الأمريكية امتيازات النفط في بلاده من موازنة النفوذ البريطاني إلى حد ما، خصوصاً وان الانكليز كانت لهم اليد الطولى فيما يتعلق بامتيازات النفط في الأقطار العربية المجاورة؛ ولو كان ابن سعود قد منح امتيازات النفط في السعودية للانكليز أيضاً، عندئذ سيكون لهم تأثير سياسي واقتصادي في بلاده، وهو ما أراد عبد العزيز أن يتجنبه[17].

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية، عانت المملكة العربية السعودية من ضائقة مالية بسبب انخفاض عدد الوافدين إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج انخفاضاً كبيراً، وبسبب تقلص عمليات انتاج النفط، مما اضطر معه عبد العزيز إلى طلب المساعدة الخارجية. وتبعاً لسياسة الموازنة التي درج عليها ابن سعود، فقد طلب المساعدة الاقتصادية من بريطانيا والولايات المتحدة، رغم أن الأولى كانت ما تزال صاحبة النفوذ السياسي الأقوى في المنطقة. وكانت النتيجة ـ كما سنرى ـ هي تقديم مساعدات بريطانية ـ أمريكية مشتركة وذلك على ضوء (قانون الإعارة والتأجير Lend-Lease) الذي تم تطبيقه على السعودية عام ١٩٤٣[18].

وصلت تلك المساعدات إلى السعودية في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عن طريق بريطانيا فقط. ذلك لأن الرئيس الأمريكي روزفلت لم يكن مخولاً قبل عام ١٩٤٣ بتقديم المساعدات للسعودية بصورة مباشرة، فخاطب الحكومة البريطانية ـ التي كانت مشمولة بقانون الإعارة والتأجير ـ لكي تخصص نسبة من تلك المعونات التي كانت تتلقاها من الولايات المتحدة للوفاء بمطالب السعودية. وهكذا ازدادت مساعدة بريطانيا لابن سعود فبلغت ١٠٠,٠٠٠ باون في عام ١٩٤٠ وما يزيد على المليون باون في عام ١٩٤١ وحوالى ثلاثة ملايين خلال عام ١٩٤٢[19].

وقد فزع الأمريكيون، بخاصة أصحاب الشركات النفطية، من ازدياد حجم المساعدات البريطانية للسعودية، لتخوفهم من استغلال البريطانيين لظروف الحرب واقدامهم على الغاء المكاسب التي أحرزها الأمريكيون في مجال استثمارات النفط. واتجه ممثلو تلك الشركات مباشرة إلى وزير الداخلية والنفط الأمريكي هارولد ايكز Harold Ickes، طالبين منه بأن تقوم الحكومة الأمريكية بتقديم مساعداتها المباشرة إلى العربية السعودية، وانهم سيكفلون زيادة انتاجهم النفطي بما يعادل تلك المساعدات أو يفوقها. وبناء على ذلك فقد أعلن الرئيس الأمريكي روزفلت في ١٨ شباط ١٩٤٣، تطبيق قانون الإعارة والتأجير على السعودية مباشرة، بدلاً من وساطة الانكليز في هذا المضمار[20].

وعلى أية حال، فإن طلب ابن سعود المساعدة من بريطانيا والولايات المتحدة، كانت له مبرراته المنطقية. فالمملكة العربية السعودية، كما يقول الملك عبد العزيز (لا تريد أن تتقرب لطرف على حساب الطرف الآخر، ولكنها لن ترفض يد المساعدة إذا ما مُدت إليها، بخاصة ما إذا كانت تلك المساعدة تتعلق بالمؤن الضرورية، ذلك لأنها تريد أن تحافظ على بقائها)[21].

وهكذا نجد تفسيراً واضحاً لسياسة ابن سعود في علاقاته مع بريطانيا والولايات المتحدة، تلك السياسة التي لم تحدْ عن سياسة الموازنة بين الدولتين المذكورتين.

وفي الوقت نفسه فإن روح التقدير والمودة التي كان يكنّها الملك عبد العزيز للدول التي قدمت لبلاده المساعدة الاقتصادية خلال الحرب العالمية الثانية، تبدو واضحة من خلال التصريح بتلك المواقف كلما سنحت له الفرصة بخاصة بريطانيا. ولا أدل على ذلك من خطاب جلالته الذي ألقاه على وفود بيت الله الحرام ١٤ كانون الأول ١٩٤٥ (٦ ذي الحجة سنة ١٣٦١هـ الذي يقول فيه:

(إننا لنذكر مع الشكر للحكومة البريطانية ما بذلته من المساعدات ولولا الله ثم مساعدة الحكومة البريطانية بالمؤن والأرزاق لما أمكن أن يجد المسلمون هذا الرخاء في هذا الوادي غير ذي الزرع، ولو قارنّا حال هذه البلاد في الحرب الحاضرة وحالها في الحرب العالمية الماضية لوجدنا الفرق كبيراً. وهذا كله من فضل الله ثم بفضل المساعدات التي قدمتها لنا الحكومة الصديقة البريطانية)[22].

(١٦) انظر حول هذا E.A. Speiser, **The united states and the Near East** (London, 1946), pp. 115-6; see also Ray mond F. Milkesell and Hollis B. Cherney, **Arabian oil, American's state in the Middle East** (New York, 1949), p. 81.

(١٧) Barry Rubbin. **The Great powers in the middle East, 1941-1947** (Frank cass: London, 1980), p. 37; see also mikesell, op. cit., p. 81.

(١٨) Dilip Hiro, **Inside the middle East** (Routledge Kegan paul, London, 1982), p. 338; see also walt, op. cit., pp. 221-2.

(١٩) John Martowe, the **«Persian» Gulf in the twentieth century** (London, 1962), p. 132.

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، **الولايات المتحدة والمشرق العربي** (الكويت، ١٩٧٨)، ص ٣٦.

(٢٠) Mohammed shafi Agwani, **The United states and the Arab worl 1945-1952** (Aligrah, india, 1955), p. 26.

(٢١) إن ما جاء في النص هو ترجمة Rubbin, op. cit., p. 56. ليست حرفية لتقرير كتبه ايدي Eddy القنصل الأمريكي في العربية السعودية، وكان ذلك التقرير معتمداً على آراء ابن سعود التي نقلها الشيخ يوسف ياسين القائم بأعمال وزارة الخارجية السعودية.

(٢٢) انظر ذلك الخطاب في: عبد الغفار عطار **صقر الجزيرة** (مكة، ١٣٦٤) ج ٣، ص ٦٥١.

إن تقدير ابن سعود وصداقته لبريطانيا لا يعنيان بأي حال من الأحوال التفاته عن الولايات المتحدة ومساعداتها الاقتصادية، حتى أوان كانت تلك المساعدات حتى عام ١٩٤٤ أقل مما كان يرغبه الملك عبد العزيز. ولكن كما يبدو فإن ابن سعود قد أدرك بثاقب فكره أن امكانيات الولايات المتحدة الأمريكية ستكون أقوى وأمتن من نظيرتها البريطانية، وقد قدّر ذلك من شحة موارد البريطانيين أنفسهم خلال الحرب واعتمادهم على الأمريكيين في ذلك، ولهذا فإنه فضّل أن لا يعتمد على البريطانيين فقط(٢٣).

وبجانب ذلك فقد كانت هناك شائعات، في الغالب من قبل الأمريكيين، مفادها أن البريطانيين سيقللون من مساعداتهم للعربية السعودية، وليس من المستبعد أن تكون تلك الشائعات قد وجدت طريقها إلى المسرح السياسي، وربما كانت هي ما دعا ابن سعود لأن يعيد النظر في مسألة الاعتماد الكلي على المساعدة البريطانية(٢٤).

ومع ذلك، فقد ظل ابن سعود صديقاً لكل من بريطانيا والولايات المتحدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً، حيث أخذت كل الدلائل تشير إلى ميل ابن سعود نحو أمريكا أكثر من ميله نحو بريطانيا، وربما يعود ذلك للأسباب التالية:

١ ـ تخوف ابن سعود من أن تكون بريطانيا ترغب في الحصول على الامتيازات النفطية في بلاده لا من أجل تطويرها السريع بل من أجل عرقلتها، ذلك لأن النفط السعودي سيكون أقل سعراً من نفط البلاد التي كانت ما تزال خاضعة للنفوذ البريطاني مثل ايران والعراق.

٢ ـ كانت المساعدات البريطانية للأقطار العربية ـ في الغالب ـ مشروطة بشروط قاسية.

٣ ـ إن مكانة بريطانيا الاقتصادية كانت لا تساعد على إعطاء مساعدات واسعة لأي دولة. ولهذا فإنه سيكون من غير الحكمة رفض الفرص التي قدمها الأمريكيون للمساعدة(٢٥).

على أن سياسة ابن سعود هذه لم تكن مبنية على نية مسبقة في الميل المحدد نحو بريطانيا أو الولايات المتحدة، ولكن تطور الأحداث وحدوث المنافسة بين هاتين القوتين، هو ما أدى إلى رجحان ميزان القوى لصالح الولايات المتحدة وليس لصالح بريطانيا. فالقناصل البريطانيون في جدة، بخاصة كوردن Jordan، قد عملوا على عرقلة العلاقات السياسية المتنامية بين العربية السعودية والولايات المتحدة، حتى ان ابن سعود نفسه قد هاجم القنصل البريطاني المذكور، واعتبره سبباً في تعكير صفو العلاقات السعودية الأمريكية(٢٦).

وقد مهدت هذه التطورات إلى اللقاء التاريخي الذي تم بين ابن سعود والمستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، والمستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية عام ١٩٤٥. وولّد ذلك اللقاء لدى الملك عبد العزيز صورة واضحة عن طبيعة السياستين الأمريكية والبريطانية، ووازن بينهما من حيث تحقيق مصالح بلاده حيث يقول:

(إن الفرق بين الرئيس الأمريكي والمستر تشرشل كبير جداً. ذلك لأن المستر تشرشل يتحدث بصورة ملتوية، ويتجنب التفاهم، ويغير المواضيع ويتهرب من التعهدات، بل انه يضطرني (أي الملك عبد العزيز) على أن ألفت انتباهه إلى النقطة موضوع البحث. أما الرئيس الأمريكي فإنه واضح في حديثه ويحب أن يجد أفضل صيغ التفاهم، وله الفضل في اجتماعنا سوية، وتسليط الضوء على كثير من القضايا)(٢٧).

وهكذا اتخذ الملك عبد العزيز في عام ١٩٤٥ القرار الواضح بشأن موقفه الجديد من البريطانيين والأمريكيين، ذلك القرار الذي شهد انتهاء سياسة الموازنة وانتهاج السياسة التي تكفل مصلحة البلاد دون خوف أو تردد من أي قوة أخرى. وكان ذلك القرار بفضل التبشير بوجود ثروات نفطية هائلة في العربية السعودية.

(٢٣) Rubbin, op. cit., p. 59.
(٢٤) Ibid, p. 46, 55.
(٢٥) Ibid, p. 57.
(٢٦) Ibid, p. 61.
(٢٧) Eddy to Settinius, **commentoon Voyage of king Ibn Saud to meet president Roosevelt**, 890F. OOI Abdul-Aziz/3-345. Quoted by Rubbin, op. cit., p. 63.

ملامح التاريخ السياسي للمغرب العربي

د. حسن سيد سليمان(*)

كلية الآداب ـ جامعة الامارات العربية المتحدة.

١ ـ الفترة ما قبل ١٨٣٠

يبدأ التاريخ المعروف بالنسبة للمغرب العربي بوصول الفينيقيين بهدف التجارة من موانىء سوريا. وأصبحت قرطاجنة على الساحل التونسي أهم المواقع التي أنشئت في هذه المنطقة إذ إنها لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المغرب[1]. ثم دخلت قرطاجنة في حروب مع روما لمدة ستين عاماً انتهت عام ٢٠١ ق.م بالاحتلال الروماني لبلدان المغرب. وفي خلال تلك الحروب «البونيقية» أنشأ البربر ثلاث ممالك: **مملكة الموريين (او موريتانيا)، مملكة ماسولة ومملكة مازيسولة**. وحاول القائد الكبير «أغليد» مسنيسا بمملكة ماسولة أن يوحد كل المنطقة في دولة مستقلة. ولم يستطع الرومان أن يؤثروا حضارياً على البربر الذين احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم كما استمروا في مقاومة الغزاة. ولكنهم قسموا المغرب إلى ثلاثة أجزاء رئيسية سموها افريقيا ونوميديا وموريتانيا وتقابل بالتقريب تونس والجزائر والمغرب الأقصى. وبعد الرومان جاء عصر غزو الوندال من جهة اسبانيا حيث تمكنوا من احتلال المنطقة فحلوا بذلك محل الرومان منذ عام ٤٢٩م. وحتى عودة الغزو البيزنطي في عام ٥٣٣م. واستمرت في هذه العصور انتفاضات البربر ضد الغزاة الأجانب. ثم جاء العصر التالي ممثلاً بالفتح العربي الاسلامي الذي بدأ بفتح افريقيا (تونس) منذ عام ٦٤٧م في عصر الخليفة عثمان. وتعزز موقف العرب بتأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان في تونس وبتوسيع الفتح العربي الاسلامي غرباً نحو الجزائر والمغرب الأقصى واسبانيا التي وصلها طارق بن زياد عام ٧١١م ووصل أتباعه من بعده إلى بواتييه في فرنسا عام ٧٣٢[2].

وقاوم البربر في البداية الفتح العربي الاسلامي وانتهت مقاومتهم في عام ٧٠٢م ولكنهم اتبعوا بصفة عامة مذهب الخوارج وأنشأوا بعض الممالك خاصة مملكة الأباضيين في تاهرت بأواسط المغرب ومملكة الصفريين في سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى. وبعد الفتح العربي الاسلامي نجد أن الحدث الأكبر الذي أثر على مجريات الأمور في جميع المجالات في المغرب العربي هو دخول أفواج البدو بأعداد كبيرة بعضها أتى من المشرق وهم بنو هلال أو الهلاليين وبعضهم أتى من الصحراء الغربية وسموا بالمرابطين. وقد ترتب على ذلك أن أصبح التركيب السكاني بالتدريج عربياً ـ بربرياً كما أنه حدث تحول نحو حياة الرعي بدلاً من الزراعة[3]. وفي المجال السياسي ظهرت أسر وممالك جديدة خاصة الأدارسة في المغرب الأقصى والأغالبة في تونس ولكن نجد أيضاً في القرن العاشر أن الأسرة الفاطمية قد توسعت من مصر غرباً لتشمل كل منطقة المغرب العربي وحتى المغرب الأقصى. وبانهيار الامبراطورية الفاطمية انقسم المغرب تحت حكم ثلاث أسر كبيرة من البربر هي الزريدية في افريقيا

(*) مدرس العلوم السياسية بجامعة الامارات العربية المتحدة.

(١) للتعرف على التفاصيل انظر كتاب جوليان او ترجمته العربية

Charles - Andre JULIEN, **Histoire de L'Afrique du Nord**, Paris, Payot, 1964.

شارل اندري جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩.

(٢) انظر: Robert MANTRAN, **L'expansion musulmane, VII-XI siecles**, Paris, 1969.

(٣) R. LE TOURNEAU, «North Africa in Historical perspective,» in Current problems in North Africa, Princeton University Conference, 1960, p. 4; ch-A. JULIEN, op. cit., t. 2, p. 74.

(تونس) والحمدانية في أواسط المغرب وزيناتا في المغرب الأقصى. وفي القرن الحادي عشر ومع زحف الهلاليين أسس يوسف بن تشفين دولة المرابطين في النصف الغربي من منطقة المغرب وفي اسبانيا وجعل مراكش عاصمة لها. ولكن هذه الدولة سقطت في أواسط القرن الثالث عشر على أيدي قبائل أخرى من البربر أتت من جبال الأطلس وتمكنت بقيادة عبد المؤمن من إنشاء دولة الموحدين التي سيطرت على جميع أجزاء المغرب وحتى ليبيا. وعليه استطاعت هذه الدولة ولأول مرة في تاريخ المغرب أن تحقق وحدة المغرب في ظل سلطة سياسية موحدة. وكذلك نلاحظ أن الموحدين كانوا في ذلك العصر هم حملة مشعل الحضارة الاسلامية إذ إن الدول الاسلامية في المشرق بدأت تضعف منذ نهاية القرن الحادي عشر تحت ضربات الصليبيين والمغول(٤). ولكن وحدة دولة الموحدين بدأت تضعف هي أيضاً بسبب الهزائم في اسبانيا والصراعات الداخلية وثورات القصور. ولهذا نجد أن دولة الموحدين بدأت في الفترة بين ٢٣٠ أو ٢٤٠م تنقسم إلى ثلاث ممالك بربرية: مملكة المرينيين في فاس (بالمغرب)، مملكة عبد الوديد حول تلمسان (بالجزائر) ومملكة الحفصيين في تونس وشرق الجزائر. وعليه فإن منطقة المغرب انقسمت مرة أخرى إلى ثلاثة أجزاء كما حدث في العصر الروماني ثم في القرنين الثامن والتاسع وأخيراً في القرن الحادي عشر. وقد تم وصف هذا التقسيم الأخير بدقة بواسطة العلامة المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦). وبنهاية القرن الخامس عشر ضعفت هذه الممالك الأخيرة وبدأت، بخاصة بالنسبة لمملكة المرينيين، تنقسم إلى عدة أجزاء وساعد هذا الضعف في إعادة استيلاء المسيحيين على اسبانيا في وصول البرتغاليين والاسبان إلى سواحل بلدان المغرب. ومما يذكر أيضاً ظهور عائلة «الأشراف» في جنوب المغرب الأقصى وقد أتوا من الجزيرة العربية في حوالى القرن الثاني عشر الميلادي وربطوا أنفسهم بسلالة النبي ﷺ. والواقع أن بني سعد أو السعديين قد أعلنوا حرباً مقدسة ضد البرتغاليين واستولوا على فاس. ثم أنشأوا بذلك الدولة الشريفية في عام ١٥٥٣ والتي استمرت حتى عام ١٨٣٠، وكانت العائلة العلوية قد تولت فيها السلطة بسبب انشقاق السعديين في عام ١٦٣١(٥).

وقد أدى انقسام المغرب في القرن الخامس عشر إلى التدخل الأوروبي حيث أن البرتغاليين اقاموا في عام ١٤٧١ مراكز لهم في سبتة والقصر الصغير وطنجة وارزيلا واستولوا بعد ذلك على كل سواحل المغرب الأقصى بينما أقام الاسبان مراكز لهم في السواحل الجزائرية والتونسية. وتمكن الاسبان في عام ١٤٩٧ من الاستيلاء على مليلا في المغرب الأقصى ومنها وسعوا نفوذهم على سواحل بلدان المغرب، ولكنهم فشلوا في هذا التوسع بسبب تدخل الأتراك الذين وصلوا إلى سواحل الجزائر وتونس حيث دخلوا الجزائر عام ١٥١٦ وأسس خير الدين ولاية الجزائر التي ربط مستقبلها مع الامبراطورية العثمانية، وبعدها وسع الأتراك نفوذهم نحو تونس حيث أسسوا ولاية تونس عام ١٥٣٤ وقد ربطت هي أيضاً مع الامبراطورية العثمانية. ولكن من الملاحظ أنه في القرن السابع عشر بدأت هاتان الولايتان تحصلان بالتدريج على المزيد من الاستقلال تجاه الامبراطورية العثمانية(٦). ويلاحظ كذلك أن السلطة السياسية تحولت في ولاية الجزائر من «الآغا» إلى «الداي» بينما تحولت في ولاية تونس من «الداي» إلى «الباي» عندما أسس حسين بن علي العائلة الحسينية (عام ١٧٠٥) التي أصبحت فيما بعد عائلة تونسية. ويلاحظ أخيراً أن ثورات البربر لم تتوقف في عصر الحكم التركي خاصة في ولاية الجزائر التي لم تحصل على الاستقرار الداخلي حتى وصول الفرنسيين إليها عام ١٨٣٠ بينما حظيت ولاية تونس ببعض الاستقرار بعد وصول العائلة الحسينية للسلطة. أما بالنسبة للمغرب الأقصى فإن الوضع قد اختلف لأن المغرب الأقصى استطاع أن يحافظ على استقلاله عن الحكم التركي وأن يحد من الاحتلال البرتغالي.

ولهذا حافظ المغرب الأقصى على استقلاله عن أي نفوذ خارجي وأصبح دولة قوية في عصر بعض حكامه في نهاية كل من القرنين السادس عشر والسابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، ولكنه عرف أيضاً فترات من الفوضى بسبب حركات البربر. ومع بداية القرن التاسع عشر كانت بلدان المغرب قد دخلت في فترة ركود اقتصادي واجتماعي بينما كانت أوروبا المجاورة لها تتطور مادياً واجتماعياً بسرعة فائقة مما أدى إلى تحول أنظار دول أوروبا الاستعمارية نحو السيطرة على بلدان المغرب. ويمكننا في النهاية أن نلاحظ أولاً في هذه المقدمة الموجزة للفترة ما قبل عام ١٨٣٠ أن بلدان المغرب الثلاثة قد تعرضت كلها وفي وقت واحد إلى أفواج متتالية من الغزاة والفاتحين بدأت بالفينيقيين واستمرت عبر الرومان والوندال والبيزنطيين قبل مجيء الفتح العربي الاسلامي، ثم الحكم التركي في الجزائر وتونس وأخيراً الاستعمار الأوروبي. ويلاحظ ثانياً في خلال هذه الفترات

(٤) Ibid, p. 5.

(٥) عن السعديين والعلويين انظر الدكتور صلاح العقاد، **المغرب العربي**، القاهرة مكتبة الانجلو، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩، ص ٥٣ ـ ٧٦.

(٦) انظر: Robert MANTRAN, **Le Statut de L'Algérie, de la Tunisie et de la Triplitanie dans l'Empire Ottoman**, Cagliari, 1965; ch.-A JULIEN, op. cit., pp. 250-301.

انظر كذلك الدكتور صلاح العقاد، **المغرب العربي** ص ١٩ ـ ٣٥.

معارضة البربر لهذه الأفواج الأجنبية ومقاومتهم لها مما يدل كما يرى البعض على اتجاهاتهم الثورية التي وضحت أيضاً مع تبنيهم لمذهب الخوارج بعد الفتح العربي الاسلامي. ويلاحظ ثالثاً أن الحضارات السابقة للفتح العربي الاسلامي لم تؤثر على البربر الذين حافظوا في تلك العصور على عاداتهم وتقاليدهم، وأن الحضارة العربية الاسلامية وحدها هي التي استطاعت أن تؤثر على السكان في بلدان المغرب تأثيراً كبيراً استمر لعدة قرون وما زال يميز هذه المنطقة حتى اليوم بالرغم من كل محاولات الاستعمار الغربي الفرنسي طمس معالم هذه الحضارة بهدف فرض سيطرة الحضارة الغربية على المنطقة. ويلاحظ أخيراً أن بلدان المغرب التي اتخذت من الحضارة العربية الاسلامية السمة الغالبة والمميزة لها، كان عليها أن تواجه من جديد احتلالاً أجنبياً من غرب أوروبا يحمل معه حضارة جديدة كانت تزعم بأنها الحضارة المتفوقة والجديرة بالانتشار.

٢ ـ الاحتلال الفرنسي

يعتبر عام ١٨٣٠ بداية التدخل الفرنسي في بلاد المغرب إذ قررت الحكومة الفرنسية ارسال حملة عسكرية استولت على مدينة الجزائر في ٥ يوليو ١٨٣٠ بدون خطة للاحتلال في حالة النصر. ويرى البعض هنا أن الحملة كانت تهدف إلى إحياء السياسة التوسعية وانشاء امبراطورية استعمارية ثانية بعد فقدان فرنسا للامبراطورية الأولى عقب حروب الثورة ونابليون وتنازلها عن بعض المستعمرات لبريطانيا عام ١٨١٥. ومن الأسباب الأخرى التي ذكرت للحملة بحث حكومة البوربون الفرنسية في عصر شارل العاشر عن نصر خارجي لإبراز عظمتها في الخارج وذلك بسبب سوء سياستها الداخلية وكذلك بهدف تصفية بعض المسائل المالية المعلقة بين فرنسا والداي في الجزائر[٧]. ومن الأسباب أيضاً استمرار شعور التعصب الديني وشعور فرنسا بأنها زعيمة الدول الكاثوليكية في منطقة البحر الأبيض المتوسط[٨].

وأخيراً فإن السبب المباشر كان حادثة لطمة المروحة الشهيرة التي قام بها الداي حسين ضد قنصل فرنسا في الجزائر عام ١٨٢٧. وعليه يلاحظ عدم وجود سياسة مبدئية محدودة في احتلال فرنسا للجزائر، ولكن بعد التوسع الفرنسي على مدن الساحل الجزائري وبعد ظهور مقاومة داخلية، أعلنت فرنسا عام ١٨٣٤ عن سياستها في قرار الاحتفاظ بالأجزاء المحتلة في الجزائر وتعيين «حاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال افريقيا» بالإضافة لتوسيع عملياتها العسكرية ضد المقاومة المحلية التي تزعمها الأمير عبد القادر بن محي الدين ضد الغزاة الفرنسيين والتي استمرت حتى نهاية عام ١٨٤٧. ثم صدر الدستور الفرنسي لعام ١٨٤٨ معلناً أن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأراضي الفرنسية. واعتبرت بالتالي الولايات الجزائرية الثلاث كولايات تابعة لفرنسا[٩]. وترتب على ذلك استمرار المقاومة في الواحات الجنوبية وبلاد القبايل من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٧ ثم قيام الانتفاضات الأخيرة خاصة ثورة المقراني في عام ١٨٧١ وأخيراً ثورة أولاد سيدي شيخ تحت قيادة بو عمامة عام ١٨٨١[١٠].

وفي عام ١٨٨١ بدأت فرنسا تدخلها في تونس وفعلت ذلك أيضاً عام ١٩١٢ بالنسبة للمغرب الأقصى في شكل نظام الحماية. ويمكننا هنا أن نتساءل أولاً عن أسباب مد فرنسا لنفوذها على تونس والمغرب الأقصى. ويبدو السبب الأول في أن القبائل التونسية والمغربية لم تكن تخضع تماماً للحكومة المركزية في كل من تونس والمغرب (الباي في تونس والسلطان في المغرب) وكانت بعض القبائل تعبر الحدود نحو الجزائر وتهاجم السكان بينما كانت أيضاً وفي نفس الوقت تمنح الملجأ للجزائريين المعارضين للسلطات الفرنسية. ثانياً يلاحظ أن حكومتي تونس والمغرب الأقصى كانتا ضعيفتين ومتخلفتين بالرغم من محاولاتهما تحديث جيوشهما مما جعل البلدين عرضة سهلة لغزو دولة أقوى مثل فرنسا. ثالثاً بدأت ايطاليا تظهر مطامعها بتونس منذ توحيد ايطاليا عام ١٨٧٠. كذلك كان هناك تنافس واضح بين بريطانيا وفرنسا حول المغرب خاصة بعد تعيين ماك لين، وهو انجليزي، كمرشد للمدفعية المغربية عام ١٨٧٧ وكان الواضح أن فرنسا لم يكن بإمكانها أن تسمح بوجود قوة أوروبية أخرى على أي من جانبي الجزائر. رابعاً وأخيراً نجد أن بعض المجموعات الاقتصادية الفرنسية التي قامت في الجزائر أرادت أن توسع أعمالها شرقاً وغرباً أي باتجاه تونس والمغرب الأقصى[١١].

وعليه ظهر نظام الحماية الفرنسية أولاً في تونس عام ١٨٨١

(٧) انظر: Ch.-A. JULIEN, **Histoire de L'Algérie contemporaine,** Coll «Que sais-je?» (400) p. 8; R.ARON, Les origines de la guerre d'Algérie, Paris, 1962, p.31.
وكتاب الدكتور صلاح العقاد، سبق ذكره، ص ٨٥.

(٨) انظر المرجع السابق للدكتور صلاح العقاد، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٩) انظر Ch.-A. JULIEN, op. cit., t. 2., p. 294.

(١٠) انظر التفاصيل في كتاب الدكتور صلاح العقاد، سبق ذكره، ص ١٠٤ ـ ١٤٠ وكتاب عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، القسطيطينية، ١٩٦٥، ص ١٧٣ ـ ٢١٣.

(١١) انظر: R. LE TOURNEAU, **«North Africa...»**, op. cit., pp. 10-11.

من خلال معاهدة باردو التي عقدت يوم ١٢ مايو بين الباي في تونس وجنرال بريرت عن فرنسا. ونصت المعاهدة على أن الباي «وافق» على احتلال فرنسي مؤقت بهدف الحفاظ على الأمن في تونس وأن تتولى فرنسا الشؤون الخارجية والمالية لتونس[١٢]. ولكن المعاهدة الأخرى التي أعلنت في المرسى في ٨ يونيو ١٨٨٣ نصت على نظام الحماية وعلى إعطاء فرنسا الحق بالقيام بالاصلاحات الادارية والقضائية والمالية التي تراها الحكومة الفرنسية مفيدة. وقد أدى فرض نظام الحماية في تونس إلى قيام مقاومة عنيفة محدودة في الجزء الجنوبي من البلاد خاصة في القيروان.

أما بالنسبة للمغرب الأقصى فتجدر الملاحظة أن الدول الأوروبية التي اهتمت منذ زمن بعيد بالمغرب، بدأت تتدخل في المغرب بحجة ضمان وحدة المملكة الشريفية ولكن كل منها كانت تؤمل سراً في فرض نفوذها في المغرب على حساب الدول الأخرى. وفي عام ١٩٠٧ أعطيت السلطة لمولى حفيظ في مراكش ليقاوم التدخل الأجنبي ولكنه اضطر حسب رأي بعض الكتاب الفرنسيين لتوقيع معاهدة الحماية مع فرنسا في فاس يوم ٣٠ مارس/ آذار ١٩١٢ بسبب نزاعات القبائل ومؤامرات القوى الكبرى والمصاعب المالية[١٣]. ولكن نجد على الجانب الآخر حسب رأي الوطنيين أن معاهدتي باردو وفاس قد فرضتا بالقوة لأن الباي في تونس ومولى حفيظ وقعا عليهما تحت تهديد السلاح[١٤]. واضافة إلى ذلك يمكننا أن نلاحظ أنه كانت توجد سابقاً اتفاقيات سرية بين القوى الكبرى حول سيطرة فرنسا على المغرب الأقصى. وأولى هذه الاتفاقيات تمت عام ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا ثم قبلتها اسبانيا (التي سيطرت من قبل على شمال المغرب الأقصى). وبعد احتجاجات المانيا على اتفاقية الجزيرة التي وقعت في ٧ أبريل/ نيسان ١٩٠٦ بين المغرب و١٢ دولة حول الأمور التجارية، تخلّت فرنسا لالمانيا عن اقليم في افريقيا الاستوائية (بموجب معاهدة وقعت في ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١١) لتضمن في المقابل الاعتراف بقيام حمايتها في المغرب عام ١٩١٢. وأخيراً حددت اتفاقية ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٢ بين فرنسا واسبانيا حدود الجزء الاسباني في شمال المغرب الأقصى مع التوقيع على قيام نظام خاص بطنجة حدد فيما بعد في باريس بمعاهدة ١٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٣ بين بريطانيا واسبانيا وفرنسا على أساس قيام ادارة عالمية لطنجة تحت سلطة ممثل أو «مندوب» السلطان[١٥].

وفي الجزء الفرنسي من المغرب الأقصى تم تعيين الجنرال ليوتي كأول مقيم عام لفرنسا، بينما تنازل مولى حفيظ عن السلطة وحل محله مولى يوسف (١٩١٢ ـ ١٩٢٧)[١٦]. وبعد سنوات من قيام نظام الحماية اندلعت الحرب في الريف المغربي بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي الذي هزم الاسبان في معركة أنوال عام ١٩٢١ وانشأ «جمهورية الريف» في العام التالي مما أدى للتنسيق بين فرنسا واسبانيا عسكرياً لإرغام عبد الكريم على الاستسلام عام ١٩٢٦ ولكن الأحوال لم تهدأ في المغرب الأقصى إلا في ابريل/ نيسان ١٩٣٤[١٧].

٣ ـ المقاومة المسلحة

يمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣١) وتونس (١٨٨١) والمغرب الأقصى (١٩١٢) قد ترتب عليه قيام مستعمرة (الجزائر) ومحميتين (تونس والمغرب الأقصى). وتم انشاء هاتين المحميتين لأن تونس والمغرب الأقصى بخلاف الجزائر كان لهما تاريخ سياسي وتقاليد سياسية محلية بسبب وجود حكومة لها سند شعبي منذ زمن طويل في كل من البلدين. كما أن فرنسا استخدمت مصطلح الحماية على تونس والمغرب الأقصى لكي لا تثير معارضة الدول الأوروبية الأخرى التي كانت لها مطامع أيضاً في هذين البلدين. وكان يفترض بالتالي أن نظام الحماية نظام مؤقت يعترف بالسيادة الداخلية للدولة المحمية. ولكن وبالرغم من جهود الجنرال ليوتي في إعطاء نظام الحماية رسالة سامية تتفق مع هذا الافتراض، إلا أن هذا النظام تحول في الواقع العملي إلى نظام الادارة المباشرة في تونس والمغرب الأقصى مما أدى إلى اقتراب هذين البلدين من نظام الادارة الاستعمارية في الجزائر وما تبعها من سياسات الاستيطان الأوروبي والادماج مع فرنسا. ويمكننا أن نلاحظ أيضاً في النهاية أن مقاومة الاحتلال الفرنسي كانت محدودة بالنسبة لتونس وأنها على العكس من ذلك اتخذت طابعاً هاماً بالنسبة للجزائر والمغرب الأقصى حيث قاد كل من الأمير عبد

(١٢) انظر نصوص المعاهدة في كتاب الدكتور صلاح العقاد، سبق ذكره، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧. وكتاب الحبيب ثامر ـ **هذه تونس** ـ القاهرة مكتب المغرب العربي، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(١٣) انظر: R, Le TOURNEAU, **Evolution Politique de l'Afrique du Nord Musulmane**, Paris, A. Colin, 1962, p. 171.

(١٤) علال الفاسي ـ **المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى** ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ ـ ص ٦ ـ ٧.

(١٥) انظر: R. Le TOURNEAU, **Evolution Politique...**, op. cit., p. 171-172.
وكتاب الدكتور صلاح العقاد، سبق ذكره، ص ٢٣٨ ـ ٢٧٢.

(١٦) انظر: Jean-Louis MIEGE, **Le Maroc**, Coll. «Que sais-je?» (439), pp. 40-41.

(١٧) انظر كتاب صلاح العقاد، سبق ذكره، ص ٢٨٢ ـ ٢٩٢.

القادر والأمير عبد الكريم حرباً اسلامية مقدسة وأنشأ كل منهما نظاماً سياسياً لفترة من الوقت في كل من الجزائر والمغرب. وعليه يمكننا أن نعتبر أن هذه المقاومة المسلحة هي المرحلة الأولى من حركات التحرير الوطني في بلدان المغرب العربي. والواقع أن المقاومة المسلحة التونسية كانت قد انحصرت في الجنوب التونسي تحت قيادات محلية، ولهذا كانت محدودة الأثر في المكان والزمان، كما أنها لم تستمر طويلاً لضعف امكانياتها. اما المقاومة في الجزائر والمغرب فقد اتخذت طابعاً عاماً وكانت أكثر تنظيماً وأقوى قيادة من المقاومة التونسية. ولهذا تمكنت المقاومة في كل من الجزائر والمغرب من إنشاء دولة لها نظمها ومؤسساتها المختلفة ومنها الجيش لكي يقوم بمهمة الجهاد والنضال ضد الوجود الفرنسي.

ففي الجزائر نجد أن الأمير ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين الحسيني (١٨٠٧ ـ ١٨٨٣) الذي ولد بقرية في منطقة وهران وتوفي في المنفى بسوريا، قد تلقى البيعة من أهل الحل والعقد ليتولى الامارة والقيادة (كلمة امير ترمز في الأصل لقيادة الجيوش والحرب). واتخذ الأمير عبد القادر مدينة عسكر عاصمة له واقام نظاماً سياسياً تتمثل أهم مؤسساته في المجلس الاستشاري الأعلى المكوَّن من أحد عشر عضواً (وهم من العلماء والأعيان) ومجلس الوزراء لإدارة الشؤون المختلفة خاصة الداخلية والخارجية والمالية والأوقاف والصدقات والزكاة بالإضافة للخزينة والحرب. وبالنسبة لهذه الوزارة الأخيرة نلاحظ أن الأمير عبد القادر قاد حرباً مقدسة ووطنية ضد الاحتلال الفرنسي، واستمرت هذه الحرب لمدة خمسة عشر عاماً (١٨٣٢ ـ ١٨٤٧). ويضاف إلى ذلك اهتمام الأمير عبد القادر بإدارة الأقاليم أو الولايات حيث عيّن حكاماً لها ليحلّوا محل الأتراك[١٨].

ويعتبر بذلك الأمير عبد القادر مؤسس دولة جزائرية قادت حركة المقاومة المسلحة ضد الوجود الفرنسي وفتحت بذلك الطريق فيما بعد لحركات مقاومة أخرى أعقبتها حركات سياسية وطنية ثم مقاومة مسلحة من جديد في شكل ثورة جزائرية تم تفجيرها في أول نوفمبر ١٩٥٤ وارتبطت بحركة الأمير القادر ـ كما واصلت المقاومة والحرب لمدة سبعة أعوام ونصف انتهت بحصول الجزائر على استقلالها في عام ١٩٦٢. وبذلك مهد الأمير عبد القادر الطريق للثورة الجزائرية ضد الوجود الفرنسي وذلك من خلال جهاده وكفاحه ضد الفرنسيين لفترة طويلة من الوقت جعلت فرنسا تحشد قواتها وأسلحتها في الجزائر ضد الأمير عبد القادر ودولته. ثم وعدته بالأمان إذا أوقف الحرب واستسلم ولم تف بوعدها حيث نفي الأمير عبد القادر إلى سوريا عام ١٨٤٧. وهناك ألّف كتاباً علمياً من جزءين أحدهما في الفلسفة والدين والآخر في خصائص وتاريخ الشعوب المختلفة التي ساهمت في تطوير الحضارة[١٩].

والواقع أن حركة المقاومة المسلحة التي بدأها الأمير عبد القادر لم تتوقف بعد نفيه وذلك لأنها استمرت منذ العام التالي عندما صدر الدستور الفرنسي عام ١٨٤٨ وأعلن أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا. وعليه امتدت المقاومة في الواحات الجنوبية وكذلك في بلاد القبايل البربرية واستمرت حتى عام ١٨٥٧. وأتت بعد ذلك الانتفاضة الكبرى عام ١٨٧١ بقيادة المقراني، وذكر أن أهم أسبابها ازدياد الاستياء عند المسلمين، انشاء المحاكم المدنية، النتائج المدمرة لحرب ١٨٧٠، وأخيراً رغبة الجزائريين في استرداد استقلالهم[٢٠]. ولهذا حاول محي الدين وهو الابن الأكبر للأمير عبد القادر احياء الجهاد ضد الفرنسيين. إلا أن الثورة الكبرى حدثت في بلاد القبايل بقيادة المقراني واخوانه. وامتدت الثورة على امتداد الساحل وحتى الصحراء كما استمرت لعدة أشهر (مارس/ آذار ١٨٧١ ـ يناير/ كانون الثاني ١٨٧٢). وانتهت المقاومة باستسلام الحداد قائد الطريقة الرحمانية وبموت بومزرق الذي واصل الكفاح بعد استشهاد شقيقه المقراني. وقام الفرنسيون بعمليات قمع رهيبة وواسعة ضد الثوار. وفي عام ١٨٨١ قامت الانتفاضة الأخيرة في جنوب وهران وهي انتفاضة أولاد سيدي شيخ بقيادة بوعمامة. وهذه الانتفاضة جاءت بعد اغتيال العقيد الفرنسي فلاترز وانتهت أيضاً بعمليات قمع لا رحمة فيها ضد الوطنيين الجزائريين مما أدى لتقوية وتثبيت الوجود الفرنسي بالجزائر.

أما في المغرب الأقصى فنجد أن الأمير عبد الكريم الخطابي قد قاد هو أيضاً مقاومة مسلحة ضد الوجود الفرنسي وذلك في اطار دولة عرفت باسم «جمهورية الريف». والأمير عبد الكريم (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣) هو من طلاب جامعة القرويين بفاس، وتمكن بمساندة قبيلته (بني اوريا غيل) من تأسيس حكومة الريف بعد انتصاره العسكري على الاسبان في معركة أنوال عام ١٩٢١. وبالرغم من قصر المدة التي عاشتها «جمهورية الريف» (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) إلا أنها كانت تجربة سياسية وطنية لها أهميتها الكبرى في تفجير المقاومة المسلحة المغربية ضد الوجود الاسباني والفرنسي على السواء كما أنها مهّدت الطريق للحركة الوطنية السياسية المغربية ثم حركة المقاومة المسلحة التي ظهرت فيما بعد في الريف المغربي بعد نفي السلطان محمد الخامس

(١٨) انظر كتاب يحيى بو عزيز: **الأمير عبد القادر ـ رائد الكفاح الجزائري**، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.

(١٩) انظر حول هذا الكتاب وحول أفكار الأمير عبد القادر كتاب محمد شريف ساحلي بالفرنسية:

Mohamed cherif Sahili, **Abd-al-kader chevalier de la foi,** 1947 & paris, 1967.

(٢٠) انظر: A. AGERON, **Histoire de L'Algérie contemporaine,** Collection «Que sais-je?» (400), op. cit., pp. 40-41.

عام ١٩٥٣ إلى جزيرة مدغشقر مما أدى لما عرف باسم «حرب الريف الثانية» التي ساهمت مع الأحزاب السياسية (واهمها حزب الاستقلال بقيادة علال الفاسي) ومع الملك محمد الخامس في حصول المغرب الأقصى على استقلاله عام ١٩٥٦.

ومما يجدر ذكره أن «حكومة الريف» تضمنت مجلساً للنواب يقوم بمهمة الجهاز التشريعي ويسمى «المجلس الوطني» كما يمثل القبائل والسكان والقادة والشيوخ حسب تقاليد المغرب(٢١). وفي أول جلسة للمجلس قرر استقلال الوطن كما شكل حكومة برئاسة الأمير عبد الكريم الذي عين شقيقه كنائب له بالإضافة لعدد من الوزراء الذين تولوا الداخلية والخارجية والعدل والحرب. وبالنسبة للوزارة الأخيرة نلاحظ تركيز الأمير عبد الكريم على الجهاد والحرب ضد الوجود الاسباني والفرنسي في البلاد. ويضاف إلى ذلك إنشاء بعض المحاكم وتعيين قادة على القبائل لممارسة بعض السلطات الادارية والعسكرية والمالية (جمع الضرائب). كذلك يلاحظ أن مجلس النواب في «حكومة الريف» أعد دستوراً يقوم على أساس سيادة الشعب وبدون فصل للسلطتين التشريعية والتنفيذية. وفي هذا الدستور نجد أن الوزراء مسؤولون أمام رئيس مجلس الوزراء الذي هو وحده يتحمل المسؤولية أمام «المجلس الوطني». وأعد «المجلس الوطني» أيضاً ميثاقاً وطنياً ينص على استقلال حكومة الريف وعدم الاعتراف بالمعاهدات خاصة معاهدة فاس لعام ١٩١٢ والتي انشىء بموجبها نظام الحماية في المغرب الأقصى.

والحقيقة أن الأمير عبد الكريم الخطابي سجل الكثير من الانتصارات العسكرية على الاسبان والفرنسيين مما أدى بهم للتقارب والتكتل ضده. وبعد استسلام الأمير عبد الكريم عام ١٩٢٦، نُفي إلى جزيرة الريونيون. ولكن دوره لم ينته بهذا النفي لأنه هرب في عام ١٩٤٧ من السفينة التي كانت تقله إلى فرنسا ولجأ إلى حماية ملك مصر كما شارك في القاهرة مع علال الفاسي وبورقيبة وحزب الشعب الجزائري في تأسيس لجنة المغرب العربي التي ترأسها. ثم أصدر عام ١٩٤٨ «ميثاق التحرير» من أجل الاسلام والعروبة والاستقلال الكامل لجميع دول المغرب العربي. وعاش ليشهد استقلال المغرب العربي ويشارك بإبداء الرأي حتى توفي عام ١٩٦٣(٢٢).

وبذلك نلاحظ في النهاية وجود المقاومة المسلحة في بلدان المغرب العربي ضد دخول الفرنسيين وسيطرتهم على هذه المنطقة، كما نلاحظ قوة هذه المقاومة خاصة في الجزائر والمغرب الأقصى وتأثيرها فيما بعد على الحركات الوطنية في هذين البلدين حيث نشأت مقاومة مسلحة في كل منهما قبيل الاستقلال في شكل حرب تحرير استقلالية ارتبطت مع حركتي الأمير عبد القادر والأمير عبد الكريم. والملاحظ أيضاً أنه حدثت في تونس حركة مسلحة سماها الفرنسيون «الفلاجة» أو قطاع الطرق، وذلك بالرغم من محدودية المقاومة المسلحة في تونس عند دخول الفرنسيين وبالرغم من سياسة الرئيس بورقيبة زعيم حزب الدستور الجديد في اتباع سياسة المراحل والتعاون مع فرنسا من أجل حصول تونس على استقلالها. وعليه يمكننا أن نلاحظ أن المقاومة المسلحة التي بدأت في بلدان المغرب العربي مع دخول الفرنسيين قد ظهرت أيضاً في تلك البلدان قبيل حصولها على الاستقلال مما يؤكد الترابط بين البداية والنهاية كما يؤكد فشل جميع الوسائل السياسية والسلمية لاقناع الفرنسيين بالانسحاب والاعتراف باستقلال بلدان المغرب العربي. ويمكننا أن نعتبر عام ١٩٥٤ وخاصة أيضاً العام الذي أتى من بعده (أي عام ١٩٥٥) تتويجاً لفترة المقاومة المسلحة في جميع أنحاء المغرب العربي ضد الوجود الفرنسي. كما يمكننا أن نلاحظ وجود محاولات للتنسيق بين حركات المقاومة في بلدان المغرب الثلاثة، وأن هذا التنسيق قد تم بالفعل خاصة بين جيش التحرير المغربي وجيش التحرير الجزائري عندما وحّدا جهودهما العسكرية في عدد من العمليات المشتركة ضد القوات الفرنسية.

وأخيراً، يمكننا أن نلاحظ بصفة عامة تعاطف حركة المقاومة في المشرق (ضد الوجود الاستعماري الفرنسي والبريطاني) مع حركات المقاومة في بلدان المغرب من أجل الحصول على استقلالها. وإذا كان الاستعمار الغربي قد قسم البلدان العربية واتبع فيها سياسة «فرّق تسد» وبالتالي جعل حركات المقاومة فيها تركز على التحرير الوطني داخلياً إلا أن هذه الحركات كانت تعرف بعضها البعض وتتأثر وتتفاعل مع بعضها البعض.

ويمكننا هنا أن نشير إلى الترابط الذي حدث بين المشرق والمغرب من خلال قيام الجامعة العربية عام ١٩٤٥ وبتكوين لجنة المغرب العربي في القاهرة منذ عام ١٩٤٧ مع قيام هيئات مرتبطة بها في بعض البلدان العربية في المشرق (مثال ذلك لجنة الدفاع عن المغرب العربي في دمشق وجمعية الدفاع عن المغرب العربي في بيروت) بالإضافة إلى مساندة الدول العربية فيما بعد للثورة الجزائرية واعترافها بالحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية، وذلك قبل أن تحصل الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢. وكل هذا يؤكد في النهاية أن بلدان المشرق والمغرب تنتمي كلها إلى مجموعة واحدة ذات تاريخ واحد وخصائص حضارية مشتركة وكذلك لها أهداف واحدة أهمها التحرر من جميع أنواع السيطرة الأجنبية وتحقيق الوحدة العربية الشاملة.

(٢١) انظر علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، القاهرة، ١٩٤٨.
(٢٢) حول عبد الكريم الخطابي انظر كتاب محمد العلمي، **زعيم الريف ـ محمد عبد الكريم الخطابي**، الدار البيضاء، ١٩٦٨.

الدين المصري العام
دراسة في التاريخ الاقتصادي
١٨٥٤ - ١٨٤٣

أ.د. محمود متولي

كلية الآداب ـ جامعة المنيا.

بدأت سيطرة الأجانب على شؤون مصر المالية مع بداية الدين العام في مصر منذ ولاية سعيد باشا عام ١٨٥٤. فهو المسؤول الأول عن تحميل مصر بأول دين خارجي وفي وضع أساس نظام الاقتراض الذي طبقه خلفه اسماعيل إلى أقصى درجة[١].

وكان سعيد يستدين من البنوك الأجنبية بالقاهرة والاسكندرية بفتح حسابات جارية، وكانت هذه الحسابات تسوّى بسندات غير قابلة للتحويل، ثم اتفق على أن تكون لحاملها، وقد صادفت هذه السندات رواجاً كبيراً بسبب ارتفاع الفائدة التي كانت تعطيها الحكومة[٢].

وشجعت سهولة الحصول على الأموال على التمادي في الإسراف، ومما يروى عنه أنه انفق أكثر من ١٠ ملايين من الفرنكات في زخرفة حجرة واحدة[٣]. كما أنه عند رحيله إلى أوروبا في مايو/ أيار ١٨٦٢ وزع ٧ ملايين فرنك على سبيل الكرم[٤]. كما أدت، سوء ادارته إلى ارتباك الحالة المالية في أواخر أيامه ارتباكاً اضطره إلى بيع أثاث بعض قصوره، وإلى التوقف عن دفع مرتبات الموظفين، والتجأ في آخر الأمر إلى طريقة غريبة من نوعها، وهي إصدار أوراق مالية لا قيمة لها عبارة عن تحاويل على المالية المصرية لا تدفعها الخزانة.

ويعتبر البعض أن أول قروض سعيد الرسمية بدأت عام ١٨٦٢، ولكن الواقع أن سعيد لم يدفع ثمن الأسهم التي اشتراها من شركة القناة، وإنما أعطى مقابل ثمنها سندات على الخزانة، ومن ثم يمكن أن نعتبر واقعياً بداية الدين العام لمصر هو ثمن الأسهم المؤجل دفعها والتي ترجع إلى العام ١٨٥٨[٥].

وفي عام ١٨٦٢ طلب سعيد أول قرض أجنبي، وكان مقداره ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه. واستلم القرض على دفعتين الأولى مقدارها ٢,١٩٥,٢٠٠ جنيه والثانية مقدارها ١,٠٩٧,٦٠٠ جنيه على أن يسدد في بحر ثلاثين سنة[٦]. اي أن استهلاكه يتم في سنة ١٨٩٢، وعقد هذا القرض بفائدة ٧٪ ولذا لم تتجاوز حصيلته ٢,٦٤٠,٠٠٠ ج[٧]. وتشير جميع المراجع إلى أن العقد قد عمل مع فلورنج وجوش.

وكانت الرأسمالية الأوروبية على استعداد للمغامرة بأموالها والاستجابة لمطالب سعيد، وساعد على هذا، نشاط حركة المضاربة في ذلك الوقت وكثرة الأموال التي كانت تنشد الفوائد الباهظة في البلاد الأجنبية، حيث تطلع الأجانب إلى استثمار أموالهم في مصر بعد أن كسدت السوق الداخلية أمام تلك الاستثمارات في بلادهم، خاصة وأن ارتباطات مصر المالية لم يكن قد ظهر لها أثر خارجي[٨].

(١) محمود الدرويش دين مصر العام، مصر المعاصرة العدد ٣٢٢ اكتوبر ١٩٦٥، ص ٥٣.

(٢) د. نجيب يوسف. **علم المالية والتشريع المالي** (القاهرة ١٩٤٦) صفحة ٣٦٧.

(٣) د. محمد عبد الرحيم مصطفى. **تاريخ مصر الحديث** ج ٢ (القاهرة ١٩٣٢) صفحة ٣٦٧.

(٤) David, Landes: - **Banques and Pashas** p. 93.

(٥) كامل المصري **الاقتصاد السياسي** ج ١ (القاهرة ١٩٢٨)، ص ٧١.

(٦) ابراهيم جمال: **الاقوال الجلية في اختصاص المحاكم الأهلية**، ج ١، في الاختصاص العام طبع في طبعة المحروسة سنة ١٨٩٤، ص ٤٧.

(٧) A. Todd, **Political Economy** London, 1950, p. 361.

(٨) J. Rabino, La Progression de la Dette Egyptienne; Bulletin de l'Institute de Egypte 1889, pp. 29-49.

وعند وفاة سعيد بلغ دين مصر ٩ مليون جنيه تقريباً، وبيانها كالتالي[٩]:

٣,٢٩٢,٨٠٠	قيمة القرض الخارجي
٢,٠٨٠,٠٠٠	قيمة أسهم شركات قناة السويس المؤجل دفعها
٣,٢٤٠,٠٠٠	قيمة الدين السائر
٥٠٠,٠٠٠	قيمة العجز في الميزانية
٩,١١٢,٨٠٠	الجملـة

وكانت بداية حكم اسماعيل عهد رخاء كبير سببته الحرب الأهلية الأمريكية التي جعلت البلاد الأوروبية تتجه إلى مصر لشراء حاجتها من القطن، فارتفعت أسعاره إلى ٥٠ ريالاً للقنطار، حتى أن صادرات مصر وتجارتها الخارجية زادت إلى الضعفين في عامين، فقد ارتفعت من ٤,٥ مليون جنيه عام ١٨٦٢/٦١ إلى ١٤,٥ مليون جنيه ٦٣/ ١٨٦٤. وكان يمكن لاسماعيل أن يسدد ديون سلفه، خاصة وأنها لم تكن من الكثرة بحيث يصعب سدادها، ولكنه بدأ عهده بطموحه، ولم يكن بعيد النظر، بل اتجه إلى الإسراف والبذخ وسرعان ما انتهت الحرب الامريكية، وانهارت أسعار القطن، وما أن انتصف عام ١٨٦٤ حتى كان اسماعيل بحاجة إلى الأموال ليفي بتعهدات مصر المالية[١٠].

ولعل من أهم الأسباب التي أدّت إلى عجز الميزانية في عهد اسماعيل كثرة أعمال العمران. فقد بلغت المصروفات على أعمال الترع والكباري والسكك الحديدية والتلغرافات والمنائر وميناء الاسكندرية والسويس مبلغ ٣٩ مليون جنيه تقريباً، ومع ذلك كانت ايرادات الحكومة حتى عام ١٨٧٥ أقل بقليل من مصروفاتها في تلك المدة[١١].

ولكن زاد من خطورة الأزمة المالية سياسة البذخ التي تمثلت في رحلة الوالي إلى القسطنطينية، ثم رحلة السلطان إلى مصر، وفي الهدايا التي قدمها اسماعيل مقابل الفرمانات التي حصل عليها من الباب العالي، وقد ذكر سير و.، سفير انجلترا في الآستانة في تقرير إلى لورد جرانفيل، أن الفرمان الثاني وحده كلّف الخديوي ٩٦٠ ألف جنيه منها ٩٠٠ ألف للسلطان، و٢٥ ألفاً لوزيره الأكبر و٢٠ ألف جنيه لموظفين آخرين في السراي الشاهانية[١٢].

وما أنفقه في رحلته إلى أوروبا لدعوة عواهلها إلى حضور حفلة افتتاح قناة السويس وتكاليف الحفلة نفسها، ويقدر ماكوان ذلك بمبلغ ١,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بينما يقدرها البعض بأربعة ملايين من الجنيهات[١٣].

وكل ذلك أوقع اسماعيل في ارتباك مالي حاول التخلص منه بعقد سلسلة متتالية، تكاد تكون سنوية، من القروض الأجنبية مما أدى إلى تراكم الديون على مصر في عهده، وبلغت جملتها ١٢٢,٣٥٤,٣٦٠ جنيهاً انجليزياً[١٤].

ويمكن تقسيم الدين في عهد اسماعيل إلى الأنواع التالية[١٥]:

أولاً: الديون الثابتة

وهي التي كان يقترضها من البيوتات المالية الأوروبية نظير تقديم الضمان الكافي لسدادها كدخل بعض المصالح الحكومية أو الضرائب التي تجبى من بعض المديريات. وقد بلغت الديون الثابتة في الفترة من ١٨٦٣ حتى ١٨٦٨ نحو ٢٠ مليون جنيه.

ثانياً: الديون السائرة

وهي التي تبقى عليه عندما يطلب إلى شخص أو شركة القيام بمشروع من مشروعاته ولا يستطيع أن يدفع المبلغ المتفق عليه فوراً، وتكاثرت الديون السائرة الصغيرة إلى حد لم يستطع معه اسماعيل سدادها عندما حان ميعاد دفعها، فكان يضطر إلى تأجيل الدفع نظير دفع فوائد باهظة، حتى أصبحت الديون بسببها ثلاثة أو أربعة أمثال المبلغ الأصلي، وقد بلغ هذا النوع من الدين في سنة ١٨٧٣، حوالى ٢٥ مليون جنيه انجليزي.

ثالثاً: الديون الداخلية

وهي الديون الأهلية التي تقترضها الحكومة من أهالي البلاد، ومن أمثلتها دين الروزنامة وقد بلغ ما جمعته الحكومة من هذا القرض ٣,٣٣٧,٠٠٠ جنيه. وأيضاً قروض، المقابلة وقد بلغ ما جمعته الحكومة من المقابلة ١٣,٥ مليون جنيه حتى عام ١٨٧٧[١٦].

---

(٩) د. نجيب يوسف، **علم المالية الساحة والتشريع المالي**، مرجع سابق، صفحة ٣٦٧.
(١٠) محمود الدرويش**دين مصر العام**، مرجع سابق، ص ٥٦.
(١١) احمد احمد الحته. **تاريخ مصر الاقتصادي في القرن ١٩** (القاهرة: الطبعة الثانية ١٩٥٧)، ص ٣٦٩.
(١٢) مكوان مصر في عهد اسماعيل مقال (بالمجمع العلمي المصري) ١٨٨٩، ص ١٤٤.
(١٣) محمود الدرويش **دين مصر العام**، مرجع سابق، ص ٦٧.
(١٤) احمد احمد الحته، المرجع السابق، ص ٣٧٢.
(١٥) محمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٦١ ـ ٦٢.
(١٦) محمود الدرويش، **دين مصر العام**، مرجع سابق، ص ١١٠.

ورغم أن الباب العالي سنة ١٨٦٨ قد أصدر فرماناً يحرم فيه على الخديوي عقد قروض مع الدول الأجنبية بغير استئذانه، ولكن اسماعيل تحاشى هذا القيد بإقدامه على رهن ايرادات أملاكه الخاصة بدلاً من ايرادات الحكومة.

وزادت الحالة سوءاً مما دعا اسماعيل إلى بيع أسهم مصر في شركة قناة السويس، وبدأت الأحوال تضطرب حتى توقفت الحكومة المصرية عن دفع فوائد وأقساط السندات في ١٦ أبريل سنة ١٨٧٦.

ويوضح الجدول الآتي صورة القروض العامة منذ ١٨٦٢ حتى ١٨٧٣.

م	اسم القرض	تاريخ القرض	القيمة الاسمية جـ ك	تاريخ الاستهلاك	سعر الفائدة ٪	المبلغ الذي حصلت عليه الخزانة المصرية	الكلفة السنوية ٪	سعر الاصدار
١	قرض سعيد	١٨٦٣	٣,٢٩٢,٨٠٠	١٨٩٢	٧	٢,٥٠٠,٠٠٠	١٠,٥	٨٤,٥
٢	قرض اسماعيل الأول	١٨٦٤	٥,٧٠٤,٢٠٠	١٨٧٩	٧	٤,٨٦٤,٦٣	١٢,٧	٨٢,٥
٣	قرض الدائرة	١٨٦٥	٣,٣٨٧,٣٠٠	١٨٨١	٧	٢,٥٠٠,٠٠٠	١٤,٧	٩٣
٤	قرض السكك الحديدية	١٨٦٦	٣,٠٠٠,٠٠٠	١٨٧٤	٧	٢,٥٧٤,٠٠٠	٢٧,٥٥	٩٠
٥	قرض مصطفى باشا	١٨٦٧	٢,٠٨٠,٠٠٠	١٨٨١	٩	١,٧٠٠,٠٠٠	١٥,٠١	٩٠
٦	قرض المفتش	١٨٦٨	١١,٨٩٠,٠٠٠	١٨٩٨	٧	٧,١٩٣,٣٣٤	١٣٠,٢٤	٧٥
٧	قرض الدايرة	١٨٧٠	٧,١٤٢,٨٦٠	١٨٩٠	٧	٥,٠٠٠,٠٠	١٣,٣٦	٧٥
٨	قرض اسماعيل الأخير	١٨٧٣	٣٢,٠٠٠,٠٠٠	١٩٠٣	٧	٢٠,٧٤٠,٠٠٠	١٢,٣٦	٧٠

وقد كانت الحالة المالية تتطور من سيء إلى أسوأ فمع أن سعر الفائدة لم يتغير، بل زاد في بعض القروض كما أن أسعار الاصدار كانت آخذة في الانحطاط ويظهر هذا بجلاء بعد عام ١٨٦٧، كما أن المبالغ التي كانت تدخل الخزانة المصرية كانت تتناقص باستمرار، وذلك لكثرة الوسطاء، وبسبب ارتفاع سعر الفائدة، وتسديد الفوائد مقدماً، فالقرض الأخير مثلاً ومقداره الاسمي ٣٢ مليون جنيه لم يدخل الخزانة منه سوى ٢٠ مليون جنيه فقط.

وفي مارس ١٨٧٦ طلب الوالي خبيراً مالياً من انجلترا لدراسة الظروف المالية في مصر لانتشال مصر من الافلاس.

وجاءتنا بعثة انجليزية برئاسة ستفين كيف «Cave»(١٧)، الذي قدم تقريراً تمت على أساسه الاجراءات اللاحقة لتسوية الدين العام.

وقدّم كيف مشروعاً لتوحيد الدين العام يتلخص في (تعيين موظف حائز للثقة العامة على رأس جهاز مراقبة يتولى استلام بعض الايرادات من محصلي الضرائب مباشرة ويكون له اشراف عام على طرق لفرض الضرائب يتبعها محصلو الضرائب في جميع جهات القطر، ويتعهد الخديوي بعدم عقد أي قرض جديد بدون موافقة جهاز المراقبة هذا.

وقدر كيف المبلغ المطلوب لتحويل الديون إلى دين موحد بـ ٧٥٠ مليون جنيه منها ٧٢ مليون جنيه قروض وديون سايرة، ومليون جنيه تكاليف الحروب مع الحبشة، ومليونا جنيه تكاليف عملية التمويل.

واقترح كيف أيضاً تخصيص الاحتياطي الناشىء من فائض ايراد المقابلة لسداد العجز السنوي في الميزانية(١٨).

ومع ذلك فإن مشروع كيف لم يكن مقدراً له النجاح لسبب آخر إذ إن الخديوي لم يكن على استعداد لتقييد سلطته الادارية بالشكل الذي اقترحه كيف. ولذلك لم ينفذ المشروع

(١٧) Earl of Derly (Egypt No. 7, 1876. Report of Mr. Cave on the financial condition of Egypt) p. 9.
(١٨) المرجع السابق، صفحة ١٢.

وساءت الحالة المالية للبلاد وأعلنت الحكومة بدكريتو تاريخه ٦ أبريل/ نيسان ١٨٧٦ توقفها عن دفع الديون.

ومع أن هناك دولاً غير مصر أعلنت افلاسها في ذلك العهد كالدولة العثمانية واسبانيا والارجنتين وأربع عشرة دولة غيرها، إلا أن افلاس هذه الدول لم يكن سبباً في تدخل الدول الأجنبية في شؤونها الخاصة وادارتها الداخلية كما حدث في مصر(١٩).

وقد وصل حد التدخل إلى تعيين مراقبة ثنائية للمالية المصرية، وتعيين مندوبين أجانب لصندوق الدين (دكريتو ٢ مايو/ أيار سنة ١٨٧٦) وتعيين مندوبين لإدارة مصلحة السكك الحديدية، وبهذا يمكن القول ان مصر احتلّت مالياً قبل احتلالها عسكرياً(٢٠).

واختفى اسماعيل من جو السياسة المصرية بعد عزله في ٢٦ يونيه/ حزيران ١٨٧٩ وتعيين ابنه توفيق باشا خلفاً له في خديوية مصر، تاركاً مصر وراءه مرهقة بدين كبير لم ينفق منه على مصالح البلاد الحقيقية إلا القليل. وبذلك كتب أول فصل في التدخل الأوروبي في شؤون مصر المالية والسياسية.

وصدر قانون التصفية في ١٧ يوليه/ تموز ١٨٨٠ ومع ذلك لم تتحسن الحالة المالية، بل زاد ارتباك الخزانة بسبب احداث الثورة العرابية والتعويضات الهائلة المترتبة على تدمير مدينة الاسكندرية والتي قدرت بأربعة ملايين ونصف جنيه انكليزي(٢١).

واتخذت ديون مصر، بعد التصفية، ثلاثة أشكال رئيسية هي: الدين الممتاز العام والدين الموحد والدين المضمون(٢٢).

والدين الممتاز أنشىء بناءً على أمر عال في ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٧٦ وتدفع كوبوناته كل ستة شهور من ١٥ أبريل/ نيسان و١٥ اكتوبر/ تشرين الأول من كل عام وتخصص لخدمته ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات، وإذا لم تكفِ يؤخذ من المخصص للدين الموحد وفائدته ٥٪، ويتم استهلاكه في ٦٥ سنة ويستحق سداده في ١٥ يوليه/ تموز ١٩١٠.

والدين الموحد انشىء في ٧ مايو/ أيار سنة ١٨٧٦ وتدفع كوبوناته في أول مايو/ أيار وأول نوفمبر/ تشرين الثاني من كل عام، وتخصص لخدمته متحصلات أموال الأطيان في جميع مديريات القطر ما عدا مديرية قنا، وكانت فائدته في الأصل ٧٪ خفضت إلى ٤٪، منذ عام ١٨٨٠، ويستهلك في ٦٥ سنة، ويستحق سداده اعتباراً من ١٥ يوليه/ تموز ١٩١٢.

والدين المضمون عقد في ٢٧ يوليه/ تموز ١٨٨٥، وسُمي بالدين المضمون لضمانه من قبل كل من انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا والمجر وايطاليا وروسيا، وتدفع كوبوناته كل ستة شهور في أول مارس/ آذار وأول سبتمبر/ أيلول من كل عام، وفائدته ما بين ٣ ـ ٣,٥٪ سنوياً، ويستحق سداده اعتباراً من ١٥ يوليه/ تموز ١٩١٠.

والجدول الآتي يوضح الدين العام حتى آخر سنة ١٨٨٨ وما استهلك منه وموقف الدين العام في أول سنة ١٨٨٩(٢٣).

بيان	الديون ١٨٨٨	ما استهلك	الديون ١٩٨٩
الممتاز	٢٢,٧٤٣,٨٠٠	٤٤٧,٠٠٠	٢٢,٢٩٦,٨٠٠
الموحد	٦٠,٩٥٨,٢٤٠	٤,٩٦٨,٨٠٠	٥٥,٩٨٩,٤٤٠
المضمون ٣٪	٩,٤٢٤,٠٠٠	٢٣٢,٠٠٠	٩,١٥٢,٠٠٠
٤,٥٪	٢,٣٣٠,٠٠٠	—	٢,٣٣٠,٠٠٠
الدائرة	٩,٤٩٥,٤٤٠	٨٥٨,٩٦٠	٨,٦٣٦,٤٨٠
الدومين	٨,٥٠٠,٠٠٠	٢,٩٦٩,١٨٠	٥,٥٣٠,٨٢٠
الجملة	١١٣,٤٥١,٤٨٠	٩,٠١٥,٩٤٠	١٠٣,٩٣٥,٥٤٠

ومن هذا الجدول تتضح ضآلة المبلغ المستهلك من الديون العامة، وذلك لأن معظم المبالغ التي كانت تدفعها مصر كانت فوائد مستحقة لهذه الديون، وبذلك لم تنقص هذه الديون طوال خمسين عاماً تقريباً إلا بنسبة ضئيلة.

وقد تم سداد دين الدائرة السنية في عام ١٩٠٥، واستهلك دين الدومين عام ١٩١٢، وتبقّى كل من الدين الممتاز والموحد والمضمون.

والجدول الآتي يوضح حركة الدين الممتاز والموحد والمضمون

(١٩) محمود الدرويش، **دين مصر العام**، مرجع سابق، صفحة ٨٥.

(٢٠) محمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، صفحة ٧٥.

(٢١) J. Rapino; op. cit, p. 37.

(٢٢) ابراهيم جمال، **الأقوال الجلية في اختصاص المحاكم الاهلية**، (المحروسة ١٨٩٤)، ص ٥٣ ـ ٥٦. د. أمين مصطفى عفيفي، **تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث**، مرجع سابق، ص ٣٠٦ ـ ٣١١. أمين الرافعي، مرجع سابق، ص ١٢٤ ـ ١٣٥.

(٢٣) J. Rabino; op. cit., p. 40.

منذ ١٩٠١ حتى ١٩٤٣ بملايين الجنيهات(٢٤).

بيان الديون	١٩٠١	١٩٠٤	١٩٢٥	١٩٢٨	١٩٤٣
الدين المضمون	٨,٢٦	٧,٩٨	٥,-	٤,٦٧	٠,٦٣
الدين الممتاز	٣١,٣٩	٣١,١٣	٣١,-	٣٠,٦٣	٣٠,٦٣
الدين الموحد	٥٥,٩٨	٥٥,٩٧	٥٥,٩٧	٥٥,٩٧	٥٥,٢٥
الجملة	٩٥,٦٣	٩٥,٠٨	٩١,٩٧	٩١,٢٧	٨٦,٥١

ويتضح من هذا الجدول أن استهلاك الدين المضمون كان أكبر من استهلاك الدين الممتاز والموحد، إذ بلغ ٧,٦٣ مليون جنيه في الفترة من سنة ١٩٠١ حتى سنة ١٩٤٣، بينما بلغ ما استهلك من الدين الممتاز والموحد في نفس الفترة ١,٤٩ مليون جنيه. كما يتضح أن ما سدد من الديون في ٢٥ عاماً حتى الاستقلال الذاتي عام ١٩٢٢ بلغ ٣,٦٦ مليون جنيه، وما سدد خلال ١٨ عاماً بعد الاستقلال الذاتي بلغ ٥,٤٦ مليون جنيه، وبهذا لم يحقق صندوق الدين تسديد ديون مصر، وكل ما قام به كان مجرد مناورة.

ويظهر الاستغلال الأوروبي ملازمة المالية في مصر من بقاء صندوق الدين، والضرر الذي ترتب عليه من الناحيتين السياسية والمالية. فمن الناحية السياسية لا يليق بكرامة بلد يتمتع بالسيادة أن يخضع في شأن من أخص شؤونه ـ تدبير ماليته وخدمة دينه ـ لرقابة أجنبية، وأما من الناحية المالية فإن صندوق الدين كان يكلف الحكومة ٤٠ ألف جنيه سنوياً.

كما أن الصندوق كان يحتجز من أموال الدولة ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه بصفة احتياطي. وكانت الحكومة المصرية تصادف كثيراً من الصعوبات في وقت تراكمت فيه الاحتياطات المختلفة في خزينة صندوق الدين، إلا أنها كانت تلجأ إلى الاقتراض.

وتوصلت مصر إلى الغاء صندوق الدين وفقاً لأحكام اتفاقية ١٩٤٠ مع الحكومة البريطانية، على أن تقوم باستحقاقات الدين المضمون، ويكون الدفع بالعملة الاسترلينية بدون اجراء خصم، ويكون الدفع والسداد في مصر ولندن وباريس، وينقل لمصر احتياطي صندوق الدين والمبلغ المخصص للإدارة، والزيادة المستديمة وجميع المبالغ المودعة في صندوق الدين(٢٥).

وحولت الحكومة المصرية الدين العام إلى قرض وطني في سنة ١٩٤٣ لتخلص الأمة من شر سيطرة الأجانب على موارد البلاد.

وعرضت وزارة المالية ثلاثة أنواع من القروض(٢٦) للإكتتاب في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٣م. وغطت الاكتتابات المبالغ المطلوبة في وقت قصير(٢٧). وهكذا نجحت مصر في تمصير الدين العام، وفي التخلص من أعبائه واعفاء البلاد من نتائجه.

(٢٤) هذا الجدول جمعت بياناته من الاحصاء السنوي العام للقطر المصري سنة ١٩١٤، ووزارة المالية، ميزانية الدولة عام ١٩٢٨/٢٧، **وتاريخ مصر الاقتصادي** للدكتور أمين مصطفى عفيفي.

(٢٥) نجيب يوسف، مرجع سابق، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠.

(٢٦) قرض طويل الأجل بفائدة ٣٪ يستهلك من ٦٣ إلى ١٩٧٣، وقرض متوسط الأجل بفائدة ٢ ٣/٤٪ يستهلك من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٨، قرضان قصيرا الأجل أحدهما بفائدة ٢ ١/٤٪ (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) والآخر بفائدة ١ ٣/٤٪ ويستهلك في الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦.

(٢٧) د. أمين مصطفى عفيفي. **تاريخ مصر الاقتصادي والمالي**، مرجع سابق، صفحة ٣١٦ ـ ٣١٨.

النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الافغانية وموقف المانيا منه، شباط ـ نيسان ١٨٨٥

د. يقظان سعدون العامر

كلية التربية ـ جامعة البصرة.

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبخاصة عقد السبعينات والثمانينات منه، منافسة حادة بين الدول الأوروبية على المستعمرات. ففي الوقت الذي كانت توجد في افريقيا حركة استعمارية أوروبية تتصدرها بريطانيا، كانت في آسيا حركة مماثلة تتزعمها روسيا، مع الأخذ بنظر الاعتبار الاختلاف في الدوافع، فبعد هزيمتها في حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦، كثفت روسيا حركتها التوسعية في آسيا الوسطى صوب بلاد فارس وافغانستان والهند، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها ببريطانيا التي كانت تدافع عن مصالحها في الهند والدول المجاورة لها.

يتناول هذا البحث النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الأفغانية وموقف المانيا منه حتى نهاية شهر نيسان ١٨٨٥، عندما قبلت روسيا الاقتراح البريطاني الداعي إلى عرض هذا النزاع على التحكيم، وليقوم أحد رؤساء الدول بهذه المهمة. وسيحاول توضيح نتائج الاتحاد الألماني على النشاط التوسعي الروسي في آسيا الوسطى، وإلى أي مدى لعب بسمارك دوراً في تشجيع هذا التوسع، وهل أن المستشار الألماني كان لا يريد اندلاع الحرب بين بريطانيا وروسيا في آسيا الوسطى، لأن مثل هذه الحرب في حالة اندلاعها ستؤثر على المانيا، كما تدعي بعض الدراسات؟ ثم لماذا لا يمكن أقلمة الحرب في حالة اندلاعها بين بريطانيا وروسيا في آسيا الوسطى[١]؟

ترجع علاقة روسيا بآسيا الوسطى إلى القرن الثامن الميلادي، حيث وردت معلومات عن وجود علاقات تجارية بين الروس وشعوب آسيا الوسطى. وأخذ الاهتمام الروسي يتزايد بأسواق آسيا الوسطى، وتضاعفت العلاقات التجارية. وترجع جذور التوسع الروسي في آسيا الوسطى إلى القرن الثامن عشر، وازداد بشكل كبير في القرن التاسع عشر، إلى درجة أثار معها قلق وخوف بريطانيا على وجودها ونفوذها في آسيا[٢].

إن هناك عوامل أثّرت في سياسة روسيا في آسيا الوسطى. فآسيا الوسطى قريبة من الأراضي الروسية، وقد تمكن الروس من بسط سيطرتهم الكاملة عليها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. كما أن الأراضي المجاورة التي تقع جنوب منطقة النفوذ الروسي هي منطقة صالحة لاستقرار الاقنان الروس. وهكذا فإن الأراضي الواقعة إلى شرق بحر قزوين أصبحت مسرحاً للتقدم الروسي، أما العامل الثاني فهو أن آسيا الوسطى قد أصبحت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ميداناً للتنافس الاستعماري. فإلى الجنوب من خانات تركستان وافغانستان كانت تقع الهند البريطانية. التي بدت للروس بأنها قوة استعمارية تريد، في المستقبل، مد نفوذها إلى بلاد فارس وتركستان. لذا شعر الروس بضرورة القيام بضم أراض تقع شرق بحر قزوين كإجراء احترازي، بدون الاهتمام بأهمية وقيمة الأرض، لإعاقة ومنع التغلغل البريطاني.

أما العوامل التي أدت إلى التوسع الروسي في آسيا الوسطى فهي: **أولاً**، كانت هناك طرق تجارية قديمة تربط الأراضي الروسية بآسيا الوسطى والأجزاء الغربية من الصين. ومن أجل حماية هذه الطرق وزيادة حجم التجارة مع أسواق آسيا الوسطى، كان لا بد من ضم أراض في آسيا الوسطى. **ثانياً**، يبدو أن القادة والاداريين الروس الذين كانوا يعملون في آسيا الوسطى، كانوا يتمتعون بنوع من الحرية في السيطرة الفعالة

(١) W.L. Langer, **European Aliances and Alignments, 1871-1890,** (New York, 1931), pp. 311-4.

(٢) نوري السامرائي، الصراع بين روسيا وانكلترة في آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٧، ١٩٨٦، ص ٢٩، ٤٠.

لحكومة سان بطرسبورغ. ومن العوامل التي دفعت بالروس إلى التوسع في آسيا الوسطى منذ عقد الثلاثينات وحتى عقد السبعينات هو قلق روسيا وتوقها لحل مشاكل الحدود مع الامارات المجاورة والناشئة عن نشاط التجار والاداريين والمستوطنين الروس(٣). لذا عملت روسيا على دفع حدودها إلى الجنوب حتى تتمكن من الوصول إلى خط دفاعي. وهكذا تمكنت روسيا من ضم خانات مقاطعة تركستان في عقد السبعينات. والعامل الرابع هو أن روسيا اهتمت بآسيا الوسطى كمجال للاستيطان. فالمستوى المعاشي للقن الروسي لم يكن أحسن من زميله في آسيا الوسطى. وكان معظم الجنود الروس من الاقنان، ووجدوا في أراضي آسيا الوسطى مجالاً للاستيطان(٤). وقد شجعت الحكومة الروسية الاقنان على الاستيطان في المناطق التي ضمتها. وازدادت حركة الاستيطان منذ عقد الستينات، واستفاد الحكام الروس من هذه الهجرة. فأسسوا مستعمرات عسكرية للدفاع عن الحدود ولضمان المؤن والتجهيزات الأخرى للجيش. وأخيراً، فمنذ الهجوم البريطاني على افغانستان عام ١٨٣٩، بدأت روسيا تخشى من التوسع البريطاني في تركستان. فضم الأراضي من أجل ابعاد بريطانيا واعتبارها ضمن نطاق النفوذ الروسي، أصبح غاية روسيا(٥).

كانت أفغانستان سبباً «رئيسياً» لمشاكل عديدة حدثت بين بريطانيا وروسيا خلال القرن التاسع عشر. فحكام بلاد فارس ما زالوا يعلقون الآمال على استعادة افغانستان إلى سيادتهم، كتعويض عن الأراضي التي فقدوها في حروبهم مع روسيا. ويدركون جيداً أنهم لا يستطيعون تحقيق ذلك إلا بمساعدة روسيا، في حين كانت حكومة الهند البريطانية تفضل وجود دولة افغانية طالما أنها لا تهدد المصالح البريطانية. ولذلك لم تتعاطف مع طموحات حكام فارس لاستعادة مدينة هرات Heart. وعندما قاد شاه فارس محمد ميرزا عام ١٨٣٧ جيشاً ضد هذه المدينة، وبتشجيع من روسيا، عارضته بريطانيا وقاومته بشدة خوفاً من أن تصبح في المستقبل طريقاً لها يسلكه الروس إلى الهند(٦). ولم تكن روسيا مستعدة للدفاع عن فارس إلى درجة الدخول من أجلها في حرب ضد بريطانيا. لذلك قبلت روسيا وجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بمدينة هرات، ونتيجة لذلك رفعت فارس في عام ١٨٣٨ الحصار الذي فرضته على مدينة هرات.

وبعد عام ١٨٣٨، بدأت افغانستان بالتقارب مع روسيا، الأمر الذي أقلق بريطانيا وبخاصة على درة تاجها: الهند، وقررت القضاء على هذا التقارب. ودخلت بريطانيا عام ١٨٣٩ في حرب ضد افغانستان. وعلى الرغم من فشل الحملة الروسية على امارة خيوي Khiva في عام ١٨٣٩، والتي كانت رداً على اعلان بريطانيا الحرب على افغانستان، الا أن روسيا نجحت خلال الأعوام ١٨٤٥ ـ ١٨٤٧(٧) في تأسيس قواعد عسكرية متقدمة في السهول المحيطة ببحر الاورال.

ومع أن الهدف الرئيسي لدخول بريطانيا في حرب القرم هو القضاء على التواجد البحري الروسي في البحر الأسود، إلا أن بريطانيا كانت ترمي أيضاً إلى «ابعاد روسيا عن القفقاس وسد الطريق إلى آسيا الوسطى في وجهها»(٨). كانت حرب القرم هزيمة قاسية لروسيا، لكنها لم تؤثر على سياستها التوسعية في آسيا الوسطى. ونتيجة لورود معلومات عن تدهور الوضع في الهند بسبب الانتفاضة الهندية في عام ١٨٥٧، فقد أوصى اجناتيف N.P. Ignatyev الملحق العسكري الروسي في السفارة الروسية في لندن حكومته باتباع سياسة توسعية في آسيا الوسطى، لأنه اعتقد بأن أي نزاع ينشأ مع بريطانيا سيكون في صالح روسيا. لذا تم تعيين اجناتيف على رأس بعثة إلى امارة خيوي وبخارى. ولكن هذه البعثة لم تحقق أي شيء سوى تشجيع التجارة الروسية معهما.

وأثرت الحرب الأهلية الأمريكية على صناعة المنسوجات الروسية، لذلك زاد اهتمام روسيا بتركستان كمصدر لتجهيز روسيا بالقطن الخام. وكان لانتصار روسيا في القضية البولندية عام ١٨٦٣ أثر في استئناف روسيا لنشاطها التوسعي في آسيا الوسطى. ففي عام ١٨٦٤ تم احتلال مدينة Chimkent. وفي السنة التالية احتلت روسيا مدينة طشقند التابعة لامارة قوقند Kokand. واتخذت روسيا في عام ١٨٦٧ قراراً مهماً يقضي بتأسيس حاكمية عامة لتركستان كجزء من الامبراطورية الروسية التي أصبحت طشقند مركزاً لها، وتم تعيين الجنرال كوفمان K.P. Kaufman حاكماً عاماً. فهاجم في العام التالي أراضي بخارى واحتل عاصمتها سمرقند. وفي عام ١٨٧٣ أصبحت إمارة خيوي وامارة بخارى تحت الحماية الروسية، وبعد ثلاث سنوات ضمت روسيا امارة قوقند(٩).

كانت بريطانيا تراقب التوسعات الروسية في آسيا الوسطى

(٣) Seton Watson, H., **The Russian Empire 1801-1907,** (Oxford University Press, 1967), p. 295.
(٤) Wheeler, C., **The Modern History of Soviet Central Asia,** (London, 1964), p. 50.
(٥) Fieldhouse, D.K., **Economics and Empire, 1830-1914,** (London, 1973), pp. 165-7; Wheeler, Op. Cit., pp. 48-51.
(٦) Woodward, Sir W., **The Age of Reform, 1815-1870,** (Oxford University Press, 1962),p. 417.
(٧) Seton Watson, Op. Cit., pp. 295-6.
(٨) السامرائي، المصدر السابق، ص ٣٥.
(٩) Seton Watson, Op. Cit., pp. 441-2.

باهتمام وقلق. واعتبر المسؤولون البريطانيون هذه التوسعات بأنها خطة وضعت ضد الهند. وفي الحقيقة فإن روسيا حققت هذه التوسعات، على الرغم من الضمانات والتأكيدات الرسمية التي أعطتها لبريطانيا بعدم القيام بمثل هذه الأعمال. وهذا مما أثار شكوك بريطانيا بالنوايا الروسية. وحتى لو كانت هذه التوسعات ناشئة من صعوبة الاتصال بين سان بطرسبورغ والقادة المحليين، وكذلك عدم اطاعة الأخيرين، فإن الحقيقة تبقى أن القوات الروسية بدأت تقترب من الطرق المؤدية إلى الهند[١٠].

وبسبب موقعها بين الهند والممتلكات الروسية في آسيا الوسطى، فإن بقاء افغانستان كدولة حاجزة Buffer State سيكون في مصلحة كل من بريطانيا وروسيا. إلا أن هذه الغاية ليست سهلة التحقيق بسبب طبيعة البلد وعدم الاستقرار السياسي فيها. فبعد أن فشل أمير افغانستان شير علي Shir Ali في الحصول على مساعدة بريطانيا إبان التوسع الروسي في إمارة قوقند، وكذلك بعد احتلال روسيا لامارة خيوي، توجه أمير افغانستان إلى روسيا. وكرد على ارسال قوات هندية إلى جزيرة مالطا[١١]، قامت روسيا في عام ١٨٧٨ بإرسال بعثة إلى كابل حيث استقبلها أمير افغانستان. في حين رفض أن يستقبل بعثة بريطانية. وبسبب تخوف بريطانيا من أن روسيا ستضع افغانستان تحت حمايتها، أعلنت بريطانيا عام ١٨٧٨ حرباً على افغانستان انتهت بتنحي شير علي، واعلان الحماية البريطانية على افغانستان[١٢]. استمرت روسيا في توسعها الاستعماري باتجاه مدينة هرات بوابة الهند. وفي عام ١٨٨١ احتلت مدينة عشق اباد الواقعة بالقرب من الحدود الافغانية ـ الفارسية. وفي عام ١٨٨٤ تم احتلال مدينة مرو Merv وبذلك تقدمت حدود روسيا نحو بلاد فارس ونحو الحدود الافغانية ـ الفارسية غير المرسمة[١٣].

أدّى ضم الروس لمدينة مرو إلى استياء بريطانيا[١٤]، وبخاصة أن الروس لم يلتزموا بالوعود التي قطعوها على أنفسهم بعدم التقدم في آسيا الوسطى. وطلبت حكومة الهند من وزارة الخارجية البريطانية ضرورة التوصل إلى تفاهم مع روسيا حول خط حدود افغانستان الشمالي والشمال الغربي[١٥]. يضاف إلى ذلك، أن وزارة الحربية البريطانية درست «الأساليب الفعالة» التي تتمكن بواسطتها بريطانيا من التأثير على روسيا ومنع التقدم الروسي في آسيا الوسطى فوجدت:

أولاً: إن اعلان الحرب سيتبعه وبدون شك الاستيلاء على السفن التجارية الروسية المتواجدة في أعالي البحار ـ، وكذلك ضرب الحصار البحري على موانىء روسيا الرئيسية. إلا أن مثل هذه الاجراءات سوف لا يكون لها تأثير كبير على الرخاء العام لامبراطورية واسعة الأطراف مثل روسيا، وبالتالي سوف لن يكون لها أي تأثير أو نتيجة على «الغزو الروسي لافغانستان».

ثانياً: لقد بلغت قيمة التجارة الروسية لعام ١٨٨٢، ما مقداره ١١٣,٧٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني. فكانت قيمة الصادرات ٦٠,٤١٠,٠٠٠، أما وارداتها فقد بلغت ٥٣,٣١٠,٠٠٠. وبما أن هذه التجارة كانت تقسم إلى تجارة بحرية وتجارة برية فإنها ستكون على النحو الآتي:

التجارة	الصادرات	الواردات
البحرية	٣٢,٧٩٠,٠٠٠	٢٧,٣٧٠,٠٠٠
البرية	٢٧,٦٢٠,٠٠٠	٢٥,٦٤٠,٠٠٠
الاجمالي	٦٠,٤١٠,٠٠٠	٥٣,٠١٠,٠٠٠

وبما أن التجارة البريطانية مع روسيا والتي بلغت ٣٣,٤٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني ستتوقف، فإن الحصار الذي سيضرب على الموانىء الروسية سوف لن يكون له تأثير كبير، باستثناء تجارة روسيا مع الولايات المتحدة، لأن بقية التجارة البحرية سيتم نقلها وبخاصة مع المانيا والنمسا ورومانيا بواسطة السكك الحديدية. وبالتالي فإن روسيا ستخسر عشرة ملايين ونصف مليون جنيه استرليني من أصل ٨٠,٣٠٠,٠٠٠. ومع ذلك فإن روسيا ستجد قنوات جديدة للتعويض عن هذه الخسارة. وتوصلت وزارة الحربية البريطانية إلى «أن أسلوب الحصار البحري وحده يعتبر من الأساليب غير الفعالة في اجبار روسيا».

ثالثاً: إن الوضع في الهند لا يساعد بريطانيا على سحب قوات من مواضعها وإرسالها من أجل توجيه ضربات ضد روسيا. «لذا فإن بوسعنا أن نعتمد على القوة البحرية وعلى قطعات عسكرية

(١٠) Jelavich, B., St. **Petersburg and Moscow, Tsarist and Soviet Foreign Policy, 1814-1974,** (Indiana University Press, 1974), pp. 198-9.

(١١) Shannon, R., **The Crisis of Imperialism, 1965-1915,** (London, 1974), p. 136.

(١٢) Ensor, Sir R. **England, 1870-1914,** (Oxford University Press, 1968), pp. 62-3.

(١٣) Eldridge, C.C., **Victorian Imperialism,** (London, 1978), p. 156.

(١٤) Gillard, D.R., **Salisburg and the Indian Defence Problem 1885-1902, in Studies in International History** edited by K. Bourne & D.C. Watt, (London, 1967), p. 239.

(١٥) Thornton, A.P., **Rivalries in the Mediterranean, the Middle East and Egypt,** in the New Cambridge Modern History edited by F.H. Hinsley, vol. XI, Material Progess and World-Wide Problems, 1870-1898, (Cambridge University Press, 1976), p. 581.

يمكن أن نوفرها بعد اتخاذ كافة التدابير الكافية للدفاع عن بقية ممتلكاتنا الأجنبية» ومهما يكن، فإن حجم هذه القطعات العسكرية لا يزيد عن (٣٦) ألف جندي. وبما أن لروسيا سواحل مطلة على البحر المتوسط وبحر البلطيق والبحر الأسود وشمال الباسفيك، فإن السواحل المطلة على بحر البلطيق والبحر الأسود يمكن أن تكون مسرحاً للعمليات العسكرية، وسيكون لها تأثير خطير على روسيا. ففيما يتعلق ببحر البلطيق، فإن إرسال حملة بريطانية إلى هذا البحر مهمتها ليس فقط ضرب الحصار والتظاهر، سيؤدي إلى نتائج ايجابية بشرط أن تكون حالة روسيا ضعيفة. لذا فإن البحر الأسود هو المساحة الوحيدة للعمليات البريطانية ضد روسيا، بعد الاستحصال على موافقة الدولة العثمانية. إلا أنه ليس من المحتمل أن ترفض الدولة العثمانية مرور السفن الحربية البريطانية عبر البسفور إلى البحر الأسود. فدخول الأسطول البحري البريطاني إلى البحر الأسود سيؤدي إلى قطع خطوط المواصلات الحالية مع الجيش الروسي في آسيا الوسطى. الأمر الذي يؤدي بدوره إلى ايجاد طرق أخرى لتأمين التجهيزات للقوات الروسية في افغانستان. بعبارة أخرى ان تواجد الأسطول البريطاني في البحر الأسود لا يعرض المواصلات الروسية للخطر فحسب بل يجعل من الضروري ايجاد طرق أخرى أقل ملاءمة من سابقتها، لذلك أصبح واضحاً أن العمليات البحرية وحدها تصبح غير مؤثرة في أحداث آسيا الوسطى». واستنتجت وزارة الحربية البريطانية أنه من أجل الحصول على نتائج حاسمة «فإنه يتوجب أن ترافق العمليات البحرية حملة عسكرية برية على ميناء باطوم الواقع على السواحل الشرقية للبحر الأسود. فالأهمية الاستراتيجية لميناء باطوم كبيرة، والهجوم على هذا الميناء سيهدد خطوط مواصلات الجيش الروسي في أرمينيا وكذلك في افغانستان. اضافة إلى ذلك فإن وصول الجيش البريطاني إلى ميناء باطوم سيؤدي إلى اندلاع الانتفاضات ضد روسيا في منطقة القوقاز»(١٦).

وافقت الحكومتان البريطانية والروسية في صيف عام ١٨٨٤ على تشكيل لجنة مشتركة لتحديد الحدود. فأرسلت الحكومة البريطانية الجنرال بيتر لومزدون General Peter Lumsden في أيلول من نفس العام ليلتحق بزميله الروسي الجنرال زيلينوى General Zelenoi وأن تبدأ اللجنة أعمالها في شهر تشرين الثاني. تخلف ممثل الحكومة الروسية عن الحضور بحجة مرضه، إلا أن الأسباب تكمن في أن هناك خلافاً جوهرياً في الرأي بين الحكومتين حول أعمال اللجنة. اضافة إلى ذلك، فإن الحكومة الروسية فضّلت أن يتم رسم الحدود حسب الاعتبارات الجغرافية والقبلية. فكانت تأمل أن ترجع الحدود الافغانية إلى الجبال، وبذلك تُترك جميع القبائل التركمانية تحت رحمة روسيا. بينما أرادت الحكومة البريطانية أن يتم تحديد سلطة ونفوذ أمير افغانستان السياسية، وأن يتم ضم جميع القبائل التي تدين بالولاء إلى الأمير في أراضي افغانستان. علاوة على ذلك، فإن اللورد كرانفيل Lord G. Granville وزير الخارجية البريطاني اعتقد أن السبب وراء مماطلة الحكومة الروسية في ارسال موفدها للجنة ترسيم الحدود، هو المستشار الألماني بسمارك Otto von Bismarck الذي اقترح على الحكومة الروسية اتباع هذه السياسة. فكرانفيل يرى أنه طالما بقيت حكومة الأحرار في الحكم في لندن فإن بسمارك سيثير لها مشاكل عديدة في العالم(١٧).

إن قبول روسيا للهدنة كان، وكما قال السير تشارلس دلك Sir Charles Dilke مدير مجلس الحكومات المحلية خدعة، فإن الروس كانوا «يتآمرون... ويعدون لتوجيه الضربة والتي ستوجه ضد الأفغان في وقت لاحق»(١٨). وكانت اجتماعات لجنة آسيا الوسطى Central Asia Committee التي كانت قد تشكلت في وزارة الخارجية البريطانية، شبه يوميه(١٩). لذلك طلبت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها أن تبدأ اللجنة أعمالها بأسرع وقت ممكن، إلا أن الحكومة الروسية أصرت على أن تتفق الحكومتان على تحديد منطقة حتى لا يسمح للجنة المشتركة أن تتعداها. وهكذا تعقّد الموقف. ويبدو أن الجماعات القومية والعسكرية كانت تضغط على الحكومة حتى تتبع سياسة متصلبة تجاه هذه المسألة. وهكذا وقفت الحكومة البريطانية عاجزة أمام

(١٦) England's Means of offence against Russia cited in Jelavich, B., The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question, 1870-1887, (Indiana University Press, 1973), pp. 189-90.

(١٧) Fitzmaurice, Lord E., The Life of Granville George Leveson Gower, Second Earl of Cranville, 1815-1891, vol. II, (London, 1905), p. 422.

(١٨) Cuynn, S. & Tuckwell, G., The Life of Rt. Hon. Sir Charles W. Dilke, vol. II (London, 1917), p. 115.

(١٩) تألفت هذه اللجنة من:

Cranville	وزير الخارجية
S. Hartington	وزير الحربية
T. Northbrook	قائد البحرية
J. Kemberley	وزير الدولة لشؤون الهند
C. Dilke	رئيس مجلس الحكومات المحلية
E. Fitzmaurice	وكيل وزير الخارجية
P. Currie	السكرتير الخاص لوزير الخارجية.

الأساليب الروسية. وانتشرت الأقاويل والشائعات التي مفادها أن روسيا تعتزم احتلال مدينة هرات المحصنة[٢٠]، وانها وضعت خططاً ضد الهند. وتأكد ذلك عندما أرسل الجنرال لومزدون تقارير حذرت من التقدم الروسي. لذلك طلبت الحكومة البريطانية منه أن يدخل مدينة هرات ويساعد القوات الافغانية المتواجدة فيها في حال تعرضها لهجوم روسي[٢١].

لم يتقدم الروس نحو هرات، بل وصلت قواتهم في الحادي والعشرين من شباط عام ١٨٨٥ بالقرب من مدينة البندجة Pendjeh التي تتواجد فيها قوات افغانية، وقد أثار هذا العمل الحكومة والرأي العام البريطاني، وتم اتخاذ بعض الاجراءات العسكرية. فتم الطلب من السلطات البريطانية في الهند اعداد جيش وارساله في حالة الاشتباك مع روسيا إلى مدينة هرات على الحدود الأفغانية الفارسية. أعطت الحكومة الروسية «ضمانات» بأنها قد أمرت قواتها بتفادي أي تصادم مع القوات الافغانية، إلا إذا قامت الأخيرة بشن هجوم على مواقع القوات الروسية[٢٢] ومع ذلك درست الحكومة البريطانية في الثامن والعشرين من شباط الوضع الناجم عن التقدم الروسي في آسيا الوسطى، وطلبت من الجنرال لومزدون اخبارها بالتطورات وعدم اعطاء أي رأي في حالة اندلاع القتال بين القوات الروسية والافغانية[٢٣]. وطلب الجنرال لومزدون بدوره من الأفغان البقاء في مواضعهم[٢٤]. وتدخلت الملكة فكتوريا Victoria (١٨٣٧ ـ ١٩٠٢) التي انتابها الخوف من الوضع في آسيا الوسطى وأرسلت برقية إلى القيصر الروسي الكسندر الثالث Alexander III (١٨٨١ ـ ١٨٩٥) في الرابع من آذار ١٨٨٥ تشرح له خطورة الوضع[٢٥]. وهكذا توصلت الدولتان في ١٦ آذار إلى اتفاقية وعدت روسيا بمنع تقدم قواتها صوب الجنوب[٢٦]. إلا أن روسيا لم تكن تحترم أية معاهدة أو وعد تقطعه على نفسها فيما يتعلق بآسيا الوسطى خلال العشرين سنة الماضية[٢٧]. فعلى الرغم من أن الحكومة الروسية قد أصدرت تعليمات إلى قواتها في آسيا الصغرى بتجنب الحرب أو شن الهجمات إلا بموافقة القائد العام، إلا أن القوات الروسية هاجمت القوات الأفغانية[٢٨] وألحقت بها خسائر قدرت بـ ٩٠٠ قتيل و (٣٠٠) جريح، واحتلت منطقة البندجة في نهاية آذار ١٨٨٥[٢٩].

ولم تكن علاقات بريطانيا مع المانيا هي الأخرى جيدة، فقد امتازت منذ عام ١٨٨٤ بالتوتر. فقد توصل بسمارك إلى اعتقاد بأن البريطانيين لا يرغبون بأن يأخذ الألمان فرصتهم وحصتهم في النشاط الاستعماري. وقد أوضح المستشار الألماني أثر القضايا الاستعمارية في العلاقات بين الدولتين في الرسالة التي أرسلها إلى الكونت مونستر Count Munster السفير الالماني في لندن يوم الخامس من مايس/ أيار ١٨٨٤ عندما قال: «بسبب موقعها الجغرافي، فإن بريطانيا لا تعاني من خطر كبير من أية دولة باستثناء فرنسا في أوروبا ومن روسيا في آسيا. وعلى كل حال، فإنه في حالة اتخاذ فرنسا موقفاً يهدد بريطانيا، فإن ذلك يتطلب، على الأقل، التأكد من حياد المانيا. وبالتأكيد فإن عيون روسيا تتجه لمعرفة موقف المانيا، وما إذا كانت ترغب في حقيقة الأمر بالتحرك ضد بريطانيا سواء في الهند أو اسطنبول. لذا فإننا نرى بأن موقفنا... أو بالأحرى موقفنا من أعداء بريطانيا أو منافسيها، هو في غاية الأهمية بالنسبة للسياسة البريطانية، أكثر من امتلاك أو ضم هيغولاند والمنافسة التجارية للشركات الألمانية والبريطانية في البحار البعيدة. فباستطاعة بريطانيا أن تضمن لنفسها استمرار تأييدنا الفعال لغاياتها السياسية من خلال بعض التضحيات والتي لا تؤثر عليها»[٣٠] واقترح بسمارك على بريطانيا أن تتنازل عن جزيرة هيغولاند الواقعة في بحر

(٢٠) Cladstone to Granville, 24 February 1885, Cited in the Political Correspondence of Mr. Cladstone and Lord Granville, 1876-1886, edited by Agatha Ramm, vol. 11, 1883-1886, (Oxford University Press, 1962), no. 1578. Hereafter will be cited as P, C.G.G.

(٢١) Cuynn and Tuckwell, Op. Cit., vol. II, p. 115.

(٢٢) Fitzmaurice, Op. Cit., vol. II, pp. 422-4.

(٢٣) Mr. Gladstone to Queen Victoria, 10, Downing Street, 28 February 1885, Buckle, G.E., The Letters of Queen Vitoria, Vol. III, (London, 1928), p. 616.

(٢٤) Gladstone to Granville, 10 Downing Street, 3 March 1885, P.C.G.G., no. 1583.

(٢٥) The Queen of England to His Imperial Majesty the Emperor of Russia, 4 March 1885, Fitzmaurice, vol. II., pp. 423-4.

(٢٦) Memorandum by Gladstone, 10 Downing Street, 13 March 1885, P.C.G.G., no. 1594 and Enclousre; Gladstone to Granville, 10 Downing Street, 16-17 March 1885, Ibid, nos. 1598, 1599.

(٢٧) Lowe, C.J., The Reluctant Imperialists, vol. I, British Foreign Policy, 1878-1902, (London, 1967), p. 87.

(٢٨) ان هذا لا يعني عدم وجود اتصالات بين الحكومة المركزية والقادة العسكريين الروس في آسيا الوسطى. بل على العكس، فإن هؤلاء لم يجرؤوا على اتخاذ أية خطوة عسكرية إلا بموافقة حكومتهم.

Moriss, P., The Russians in Central Asia, 1870-1887, Slavonic and European Review, vol. 53, 1975, pp. 521-38.

(٢٩) Morley, J., **The Life of William Ewart Gladstone**, vol. II, (London, 1911), pp. 423-4; Greaves, R.L., **Persia and the Defence of India, 1884-1892,** (London University Press, 1959), p. 171.

(٣٠) Pribram, A.F., **England and the International Policy of European Powers, 1871-1914,** (Oxford University Press, 1931), p. 30; Geiss, I., **German Foreigun Policy, 1871-1914,** (London, 1976), pp. 44-51.

الشمال كدلالة على رغبتها وحسن نيتها في اقامة علاقات طيبة مع المانيا[٣١].

لم تستجب بريطانيا لعروض بسمارك، باستثناء مناقشات مطولة في وزارة الخارجية البريطانية. وحذرت المانيا، على لسان سفيرها في لندن، الحكومة البريطانية من النتائج المترتبة على السياسة البريطانية، واتهمتها بتطبيق مبدأ مونرو في افريقيا وفي منطقة المحيط الهادي[٣٢]. وفي الحقيقة، ان رفض بريطانيا قد كلفها غالياً فعمل بسمارك على عزلها وخلق المشاكل لها وبالنتيجة اضعاف مكانتها الدولية[٣٣]. وبما أن بريطانيا تعتبر من القوى البحرية الكبرى والتي تمتلك المستعمرات فهي تعتبر دولة مجاورة لكل دولة مطلة على بحر. ولذا فإنها معرضة وباستمرار لتوتر علاقاتها مع هذه الدول، وكذلك إلى مخاطر ائتلاف القوى ضدها. وهذا هو الثمن الذي يتوجب على بريطانيا دفعه. لقد شهدت الأعوام ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ حركة استعمارية نشطة، وتحملت بريطانيا ضغوطاً متزايدة. فبالإضافة إلى تردي علاقاتها مع المانيا، فقد توترت العلاقات البريطانية ـ الفرنسية بسبب المستعمرات في افريقيا وبسبب المشكلة المصرية، وكذلك توترت العلاقات البريطانية ـ الروسية بسبب التوسع الروسي في آسيا الوسطى. وهكذا فإن فكرة تعاون هذه الدول ضد عدوها المشترك، بريطانيا، كانت فكرة طبيعية. وعندما عارض المسؤولون البريطانيون مشاريع بسمارك الاستعمارية، مما دعا بسمارك إلى تشكيل تحالف مضاد لبريطانيا يمتاز بقوته وليستمر لفترة طويلة.

ففي عام ١٨٨٤ تم تجديد حلف الأباطرة الثلاثة بين المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا، وبذلك تمكن بسمارك من الاعتماد على النمسا ـ المجر وروسيا وكذلك ايطاليا التي كان يربطها بالمانيا والنمسا ـ المجر حلف كان قد تم التوصل إليه عام ١٨٨٢. وكانت العلاقات الألمانية ـ العثمانية وثيقة أكثر من أي وقت مضى، على عكس العلاقات البريطانية ـ العثمانية[٣٤]. أما علاقات المانيا باسبانيا، فكانت ودية إذ كانت الزيارات الرسمية متبادلة بين مسؤولي الدولتين. وإذا نجح بسمارك في توثيق علاقات المانيا مع فرنسا واقناع الحكومة الفرنسية في اتباع سياسة موحدة ضد بريطانيا، فإن باستطاعته فرض طوق عليها. وبذلك ستكون بريطانيا عاجزة عن مجاراة القارة الأوروبية المتحدة. وبالفعل نجح بسمارك خلال الأعوام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ في التوصل إلى وفاق مع فرنسا. وساعده في ذلك استمرار حكم الجماعات الجمهورية في فرنسا. فرئيس وزراء فرنسا يوليوس فيري Jules Ferry، وهو من أكثر المتحمسين للتوسعات الاستعمارية، كان يرى بأن بريطانيا تقف حائلاً أمام الدول الأوروبية التي تسعى إلى تكوين امبراطوريات استعمارية. ويعتقد أيضاً بأن المشاريع الاستعمارية الفرنسية يمكن تحقيقها بالتعاون مع المانيا. لذلك قبل فيري عروض بسمارك وعمل معه ودياً. وكان أول حقل للتعاون الألماني ـ الفرنسي هو مصر. فعندما دعت بريطانيا الدول الأوروبية إلى الاجتماع في مؤتمر يعقد في لندن لبحث أمور مصر المالية، شهد هذا المؤتمر، الذي انعقد في الفترة من ٢٨ حزيران ولغاية الثاني من آب ١٨٨٤، تعاوناً المانياً ـ فرنسياً. وشعر البريطانيون بالعزلة وهكذا أفشل المؤتمر[٣٥]. لذلك اعترفت بريطانيا بسيادة المانيا على Angra Pequena، وكذلك اعترفت بضم المانيا لمنطقة جنوب غرب افريقيا في آب ١٨٨٤، وتم تعيين لجنة مشتركة لبحث موضوع جزر فيجي[٣٦].

ومع ذلك فالرأي العام الألماني كان معادياً لبريطانيا، ولم يكن للموقف البريطاني الجديد الخاص بالمستعمرات أي تأثير على موقف بريطانيا[٣٧]. فهدف بسمارك هو تكوين نظام قاري Continental System، مشابه لذلك النظام الذي أوجده نابليون الأول ولكن على أسس مختلفة. لذلك تفاوض بسمارك مع الفرنسيين في آب ١٨٨٤ من أجل التعاون فيما يتعلق بالمشكلة المصرية والمسائل الاستعمارية. وافقت فرنسا على المقترحات الالمانية حالاً. ولا يمكن أن يعد هذا (حلفاً) بل (تقارباً) مهماً[٣٨].

وبينما كانت العلاقات الألمانية ـ البريطانية تسير من سيء إلى أسوأ، وبينما كانت كل حكومة تتهم الأخرى بالخداع وانتهاز الفرصة لضم المناطق المتنازع عليها، استمر بسمارك يعمل على ضم فرنسا إلى التحالف القاري ضد بريطانيا. فبعد اجتماع الأباطرة الثلاثة في Skierniewice في أيلول ١٨٨٤، أكد بسمارك للسفير الفرنسي في باريس بأن تحالف الأباطرة غير موجه ضد فرنسا وأن الهدف من التعاون الألماني ـ الفرنسي هو «ايجاد نوع من التوازن البحري، وأن لفرنسا دوراً كبيراً يمكن أن تلعبه في

(٣١) Bismarck to Rosebery, Berlin, 28 February 1885, Cited in Crewe, The Marquis of Lord Rosebery, vol. I, (London, 1931), p. 234.

(٣٢) Langer, **European Alliances**, pp. 294-5.

(٣٣) Medilcott, W.N., **Bismarck and Europe**, (London, 1971), p. 134.

(٣٤) حول التفاصيل انظر أطروحتنا للدكتوراه:
Al-Amir, S. **British Reaction to Germany's Ottoman Policy, 1870-1885**, Unpublished Ph.D. thesis University of Bradford, 1978, vol. II.
Langer, Op. Cit., pp. 297-8; Robinson & Gallagher, **Africa and the Victorians**, (London, 1972), p. 143.

(٣٥) Medlicott, Op. Cit., p. 134.

(٣٦) Malet to Granville, Berlin, 27 December 1884, F.O. 64/1052, no. 407.

(٣٧) Curtius, F, (ed), **Memoris of Prince Chlodwig of Hohenlohe Schillingsfuerst**, vol. II, (London, 1906), p. 310.

(٣٨)

هـذه القضية، إذا مـا هي أبدت رغبتهـا في الاتفـاق مـع وجهـة نظرنا. لقـد تكلم أناس سـابقاً عن التـوازن الأوروبي... إنني لا أحبذ الحرب مع بريطانيا، ولكني أريـد أن تفهم أنه إذا اتحـدت أسـاطيل الأمم الأخـرى، فإن بـاستطاعتهم مقـاومتها في البحـر وسوف يجبرونها على احتـرام مصالـح الآخرين. ولتحقيق ذلـك، فإن عليها أن تتوقع أن التـوصل إلى حلف ألمـاني ـ فرنسي أمـر ممكن». وأوضـح المستشار الألمـاني أن تأسيس عصبـة بحريـة أوروبية سيؤدي إلى اصابة السياسـة البريطـانية بـالشلل. ففي عام ١٨٨٢ كانت بريطانيـا تمتلك (٢١) سفينـة حربيـة متطورة ضـد (٣٢) تمتلكها فـرنسا والمـانيا وايطـاليا والنمسـا ـ المجـر وروسيا. وامتلكت فرنسـا لوحـدها (١٦) في حـين امتلكت المانيـا (٨). وهكذا فإن سفن الأسطولين: الفرنسي والألماني أكثـر عدداً من الأسطـول البريطـاني[٣٩]. كـان رد الفعـل البـريطـاني عـلى محاولات بسمارك هو ارتفاع الأصـوات مطالبـة بزيـادة المبالـغ المخصصـة للتسلح البحـري ونتيجة لـذلك وافق مجلس العمـوم البـريطاني في الثـاني من كـانـون الأول ١٨٨٤ عـلى تخصيص خمسـة ملايـين ونصف المليون من الجنيهـات الاسترلينيـة لبناء سفن حربية جديدة خلال السنوات الخمس القادمة[٤٠].

وفي الحقيقـة فـإن التعـاون الالمـاني ـ الفـرنسي فيمـا يتعلق بقضية المشكلة المالية المصرية وكذلـك خلال مؤتمـر برلـين الذي بحث شؤون المستعمـرات في افريقيـا قـد تـوطـد. ففيمـا يتعلق بالمشكلة المصريـة، كانت بـريطانيـا قد تقـدمت في تشرين الثـاني ١٨٨٤ من الدول الأوروبية بمقتـرحات لحـل الأمور المـالية التي تعاني منها مصر. ومن أبـرز هذه المقتـرحات عقـد قرض بمبلـغ تسعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية عـلى أن تكون بـريطانيـا الجهة الضـامنـة. والواقـع أن الهدف من وراء هـذا المقترح هـو جعل بريطانيا تهيمن على الأمور المالية المصرية بدلاً من تـدويلها وذلك ما سبق أن اقترحه مؤتمر لندن. تأخر بسمارك في الرد على المقترحات البريطانية حتى نهاية الأسبوع الأول من شهر كانـون الثاني ١٨٨٥. بعد أن قدمت فرنسـا مقترحـات مضادة. وتبعت المانيا في ذلك بقية الدول الأوروبية. وهكذا توضـح موقف أوروبـا المعارض للسياسة البريطانية في مصر. ونتيجة للتعاون الألمـاني ـ الفـرنسي، لم تتمكن بريطـانيا من الصمـود أمام ضغـوط هاتـين الدولتين، لذلك أجبرت على قبـول المقترحـات الفرنسيـة المضادة والتي هـدفت إلى إبقاء السيطـرة الدوليـة عـلى الشؤون المـاليـة المصرية، وتم التوصـل إلى اتفاقيـة بهذا الشـأن في آذار ١٨٨٥. وبذلك استمرت بريطانيا تعاني من التدخل الأجنبي في مصر[٤١].

أما فيما يتعلق بمؤتمر برلين[٤٢] الذي بـدأ أعمالـه في الخامس عشر من تشرين الثاني ١٨٨٤، فإنـه كان اجتمـاعاً حضّر لـه كل من بسمارك وفيري. ولم يكن لبـريطانيـا دور كبير وكـان لقرارات المؤتمر ـ وبخاصة القرار الذي أكد أن ادعاءات أية دولـة في أية منطقـة افريقيـة لا يمكن الاعتراف بهـا إلا عندمـا تمارس تلـك الـدولة احتـلالها الفعـال والحقيقي لتلك المنطقـة ـ دور في جعل احتكار بريطانيا للمستعمرات في افريقيا أمراً مستحيـلاً. وهكذا، فـإذا كان في نيـة الساسـة البريطـانيين تطبيق مبـدأ مونـرو في افريقيا، فإن هذا القرار قضى عليها[٤٣]. وعنـدما انتهت جلسـات المؤتمـر في ٢٦ شبـاط ١٨٨٥، وصلت العـلاقـات الألمـانيـة ـ البـريطانيـة إلى درجة كبـيرة من التوتـر والحدة لم تصـل إليها سابقاً. وحاولت بريطانيا القضاء على التقارب الألماني ـ الفـرنسي وعلى العلاقات الوثيقة بين المانيا والدولة العثمـانية. ففي الثـامن والعشرين من نفس الشهر دافع كـرانفيل عن سيـاسة حكـومته تجاه مصر وصرح بأن معـارضة بسمارك للسياسـة البريطـانية تعـود إلى أن بريطـانيا لم تـأخذ بنصيحتـه التي تدعـو إلى ضم بـريطـانيـا لمصر. لكن هذه المحـاولة بـاءت بـالفشـل حيث أنكـر المستشـار الألماني هـذه الادعـاءات في خطـابـه الـذي ألقـاه في الرايخشتاغ والذي اتهم فيه كرانفيل بأنه يهـدف إلى خلق فوضى في أوروبا. وبعد أيام قلائل أرسل بسمارك ابنه هربرت إلى لندن، وذكرت شائعات أن الهدف هو حث الحكومة البريطانية على اقالة كرانفيل واللورد دربي Lord E. Derby وزير المستعمرات[٤٤].

ومهمـا يكن من أمر، فـإن كلادستـون W. Gladstone رئيس الـوزارة البريطـانيـة أعلن يـوم الثـاني عشر من آذار ١٨٨٥ في مجلس العمـوم البريطـاني: «إذا أرادت المانيـا أن تصبـح قـوة مستعمرة، فإن كل ما أقوله هـو أن يعجل الله عملهـا. فستصبح حليفتنـا وشريكتنا في تنفيـذ جميع الأغـراض... لفـائـدة جميـع البشرية». ويعود هذا الاذعان البـريطاني إلى تـورط بريطـانيا في مشاكل استعمارية بسبب التـزاماتهـا العالميـة. ففي ٢٦ كانـون الثـاني ١٨٨٥ سقطت الخـرطـوم بيـد المهـدي وقتـل القـائـد الانكليزي كوردن Gordon. وكانت لهذه الكارثة أصـداء واسعة وخطـيرة في لندن، وبينمـا كانت الحكـومة البـريطانيـة منشغلـة

(٣٩) Langer, Op. Cit., p. 303.

(٤٠) Marder, A.J., **The Anatomy of British Sea Power, A. History of British Naval Policy in the Pre-Dreadnought Era 1880-1905,** (London, 1972), pp. 121-3.

(٤١) Langer, Op. Cit., pp. 304-6.

(٤٢) Crewe, S.E., **The Berlin West Africa Conference,** (London, 1942).

(٤٣) Fitzmaurice, Op. Cit., vol. II, p. 430, Gwynn & Tuckwell, Op. Cit., vol. II, p. 99.

(٤٤) Langer, Op. Cit., pp. 306-7.

بمشكلة المستعمرات مع المانيا وبالمشكلة السودانية وواجهت أيضاً مشكلة خطيرة عندما دحرت قوات روسية في الثلاثين من آذار ١٨٨٥ قوات أفغانية في منطقة البندجة(٤٥).

وعلى أثر دحر القوات الروسية للقوات الأفغانية، اعتبرت كل من بريطانيا وروسيا الحرب أمراً لا مفرّ منه. ولكنه في حالة اندلاع حرب بين هاتين الدولتين في منطقة آسيا الوسطى فإن الدولة التي ستتضرر هي بريطانيا، لأن قوتها تكمن في قوتها البحرية، وأن هذه القوة لا يمكن استخدامها على الحدود الأفغانية. علاوة على ذلك، لم يكن لدى بريطانيا قوات برية كافية لشن حرب في حين هي متورطة في مشاكل أخرى وفي بقاع أخرى من العالم. ولذا فإن بوسع بريطانيا محاربة روسيا وذلك بمهاجمة السواحل الروسية المطلة على البحر الأسود، وبذلك تتمكن بريطانيا، في مثل هذه الحالة، من استخدام قوتها البحرية. اضافة إلى ذلك، فإن قيام بريطانيا بهجوم على ميناء باطوم الروسي سيكون له تأثير كبير، لأنه سيقطع الاتصالات مع آسيا الوسطى وبالتالي ستصبح معزولة، وبذلك ستستخدم كمركز للتمرد ضد روسيا في القوقاز.

ومن أجل القيام بمثل هذه الحملة، كان على السفن الحربية البريطانية أن تمر عبر المضائق العثمانية خلافاً للاتفاقيات الدولية. وفي الحقيقة أن هذه الاتفاقيات لم تنص على غلق هذه المضائق بوجه السفن الحربية لجميع الدول فحسب، بل ان اتفاقية عام ١٨٧١ قيدت السلطان العثماني في ممارسة حقه في فتح المضائق وجعلته مقتصراً على حالة واحدة وهي الدفاع عن معاهدة باريس لعام ١٨٥٦. وعلى الرغم من ذلك، فإن الدول الأوروبية توقعت أن تحاول بريطانيا التوصل إلى تفاهم مع السلطان العثماني بأن يسمح الأخير بمرور السفن الحربية البريطانية عبر المضائق، مقابل قيام بريطانيا بتقديم تعويضات سخية للدولة العثمانية. فقد وردت تقارير بأن البريطانيين حاولوا التوصل إلى اتفاق مع العثمانيين، تطلق بريطانيا بموجبه يد الدولة العثمانية في مصر وبلغاريا، وأن تدفع مبلغاً قدره (٢٥) مليون جنيه استرليني مقابل السماح للسفن الحربية البريطانية بالمرور عبر مضيقي الدردنيل والبسفور إلى البحر الأسود(٤٦). وذكر بأن بريطانيا هددت الدولة العثمانية بقطع العلاقة بينها وبين مصر في حالة رفض السلطان العثماني لهذا العرض(٤٧) في الوقت نفسه عرض بعض المسؤولين العثمانيين بصورة غير رسمية اقتراحاً على بريطانيا يرمي إلى التوصل إلى (حلف) بين بريطانيا والدولة العثمانية في حالة اندلاع حرب بين بريطانيا وروسيا. فقد أخبر سعيد باشا، السفير العثماني في برلين، والذي كان يشغل منصب وزير الخارجية عام ١٨٨٢، الكولونيل سواين Swaine الملحق العسكري في السفارة البريطانية في برلين أن «باستطاعتنا أن نجهز جيشاً قوامه (٣٥٠) الفاً... على الحدود الروسية في آسيا الوسطى، إذا غطيتم تكاليفه. ونستطيع ارجاع الروس عبر القوقاز. وعند انتهاء الحرب ارجعوا لنا قارص واردهان وباطوم وأسسوا دولة في القوقاز مشابهة للرومئيلي الشرقية أو بلغاريا، تكون تحت سيادة السلطان العثماني، وأن نسترجع مبلغ الغرامة التي طالبت بها روسيا بعد الحرب الأخيرة»(٤٨).

ومهما يكن من صحة هذه التقارير، إلا أنه من المؤكد أن بريطانيا لم تتقدم رسمياً بطلب إلى الباب العالي تدعو فيه إلى فتح المضائق أمام السفن الحربية البريطانية. فالعلاقات البريطانية العثمانية في عام ١٨٨٥ كانت سيئة لأسباب عديدة أهمها: احتلال بريطانيا لمصر(٤٩)، وموافقة وتشجيع بريطانيا لاحتلال ايطاليا منطقة المصوع Massawa، وكذلك تردد السلطان العثماني في التوقيع على الاتفاقية المالية المصرية. وبالإضافة إلى ذلك، كان يجري في الأوساط السياسية والعسكرية في اسطنبول حديث حول قيام بريطانيا بعمليات ضد مضيق الدردنيل في حالة رفض السلطان العثماني السماح للسفن الحربية البريطانية بعبور المضيق(٥٠). كذلك وصلت إلى السلطان معلومات من حسن فهمي، وزير العدل العثماني الذي كان يزور لندن في مهمة رسمية تتعلق بالمسألة المصرية، مفادها أن بريطانيا عازمة على عبور المضائق، وأن ضباطاً بريطانيين يستطلعون مضيق الدردنيل لدراسة تحصيناته ودفاعاته. وأكد الرعايا البريطانيون في العاصمة العثمانية احتمال قيام بريطانيا بمهاجمة المضائق.

أعلن السلطان العثماني أنه مصمم على اعلان الحياد التام والدفاع عن المضائق. إلا أنه أخبر رادوفتز Radowitz، السفير الألماني في اسطنبول، انه يخشى أن تتعرض الدولة العثمانية

---

(٤٥) Pribram, Op. Cit., pp. 29-31.

ان السبب الذي جعل بسمارك يوافق على هذه الهدنة مع بريطانيا هو ان الفرنسيين كانوا قد تورطوا في حرب مع الصين في مشكلة تونكين Tonkin ومنيت القوات الفرنسية بالهزيمة الأمر الذي ادى إلى اضطرار فيري إلى تقديم استقالته في نهاية آذار ١٨٨٥.

Langer, Op. Cit., p. 308.

(٤٦) Busch, M., **Bismarck, Some secret pages of History**, vol. III, (London, 1898), p. 133.

(٤٧) Smith, C.L., **The Embassy of Sir William White at Constantinople, 1886-1891**, (Oxford Universty Press, 1957), p. 10.

(٤٨) Malet to Cranville, Berlin, 18 April 1885, Private, P.R.O. 30 & 29/179; Swaine to Malet, Berlin, 14 April 1885, Enclosire, Ibid.

(٤٩) Al-Amir, British Reaction, vol. II, pp. 447-611.

(٥٠) Fitzmaurce, Op. Cit., vol. II, p. 438; Jelavich, the Ottoman Empire, pp. 136-7.

لخطر كبير من قبل بريطانيا، إذا اعتبرت الأخيرة رفض دولته مرور سفنها الحربية عبر المضائق عملاً عدائياً، وأن ترد بريطانيا على العمل العثماني بتهديد مصر وسواحل الدولة العثمانية. «لذلك وجب عليه أن يستفسر أولاً من برلين وفيينا سراً إلى أي حد يستطيع أن يعتمد على مساعدتهما في الحفاظ على حياد المضائق»(٥١).

ولكن ما هو موقف المانيا في حالة اندلاع الحرب بين بريطانيا وروسيا؟ وما هو دور المانيا في اتخاذ السلطان العثماني قراره الخاص بوقوف الدولة العثمانية موقف الحياد من النزاع البريطاني ـ الروسي؟ بعد الحرب الفرنسية ـ البروسية لعام ١٨٧٠ والتي انتهت باندحار فرنسا واعلان الاتحاد الألماني في قاعة المرايا في قصر فرساي، أدرك بسمارك أن الخطر الكبير الذي يهدد الوضع الجديد مصدره فرنسا التي رفضت الاذعان للهزيمة العسكرية. وعزز هذا الرفض فقدانها لمقاطعتي الالزاس واللورين. وانعكس هذا في الجهود التي بذلتها فرنسا في عقد السبعينات للتخلص من نتائج الهزيمة. فاستعادت فرنسا قوتها ومكانتها، كل ذلك جعل المستشار الألماني يقتنع بأن فرنسا عدو عنيد لألمانيا، وأنها ستثأر لنفسها في المستقبل القريب(٥٢)، وهذا ما أخاف بسمارك(٥٣). إلا أن الأخير لم يرغب في قتال الفرنسيين مرة أخرى، فبدلاً من الحرب، اعتمد بسمارك على الأسلحة الدبلوماسية لعزل واحتواء فرنسا. لذلك عمل على اعادة التفاهم السابق والذي كان قائماً بين بروسيا وروسيا والنمسا ـ المجر. فقد رأى بسمارك أن تشكيل عصبة من امبراطوريات المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا سيؤدي إلى عزل فرنسا. واعتبر بسمارك أيضاً أن الصداقة مع روسيا أمر أساسي لأسباب جغرافية، فالخطر الحقيقي الذي يهدد المانيا هو الحرب على جبهتين في حالة كون علاقتها سيئة مع كل من روسيا وفرنسا. فإذا كانت علاقة المانيا مع فرنسا غير جيدة، فإنه يتوجب على المانيا أن تكون علاقتها مع روسيا جيدة. وبنفس الوقت، لم يكن بسمارك راغباً بالاعتماد على روسيا، لأن ذلك سيورط المانيا في مشاكل روسيا مع بريطانيا في آسيا. وأن صداقة المانيا مع النمسا ـ المجر، كانت، حسب وجهة نظر بسمارك، مهمة، ليس لأنها ستجرد فرنسا من حليف ذي امكانيات جيدة، بل لأنها ستعطي المستشار الألماني نوعاً من الاستقلالية والحرية في تعامله مع روسيا(٥٤).

وكانت كل من النمسا ـ المجر وروسيا متلهفتين لكسب ود المانيا. فالدولة الأولى كانت تخشى الحرب مع روسيا بسبب اختلاف مصالح الدولتين في البلقان. أما روسيا، فكانت تريد من وراء كسب مودة المانيا، تجنب مواجهة تحالف الدول الأوروبية ضدها في حالة اندلاع حرب في آسيا. وعلى كل حال، فقد نجح بسمارك في عام ١٨٧٣ في التوصل إلى اتفاقية عرفت بعصبة الأباطرة الثلاثة Dreikaiserbund. وبموجب هذه الاتفاقية، وافقت الامبراطوريات الثلاث على التشاور فيما بينها في القضايا ذات المصالح المشتركة، أو في حالة تهديد السلام في أوروبا. وكانت تعوز هذه العصبة الجدية، على الرغم مما قيل من انها قد وقّعت من أجل الدفاع عن الملكية ضد الآراء والمبادىء الجمهورية والاشتراكية(٥٥). لذا ليس من المستغرب أن تنهار هذه العصبة وبسرعة. فكشفت أزمة «الحرب في الأفق» التي حدثت في مطلع عام ١٨٧٥ بين المانيا وفرنسا(٥٦) ضعف هذه العصبة التي انهارت تماماً خلال الأعوام ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨ عندما اندلعت الانتفاضات في منطقة البلقان والتي تبعها اعلان الحرب بين روسيا والدولة العثمانية والتي انتهت باندحار الأخيرة، وعقد معاهدة سان ستيفانو في آذار ١٨٧٨، ثم عقد مؤتمر برلين الذي حضرته الدول الأوروبية لدراسة هذه المعاهدة(٥٧). وفي الحقيقة أن المشكلة الشرقية لم توجه ضربة قاصمة إلى عصبة الأباطرة الثلاثة فحسب(٥٨) بل أيضاً إلى العلاقات الألمانية ـ الروسية(٥٩). فبدأت الصحافة الروسية بشن حملة ضد المانيا وقامت روسيا بتحشيد قواتها على الحدود الالمانية. وردت المانيا باتخاذ اجراءات ضد روسيا(٦٠) وتوصل بسمارك إلى اعتقاد بأن الوضع بدأ يفلت من يديه، وخشي من امكانية التوصل إلى اتفاق بين

---

(٥١) Radowitz to Prince Bismarck, 13 April 1885, Very Confidential, German Diplomatic Documents edited by E.T. Dugdale, vol. I, (New York, 1969), p. 198; Radowitz to the German Foreign Office, Constantinople, 23 April 1885, Telegram, Ibid., p. 200, Hereafter will be cited as G.D.D.

(٥٢) Langer, Op. Cit., p. 17, Geiss, Op. Cit., pp. 27-8.

(٥٣) Langer, Op. Cit., p. 37.

(٥٤) Carr, W., A. **History of Germany, 1815-1945,** (London, 1969), pp. 168-9.

(٥٥) Langer, Op. Cit., pp. 21-6.

(٥٦) Langer, Op. Cit., pp. 31-45.

(٥٧) Anderson, M. S. **The Eastern Question,** (London, 1970), pp. 178-219, Al-Amir, Op. Cit., vol. I, pp. 68-184.

وللتفاصيل انظر:

Seton Watson, R.W., **Disraeli, Cladstone, and the Eastern Question,** (London, 1935); Medlicott, W.N., **The Congress of Berlin and After** (London 1938); Stojanovic, M.D., **The Great Powers and the Balkans,** (New York, 1939).

(٥٨) Summner, B.H., **Russia and The Balkans, 1870-1880,** (Oxford University Press, 1937), pp. 554-5.

(٥٩) Waller, B., **Bismarck at the Crossroad,** (London University Press, 1972), pp. 65-75.

(٦٠) Ibid., pp. 22-3.

النمسا ـ المجر وروسيا أو بين النمسا ـ المجر وفرنسا. لذلك لجأ في تشرين الأول ١٨٧٩ إلى توقيع حلف مع النمسا ـ المجر، وهو حلف دفاعي الزم المانيا والنمسا ـ المجر على صد أي عدوان تقوم به روسيا. أما إذا كانت المانيا أو النمسا ـ المجر في حرب مع قوة ثالثة، فإن الدولة الأخرى تقف على الحياد، ما لم تتدخل روسيا في هذه الحرب. بعبارة أخرى، أن هذا الحلف الزم المانيا بمساعدة النمسا ـ المجر في حالة شن روسيا هجوماً عليها، في حين لم يلزم النمسا ـ المجر بمساعدة المانيا ضد فرنسا[٦١]. ويُذكر أن هذا الحلف هو ثمرة التخطيط الذي وضعه بسمارك منذ عام ١٨٦٦[٦٢]. إلا أنه لا يوجد دليل يؤيد ذلك على الرغم من أن بسمارك بعد الحرب البروسية ـ النمساوية قد عامل النمسا معاملة خاصة. وفي الحقيقة، فإن الحلف ما هو إلا وسيلة طارئة لحدث طارىء نجم عن سياسة بسمارك. لذا فالحلف سلاح مؤقت غايته الحفاظ على توازن القوى في منطقة البلقان عن طريق تحذير روسيا من الاعتداء على النمسا ـ المجر. ولا يتوفر دليل واحد يؤيد أن بسمارك كان قد توصل إلى قرار نهائي بتفضيل النمسا ـ المجر على روسيا[٦٣]. ففي المباحثات التي جرت قبل التوصل إلى هذا الحلف اقترح بسمارك على اندراسي G. Andrassy، وزير خارجية النمسا ـ المجر ضم روسيا إلى الحلف، إلا أنه رفض هذا الاقتراح[٦٤].

ولم تكن المانيا وحدها متلهفة للتوصل إلى تفاهم مع روسيا، بل ان الدولة الأخيرة كانت كذلك. لقد أدركت روسيا أن خلافاتها ليست مع المانيا بل مع النمسا ـ المجر، وأن هذه الخلافات متركزة على منطقة البلقان. وكذلك ادركت روسيا أن المضائق العثمانية هي من أهم مصالحها الحيوية، وأن الوضع الراهن ليس في صالحها. وعلى الرغم من أن بنود معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ والتي نصت على حياد البحر الأسود قد تم إلغاؤها، إلا أن احتمال مرور الأساطيل عبر المضايق العثمانية باتجاه السواحل الروسية المطلة على البحر الأسود لا زال قائماً وهذا ما يخيف روسيا. يضاف إلى ذلك، أن روسيا بدأت عام ١٨٧٩ تتخوف من عزلتها الدبلوماسية. وفي العام التالي تم عزل كورجاكوف A. Gorchakov، وزير الخارجية الروسية الذي كان يكنّ الكراهية لبسمارك[٦٥] وحل محله جيرز N.K. Giers. في نفس الوقت سقطت حكومة المحافظين البريطانية التي كان يرأسها دزرائيلي B. Disrali والمناهضة لروسيا والمؤيدة للنمسا ـ المجر، وجاءت حكومة الأحرار بزعامة كلادستون عدو النمسا ـ المجر إلى الحكم في بريطانيا. ومع أن بسمارك لم يفوّت اية فرصة منذ توقيع الحلف الألماني ـ النمساوي من أجل اعادة عصبة الأباطرة الثلاثة[٦٦]، إلا أن هذه الأحداث شجعته على تكثيف جهوده لتحقيق تلك الغاية. وبالفعل نجح المستشار الألماني في توقيع حلف الأباطرة الثلاثة في حزيران ١٨٨١. وقد نصت معاهدة الحلف، التي بقيت سرية والتي أمدها ثلاث سنوات، على أنه في حالة اشتباك أحد الأطراف الثلاثة مع دولة رابعة فإنه يتوجب على الطرفين الآخرين الوقوف موقف الحياد. أما إذا وجد أحد الأطراف نفسه مشتبكاً في حرب مع الدولة العثمانية، فإن الطرفين الآخرين يقفان موقف الحياد بشرط أن تتوصل الأطراف الثلاثة إلى اتفاق مسبق حول التغييرات التي سيتم اجراؤها بعد الحرب. والزمت المعاهدة الامبراطوريات الثلاث على احترام مبدأ غلق المضائق العثمانية أمام السفن الحربية الأجنبية[٦٧]. بعبارة أخرى أن هذا الحلف لم يشكل ابتعاداً عن بريطانيا[٦٨] فحسب، بل إن الامبراطوريات اتفقت على الوقوف بوجه أية محاولة تقوم بها بريطانيا للضغط على السلطان العثماني من أجل فتح المضائق. وحذرت السلطان العثماني من أنه، في حالة فتح المضائق أمام السفن الحربية، فإن ذلك يعني اعلان الحرب على روسيا، وسوف لا يتم ضمان المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية التي نصت عليها معاهدة برلين لعام ١٨٧٨[٦٩]. وبقيت هذه المعاهدة سرية، وتم تجديدها في آذار ١٨٨٤ عندما اجتمع أباطرة المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا. ولقد اريد من هذا الاجتماع كما ذكر بوجر Bucher المستشار في وزارة الخارجية الألمانية، «اظهار التفاهم الوثيق والقائم بين الأباطرة الثلاثة إلى أوروبا»[٧٠].

إن توقيع حلف الأباطرة الثلاثة وتجديده في عام ١٨٨٤ قد

(٦١) Albrecht-Carrie, R., A. **Diplomatic History of Europe Since the Congress of Vienna,** (London, 1970), pp. 177-9.
(٦٢) Langer, Op. Cit., p. 184.
(٦٣) Bismarck, O.V, Bismarck, the Man and the Statesman, Being the Reflections and Reminiscences of Prince Otto von Bismarck, Vol. II, (London, 1898), pp. 247, 260, 273.
(٦٤) Carr, Op. Cit., pp. 174-5.
(٦٥) Waller, B., **Bismarck and Gorchakov in 1879; The Two Chancellor's War, in Studies in International History** edited by K. Bourne & D.C. Watt, (London, 1967), pp. 209-35.
(٦٦) Bismarck, Op. Cit., Vol. II, p. 260.
(٦٧) Langer, Op. Cit., pp. 197-211.
(٦٨) Scott to Granville, Berlin, 4 April 1885, F.O. 64/1077, no. 161, Secret; Pribram, Op..Cit., p. 25.
(٦٩) Katkov, G., (ed), **Russia Enters the Twentieth Century,** (London, 1971), p. 13.
(٧٠) Busch, Op. Cit., vol. III, p. 119.

شجع روسيا على التوسع في آسيا الوسطى. فقد اعتبرت روسيا نفسها محمية من جهة الغرب وحرة في تنفيذ مشاريعها في آسيا الوسطى(٧١). اضافة إلى ذلك، حاولت روسيا جاهدة التوصل إلى تحالف مع الدولة العثمانية من أجل تحقيق غاياتها في هرات والهند. فقد ذكر بأن روسيا قد اقترحت على الدولة العثمانية أن تضمن سلامة مقاطعة سالونيكا والاستقرار في بلغاريا والمحافظة على الوضع الراهن في أرمينيا(٧٢)، واعادة قارص واردهان إلى الدولة العثمانية، وكذلك تعديل بعض بنود المعاهدات الثقيلة الوطأة على الدولة العثمانية، مقابل موافقة الأخيرة على توقيع حلف معها. وفي الواقع، أنه في حالة اعادة روسيا لقارص واردهان إلى الدولة العثمانية، فإنه يتوجب على بريطانيا بموجب الفقرة الثانية من معاهدة الحلف البريطاني ـ العثماني لعام ١٨٧٨ ارجاع قبرص إلى الدولة العثمانية(٧٣). وعلى الرغم من أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) لم يرفض العرض الروسي، بل انه أعلن أنه مهتم بتعزيز علاقات الدولة العثمانية الودية مع المانيا(٧٤)، فقد بقيت العلاقات العثمانية ـ الروسية «متينة». فقد وردت معلومات إلى السفارة البريطانية في اسطنبول مفادها أن روسيا نجحت في اقناع السلطان العثماني بإرسال رجال دين إلى افغانستان والهند لإثارة شعور المسلمين ضد بريطانيا(٧٥). علاوة على ذلك احتج السير وليم وايت Sir W. White السفير البريطاني في اسطنبول لدى الباب العالي على نشر جريدة «الاعتدال» مقالات تحرض الأفغان وكذلك مسلمي الهند على الانتفاضة ضد الحكم البريطاني(٧٦).

وعلى أية حال، فإنه يمكن القول ان المانيا وبسمارك بالذات، كان يقف وراء التقدم الروسي في آسيا الوسطى(٧٧) فبعد أن حصل بسمارك على ضمانات من روسيا «بأن السلام في أوروبا قد تم تأمينه، وأن روسيا سوف لا تشن حرباً»(٧٨) في أوروبا الشرقية(٧٩)، وأن روسيا تعهدت بـ «ايقاف الدعاية السلافية في الأراضي التي ترغب النمسا في ضمها»(٨٠)، أعطى بسمارك روسيا حرية العمل «ما بوسعها في الشرق». فقد حصلت على يد «مطلقة في الشرق والبحر الأسود»(٨١). لذا فعندما وردت معلومات بأن «الحرب بين روسيا وبريطانيا في آسيا لا مفر منها»(٨٢)، وأنه لا يوجد «شيء يخيف روسيا من الدخول في حرب ضد بريطانيا، فطرق المواصلات المؤدية لمسرح العمليات في آسيا الوسطى... تجعل روسيا أقوى من بريطانيا... وأن باستطاعة روسيا أن توجد دعاة لعرش افغانستان ضد الأمير الحالي وتثير الأفغان الواحد ضد الآخر عن طريق الحرب الأهلية»(٨٣)، كان على المانيا «أن تقف موقف الحياد في حالة نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا»(٨٤).

وفي الحقيقة، ان سياسة المانيا وموقفها هذا ليس «بالضرورة مناوئاً للبريطانيين». فقد ذكر بسمارك أنه «إذا ثبت أنها بريطانية فإنها يمكن أن تكون ضد مصالحنا. لأننا نعتمد دائماً على دول القارة الأوروبية»(٨٥) يضاف إلى ذلك أن بسمارك أخبر الأمبراطور الالماني وليم الأول William I (١٨٧١ ـ ١٨٨٨) في الأول من مايس/أيار عام ١٨٨٥ بأنه «ليس من مصلحة المانيا تثبيط عزيمة روسيا في استخدام جيشها في آسيا بدلاً من أوروبا. فلو لم يرسل الجيش الروسي، الذي كان يقاسي منذ عام ١٨٥٦ من تواجده في المواقع وأخذ يميل إلى سياسة الارهاب... عام ١٨٧٧ لقتال الدولة العثمانية، لكان قد تم ارساله لمحاربة النمسا». ويستطرد بسمارك قائلاً: «إن عدم استخدام الجيش الروسي يمثل خطورة لأمن وسلامة الامبراطورية الروسية وللأسرة

(٧١) Fitzmaurice, Op. Cit., vol. II, p.422.
(٧٢) Wyndham to Granville, Constantinople, 20 February 1885, F.O. 78/3749, no. 191, Secret.
(٧٣) Wyndham to Granville, Constantinople, 4 February, 1885, F.O. 78/3748, no. 61, Secret; Wyndham to Granville, Constantinople, 19 March 1885, F.O. 78/3749, no. 142, very Confidential.
(٧٤) Wyndham to Granville, Constantinople, 6 February 1885, F.O. 78/3748, no. 62, Secret.
(٧٥) Wyndham to Granville, Constantinople, 29 March 1885, F.O. 78/3750, no. 168, Secret; Wyndham to Granville, Constantinople, 3 April 1885, F.O. 78/3750, no. 183, Secret.
(٧٦) White to Granville, Constantinople, 16 May 1885, F.O. 78/3751, no. 270.
(٧٧) Scott to Sanderson, Berlin, 14 March 1885, Private P.R.O. 30/29/179.
(٧٨) Scott to Sanderson, Berlin, 29 March 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(٧٩) Scott to Sanderson, Berlin 14 March 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(٨٠) Malet to Granville, Berlin, 23 May 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(٨١) Scott to Sanderson, Berlin, 14 March 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(٨٢) Swaine to Scott, Berlin, 11 April 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(٨٣) Memorandum by Count Herbert Bismarck, Berlin, 15 March 1885, G.D.D., vol. I, p. 196.
(٨٤) Bush, Op. Cit., vol, III, p. 206.
(٨٥) Ibid., p. 140.

الحاكمة. فإذا لم يتم استخدامه في آسيا، فإنه يتوجب وبالضرورة استخدامه على الحدود الغربية»، أي ضد المانيا[٨٦].

لذلك، فعندما تواردت الأخبار إلى برلين من الحدود الأفغانية والتي تؤكد أكثر من أي وقت مضى على اندلاع حرب بين بريطانيا وروسيا، أعلن بسمارك أنه في حالة نشوب مثل هذه الحرب فإنه سيتم تطبيق بنود معاهدة حلف الأباطرة الثلاثة وخاصة الفقرة الثالثة التي تؤكد على غلق مضائق الدردنيل والبوسفور بوجه السفن الحربية، وأن يتم تحذير الدولة العثمانية من أنه في حالة انتهاكها لهذا المبدأ، ومنح بعض الاستثناءات لأية دولة كانت، فإنها تعرض كيانها للخطر[٨٧] ويرى بسمارك أن «اشتراك الدولة العثمانية في الحرب سيؤدي إلى انتشارها في جميع أوروبا». لذلك يجب على الدولة العثمانية أن تتخذ موقف الحياد[٨٨]. بعبارة أخرى أن بسمارك سيعمل على «أقلمة» الصراع البريطاني ـ الروسي وحصره في آسيا فقط[٨٩] «لصالح السلام الأوروبي»[٩٠]. فبعد أن استفسرت روسيا من المانيا فيما يتعلق بالتطبيق العملي للفقرة الثالثة من معاهدة حلف الأباطرة الثلاثة لعام ١٨٨٤ والخاصة بغلق المضائق العثمانية[٩١]، أخذت المانيا المبادأة في اجبار الدولة العثمانية ليس على الوقوف موقف الحياد فحسب، بل غلق المضائق بوجه السفن الحربية البريطانية واقامة الدفاعات والتحصينات في منطقة المضائق. وطلب بسمارك من حكومات النمسا ـ المجر وايطاليا وفرنسا الايعاز إلى ممثليها في اسطنبول أن يوضحوا للباب العالي «بأن فتح المضائق بوجه السفن الحربية لأية قوة أجنبية يمثل انتهاكاً للمعاهدات ويعرض الدولة العثمانية لمخاطر عظيمة». وبالفعل قام سفراء المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا وكذلك فرنسا بالطلب من الباب العالي الالتزام بتعهده الخاص بإبقاء المضائق مغلقة[٩٢]. وبذلك كوّنت هذه الدول ما عرف بـ «لجنة المحايدين» League of Neutrals من أجل أقلمة الحرب[٩٣]. ولأول مرة تقف الدول الأوروبية موقفاً موحداً بعد موقفها المعروف من النظام القاري الذي تزعمه نابليون الأول[٩٤].

لم تكن المانيا وحدها التي تريد الحرب، بل إن بقية الدول كانت تتطلع إلى ضعف بريطانيا وروسيا، «لأن الدول التي لا تدخل في هذه الحرب ستعزز نسبياً قوتها أما إذا توسعت رقعة الحرب فسوف تختفي هذه الفائدة، لذا فإنهم يسعون إلى أقلمتها»[٩٥] علاوة على ذلك، أن مصالح هذه الدول كانت دافعاً مهماً وراء اصرارها على أقلمة الحرب. فعندما تحدث السير اغسطس باجيت Sir A. Paget السفير البريطاني في فيينا مع كوستاف كالنوكي G. Kalnoky وزير خارجية النمسا ـ المجر بأنه في حالة اندلاع القتال بين بريطانيا وروسيا، فإن غلق المضائق سيضر بريطانيا وستجني روسيا فائدة كبيرة، ولذا فإنه لا يمكن اعتبار الموقف العثماني موقف حياد تام، فنّد كالنوكي صحة هذا الرأي. وذكر وزير الخارجية النمساوي المجري سويسرة، كمثل لهذه الحالة، وقال إن حيادها في عام ١٨٧٠ وخلال الحرب الفرنسية ـ البروسية، كان من مصلحة فرنسا، وكذلك احترم الألمان هذا الحياد أيضاً. ثم أوضح كالنوكي للسفير البريطاني أنه إذا اصبحت الحرب «أمراً لا مفر منه فإنها يجب أن تتم في آسيا. فحكومة فيينا لا ترغب في رؤية اندلاع حرب في منطقة الدانوب. إلا أن هذا سيتم وبالتأكيد إذا لم يحترم أحد أطراف النزاع حياد الباب العالي. لذا فإن حكومة فيينا مصممة على بذل كل جهودها في تأييد الدولة العثمانية في البقاء على الحياد». واشتكى باجيت من أنه «لم يلاحظ أي تعاطف هنا مع وجهة النظر البريطانية، وأن الصحافة أيضاً معادية، ولم يعد لبريطانيا صديق في القارة الأوروبية»[٩٦].

لقد عمل بسمارك جاهداً على إبقاء الدولة العثمانية على الحياد وكذلك على الدفاع عن المضائق العثمانية[٩٧]. فعندما وصلته معلومات بأن بريطانيا قدمت إلى الدولة العثمانية

(٨٦) Prince Bismarck to the Emperor, Berlin, 1 May 1885, G.D.D., vol. I, p. 206.

(٨٧) Simpson, J.Y., **The Saburov Memoirs, or Bismarck & Russia,** (Cambridge University Press, 1929), p. 297.

(٨٨) **Prince Bismarck to Prince Henry VII of Reuss, 9 April 1885, Telegram, Secret,** G.D.D., vol. 1, p. 197.

(٨٩) Scott to Sanderson, Berlen, 28 March 1885, Private, P.R.O. 30/29/179; Scott to Granville, Berlin, 4 April 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.

(٩٠) Scott to Granville, Berlin, 28 March 1885, F.O. 64/1077, no. 145, Secret.

(٩١) Schweinitz to the German Foreign Office, St., Petersburg, 8 April 1885, G.D.D., p. 197.

(٩٢) **Prince Bismarck to Prince Henery VII of Reuss, Berlin, 9 April 1885, Telegram and Secret,** G.D.D., vol. I, p. 197; Schweinitz to Prince Bismarck, St. Petersburg, 13 April 1885, Ibid., p. 198; Baron de Courcel to Count Hatzfeldt, Berlin, 14 April 1885, Ibid.; Prince Henery VII of Reuss to Prince Bismarck, Vianna, 15 April 1885, Ibid., pp. 199-200; Malet to Granville Berlin, 2 May 1885, P.R.O. 30/29/179; Memorandum by Sir William White dated 27 June 1885, Cited in Smith, The Embassy of Sir William White, pp. 158-9; Busch, Op. Cit., vol. III, p. 133; Jelavich, B, The Ottoman Empire, pp. 138-9.

(٩٣) Dugdale, G.D.D., vol. I, p. 200.

(٩٤) Taylor, A.J.P., **The Struggle for Matery in Europe, 1848-1918,** (London, 1954), p. 300.

(٩٥) **Malet to Granville,** Berlin, 2 May 1885, P.R.O. 30/2/179.

(٩٦) **Prince Henery VII of Reuss to Prince Bismarck, Vienna, 15 April 1885,** G.D.D., vol. I, pp. 199/200.

(٩٧) **Malet to Granville,** Berlin, 18 April 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.

«عروضاً» مقابل السماح بدخول سفنها الحربية عبر مضائق الدردنيل والبوسفور، قامت المانيا وكذلك النمسا ـ المجر بإخبار السلطان عبد الحميد الثاني «بأن لهم رأياً في الموضوع، وأن ضباطنا في اسطنبول سيقومون بمنع الدخول وذلك باستخدام الطوربيدات»[٩٨]. وتكلم (رادوفتز) في الثالث عشر من نيسان مع بعض العسكريين العثمانيين حول اتخاذ اجراءات سريعة للدفاع عن المضائق وطلب من السلطان العثماني الدفاع عن حياده «ضد أي ضغوط محتملة من قبل بريطانيا وذلك عن طريق تقوية جيشه بمدافع من نوع كروب Krupp ذات العيار الثقيل للدفاع عن الدردنيل» وبالفعل قامت لجنة من كبار الضباط في نهاية شهر نيسان بالتوجه إلى مضيق الدردنيل لتقرير الاجراءات التي تدعم غلق الدولة العثمانية للمضائق[٩٩]. وبعد مفاوضات بين المسؤولين العثمانيين وممثلين عن شركة كروب الالمانية تم التوصل إلى اتفاق، تقوم الشركة الالمانية بموجبه بتجهيز الدولة العثمانية بالمدافع والأعتدة. إضافة إلى ذلك تم تجديد عقد خدمة الضباط الألمان في الجيش العثماني لمدة ثلاث سنوات أخرى وتمت زيادة رواتبهم[١٠٠]. وبالفعل تم نصب المدافع الألمانية في مضيق الدردنيل، بينما لم يتم تحصين مضيق البوسفور.

لقد عمل بسمارك أيضاً على تجنب اعطاء روسيا أي سبب للشك في أن المانيا على علاقات جيدة مع بريطانية. لذا لم تتم تغطية زيارة أمير مقاطعة ويلز بصورة كافية خوفاً من اتخاذها ذريعة سياسية. يضاف إلى ذلك، أن المقالات التي نشرت في Cologne Gazette والتي تبنت وجهة النظر الروسية فيما يتعلق بالمشكلة الأفغانية، قد كتبها هيرڤون ليندو Herrvon Lindau الذي عمل في وزارة الخارجية الالمانية، والذي تربطه ببسمارك علاقات جيدة[١٠١].

وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تطلب من السلطان العثماني السماح للسفن الحربية البريطانية المرور عبر المضائق العثمانية وذلك بسبب «سيادة شعور عام بعدم الثقة والخوف من بريطانيا في القصر (السلطاني) وفي الباب العالي»[١٠٢]، إلا أن الحكومة البريطانية، وعلى لسان كرانفيل حذرت السلطان العثماني مراراً بأن لا يقطع على نفسه أية «تعهدات متهورة» قد تؤدي إلى تقييد حريته في العمل في حالة اندلاع الحرب بين بريطانيا وروسيا». بعبارة أخرى، كانت الحكومة البريطانية لا تريد أن تعلن الحكومة العثمانية الحياد أو الالتزام بالاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بالمضائق. وهكذا جابه السلطان العثماني في شهر نيسان ضغوطاً من بريطانيا من جهة ومن الدول الأوروبية من جهة أخرى، فيما يتعلق بموقفه من الحرب في حالة اندلاعها بين بريطانيا وروسيا، وكذلك فيما يتعلق باغلاق المضائق. لكن ضغوط دول حلف الأباطرة الثلاثة وايطاليا وفرنسا على السلطان العثماني قد أثمرت في النهاية، عندما أصدر الأخير تصريحاً أعلن فيه عن عزمه على ابقاء المضائق مغلقة، وأنه يعتمد على مساعدة هذه الدول في حالة الاستمرار بهذا الموقف[١٠٣].

وعلى كل حال، فقد اتخذت بريطانيا وروسيا اجراءات هدفها الاستعداد «للمواجهة» العسكرية. ففي ٢١ نيسان، أعلنت حكومة الأحرار البريطانية أنها ستطلب من مجلس العموم تخصيص مبلغ قدره (١١) مليون جنيه استرليني لمواجهة احتمال اندلاع قتال بين الروس والأفغان. ومن ناحية روسيا، فقد قامت بإغلاق ميناء فيلاد يفستوك بوجه السفن الأجنبية بعد أن زرعته بالألغام. وردت بريطانيا على هذا الاجراء بإرسال سفن حربية لاحتلال ميناء هاملتن. وتم ابلاغ حكومات الصين واليابان وكوريا بهذا الاجراء[١٠٤]. وكان الهدف من احتلال هذا الميناء هو استخدامه كقاعدة للعمليات الحربية ضد فيلاد يفستوك[١٠٥]. ومع ذلك، لم تكن أي من الدولتين راغبة بالدخول في حرب ضد الأخرى. فمنذ مجيئها إلى السلطة عام ١٨٨٠، والحكومة البريطانية متورطة في نزاعات عالمية، الأمر الذي جعلها وحيدة ومن دون حليف أوروبي. ففي عام ١٨٨٥، كانت الحكومة البريطانية «تنتقل من كابوس إلى آخر» وأنها «إذا تورطت في حرب ضد روسيا فإنه يتوجب علينا أن نتملق لألمانيا وفرنسا والدولة العثمانية»[١٠٦]. اضافة إلى ذلك أنه إذا تورطت بريطانيا، وبدون حلفاء، فإن الحرب ستكون أمراً لا طائل منه، لأنه سيصبح من العسير على القوات البريطانية انزال ضربة قاصمة بسان بطرسبورغ، وستكلف الحرب بريطانيا غالياً، لأن في حالة اندلاع الحرب، فإن ساحتها ستتحدد في الحدود الشمالية

---

(٩٨) Busch, Op. Cit., vol. III, p. 133.

(٩٩) Memorandum on German intrest as Manifested in defence of Constantinople by W.White, Constantinople, 5 February 1885, Very Confidential, F.O. 78/3996; Radowitz to Prince Bismarck, Constantinople, 13 April 1885, Very Confidential, G.D.D., vol. I, pp. 198-9.

(١٠٠) White to Granville, Therapia, 7 August 1885, F.O. 78/3752, no. 347.

(١٠١) Scott to Granville, Berlin, 4 April 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.

(١٠٢) *Wyndham to Cranville,* Constantinople, 14 April 1885, F.O. 78/3750, no. 205, Secret.

(١٠٣) Jelavich, The Ottoman Empire, pp. 140-4.

(١٠٤) Granville to Cladstone, Forign office, 26 April 1885, P.C.G.G., No. 1639.

(١٠٥) Gwynn & Tuckwell, Op. Cit., vol. II., pp. 120-1; Greaves, Op. Cit., p. 75.

(١٠٦) Lord Granville to Lord Lyons, 10 April 1885, Newton, L., Lord Lyons, vol. II, (London, 1913), p. 349.

للهند أو في شبه جزيرة القرم بشرط أن تهيمن بريطانيا على المضايق العثمانية وهذا ما لن تتمكن من تحقيقه. بعبارة أخرى، لم يكن لدى الحكومة البريطانية استراتيجية بديلة(١٠٧). علاوة على ذلك كتب الكونت مونستر، سفير المانيا في لندن، في الأول من مايس/ آيار ما يلي: «فيما يتعلق بالشعور نحو السلام والحرب، فالشعور هنا متذبذب فيومٌ ميال للحرب ويوم للسلم بدون سبب مقنع. وتلعب الصحافة والبورصة دورها في ذلك»(١٠٨). يضاف إلى ذلك أن اللورد دوفرين Lord F. Dufferin نائب ملكة بريطانيا في الهند، وكذلك مستشاريه العسكريين وأمير افغانستان أخبروا الحكومة البريطانية بأن أهمية وقيمة منطقة البندجة لا تساوي اعلان الحرب بين بريطانيا وروسيا(١٠٩). هذا وكانت الحكومة البريطانية، التي تشك بأن الروس لا يريدون الحرب(١١٠)، يعوزها الحزم والقرار. فعلى الرغم من طلب وزير الدولة لشؤون الهند من الحكومة البريطانية استخدام لهجة شديدة ضد روسيا، وكذلك تحذيرات الجنرال لومزدون للحكومة البريطانية من «النتائج المهلكة» في حالة بيان ضعف بريطانيا تجاه التوسع الروسي، إلا أن الحكومة البريطانية طلبت من لومزدون اخبارها بكافة التطورات وعدم التدخل في حالة تردي الموقف بين القوات الروسية والأفغانية(١١١). وقد أثار موقف الحكومة البريطانية هذا الملكة فكتوريا التي اتهمت حكومة كلادستون بالضعف وبأنها ينقصها «القرار والحزم» فانتقدت موقف الحكومة من الجنرال لومزدون الذي وصفته بأنه لا يعرف ماذا يعمل مع الروس لأن حكومته لم تزوده بالتعليمات(١١٢). وحتى أن الاستعدادات العسكرية التي اتخذتها بريطانيا والتي تتمثل بتعبئة قوات عسكرية قوامها خمسون الف جندي، ودعوة قوة قوامها سبعون ألفاً من الاحتياط وكذلك تخصيص مبالغ لتغطية تكاليف هذه الاستعدادات، كان هدفها انزال الخوف والذعر والارهاب في نفوس أكبر قوة عسكرية في العالم وهي روسيا. يضاف إلى ذلك، أنه على الرغم من هذه الاجراءات العسكرية فإن الحكومة البريطانية وكما أخبر وزير الخارجية البريطانية سفيره في باريس، لا تعرف كيف «تخوض الحرب وبصورة فعالة ضد روسيا»(١١٣) وأعلن جوزيف تشمبرلين J. Chamberlin الذي كان مشغولاً بالمسائل الامبراطورية «أنه كان من شبه المحال القيام بحرب ضد روسيا. فلم يكن من السهل الوصول إلى العدو، وأن السبب في دخول الحرب، لم يكن على درجة من الوضوح تكفل له أن يحظى بتأييد كافة الشعب البريطاني، فكان من الأفضل البحث عن حل وسط، حتى وان كان على الحكومة أن تتحمل اهانة شخصية. وكان هذا هو رأي كلادستون كذلك»(١١٤).

أما روسيا، فلم تكن راغبة بالحرب مطلقاً. فقد طلب الوزراء الروس من القيصر أن يطلب السلم مع بريطانيا وليس الحرب. واعترف كل من وزير البحرية ووزير الحربية للقيصر بأن القوات المسلحة الروسية عاجزة عن محاربة بريطانيا(١١٥). فعندما عقد القيصر اجتماعاً لمجلس الوزراء، توصلت الحكومة الروسية إلى قرار بأن الظرف غير ملائم لشن حرب كبيرة. فالجيش الروسي يمر الآن في حالة اعادة تنظيم وأن دفاعات السواحل وكذلك البحرية ليست في حالة استعداد، وأن الخزينة خاوية(١١٦). وهكذا، فالحكومة الروسية كانت تدرك الصعوبات التي ستواجهها في حالة قيامها بالهجوم على الهند. ومع ذلك فإن تهديد روسيا بالهجوم كانت له قيمة كبيرة بالنسبة لسياستها. فالسياسة البريطانية كانت تهدف إلى القضاء على قوة روسيا البحرية خاصة في البحر الأسود والبحر المتوسط، والتوسع الروسي في آسيا الوسطى كان رداً على هذه السياسة(١١٧). يضاف إلى ذلك، أن إحدى غايات روسيا على الحدود الأفغانية «هو إجبارنا على أن نكون أقرب جيرانهم في آسيا، وأن يجعلوا هذه الحدود غير آمنة، إلى درجة تجعلنا نعيش في قلق وخوف من انهيار السلام، لأنهم يتصورون أنهم إذا ساوموا في ذلك فإنهم سيصلون وبسهولة إلى اسطنبول...»(١١٨). بالإضافة إلى ذلك، أن روسيا اضطرت بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ للتخلي عن الأراضي التي حصلت عليها بموجب معاهدة سان ستيفانو، لذا اختارت

(١٠٧) Gillard, **Salisbury and the Indian Defence Problem**, p. 241.
(١٠٨) **Count Munster to Count Herbert Bismarck, London, 1 May, 1885, Very Confidential**, G.D.D., vol. I, p. 201.
(١٠٩) Layall, A. **The Life of the Marquis of Dufferin and Ava**, vol.II, (London, 1905), pp. 89-101.
(١١٠) **Lord Granville to Lord Lyons, 25 March 1885**, Newton, Op. Cit., vo. II, p. 348, **Lord Granville to Lord Lyons, 10 April 1885, Ibid.**, p. 249.
(١١١) Mr. Gladstone to Queen Victoria, 10 Downing street, 28 February 1885, Buckle, The Latters of Queen Victoria, vol. III, pp. 614-5.
(١١٢) Queen Victoria to Mr. Giadstone, Windsor Castle, March 1885, Ibid., p. 617.
(١١٣) Extract from Report of the Proceedings in the Cabinet on 12 March 1885, Ibid., p. 628; Newton; Lord Lyons, vol. II, pp. 346-7; Eldridge, Op. Cit., p. 156.
(١١٤) رونفان، بيير، **تاريخ العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر، ١٨١٥ ـ ١٩١٤** ترجمة د. جلال يحيى، (القاهرة، ١٩٨٠)، ص ٥٢٢.
(١١٥) Morris, **The Russians in Central Asia**, pp. 528-9.
(١١٦) Greaves, Op. Cit., p. 76.
(١١٧) Langer, Op. Cit., P. 309.
(١١٨) Edward, H.S., **The Carear and Correspondence of Sir William White**, (London, 1902), p.272.

طريقاً غير مباشر بهدف تقوية نفوذها لدى الباب العالي وتأمين الهيمنة على المضائق العثمانية[119]. والظاهر أن القيصر الروسي قد فكر من جانبه بأن النتيجة الرئيسية لحرب بريطانية ـ روسية ستكون تدعيم التفوق الألماني في أوروبا[120]. لذلك قبل الكسندر الثالث العرض البريطاني الذي جاء على شكل تصريح للحكومة البريطانية في مجلس العموم والرامي إلى الدخول في مفاوضات «ودية» مع روسيا. وكذلك رغب البريطانيون بإحالة موضوع التقدم الروسي في منطقة البندجة وعلاقته باتفاقية ١٦ آذار إلى تحكيم يقوم به رئيس دولة[121].

وهكذا يتضح من نتائج تحقيق الاتحاد الألماني أن روسيا كثفت نشاطها في آسيا الوسطى، وتمكنت من ضم أراض إلى امبراطوريتها. فبعد أن تم تأمين حدودها الغربية وكذلك سواحلها المطلة على البحر الأسود بعد التوصل إلى حلف الأباطرة الثلاثة الذي تم تجديده عام ١٨٨٤، وضمن غلق المضائق العثمانية بوجه السفن الحربية الأجنبية وبخاصة البريطانية، استأنفت روسيا نشاطها الاستعماري في آسيا الوسطى. وتكمن وراء هذا النشاط أسباب منها داخلية تتعلق بالأوضاع الداخلية في روسيا، وخارجية، تتمثل بقلق روسيا من الوجود البريطاني في الهند.

إلا أن المانيا، وبسمارك بالذات، قد لعب دوراً في تشجيع روسيا في توسعها في آسيا الوسطى. فبعد أن جعل بريطانيا تخرج من كابوس إلى آخر وتصبح عاجزة أمام توسع روسيا في آسيا الوسطى. شجع روسيا على عدم الالتزام بوعودها بعدم التقدم في آسيا الوسطى، وعلى المماطلة في مفاوضاتها مع بريطانيا من أجل تحديد الحدود الروسية الأفغانية. وفي الحقيقة أن المستشار الألماني لم يشجع نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا في آسيا الوسطى فحسب، بل كان يطمح ويريد اندلاع مثل هذه الحرب. فبسمارك كان يرى أنه في حالة عدم اندلاع حرب بين الدولتين فإن الجيش الروسي سيتمرد على القيصر وبالتالي سيقضي على النظام القيصري المحافظ في روسيا، وبالتالي يهدد الأنظمة المحافظة في أوروبا. وكان هذا من أبرز اهتمامات بسمارك، بل من أسباب تقارب المانيا من النمسا ـ المجر وروسيا وايطاليا. أو أن الجيش الروسي سيتم حشده واستخدامه إما ضد المانيا أو ضد النمسا ـ المجر. لذا فإن الحرب في حالة اندلاعها ستؤدي إلى ضعف الأطراف المتحاربة، وخاصة روسيا التي كان يخشى بسمارك منها على حدود المانيا الشرقية، ويخشى من عقد حلف فرنسي روسي، يجبر المانيا في النهاية على الحرب على جبهتين، وهذا ما يرمي بسمارك إلى تجنبه. ولم يكن المستشار الألماني يخشى من نتائج اندلاع الحرب. وحتى في حالة الحاق ـ روسيا الهزيمة العسكرية ببريطانيا وهذا ما كانت تخشاه النمسا ـ المجر، عكس بسمارك الذي اعتقد بأن روسيا ستحتاج إلى وقت طويل من أجل استعادة قوتها، وإذا حاولت روسيا أن تستغل نتيجة حربها مع بريطانيا ضد النمسا ـ المجر فإنه سيعمل على منعها من تحقيق ذلك.

وقد اتخذ بسمارك كافة التدابير اللازمة من أجل حصر رقعة الحرب في آسيا الوسطى ومنع انتشارها إلى أوروبا. بعبارة أخرى عمل على أقلمة الحرب. ألم ينجح في أخذ ضمانات من روسيا بعدم القيام بأي عمل عدائي في أوروبا، وأن تركز روسيا اهتماماتها في آسيا التي جعل يدها مطلقة فيها؟ ألم ينجح بسمارك في التأثير على مواقف الدول الأوروبية، ليس فقط فيما يخص تكوين لجنة المحايدين فيما يتعلق بغلق المضائق العثمانية بل في معارضة بريطانيا في نزاعها مع روسيا على الحدود الأفغانية؟ وأخيراً، ألم تنجح جهود بسمارك، بل حتى تهديداته ضد الدولة العثمانية، في غلق وكذلك الدفاع عن المضائق في حال تعرضها لهجوم بريطاني؟

لقد كانت أقلمة الحرب هدف بسمارك الرئيسي في النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الأفغانية. فأقلمة الحرب تعني منع انتشارها إلى أوروبا. فإذا أصبحت أوروبا مسرحاً للعمليات الحربية البريطانية والروسية، فإن هذا سيؤدي إلى توريط النمسا ـ المجر بشكل أو بآخر في هذه الحرب، وبالتالي إلى القضاء على حلف الأباطرة الثلاثة الذي عمل بسمارك جاهداً على التوصل إليه بعد أن تردت العلاقات الألمانية ـ الروسية بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨. في حين كانت بريطانيا تخشى من هذا الحلف وتعتبره موجهاً ضدها وتعمل جاهدة للقضاء عليه.

إن موقف المانيا من النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الأفغانية حتى وقت قبول الطرفين فكرة التحكيم، هو بالتأكيد درس آخر أراد بسمارك أن يلقنه لبريطانيا بسبب موقفها من قضية المستعمرات. ولكن يجب التأكيد أن هناك خلافاً جوهرياً بين السياسة البريطانية والالمانية تجاه القارة الأوروبية. فسياسة بريطانيا تجاه القارة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر كانت تهدف إلى القضاء على أية محاولة تجعل من أوروبا قوة واحدة، أو أن تبرز دولة أوروبية وتتصيد الموقف وتقف بوجه

---

(١١٩) Smith, The Embassay, p. 9.

(١٢٠) رونفان، المصدر السابق، ص ٥٢٢.

(١٢١) Cuynn & Tuckwell, Op. Cit., vol. II, p. 117.

بريطانيا. لذلك استندت السياسة البـريطانيـة على زرع الشقـاق بين دول القارة الأوروبية لتسودها الفوضى والاضطراب، من أجل الحفاظ على مصالحها. فقـد وقفت بريطـانيا مـوقفاً صـارماً من الثـورة الفرنسيـة وحكم الامبراطـور نابليـون الأول واستخدمت الجيوش الأوروبية، بعـد أن مولتهـا بالأمـوال، ضد فـرنسا لأن الأخيرة أصبحت مهيمنة على أوروبا، وكذلك اتبعت وسائل عديدة لجعـل أوروبا مفككـة ولتقضي بذلـك على السيـادة الفرنسيـة في أوروبا. وبالفعل نجحت في تحقيق ذلك في معـركة واتـرلو ١٨١٥. ومنـذ أن حققت المـانيـا وحـدتهـا في عـام ١٨٧١، اعتمـدت في سياستها الخارجية عـلى أسس ومبادىء، معينـة وهي أن يسود السـلام القارة الأوروبيـة، وأن توثق المـانيا عـلاقتها مـع الدول الأوروبيـة وبخاصـة المجاورة لالمـانيا وحتى فـرنسا إذا سمحت الظـروف في ذلك، وأن تكـون علاقـات المانيـا بروسيـا، بصـورة خاصة، جيدة وذلك لتزيد من عزلة فرنسا ولتقضي في الوقت نفسه على أية محاولة ترمي إلى عقد حلف فـرنسي - روسي يجبر المـانيا على الحرب عـلى جبهتين، لـذلك عملت المـانيا عـلى توجيـه أنظار روسيا عن أوروبا إلى آسيا، الأمر الـذي أدى إلى اصطدامهـا في تلك القارة ببريطانيا.

معركة الحراش
أو الهجوم الاسباني على الجزائر
عام ١٧٧٥ م - ١١٨٩ هـ

د. ناصر الدين سعيدوني
معهد التاريخ - جامعة الجزائر

يعتبر الهجوم الاسباني على مدينة الجزائر عام (١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م) من المعارك المهمة والوقائع الحاسمة في التاريخ الجزائري الحديث وذلك للأحداث التي تميز بها والنتائج التي أسفر عنها، فقد كان هذا الهجوم الاسباني إحدى حلقات المخطط الصليبي الذي حاولت الدول الأوروبية وعلى رأسها اسبانيا تنفيذه لصالح المسيحية على حساب سيادة أقطار المغرب العربي، وقد أصبحت السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط تقتضي تنفيذ هذا المخطط الذي ارتسمت ملامحه إثر تصفية الوجود الإسلامي بالأندلس والتحاق ايالات المغرب (الجزائر وتونس وطرابلس) بالدولة العثمانية.

وقد حاول الاسبان أثناء القرن السادس عشر، في هذا النطاق، القيام بحملات متتالية استهدفت أغلبها السواحل الجزائرية إلا أنها لم تكن لها أية نتيجة وذلك بسبب القوة البحرية الجزائرية وسيطرتها على مياه البحر المتوسط. وبعد أن أصبحت موازين القوى الدولية منذ نهاية القرن السابع عشر تميل لصالح الدول الأوروبية، قرر شارل الثالث ملك اسبانيا القيام بحملة بحرية كبرى ضد الجزائر التي أصبحت القلعة المنيعة والحارس الأمين للدفاع عن السيادة الإسلامية في الضفة الجنوبية للمتوسط، وقد استعان في حملته هذه بنفوذ الكنيسة وبتأييد بعض الدول الأوروبية المسيحية التي أمدته بقوات عسكرية وعلى رأسها دول المدن الايطالية مثل جنوة ونابلي ومالطة وليفون، وذلك بحجة حماية السواحل الاسبانية من غارات البحارة الجزائريين، ومن أجل اطلاق الأسرى النصارى، الذين كانوا يقدرون آنذاك بالآلاف، فهم حسب رواية نقيب الأشراف، كانوا بمدينة الجزائر وحدها لا يقلون عن ثمانية عشر ألفاً من الأسرى منهم حوالى عشرة آلاف من الاسبان.

وقد جنّد الملك الاسباني لهذا الغرض جيشاً بقيادة الأميرال الايرلندي الأصل الكونت أوريلي (Oreilly)، قوامه ثلاثة وعشرون ألف رجل منهم ألف فارس وجمع من السفن أسطولاً يتكون حسب الروايات الجزائرية بما لا يقل عن خمسمائة مركب بينما المصادر الأوروبية تقدر عدد قطعه بعشرين بارجة وعشرين مدمرة وسبعة مراكب من نوع شباك وثلاثمائة وأربع وأربعين باخرة شحن مزودة بمائة مدفع.

هذا وقد علم الجزائريون الذين استطاعوا قبل سنوات التصدي لهجوم الدانويين (الدانمارك) عامي: ١٧٧٠ و١٧٧٢ م. مبكراً بالاستعدادات الاسبانية، فاستنفر الداي محمد عثمان باشا ومعاونوه القوات الموجودة بالجزائر وضواحيها. وآستقدموا الفرق العسكرية من البايليكات، ونادوا في الناس بالجهاد للدفاع عن العقيدة وحرمة الوطن، وقد وصف محمد بن الجيلالي بن رقية الذي عاش الأحداث في مصنفه «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» تجنيد القوات للمشاركة في صد الهجوم بقوله: «إن الداي محمد عثمان باشا بعث إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق لأنه كان ينبهه أن لا يفارق ناحية حمزة، بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة إذا أمره بالقدوم الى الجزائر، وكذلك باي ناحية التيطري، وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب، لأن الباي كان مشتغلاً بحفظ مستغانم وأيضاً كان معترضاً بجهة وهران. إذ شاع بأن اللعين أراد أن يبعث جماعة من العسكر من وهران الى الجزائر في البر، وربما يتمكن من الإغارة على ناحية تلمسان أو ناحية معسكر أو مستغانم إن لم يكن الباي هناك».

أما القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها، والتي كان عددها يقدر حسب وثائق الأرشيف الجزائري عام ١٧٤٥ م. بـ ١١٨٩٧ مجنداً، منهم ٩٣٢٢ قادراً على المشاركة الفعلية في المعركة، فقد كانت مقسّمة إلى ٤٢٤ فوجاً (أورطة أو

وجاقات) مقيمين بثماني ثكنات (قشلات) داخل أسوار مدينة الجزائر، وقد وُزِّعوا للمشاركة في صد الهجوم على ثلاث مجموعات احداها بقيادة حسن الخزناجي والأخرى بقيادة علي آغا العرب، ولكل مجموعة منهما أربعون خباء وكل خباء به ثلاثون جندياً، بينما المجموعة الثالثة وأغلبها من جنود المدفعية والبحارة فقد أبقيت لحراسة الحصون والقلاع الواقعة بالقرب من مدينة الجزائر أو داخل القصبة والمرسي، وتولى الاشراف على الموجود منها بتحصينات المرسي وكيل الحرج، الذي أوكلت له مهمَّة إبعاد أية قوة بحرية تحاول الاقتراب من مدينة الجزائر، وذلك باستعمال المدفعيّة الموجودة بتحصينات الميناء والتي تتوزع على برج البحرية أو برج الفنار المجهز بمائة وثمانين مدفعاً، وبُرج السردين الذي وضعت به بطاريتان من المدافع بهما اثنان وثلاثون مدفعاً، والبرج الجديد المعروف ببرج الزوبية الذي جدد بناءه محمد عثمان باشا عامي ١٧٧٣/ ١٧٧٤، وزوده بالعديد من المدافع، هذا وقد بدأت الاستعدادات الحثيثة مع ظهور الأسطول الاسباني بخليج الجزائر في اليوم الأول من شهر جمادى الأول من عام ١١٨٩ هـ، بعد أن أخبر صاحب الناظور المكلف بمركز المراقبة ببوزريعة الداي محمد عثمان ومعاونيه بأن: «البحر كله تغطى بقلاع السفائن بحيث لم تُر بتلك الناحية فوق البحر الا القلاع»، وفي اليوم التالي أخذت القوات الجزائرية مواقعها، عندما رست طلائع الأسطول الاسباني بقيادة (الدون بيدرو كاستيخو) بساحل الحراش مع وقت صلاة الجمعة، وفي اليوم الثالث بدأ التعرف على قوة العدو مع بداية نزول الجيش الاسباني على رمال الشاطىء الشرقي للجزائر، بين وادي خنيس «العناصر» والحراش، هذا وقد استمرت عمليات النزول حتى تم حشد حوالى عشرين ألف جندي على الشاطىء مع عدتهم الحربية. وقد وصف القائد الاسباني المكلف بالاشراف على عملية النزول إلى البر الأميرال «مازاريدو» ظروف تمركز الجيش الاسباني بالساحل المقابل لمدينة الجزائر بقوله: «بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر يوم غرة جويلية طلب مني الكونت أو - ريلي باعتباري قائداً للأسطول أن أنزل إلى البر مباشرة مع الأفواج الأولى من الجيش اثنتي عشرة قطعة مدفعية من عيار أربعة وأن يتبع على الفور انزال اثني عشر مدفعاً من عيار ثمانية بالإضافة إلى ثمانية مدافع من عيار اثني عشر، وقد هبت الريح قوية يوم ثلاثة جويلية مما أعاق النزول الذي كان مقرراً أن يكون في اليوم الرابع من جويلية، ولهذا كلفت بأن أضع الخطة النهائية لنقل الجنود وتعيين السفن التي ستقوم بحمل الجنود إلى الشاطىء على أن تنزل للبر قوة قوامها سبعة آلاف وسبعمائة رجل وتلتحق بهم بعد وقت قليل قوة أخرى مكوّنة من سبعة آلاف رجل».

وأثناء ذلك أخذت القوات الجزائرية مواقعها مستعدة للالتحام مع القوة المهاجمة، فرابطت في الناحية الغربية المؤدية إلى مدينة الجزائر بين وادي خنيس وعين الربط «الحامة ساحة أول ماي حالياً» أسفل مرتفعات عين الأزرق القوة التي يقودها حسن الخزناجي وبالقرب منها عسكر علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس، وإلى الشرق من ساحل الحراش نحو الجنوب استقرت قوات صالح باي بين وادي الحميز والحراش المكونة من حوالي عشرين ألف رجل والتي كانت تضم العديد من راكبي الخيل والجمال، ومن الناحية الجنوبية الغربية تحصنت القوات التي كان يقودها مصطفى خوجة الخيل وقائد فرق الصبائحية بناحية باب الوادي تنتظر التدخل في حالة أي تغيير قد يطرأ على خطة العدو بتحوله إلى الجهات الغربية من مدينة الجزائر، وبالقرب من هذه القوات الاحتياطية رابطت فرق زواوة برأس كاكسين لحماية الجهات الغربية من فحص مدينة الجزائر، وإلى الجنوب نحو الغرب من موقع نزول المهاجمين كانت قوة خليفة باي الغرب تنتظر أوامر الداي للمشاركة في المعركة بينما توزعت قوات باي النظري بسهل متيجة ومنه إلى رأس تما نتفوست «البرج البحري» المقابل لوادي الحراش لتأمين مؤخرة المدافعين وامدادهم بالمؤن والمساعدة عندما يتطلب الأمر ذلك.

وقد كان لهذه الاستعدادات المبكرة والتحصينات المتوفرة والمشاركة الفعالة لمختلف فرق الجيش وجموع المتطوعين، دور كبير في تطويق القوات الاسبانية والتضييق عليها، واحباط مخططاتها الرامية إلى الحاق الهزيمة بالجيش الجزائري ومحاصرة مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، ومما ساعد الجزائريين على تطويق القوة المهاجمة بطء عملية النزول الاسباني على الساحل التي استغرقت أسبوعاً كاملاً نظراً للقصف الذي تعرضُوا له من الجزائريين مما مكن السلطات الجزائرية من استقدام التعزيزات وتجنيد المتطوعين، وقد ذكر ذلك صاحب الزهرة النائرة بقوله: «إن مكث العدو كان خيراً علينا لأن قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا». كما ساعد على نجاح الخطة الجزائرية تجمع الجيش الاسباني في مساحة ضيقة من الأرض محصورة بين مرتفعات الساحل بناحية حسين داي وشاطىء البحر، ومطوقة من جميع الجهات بقوات مزودة بالمدافع ومدعمة بالفرسان، وذلك رغم تحصينات الاسبان الذين بادروا منذ نزولهم بإقامة المتاريس والحواجز، ومحاولتهم المبكرة فك الحصار بالتقدم الى البساتين الواقعة بمنحدرات الساحل بين الحراش وخنيس، واستخدامهم الأسطول في قصف تجمعات الجزائريين واسكات مدفعيتهم، إلا أن المعركة بدأت بعد اليوم الأول تميل لصالح الجزائريين، وذلك بفعل مساهمة قوة المدفعية بحصن مرتفع خنيس، وبفضل تدخل فرسان صالح باي، واشتراك مجموعة كبيرة من راكبي الجمال في مهاجمة العدو وإحداث الهلع والخوف في صفوفه.

هذا وقد استطاعت طبانة (مدفعية) وادي خنيس المزودة بعدة فوهات من المدافع المشرفة على تجمعات العدو والمقابلة لسفنهم الصمود أمام القصف السريع والمتواصل للسفن الاسبانية أثناء اليوم الثامن الذي تعرضت فيه لحوالى ١٥٠٠ قذيفة مدفعية، وقد حاولت أثناء تعرضها للسيل المتواصل من القذائف أن ترد على العدو، وقد أحدثت خسائر جسيمة بالفعل في سفن وتجمعات الاسبانيين بعدما استطاع المدفعي عمر برامقسيس توجيه مدفعين الى ناحية الاسبان واحداث ثغرة في حائط الحصن المقابل لهم مما مكنهم من تسديد قذائفهم مباشرة إلى سفن الاسبان وتجمعاتهم، وقد بلغ عدد القذائف الجزائرية في تلك الليلة خمسمائة طلقة في اتجاه المواقع الاسبانية تسببت في تشتيت جموعهم واغراق بعض سفنهم مثل السفينة المهاجمة التي أغرقتها مدفعية أحمد خوجة باشدفتر.

أما تدخل فرسان صالح باي فقد حال دون اختراق الاسبان للقوات الجزائرية عبر مرتفعات الساحل، بعد أن جندوا لهذا الغرض قوة عسكرية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي، وذلك بشنه هجوماً خاطفاً في اليوم الأول للمعركة مستخدماً جميع قُواته البالغة عشرين ألف فارس على القوات الاسبانية المتقدمة مستعملاً في ذلك أعداداً كبيرة من الجمال والخيل، وقد التحقت به، بعد ذلك، بقية القوات التي قدرت حسب بعض المصادر الجزائرية بـ ١٥٠ ألف رجل منهم ستة آلاف تركي وثلاثة آلاف كرغلي وهذا مما أرغم الاسبان على التراجع والالتحاق بالسفن دون محاولة تنظيم صفوفهم وجمع عتادهم تاركين أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى وكميات ضخمة من العتاد والسلاح في ميدان المعركة التي دامت عشرة أيام من ١ إلى ١١ جويلية، ١٧٧٥.

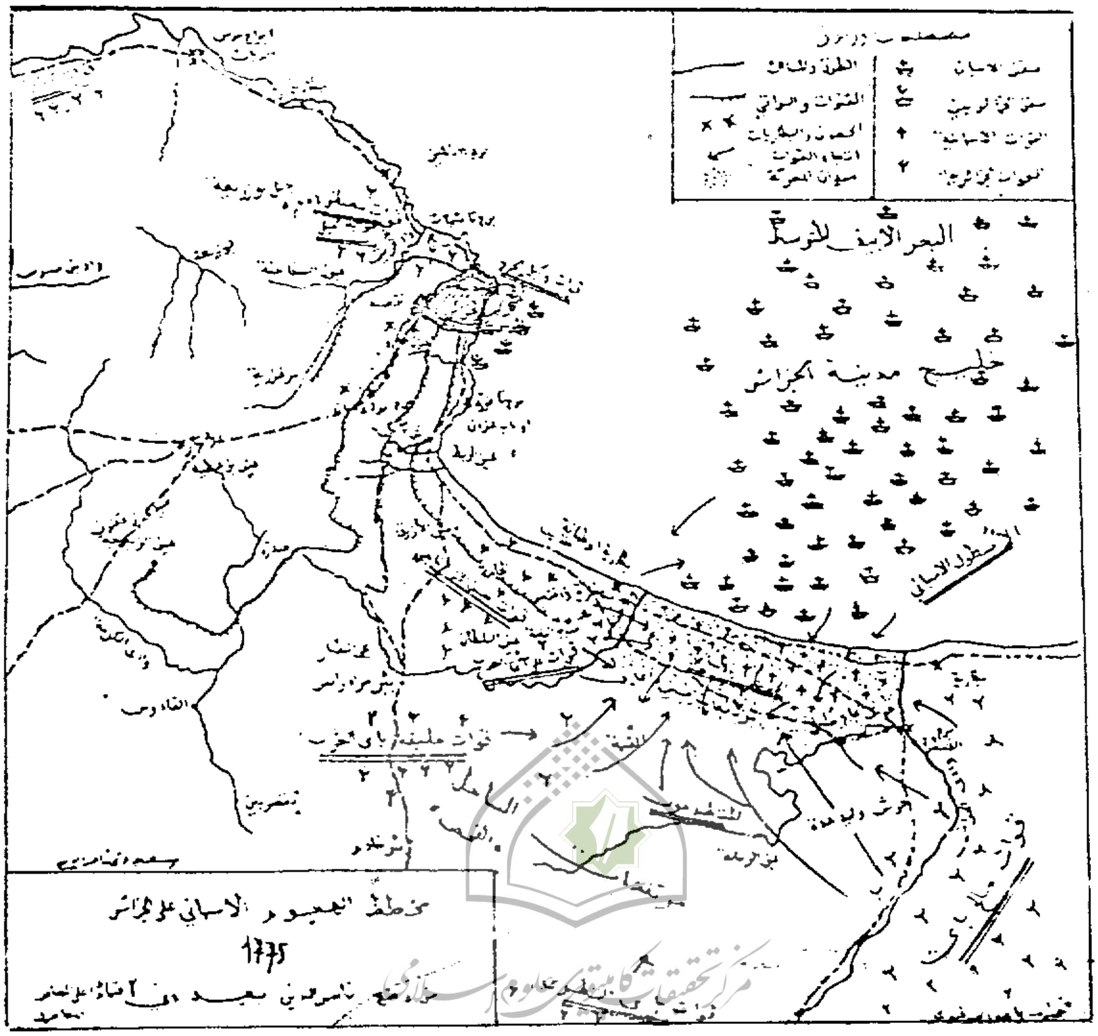
هذا وقد استكمل الاسبان انسحابهم غير المنظم والسريع في ظرف عدة أيام، فغادرت آخر سفنهم خليج الجزائر في اليوم السابع من جمادى الأول عام ١١٨٤ هـ، وقد تعرضت لهم السفن الجزائرية أثناء انسحابهم فأسرت منهم العديد واستولت على مغانم كثيرة في عرض البحر، بيعت في المزاد العلني بباب البستان حسب رواية نقيب الأشراف.

ومما يلاحظ أن الأميرال الاسباني «مازاريدو» والمسؤول عن عمليات الإنزال الى الشاطىء، حاول في تقريره السري، التقليل من وقع هذه الهزيمة عندما برر عملية الانسحاب بقوله: «وما تركنا وراءنا على الساحل ألا أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ثمانية عشر بالإضافة إلى تسعة عشر رطلاً من رصاص البنادق، ورامي قذائف وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لعدد الرجال الذين كان من الممكن أن نتركهم قتلى لو أنتظرنا الصباح».

لكن هذا القول تكذبه الأحداث وتنفيه نتائج المعركة، فقوة الهجوم الجزائري وفعالية المدفعية وتدخل كل القوات المتواجدة في مواجهة العدو، ومهارة القادة الجزائريين أمثال صالح باي ومصطفى خوجة الخيل ومحمد بن عثمان خليفة باي الغرب، وحنكة الداي محمد عثمان باشا المجاهد كل هذا أرغم الاسبان على ترك عتادهم والتخلي عن أسلحتهم على أمل الوصول إلى السفن الراسية بالقرب من الساحل، تاركين في ميدان المعركة نحو مائة مدفع وجميع الآلات الحربية الأخرى مع حوالى ٢٨٠٠ قتيل و٢٠٨٠ جريحاً حسب أغلب الروايات، وإن كانت هناك روايات أخرى تقدر عدد الجرحى بثلاثة آلاف وعدد القتلى النهائي بثمانية آلاف، وهذا عكس ما ذهب إليه الاسبان من أن عدد قتلاهم لم يتجاوز ١٩١ ضابطاً و٢٠٨٨ جندياً بالنسبة لليوم الأول للمعركة، ولعل أقرب رقم إلى الواقع والذي أوردته بعض الروايات هو أربعة آلاف قتيل، ومما يؤكد هذا ما ذكره صاحب الزهرة النائرة من أنه: «رأى في مكتوب جاء من قرطخانة بعد وصول الأسبان إلى بلادهم، أنهم أخرجوا إلى مستشفى قرطخانة ألفين وثلاثمائة من المجاريح والمرضى، فضاقت عليهم المستشفيات فوضعوهم في كنائسهم، والحال أن أقل من نصف العمارة توجهت إلى قرطخانة، وأما الأكثر فقد ألتحق بأليكانت».

أما خسائر الجزائريين، فقد كانت ضئيلة، لم تتجاوز عند بعض المؤرخين المائتين، أما عند البعض الآخر مثل أبي رأس الناصري والمزاري فقد بلغت أربعمائة شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرميلة إزاء عين الربط عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين.

بعد هذا الانكسار، لم يجد الأسبان بدّاً من محاولة التوصل إلى صلح مع حكام الجزائر يحفظ لهم مصالحهم ويخفف من أثر هذا الاندحار أمام مدينة الجزائر، وعندما أصر الداي محمد عثمان باشا على ضرورة تخلّيهم عن وهران كشرط مسبق للتوصل معهم إلى أي اتفاق حاولوا التوسط مع الباب العالي، لكن النوايا الاسبانية التوسعية ومحاولة الملك الاسباني شارل الثالث اعادة الكرة ومهاجمة الجزائر من جديد بالاستعانة بالدويلات الايطالية، تحت رعاية الكنيسة وبزعامة البابا بيوس السادس أدت إلى فشل محاولات الصلح، وبذلك استمرت حالة العداء بين اسبانيا والجزائر إذْ حاولت اسبانيا الهجوم مرة أخرى (في شهر أوت ١٧٨٣ وفي شهر جويلية ١٧٨٤(وظلت الجزائر حصناً منيعاً وقلعة صامدة في الذود عن العروبة والإسلام والدفاع عن مقوماتها، وقد عبر عن هذا الموقف البطولي للجزائر في العهد العثماني محمد بن الرحمن الجيلالي التلمساني في مصنفه الزهرة النائرة بقوله: «وليعرفوا قدر الجزائر، إذ تراب نواحيها معجون بدماء الكفار» اللهم أدمها دار جهاد، ومحل عزم واجتهاد إلى يوم التناد».



المصادر المعتمدة في هذا البحث:

- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢ ـ ١٧٩٢**، الجزائر ١٩٦٨، الفصل ٢٧، ص ص ٤٨٥ ـ ٥٠٥.
- أحمد الشريف الزهار، **مذكرات نقيب اشراف الجزائر، الحاج أحمد الشريف الزهار ١٧٥٤ ـ ١٨٣٠**، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر ١٩٧٤، ص ص ٢٦ ـ ٢٧، ص ١٩٦.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الثالث، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤٨.
- محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلالي بن رقية التلمساني، **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة**، تحقيق وشرح سليم بابا عمر، نشر بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد ٣، سنة ١٩٦٧، ص ص ٢٥ ـ ٣٢.
- ابو راس الناصري، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، مخطوطة بالمكتبة الوطنية، ص ص ١١١ ـ ١٤٢.

Berbrugger, (A.) Expedition, D'Oreilly Contre Alger, 1775. In. Revue Africaine, T.8.9 Et 11.

Berbrugger, (A.) Traduction de Documents sur L'Expedition D'Oreilly In. Revue Africaine. T. 8.

Bresnier, Traduction du Récit Inedique de L'Expedetion D'Oreilly In. Revue Africaine, T. 8.

Feraud (Ch.) **Attaques des Expagnols Contre Alger au XVIII Siecle.**

Julien (Ch A.) **Histoire de L'Afrique du Nord,** Paris Payot 1964- T 11. P. 297.

Gaid Mouloud, **L'Algerie sous les Tures,** Tunis 1975, PP. 163/164.

منهج بوركهارت في دراسة النهضة الايطالية

د. فلاح حسن عبد الحسين
كلية التربية/جامعة البصرة

لم ينل عصر النهضة كفترة تاريخية محددة في التاريخ الأوروبي، اهتماماً من البحث والدراسة حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأ فلاسفة حركة التنوير يبحثون عن تلك العصور التي ازدهرت ونمت فيها بعض الآراء والأفكار المشابهة لآرائهم وأفكارهم مثل الفردية والحرية، فعند ڤولتير مثلاً أن عصر النهضة هو أحد العصور الأربعة في التاريخ التي شهدت نمواً وازدهاراً ثقافياً هائلاً كما هو الحال في عصر التنوير[١]. وفي الوقت الذي ذهب فيه نيتشه يبحث عن الرجل الخارق Superman اقبل بوركهارت يبحث عن العصر المزدهر Super Age حيث وجد في كتابه الشهير «حضارة عصر النهضة في ايطاليا» الذي نشره لأول مرة عام ١٨٦٠. أن الفترة ما بين نهاية العصور الوسطى حتى أواخر القرن السادس عشر شهدت تحولاً ثقافياً واجتماعياً يمكن أن يؤشر على بداية الفترة الحديثة من تاريخ الحضارة الأوروبية[٢]. ولذلك تكمن أهمية كتاب بوركهارت ومنهجه في دراسة النهضة الايطالية بما يلي:

أولاً: انه أول من نبّه إلى أن عصر النهضة الايطالية يمثل فترة تحول واضح في التاريخ الثقافي والاجتماعي الأوروبي، وبذلك فهو أول من بلور المفهوم الثقافي بعد أن كانت عناصر ذلك المفهوم مبعثرة دون اطار عام يجمعها كما هو الحال عند ڤاساري (١٥١١ ـ ١٥٧٤)، وميشيله (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤)، وآخرين[٣].

ثانياً: يعتبر منهجه الأنثربولوجي آنذاك في دراسة تلك النهضة أولى المحاولات الحديثة في دراسة التاريخ الأوروبي دراسة تحليلية دقيقة، كدراسة أنماط السلوك الاجتماعي والثقافي وأثر القيم الاجتماعية في الفنون والآداب ودوافع الاهتمام بالحضارة الكلاسيكية، ذلك النوع من الدراسات أعتبر منهجية جديدة تتلاءم مع دعوات فلاسفة التنوير آنذاك في اخراج التاريخ الأوروبي من دائرة التاريخ السياسي والعسكري والكنسي فقط إلى دائرة تاريخ الشعوب[٤].

ثالثاً: أثارت هذه الدراسة سواءً في نهجها أو نتائجها جدلاً ونقاشاً ساحقاً منذ ظهورها وحتى الوقت الحاضر بين المؤرخين المعنيين بعصر النهضة سواء من أصحاب المدرسة الأوروبية (الألمان والفرنسيين والانكليز) الذين نقدوا عناصر المنهج البوركهارتي، أو أصحاب المدرسة الأمريكية الذين ناقشوا الظروف التاريخية وخاصة الاقتصادية والاجتماعية للتاريخ الايطالي في عصر النهضة[٥].

---

(١) صبحي، د. احمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، (الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية)، ص ١٨١.
هويزنجا، يوهان، **اعلام وافكار: نظرات في التاريخ الثقافي**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٢٩٠.

(٢) Burckhardt, J. **The Civilization of the Renaissance In Italy,** 2 vols., trans. by S.G.C. Middlemore, (New York, 1958).
Bush, M.L. **Renaissance and Reformation and the Outer World,** (London, 1971), P. 149.

(٣) هويزنجا، المصدر السابق، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٤) راجع المقدمة التي كتبها الأستاذ Benjamin Nelson للجزء الاول من كتاب بوركهارت في الطبعة الثالثة عشر، ص ٣ ـ ١٩.

(٥) عن أراء المدرسة الأوروبية في النهضة الايطالية، راجع:
Ferguson, Wallace. **The Renaissance in Historical Thought: Five Centuries of Interpretation,** (Boston, 1948).
Gunder, Sheimer, W.L. **French Humanism. 1470-1600.** (London, 1969), P. 20 and ff.

أما عن أراء المدرسة الأمريكية الحديثة، فراجع: =

لقد ضمت دراسة بوركهارت للنهضة الايطالية ستة فصول، تؤلف الأربعة الأولى منها خلاصة آرائه التي ألحقها في النهاية بفصلين لدعم تلك الآراء. ان عناوين تلك الفصول هي:

(١) الدولة من صنع الفن The State as a Work of Art، ويعني بالدولة هنا دويلات المدن الإيطالية في عصر النهضة.

(٢) تطور الفرد The Development of Individual، ونمو النزعة الفردية لدى الايطاليين وذلك ما عرف فيما بعد بالمذهب الفردي وبروز النزعة الوثنية فيه.

(٣) بعث التراث القديم The Revival of Antiquity ويُراد به حركة احياء العلوم القديمة أي بعض علوم الحضارة الكلاسيكية وخاصة في الآداب والفنون في شبه الجزيرة الايطالية ومن ثم تأثيرها على أقاليم أوروبا الأخرى.

(٤) استكشاف العالم واستكشاف الانسان The Discovery of the World and of Man ويقصد بوركهارت ادراك الإنسان لقواه وقابلياته العقلية والجمالية وما ترتب على ذلك الادراك من تسخير لتلك الطاقات في فهم الطبيعة من حوله واستنباط القوانين العامة لتفسير العلاقة بين الانسان والطبيعة.

(٥) وتناول الباحث في الفصلين الأخيرين المناسبات والاحتفالات والأخلاق والدين كوسائل للتعبير عن قيم النهضة لدى الايطاليين.

إن هدف هذا البحث ليس التطرق إلى شرح تلك المواضيع التي أعطاها بوركهارت حقها في كتابه، ولكن استعراض بعض آرائه البارزة في النهضة التي أثارت الجدل والنقاش وأهم الانتقادات التي وجهت إلى تلك الآراء وبالتالي أنتجت لنا تلك الدراسات المتنوعة عن تاريخ النهضة الايطالية وتأثيرها على أوروبا التي لا زالت معلوماتنا عنها بالعربية ضئيلة جداً.

لعل أهم ما تتميز به دراسة بوركهارت هو أنه لم يهتم بالجزيئات أو دراسة موضوع معين دون آخر من مواضيع النهضة الايطالية وأنه «يجب النظر إلى تلك النهضة ككل متكامل وليس كجزء دون آخر»، ولذلك فهو لم يشارك الاعتقاد السائد الذي يرى أن أية دراسة مركزة لبعث التراث الكلاسيكي وحدها كافية لتفسير تلك النهضة، وإنما دراسة ذلك التراث ومزجه مع بعض عناصر الثقافة الايطالية الأصيلة التي تعود أصولها إلى العصور الوسطى، ربما تفسرها بصورة أفضل.

إن التراث الكلاسيكي القديم، والثقافة الشعبية العامة والمؤسسات السياسية التي أدخلها اللومبارد من المانيا، والفروسية وبعض أشكال الحضارة الشمالية وبتأثير الدين والكنيسة، كل ذلك امتزج ليُشكلَ «الروح الايطالية الحديثة».

اذن، ان ما يهم بوركهارت هو دراسة العقلية الايطالية وتحديد الدوافع العامة وراء تفكير الايطاليين خلال القرون: الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر. وبذلك فهو لم يتطرق إلى التاريخ السياسي أو الاقتصادي أو الديني في دراسته الأنتربولوجية هذه «للروح» أو «للثقافة الايطالية» إلّا بقدر ما يؤيد أو يدعم بعض آرائه. هنا تكمن اصالة بوركهارت لأنه لم يدرس تلك الثقافة الايطالية بطريقة تلقائية وقصصية وإنما حاول دراستها كما كانت تُمارس عملياً في الحياة اليومية وفي الآداب والفنون[٦].

إن أهم ما قدمه بوركهارت عن النهضة الايطالية هو موضوعه حول تطور الفرد ونمو النزعة الفردية لدى الفرد الايطالي. ويرى أن الإنسان في العصور الوسطى لم يشعر بنفسه إلا كعضو في جنس أو شعب أو حزب أو نقابة أو عائلة كبيرة، أي من خلال فئة أو نوع عام معترف به من قبل المجتمع. أما في ايطاليا فقد برزت الناحية الذاتية لدى الانسان بحيث أصبح فرداً مستقلاً يدرك ذاته من خلال نفسه ومن خلال علاقاته الاجتماعية والفكرية فقط[٧].

ويرى بوركهارت أنه قد نَسمعُ بتطور الفرد في بعض أقاليم أوروبا الشمالية في العصور الوسطى ولكن ليس بنفس الحالة التي تطور فيها في ايطاليا، وهو ما لم يتم إلا في ظل دولة - المدينة، لأن النزعة الاستبدادية التي ميزت الحكام أثرت في أولئك الفنانين والشعراء والعباقرة الذين ناصروهم حيث كانوا يدركون أن مدى استمتاعهم بالحياة يرتبط بوجود الحاكم الذي يناصرهم، ولذلك حاولوا التركيز والاشباع في كل مظاهر الحياة لأنهم أدركوا أن فترة نفوذهم وقوتهم ربما لن تطول كثيراً. وحتى بالنسبة لعامة الأفراد الآخرين فليس هناك عائق يقف بوجههم للتمتع بحياتهم الخاصة وحريتهم الفكرية الى حدودها القصوى لما توفره الحياة المدنية في ايطاليا من ظروف ملائمة. فالثروة والثقافة والتنافس فيها لم تُحرَّم على أحد، والكنيسة كانت على

= Molho, Antony, **Social and Economic Foundations of the Italian Renaissance,** (New York, 1969).
Martines, Laoro, **Power and Imagination: City-State in Renaissance Italy,** (london, 1979).
Brucker, G.A. **Renaissance Florence,** (New York, 1969).

(٦) Burekhardt, J., Op. Cit., vol.I, P. 179.

(٧) Ibid., vol.II, P. 143.

هامش الحياة المدنية وذات نفوذ ضعيف جداً فيها، والفرد كان يتمتع بحقوقه المدنية إلى حد كبير.. في تلك الظروف نما التفكير الفردي وخاصة عند توقف الصراعات الداخلية على السلطة في تلك المدن، وهكذا تشكل الفرد بصورة رئيسية في وسط تلك النزعات الاستبدادية منذ القرن الرابع عشر(٨).

إن أبرز ما يميّز الفرد هو تطوره ذاتياً وثقافياً حتى برز ما يعرف بالإنسان الشامل Omo Universale المثقف الواعي، وخاصة خلال القرن الخامس عشر عندما بلغت النهضة أوج نضجها. حقيقة ان بعض الرجال الموسوعيين قد ظهروا في العصور الوسطى في بعض أقاليم أوروبا ولكن معارفهم ظلت ضيقة الآفاق. وفي القرن الثاني عشر ظهر بعض الفنانين الشاملين ولكن مشاكل الفنون والعمارة كانت بسيطة ومتناسقة، وظل الشكل أكثر أهمية من المضمون في النحت والتصوير، أما في ايطاليا خلال عصر النهضة فقد أصبح الفنانون يخلقون أعمالاً جديدة وكاملة حتى أعطوا انطباعاً بأنهم انسانيون أكثر من كونهم فنانين.

وبالنسبة لبوركهارت يقف ليون باتيستا البرتي (١٤٠٤ ـ ١٤٧٤) قمة شامخة بين أولئك الانسانيين حيث وصفه «Au-Sided Tower» الذي تعلم الموسيقى دون معلم ولا زالت مقطوعاته الموسيقية محط اعجاب الجميع، ودرس القانون الكنسي والمدني لسنوات عديدة حتى أصيب بالمرض، ودرس الفيزياء والرياضيات، ولا زالت أعماله في فنون العمارة تعتبر من الطراز الأول، وتعلم اللاتينية والإغريقية ولكن كتب رواياته ومقطوعاته النثرية بالايطالية العامية، وهو القائل («باستطاعة الرجال عمل كل ما يحلو لهم...» وكان يرغب أن لا يخطىء في ثلاثة: الجري، وركوب الخيل، والخطابة... إلخ»(٩).

لقد صاحب ذلك التطور الذاتي للفرد، تطور في منزلته الاجتماعية حيث استهوته فكرة المجد والشهرة. في بعض أقاليم اوروبا كانت كل فئة اجتماعية تعيش منعزلة من الناحية الفكرية، وكل فئة لها مفهومها الخاص للشهرة والمجد والعزة ولكن في ايطاليا ظهرت المساواة الاجتماعية واضحة حتى قبل عصور الطغاة حيث تأثر الايطاليون بما لديهم بمجد روما الشاخص أمامهم، والتراث الروماني العريق واللغة اللاتينية التي كانت أهدافاً مشتركة لهم جميعاً.

وهكذا أصبحت الفردية تعني احلال الفرد الطموح محل المجتمع المتعاون الذي ساد العصر الوسيط، وهذا يتضمن تساوي الطبقات الاجتماعية في ايطاليا Equalization of Classes بحيث لم تعد الطبقة النبيلة في المدن الايطالية قائمة على الامتيازات الاقطاعية التقليدية الوسيطة وإنما على الجدارة والكفاءة، بل وحتى القلة منها التي تمسكت بتلك الامتيازات لم تستطع الاحتفاظ بها بوجه القوة النامية للثروة والثقافة. ونتيجة لذلك أخذت تلك الطبقة تعيش في وسط الحياة الاجتماعية في المدن على قدم المساواة مع الطبقات الأخرى حيث أخذت تقيم علاقاتها العامة عن طريق الثقافة والشهرة وليس عن طريق وسائلها التقليدية(١٠).

واكتشف بوركهارت في المذهب الفردي وثنية قائمة على تقديس كل ما هو كلاسيكي وجعل كل شيء قديم مثالي يجب اتباعه في الحياة، ولكن كان يدرك بالوقت نفسه مكانة الدين في وسط ذلك العالم الدنيوي وكيف أن الانسانيين حاولوا التوفيق بين المسيحية والوثنية الكلاسيكية. لقد أصبح عنصر الوثنية واضحاً في الفردية الايطالية وواسع الانتشار طيلة القرن الخامس عشر وربما بولغ فيه حتى أدّى إلى ظهور رد فعل قوي تمثل بآراء تقول العكس تماماً، وهي أن الحركة الانسانية حركة مسيحية في جوهرها. وبالرغم من محاولات التشويه التي تعرض لها بوركهارت في هذه المسألة، فإنه يعترف بوجود العلاقة القوية بين الفردية والوثنية، وهنا يستخدم الجدل الهيغلي حيث أن الفردية هي التي طورت النهضة، وبها تلاشت واضحة حيث كتب: «ان الفردية المفرطة هي الشائبة الأساسية للروح الايطالية، كما أنها الشرط الرئيسي لعظمتها، في الوقت نفسه أدّى تحرر الفرد الايطالي وتخلصه ذاتياً من سلطة الدولة التي كانت إما: مقيدة أو غير شرعية، إلى نمو الروح الأنانية المنتصرة عند البعض ودفع الآخرين الى الدفاع عن أنانيتهم وبالتالي الوقوع في لعبة الثأر... وهكذا أصبحت الأنانية مصدر كل الشرور وأصبح الايطالي المتطور والحساس جداً أكثر ميلاً إلى الخسة من الأفراد الآخرين في الأمم الأخرى»(١١).

ولا يتهم بوركهارت في ذلك الحكام والطبقات العليا الايطالية فقط وإنما أيضاً رجال الحركة الانسانية والباحثين الذين وجدوا أنفسهم في ذلك الوسط الأناني ونتيجة لتقلبات الأوضاع

---

(٨) Eugene, F.R. Vr. **The Foundations of Early Modern Europe, 1460-1559,** (London, 1975), P. 24-5.

(٩) Burckhargt, J., Op. Cit., vol.I, P. 149.

(١٠) Molho, A., Op. Cit., P. 145 and ff.

(١١) Nelson, Benjamen, **Introduction to the Torchbook edition in the Burckhardt's Civilization of the Renaissance on Italy:** vol. I, P. 8- 9.

Burckhardt, J., Op. cit., vol. II. P. 427.

السياسية العامة. وبذلك فالسبب الذي أدى إلى تدهور واضمحلال الفردية الانسانية في القرن السادس عشر الذي بلغ ذروته في حركة إحياء العلوم القديمة هو أن ايطاليا وجدت نفسها في وسط أزمة أخلاقية حادة سببها الفردية بحيث لا يستطيع حتى الرجال الجيدون الهروب منها. وبذلك فإن اعجاب بوركهارت بالفردية ليس، مطلقاً، على العكس من اعتقاد نيتشه وستندال بها[١٢].

والفردية هي التي أدت إلى تطور الدولة أيضاً. «الدولة من صنع الفن» وهو العنصر الآخر في النهضة الايطالية عند بوركهارت، وبذلك فهو لا يعني به دراسة المؤسسات السياسية في ايطاليا بمنظور تاريخي متعاقب وإنما تتبع أهداف الفرد الايطالي وطموحه آنذاك للحصول على وظيفة عامة في السلطة من أجل تحقيق بعض الأهداف الذاتية حتى وإن تعارضت تلك الأهداف مع القوانين الأخلاقية، لأن كل حكومات المدن الايطالية إما مستبدة أو غير شرعية، هنا يحاول بوركهارت الربط بين نمو النزعة الفردية في مجال السلطة والدولة. إن ظهور تلك الحكومات غير الشرعية في المدن الايطالية لم يكن ممكناً لولا الفراغ السياسي الذي شهدته أوروبا منذ نهاية القرن الثالث عشر فلم يكن هناك كيان سياسي بارز وقوي يستطيع التأثير على بقية أقاليم أوروبا الأخرى. إن الامبراطورية الرومانية تمزقت إلى أجزاء صغيرة متناحرة، والكنيسة أضعفها الانشقاق الأعظم (١٣٣٧ ـ ١٤١٣) والمدن الايطالية تعيش الانقلابات السياسية العديدة، وأسبانيا منشغلة بحركة الاسترداد، وفرنسا منهمكة في صراعها مع انكلترا في حرب المائة عام. ولذلك كانت ايطاليا متحررة لقرنين من الزمن من أية سلطة مركزية ومن سيطرة أي حكم أجنبي وبالتالي توفير الظروف الملائمة للصراعات الداخلية والسياسية فيها حيث كانت الثقافة الهدف الأمثل لكل الفئات الاجتماعية، ربما بعد الثروة، للوصول إلى السلطة والدخول إلى الصفوة. وهنا يقدم لنا بوركهارت تفسيراً ولو جزئياً عن الوضع السياسي الايطالي آنذاك.

ان ما يهم بوركهارت من ذلك الوضع السياسي هو بعض الصفات النفسية والشخصية لحكام وأمراء المدن الايطالية. فمبدأ الدولة من صنع الفن يعني السعي الحثيث لأولئك الحكام والأمراء للاحتفاظ بالسلطة مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك. ولذلك فإن تبني مبدأ الغاية تبرر الوسيلة في الحكم لم يعرفه أو يتبعه أي أمير أوروبي خارج ايطاليا وهكذا فإن عدم شرعية حكم الأمير عزلته وجعلته في خطر دائم، ومن أجل أن يشعر ذلك الأمير بوضع شرعي في السلطة، تحالف مع الأقلية المثقفة دون النظر إلى أصولها الاجتماعية، فأصبح الأمير القوي المتعطش إلى الشهرة إما برفقةِ فنان أو شاعر أو مثقف بالثقافة الانسانية وعلى عكس أمراء أوروبا الشمالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث كان التقرب إلى الفرسان والنبلاء وليس إلى المثقفين الانسانيين وهكذا ان الدور الذي يقوم به رجال الدين في العصور الوسطى بتقديم المشورة والمعونة للطبقة الحاكمة، أصبح الانسانيون يقومون به في عصر النهضة، بعبارة أخرى، ان الفن والأدب الذي طالما خدم الكنيسة في تلك العصور أصبح الآن في خدمة الأمير وحكام المدن[١٣].

وبالنسبة لحركة احياء العلوم القديمة، وهو العنصر الأكثر جدلاً بين مؤرخي النهضة الايطالية يصر بوركهارت على أن الولوج إلى أعماق الحضارة الكلاسيكية لم يتم باحياء تلك العلوم وحدها وإنما باتحادها مع عبقرية الفرد الايطالي، وتوفر الحياة المدينية الناضجة، وبذلك لم تكن العلوم القديمة عنده العنصر الجوهري الأساسي في النهضة الايطالية لأن حركة الاحياء ربما لم تنجح لولا توفر تلك الظروف في ايطاليا. وهذا ما يفسر اهتمام الايطاليين الضئيل بالتراث الكلاسيكي في فترة ما قبل القرن الرابع عشر لأن الثقافة هناك قد تحررت من قيود العصور الوسطى قبل حركة الاحياء تلك. فالقديم ليس مهماً بسبب قدمه، وإنما استخدم في النهضة كوسيلة للبرهنة والاقناع بما هو معروف وسائد من القيم والتقاليد في المدن الايطالية. فروما مثلاً ليست مهمة بسبب مجدها الغابر وإنما أصبحت مهمة كما يذكر كلاشيو سالوتاتي لأنها «تشبه في وضعها وتركيبها السياسي وضع المدن الايطالية...» «وان مقاومتها للغزوات البربرية كمقاومة فلورنسا لآل فيزكونتي في القرن الخامس عشر...»[١٤]. لقد أصبحت تلك العلوم المرشد والموجه لفهم الطبيعة والثقافة

---

(١٢) ستندال مؤرخ الفن الفرنسي الشهير الذي نشر كتابه المعروف بـ: **Histoire de la Peinture en Italie,** (Paris, 1817).

(١٣) أفرد بوركارت فصلاً كاملاً (ص ٢١ ـ ١٤٢) من الجزء الأول من كتابه درس فيه دويلة المدينة الايطالية من خلال عشرة محاور هي: المحور الأول: مقدمة عامة، ص ٢١ـ ٢٥، المحور الثاني: عصر الطغاة في القرن ١٤، ص ٢٦ـ ٣٠، المحور الثالث: عصر الطغاة في القرن١٥، ص٣٤ ـ ٤٤، المحور الرابع: الطغاة الصغار: ص ٤٥ ـ ٥٠، المحور الخامس: العوائل التجارية والحاكمة الكبيرة، ص ٥١ ـ ٧٤، المحور السادس: معارضة الطغاة: ص ٧٥ ـ ٨١. المحور السابع: الجمهوريات الايطالية: البندقية وفلورنسا، ص ٦٢ ـ ١٠٨، المحور الثامن: السياسة الخارجية لدويلات المدن الايطالية: ص ١٠٧ ـ ١١٤، المحور التاسع: الحرب من صنع الفن، ص ١١٥ ـ ١١٩، المحور العاشر: البابوية ومخاطرها على ايطاليا، ص ١٢١ ـ ١٤٢.

(١٤) Green, V.H.H. **Renaissance and Reformation,** (London, 1982), P. 28.
Maland, D., **Europe in the Vixteench Century,** (London, 1973), P. 40.

حتى تم تكييفها فيما بعد لتصبح الجزء الأساسي من ثقافة عصر النهضة. ولذلك حاول بوركهارت إبراز تأثير تلك العلوم على العقلية الايطالية وخاصة من خلال الآثار الرومانية الباقية، والاهتمام بالمخطوطات القديمة. مما لا شك فيه أن المدن الايطالية كانت وريثة التراث الروماني العريق، ليس من خلال الآثار وفنون الهندسة المعمارية الخالدة فيها والتي تذكر الايطاليين دوماً بعظمة ذلك التراث، وإنما في التقاليد والعادات اليومية السائدة التي ظلت إلى حد كبير متأثرة بالقانون الروماني وكان الحكام والقضاة الايطاليون كذلك أكثر إلماماً وتأثراً بقوانين جستينيان (The Code and the Digest) من أية قوانين أخرى، ويرون كذلك أن أحد واجباتهم آنذاك هو بعث الحضارة الكلاسيكية واحتقار كل شيء يعود للعصور الوسطى[١٥]. إن انزال بوركهارت العلوم القديمة إلى مرتبة ثانوية في النهضة الايطالية أثار كثيراً من الدارسين والمهتمين بتاريخ النهضة الأوروبية بصورة عامة حتى تبلورت في هذا الشأن ثلاثة آراء هي:

الأول: حاول التقليل من أهمية العلاقة بين النهضة الايطالية وحركة احياء العلوم القديمة لأن علماء وفلاسفة العصور الوسطى (كما يرى بوركهارت نفسه ذلك) درسوا واهتموا بالتراث الكلاسيكي، ولربما تقدموا حتى على رجال الحركة الانسانية في ذلك. فيرى Kristeller[١٦] مثلاً «أن ما عمله رجال الحركة الانسانية في عصر النهضة هو أنهم دفعوا بمعرفتهم في العلوم الكلاسيكية إلى حدودها القصوى، فأصبحت تلك العلوم متوفرة للغرب آنذاك بصورة أكثر مما كانت عليه في العصر الوسيط والامبراطورية الرومانية. أما Haskins[١٧] فكتب أربعة فصول (الرابع ـ السابع) من كتابه الشهير «نهضة القرن الثاني عشر» في أوروبا عن حركة احياء العلوم القديمة في الشمال الأوروبي وايطاليا. ولكن النقد الذي يوجه أيضاً إلى هذا الرأي هو أن بوركهارت لم يهتم بالتسلسل التاريخي لحركة احياء العلوم القديمة أو طرق تعلم الإيطاليين لها، وإنما بكيفية ظهور وممارسة قيم الحضارة الكلاسيكية في الآداب والفنون في ايطاليا خلال عصر النهضة.

الثاني: يمثل المتحمسين للنهضة الايطالية وآدابها وفنونها ويتبنى مواقف وآراء رجال الحركة الانسانية في ايطاليا ويبرز الجوانب الفلسفية لها كمنافس قوي للفلسفة (المدرسانية)[١٨] التي سادت في العصور الوسطى ومن أبرز أنصار هذا الرأي Lauro Martines في كتابه الشهير «السلطة والتصور: دويلات المدن الايطالية في عصر النهضة»، وItalo Siciliano الذي يرى ان الصفوة والنخبة لأمة واحدة (ايطاليا) في عصر النهضة هي التي سيطرت وقادت العالم كله...»[١٩].

الثالث: انتقد مغالاة أصحاب الرأي الثاني ولكنه لا يرى النهضة الايطالية كامتداد طبيعي لتراث العصور الوسطى وحضارتها بالرغم من وجود بعض الأدلة التاريخية. حقيقة أن بعض رجالات الحركة الإنسانية مارسوا في عصر النهضة بعض المهن والحرف التي كانت معروفة في العصور الوسطى كالنقش ونسخ المخطوطات والخطابة، ولكنهم طوّروا بعض مضامين ومجالات تلك الحرف. ويرى بعض أنصار هذا الرأي «أن الحركة الإنسانية ما هي إلا بعث فن النثر اللاتيني القديم الذي كان معروفاً في الثقافة الوسيطية، وأن تضاؤل الاهتمام به آنذاك كان بسبب الاهتمام بالعلوم العربية والإغريقية، ولذلك يبدو أن أصحاب هذا الرأي يميلون أكثر إلى ما اعتقد به بوركهارت من «أن رجال الحركة الإنسانية ليسوا جامعي المخطوطات القديمة ولا أولئك الذين اهتموا بالآثار الرومانية والإغريقية ولا مترجمي النصوص اللاتينية واليونانية وإنما هم أولئك الخطباء والشعراء والرسامون والسفراء وكتاب التاريخ والأخلاق الذين خدموا الأرستقراطية والحكومات الجمهورية والبابوات في ايطاليا[٢٠]. ولذلك فإن ما يشغل بوركهارت هنا هو مجموعة جديدة من المواقف والعلاقات النفسية والاجتماعية المنبثقة عن العلاقة بين رجال الحركة الإنسانية وأسيادهم. فهو يتحدث دوماً عن التحالف الطبيعي بين الرجل الإنساني والحاكم حيث يعتمد كلّ منهم على مواهبه. وفي جو الحرية الذي كانت تعيشه فلورنسا

(١٥) Lockyer, R. **Habsbung and Bourbone Europe, 1470-1720,** (London, 1979) P. 79.

(١٦) Kristeller, P.O. **The Classics and the Renaissance Thought,** (Cambridge, Mass, 1955), P. 17-23.

(١٧) Haslcins, Ch.H. **The Renaissance of the Twelfth Century,** (Harvard University Press, 1976).

تناولت تلك الفصول: الرابع: إنتعاش العلوم الكلاسيكية اللاتينية، ص ٩٣ ـ ١٢٦. الخامس: اللغة اللاتينية، ص ١٢٧ ـ ١٥٢، السادس: الأدب اللاتيني، ص ١٥٣ ـ ١٩٣. السابع: إنتعاش الدراسات القانونية، ص ١٩٣ ـ ٢٢٤.

(١٨) راجع الفصل الحادي عشر المعنون: Hummanism: A Program for Ruling Classes، ص ٢٦٢ ـ ٢٩٥ من كتابه المذكور في هامش (٥).

(١٩) Sellery, G.C. **The Renaissance: Its Nature and Origin,** (Madison, 1962), P. 9-11.

(٢٠) Kristeller. Op. Cit., P. 11-14.

وكذلك لنفس المؤلف:

«Humanism and Schslasticism in the Italian Renaissance» Studies in Renaissance Thought and Letters, (Rome, 1956), P. 553-83.

قبل عصر آل مديتشي تبوأ رجال الحركة الإنسانية مراكز السلطة فيها وأخذوا يكرسون جهودهم لنشر وإحياء العلوم القديمة[٢١].

وهكذا يرى بوركهارت أن النهضة الايطالية لم تكتشف الآداب الكلاسيكية ورجالها فقط وإنما نبّهت الى وجود الانسان في وسط عالم طبيعي مادي تنظمه علاقات معقدة ومتنوعة. حقيقة أن سمو الانسان فوق المخلوقات الأخرى ورد في التراث اليوناني وسفر التكوين ولكن ما عملته العصور الوسطى هو تربية الفرد تربية مسيحية قائمة على التزهد والعبادة، وكانت علاقاته المادية والروحية تفسر تفسيراً دينياً بحتاً في حين أصبح مفهوم الإنسان في القرن الخامس عشر أوسع وأكبر من كونه «عنصراً في جماعة» وإنما هو محور الآداب والفنون وعنصر مغيّر للطبيعة لا مستسلماً لها ولا يفسر ظواهرها تفسيراً لاهوتياً. ولعل هذا يفسر لنا، ولو جزئياً، لماذا كانت الطبيعة والإنسان وقواه البدنية مادة الرسامين والنحاتين والفلاسفة الكبار. ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان علاقة الإنسان بخالقه قد خف بريقها في عصر النهضة وإنما العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، من جهة، وبين الإنسان والطبيعة، من جهة أخرى، أصبحت قوية وبارزة كما هو الحال في العلاقة الأولى أيضاً. بحيث برز الإنسان كمخلوق له وقاره، وكرامته بذاته وليس عنصراً ثانوياً وهامشياً يعيش الحياة الديرية وجمعيات الرهبان ومجتمع الاقطاع والفروسية[٢٢].

أما في فصل استكشاف العالم واستكشاف الانسان فقد أوضح بوركهارت ما ينبغي أن يكون عليه التاريخ الثقافي فعلاً. «فبعد تحرير الفرد الايطالي من قيود الكنيسة وتشبعه بالروح الفردية وتثقيفه بالحضارة الكلاسيكية وقيمها، فإن العقل الايطالي توجّه لاكتشاف الكون والطبيعة، فحاول التعبير عن ذلك بالرحلات إلى خارج ايطاليا، والبحث عن استكشاف المناظر الطبيعية البرية، ومناقشة ما درجت عليه العلوم الطبيعية من اعتماد على التجريب والاختبار والاهتمام بالتراجم والسير الذاتية لأنها تعكس حياة الإنسان في الماضي، وانبثاق التصوير السايكولوجي عند دانتي أولاً ثم بترارك وبوكاشيو، وإبراز المثل العليا للجمال وطبيعة الحياة وحركتها في المدن الايطالية[٢٣]. تبرز أهمية منهج بوركهارت في دراسة التاريخ الايطالي دراسة اجتماعية وسايكولوجية على خلاف ما درج عليه المؤرخون من معاصريه فهو لم يتطرق إلى التاريخ السياسي أو الاقتصادي وإنما درس الايطاليين وهم في حركة يومية دائمة. فبالإضافة لما تقدم فهو يبدو رائداً في البحث في أدب اللياقة (الأتكيت) الاجتماعي والبدع الجديدة (الموضة) وهو آية الفنون، فضلاً عن أهمية ومعنى الاحتفالات العديدة لديهم.

وبالمنهج نفسه درس بوركهارت الأخلاق والدين وكيفية ممارستهما من قبل الإيطاليين يومياً وانعكاسها في الأدب والفنون. وبذلك وضع اللمسات النهائية على صورة إنسان عصر النهضة: فردية جامحة تنزع إلى الخروج التام عن الأخلاق، واتجاه ذاتي نحو الدين يتسم أحياناً بالتسامح والتشكك والسخرية، بل ربما بلغ أحياناً الرفض المطلق للدين، ووثنية فردية تمثل خليطاً من قديم الخرافات ومدحاً للافلاطونية الجديدة لأهالي فلورنسا ممثلةً في لورنزو دي مدشي وجماعته. «نحن الايطاليين لسنادينين ونحن فاسدون أكثر من الآخرين لا بسبب أن حكامنا غير شرعيين وأن موظفينا يتميزون بالخسة ولكن أيضاً بسبب كون الكنيسة وممثلوها أسوأ مثل في ذلك..» كما ذكر ميكيافللي.

مما لا شك فيه أن آراء بوركهارت قد بولغ فيها عند ظهورها لأول مرة، فأصبح مفهوم «رجل النهضة مرتبطاً بالتهور في قبول الحياة والسيطرة عليها، حتى تصور الناس أن حضارة النهضة كطراز ونموذج إنما تشاهد في الشخصية المتحررة، وقد ارتفعت فوق المبادىء والأخلاق شخصية رجل الملذات المرح الذي انغمس في الحب الوثني للجمال وإلى التمسك بالقدرة على العيش وفق معاييره الخاصة.

وكان إميل جبهارت في مقدمة الذين تأثروا بآراء بوركهارت حيث اتفق تصوره عن عصر النهضة مع ما ذكره بوركهارت عنها حيث ذكر في كتابه «أصول عصر النهضة في ايطاليا» الذي أصدره عام ١٨٧٩ ما يلي:

«لم تكن النهضة في ايطاليا فحسب تجديداً للأدب والفنون ناتجاً عن عودة العقول المثقفة إلى الأدب الكلاسيكي احياءً وانتهالاً، وعن تهيئة السبل لتدريب أفضل للفنانين الذين عادوا إلى استكشاف ما بالمدرسة اليونانية من احساس بالجمال، وإنما هي جماع الحصيلة المركّبة للحضارة الايطالية، وهي التعبير الصحيح لعبقرية ايطاليا وحياتها الخلقية.

لكن جبهارت إختلف مع بوركهارت في تحديده للفترة الزمنية لعصر النهضة الايطالية التي «تبدأ قبل عهد بترارك (١٣٢٠ ـ ١٣٤٣)، إذ تجلت في أعمال جيوتو وفي عمارة القرنين الثاني عشر والثالث عشر.... إذن، أصولها قاصية عريقة في

---

(٢١) Burckhardt, V. Op. Cit., vol. I, P. 229, 272. هويزنجا، المصدر السابق، ص ٣٠١ وما بعدها.
(٢٢) المصدر نفسه.
(٢٣) المصدر نفسه.

القدم، وتسبق بأشواط بعيدة الثقافة الأكاديمية التي نشرها القرن الخامس عشر».

وهنا نلاحظ أن بوركهارت تمكن من استعارة نظرية ميشيله عن التحول الثقافي الكبير لعصر النهضة ووجّهها نحو أشياء مخالفة تمام المخالفة، وذلك بتطبيق القاعدة الموضوعة لعصر النهضة وهي «استكشاف العالم والإنسان» على ظواهر لم يهتم بها ميشيله إلا إهتماماً ثانوياً، فهو في الحق قد فهم القاعدة بطريقة تختلف اختلافاً جوهرياً عن ميشيله مؤسسها(٢٤).

والواقع أن Georg Vigot نشر كتابه عن النهضة الايطالية قبل بوركهارت بعام واحد (١٨٥٩) ومن المؤكد أنه لم يطلع عليه، ولكنه أوضح أيضاً أهمية حركة إحياء العلوم القديمة في تاريخ الحضارة الغربية، ولذلك يرى Sellery أن نسمي أراء بوركهارت بنظرية بوركهارت ـ فيجوت(٢٥).

أما هنري تود الذي كتب بحثاً عن القديس فرانسيس فقد حاول فيه الربط بين المسيحية والعلوم القديمة حيث يرى «أن القديس فرانسيس بوعظه وارشاده لتعاليم السيد المسيح أسهم في بعث وانجاز حضارة النهضة في ايطاليا في حين أسهمت حركة احياء العلوم القديمة في توفير الوسائل لذلك(٢٦). وهنا يلتقي هنري تود مع مؤرخ الفن الألماني كارل نيومان الذي قارن عام ١٩٠٣ في بحثه الشهير بين «الحضارة البيزنطية الجامدة» وبين «حضارة أوروبا الغربية في العصر الوسيط» المتقدمة عليها نسبياً حيث يرى «أن ليست العلوم القديمة هي التي احتلت مركز الصدارة والسمو في الحضارة الأوروبية تلك وإنما المسيحية الوسيطية وبعض عناصر الحضارة الجرمانية التيوتونية أسهمت في النهوض الحقيقي للمذهب الفردي»(٢٧).

ولذلك يرى هويزنجا أن الفضل يرجع إلى نيومان في القضاء النهائي على اعتبار العصر القديم وحضارته الأصل والمصدر للنهضة، لأنه اتخذ الدراسات البيزنطية نقطة البداية في عمله حيث لاحظ أوجه تشابه بين «شكلية» الفنون لدى الانسانيين الايطاليين والجدب المدرساني عند بيزنطية المحتضرة، واستنتج «بأن محاكاة القدماء ليست هي العنصر الخصب في النهضة وإنما العكس هي عنصر معرقل بل وقاتل. وأن ما أبداه اتباع المذهب الانساني من الحذلقة والعنجهية الأدبية لم نجدها إلّا نزعة بيزنطية وابتعاداً عن الروح الأصيلة الخصبة للثقافة الغربية الجديدة التي أخذت تزدهر منبثقة مباشرةً عن العصور الوسطى(٢٨).

لكن النقد اللاذع الذي لاقته آراء بوركهارت جاء من قبل جوهان نورد ستورم الذي قارن في كتابه «العصور الوسطى وعصر النهضة» عام ١٩٣٣ بين انجازات الحضارة الأوروبية حتى عام ١٤٠٠ وحضارة النهضة حيث توصل إلى «أن أوروبا الغربية وبقيادة فرنسا حققت كل الانجازات المنسوبة للنهضة الايطالية وبضمنها حركة احياء العلوم القديمة الذي يعتبره البعض الدَيْن الايطالي الوحيد لشمال أوروبا وخاصة لفرنسا. وبذلك يؤيد نورد ستورم مدرسة الاتصال الحضاري بين النهضة الأوروبية والعصور الوسطى ودعا إلى التمييز بين «النهضة الايطالية» و«النهضة الأوروبية»(٢٩).

يبدو مما تقدم أن أغلب النقد الموجه لآراء بوركهارت جاء من مؤرخي شمال غرب أوروبا، ربما بسبب الدوافع القومية وعُقَدِ الصراعات بين الشمال والجنوب الأوروبيِّين، كمحاولة للتقليل من أهمية تأثير النهضة الايطالية في النهضة الأوروبية في الشمال، ذلك النقد هو الذي دفع المؤرخ الايطالي Italo Siciliano للدفاع عن النهضة الايطالية في بحثه الموسوم «العصور الوسطى والنهضة» حيث رفض بسخرية كل ادعاءات نورد ستورم وأنهى بحثه بقائمة رائعة بأسماء الشخصيات الايطالية التي ساهمت في حركة النهضة «فعندما نرى تلك القائمة من الشخصيات، لا

---

(٢٤) يعتبر جول ميشيله Jules Michelet (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) من ابرز مؤرخي فرنسا في القرن التاسع عشر الذين تأثروا بعصر الاستنارة والمذهب العقلاني. كتب ميشيله مؤلفات تأريخية عديدة لعل أبرزها تاريخه المعروف بتاريخ فرنسا العام الذي شملت أجزاؤه الستة الأولى التي كتبها في الفترة (١٨٣٣ ـ ١٨٤٣) تاريخ فرنسا منذ العصور الوسطى المبكرة وحتى عصر النهضة، في حين شملت الأجزاء الأحد عشر التي كتبها في الفترة (١٨٥٥ ـ ١٨٦٧) تاريخ فرنسا منذ عصر النهضة وحتى عصر الثورة الفرنسية. وفي الفترة نفسها نشر جول كتابه الشهير عن الثورة الفرنسية بسبعة أجزاء كاملة.

(٢٥) Vigot, Georg. **The Civilization of the Renaissance,** (Berlin, 1878).
مقتبس من كتاب Sellery المذكور في هامش (١٩).

(٢٦) ظهرت دراسة هنري تود عام ١٨٨٥ بعنوان: Franz Von Assisi und Die Anfange de Kunst der Renaissance in Italein.
«فرنسيس الأسيسي وبدايات الفن في عصر النهضة بايطاليا» راجع: هويزنجا، المصدر السابق، ص ٣٠٦؛ كذلك: Sellery. Op. cit., P. 7.

(٢٧) العنوان الأصلي لمقالة نيومان بالألمانية هو:
«Byzantinische Kulture und Renaissance Kulture» in Historische Zeit Schrift, al (1903), PP. 215-232.
وفيها حاول هدم نظرية بوركهارت وذلك بمقارنته «لحضارة بيزنطة الجامدة» مع «حضارة أوروبا الغربية المتقدمة». راجع: Sellery, Op. Cit., P. 8.

(٢٨) هويزنجا، المصدر السابق، ص ٣٠٩.

(٢٩) Nordstroem, J. **Moyen âge et Renaissance,** trans. by, F. Hammer, (Paris, 1933), P. 15.

نحتاج اذن إلى منجِّم أو عرَّاف ليقول لنا لماذا بدأت النهضة في ايطاليا أولاً، ومن ثم لتغزو العالم فيما بعد... وكم هي مهمة للحضارة الأوروبية الحديثة مثل أهمية النهضة الإغريقية - اللاتينية للحضارات القديمة، بل وفاق بوركهارت نفسه عندما ذكر «أن في العصور الوسطى كانت هناك روح واحدة وحضارة واحدة تغذي شعوباً عديدة... أما في عصر النهضة فإن الصفوة لأمة واحدة (ايطالي) سيطرة وقادت العالم كله»[٣٠].

إن ظهور النهضة الايطالية كما يراه سيسيليانو بدأ بظهور «القابليات الثقافية الكلاسيكية لدى الإيطاليين التي أبدلت الرؤية الفنية والثقافية للعصور الوسطى»، إنها نتيجة لطبيعة الشعب الايطالي الذي كان يعيش نوعاً من التراث الكلاسيكي في داخله ولذلك فإن روح النهضة الايطالية تمثلت في السعي الحثيث في البحث عن كل ما هو جديد وأفضل، والنزعة إلى النقد والنقاش والشك، والرغبة للاستكشاف، والقدرة على التوليف وبالتالي هذّبت الفرد وغذّته بالقيم الروحية وأغنت شخصيته وكوّنت منه إنساناً يختلف عن أسلافه وهذا ما كانت تفتقر إليه العصور الوسطى وهو ما أعطته ايطاليا للعالم»[٣١].

لقد دافع سيسليانو عن آراء بوركهارت بسلاح جديد. فيذكر أن مصطلحاته مثل: إحياء العلوم القديمة، المذهب الفردي، تساوي الطبقات، واستكشاف الإنسان والطبيعة، تعوزها الدقة والإيضاح المستمر، ويرى مثلاً، حقيقة أن القرن الثاني عشر شهد حركة لإحياء العلوم القديمة ولكن كيف فهم وفسَّر ذلك القرن تلك الحركة؟ «وهناك حقيقة أخرى هي أن العصور الوسطى لا تفتقر إلى الروح الفردية سواء بين النبلاء أو القديسين، بين الملوك أو البابوات ولكن ما هو الفرق بين «فردية العصر الوسيط» وفردية النهضة الايطالية»؟!!!

ومهما تكن طبيعة ذلك الجدال الحاد بين مؤرخي شمال غرب أوروبا وبين مؤرخي جنوبها حول أصول النهضة الايطالية وتأثيرها على أوروبا فيما بعد فإن آراء بوركهارت ومؤيديه لا تخلو من النقد وبعض الثغرات التي يمكن حصرها بما يلي:

أولاً: لقد خفي على بوركهارت أن وراء أمجاد «عصر النهضة استمرت الحياة الشعبية الأصيلة للعصور الوسطى بايطاليا متشحة بنفس الأشكال التي تزينت بها في فرنسا والأقاليم الجرمانية، كما خفي عليه أيضاً أن الحياة الجديدة التي راح يصفق لاستهلالها بايطاليا أخذت تنبعث أيضاً في اقطار أخرى لم يستشف منها بوركهارت سوى القمع والبربرية، ولم يكن على تنبّه كافٍ إلى التنوع العظيم والحياة الباذخة التي أنتجتها العصور الوسطى خارج ايطاليا. لقد برزت ملامح النهضة واضحة في أدب شوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) لأنه استخدم العامية، وأكّد على الفردية وذكر بعض الملاحظات الدقيقة عن الطبيعة[٣٢]. أما أعمال الفنانين الفلمنكيين مثل Jan Van Eyck فكانت أكثر حداثةً ومعاصرةً من أعمال الفنانين الايطاليين المعاصرين له، وحتى طريقة الرسم بالزيت ربما نشأت في الفلاندرز وانتشرت من هناك إلى ايطاليا، ناهيك عن التراث والاسراف، والحزم والقوة وصراع القوى السياسية، فإن بلاط دوق برنغدي يقف بلا منازع مع بلاطات المدن الايطالية آنذاك، وأن الحركة الإنسانية الفرنسية موجودة قبل اكتشاف ايطاليا للحضارة الكلاسيكية[٣٣].

ثانياً: إن التحديد التأريخي الذي وضعه بوركهارت لعصر النهضة كان مفرطاً في الضيق. لقد اتخذ من بداية القرن الرابع عشر بداية للازدهار التام لعصر الفردية التي رأى فيها العنصر الجوهري لتلك الفترة، بيد أن النصيب الأوفى من المادة التي أوضح فيها وجهة نظره يعالج في الأعم الأغلب القرن الخامس عشر والجزء الأول من القرن السادس عشر، وأما ما وقع قبل العام ١٤٠٠ فهو شيء عدّه بوركهارت مجرد اشارة فقط، والمركز الذي حدّده لدانتي وبترارك هو نفس المركز الذي رآهما فيه ميشيله، بل وحتى فولتير.

ثالثاً: إن من أهم الانتقادات التي وجهت إلى بوركهارت ومنهجه في النهضة الايطالية، هو قلة مساهمة رجال الحركة الإنسانية الايطالية في العلوم الحديثة. لقد برهنت دراسات Georg Sarton,Thorndike أن ما حصل من تقدم علمي في الفترة قبل القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان ضمن جامعات العصور الوسطى والدراسات المدرسانية، بل وحتى الفلسفة المدرسانية تطورت في ايطاليا بصورة متأخرة عنها في فرنسا أو في انكلترا، وأن الأعمال الضخمة المهمة في الطب والطبيعة والمنطق وما وراء الطبيعة ربما لا يمكن ارجاعها إلى الحركة الإنسانية أو إلى الروح الفردية للنهضة[٣٤]. ولذلك فهو لم يدرك العمل القليل

---

(٣٠) Sellery, G.C., Op. Cit., P. 9-11.

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) هويزنجا، المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٣٣) Baron, Hanz., «Fifteenth - Century Civilization and the Renaissance» in New Cambridge History, vol. I, The Renaissance 1493-1520, (Cambridge, 1975), P. 60.

(٣٤) Thorndike, Lynn. **Science and Thought in the 15th Century,** (New York, 1929), The Introduction.
Sarton, G. **«Science in the Renaissance in the Civilization of the Renaissance,»** (Chicago, 1929).

الذي قدمه رجال الحركة الإنسانية لتاريخ العلوم ولكنه أدرك أن تلك الحركة استنزفت قوة ايطاليا وبذلك عرفت الجهود العلمية لدراسة الطبيعة. ان ما يهم بوركهارت في الواقع هو موقف الإنسان من الطبيعة وليس الانجازات العلمية الدقيقة فيها(٣٥).

رابعاً: لكن النقد الكبير لآراء بوركهارت جاء من مؤرخي التاريخ الاقتصادي لإيطاليا خلال عصر نهضتها. فالنهضة التي رأى فيها بوركهارت فترة ازدهار ثقافي وفكري كانت فترة ركود أو حتى تدهوراً اقتصادياً أيضاً. إن المؤرخين الانكليز والفرنسيين والألمان ليسوا مهتمين بهذه النقطة طالما أن النهضة قد بدأت في بلدناهم في نهاية القرن الخامس عشر وخاصة بعد قبولهم اطروحة هويزنجا من أن القرنين الرابع عشر والخامس عشر هما عصرا «اضمحلال العصور الوسطى» ولكن في ايطاليا وحتى فترة متأخرة اعتقد البعض أن أحد عوامل التحول الحضاري من العصور الوسطى الى العصور الحديثة هو زيادة الثروة والنمو الاقتصادي وتوسع النشاط التجاري والصناعي. حيث عبر عن ذلك E.P. Chyney في فرضيته من أن «النمو المتزايد للثروة في تلك الفترة كان أحد عناصر مفهوم النهضة». هنا لا أريد البحث في نتائج تلك الدراسات الاقتصادية في التاريخ الأوروبي آنذاك فهي معروفة، وأن أبرزها هو ظهور مؤسسات اقتصادية أكثر كفاءة ودقة أدت إلى تقدم نوعي في المؤسسات الرأسمالية وبصورة أفضل من ذلك التوسع الكمي للاقتصاد الأوروبي للفترة ما قبل وما بعد عصر النهضة . فكانت النتيجة أن الغني أصبح أكثر غنىً والفقير أصبح أكثر فقراً، وذلك ما أدى إلى تركيز الثروات في بيوت مالية معروفة، وأصبحت مسؤولة عن مناصرة الآداب والفنون. ويرى فيرجسون أن ايطاليا لن تخرج عن هذه القاعدة بالرغم من علامات التدهور فيها، لكن كانت هناك ضرورة كافية في أيدي الحكام التجار الذين ناصروا الفنون. وإذا ما حدث تدهور في نمو تلك الثروات فإن ذلك كان في فترة قد نمت وترسخت فيها الأساليب الثقافية Tradition of Culture التي ميزت بلا شك عالم آل مديشي من عالم آل Bardi وآل Peruzzi.

لكن العوامل الاقتصادية التي ساعدت في تكيّف ثقافة وحضارة النهضة لم تقتصر فقط على توفر الثروة أو توفر الدافع الاقتصادي لمناصرة عباقرة النهضة وحده. ان ايطاليا في العصور الوسطى تختلف تماماً عن بقية أجزاء أوروبا في كونها طوّرت مجتمعاً حضرياً ثرياً منذ فترة مبكرة تميز باشتراك المدنيين في النشاط الثقافي والحضاري وبذلك كسرت احتكار رجال الدين له، وتخلّصت من قيم وتقاليد الفروسية في الآداب والتعليم والموسيقى والفنون، وهكذا فنمو «الرأسمالية كان عاملاً مهماً في تشجيع وتحفيز تلك الثقافة العلمانية Lay Culture عن طريق حاجة الطبقة التجارية الى ثقافة تجارية، وكذلك عن طريق الاستثمار الطويل الأمد للطبقة العليا في الثقافة عن طريق البحث عن أحسن أنواع التربية والتعليم لعناصرها لكي تؤهل نفسها لشغل المهن والوظائف العلمانية وبالتالي لتؤلف ذلك الوسط الاجتماعي المناصر للأدباء والكتّاب. اذن، إن تأثير الرأسمالية على ثقافة عصر النهضة يجب أن يستند على تقييم عام لأنواع التنظيمات التجارية والاقتصادية أكثر منه على كمية الانتاج وحجم الثروات. ولذلك يجب الرجوع إلى تلك الأسئلة التي وضعها Sombart، وWaber، وPirenne وأخرون حول تفسير ودراسة العلاقة بين التجارة والمعتقدات الدينية والعلاقة بين «روح الفردية الاقتصادية وثقافة عصر النهضة ». فإذا ما فهمنا الحضارة التي لعب فيها رجال المال والأعمال دوراً بارزاً تبدو أكثر أهمية معرفة معتقداتهم وشعورهم تجاه عصرهم وما هو تقييمهم له، وما هي أهدافهم واهتماماتهم، وما هو الجو النفسي لهم؟ هل كانوا متفائلين؟ أم متشائمين. ان تاجر مدينة Prato الشهير دانتيني Dantini ربما كان يعيش في عصر الأزمة الاقتصادية ولكنه كان يفتتح كل سجل من سجلاته بالقول «باسم الله والربح In the Name of God and of Profit أن تلك ربما قبل كل شيء، هي روح عصر النهضة .

خامساً: أما من الجانب الاجتماعي، فإن مفهوم بوركهارت حول «تساوي الطبقات Equalization of Classes تعرض أيضاً للنقد من جانب العديد من الباحثين المحدثين. يرى Lauro Martines أن تلك المفاهيم هي «مضلّلة ولربما خاطئة وأن العائلة في فلورنسا خلال القرن الخامس عشر هي التي تقف بين الفرد والمجتمع وهي التي تقرر علاقاته السياسية والاجتماعية. ان أفراد العائلة وخاصة من الطبقة التجارية العليا مسؤولون أخلاقياً وبالتضامن عن سمعة العائلة ومكانتها الاجتماعية، ولذلك لا يمكن لأي فرد منها التصرف بحرية بعيداً عن تلك المكانة، وعلى عكس ما ذهب إليه بوركهارت من أن الفرد ينتقل في المجتمع كفرد حر Free Individual نتيجة لمهارته أو عبقريته. إن الذي يحدد مكانة العائلة والفرد في المجتمع الايطالي كما يرى L. Martines هو تراث العائلة Family Tradicion والذي يتكون

ولكن سارتون عدل بعض آرائه السابقة حول مساهمة النهضة الايطالية في دراسة العلوم الصرفة في كتابه الأخير الموسوم:
The Appreciation of Ancient and Medieval Science during the Renaissance, (Philadelphia, 1955).

(٣٥) Burckhardt, J. Op. Cit., vol. I, P. 286-292.
Burckhardt, **The Dawn of a New Era.** (New York, 1936), P. 125.

من عنصرين: الثورة والوظيفة السياسية معاً. ويجب أن يستمـرا في العائلة لفتـرة طويلـة أي، الانهماك في وظـائف الجمهوريـة في فلـورنسا والاحتفـاظ بمكـانـة بـارزة وراسخـة سـواء في ملكيـة العقارات والأراضي أو في عالم التجارة والمال اللذين يكوّنان مكانة العـائلة وسلطتهـا في المدينـة. فالقـدم في المكـانـة الاجتمـاعيـة والاحتفاظ بالثروة هما العنصران الأسـاسيان وراء ذلـك التراث، ولذلك يمكن تفسير الاهتمام بحقل السير الـذاتية لتلـك العوائـل Geneabogies في القرنين الـرابع عشر والخـامس عشر كمحاولـة لتثبيت وابراز عراقة تلك العوائل: نلاحظ مثلاً التـاجر Giovanni di Morelli يفتتح سجل حساباته التجارية:

«بما أن هذا السجل لم يفتتح بعد، إني Giovanni di Pagolo di Bartolomeo di Morello di Giraldo di Ruggieri (or rather Gultieri) di Calandro di Benamato d'Albertino de' Morelli.... أكتب عن أجـدادي وأحوالهم آنـذاك طالمـا أمـدتني الـذاكرة، وعن أحـوالنا الحـاضرة والقادمـة لكي يعرف أبنـائي وأقربائي شيئاً عن أصولهم وظـروف أجدادهم، لأن كـل شخص يـدعي اليوم تـاريخاً عـريقاً لعـائلته، ولـذلـك أرغب أن أوضـح الحقيقة عن عائلتنا».

إن الأمثلة من هذا النـوع ليست قليلة، لا في فلـورنسا ولا في المدن الايطالية الأخرى، وتؤكـد وجود ذلـك المجتمع القـائم على العائلة الكبيرة وتراثها ومنزلتها الاجتماعيـة وليس ذلك المجتمـع القـائم على «الثـروة والثقافـة فقط كمـا يـذهب بـوركهـارت». إن الـدراسات الأخـيرة لكـل من Kent وGoldthwait بـرهنت عـلى أهميـة العـائلـة المتمددة Extended Family في فلـورنسـا وحتى نهاية عهد آل مديتشي، حيث بقي أفرادها يحتفظون بشعور قوي بسلالتهم Lineage ونسبهم وإذا كانت العـائلة في القـرن الثاني عشر في فلـورنسا ربمـا تتجمع حـول قلعـة للـدفـاع عن نفسهـا أصبحت في القـرن الخامس عشر تملـك حقوقـاً مشتركـة في بيت العائلة الرئيسي Household ومقبرة العائلة Chantry ومستشفى العائلة.... إلخ،. كل ذلك من أجل اثبات تاريخها الطويل وبالتالي مكانتها الاجتماعية البـارزة في المدينـة الايطاليـة. يبدو أن هـذه السمة لم تكن ايطالية فقط وإنما أوروبية كما يذكر J. Heer وL. Henry.

يبدو مما تقدم أن آراء بوركهارت وحدها غير كافية في تفسـير النهضـة الايطاليـة تفسيراً شـامـلاً بـالـرغم من أهميتهـا التي أوضحتهـا في ثنايـا هـذا البحث. ان عصر النهضـة يمثـل عصر التحول والتردد والانتقال والامتزاج بين عناصر الثقافة الـوسيطة والحديثة معـاً. ومن الصعب جداً أن تُفسر تلـك الصورة الغنيـة للنهضة الايطالية بالمذهب الفردي وحـده، أو باكتشـاف الإنسان والطبيعة وحدهما. فهذه العناصر التي هلل لهـا بوركهـارت يمكن متابعتها وايجادها في العصور الوسطى، في حـين نرى أن الكثـير من سمات تلك العصور (الايمان بالكنيسة والـزهديـة والديـرية، ونظـام الاقطـاع.... إلـخ) استمـرت في عصر النهضـة والعصر الحـديث وحتى الوقت الحـاضر بـالـرغم من إتسـام الحضـارة الأوروبية بالمادية والعلميـة والواقعيـة. المسْألـة هنا هي: كم من العنـاصر الحضـاريـة العصر أوسطيـة بقيت تسـود في العصر الحديث، ومدى قبول السكان لها وكذلك الحال بـالنسبة لعنـاصر «الحضارة النهضوية»؟.

إن أصحـاب الأسس الاقتصـاديـة والاجتمـاعيـة للنهضـة الايطالية ربما نبّهوا الكثير من المؤرخين إلى أهمية تلك الجـوانب بـالـرغم من قلـة الـدراسـات الـحـديثـة فيهـا، وإذا درست تلـك الجوانب مع السمات الثقافية والفنية التي أوضحهـا بوركهـارت فإنها لا بد أن تقدم لنا تفسيراً شاملاً لتلك النهضة وخـاصة إذا درسها علماء متفتحو الأذهان كذهن بوركهـارت الخالي من ذلـك الشعور بالتعالي والاعتزاز بالنفس الذي يحول بين مؤرخي أوروبا الشمالية ومؤرخي جنوبها.

* ولد جاكوب بوركهارت بمدينة بازل في ٢٥ مايس/أيار ١٨١٨ من عائلة معروفة في عالم المال والتجـارة والسياسـة نال شـهادة الدكتوراه من جامعة بازل عام ١٨٤٣ ليشغل كرسي الأستاذية في تاريخ الفن فيهـا منذ عـام ١٨٥٨ وحتى تقاعـده في عام ١٨٩٣، بعدها توفي في العام ١٨٩٧.

خلال دراسته الجامعية بجامعة برلين للفترة ١٨٣٩ ـ ١٨٤٣، تأثر بوركهارت كثيراً بأساتذته الذين درّسوه التاريـخ القديم من أمثـال August Boeckh وJohann Gustav Droysen وFranz Kugler وLeopold Von Ranke الـذيـن عملـوا عـلى تكـوين تصوراته التاريخية وفلسفته التاريخية خاصة في تاريخ الفن. إن ما اجتمع في بوركهارت من مزيج الحكمة والعمق ومن قدرة عـلى التوليف على معيار ضخم ومن دأب العالم الصبـور وحده الـذي يجمع مادته ويقتلها درسـاً ذلك كلـه يجعله رجـلاً نادر المثـال في ميدان علم التاريخ (هويزنجا: ٢٩٨)، وبذلك فهـو يقف بمصاف أولئـك العباقـرة من أمثال نيتشـه، وكيركجـورد، وشوبنهـاور... (Benjamen: 13). من أهم مؤلفاته الأولى كتابه Die Zeit Konstantins des Grossen, 1853 (عصر قسطنطـين الكبـير) الـذي ترجم إلى الانكليزية عام ١٩٤٩، وكتابه (Der Cicerrone, 1855) وهو دراسة شاملة للفن الايطالي، وترجم أيضاً إلى الانكليزية عام ١٨٣٧، أمـا كتـابـه Die Kulture der Renaissance in Italien (1860) (حضارة عصر النهضة في ايطاليا) الذي يعتبر مثـالاً بين الجهود التوليفية التاريخية الذي يعتمد عليه بحثنا هذا إلى حـد كبير. وبعد ظهور كتابه هذا نشر بوركهارت عام ١٨٦٧ كتابه Die Geschichte der Renaissance in Italein. (الفـن المعمـاري في ايطاليا خلال عصر النهضة) الـذي يعتبر مكمـلاً لكتابـه السابق عن النهضة الايطالية.

أمـا بعد وفـاته فنشر أصـدقاؤه أربعـة أجـزاء من دراستـه للحضارة الإغريقية المعنونة Gyriechische Kulture Geschichte (1898-1902) التي تـرجمت إلى الانكليزيـة عـام ١٩٦٣ بعنـوان History of Greek Cultue. في عام ١٩٠٥ طبعت له أيضاً بعض البحـوث في تـاريـخ الفن التي أهمهـا: Waltge Schicheliche Betrachtungen الذي ترجم إلى الانكليـزية عـام ١٩٤٣ بعنوان Force and Freedom: Reflection on History.

وفي عـام ١٩٢٩ ظهـرت لـه دراسـة بعنـوان: Historisch Fragmente الذي ترجم إلى الانكليزية عام ١٩٥٨ بعنوان Judgments on History and Historians وفي هاتين الدراستين وضـح بوركهارت تنبؤاته حول الـدولة القـومية ومستقبلهـا في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر والقرن الحالي.

بحوث التاريخ
العربي الاسلامي

رؤية في مفهوم الأمن القومي في عهد صلاح الدين

د. يوسف حسن غوانمة

قسم التاريخ ـ جامعة اليرموك

جـاء هـذا المفهـوم من منطلق أن الخطـر الفـرنجي لم يكن يستهـدف بـلاد الشـام والسـاحـل الفلسطيني فحسب، بـل استهدف، العراق، والشام، ومصر، والحجاز، وجنوب الجزيـرة العربية، والساحل الشمالي لافريقية.

ومن الملاحظ أن استراتيجية الفرنج اعتمدت منذ البداية على تفتيت القـوى العربيـة الإسلاميـة، والاستفـادة من الصراعـات الداخلية بين القوى الإسلامية في منطقتنا العربيـة. فأي وحـدة كانت تزيـد من خطورة مشـاكل الفـرنج العسكـرية، وتقلـل من نجاحاتهم الحربية[1]، فالقوى المحلية لم تصدق النية في مقاومته، بل ساعدت خلافاتها على تثبيت وجوده، وترسيخ جذوره، وتحقيق أهدافه وأطماعه بسهولة ويسر. فاحتل الفرنـج الساحل الشامي وركّـزوا وجـودهم فيـه، كي يبقى اتصـالهم بـالغـرب الأوروبي ميسّراً، وتوجوا تلك الانتصارات باحتلال بيت المقدس، مكـوّنين مملكـة بيت المقدس الـلاتينية والإمـارات الفرنجيـة الأخـرى في الشام.

ولكي يضمنـوا تفتيت وتمزيق القـوى العربيـة الإسـلاميـة، أقاموا إمارة الرها في شمال الشام كي تكون حـاجزاً في وجـه أي اتصـال بين الإمـارتين الكبـيرتـين الـواقعتـين في شمـال الشـام والعـراق: حلب والمـوصـل. وأصبحت هـذه الإمـارة تحـول دون تحقيق أي تعاون أو عمل مشترك ضد الفرنج، بل أصبحت تهدد دار الخلافة في بغـداد. أما في جنـوب الشام فقـد وقفت بارونيـة الكـرك بحصونهـا العديـدة في الشراه، ووادي موسى والشـوبك وأيلة، سداً يمنع الاتصال بين القاهرة ودمشق وبغداد والحجاز، بل وتهدد المقـدسات الإسـلامية في مكـة والمدينـة، وخط التجارة الدولية عبر البحر الأحمر والجنوب العربي. ولم يكن هناك سبيل آخر للوصـول إلى دمشق من العراق إلا عن طـريق الـرحبـة[2]، والبر، ومن القاهـرة إلا عن طريق البـر على سيف البـادية، عبـر بارونية الكرك مروراً بالجفر وباير والأزرق[3]. ولم يكن المـرور من هذه المسالك يتم دون أن يتعرض المسافر لأخطار جسيمة، فكـان الفرنج يضعون الكمائن، عبر هذه المسالك الصحراوية[4]. وهكذا استطاع الفرنج السيطرة على حركـة المرور والاستفـادة من هذه الحركة المتعلقة بالتجار والحجاج والمسافرين بين البلدان العربية الإسلامية: الشام من جهة والعراق أو مصر أو الجزيرة العربيـة من جهة أخرى[5]. أما القوات العسكرية العربية الإسلامية، فلم

---

(١) د. سي. سميل، **الحروب الصليبية**، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ٣٣.

(٢) ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، القاهرة: ١٩٦٣ م، ص ٣٣. سميل، المرجع السابق، ص ٢٤.

الرحبة:بلدة، مشهورة تقع على مسيرة ثمانية أيام عن دمشق وخمسة أيام عن حلب، وتبعد ٦٠ ميلاً عن الرقة (لي سترانج، ترجمة محمود عمايري، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٧٠، ص ٣٨٩).

(٣) الجفر: واحة داخلة في البادية، تقع إلى الشمال الشرقي من معان (جنوب الأردن الحالي)، وهي إحدى محطات القوافل التجارية.

باير: واحة في البادية الأردنية الى الشمال من الجفر، كانت احدى محطات القوافل التجارية.

الأزرق: واحة إلى الشمال من باير، بها قلعة من بناء الملك الناصر داود الأيوبي، ولعبت الأزرق دوراً في حركة المواصلات والاتصالات بين دمشق والحجـاز ومصر. وهي الآن منطقة سياحية أردنية جميلة (الباحث).

(٤) أسامة بن منقذ، **الاعتبار أو حياة أسامة**، ليدن ١٨٨٤ م، ص ٨.

(٥) سميل، المرجع السابق، ص ٢٥.

يستطيعوا منعها نهائياً، ولو أنهم حدّوا من حرية حركتها[٦]. وباحتلالهم فلسطين مزقوا المشرق العربي الإسلامي عن مغربه، وأيقنوا أن بقاءهم مرهون ببقاء الفرقة والعداوة بين المسلمين، فعملوا كل ما في وسعهم على بقائه منشقاً متباعداً[٧]، لأن ذلك فيه حياتهم وبقاؤهم.

وثمة سؤال نطرحه، هل كان صلاح الدين يعي الحقائق التالية من خلال الممارسات والأعمال التي قام بها آنذاك ضد الفرنج؟ فالجواب على هذا التساؤل يمكننا استنتاجه من دراستنا للقضايا التالية:

أولاً: القاهرة مفتاح كل عمل مشترك ضد الفرنج

كانت الدولة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قوية من النواحي العسكرية والاقتصادية، فوليم الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية عبّر عن ذلك قائلاً، «فإن خليفة مصر أكثر المسلمين قوة بسبب ثروته الكبيرة وقواته العسكرية»[٨]. ولكن هذه القوة لم تسخر لمقارعة الخطر الفرنجي فقد كان للأفضل بن بدر الجمالي أطماعه السياسية في بلاد الشام، بالإضافة إلى طموحاته في السيطرة على السلطة داخل الدولة الفاطمية نفسها. لذا لم يول الحملة الفرنجية الأولى جل اهتمامه، وساعد موقفه المتخاذل على نجاح هذه الحملة، وتحقيق أكثر مما كانت تتوقعه. وقد أثار موقفه هذا تعجب المؤرخ أبي المحاسن بعد ذلك بقرون عديدة حيث يقول: «ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال»[٩]. ويقول في مكان آخر: «والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم»[١٠]. ونتيجة لذلك فبعد فتح انطاكية غيّر قادة الحملة خططهم، وقرّروا المضي قدماً في احتلال الساحل الشامي وبيت المقدس هدفهم الرئيسي منذ خروجهم من أوروبا[١١]. وهكذا نستطيع القول، بأن قادة الفرنج قد عرفوا تماماً أهمية القاهرة في أي عمل عسكري يخوضونه ضد المسلمين في بلاد الشام، وكان لإخراج القاهرة من المعركة وتحييدها أثره في الانتصارات السريعة التي حققها الفرنج في الساحل الشامي وفلسطين، وستبقى هذه الاستراتيجية طيلة الوجود الفرنجي في بلاد الشام[١٢]. ففي أواخر العصر الفاطمي نرى أن عموري ملك مملكة بيت المقدس يسعى حثيثاً للاستيلاء على مصر وابعادها عن الدولة النورية. ولكن قوات نور الدين محمود زنكي بقيادة شيركوه تمكنت من احباط هذا المخطط، وحققت نصراً أكيداً على الفرنج وقوات شاور وزير مصر المتعاون مع الفرنج، مما مهّد الفرصة لصلاح الدين الأيوبي، لأن يتقلّد الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد، وأن يمسك بزمام المبادرة، واجهاض كل مخطط فرنجي موجه إلى مصر. ثم قيامه باسقاط الخلافة الفاطمية في أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ. (١٠ أيلول ١١٧١ م)[١٣]، معلناً قيام دولة جديدة (الدولة الأيوبية)، تلك الدولة التي قامت على مبادىء مقاومة الخطر الفرنجي، وتوحيد القوى العربية الإسلامية، وتسخيرها جميعاً في سبيل الهدف النبيل.

ثانياً: دمشق أكثر مدينة مؤثرة على مملكة بيت المقدس اللاتينية:

انتزع نور الدين محمود زنكي مدينة دمشق من صاحبها مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن طغتكين في ٢٠ صفر سنة ٥٤٩ هـ (٢٥ نيسان ١١٥٤ م)[١٤]، وبذلك أصبح نور الدين

(٦) المرجع نفسه.
(٧) رانسمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة الباز العريني، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ م، ج ٢، ص ٥١٢.
(٨) William of Tyre. **A History of deads done beyond the Sea,** Translated by: Babcoh and Krey, U.S.A. 1943, P. 223.
(٩) أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٣ م، ج ٥، ص ١٤٧.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٤٨.
(١١) William of Tyre, Op. Cit., P. 326.
(١٢) ولتحقيق هذا الهدف فقد وجهت الحملات الصليبية: الخامسة والسابعة إلى مصر، إذ كان الفرنج يعتقدون بعد معركة حطين، أن احتلال القدس يكون عن طريق القاهرة، فباحتلالهم القاهرة ستنفتح لهم الطريق نحو القدس وبلاد الشام. وحتى في الحملة الصليبية السادسة، ومع أنها لم توجه إلى مصر، إلا أنها كانت باتفاق ودعوة من الكامل محمد سلطان مصر، وقد حقق قائدها الامبراطور فردريك الثاني ما لم يتمكن الفرنج من تحقيقه في الحملتين الثالثة والخامسة، إذ سلمت القدس له دون قتال. (الباحث).
(١٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م، ج ١١، ص ٣٦٩.
ابن شداد، **النوادر السلطانية**، مطبعة الحرية، القاهرة، ١٩٠٣ م، ص ٢١٤، ٢١٥.
(١٤) مجير الدين أبق بن محمد: هو آخر الأسرة البورية التي حكمت دمشق وأسسها طغتكين سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م)، وبعد استيلاء نورالدين على دمشق اقطع مجير الدين أبق أعمال حمص ثم طرده منها، فولاّه بالس ولكنه رفض ولايتها وسار إلى بغداد، وظل مقيماً بها إلى أن توفي هناك. (ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٢٨).

جاراً عنيداً لمملكة بيت المقدس، وهو أمر كانت تخشاه وتحسب حسابه، وهو وجود قوة إسلامية منظمة تجاورها. ويعبر ابن الأثير عن مخاوف الفرنج بقوله: «وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له، فكيف إذا أخذها وقوي بها»[15]. وهكذا بدأ نور الدين يضغط على مملكة بيت المقدس، استمراراً لحركة الجهاد التي بدأها والده عماد الدين زنكي بعد استيلائه على الرها.

تعرّض العرب والمسلمون لخسارة عظيمة بموت نور الدين زنكي في ١١ شوال ٥٦٩ هـ (١٥ أيار ١١٧٤ م)، وأصبحت الأخطار تهدد بلاد الشام، لافتقار الدولة إلى رجل قوي يسيّر دفة الأمور بحكمة وروية. كما أن الوحدة التي طالما عمل آل زنكي على تحقيقها تعرضت لامتحان رهيب، فقد حدث الانقسام بين القادة النوريين الذين تنازعوا أمور ولده الصغير الصالح اسماعيل. وقد مهّد هذا الخلاف إلى أن يتطلع عموري ملك مملكة بيت المقدس إلى مهاجمة دمشق، فسار بقواته إلى بانياس، فلقيه شمس الدين ابن المقدم نائب دمشق بقواته، ولكنه ضعف أمام الفرنج، فراسل عموري بالهدنة، فأجابه بالقبول، وتعهد ابن المقدم بتقديم مبلغ من المال اليهم[16]. فعاد عموري الى القدس، ولكنه مرض أثناء عودته وتوفي في ١٢ ذي الحجة ٥٦٩ هـ (١١ تموز ١١٧٤ م).

استاء صلاح الدين من تصرف قادة دمشق وحلب وتحكمهم بالملك الصالح اسماعيل بن نور الدين من جهة، وضعفهم أمام الفرنج من جهة أخرى. وخشي في الوقت نفسه من انهيار وحدة الصف العربي الإسلامي الذي جهد عماد الدين ومن بعده نور الدين في تحقيقه. وكان يرى في نفسه أنه الوارث الحقيقي لدولة نور الدين وسياسته التي تهدف إلى تحقيق الوحدة العربية الإسلامية وإلى جهاد الفرنج. وكتب إليه رجال دمشق يحثّونه فيها على سرعة الحركة إلى دمشق خوفاً من الانقسام وطمع الأمراء المتحكمين بالملك الصالح جاء فيها: «فإنه ان استمرت ولاية هؤلاء، تفرقت الكلمة المجتمعة، وضاقت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع الكفر في بلاد الإسلام»[17]. ولم يتردد صلاح الدين في القيام بدوره الذي قدر له، والعمل على تدعيم الوحدة، والقضاء على الفرقة، فاستقبل استقبالاً طيباً، وتسلم من ابن المقدم قلعة دمشق في ٢٩ ربيع أول ٥٧٠ هـ (٢٨ تشرين أول ١١٧٤ م)[18]، وبدأ يعمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية وتدعيمها.

وفي سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م)، حاول صلاح الدين أن يجعل من مصر نقطة انطلاق لعملياته العسكرية ضد الفرنج، فخرج منها متجهاً إلى فلسطين، فحاصر بغدوين الرابع في عسقلان، ثم شق طريقه نحو الرملة ويافا واقتربت قواته من بيت المقدس، فشاع الذعر في نفوس أهلها، وأخذت حاميتها تتأهب للانسحاب منها أو التحصن بقلعتها. ولكن جنود صلاح الدين انشغلوا بالغنائم، وتفرّقوا في تلك النواحي، ولم يتوقعوا هجوماً مباغتاً من الفرنج. وفي اللحظة التي فقد فيها صلاح الدين الاشراف المباشر على جزء كبير من جيشه، هاجم بغدوين الرابع قوات صلاح الدين على حين غرة عند تل الصافية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الرملة، فتكبّد صلاح الدين خسائر جسيمة، وانهزم هزيمة فادحة، وتشتتت قواته. فعاد إلى مصر عبر الصحراء، وقد لاقى من الشدة والمتاعب في طريق عودته الكثير، ووصل إلى القاهرة سالماً[19].

كانت معركة تل الصافية نقطة تحول في استراتيجية صلاح الدين ضد مملكة بيت المقدس اللاتينية، فقد توضحت له صعوبة اتخاذ مصر نقطة انطلاق لهجماته ضد الفرنج، لبعد المسافة وصعوبة تأمين خط الامداد لقواته. لذلك قرر الانتقال إلى دمشق واتخاذها قاعدة لنضاله، وعملياته العسكرية، فهو يشرح ذلك في رسالة فاضلية للخليفة العباسي في بغداد فيقول: «وعرفنا أن بيت المقدس ان لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه، وإلا ثبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة، وانّا لم نتمكن بمصر منه مع المسافة وانقطاع العمارة، وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة،

---

(١٥) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٠٧.
(١٦) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٦١.
ابن واصل، **مفرج الكروب في اخبار بني ايوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ م، ج ١، ص ٢٥٨.
(١٧) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد، القاهرة، ١٩٥٦ م، ج ١، ص ٥٩٦.
(١٨) ابن واصل، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ١٩.
(١٩) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٢٢٢، ٢٢٣.
ابن واصل، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٨، ٥٩.
سميل، **المرجع السابق**، ص ٣٦.

Stevensor, W.D. **The Crusaders in the East**, Beirut, 1968, P. 217.

والعساكر كثيرة، والجموع متيسرة، والأوقات مساعدة»[٢٠]. ويؤكد صلاح الدين هذه الاستراتيجية في موقع آخر فيقول: «فأنا ما بقي لي دار إلا هي (دمشق) حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين»[٢١].

وبانتقال صلاح الدين كلّياً إلى دمشق يأخذ زمام المبادرة العسكرية ضد الفرنج، لتبدأ مرحلة جديدة من الجهود العسكرية المكثفة على الصعيد الفرنجي، وليعمل جاهداً لتوحيد الجبهة الداخلية في مصر وبلاد الشام وشمال العراق. ثم انطلق بقواته من دمشق إلى فلسطين، فاصطدمت قواته مع الفرنج في حطين، وكان النصر حليفه في ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (٤ تموز ١١٨٧ م) وتمكن من سحق قوات الفرنج وإبادة أكبر جيش حشدوه في الشام «فمن عاين القتلى قال: ما ثم أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما ثم قتيل»[٢٢]. واعتبر هذا النصر مفتاح الفتوح الإسلامية، فسارت قوات صلاح الدين نحو الساحل الفلسطيني ففتحه من عكا إلى عسقلان، ثم توجه الى بيت المقدس وشدد عليه الحصار، ودخلت قواته المدينة المقدسة بالأمان في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (١٢ تشرين أول ١١٨٧ م). من هنا يتضح لنا مقدار الأهمية التي كانت لدمشق في محاربة الفرنج، فهي تنفرد بمزايا استراتيجية وعسكرية وجغرافية واقتصادية لم تتوفر للقاهرة، فنقل صلاح الدين مركز قيادته اليها، واتخذها نقطة الانطلاق ليوم النصر الكبير وتحرير القدس.

ثالثاً: الخطر الفرنجي يهدد البحر الأحمر والجنوب العربي والحجاز

كانت مصلحة الفرنج في بيت المقدس تقضي بإحكام سيطرتهم على الطرق الهامة، والعمل على عزل مصر عن الشام - وهي استراتيجية وعاها الفرنج وعملوا الكثير من أجل تحقيقها - لأن اجتماع مصر والشام فيه خطر على وجودهم. ثم العمل على مراقبة طرق التجارة الدولية عبر سيناء وجنوب شرقي الأردن، والوصول إلى البحر الأحمر الشريان التجاري الهام، وأخذ نصيبهم من هذه التجارة الدولية.

فكان أول توسع للفرنج خارج فلسطين في منطقة جنوب شرقي الأردن باعتبارها همزة الوصل بين أجزاء العالم العربي: الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية. بالإضافة إلى أهميتها الاقتصادية المتمثلة بحقولها الخصبة، وللتدخل في تجارة البحر الأحمر، وتحويل جزء من تجارته إلى مملكة اللاتين في القدس، ثم لوقوعها على التخوم الشمالية لبلاد الحجاز والمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة. ففي سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) احتل بغدوين الأول الشوبك، فجدد بناء قلعتها وسماها مونتريال (Montroal) وشحنها بالرجال والعتاد. وفي السنة التالية ٥١٠ هـ (١١١٦ م) وصل بقواته إلى أيلة (العقبة) على البحر الأحمر، فاحتل المدينة وأعاد بناء القلعة البحرية ذات الأصول البيزنطية في جزيرة فرعون (Le Graye). أما في الساحل فقد أعاد بناء القلعة الإسلامية وحصّنها، وشحن القلعتين بالأسلحة والرجال ثم عاد إلى القدس، وبذا أصبح لملكة بيت المقدس وجود في البحر الأحمر، ناهيك عن سيطرتها على حركة الاتصال والمواصلات بين دمشق والقاهرة والحجاز.

وضح لصلاح الدين منذ الوهلة الأولى لتسلمه السلطة في مصر أن رحلة نضاله وجهاده ضد الفرنج رحلة طويلة ومريرة، وأن هذه الرحلة بحاجة إلى موراد اقتصادية مستمرة. فوضع خطة تستهدف جعل البحر الأحمر تحت سيطرته المباشرة، باعتباره أهم شريان للتجارة الدولية. ولما كان للفرنج منذ أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حضور بحري في البحر الأحمر، تتدخل في تجارته وتحول جزءاً منها إلى القدس، بالإضافة إلى الضرر الذي سببوه للحجاج والمسافرين عبر أيلة وقد أكد ذلك ابن قاضي شهبه بقوله: «ونال الحجاج من الفرنج الموجودين في أيلة ضرراً كبيراً»[٢٣]. لذا قام صلاح الدين بتجهيز حملة إلى أيلة في ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ (كانون أول ١١٧٠ م)، واستباح القوة الموجودة فيها أسراً وقتلاً، ثم قام بإعداد قوة من ثقات رجاله في أيلة وقوّاهم بالسلاح والمؤن والذخيرة.

ولكي ندلل على أهمية أيلة في فم خليج العقبة، وعلى الضرر الذي سبّبه الوجود الفرنجي في البحر الأحمر المتمثل بالأسطول الحربي الذي كان مصدر ازعاج وخطر على سواحل الحجاز والأماكن المقدسة، يمكننا ملاحظة ذلك من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة العباسي في بغداد على لسان صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)، ذكر فيها أسباب فتح أيلة فقال: «ومنها قلعة بثغر أيلة، كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فسبى منه خلقاً، وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام

(٢٠) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الانشاء**، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣ م، ج ١٣، ص ٨٩.
(٢١) أبو شامة، **الروضتين**، ج ٢، ص ٧.
(٢٢) الذهبي، **دول الإسلام**، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى، القاهرة، ١٩٧٤ م، ج ٢، ص ٩٤.
(٢٣) ابن قاضي شبهة، **سيرة الملك العادل نور الدين الشهيد**، مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية، لوحة ٩٥.

الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول شرّفه الله أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلاً لسفّار البلاد، وغيرهم من عبّاد العباد»(٢٤).

ثم ان صلاح الدين عمل على إتمام مخططه بأن أرسل أخاه شمس الدولة تورانشاه سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) لفتح اليمن، ومهما قيل عن أسباب فتح اليمن من المؤرخين المحدثين. فباعتقادي أن أهم أهدافها خوفه من نشاط الفرنج في البحر الأحمر، وهو نشاط بدأ منذ فترة تسبق سنة ٥٦٦ هـ، ثم للسيطرة على تجارة الهند والصين واليمن، التي وجه إليها صلاح الدين اهتماماً خاصاً، لما تعود به على بلاده من مكاسب اقتصادية، كان في أشد الحاجة اليها. ويتضح ذلك من رسالة فاضلية تشرح أسباب فتح اليمن فتقول: «والكلمة هناك بمشيئة الله إلى الهند سارية»(٢٥)، ثم لارتباط صلاح الدين بعلاقات تجارية مع بعض الدويلات الايطالية كالبندقية، وجنوا، وأمالفي، وبيزا، فهو يؤكد في رسالته السابقة على تلك العلاقات قائلاً، «وما منهم إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قرّرت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة على ما نريد ويكرهون»(٢٦)، وهكذا تمكن صلاح الدين من أن يضمن سلامة الطريق التجاري الى الهند، سيما وقد وضع يده على مداخل البحر الأحمر سواء عند خليج العقبة باحتلال أيلة، أو عند خليج السويس التي تدخل في نطاق ملكه، وعلى مخرج هذا البحر عند باب المندب وثغر عدن، وبهذا جعل صلاح الدين من البحر الأحمر بحيرة عربية إسلامية.

ورغم كل هذه الاحتياطات التي قام بها صلاح الدين، إلا أن الفرنج في بيت المقدس، ظلوا يتطلعون إلى الأهمية الاقتصادية للبحر الأحمر والجنوب العربي والحجاز، فقام أرناط (رينو دي شاتيون) بارون الكرك بإعداد حملتين عسكريتين كان الهدف منهما الوصول إلى الحجاز واليمن والسيطرة على تجارة البحر الأحمر وتحويلها إلى مملكة اللاتين في القدس(٢٧). ومنع هذا الشريان الحيوي عن صلاح الدين، وضرب المسلمين في أقدس مقدساتهم باحتلال مكة والمدينة. فكانت الحملة الأولى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)، ووصل إلى تيماء حيث ظفر بقافلة تجارية متجهة من دمشق إلى الحجاز، فنهبها وأسر من تمكن من أسره(٢٨)، ثم واصل سيره إلى المدينة، بقصد الاستيلاء على تلك النواحي، ونهب المسجد النبوي والاستيلاء على ما فيه من كنوز وذخائر. ولكن نائب صلاح الدين بدمشق ابن أخيه عزالدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب هاجم بارونيّة الكرك، فلما علم أرناط بذلك عاد مسرعاً للدفاع عن بارونيته. فأخفقت هذه الحملة لطول الطريق وبعد خطوط امداداته وقسوة الطبيعة من حوله، إلا أنه استفاد من هذه الحملة، فقد ألم بطبيعة بلاد العرب وأدرك أن الأمر جدير بمعاودة الكرة مرة أخرى.

وكانت الحملة الثانية في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م)، وتعتبر هذه الحملة من أجرأ الحملات الفرنجية وأخطرها، فقد استهدفت غزو الأراضي المقدسة في الحجاز. ومحاولة الوصول إلى عدن للسيطرة على تجارة البحر الأحمر، وأكّد ذلك أبو شامة في رسالة فاضلية فهو يقول: «كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً، واقتضوا من البحر بكراً، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدت مخافة تلك الجوانب»(٢٩). فأعد أرناط أسطولاً من خمسة غربان، وعدد كبير من المراكب الصغيرة، فهاجم أيلة ففتحها، ثم حاول اقتحام جزيرة فرعون مفتاح خليج العقبة ولكنه فشل، فترك سفينتين تحاصرانها. ثم سار بقواته نحو الجنوب، ومنعاً لأي تدخل من جانب القوات البرية القادمة من دمشق والقاهرة، سيّر قوة تسير براً بحذاء الساحل إلى تبوك. فكانت حملة أرناط والحالة هذه برية وبحرية وهذا ما أكده الذهبي بقوله: «وفيها سار الفرنج بحراً وبراً لتملك الحجاز»(٣٠). ولكن صلاح الدين أرسل لقائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ يطلب منه مواجهة أرناط وحماية الحجاز، فأعد حسام الدين أسطولاً نقله على الجمال، وأعاد تركيبه في أيلة، وتعقب الأسطول الفرنجي الذي وصل الى عيذاب ميناء مصر على البحر الأحمر فنهب وسبى الكثير، ثم واصل سيره جنوباً فهاجم سواحل تهامة واليمن(٣١)، وأحرق ما صادفه من سفن تجارية، وأشاع الذعر

(٢٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج ١٣، ص ٨٦.
(٢٥) القلقشندي، **المصدر نفسه**، ص ٨٦.
(٢٦) القلقشندي، **المصدر السابق**، ج ١٣، ص ٨٨.
(٢٧) Prawer, (J.), **The Latin Kingdom of Jerusalem,** London, 1972, P. 71.
(٢٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج ٢، ص ٢٣.
ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٢، ص ١١٠.
تيماء: بلدة في أطراف الشام بين وادي القرى على طريق الحاج الشامي ودمشق، (ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٠٧).
(٢٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٣، ص ٢١٧.
(٣٠) الذهبي، **دول الإسلام**، ج ٢، ص ٩٠.
(٣١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٢، ص ١٢٧ ـ ١٣١.

والخوف في تلك النواحي. ثم ما لبث أن غيّر خط سيره فاتجه شمالاً إلى رابغ قرب جدة، ثم توجه إلى الحوراء في مواجهة المدينة، فترك سفنه هناك، وسار براً إلى المدينة، ولكن الأسطول الأيوبي أحرق سفن أرناط في الحوراء وأسر من فيها، ثم ركب حسام الدين خلف أرناط الذي فرّ هارباً إلى تبوك ومنها إلى الكرك. وبذلك فشلت هذه الحملة التي استغرقت زهاء أربعة شهور من شعبان حتى ذي القعدة ٥٧٨ هـ(٣٢). وقد أكدت هذه الحملة أن الخطر الفرنجي في فلسطين يمكن أن يطال الجزيرة العربية والمقدسات الإسلامية، وأن البحر الأحمر كممر تجاري وبحري كان هدفاً استراتيجياً حيوياً لملكة بيت المقدس اللاتينية.

ممارسات صلاح الدين في تحقيق الأمن القومي

تذكر دائرة المعارف الاجتماعية أن الأمن القومي يعني «قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية»(٣٣)، أما دائرة المعارف البريطانية فتقول: «إن الأمن القومي هو حماية الأمة من خطر السيطرة بواسطة قوة أجنبية»(٣٤). وهكذا فإن مفهوم الأمن القومي يرتبط بالقدرة العسكرية، والتهديدات التي تواجهها الدولة، ومن هنا ينبغي دعم القوة العسكرية وتطويرها، لتكون الدولة قادرة على مواجهة أي تهديد عسكري خارجي، آخذين بعين الاعتبار تهيئة الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً، لتحقيق الأهداف والغايات التي تعبر عن الرخاء العام في المجتمع(٣٥).

كذلك فإن مفهوم الاستراتيجية القومية يرتبط بالأمن القومي والسلامة القومية، وهو يشير إلى تعبئة وتنظيم وتوجيه موارد المجتمع، وهو مفهوم متغيّر متطور تبعاً لتغير الظروف والموارد والاختيارات المتاحة، وهو في ثناياه يتضمن الاستراتيجية السياسية، والاقتصادية، والعسكرية وكل من هذه الاستراتيجيات تسعى إلى تحقيق الأهداف القومية، وهي جميعها تترابط فيما بينها، لأنها تسعى لتحقيق نفس الأهداف، ولكن في مجالات مختلفة(٣٦).

من هذا المنطلق يمكننا تفسير الأمن القومي في عهد صلاح الدين، فهو في حقيقته لا يبتعد كثيراً عن هذه المفاهيم:

أ ـ من الناحية العسكرية

إن قضية التمزق والخلافات التي كانت مستشرية بين قادة المسلمين قبيل الهجمة الفرنجية الأولى وأثناءها، عبّر عنها العديد من المؤرخين المعاصرين، وفي مقدمتهم ابن القلانسي، فنقل الينا صورة حية لما آلت إليه العلاقات العربية الإسلامية بقوله سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م): «وفي هذه السنة وردت الأخبار بما أهل خراسان والعراق والشام عليه من الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد وخوف بعضهم من بعض، لاشتغال الولاة عنهم وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة»(٣٧)، فكان للتفرقة والصراعات الداخلية أثرها، فجبن الجميع في مواجهة الخطر الداهم، وكان بمقدور المسلمين آنذاك تحطيم القوات الفرنجية الغازية، إذا علمنا أن قواتها لم تكن بالكثرة التي يقف أمامها العرب والمسلمون عاجزين متخاذلين. وهذا ما أثار تعجب المؤرخ أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي فقال: «والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم»(٣٨).

أما موقف الدولة الفاطمية من الحملة الفرنجية الأولى، فقد أثار تساؤل العديد من المؤرخين العرب والمسلمين، حتى إن ابن الأثير شكك في موقف الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية، ونعته بالتواطؤ فقال: «إن أصحاب مصر لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الأقسيس إلى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه»(٣٩). أما المؤرخ أبو المحاسن فقد تساءل بعد ذلك بقرون عديدة قائلاً: «ولم ينهض الأفضل باخراج

---

(٣٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٢.
(٣٣) علي الدين هلال، الأمن القومي العربي، دراسة في الأصول، مجلة شؤون عربية، العدد ٣٥، ١٩٨٤ م، ص ١٠.
(٣٤) المرجع نفسه.
(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٢.
(٣٦) المرجع نفسه، ص ١٧.
(٣٧) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، طبع مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م، ص ١٤٠.
(٣٨) أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة**، ج ٥، ص ١٤٨.
ويذكر وليم الصوري أن القوات الفرنجية التي حطت حول القدس كانت ١٥٠٠ فارس و٢٠ ألفاً من المشاة.
William of Tyre, Op. Cit., P. 429.
(٣٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م، ج ١٠، ص ٢٧٣.

عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال»[40]. وفي موضع آخر يقول: «ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه»[41].

نلاحظ مما سبق أن الموقف العربي الإسلامي لم يكن موحداً، وقد أدّى ذلك إلى النصر الذي لم تتوقعه القوات الغازية بهذه السهولة. فالمؤرخ الأوروبي سميل يقول في كتابه الحروب الصليبية: إن انتصار الصليبيين في الحملة الأولى على القدس واحتلالها، كان سببه أنهم لم يواجهوا جيشاً إسلامياً في ساحة القتال، لا خلال الزحف والاقتراب، ولا خلال الحصار[42].

ولما كان الخطر الفرنجي لم يستهدف قطراً بعينه أو دولة بعينها، بل كان عاماً شاملاً، وأن الاحتياطات والخطط التي وضعها صلاح الدين كانت لحماية الشرق الإسلامي والأمة العربية الإسلامية، فمن هنا جاء مفهوم الأمن القومي عاماً شاملاً لجميع الأقطار والبلدان. وبذا تأكدت لنا حقيقة أنه لا يمكن لبلد عربي تحقيق أمنه بمعزل عن أمن البلدان العربية الإسلامية كلها. فالأمن القومي آنذاك كان يستند في الأساس على وحدة الأمة العربية الإسلامية والمصير الواحد، لذا عمد صلاح الدين إلى تحقيق وحدة مصر والشام والعراق والحجاز واليمن، وعبّر عن ذلك عند قدومه إلى دمشق فقال: «إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم»[43]. وقوله: «والله ما جيت إلى ها هنا (دمشق) شرهاً ولا طمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية»[44]. ولم يخض المعركة الفاصلة إلا بعد أن بنى قوة عسكرية متماسكة وقضى على كل معارضة داخلية، فبعد أن انتهى من مشكلة الموصل قال: «وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعمت الهيبة والرهبة، والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع»[45].

وهكذا نستطيع القول: بأنه في ظل التمزق الذي عاشه العرب والمسلمون في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، غابت الإرادة العربية الإسلامية الموحدة، فجاء صلاح الدين وقبل التحدي الفرنجي الأوروبي، ووحد الإرادة العربية الإسلامية: السياسية والعسكرية، ووجهها ضد الخطر الفرنجي الاستيطاني والقوى الداعمة له، وسخر كل امكانات الأمة في مواجهة العدو وتحرير الأرض، فالمعركة الفاصلة كانت بعد أن أطمأن الى الجبهة الداخلية وقضى على كل معارضة.

ب ـ من ناحية السياسة الخارجية

السياسة الخارجية مرآة تنعكس عليها أهداف الأمن القومي من ناحية، ثم هي أداة تحقيق هذه الأهداف من ناحية أخرى. فصلاح الدين لم يهمل الموقف الدولي المحيط، فوجّه همه لقوتين من حوله كان لهما شأن في أمور الشرق آنذاك: الأولى الجمهوريات الايطالية، وقد استطاع أن يعقد معها اتفاقيات تجارية نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع الدولة الأيوبية[46]. أما القوة الثانية فكانت الدولة البيزنطية، التي خطبت ودّه، وأرسلت إليه الرسل والسفارات بعدما شعرت بقوته المتزايدة، وأدركت عبث التحالف مع مملكة بيت المقدس اللاتينية، فكانت مصالحها تقضي باستقرار الأمور بينها وبينه، سيما وقد ارتبط بروابط ودية مع السلاجقة المصاقبين لحدودها، وكانوا يشكلون أكبر خطر عليها. فعقدت مع صلاح الدين معاهدة نصّت على المسالمة والعلاقات الحسنة بين الطرفين. ذكر صلاح الدين ذلك في احدى رسائله عن الامبراطور البيزنطي فقال: «فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر، والجبار الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت... وجرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرية، وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجبي خراجاً، ومنها أن يملك منها فجاجاً... فأخذنا ولله الحمد بكظمه، وأقمناه على قدمه، ولم نخرج من مصر، إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، والقاء السلاح، والانتقال من معاداة الى مهاداة ومن مناضحة الى مناصحة»[47]. فصلاح الدين ضمن تحييد أكبر قوتين يمكن أن تتدخلا إلى جانب الفرنج في الشام، فهو بسياسته هذه حقق أهداف الأمن القومي لدولته، ولم تأتِ سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) إلا وكانت الجبهة العربية الإسلامية كاملة مستعدة، ووحدة مصر والشام والعراق والحجاز واليمن التي نشدها صلاح الدين أصبحت حقيقة واقعة.

---

(٤٠) أبو المحاسن، **المصدر السابق**، ص ١٤٧.

(٤١) **المصدر نفسه**، ص ١٧٩.

(٤٢) سميل، **المرجع السابق**، ص ٢٩.

(٤٣) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٢، ص ١٨.

(٤٤) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، النسخة مصورة عن مخطوط شيكاغو، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٤٥) أبو شامة، **الروضتين**، ج ٢، ص ٦٤.

(٤٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٣٤، ص ٨٨.

(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ٨٧.

ج ـ من الناحية الاجتماعية

والأمن القومي يعني قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية والمحافظة عليها، وتوجيهها لخير الأمة والوطن. فصلاح الدين وعى كل التناقضات الاجتماعية والعقائدية التي كانت مستشرية في المجتمعات الإسلامية آنذاك، فحد من غلوائها ووظّفها لخدمة القضية الأولى وهي تحرير الأرض والمقدسات. وهو يوضح ذلك برسالة فاضلية قائلاً: «وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة، وأمور مختلة، وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة... والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الإلفة، ويضمن الزلفة، ويفتح بقية البلاد.... وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا»(٤٨).

ومن هنا فإن صلاح الدين استغل التحدي للشعائر الإسلامية، وقيام أرناط بغزو مكة والمدينة، ومحاولته هدم المقدسات فيهما، ثم لنقضه المعاهدات، ونهبه للقوافل التجارية المارة جوار بارونيته في الكرك، حتى انه عندما ذُكّر بالمعاهدة المبرمة بينه وبين صلاح الدين، تهجم على الأسرى قائلاً: «قولوا لمحمدكم يخلصكم»(٤٩). فلما بلغ الخبر صلاح الدين أقسم أن يقتله بيده عقاباً على ما اقترفته يداه، ولمهاجمته الديار المقدسة ونقضه المعاهدات والعهود، فأعلن «الجهاد الأعظم»، واستنفر القوات من جميع أنحاء دولته: من الموصل، والجزيرة، وأربل وديار بكر وماردين ومصر والشام. وبعدما كملت الاستعدادات خرج بقواته لملاقاة الفرنج، وقد غلبت على نفوس رجاله شهوة القتال في سبيل الله، ونذر كل مقاتل أن يبذل نفسه وروحه في سبيل الله والوطن. وكان النصر حليفهم في حطين، بسبب التآلف والتحالف والمحبة والإيمان بالهدف المشترك الذي خرجوا من أجله. وهكذا تمكّن صلاح الدين من حماية القيم الروحية والاجتماعية والمحافظة على الشعائر الإسلامية من خطر الغزو الفرنجي، سواءً في فلسطين أو في الحجاز، وسخر كل هذه القيم وفي مقدمتها «الجهاد» نحو الهدف الأكبر، وهو تحرير الأرض وطرد المحتل.

خاتمة

إن مفهوم الأمن القومي يحتل موقع الصدارة في أي تفكير استراتيجي، بل يمكن القول أنه بؤرة هذا التفكير(٥٠)، ومفهوم الأمن القومي في تلك الحقبة من التاريخ نستطيع استقراءه من الأحداث التاريخية، ولو أنها لم تذكر صراحة، فمفهوم الأمن القومي في عهد صلاح الدين كان يتركز حول المفهوم العسكري والاستراتيجي، وكذا المفهوم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. وترتب على المفهوم العسكري المفهوم الوحدوي، وحشد طاقات الأمة لمواجهة الخطر الفرنجي، الذي وقفت خلفه الأطماع الأوروبية في السيطرة على الشرق العربي الإسلامي.

ويرتبط مفهوم الأمن القومي لدى بعض الباحثين المحدثين بالقوة العسكرية والقدرة على مجابهة الأخطار والغزوات، وقبول التحدي، وهذا ما فعله صلاح الدين، فقد قبل التحدي، وبنى قوة عسكرية استطاعت تحرير الأرض، وفرض وجودها في الساحة الشامية، وتحرير القدس، التي شكل ضياعها واحتلالها ألماً كبيراً لدى العرب والمسلمين، وسعوا حثيثاً من أجل تحريرها، وتطهير الساحل الشامي كله من الوجود الأجنبي.

---

(٤٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج ١٣، ص ٨٨، ٩٠.

(٤٩) ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص ٢١.

(٥٠) علي الدين هلال، **المرجع السابق**، ص ٦.

ثروات أهل مكة في عصر الرسالة

د. هاشم يحيى الملاح
عبد الواحد الرمضاني
كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

تمهيد

من المعروف أن مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، على طريق التجارة البري الذي يربط بين اليمن وكل من الشام والعراق. وقد فرض هذا الواقع على أهل مكة أن يعتمدوا في معاشهم على التجارة وخدمة زوّار بيت الله الحرام في موسم الحج وغيره من المواسم.

ولم تكن موارد أهل مكة من التجارة قبل القرن السادس للميلاد كبيرة، لأن التجار كانوا يفضلون استخدام الطريق البحري الذي يربط اليمن ببلاد الشام عن طريق البحر الأحمر أو طريق الخليج العربي الذي يربط تجارة الهند بكلٍ من العراق والشام. ولكن تزايد حدة الصراع بين الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ووقوع اليمن تحت حكم الأحباش (حلفاء البيزنطيين) تارةً وحكم الساسانيين تارة أخرى، جعل أصحاب التجارة يفضلون نقل بضائعهم عبر طريق القوافل التي تمر بمكة لأنه أكثر أمناً بالنسبة لهم.

وقد استطاع أهل مكة أن يستفيدوا من هذا التحول في تحسين أوضاعهم الاقتصادية وتنمية ثرواتهم عن طريق التعامل مع أصحاب هذه القوافل والدخول بصفة (وسطاء تجاريين) لتصريف البضائع المجلوبة من بلاد الهند والحبشة، أو القادمة من بلاد الشام لبيعها في الأسواق العربية مقابل شراء بعض السلع العربية كالجلود والتمور والحبوب وغيرها لبيعها للتجار الأجانب.

وقد استفاد أهل مكة من موقع مدينتهم «المقدّس» في توفير الحماية للقوافل التجارية التي يتعاملون معها عن طريق عقد اتفاقات مع شيوخ القبائل التي تمر بحماها تلك القوافل مقابل قيام أهل مكة باستضافة واكرام أبناء هذه القوافل لدى قدومهم إلى مكة في موسم الحج باعتبارهم أهل الله وحماة بيته الحرام.

إضافة إلى ما تقدم، فقد ساعد السلام الذي يسود خلال الأشهر الحرم، وتوجه الحجيج إلى مكة على قيام أسواق تجارية موسمية بالقرب من مكة هي أسواق عكاظ وذي المجاز ومجنة.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن أبناء عبد مناف (هاشم وأخوته) قد نجحوا في الحصول على عهود من حكام الشام والعراق واليمن والحبشة بالسماح لهم في المتاجرة ببلادهم، مما ساعد أهل مكة عل تنظيم قوافل تجارية خاصة بهم للمتاجرة مع هذه البلدان، وقد أشار القرآن الكريم إلى قيام قريش بتنظيم رحلة الشتاء والصيف بين اليمن وبلاد الشام[1].

وقد شجّع أهل مكة شيوخ القبائل العربية التي تمر قوافلها التجارية بديارهم على توظيف بعض أموالهم في هذه القوافل كي تكون لهم مصلحة في حمايتها. وقد دعيت هذه الاتفاقات التجارية، وكذلك الاتفاقيات التي عقدت مع حكام البلاد المجاورة بـ «الايلاف»[2]، وقد ضمنت هذه الأحلاف لأهل مكة الأمن والسلام ولتجارتهم الحماية والازدهار.

إن الظروف الآنف ذكرها قد دفعت معظم أهل مكة للاشتغال بالتجارة فمن لم يكن تاجراً لم يكن عنده شيء[3]، وذلك لأن

(١) سورة قريش، آية، ١، ٢.
(٢) كستر، م، ج، **الحيرة ومكة**، ترجمة د. يحيى الجبوري، بغداد ١٩٧٦، ص ٤٤ ـ ٨٩.
(٣) العلي، د. صالح، **محاضرات في تاريخ العرب**، بغداد ١٩٦٠، ص ٩٨.

التجارة كانت كما ورد في الأخبار تمثل تسعة أعشار الرزق بالنسبة للمكيين[٤].

وهكذا، ما كاد القرن السادس الميلادي يقترب من نهايته حتى سيطر تجار مكة على القسم الأكبر من التجارة بين اليمن وسورية.

ولم تعد مكة في هذا الوقت مركزاً متقدماً للتجارة فقط، بل أصبحت مركزاً مالياً نشطاً[٥]، نظراً لتعامل تجارها بالعملات البيزنطية والساسانية واليمنية في شتى المبادلات التجارية والقروض والصيرفة وغير ذلك.

لقد عالجت العديد من الدراسات الحديثة الأمور التي عرض لها هذا التمهيد في إطارها العريض بصورة وافية[٦]، كما قامت بعض الدراسات الأخرى بتقديم صورة أكثر وضوحاً وتفصيلاً عن حياة مكة الاقتصادية وعلاقاتها التجارية[٧].

إن ما يطمح اليه هذا البحث هو العمل على استكمال بعض جوانب تلك الدراسات من خلال تقديم صورة محددة عن أصحاب الثروات الكبيرة ومقدارها ووسائلهم في ادارة وتنمية تلك الثروات، وعلاقة كل ذلك بحياة مختلف فئات المجتمع المكي، من النواحي الايجابية والسلبية، ومدى تأثير ذلك على الرسالة الإسلامية.

قيادة المجتمع المكي والتجارة

إن زمام القيادة في المجتمع المكي كان بيد مجموعة من رؤساء العشائر الذين يحترفون مهنة التجارة وكان يطلق عليهم وصف «رجال الملأ» وقد لوحظ أن هؤلاء الرجال كانوا بمثابة نقابة للتجار يتولون ادارة جمهورية تجارية[٨].

ويبدو أن هذا الوصف لا يبعد كثيراً عن الحقيقة، إذ كان هؤلاء الرجال يستمدون نفوذهم في المجتمع المكي من ثرواتهم المالية ومكانتهم العشائرية، إضافة إلى اهتمامهم بأمور المدينة العامة التي كانت تتمثل بصورة أساسية بالعناية بشؤون المسجد الحرام ورعاية الحجاج، والعمل على توثيق علاقات مكة الخارجية مع القبائل العربية وحكام الدول المجاورة لتأمين حركة القوافل التجارية وتحقيق الأمن لأبناء المجتمع المكي[٩].

ويظهر من دراسة أحوال مكة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، أن قيادة المجتمع المكي «الملأ» قد أفلحت في ادارة وتوجيه المجتمع وضمان الأمن والإزدهار الاقتصادي له وذلك لأن رجال الملأ ـ بحكم اشتغالهم بالتجارة ـ كانوا يتمتعون بتفكير عملي قبل كل شيء. لذا فقد وصف الملأ المكي بأنه كان «مجلساً حكيماً مسؤولاً أكثر من مجلس الانليزيا ـ الشيوخ ـ في أثينا»[١٠].

لقد كان من الطبيعي، على ضوء ما تقدم، أن ينجح رجال الملأ ومن يتعاون معهم من بقية التجار في مكة في تكوين ثروات كبيرة، غير أن المصادر التاريخية لا تساعدنا في تقديم معلومات محددة ودقيقة عن هذه الثروات. لذا سنحاول في النقاط الآتية جمع مختلف الإشارات والأخبار عن ثروات أبرز هؤلاء الرجال من أجل رسم صورة تقريبية عن حجم الثروات التي كانت متداولة في مكة في عصر الرسالة.

أبرز أصحاب الثروات في مكة

كان أبرز أصحاب الثروات في مكة:

١ ـ عبد المطلب بن هاشم

وهو جد الرسول (ص) الذي تولى كفالته بعد موت أبيه عبد الله. وكانت بيده السقاية والرفادة. ومن مآثره حفر بئر زمزم[١١] والتفاوض مع ابرهة الحبشي حين قدم لغزو مكة. فقد

(٤) العلي، صالح احمد، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ٩٨.
(٥) وات، مونتغمري، **محمد في مكة**، تعريب: شعبان بركات، بيروت، ص ١٨ ـ ١٩.
(٦) يراجع على سبيل المثال:
أ ـ العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**.
ب. علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٩٧٨، ج ٧.
جـ. الأفغاني، **اسواق العرب**، دمشق، ١٩٦٠.
د ـ وات، **محمد في مكة**.
(٧) يراجع على سبيل المثال كتاب: كيستر، م، ج، **الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية**.
(٨) الأفغاني، سعيد، **اسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، دار الفكر بدمشق، ط ٢، ١٩٦٠، ص ١٠٩ نقلاً عن لامانس، مجلة المشرق سنة ١٩٣٦، ص ٩٣٥.
(٩) العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ١٠٨ ـ ١١١.
(١٠) وات، **محمد في مكة**، ص ٣٠.
(١١) الطبري، **تاريخ الرسل**، مصر ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٥١.

ذكر ابن هشام ان عبد المطلب حين قدم لمقابلة أبرهة قيل لأبرهة: «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة وهو يطعم الناس في السهول والوحوش في رؤوس الجبال» وقد استقبل أبرهة عبد المطلب بكل حفاوة وأعاد إليه ابله (المائتين) التي كان قد استولى عليها وهو في طريقه إلى مكة[12]، والتي يمكن أن تقدر قيمتها بعشرة آلاف دينار ذهبي أو مائة ألف درهم فضي[13]، وربما كان مما يساعد على ايضاح مقدار ثروة عبد المطلب اضافة الى ما تقدم أن نورد خبراً مفاده «أن عبد المطلب أمهر امرأته فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب»[14] والتي يمكن أن تقدر قيمتها بأكثر من أربعين ألف دينار أو بأكثر من أربعمائة ألف درهم[15]، وعلى الرغم من أن هذا الرقم قد لا يخلو من مبالغة إلّا أنه لا يخلو أيضاً من دلالة في هذا المجال.

كما أورد ابن النديم «أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم، فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان ابن فلان الحميري من أهل وزل (صنعاء)، عليه ألف درهم كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والملكان»[16].

٢ ـ العباس بن عبد المطلب

وكان أحدث أبناء عبد المطلب سناً، وإليه انتهت وظيفة السقاية في مكة[17] وقد عدّ من جملة المطعمين من قريش فكان ينحر الابل في موسم الحج ويصنع منها طعاماً لإطعام الحجاج[18]. ورغم أنه لم تصلنا نصوص تاريخية تساعدنا على التعرف على مقدار ثروة العباس إلا أن ما ورد من أخبار يكفي لتأكيد أنه كان غنياً، فقد ذكر أنه «كان ذا مال كثير متفرق في قومه»[19]، وأنه كان غنياً،فقد كان يقرض الناس بالربا قبل أن يحرمه الإسلام، لذا فقد روي أن الرسول (ص) قال في الخطبة التي ألقاها في حجة الوداع: «الا وأن كل ربا الجاهلية موضوع كله وأول ربا ابتدىء به ربا عمي العباس ابن عبد المطلب (لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون)»[20].

وقد روي أن الرسول (ص) طلب من العباس حين وقع اسيراً بيد المسلمين في معركة بدر أن يفتدي نفسه وابني أخيه عقيل بن طالب ونوفل بن الحارث وحليفه عتبة بن عمرو الذين وقعوا معه في الأسر لأنه «ذو مال» وكان الرسول (ص) قد أخذ منه «عشرين أوقية من ذهب» غنيمة[21] وهي تساوي ٢,٥ كغم من الذهب وقيمتها ٥٩٠٠ درهماً فضياً.

٣ ـ عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)

وهم عم النبي (ص) وأكثر زعماء قريش عداوة للدعوة الإسلامية، لذا فقد خصّه القرآن الكريم وحده بالذم باسمه فقال: **﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب﴾**[22] ويفهم من نص القرآن الكريم أن أبا لهب كان غنياً، وكان شديد الاعتداد بهذا الغنى، ومع ذلك فليس بين أيدينا أي نص يحدد مقدار ثروته، وكل ما أوردته المصادر التاريخية اشارة إلى أن أبا لهب قد تخلف عن المشاركة في غزوة بدر، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ليقاتل عوضاً عنه مقابل التنازل له عن دَين كان له في ذمته مقداره أربعة آلاف درهم[23].

(١٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مصر، ١٩٥٥، ق ١، ص ٤٩.

(١٣) ومما يذكر ان سعر الجمل كان يقدر بـ (٥٠) ديناراً ذهبياً أي (٥٠٠) درهم فضي، انظر ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**.. شرح وتحقيق: محمود بن شاكر، القاهرة ١٣٨١ هـ، ج ٣، ص ٤٩.

(١٤) الحلبي، علي بن برهان الدين، **انسان العيون في سيرة الامين والمامون (السيرة الحلبية)** القاهرة ١٩٦٢، ج ١، ص ٥٠. الأفغاني، **اسواق العرب**، ص ١٠٨.

(١٥) ومن المعروف أن الرطل = ١٢ وقية والوقية = ٤٠ درهماً، أي أن الرطل = ٤٨٠ درهماً، أي = ١,٥ كغم، وبمعنى آخر أن مهر فاطمة بنت عمرو كان ١٥٠ كيلو ذهباً، ولما كان الدينار الشرعي = وزن مثقال من الذهب و= ٤,٢٣٣ غم فيكون وزن ١٥٠ كيلو من الذهب و= ٣٥,٤٣٥ الف مثقال من الذهب او ديناراً ذهبياً، فإذا أضفنا اليها ثمن ١٠٠ جمل وهو = ٥٠٠٠ دينار ذهب فيكون مهر فاطمة ٣٥,٤٣٥ + ٥٠٠٠ = ٤٠,٤٣٥ الف ديناراً أو = ٤٠٤,٣٥٠ ألف درهم فضي، انظر البلاذري، **فتوح البلدان**، نشر الأب انستاس الكرملي في كتابه **النقود العربية**، الجزء الخاص بالنقود، القاهرة ١٩٣٩، ص ١٠، وانظر فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ترجمة: كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠، ص ٣٠.

(١٦) ابن النديم، **الفهرست**، روائع التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٤، ص ٥، الأفغاني، أسواق العرب، ص ١٠٩.

(١٧) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، القاهرة ١٩٥٢، ج ٣، ص ٣١٣ ـ ٣١٤، وانظر، ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(١٨) ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، ص ١٦٤.

(١٩) المصدر نفسه، قسم ١، ص ٦٤٦.

(٢٠) ابن الربيع الشيباني، **تيسير الوصول إلى احاديث الرسول**، ج ١، ص ٦٩.

(٢١) **الطبري**، تاريخ، ج ٢، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٢٢) سورة اللهب، الآية ١ وما بعدها.

(٢٣) ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، ص ٦٠٩ ـ ٦١٠.

٤ ـ حكيم بن حزام

وهو من رجال الملأ البارزين، وكان قد دخل دار الندوة للمشورة، وهو ابن خمس عشرة سنة، وكانت العادة قد جرت ألّا يدخل هذه الدار إلّا من بلغ سن الأربعين[٢٤]. وقد أشير إلى أنه كان قد اشترى دار الندوة وبقيت عنده حتى باعها في زمن معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف درهم فلامه معاوية في ذلك، وقال: أبعت مكرمة آبائك وشرفهم؟ فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف درهم، وأشهدكم أن ثمنها في سبيل الله، فأيّنا المغبون[٢٥].

وكان حكيم بن حزام من المطعمين الذين ينحرون الابل في موسم الحج ويصنعون منها طعاماً للحجاج[٢٦].

وقد روي أن حكيم كان تاجراً واسع النشاط فكان «لا يدع سوقاً بمكة ولا تهامة إلّا حضره. وكان يقول: كان بتهامة أسواق أعظمها سوق حباشة، وكنت أحضره. وقال رأيت رسول الله (ص) حضر وأشتريت منه بزاً من بز تهامة، وقدمت به مكة»[٢٧].

ورغم أن حكيم بن حزام كان من رجال الملأ إلّا أنه لم يكن موافقاً على مقاطعة الرسول وبني عبد المطلب، لذا فقد كان يحاول أن يسرب لهم الطعام سراً[٢٨].

وقد روي أن حكيم بن حزام أهدى للنبي (ص) بعد صلح الحديبية «حلة ذي يزن، اشتراها بثلاثمائة دينار أو ما يساوي ثلاثة آلاف درهم تقريباً فردّها عليه رسول الله، وقال: إني لا أقبل هدية مشرك، فباعها حكيم، فأمر رسول الله (ص) من اشتراها له[٢٩]، ويذكر ان ابن سلام أشار في كتابه الأموال إلى أن قيمة الدينار زمن الرسول (ص) كان عشرة دراهم أو اثني عشر درهماً[٣٠].

وقد دخل حكيم بن حزام في الإسلام بعد فتح مكة، فعامله الرسول (ص) معاملة المؤلفة قلوبهم حيث أعطاه من غنائم حنين مائة بعير[٣١].

وتشير الروايات الى حسن إسلام حكيم وكثرة تصدّقه بالأموال في سبيل الله، فقد ذكر أنه قال للرسول (ص): «يا رسول الله، إني اعتقت في الجاهلية مائة رقبة، وحملت على مائة بعير، فهل ترى لي في ذلك أجراً... يعني ما فعل من ذلك في الجاهلية، فقال رسول الله (ص): أسلمت على ما مضى لك»[٣٢].

وتؤكد روايات أخرى أن حكيم بن حزام «حج في الإسلام، ومعه مائة بدنة قد جلّلها بالحبرة، وكفّها عن اعجازها، وأهداها، ووقف بمائة وصيف بعرفة، في أعناقهم أطواق الفضة منقوش فيها عتقاء الله عن حكيم بن حزام وأهدى ألف شاة»[٣٣]، وقد قدّرت بعض المصادر أن قيمة الفرد الرقيق كانت ستمائة درهما[٣٤]، فيكون قيمة ما أدى وأعتق حوالي مائة وعشرة آلاف درهم ما عدا الشياه.

٥ ـ عبد الله بن جدعان

كان ابن جدعان من رجالات قريش البارزين، ففي بيته عقد حلف الفضول «لشرفه وسنه» كما يقول ابن هشام[٣٥]. وقد روي أن الرسول (ص) قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدّعى به في الإسلام لأجبت»[٣٦].

ورغم أنه لم تصلنا التقديرات عن حجم ثروة عبد الله بن جدعان، فإن أهل الأخبار يذكرون أنه كان «واسع الثراء» ولم يبلغ أحد مبلغه في كثرة ماله بمكة، حتى ذكر أنه كان يأكل

(٢٤) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، ص ٣٥٤.
(٢٥) المصدر السابق، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥، ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، الهامش، ص ١٢٥.
(٢٦) ابن هشام، **السيرة**، ص ٦٦٥.
(٢٧) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٧١.
(٢٨) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٣٥٤.
(٢٩) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٣٠) ابن سلام، **كتاب الأموال**، صححه وعلّق عليه: محمد حامد الفقي، القاهرة ١٣٥٣ هـ، ص ٤١.
(٣١) ابن هشام، **السيرة**، ق ٢، ص ٤٩٣.
(٣٢) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٧٥.
(٣٣) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٥٦، وانظر، ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجازي، مصر، ج ١، ص ٣٦٣.
(٣٤) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٦٧.
(٣٥) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٣٣.
(٣٦) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٣٤.

بصحـاف مـن ذهب ويشرب بـآنيـة مـن فضـة وبكؤوس مـن البلور»(٣٧). كما تؤكد المصادر أنه كان مضيافاً كريماً(٣٨).

٦ ـ صفوان بن أمية

وهـو من رجـال المـلأ المكي، وزعيم بني جمـح، وكـانت إليـه الأزلام يستقسم بها أهل مكة إذا أرادوا أمراً من أمورهم(٣٩).

وقـد جاء في الحـديث عن ثروتـه وثروة أبيـه «أن صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه، أي صار لهما مال كبير، كأنه يوزن بالقنطار فهما من أسرة ثرية، ثقيلة الثراء»(٤٠)، وممـا يذكـر أن القنطار يساوي أربعمائة وثمانون ألف درهم»(٤١).

وكان صفوان من كبار المساهمين في تجارة القـوافل، لـذا فقد تضررت تجارته نتيجة حربهم مع الرسـول (ص) بعد هجـرته إلى المدينة وشروعـه باعتـراض طرق قـوافلهم الى الشام. وقـد عبّر صفوان عن ضيقه بهذا الواقع فقال: «إنّ محمـداً وأصحابـه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهـل الساحـل قد وادعهم ودخـل عامتهم معـه، فما ندري كيف نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هـذه ما لنـا بها نفـاق، إنما نـزلناهـا على التجـارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة»(٤٢).

وقد حاولت قريش أن تغيّر طريق تجارتها عن طريق السـاحل وتسلك طريق العراق، فذكر الواقدي أن صفوان خـرج في قافلـة الشام عن هذا الطريق الجديد «فتجهز... وأرسل معه أبـو زمعة بثلثمائة مثقـال ذهب، نقر فضـة(*) وبعث معه رجـالاً من قريش ببضائع.... وخرج صفوان بمال كثير، نقر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم»(٤٣).

وقد تمكنت سرية زيد بن حارثة من الاستيلاء على هذه القافلة وذلك في أوائل السنـة الثالثـة للهجرة «عـلى رأس سبعة وعشرين شهـراً للهجـرة»(٤٤).... «وأفلت أعيـان القـوم وأسروا رجـلاً أو رجلين، وقدموا بالعـير على النبي (ص)، فخمسهـا، فكان الخمس يومئذ عشرين ألف درهم، وقسّم ما بقي على أهل السرية»(٤٥).

إن النص الوارد أعلاه يشير إلى أن قيمة البضائع التي كانت تحملها هذه القافلة لا تقـل عن مائـة ألف درهم، إذ من المحتمل أن يكون صفوان بن أميـة وبقية صحبـه في هذه القـافلة الـذين نجوا من الأسر، قد تمكنـوا من انقاذ بعض أمـوال القافلـة التي يسهل حملها كالنقود وبعض سبائك الذهب والفضة وغيرها.

وقـد استمر الصراع بـين الرسـول (ص) ومشركي مكة حتى نجـح الرسـول (ص) في فتح مكـة، ومنح الأمـان لأهلها، فـدخل صفوان بن أمية في الإسلام.

وقد روي أن الرسول (ص) استعار منه دروعاً وسـلاحاً قبـل غزوة حنين وكـان لا يزال مشركـاً فقال لـه: «يا أبـا أمية، أعـرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً، فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمـونة نؤديهـا إليك، قـال: ليس بهذا بـأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح»(٤٦).

وقـد عامل الرسول (ص) صفوان بن أميـة معاملـة المؤلفة قلوبهم عند توزيع غنائم معركة حنين فأعطاه مائة بعير(٤٧).

ويظهـر أن الرسـول (ص) كان يقتـرض منه بعض الأمـوال لتغطيـة الاحتيـاجـات العـامـة بعـد اسـلامـه، فقـد ذكـر أن الرسول (ص) استقرض من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضـه»(٤٨).

---

(٣٧) علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، بيروت ١٩٧٨، ج ٧، ص ٤٣٨.
(٣٨) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٢٤، ٦٣٥.
(٣٩) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١١١.
(٤٠) علي، جواد **المفصل في تاريخ العرب**، ج ٧، ص ٣٠٠.
(٤١) روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال القنطار اثنتا عشرة ألف وقية، انظر **تاج العروس** (قنطر) ج ٣، ص ٥٠٩. أي أن القنطـار = ١٥٠٠ كيلو أو = ٤٨٠,٠٠٠ ألف درهم.
(٤٢) الواقدي، **المغازي**، بيروت ١٩٦٦، ج ١، ص ١٩٧.
(*) النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضة (السبيكة).
(٤٣) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ١٩٨.
(٤٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٧.
(٤٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٨.
(٤٦) ابن هشام، **السيرة**، ق ٢، ص ٤٤٠.
(٤٧) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٤٩٣.
(٤٨) المقريزي، **امتاع الاسماع**، صححه وشرحه: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤١، ج ١، ص ٣٩٥، وانظر: عـلي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب**، ج ٧، ص ٤٤٣.

٧ ـ أبو سفيان بن حرب وقيادة قوافل مكة التجارية

وكان أبرز رجال الملأ المكي، وحامل راية قريش، «العقاب» في أوقات الحروب، وهو زعيم بني أمية.

وقد قاد المشركين في مقاومة الدعوة الإسلامية، حتى اضطر للاستسلام قبيل فتح مكة سنة ٨ هـ. وقبول الإسلام.

وتشير المصادر إلى أنه كان غنياً، وقد ظن أن هدف الرسول (ص) من دعوته للإسلام الحصول على الغنى أو الجاه، لذا فقد حاول مع بقية رجال الملأ مساومته على مبادئه، فقالوا له: «فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا»[٤٩].

ولم تصل إلينا معلومات عن مقدار ثروة أبي سفيان وإنما وصلت إلينا بعض المعلومات والتقديرات عن القوافل التي كان يقودها والتي تعبر عن مقدار ثروات مكة المستثمرة في التجارة وذلك لأن هذه القوافل كانت شركة يساهم في تمويلها معظم أهل مكة.

وكانت أعظم القوافل التي قادها أبو سفيان ووصلتنا عنها بعض الأخبار المفصلة هي تلك القافلة التي خرج المسلمون للاستيلاء عليها والتي كانت سبباً في نشوب معركة بدر في السنة الثانية للهجرة.

فقد روى ابن اسحاق أن رسول الله (ص) حين «سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم... قال: هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها»[٥٠].

وقد ذكر الواقدي أن هذه القافلة كانت مؤلفة من «ألف بعير، وكانت فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً، إلّا بعث به في العير، حتى ان المرأة لتبعث بالشيء التافه، فكان يقال: ان فيها لخمسين ألف دينار، وقالوا أقل، وإن كان ليقال إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص ـ أبي أحيحة ـ أما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف، فكانت عامة العير لهم، ويقال كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير، وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهب، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألف مثقال، وكان لأمية بن خلف ألفا مثقال... وكان لبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مثقال»[٥١].

وتشير المصادر الى أن أبا سفيان شعر بتهديد المسلمين لهذه القافلة قبل وقوعه بوقت مناسب فغيّر طريق القافلة واستطاع أن ينقذها من الأسر. كما أرسل من يبلغ قريش على وجه السرعة بأن قافلتهم في خطر وأن المسلمين سيستولون عليها ان لم يهبّوا لنجدتها[٥٢].

وكان طبيعياً أن يكون رد فعل قريش عنيفاً حين سمعت بالخطر الذي يتهدد قافلتها لأن جميع أهل مكة كانت لهم أموال في هذه القافلة.. لذا فقد تداعوا إلى حمل السلاح.. وقام الأغنياء بتجهيز الفقراء من أجل دفعهم للمساهمة في القتال «فمن كان لا قوة به فعندنا قوة تحمله وتقويه»[٥٣] على حد تعبير أحدهم، «ومشى نوفل بن معاوية الديلي إلى أهل القوة من قريش، فكلمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج، فكلم عبد الله بن ربيعة، فقال هذه خمسمائة دينار، فضعها حيث رأيت، وكلم حويطب بن عبد العزى، فأخذ منه مائتي دينار أو ثلثمائة، ثم قوى بها السلاح والظهر.. قالوا: وكان لا يتخلف أحد من قريش إلّا بعث مكانه بعيثاً»[٥٤].

وحين خسرت قريش معركة بدر اشترط الرسول (ص) على ذوي الأسرى الأغنياء أن يدفعوا فدية مقابل اطلاق سراحهم، وقد تراوح مبلغ الفدية بين الأربعة آلاف درهم والألف درهم. أما الفقراء من الأسرى فقد منّ عليهم وأطلق سراحهم ومن غير عوض[٥٥].

وأن مما له دلالة قوية في هذا المجال، أن نذكر أن قريش قد رصدت أرباح هذه القافلة بأجمعها لتنظيم حملة عسكرية تثأر بها للهزيمة التي أصابتها في معركة بدر. فقد ذكر الواقدي أن اشراف قريش مشوا إلى أبي سفيان بن حرب فقالوا له: «يا أبا سفيان، انظر إلى هذه العير التي قدمت بها فاحتبسها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشاً إلى محمد...»[٥٦]. وأشار إلى أنهم قد

(٤٩) ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، ص ٢٩٥.
(٥٠) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧.
(٥١) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨.
(٥٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢.
(٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٥٥) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ١٢٩.
(٥٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

قاموا ببيع أموال القافلة «فصارت ذهباً عيناً»[57] ووضعوا ارباحها في بيت أبي سفيان من أجل تجهيز الحملة الثأرية.

ويبدو أن أرباح هذه القافلة كانت توازي قيمتها. فقد ذكر الواقدي أن العير كانت «ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً»[58]. اي أن نسبة الربح كانت ١٠٠٪، وبذلك أصبح مجموع قيمة بضائع هذه القافلة بعد بيعها مائة ألف دينار أو ما بين مليون درهم أو مليون ومائتي ألف درهم.

وهكذا مضى أبو سفيان في قيادة صراع أهل مكة ضد الرسالة الإسلامية حتى أدركوا ألا قبل لهم بذلك، فأعلنوا قبولهم لسلطة الرسول (ص) والدخول في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة حينما تقدم الرسول (ص) على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة[59].

وقد أحسن الرسول (ص) معاملة قومه من أهل مكة فمنحهم الأمان وتألف قلوب زعمائهم من رجال الملأ فأعطى كل واحد منهم مائة بعير من غنائم غزوة حنين. وكان نصيب أبي سفيان وابنه معاوية مائتي بعير[60].

والحقيقة فإن محاولة حصر واستقصاء جميع أغنياء مكة تطول، ولكننا تحدثنا عن أبرزهم لإعطاء فكرة تقريبية عن أصحاب الثروات الكبيرة في مكة. كما وردت الإشارة لأسماء بعض كبار أغنياء مكة الآخرين وجانب من ثرواتهم في سياق البحث، وقد اكتفينا بذلك لعدم توفر معلومات كافية عن ثرواتهم لتفرد لهم عناوين خاصة بهم.

ومهما يكن من أمر، فإن بالإمكان تقدير عدد كبار الأغنياء في مكة بحدود العشرين شخصاً، وهم الذين تتردد أسماؤهم كثيراً في كتب السيرة النبوية باعتبارهم من رجال الملأ وأهل العداوة الذين خاصموا الرسول (ص) وتصدّوا لمقاومة الدعوة الإسلامية دفاعاً عن مصالحهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم[61].

وقد أشار القرآن الكريم إلى تكذيب هؤلاء الأغنياء للرسالة الإسلامية ووصفهم بأنهم مترفون وطغاة ومتكبرون في العديد من الآيات القرآنية نحو قوله:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾[62].

أهل مكة وتجارة القوافل

كان معظم أهل مكة يشتغلون بتجارة القوافل وإذا كان رجال الملأ وكبار الأغنياء قد قاموا بتنظيم القوافل الكبيرة وقيادتها، كما قدّمنا، فإن صغار التجار وغيرهم من أبناء مكة قد ساهموا في هذه القوافل أو عملوا في خدمتها حسب امكانيات كل منهم وظروفه وذلك لأن القوافل «كانت تنظم بصورة اجماعية، فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها، هذا إلى جانب عدد من التجار الذين يرافقونها»[63].

وتشير الأرقام التي أوردتها المصادر التاريخية عن عدد الرجال الذين كانوا يرافقون القوافل المكية التي حاول المسلمون التعرض لها بعد هجرة الرسول (ص) إلى المدينة أن عددهم كان كبيراً بالقياس إلى عدد سكان مكة، فقد ذكر أن عدد الرجال الذين كانوا برفقة القافلة التي خرجت سرية حمزة لمهاجمتها والتي كان يقودها أبو جهل بن هشام «ثلثمائة رجل». وكان عدد الرجال الذين يرافقون القافلة التي يقودها أبو سفيان والتي حاولت سرية عبيدة بن الحارث مهاجمتها «مائتي رجل». كما كان عدد الرجال الذين برفقة القافلة التي يقودها أمية بن خلف والتي خرج الرسول (ص) في غزوة بواط لمهاجمتها «مائة رجل»[64].

وكان عدد الابل التي تستخدم في هذه القوافل لحمل البضائع والرجال كبيراً. فقد رُوي أن عدد الابل التي استخدمت في القافلة التي يقودها أمية بن خلف والتي حاول المسلمون الاستيلاء عليها في غزوة بواط «ألفان وخمسمائة بعير»[65] اي أن

٥٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٠.
٥٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٠.
٥٩) ابن هشام، **السيرة**، ق ٢، ص ٤٠٢ ـ ٤١٨.
٦٠) ابن هشام، **السيرة**، ق ٢، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
٦١) العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٩.
٦٢) سورة سبأ، الآية ٣٤ ـ ٣٥.
٦٣) العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ٩٩.
٦٤) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ٩ ـ ١٢.
٦٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢.

ثمن جمال القافلة فقط حوالى ١,٢٥٠,٠٠٠ مليون درهم(*) كما كان عدد الابل في قافلة أبي سفيان التي حاول الرسول (ص) الاستيلاء عليها قبيل معركة بدر «ألف بعير»[٦٦].

ولم يكن عدد القوافل التي تخرجها مكة مقتصراً على قافلتين في السنة «رحلة الشتاء والصيف»، بل كان يتجاوز ذلك بكثير. ويبدو أن رحلة الشتاء والصيف هما الرحلتان الأساسيتان لأهل مكة.

ويظهر من دراسة الغزوات والسرايا التي وجهها الرسول (ص) للتعرض لقوافل مكة التجارية خلال السنة الثانية للهجرة أن عدد هذه القوافل قد بلغ الثمانية قوافل[٦٧] علماً أن هذه القوافل كانت تسير على طريق «الشام ـ مكة».. وليس من المستبعد أن تكون هنالك قوافل أخرى لم تشر إليها المصادر كانت صغيرة الحجم أو تعمل على طرق أخرى كالطريق الذي يربط مكة باليمن. مما يدل على كثرة وكثافة حركة القوافل التجارية التي تنطلق من مكة وتعود إليها محملة بالبضائع والنقود.

تجارة القوافل وعدد سكان مكة

ان ما تقدم حول عدد العاملين في تجارة القوافل المكية، يثير تساؤلاً مهماً حول العدد الاجمالي لسكان مكة في عصر الرسالة. ان الإجابة على هذا التساؤل ستساعد على تقدير نسبة العاملين في تجارة القوافل الى عدد السكان، ومدى كفاية رؤوس الأموال المتداولة في التجارة لاحتياجات الناس وتحقيق الرفاهية لهم، لو التزموا بمراعاة مثلهم العليا القائمة على التكافل والتعاون بين أفراد القبيلة والتي عبّر عنها أحد شعرائهم «مطرود بن كعب» بقوله:

والخالطون فقيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالكافي[٦٨]

ان المصادر التاريخية لا تقدم لنا اجابة مباشرة عن عدد سكان مكة، غير ان دراسة اعداد الرجال الذين شاركوا في حروب قريش ضد الرسول (ص)، وخاصة في معركة بدر، حيث دفعت قريش بجميع أبنائها القادرين على القتال إلى المعركة ومن دون مساهمة واضحة لحلفائها في هذا المجال، قد تساعدنا على تقدير عدد أهل مكة، ولو بصورة تقريبية.

لقد ذكرت المصادر أن عدد مقاتلي قبيلة قريش الذين خرجوا لقتال المسلمين في معركة بدر كان تسعمائة وخمسين مقاتلاً[٦٩]... فكم بقي في مكة من السكان إذا كان هذا العدد يمثل معظم الرجال القادرين على القتال، كما تؤكد المصادر[٧٠]؟

لو افترضنا أن معدل أعمار الأفراد في المجتمع المكي كان بحدود ٦٠ سنة، وأن المؤهلين لحمل السلاح والقتال هم الذكور الذين جاوزوا سن الصبا (١٥ سنة) تقريباً. فإن لنا أن نفترض أن عدد الذين خرجوا للقتال في معركة بدر كان يمثل حوالى ثلاثة أرباع الذكور من أهل مكة، وعليه فإن بالإمكان القول أن مجموع الرجال والصبيان في مكة كان بحدود الألف والخمسمائة.

ومن أجل تغطية أعداد الرجال الذين تخلفوا عن معركة بدر بسبب العجز أو المرض أو غير ذلك من الأسباب، فقد يكون من الملائم أن نرفع تقدير الذكور الى ألفين، ثم نضيف اليهم عدد النساء الذي قد يكون مقارباً لعدد الذكور وبذلك يصل مجموع سكان مكة من الذكور والأناث استناداً إلى معطيات المساهمين في معركة بدر إلى أربعة آلاف نسمة على أبعد تقدير، ومن ثم فهو لا يمكن أن يصل الى «أكثر قليلاً من خمسة آلاف نسمة كما ذهب الأستاذ وات»[٧١].

الوضع الاقتصادي في مكة وفئات المجتمع

إن القوة العامة في المجتمع المكي كانت تتألف بصورة أساسية من الرجال البالغين الذي قدّرنا أن عددهم قد تراوح بين ألف وألف وخمسمائة رجل، وكان معظم هؤلاء يشتغلون في تجارة القوافل، وهو عمل شاق محفوف بالمخاطر. لذا لم تستطع النساء المشاركة فيه بشكل مباشر.

لذا فقد عمدت بعض النساء الغنيات إلى الاتفاق مع بعض الرجال للخروج في أموالهن في القوافل، كما فعلت خديجة بنت خويلد حين اتفقت مع الرسول (ص) للعمل[٧٢] في تجارتها، أو أن

(*) حيث ان قيمة الجمل الواحد كانت تقدر بـ (٥٠٠) درهم.
(٦٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧.
(٦٧) ابن هشام، **السيرة**، قسم ١، ص ٥٩٠ ـ ٦٠٦.
(٦٨) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١٥٠، كستر، **الحيرة ومكة**، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٦٩) الطبري، **تاريخ الرسل**، ج ٢، ص ٤٢٣.
(٧٠) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٧١) Watt, M, **Islamic Political Thonght,** Edinbiurgh 1968. P. 3.
(٧٢) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

يساهمن في أموالهن في القوافل مقابل نسبة معيّنة من الأرباح. كما ذكر أن عبد الله بن أبي ربيعة كان يبعث بعطر من اليمن إلى أمه أسماء بنت مخرّمة أم أبي جهل، وكانت تضع العطور في قوارير وتزنها فتبيع نقداً أو ديناً، فإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب[٧٣].

وقد أشرنا في الصفحات السابقة الى أن رجال الملأ وكبار الأغنياء الذين كان عددهم بحدود العشرين شخصاً كانوا ينظمون ويقودون هذه القوافل، مما يفسح المجال أمامهم لتوظيف أموالهم واستثمارها بشكل أفضل من غيرهم، ويمكنهم من استغلال الآخرين وظلمهم في بعض الأحيان.

وقد أشار القرآن الكريم في معرض نقده لزعماء المشركين في مكة إلى مظاهر الظلم والغش والاستغلال التي كان يمارسها هؤلاء الزعماء في العديد من الآيات[٧٤].

ويبدو أن كبار أغنياء مكة كانوا يحاولون الهيمنة على تجارة القوافل واستثمارها لصالحهم، إذ كانت نسبة مساهمتهم في رؤوس أموال القوافل التي وصلتنا عنها بعض الأخبار عالية بحيث تتضاءل نسبة مشاركة بقية سكان مكة إليها حتى لتكاد أن تتحول إلى مساهمة رمزية. فكانت أكثر الأموال الموجودة في قافلة أبي سفيان التي حاول المسلمون الاستيلاء عليها قبل معركة بدر تعود لآل سعيد بن العاص وأمية بن خلف. وكانت معظم أموال القافلة التي استولت عليها سرية زيد بن حارثة تعود لصفوان بن أمية وأبي زمعة.

ويبدو أن الأسر الغنية في مكة «مخزوم، عبد شمس، جمح عبد الدار» كانت تحاول احتكار تجارة القوافل، ومن ثم فقد ذكر أن من أسباب مساندة قريش قبيلة كنانة حينما اعتدى أحد أفرادها على قافلة تجارية للنعمان بن المنذر في الشهر الحرام، ودخولها الحرب التي دعيت بحرب الفجار[٧٥] هو «خشية قريش وحليفتها كنانة، أن تخرج من يدهما التجارة»[٧٦]. لذا فقد توصل الأستاذ وات إلى أن حرب الفجار التي اندلعت «نتيجة لهجوم عن عمد قام به حليف لمكة على قافلة تتجه من الحيرة إلى اليمن عن طريق الطائف، وهذا يعني بلغة الاقتصاد أن المكيين كانوا يحاولون إمّا اغلاق هذه الطريق أو السيطرة عليها، حتى إذا ما انتصروا في الحرب بلغوا هدفهم الذي يطلبونه»[٧٧].

ولم تقتصر رغبة كبار تجار مكة على احتكار تجارة القوافل، بل حاولوا السيطرة على التجارة في داخل مكة، ومنع التجار اليمنيين من جلب البضائع من اليمن لبيعها في سوق مكة. فقد ذكر أن السبب المباشر لحلف الفضول هو أن رجلاً من زبيد (اليمن) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف «عبد الدار ومخزوماً وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص، وانتهروه فلما رأى الزبيدي الشر»[٧٨] راح يستنجد ببقية أهل مكة طالباً معاونته لاستيفاء حقه ممن ظلمه فتداعى رجال من بني هاشم وزهرة وبني أسد بن عبد العزى فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان[٧٩]، وتعاقدوا «وتعاهدوا على ألّا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلّا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته»[٨٠].

إن المغزى الذي يمكن الخروج به من دراسة حلف الفضول هو محاولة الأسر الغنية في مكة أن تخرج اليمنيين من تجارة الجنوب وحصرها في أيديهم. وهذا يفسر رد فعل بني هاشم وسائر العشائر التي ساهمت في تكوين الحلف، إذ لم يكن لهذه العشائر من «المال ما يمكنها من أن ترسل قوافلها إلى اليمن، بل كانت تستفيد من المفاوضة مع التجار اليمنيين في مكة، هذا ما يمكننا افتراضه، فإذا ما أصبحت القوافل المتجهة إلى اليمن بأكملها تحت سيطرة القبائل كعبد شمس ومخزوم فقدت القبائل الأقل شأناً جزءاً كبيراً من تجارتها، ولم تجد البضائع التي تحملها إلى سورية فيطلب إليها المشاركة في القوافل بالشروط التي يضعها التجار الموسرون فلا يترك ذلك لها سوى ربح ضئيل»[٨١].

إن ما تقدم يؤكد وجود تناقض في المصلحة بين كبار التجار في مكة وصغار التجار الذين كانوا يعملون في تجارة القوافل أو في تبادل البضائع في مكة والأسواق التي تنعقد في موسم الحج.

(٧٣) ابن سعد، **الطبقات الكبيرة**، مجلد ٨، ليدن ١٢٢١ هـ، ص ٢٢٠، جواد علي، نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٩٣.
(٧٤) سورة المطففين، الآية ١ ـ ٣.
(٧٥) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.
(٧٦) العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ٢٦٧.
(٧٧) وات، **محمد في مكة**، ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٧٨) علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، ص ١٠٨.
(٧٩) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١٨٣.
(٨٠) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٨١) وات، **محمد في مكة**، ص ٣٩.

ولكن كم كان عدد هؤلاء التجار؟ وما هو مقدار ثرواتهم؟...

ان المصادر التاريخية لا تقدم لنا معلومات محددة في هذا المجال، ولكن بالإمكان الافتراض أنهم كانوا يشكلون أغلبية أبناء العشائر المكية، ونظراً لأن ثرواتهم لم تكن كبيرة فإنه لم يرد ذكر لها في كتب التاريخ، غير أن بالإمكان العثور على بعض الإشارات عن مقدار ثروات بعض الأغنياء ممن دخلوا في الإسلام في كتب السيرة وندرج أدناه أهم الاشارات في هذا المجال.

١ ـ خديجة بنت خويلد

كانت خديجة بنت خويلد «تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم»(٨٢). وكان ممن عمل في مالها الرسول (ص) قبل زواجه منها، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أنها حين بلغها من صدق حديث الرسول (ص) «وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار»(٨٣). فوافق على العمل لديها وخرج في مالها بصحبة غلام لها يدعى ميسرة... «فباع سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلاً إلى مكة... فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف أو قريباً»(٨٤). ويبدو أن الرسول (ص) استمر في العمل في ادارة واستثمار أموال خديجة بعد زواجه منها... ولكن كتب التاريخ لا تزودنا بمعلومات عن كيفية ذلك... وهل كان الرسول (ص) يخرج في القوافل للمتاجرة بأموال زوجته أم يعهد بها إلى وكلاء يتاجرون بها مقابل نسبة معينة من الربح.

ويذكر أن خديجة قد وهبت زيد بن حارثة إلى الرسول (ص) بعد زواجه منها لخدمته. وكان زيد غلاماً قد اشتراه لها ابن أخيها حكيم بن حزام في سوق عكاظ بستمائة درهم(٨٥)، وفي رواية أخرى أنه اشتراه بأربعمائة درهم(٨٦).

ولم نعثر في المصادر التاريخية على نصوص تساعدنا على التعرف على مقدار ثروة خديجة بنت خويلد، لذا فإن بإمكاننا أن نفترض استناداً إلى الأخبار العامة حول غناها أنها كانت من أغنى نساء قريش، ولكن إذا قيست ثروتها بثروات كبار أغنياء مكة من الرجال، فربما كان من الصحيح أن نعتبرها من فئة التجار المتوسطين أو الصغار.

٢ ـ أبو بكر الصديق

لقد وصف أبو بكر الصديق (رض) بأنه كان «رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف»(٨٧).

وقد قدّرت ثروة أبي بكر حينما دخل في الإسلام بـ «أربعين ألف درهم»(٨٨) وهي ثروة متوسطة أو صغيرة إذا قيست بمعدل ثروات الأغنياء في مكة(٨٩). وقد ذكر أنه كرّس أمواله لخدمة الدعوة الإسلامية، إذ روى أنه اشترى سبعة من الرقيق المسلمين الذين كانوا يعذبون بسبب ايمانهم واعتقهم في سبيل الله، وكان من جملة هؤلاء رجلان هما بلال الحبشي وعامر بن فهيرة وخمسة نسوة(٩٠).

وحينما أراد الرسول (ص) الهجرة إلى المدينة، ابتاع أبو بكر راحلتين له وللرسول (ص) من حسابه الخاص وأستأجر دليلاً ليدلهما على الطريق(٩١) ولم تصلنا تفاصيل أكثر عن كيفية إنفاق أبي بكر الصديق أمواله في سبيل الدعوة، إلّا أنه قد روي عن الرسول (ص) أنه قال: «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر»(٩٢).

ويبدو أن ثروة أبي بكر قد أخذت في التناقص طوال الفترة المكية، ربما بسبب انشغاله بخدمة الدعوة وإهمال العمل التجاري، هذا إضافة إلى محاربة كبار تجار مكة له والعمل على الإضرار به وببقية المسلمين، فقد روي أن أبا جهل كان «إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهنّ حلمك ولنفيلن رأيك، ولنضعن

(٨٢) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٨٣) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ١٨٨.
(٨٤) المصدر نفسه، ق ١، ص ١٨٨.
(٨٥) ابن بكار، **جمهرة نسب قريش**، ص ٣٦٧.
(٨٦) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، بيروت، ١٩٦٠، ج ١، ص ٤٩٧.
(٨٧) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٢٥٠.
(٨٨) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ٣، ص ٩٦٦.
(٨٩) وات، **محمد في مكة**، ص ١٤٩.
(٩٠) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٣١٨ ـ ٣٩، ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ٣، ص ٩٦٦.
(٩١) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٧.
(٩٢) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ١، ص ٩٦٦.

شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنُكسدن تجارتك، ولنُهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به»[٩٣]. لذا فقد ذكر أن أبا بكر الصديق حينما هاجر إلى المدينة «احتمل ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه»[٩٤].

ويبدو أن أبا بكر لم يستطع أن ينمي ثروته بعد هجرته إلى المدينة بسبب حماسه في انفاق أمواله في سبيل الله، فقد أورد الواقدي أن أبا بكر الصديق ساهم في تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك بتقديم جميع ما يمتلك من مال، وكان مقداره «أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله (ص): هل أبقيت شيئاً؟ قال الله ورسوله اعلم»[٩٥]. لذا فقد ذكر أن المسلمين خصصوا له مرتباً سنوياً لتغطية نفقاته ونفقات عياله بعد توليه منصب الخلافة لأنهم وجدوا أنه ليس من الممكن الجمع بين واجباته كخليفة وبين عمله في التجارة، وكان مقدار هذا المرتب ستة آلاف درهم في السنة[٩٦].

٣ ـ عثمان بن عفان

دخل عثمان بن عفان في الإسلام على يد أبي بكر الصديق[٩٧]، وكان عمره آنذاك ٣٤ سنة، وهو ينتمي إلى عشيرة عبد شمس الغنية، إلّا أنه لم تصلنا أخبار عن ثروته ونشاطه التجاري في الفترة المكية، وكل ما وصلنا انه هاجر إلى المدينة ومعه «سبعة آلاف درهم»[٩٨] وهو مبلغ زهيد إذا قيس بمستوى ثروات أغنياء مكة.

ويستنتج من الأخبار أن ثروة عثمان قد نمت في المدينة نتيجة اشتغاله في التجارة، فقد أورد الواقدي رواية عن عثمان بن عفان يقول فيها: خرجت مع الرسول (ص) في غزوة بدر الموعد «ببضاعة إلى موسم بدر، فربحت للدينار ديناراً»[٩٩]. كما أورد الواقدي خبراً مفاده أن عثمان كان قد اشترى سبي بني قريظة مع عبد الرحمن بن عوف وباعه فربح نتيجة لذلك «مالاً كثيراً»[١٠٠].

ان هذه الأخبار المقتضبة لا توضح لنا كيف استطاع عثمان أن يجمع ثروة كبيرة في حياة الرسول (ص) مكّنته، كما تشير بعض المصادر التاريخية من شراء «بئر رومة» من يهودي بعشرين ألف درهم لصالح المسلمين[١٠١]. وكذلك تقديمه ألف دينار للرسول (ص) لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك[١٠٢]، وفي احدى الروايات التي قد لا تخلو من مبالغة انه «جهز ثلث ذلك الجيش»[١٠٣]، أو بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً[١٠٤].

٤ ـ عبد الرحمن بن عوف

دخل عبد الرحمن بن عوف في الإسلام على يد أبي بكر الصديق، وكان عمره ثلاثين سنة[١٠٥]، وهو من عشيرة زهرة الغنية، وترتبط بعض فروعها بعشيرة عبد شمس الثرية أيضاً. وقد وصف عبد الرحمن بن عوف بأنه كان تاجراً ناجحاً[١٠٦]، ولكن لم تصلنا معلومات محددة عن مقدار ثروته حين اسلامه أو عند هجرته إلى المدينة، وكل ما في أيدينا روايات عامة حول براعته في التجارة، نحو قوله عن نفسه: «كنت رجلاً مجدوداً في التجارة، ما بعت شيئاً قط إلّا ربحت فيه، ولقد كانت قريش تبعث بالأموال، وأبعث بمال، فلربما دعاني بعضهم إلى أن يخالطني بنفقته، يرد بذلك الجد في مالي، وذلك اني كنت كل ما ربحت، تحنثت به أو بعامته أريد بذلك ثراء المال والمحبة في العشيرة»[١٠٧].

ويبدو أن عبد الرحمن بن عوف كانت تربطه علاقات متينة وصداقات قوية مع بعض كبار أغنياء مكة ورجال الملأ فيها، فقد

(٩٣) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٣٢٠.
(٩٤) المصدر نفسه، ق ١، ص ٤٨٨.
(٩٥) الواقدي، **المغازي**، ج ٣، ص ٩٩١.
(٩٦) ابن سلام، **الأموال**، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٩٧) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٢٥٠.
(٩٨) البلاذري، **انساب الأشراف**، ج ١، ص ٢٦١.
(٩٩) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ٧٨٧.
(١٠٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢٣.
(١٠١) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ٣، ص ١٠٤٠.
(١٠٢) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٥١٨.
(١٠٣) الواقدي، **المغازي**، ج ٣، ص ٩٩١.
(١٠٤) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ٣، ص ١٠٤٠.
(١٠٥) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٢٥١.
(١٠٦) وات، **محمد في مكة**، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.
(١٠٧) ابن هشام، **السيرة**، ق ١، ص ٦٣١ ـ ٦٣٢.

أورد ابن اسحاق والواقدي أن «أمية بن خلف» كان صديقاً لعبد الرحمن بن عوف قبل اسلامه، وقد حاول انقاذه من القتل في معركة بدر عن طريق أخذه أسيراً إلّا أن بلالاً الحبشي لم يمكنه من ذلك وقتله بسبب ما لاقاه على يديه من اضطهاد وتعذيب(١٠٨).

وعلى الرغم مما تقدم، فقد تعرض عبد الرحمن بن عوف لأذى المشركين وتضييقهم بسبب إسلامه، فاضطر للهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة بعد أن أمرهم الرسول (ص) بذلك، ولم يصلنا أنه قد اصطحب معه شيئاً من المال في هجرته، لأن الرسول (ص) حين آخى بينه وبين سعد بن الربيع من أهل المدينة عرض عليه سعد أن يقتسم معه أمواله فشكره عبد الرحمن على موقفه الأخوي الكريم ورجاه أن يدله على السوق للعمل فيه لأنه امرؤ تاجر(١٠٩).

وتشير الأخبار الى نمو ثروة عبد الرحمن بن عوف في المدينة حتى لقد أورد الواقدي أنه قد حمل إلى الرسول (ص) مالاً لتجهيز غزوة تبوك مقداره «مائتي أوقية»(١١٠). من الفضة على الأرجح أي ما يعادل ٨٠٠٠ درهم.

ان ما تقدم يشير إلى أن هؤلاء المسلمين الأوائل، الذين عرفوا بالغنى، كانوا تجاراً صغاراً بالمقاييس التي كانت قائمة في مكة.

أما غيرهم من المسلمين فكان جلهم من الشباب والفقراء والموالي أو الرقيق، كما ضم المسلمون الأوائل بينهم مجموعة من النساء(١١١).

أهل مكة وملكية الأراضي

إن الصفحات آنفة الذكر قد أوضحت أن النشاط الرئيسي لأهل مكة كان يتركز في مجال تجارة القوافل وتبادل مختلف أنواع السلع عن طريق استعمال النقود مما يدل على تطور الاقتصاد المكي. ولكن المسألة الجديرة بالبحث هي، هل أن أهل مكة قد قصروا اهتماماتهم الاقتصادية على التجارة ولم يحاولوا استثمار أموالهم في الزراعة وملكية الأراضي الزراعية خاصةً وأن مناخ مدينتهم مكة لا يساعد على الزراعة..؟. إن معظم الروايات التاريخية توحي بأن الأمر كذلك بحكم تركيزها على نشاط قريش التجاري كما قدّمنا. غير أننا لا نعدم بعض الأخبار التي تؤكد اهتمام بعض المكيين بتوظيف أموالهم في الزراعة وملكية الأراضي في منطقة الطائف التي اشتهرت بملاءمة مناخها للزراعة. فقد ذكر البلاذري أنه «كانت للعباس بن عبد المطلب (رحمه الله) أرض بالطائف، وكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحاج، وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها»(١١٢).

إن هذا النص يدل على اهتمام قريش بملكية الأراضي الزراعية وعملهم على استثمار أموالهم فيها، بالإضافة إلى التجارة(١١٣). كما أنه يفسر لنا أسباب التعاون الوثيق بين أغنياء مكة وأهل الطائف في مقاومة الدعوة الإسلامية، فقد أورد الطبري رواية عن عروة بن الزبير، تذكر أن قريش لم تبعد عن الرسول (ص) حين دعاها للإسلام «وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال لهم، وأغروا به من اطاعهم، فأنصفق عنه عامة الناس فتركوه إلّا من حفظه الله منهم، وهم قليل»(١١٤). وهكذا فقد تولى أغنياء مكة المتحالفون مع أهل الطائف مقاومة الرسالة الإسلامية بحكم نفوذهم المالي والسياسي في المجتمع.

حدود الغنى والفقر في عصر الرسالة

ولكن ما هي حدود الغنى والفقر في تلك الفترة، ليس بين أيدينا معلومات عن حدود الفقر والغنى في هذا المجتمع، غير أن الآيات القرآنية التي أوجبت الزكاة على أغنياء المسلمين والأحاديث النبوية التي فسّرتها وأوضحت من هو الفقير والمسكين ومن هو الغني وما مقدار المال الذي تجب فيه الزكاة، ربما تساعدنا على تكوين فكرة تقريبية عن هذه المسألة (رغم أن هذه الآيات والأحاديث قد جاءت في المدينة) فقد ذكر أبو عبيد بن سلام في كتابه الأموال أن الفقير هو الضعيف الذي يستطعم(١١٥)،

(١٠٨) الواقدي، **المغازي**، ج ١، ص ٨٢ ـ ٨٣.
(١٠٩) الخزاعي، علي بن محمد بن مسعود، **تخريج الدلالات السمعية**، تحقيق: د. احسان عباس، بيروت ١٩٨٥، ص ٦٨٩.
(١١٠) الواقدي، **المغازي**، ص ٩٩١.
(١١١) العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٧، وكتاب، **محمد في مكة**، ص ١٤٧ ـ ١٦٠.
(١١٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، بيروت، ١٩٧٨، ص ٦٨.
(١١٣) لمزيد من التفصيل، انظر: نجمان ياسين، **تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ١٩٨٥ م، ص ٢٥ ـ ٢٦، ص ٥٩ ـ ٦٣.
(١١٤) الطبري، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٢٨.
(١١٥) ابن سلام، **الأموال**، ص ٦٠٣.

وبذلك يكون المسكين أسوأ حالاً من الفقير وان اشتركا في حالة العوز، وقد وردت أحاديث متعددة لتوضيح الحد الفاصل بين الغنى والفقر، فجاء في بعضها (أنه السداد، أو القوام من العيش وفي آخر أنه مبلغ خمسين درهماً وفي الثالث أنه الأوقية وفي الرابع أنه الغداء والعشاء)[116].

ويدل هذا في مجمل الأحوال على أن الفقراء كانوا مجموعة من المعدمين الذين لا يملكون شيئاً وفي أحسن الأحوال لا تتجاوز ملكيتهم الخمسين درهماً أو ما يعادل خمسة دنانير تقريباً.

ان مما له دلالة على المستوى الاقتصادي الذي كان سائداً في عصر الرسالة ان نلاحظ أن الإسلام قد أوجب على من يمتلك (٢٠٠) درهم فأكثر ويحول عليها الحول أن يدفع عنها زكاة إلى الفقراء مقداره ٢,٥٪ إلى خمسة دراهم[117].

الرسالة الإسلامية ومشكلة التفاوت في المستوى الاقتصادي في مكة

إن التفاوت الحاد في المستوى الاقتصادي بين الأغنياء والفقراء في المجتمع المكي، قد أدى إلى اختلال في القيم الاجتماعية السائدة بين الناس، وجعل من الضروري البحث عن حل لمعالجة ذلك الخلل بصورة جذرية.

وقد مثلت الرسالة الإسلامية بما قدمته من منطلقات اقتصادية واجتماعية في اطار الدعوة الدينية إلى توحيد الله تعالى في العبادة، ووحدة المؤمنين به على الأرض، الحل المناسب لمعالجة تلك الأزمة.

ويمكن تلخيص المنطلقات الاقتصادية والاجتماعية التي جاءت بها تلك الرسالة الإسلامية في النقاط الآتية:

١ ـ ان المال مال الله، وأن البشر مستخلفون للعمل فيه وانفاقه وفقاً لأوامر الله تعالى التي تقضي بمساعدة الفقير والمسكين واليتيم وذوي القربى وتزكية المال عن طريق التصدق والانفاق في سبيل الله[118].

٢ ـ ان جمع المال واستثماره ينبغي أن يتم بالطرق المشروعة بعيداً عن الغش والاستغلال، لذا فقد توعد القرآن الكريم بالعذاب أولئك الذين يغشون في الكيل والميزان ويأكلون أموال الناس بالباطل[119]. كما حرم الربا الذي كان شائعاً في التعامل في ذلك الوقت[120]، والذي يؤدي إلى مضاعفة مبلغ الدين «أضعافاً مضاعفة».

٣ ـ إن قيمة الفرد الاجتماعية ليس، كما تصوّر المشركون، في كثرة الأموال والأولاد، وإنما في الإيمان والعمل الصالح. لذا فقد سخر القرآن الكريم من تكبر وتعالي أغنياء مكة، وتوعدهم بالعقاب يوم القيامة **﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدّده، يحسب أن ماله أخلده﴾**[121]. كما استفزهم، وتحداهم لعمل الخير ـ الذي يلتقي مع قيمهم القديمة ـ بقوله: **﴿فلا أقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة فك رقبة، أو اطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾**[122]. مما يدل على أن أغنياء مكة الكبار قد تخلوا عن المثل العربية القديمة التي تدعو إلى الكرم والتضامن بين أفراد القبيلة وانصرفوا لرعاية مصالحهم الخاصة واشباع أنانياتهم الفردية التي تدعوهم لجمع المال وتكديسه والمفاخرة به[123].

وهكذا قدمت الرسالة الإسلامية الحل المناسب لتردي الأوضاع الاجتماعية التي نجمت عن تفاوت الثروات في المجتمع المكي بصورة حادة في اطار الدعوة إلى الوحدة الدينية والسياسية لأمة تقوم العلاقات بين أفرادها على أساس التعاون والتكافل.

(١١٦) ابن سلام، نفس المصدر، ص ٥٥٢.
(١١٧) الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، مصر ١٩٧٣، ص ١١٩.
(١١٨) راجع على سبيل المثال، سورة الحديد، آية ٧، سورة الحجرات، آية ١١ ـ ١٢، سورة الفجر، آية ١٦ ـ ٢٠، سورة الليل، آية ١٧ ـ ٢١.
(١١٩) سورة الرحمن، آية ٧ ـ ٩، سورة المطففين، آية ١ ـ ٥.
(١٢٠) سورة آل عمران، آية ١٣٠، سورة الروم، آية ٣٩.
(١٢١) سورة الهمزة، آية ١، ٢، ٣.
(١٢٢) سورة البلد، آية ١١ ـ ١٧.
(١٢٣) راجع على سبيل المثال سورة الأنعام ١٥١ ـ ١٥٢، سورة الاسراء: ٢٣ ـ ٣٧، وسورة الشعراء ٨٩.

الدولة الادريسية الهاشمية

ودورها السياسي والحضاري في المغرب

في عهدي الامامين ادريس الأول وادريس الثاني

د. صالح محمد فياض ابو دياك
كلية الآداب - جامعة اليرموك

بعد قيام الدولة الادريسية بزعامة الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في أقصى المغرب، كرد فعل ضد الخلافة العباسية ببغداد وامتداداً لمعركة الفخ[1] سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م، التي كان من نتائجها فرار ادريس بن عبد الله إلى أرض المغرب، وأخيه يحيى إلى أرض الديلم بخراسان. لكن الخليفة هارون الرشيد تمكّن من قتل يحيى، بينما نجا ادريس من قبضته وتمكّن من تكوين دولته في مكان ناءٍ في المغرب الأقصى[2] حيث الجبال العالية، والكثافة البشرية، والبعد عن دار الخلافة، ومحبة المغاربة لآل البيت[3]، كل هذا ساعده على تكوين دولته ذات الصفة الملكية الوراثية، البعيدة عن التشيّع والتي كانت نظرتها تتفق مع نظرة الفرقة الزيدية بالإمامة باجازة تعيين المفضول مع وجود الفاضل وهذا ما يتماشى مع نظرة أهل السنة[4]، فهي في نظر الكتاب الدولة الهاشمية[5]، وحكامها يلقبون بالفواطم نسبة إلى فاطمة الزهراء[6]، لكنها لا تنتمي إلى أيّ فرقة من فرق الشيعة، فهي لم تقم بدعاية مسبقة لها قبل تكوين الدولة مثلما حصل مع الدولة الفاطمية، ولم تتبنّ مذهباً معيناً من مذاهب الشيعة، وإنما يرجع تكوينها إلى الظروف السابق ذكرها التي عملت على تكوينها، وتشير الروايات التاريخية إلى أن ادريس هرب مع مولاه راشد إلى مصر ومكث فيها مدة ولم يغادرها إلّا عندما افتضح أمره. فاتجه الى المغرب ماراً بالقيروان[7] وتلمسان التي تعتبر بوابة المغرب الأقصى، ودخل مع مولاه راشد بعد أن اجتاز نهر ملوية الى بلاد السوس ومكث فيها مدة لكنه لم[8] يحقق مطلبه، فغادرها متجهاً إلى مدينة وليلي «Volubilis»، وكان اختياره لها مقصوداً حيث تسكن قبيلة أوربة ذات العدد الكبير والبأس الشديد، إلى جانب موقعها الحصين حيث يحيط بها سور روماني قديم، ويجاورها جبل زرهون العظيم[9]، مع توفر المياه والأشجار وخاصة شجر الزيتون، إلى جانب توسطها للمدن المغربية وهي

(١) مكان يقع بين مكة والمدينة، راجع، ابن الطقطقي، ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م، ص ١٩٠، الطبري ابو جعفر محمد بن جرير - تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف - مصر د - ت، ص ١٩٢.

(٢) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، دار احياء التراث العربي - بيروت ط٧ سنة ١٩٦٤ م، جـ ٢، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣) اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، جـ ٢ تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ط (٢) ١٩٨٣ م، ص ٥٥.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، جـ ٢، منشاة المعارف الاسكندرية مصر ١٩٧٩ م، ص ٤٢٢.

(٥) لقبال - موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تاسيسها الى منتصف القرن الخامس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩ م، ص ٢٧٠.

(٦) بسمية الحميري بإدريس بن ادريس الفاطمي، راجع، الحميري - محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق - احسان عباس، مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٥ م، ص ٤٣٤.

(٧) تشير بعض الروايات الى ان ادريس لم يدخل القيروان خشية من الأغالبة. راجع، سعد زغلول. تاريخ المغرب العربي، جـ ٢، ص ٤٢٦.

(٨) عبد العزيز - سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية د - ت، ص ٢٨٣.

(٩) العربي - اسماعيل (دولة الأدارسة) دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان ١٩٨٣ م، ص ٥٨.

المسماة اليوم بقصر فرعون. وبتأييد من أمير قبيلة أوربة أبو ليلى اسحاق بن محمد عبد الحميد(١٠)، الذي كان على مذهب المعتزلة بايعه أفراد القبيلة بعد أن عرفوا نسبه الشريف سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م، وكانت المبايعة بداية الدعوة العلوية بين القبائل المغربية من زناتة البترية، وزواغة، وزرارة، ولماية، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، ومسراتة(١١)، وبقية القبائل المغربية في المنطقة التي جاءته وفودها معلنةً طاعتها، عندها بدأ الامام ادريس يرسم خطى دولته، فقام بتأسيس حاضرة له لتثبيت سلطانه في المنطقة تحدوه الرغبة في توسيع نفوذه على حساب الدول المجاورة(١٢)، أملاً في اخضاع المغرب لسلطانه لتحقيق أحلامه في السيطرة على المشرق أو جزء منه ليعيد حق آبائه المسلوب. فالوثائق التاريخية تبين أن الأدارسة كانت لهم اتصالات وثيقة ومراسلات عديدة مع أهل افريقية ومصر، فقد أرسل الإمام ادريس الأول رسالة الى المصريين يدعوهم لطاعته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فالحمد لله رب العالمين لا شريك له الحي القيوم، والسلام على جميع المرسلين، وعلى من اتبعهم وآمن بهم أجمعين.

أيها الناس: إنّ الله بعث نبيه محمد ﷺ بالنبوة، وخصّه بالرسالة وحباه بالوصي، فصدع لأمر الله وأثبت حجته، وأظهر دعوته، وان الله جل ثناؤه ـ خصنا بولايته، وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعداً سيفي له به، فقبضه إليه محموداً لا حجة لأحد على الله ولا على رسوله ﷺ، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة، غذانا بنعمته صغاراً، وأكرمنا بطاعته كباراً، وجعلنا الدعاة إلى العدل القائمين بالقسط المجافين للظلم، ولم نمل ـ إذا وقع الجور ـ طرفة عين من نصحنا أمتنا والدعاء إلى سبيل ربنا، جل ثناؤه، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا، وانتهكوا حرمتنا، وأيتموا صغيرنا، وقتلوا كبيرنا، وأثكلوا نساءنا، وحملونا على الخشب، وتهادوا رؤوسنا على الأطباق، فلم نكل، ولم نضعف، بل نرى ذلك تحفة من ربنا ـ جل ثناؤه ـ وكرامة أكرمنا بها، فمضت بذلك الدهور واشتملت عليه الأمور، وربي منا عليه الصغير وهرم عليه الكبير(١٣).... ويبدو أنّه كان يهدف إلى تأليب المصريين على العباسيين وايجاد أنصار له لتكوين دولته فيها متى سنحت له الفرصة، وإلّا لما خصهم بالمراسلة دون غيرهم من أبناء المشرق، الذين قاموا باخفائه وتسهيل السبل اليه في الهروب عند افتضاح أمره(١٤).

أمّا بالنسبة للمغرب فقد قام بتجهيز الجيوش التي كان يقودها بنفسه إلى مختلف الأقاليم والمناطق المجاورة له قصد توسيع رقعة حكمه، ونشر الإسلام بين القبائل التي ما زالت على دين النصرانية أو المجوسية أو اليهودية أو الشرك، فبدأ بقبائل برغواطة التي عرف عنها الزيغ وانحراف العقيدة، والتي اتخذت من بلاد تامسنا موطناً لها، فاستولى عليها ووصل إلى شالة وبلاد (فازار)بالمغرب الأقصى، ثم توجه شرقاً إلى تلمسان فدخلها صلحاً بدون قتال سنة ١٧٣ هـ/ ٧٨٩ م(١٥) فأخضع قبيلتي مغراوة وبني يفرن الزناتيتين وأبقى محمد بن خزر المغراوي واليها السابق عليها. وبهذه السياسة الحربية الحازمة استطاع ادريس بن عبد الله أن يسيطر على الأقاليم الواقعة ما بين تلمسان غرباً ووادي أم الربيع، وجعلها مجالاً لنشر الدعوة الإسلامية بين سكان هذه المنطقة، إلى جانب اعتبارها سياجاً لحماية دولته من أعدائه، وعاد إلى مقره بمدينة وليلي في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م(١٦)، ووصلت أخبار انتصاراته الى المشرق التي ازعجت الخليفة هارون الرشيد، فعبر لوزيره يحيى البرمكي عن مشاعره بقوله: «إنّ ادريس بن عبد الله ولد علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي ﷺ، قد قوي سلطانه وكثرت جيوشه، وعلا شأنه... وفتح مدينة تلمسان وهو باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يملك الدار، وقد عزمت أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله... ثم أني فكرت في بعد البلاد، وطول المسافة،

---

(١٠) هناك روايات تاريخية تسميه (عبد المجيد)، راجع، العربي ـ اسماعيل، **دولة الأدارسة**، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١١) سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، جـ ٢، ص ٤٣٠، العربي ـ اسماعيل، **دولة الأدارسة**، ص ٦٤.

(١٢) العروي ـ عبد الله، **تاريخ المغرب، محاولة في التركيب**، ترجمة ـ ذوقان قرقوط، ط (١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٧ م، ص ١١١.

(١٣) حمادة ـ محمد ماهر، **الوثائق السياسية والادارية في الأندلس وشمال افريقية**، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت ط (١) ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ١٣٦، نقلاً عن،

Conde. I.A. **Histora de Ladominacion de les Arabes en Espana.** Paris, 1840, P. 115.

(١٤) سعد زغلول عبد الحميد، **المغرب العربي**، جـ ٢، ص ٤٢٤، العربي ـ اسماعيل، **دولة الأدارسة**، ص ٥٨، حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الاسلام**، جـ ٢، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(١٥) ابن الخطيب لسان الدين، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ـ أحمد مختار العبادي، ومحمد ابراهيم الكتاني، الدار البيضاء المغرب سنة ١٩٦٤ م، جـ ٣، ص ١٩٢، سعد زغلول عبد الحميد، جـ ٢، ص ٤٣٠.

(١٦) السنوسي محمد بن علي، **الدرر السنية في اخبار الدولة الادريسية**، ط ـ مصر سنة ١٣٤٩ هـ، ص ٤٥.

وتنائي المغرب عن المشرق ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب[١٧]... فأشار عليه وزيره بتدبير الحيلة لاغتياله، فأرسل له الخليفة هارون (١٧٠ هـ - ١٩٣ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م) سليمان بن جرير[١٨] الذي اغتاله بواسطة السم في ربيع الآخر[١٩] سنة ١٧٧ هـ/٧٩٣ م خوفاً من أن يستفحل أمره ويستولي على المغرب وافريقية، ومات بعد أن ترك زوجته كنزة بنت اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي حاملاً.

في هذه الفترة قام مولاه راشد بتدبير الأمور إلى أن وضعت كنزة حملها في ٣ من رجب ١٧٧ هـ/٧٩٣ م فكان ولداً شبيهاً بأبيه فسماه ادريس، وقام بتربيته والعناية به[٢٠]، وفي فترة الحمل والوصاية عليه أيام حكم راشد انفصلت بعض الولايات المغربية التابعة للدولة الادريسية لأسباب نجهلها.

وساءت العلاقات بين الأدارسة والأغالبة في القيروان بتونس، الذين أقطعهم الخليفة هارون الرشيد أرض الزاب بالمغرب الأدنى عام ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ليقفوا سداً أمام الأدارسة[٢١] والخوارج. أمّا الامام ادريس بن ادريس فلم يبايَع إلاّ بعد ما بلغ الحادية عشرة من عمره، بعد مقتل مولاه راشد سنة ١٨٦ هـ/٧٩٢ م، بتكليف ابراهيم بن الأغلب أحد البربر الذي اشترى ذمته بالمال، فقام[٢٢] بقتله وجزّ رأسه وأرسله الى ابراهيم الذي ظن بأنّ قتله سيؤدي إلى حدوث الفتن والاضطرابات في البلاد، ولكنّ شيئاً من هذا لم يحصل فسرعان ما عادت الأمور إلى مجراها بتعيين وصي جديد بدلاً منه، هو أبو خالد يزيد بن الياس العبدي الذي أخذ له البيعة مرة أخرى من القبائل المغربية والأقاليم التابعة للدولة يوم الجمعة في مستهل ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ/٧٩٢ م، وقيل يوم الجمعة في ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م. على نفس المنبر الذي أخذت عليه البيعة لأبيه من قبله في جامع مدينة وليلي، بعد أن خطب على المنبر خطبة بيّن فيها فضل آل البيت، مشيراً إلى منهاجه السياسي في التزام الحق، والأمر بالمعروف، وطاعة الإمام[٢٣]، وفعلاً طبق ما قاله فقد سار سيرة سلفه بنشر العدل واظهار الحق، فعظم شأنه وقويت شوكته بين القبائل، لكن رغم هذا فقد خرج عن طاعة الإمام ادريس الثاني بعد وفاة أبيه عدد من المناطق والأقاليم التابعة للدولة لغياب حكم الأئمة وكثرة الاضطرابات في البلاد، إلى جانب العلاقة العدائية بين الدولة والأغالبة، بسبب العداء الذي يكنّه العباسيون لهم مما انعكس على الأغالبة الذين وقفوا أمام توسعاتهم.

ووجد الإمام ادريس الثاني نفسه ملزماً في استرجاع ما فقد من امارته أيام حداثته، فأخذ يجهز الجيوش ويرسلها إلى مختلف المناطق لإعادتها إلى حظيرة الدولة، إلى جانب استكمال مهمة أبيه من قبله في نشر الإسلام بين المصامدة وسكان نفيس وأغمات سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م، الذين كانوا على الوثنية إلى جانب المسيحية واليهودية[٢٤].

ففي نهاية القرن الثاني للهجرة - التاسع الميلادي - خرج الإمام ادريس الثاني على رأس جيش كبير إلى تلمسان لمحاربة القبائل الصفرية من البربر، وقد أبدى من الشجاعة ما أثار اعجاب رجاله، ويذكر البكري ما قاله داود بن القاسم بن

(١٧) ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ط - فاس الحجرية سنة ١٨٨٥ م، ص ٨.

(١٨) اختلف المؤرخون في اسم سليمان بن جرير، فقال بعضهم، سليمان بن جدير وقيل سليمان بن جرير، كما اختلفت الروايات فيمن سمه، فقيل الشماخ الشماسي مولى المهدي الذي سقاه سماً أسقط أسنانه فمات من قوته، وقيل سليمان بن جرير الرقي. راجع، ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، **الحلة السيراء**، تحقيق - حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر مصر القاهرة ط (١) ١٩٦٣، ص ٥٢، عبد العزيز سالم، **تاريخ المغرب في العصر الوسيط**، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(١٩) اختلف فيمن دبر قتله من خلفاء بني العباس، فاليعقوبي يرى أن موسى الهادي هو الذي أمر باغتيال ادريس، علماً بأن وفاة موسى الهادي كانت سنة ١٧٠ هـ/ راجع، اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر بيروت د - ت، جـ ٢، ص ٤٠٥، عن وفاة موسى الهادي، راجع، ابن عماد الحنبلي، أبو فلاح عبد الحي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار احياء التراث العربي - بيروت د - ت، جـ ١، ص ٢٧١.

(٢٠) سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب**، جـ ٢، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢١) البكري أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، نشر - البارون دي سلان، الجزائر ١٩١١ م، ص ١٢١، حسن ابراهيم، **تاريخ الإسلام**، جـ ٢، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢٢) نسب محمد بن المقاتل العكي لنفسه مقتل راشد، فكذبه ابراهيم بن الأغلب وأرسل يخاطب الخليفة هارون الرشيد بقوله:

ألم ترني أهلكت بالكيد راشداً ... وانني بأخرى لابن ادريس راصد

فتاه أخوعك بمهلك راشد ... وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد.

راجع، ابن الخطيب، **أعمال الأعمال**، ص ١٦٣، السلاوي أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** - القاهرة ١٨٩٤ م، جـ١، ص ٦٨، عبد العزيز سالم، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص ٣٨٩.

(٢٣) السنوسي محمد بن علي، **الدرر السنية**، ص ٦٠، ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ م، جـ ٤، ص ٢٥.

(٢٤) السلاوي، **الاستقصا**، جـ ١، ص ٦٨.

اسحق بن عبد الله بن جعفر عنه، قال: «كنت مع ادريس بن ادريس في المغرب، فخرجت معه يوماً إلى قتال الخوارج، فلقيناهم وهم في ثلاثة أضعاف عددنا، فقاتلناهم قتالاً شديداً، فأعجبني ادريس ذلك اليوم، وجعلت أديم النظر اليه، فقال ويحك، لِمَ توالي النظر إليّ، قلت لخصال، أمّا أولها فإنك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقي فلا أجده، قال: ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقك لذهاب عقلك، قال، قلت: والثانية، لما أرى من منتك قال أنّ النبي ﷺ، صلى علينا قلت: والثالثة، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة...»[25].

وبالجملة فقد تمكن من تثبيت نفوذه في هذه الناحية، وبقي في مدينة تلمسان ثلاث سنوات، ينظم شؤونها، ويقضي على الخارجين عن طاعته من القبائل الضاربة حولها، قصد تأمين حدود دولته الشرقية من خطر الرستميين أصحاب تاهرت، وخض شوكة قبيلة[26] «نفزة» البربرية التي تعد من أقوى العصبيات التي تساند امامة تاهرت وتدافع عنها. لكن الرستميين تصدّوا لهذه الغارات، وقاوموهم بشدة، ولم يتركوا المجال للتغلغل في أراضيهم وأبوا الاندماج بدولة الأدارسة. ولعل هذا هو الذي دفع بالأدارسة أن يحولوا أنظارهم شطر الشمال ويتجهوا إلى المناطق الساحلية بالمغرب الأوسط ووادي شلف، فأنشأوا سوق حمزة (البويرة اليوم)، وسوق ابراهيم[27]، وغيرهما من الأسواق والمدن بعيدين عن الأراضي الرستمية، دون أن يتعرضوا إلى الأقاليم الداخلية التابعة لإمامة تاهرت، حتى لا يصطدموا بهم. ويظهر من خلال هذا التحول، أن الأدارسة سلكوا مع بني رستم سياسة حسن الجوار والمسالمة قصد منعهم من الوصول إلى الساحل خوفاً من نشر مبادئهم واتقاءً لشرهم. وبهذه السياسة والاجراءات الوقائية التي أتخذها ادريس الثاني لنفسه ودولته، انتظمت له طاعة أهل المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط[28].

ويشير صاحب الاستقصا عن نفوذه فيقول: (... واقتطع المغربَين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف)[29].

وأقلق هذا التطور السريع لدولة الأدارسة ابراهيم بن الأغلب صاحب افريقية الذي حكم البلاد من سنة (١٨٤ ـ ١٩٦ هـ = ٨٠٠ ـ ٨١١ م) وأزعجه انتشارها السريع في بلاد المغرب فأخذ يشنّع بصاحبها الإمام ادريس[30] الثاني، ودخل معه في صراع سلبي طويل، بحيث أصبح يهدد دولته في عقر داره، وقد تمكن بدهائه أن يؤلب عليه أصدقاءه، فأغرى وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري بالمال، ففارقه ودخل في طاعة بني الأغلب، فأرسل إليه الامام رسالة تهكمية وفيها بعض الأبيات الشعرية منها:

أبهلول قد شممت نفسك خطة
تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم من بعد داره
فأصبحت منقاداً لغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن الأغلب
وقدماً رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منّتك نفسك خالياً
ومنّاك ابراهيم شوك قتاد[31]

وبهذه التدخلات والاستفزازات من قبل بني الأغلب أصبح ادريس الثاني يرتاب من بعض أعوانه منهم أبو ليلى اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م الذي تواطأ مع الأغالبة.

وتشير بعض المصادر أن ابراهيم بن الأغلب قد عزم على قتله فنهاه أصحابه قائلين له: (اتركه ما تركك)[32]، ويذكر أنّ الإمام ادريس الثاني أرسل له رسالة يذكّره بقرابته من رسول الله ﷺ، وفي نهايتها أبيات من الشعر:

اذكر ابراهيم حق محمد
وعترته، والحق خير مقول
وادعوه للأمر الذي فيه رشده
وما هو لولا رأيه بجهول

(٢٥) البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، ص ١٢٣، ابن الخطيب، **الاعلام**، ص ١٩٨.

(٢٦) سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، جـ ٢، ص ٤٥٤.

(٢٧) ما زالت المدينتان قائمتين للآن، مشاهدات الباحث.

(٢٨) **الاستقصا**، جـ ١، ص ٧٥.

(٢٩) **الاستقصا**، ط الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٥٤ م، جـ ١، ص ١٥٥.

(٣٠) كان الأمير ابراهيم بن الأغلب يقدح في نسب ادريس الثاني، ويعلق صاحب كتاب **دولة الأدارسة** بأن قوله كان أوهى من خيط العنكبوت ونحن معه في هذا القول، أمّا جويتيه، فيقول أن من الطبيعي أن يكون المولود ذكراً، بمعنى لو جاء بنتاً كان من الممكن تدبير الأمر، لكننا لا نوافقه على قوله لأنه ليس بالضرورة أن يكون ذلك، راجع، العربي اسماعيل **دولة الأدارسة**، ص ٧٦ ـ ٧٧، هامش رقم (٣)، ص ١١٨.

(٣١) بونار ـ رابح، **المغرب العربي، تاريخه وثقافته**، الشركة الوطنية للطباعة والنشر الجزائر سنة ١٩٨١، ص ١١١.

(٣٢) حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، جـ ٢، ص ٢٢٥.

فــإن آثــر الــدنيــا فــإن أمــامــه
زلازل يــوم لــلـعـقــاب طــويــل[٣٣]

فكفّ عنه، ولكن يبدو أنّ الأغالبة لم يكونوا جادّين في القضاء على الدولة الادريسية لأنّهم رأوا فيها وسيلة لتثبيت سلطـانهم في القيروان يهددون بها خلفاء بني العباس فيما إذا حدث ما يشوب العـلاقات بينهمـا، ويظهر جلياً عندمـا أرسل الخليفـة العباسي المأمون للأمير أبي العبـاس[٣٤] بن ابراهيم بن الأغلب عقب وفـاة أخيه أبو العباس عبد اللـه سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م وخلعـه أخوه زيادة الله صك التولية في نفس السنة، الذي بموجبه تولّى زيـادة الله الأول الامارة[٣٥]، وبقي مخلصاً لدار الخلافة ببغداد حتى في ظروفها العصيبة، فلم يخرج عن ولائه للمأمون ابان اندلاع فتنة ابراهيم بن المهدي في بغداد، وقدّر له الخليفة اخـلاصه فشكـره عـلى موقفـه بعد انتهـاء الفتنة، إلاّ أنّ عـلاقة الـود ما لبثت أن تعـرضت لهزة عنيفـة حين حـاول المأمـون الانتقاص من شـأنه والتـدخل في شؤونـه لكن جهوده لم تكـلل بـالنجـاح، فقـد أراد مكافأة عبد الله بن الطاهر ـ الذي حقق له الظفـر على الأمـين ـ فـأسند إليـه ولاية مصر والمغـرب. وكتب إلى زيادة اللـه يـأمـره بالدعوة لعبد الله بن الطاهـر على منـابر المسـاجد[٣٦] بـافريقيـة، وبهـذا تفقد افـريقية استقـلالها الـذاتي وتصبح تـابعـة لمصر، فرفض زيادة الله طلب الخليفة ولم يفـرط بما حـافظ عليه والـده وأخوه.

ويصـوّر ابن الآبار غضب زيـادة الله حينمـا وصلـه رسـول الخليفة فيقول: (... وأمر ـ زيادة اللـه ـ بادخـال الرسـول عليه بعد أن تملأ من الشراب، وحلق شعره، ونار عظيمـة بين يـديه في كوانين، وقد احمرت عيناه، ثم قال: وقد علم أمير المؤمنين طاعتي له، وطاعة آبائي لآبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمرني الآن بالدعاء لعبد خزاعة، هذا والله أمر لا يكون أبداً)[٣٧]. وكتب زيادة الله رسالة إلى الخليفة يرفض فيها الأمر، ويخبره بـأنّه سيـدافـع عن حقوقه حتى لو أدّى الأمر إلى انـدلاع الحرب بينهمـا. وأرفق بالرسالة كيساً به ألفا دينار ادريسية[٣٨]، لذلـك لم يجد الخليفـة بدّاً من التخلي عمـا أمر بـه، متجاهـلاً ما ورد بـرسالـة الأمـير الأغلبي من خروج على المـألوف في مـراسلة الخلفـاء ورضي ببقاء الأمور على ما هي عليه بافريقية[٣٩].

ومجمل القول اتجـه الإمام ادريس الثـاني نحو الجنـوب بعد اخضاعه لمدينة تلمسان، فاستولى على شالة والسـوس لأهميتهما الاستـراتيجية والاقتصـادية حيث كـانت الأخـيرة تسيطـر عـلى الطرق التجارية المتجهة من الصحـراء نحو الشمـال والشرق[٤٠]، وأصبحت حدود مملكته تمتد من سلاسـل جبال الاطلس الأعـلى في جنـوب مراكش إلى درعـة التي تمثل منـاجم الـذهب، وبهـذا المعدن الثمين استطاع تنفيذ مشروعاته التوسعية ورفـع المستوى المعيشي لمواطنيه، كما ضمن لنفسه مـوانيء المحيط الأطلسي وثغر سبتة وطنجة المطلّين على المضيق تمهيـداً لدخـوله إلى الأنـدلس لكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق أهدافه[٤١].

أما فيما يخص العلاقات الدبلوماسية مع قرطبة، فالظاهر أنها بدأت طيبة في أول الأمـر لأن الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م) أمير الأندلس، أراد أن يستغـل فرصـة عداء الأدارسة للدولة العباسية، وأمراء القيروان، ولا سيما أن كلاً من الأمويين في الأندلس، والأدارسة في المغرب الأقصى، يشتركـون في عـداء بني العباس، فـرغب الحكم بن هشام في مـواصلة الإمـام الادريسي، وفاتحه في بناء علاقة طيبة ومتينة بين البلدين لمواجهة خصومهما الأغـالبة الـذين يهددون أمنهمـا، ويحاولـون تقليص نفـوذهما. وعـلى الرغم ممّـا تميزت بـه هـذه العـلاقـة من الـودّ والصداقة بين الأمير الأندلسي والإمام الإدريسي[٤٢]، والتي جـرى تـوثيقها بـواسطة سفـارة الحكم إلاّ أن أمد هـذه العلاقـة كـان قصيراً، فسرعان مـا تلاشت وبطـل مفعولهـا وتحولت إلى عـداء بسبب استقبال ادريس الثاني لعـدد من الفرسـان الأندلسيـين الفـارين من الأندلس سنـة ١٨٩ هـ/٨٠٤ م السـاخطـين عـلى الحكم بن هشام والذين يمثلـون النخبة الأرستقـراطية العـربية بقرطبة[٤٣].

(٣٣) حمادة ـ محمد ماهر، **الوثائق السياسية**، ص ١٣٧.
(٣٤) الباجي محمد المسعودي، **الخلاصة النقية في أمراء افريقية**، تونس ط ١٢٨٣ هـ/ص ٢.
(٣٥) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدا والخبر**، ط ـ بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ، جـ ٤، ص ١٩٧.
(٣٦) نفس المصدر، ص ١٩٧.
(٣٧) ابن الآبار، أبو عبد الله محمد، **الحلة السيراء**، نشر ـ موللر ـ فرانز ط ١٨٠٦ م، ص ٢٥٤.
(٣٨) يلفت نظره بأنه سيدعو للادارسة ويتحول عن بني العباس.
(٣٩) ابن خلدون، **العبر**، جـ ٤، ص ١٩٧.
(٤٠) العروي عبد الله، **تاريخ المغرب**، ص ١١١.
(٤١) اسماعيل العربي، **دولة الادارسة**، ص ١١٩.
(٤٢) ابن تاويت التطواني، **دولة الرستميين أصحاب تاهرت**، مدريد ١٩٥٧، جـ ٥، ص ١٦.
(٤٣) ابن ابي زرع، **روض القرطاس**، ص ١٤.

وبعد مجيئهم الى مدينة فاس مكسباً للإمام ادريس الثاني، الذي كان يشعر بالوحدة والعزلة منذ نعومة اظفاره بسبب وجوده بين رؤساء القبائل البربرية، الذين أخذ يرتاب منهم بعد توليه الحكم، ولذا نجده، لم يتوانَ في احتضان هؤلاء الفرسان، القادمين[44] من قرطبة أو القيروان، واسناد الوظائف السامية في الدولة اليهم، وجعلهم من بطانته، مما أوغر صدور زعماء البربر من وزرائه وندمائه الذين أحسّوا بفقدان امتيازاتهم، فمالوا إلى ابراهيم بن الأغلب، وانضم إليه وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري بمن معه من قومه، وتآمر معه أبو ليلى اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي الذي أحس به الإمام، فدسّ له من قام بقتله على يد وزيره مصعب بن عمير[45].

وأما الحدث الثاني الذي أثر على العلاقات بين فاس وقرطبة، فهو استقبال الإمام ادريس الثاني للمنفيين الربضيين[46] الأندلسيين على أثر فشل الثورة التي قاموا بها ضد الأمير الحكم بن هشام سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م، وكان معظمهم من المولّدين الذين أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع في المجتمع الأندلسي لشعورهم بالغبن بسبب وضعهم الاجتماعي والسياسي[47]، واستقر هؤلاء الوافدون في أول الأمر بين القبائل المغربية في جبال الريف القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وصادف هذا الحدث احتياج ادريس الثاني إلى سكان يعمّرون مدينته الجديدة ـ العالية، وتوسيع المدينة التي أسسها والده من قبل. ولهذا الغرض رحب الإمام ادريس الثاني بقدوم الربضيين المنفيين، وتشجيعهم على الإقامة في مدينته العالية ومدينة فاس[48]، ممّا أدّى إلى توتر العلاقات بين البلدين، وأصبحت تنذر بالانفجار والحرب، فقد أصبح الأمير الحكم بن هشام يخشى امتداد نفوذ الأدارسة إلى بلاده، أو تدعيم الثائرين عليه، ولهذا يعتقد أن خوفه دفعه إلى عقد هدنة مع الامبراطور الكارولنجي (شارلمان) ملك الفرنجة دامت حتى سنة ٨١٤ م، حتى يتمكن من حد الإنتشار العسكري والمذهبي العلوي في بلاد المغرب، ويعمل على منعه من العبور إلى أرض الأندلس هذا من جهة[49]، ومن جهة أخرى قام بمحاولة لتهدئة الوضع في الداخل، فكتب كتاباً إلى جميع عمّاله في إمارته يبيّن فيه أسباب ثورة أهل الربض ويشرح لهم ظروفها، طالباً منهم قراءتها على المنابر، والرسالة طويلة تقع في ثلاثين سطراً[50].

أما عن تنظيمات الدولة الادريسية، فقد قام الإمام ادريس الأول بتعيين أقاربه على الولايات المغربية التي خضعت لسلطانه، فعين أخاه سليمان بن عبد الله أميراً على تلمسان بالمغرب الأوسط، ومع رغبته في جعل ولاته من أقاربه إلّا أن زعماء قبيلة أوربة الذين ناصروه كان لهم نفوذ كبير في رسم وتنفيذ سياسته، ممّا جعل جهوده في تنظيم دولته غير واضحة رغم بذله جهداً كبيراً في سياسته الداخلية على حساب توسعاته العسكرية. وبعد وفاته في ربيع الآخر ١٧٧ هـ/٧٩٣ م وقيل ١٧٥ هـ/٧٩١ م تولّى الإمامة من بعده ابنه ادريس الثاني الذي قام بعدة أعمال على مختلف الأصعدة[51]، فمارس القضاء الذي كان فيه ملازماً للحق، جارياً على قانون الشريعة في الأحكام، لا يعدل عن الحق ولا ينحرف عن السنة، فكان يأخذ الجزية وزكاة الأموال حسب ما نصت عليه الشريعة، وكانت الغنائم التي تأتيه يقوم بتقسيمها إلى أربعة أخماس على المجاهدين، ويصرف الخمس فيما تحتاجه مرافق الدولة، وانتشر صيته بين الناس فتقاطرت الوفود من مختلف المناطق المغربية لبيعته والعيش تحت كنفه، ثم ترك القضاء، وعيّن بدلاً منه القاضي عامر بن سعيد بن محمد القيسي[52] الأندلسي الذي ترأس دار القضاء بمدينة وليلي، فكان يقضي بين الناس، ويقوم بتطبيق الشرائع والأحكام، وقد اختلف المؤرخون في مذهبه، فعده البعض مالكياً، وقيل أنه كان على

(٤٤) ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، تعريب ـ عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح، ط ـ إدارة الثقافة ـ د ـ ت، ص ٣٧، العربي ـ اسماعيل، **دولة الادارسة**، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٤٥) ابن خلدون، **العبر**، ط بيروت ١٩٦٨ م، ص ٥٢.

(٤٦) الربض كلمة عامية تعني الضاحية أو الحي والجمع ارباض، وعندما تسلم هشام بن عبد الرحمن الأموي زمام الحكم أعاد بناء القنطرة الرابطة بين قرطبة وضفة الوادي الكبير الجنوبية، حيث الأرباض الجنوبية، ولمّا تمت إعادة بنائها امتد العمران الى ضفة النهر الأخرى الجنوبية، وأنشىء فيها حي عرف بالربض، ونظراً لقرب هذا الربض من الجامع وقصر الإمارة ومن السوق أو الطريق الرئيسي للمدينة، فقد فضل أن يسكنها التجار والطلبة والفقهاء وأصحاب الحرف الأخرى، راجع، العبادي ـ أحمد مختار، **في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، د ـ ت، ص ١٣٠.

(٤٧) المقري التلمساني، **نفح الطيب بن غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق ـ احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨، جـ ١، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٤٨) الجزنائي ـ علي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، المطبعة الملكية ـ الرباط سنة ١٩٦٧ م، ص ٢٦.

(٤٩) L, Provensal, **Islam, Occident La Fandationde Fes**, T 1, Paris, 1948, P. 249، العبادي ـ أحمد مختار، **في تاريخ المغرب والأندلس**، سنة ١٣٨١ هـ/١٩٦٩ م، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥٠) حماده ـ محمد ماهر، **الوثائق السياسية**، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٥١) السنوسي، **الدرر السنية**، ص ٦٠.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٦٢ ـ ٦٣، العربي ـ اسماعيل، **دولة الادارسة**، ص ٧٧.

مذهب سفيان الثوري، وقيل على مذهب الأوزاعي الذي كان معمولاً به في المغرب والأندلس مع رأي الكوفيين قبل وصول مذهب مالك الذي حل محله، ويحتمل أن يكون عامر هذا مجتهداً مستقلاً لم يتقيد بمذهب[٥٣].

أما كاتبه، فكان أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الأنصاري[٥٤]، ووزيره عمير بن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم الذي كان من فرسان العرب، وسادتهم، وكان لأبيه دور بارز في حرب البربر بأفريقية والنصارى بالأندلس[٥٥]، يساعده في عمله وزير بربري اسمه بهلول بن عبد الواحد المطغري، السابق الذكر والذي التجأ إلى عند الأمير ابراهيم بن الأغلب بالقيروان عندما استقل عمير بن مصعب بالوزارة وعمل معه عدد ممّن استعان بهم الإمام ادريس الثاني في تسيير الأمور الدنيوية[٥٦].

أما على الصعيد العسكري، فقد قام الإمام ادريس بتقوية جيشه، واغداق الأموال على أتباعه من المشايخ والرؤساء، ومع هذا ظلت أجهزته العسكرية ابتدائية، تعتمد على الأسلاب والغنائم، وعلى الجزية والخراج[٥٧].

واصطبغ الجيش الادريسي بالصبغة القبلية، وكانت لديه قوات خاصة تقوم بحمايته وبنشر الأمن في ربوع دولته من العرب الوافدين عليه من القيروان وقرطبة[٥٨]، كما وفدت عليه جماعة من أنصاره ممّن كانوا يقيمون في العراق، وضاقت مدينة وليلي بالقادمين، فوجد نفسه مضطراً لبناء مدينة جديدة تتسع لهم، إلى جانب اقتناعه بعدم جدوى بقائه في هذه المدينة موطن قبيلة اوربة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى الضاربة حولها، ووقع اختياره هو وأهل مشورته على المكان الذي أقيمت عليه مدينة فاس زمن أبيه الإمام ادريس الأول، وأصبحت القبائل العربية القادمة من القيروان عاصمة الأغالبة بافريقية، ومن قرطبة حاضرة الأمير الحكم بن هشام الأموي تمثل نواة الادارة العربية التي ينشدها ليخرج بوساطتها من عزلته، ومن وصاية قبيلة اوربة عليه، وليخلق التوازن المطلوب بين العرب والبربر في امارته، وممّا يزيد هذه القبائل أهمية في نظره، أنها لا تنتمي كلها إلى قبيلة عربية واحدة، بل أنّها تنتمي إلى مجموعة من القبائل أهمها، الأزد، ومدلج، وبنو يحصب، والقيسية، والصدف وغيرهم[٥٩]، وكان قدومهم بداية سيل من الهجرات العربية من الأندلس وافريقية ساعده على ذلك الاضطرابات في الأندلس وافريقية، وثورات الجند في الأخيرة ضد حكام بغداد، ولعلّ في هجرتها تعبيراً عن رفضها لسياسة الأمويين والعباسيين، وتأييداً للعلويين. وقد سر الامام ادريس بقدومهم وأجزل لهم العطاء[٦٠].

أمّا عن منجزاته المعمارية، فقد جدد بناء سور تلمسان بعد أخذها صلحاً في أواخر عام ١٩٨ هـ/٨١٣ م وأوائل عام ١٩٩ هـ/٨١٤ م، وبنى جامعها وصنع بها منبراً كتب عليه «هذا ما أمر به ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين وماية»[٦١]. وأصلح أحوالها المعمارية والعسكرية.

أما عن تجديد بنائه لمدينة فاس فهناك أسباب عدّة دفعته لتجديد بنائها منها: أن تكون مكاناً لعبادة الله ومركزاً لنشر دينه كما جاء في خطبته قوله: اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها»[٦٢]. فلم تزل منذ بنيت دار علم وفقه وسنة، والجماعة بها قائمة، وقد أمها عدد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم فكانت وما زالت دار فقه وعلم وحديث ولغة، وفقهاؤها هم الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب.

أما الجانب السياسي فقد سلك فيه ما سلكه غيره من الحكام المسلمين عندما يتولى أحدهم الحكم، يشرع في بناء عاصمة له وفي ذلك اشارة الى تغيير في السياسة التي سوف ينتهجها الحاكم، إلى جانب موقعها المتميز الذي هو عبارة عن سهل فسيح يمتد ما بين جبل زرهون وجبل الحاجب (جبل زالغ)، وكان لاتساع رقعة المكان واعتدال الهواء وكثرة الماء فيه[٦٣]، وخصب

---

(٥٣) من اقطاب المذهب المالكي في المغرب، ابن زياد، والبهلول، وابن راشد، واسد بن الفرات الذي اتى بعدهم، اما الأندلس فكان أبرز علماء المالكية فيها هما زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس. راجع، الجزنائي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس** ـ المطبعة الملكية الرباط ١٩٦٧، ص ٢٠.

(٥٤) سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، جـ ٢، ص ٤٤٢.

(٥٥) عبد العزيز ـ سالم، **تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي**، ص ٣٩٠.

(٥٦) العربي ـ اسماعيل، **دولة الأدارسة**، ص ٧٧.

(٥٧) العروي ـ عبد الله، **تاريخ المغرب**، ترجمة ذوقان قرقوط، ص ١١٢.

(٥٨) جوليان ـ أندري شارل، **تاريخ افريقيا الشمالية**، ص ٥٦.

(٥٩) العربي ـ اسماعيل، **دولة الأدارسة**، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٦٠) السنوسي، **الدرر السنية**، ص٦١ ـ ٦٢، حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، جـ ٢، ص ٣٨٦.

(٦١) **الدرر السنية**، ص ٧٣.

(٦٢) راجع، الجزنائي، **جني زهرة الآس**، ص ٢٦، **الدرر السنية**، ص ٧٠، حسن ابراهيم، **تاريخ الإسلام**، جـ ٢، ص ٣٩٣.

(٦٣) حسن ابراهيم، **تاريخ الإسلام**، جـ ٢، ص ٣٨٧.

التربة، والقرب من نهر سبو بمياهه العذبة، والحمامات الساخنة المعروفة بحمة خولان المسماة اليوم بسيدي حرازم، مع توفر مواد البناء في هذه المنطقة، ووجود الثروات الطبيعية وما نتج عنها من ظهور صناعات متعددة إلى جانب ثروتها السمكية والحيوانية وموقعها على البحر المحيط[٦٤]، ونهر سبو الذي يمر بالمدينة فيربطها بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، حيث تقع المدينة عند ملتقى أكبر طرق القوافل في المغرب كله: الطريق القادم من الجريد عبر تلمسان متجهاً إلى المحيط الأطلسي، والطريق المتعرج الذي يخترق جبال الريف والمتجه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والأندلس، وأخيراً الطريق المار بمضايق سلسلة جبال الأطلس المتوسط والمتجه إلى سجلماسة ثم إلى الصحراء الكبرى[٦٥]. كل هذا كان حافزاً لتوسيع المدينة في المكان الذي بنيت فيه من قبل في عهد أبيه، وإن كان هذا الأمر مختلفاً فيه عند المؤرخين، كما اختلفوا في سبب تسميتها، ولهذا أثرنا عدم الخوض فيه، وفي تقسيمها وخططها مرجئين الأمر إلى بحث مستقل.

والواقع أنَّ أهمية المدينة لا تعود إلى ما فيها من مساجد وقصور وأسواق فحسب، بل إلى رسالتها الحضارية المتمثلة بالرسالة الإدريسية العلوية الهاشمية في بلاد المغرب الأقصى والمد الثقافي الذي حمله معهم المهاجرون من مدينتي قرطبة والقيروان، فالمناطق الواقعة ما بين الاطلسين ـ المتوسط والكبير ـ وما وراءهما ظلت منعزلة عن التيارات الحضارية الإسلامية التي وصلت إلى المغرب الأقصى وتركزت في الشواطىء المغربية التي كانت معبراً إلى البلاد التونسية، ورغم ذلك فإنها لم تنعم بالاستقرار لكثرة الثورات والاضطرابات التي قام بها الخوارج، وما نجم عنها من تخريب مادي. فكان الفضل في إقامة الدولة الإدريسية التي استبدلت المحبة بالخصومة في هذه المناطق، وعملت على نشر الإسلام واللغة العربية في المناطق الوسطى والجنوبية[٦٦]، وبعد وصول القبائل العربية من القيروان وقرطبة وغيرها من الأقطار وما صحبها من علماء وفقهاء ممّن هضموا القيم الإسلامية في الشرق وفي الأندلس، أمثال يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة (الموطأ) وغيره من العلماء الاجلاء من أصحاب مذهب مالك الذين استوطن قسم منهم مدينة الاسكندرية بمصر، والقسم الآخر رحل إلى عند الإمام ادريس الثاني واستقر بفاس، وغدت هذه القبائل وسيلة إشعاع لنشر الفكر الإسلامي واللغة العربية بين البربر حتى أصبح من السهل عليهم فهم النصوص الإسلامية وتقبل الأحكام الشرعية، وظهور علماء من البربر سهّلوا السبل في انتشار الدعوة الإسلامية وفهم أحكامها، وتعليم اللغة العربية لأبناء جلدتهم[٦٧]. وبرعوا في عملهم هذا مذهب أهل السنة وتمسكوا بمذهب مالك[٦٨] على الخصوص وهذا ما يدل دلالة واضحة على أنَّ الدولة الإدريسية العلوية الهاشمية كانت سنية المذهب بعيدة عن مذاهب الفرق الإسلامية الأخرى[٦٩].

والملاحظ أن العلاقات الثقافية بالمغرب والأندلس لم تتأثر بالخلافات السياسية، والدليل على ذلك ازدهار المذهب المالكي الذي اتخذ من القيروان قاعدة له، يشع منها على جميع انحاء المغرب ومن ضمنها الولايات التابعة للدولة الإدريسية، فكان لمدرسة القيروان تأثير كبير في مدارس الأندلس سواء الفكرية منها أو الفنية، فكانت المرحلة الأولى من عمر الدولة الإدريسية متأثرة بالعنصر القيرواني، ولكن فيما بعد انفتحت فاس على مختلف ألوان الحضارة الأندلسية، فكان مستشارو ادريس الثاني وقاضيه ووزيره منهم، وكان الربضيون المنفيون من المولّدين من أمهات اسبانيات، وأباء مسلمين معظمهم من المزارعين وأهل الحرف المختلفة ورجال العلم ممن تمثلت فيهم مظاهر الحضارة الأندلسية، فأعطوا للمدينة مظهراً جديداً يغلب عليه الطراز الأندلسي الجميل، سواء في الصناعات المختلفة أو في شكل الأبنية الجميلة ذات اللون الأبيض الناصع، أو في انشاء الحدائق المنزلية الجميلة، ويبدو هذا واضحاً في القسم الشرقي من مدينة فاس المسمّى بعدوة الأندلسيين، والذي ما زال أثره قائماً للآن[٧٠].

وأما مدينة العالية الواقعة في القسم الغربي من مدينة فاس والمسماة بالقرويين نسبة لمدينة القيروان، فقد انطبع الفن

---

(٦٤) سعد زغلول، **تاريخ المغرب**، جـ ٢، ص ٤٤٥.

(٦٥) العربي ـ اسماعيل، **دولة الادارسة**، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٦٦) جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، جـ ٢، ص ٥٨، سعد زغلول، **تاريخ المغرب**، جـ ٢، ص ٤٥٢، العربي ـ اسماعيل، **دولة الادارسة**، ص ١١٩.

(٦٧) المقري التلمساني، **نفح الطيب**، جـ ١، ص ٣٣٩، العبادي ـ أحمد مختار، **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص١٢٨ وما بعدها.

(٦٨) بسبب تعاطفه معهم مما عرضه الى الاضطهاد من قبل العباسيين. راجع، المودودي أبو علي، **الخلافة والملك**، تعريب ـ أحمد ادريس، دار القلم الكويت، ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م، ص ١٨٢.

(٦٩) **الدرر السنية**، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٧٠) راجع، المقري التلمساني، **نفح الطيب**، جـ ١، ص ٣٣٩، جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، جـ ٢، ص ٥٨، **الاسلام في المغرب والأندلس**، تعريب عبد العزيز سالم، محمد صلاح، ص ١٧٠ ـ العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص ١٢٨ وما بعدها.

المعماري فيها بطابع الفن الأغلبي بالقيروان، وبرزت التجارة فيها أكثر من غيرها، وتميّزت عدوة الأندلسيين بالمهن الزراعية والصناعية. أمّا عن العلاقات الثقافية بين مدينة فاس ومدينتي سجلماسة وتاهرت مقر الخوارج من الصفرية والأباضية في المغرب، فكانت مقطوعة تماماً(٧١).

وبعد، ان تناولنا في الحديث الجانب السياسي والحضاري للدولة، فإنّه يمكننا القول بأن عهد الإمام ادريس الأول يُعَدّ نواة التكوين للدولة، بينما يعد عصر ابنه الإمام ادريس الثاني عصر بناء وتكوين، فقد كان من مخططات الدولة الإدريسية السيطرة على المشرق، ولكنها حوصرت من قبل العباسيين عن طريق الأغالبة في القيروان، والرستميين في المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ، إضافة إلى ضعف قواها العسكرية واعتمادها على القوات البرية المكوّنة من القبائل البربرية، وعدم تملكها للأسطول مع توفر امكانية تكوينه، ووجود ثغور بحرية لها تقع على حوض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

والملاحظ أنّ الإمام ادريس الأول كان قد بدأ بتكوين حاضرة للدولة عوضاً عن مدينة وليلي البربرية وخاصة البدوية منها، وبتولي ابنه الإمام ادريس الثاني الحكم توافدت عليه القبائل العربية من القيروان وقرطبة وغيرها من الأماكن الأخرى فأحسن اليهم، وسلّمهم العديد من مناصب الدولة ممّا أوغر صدور البربر، فأصبح من اللازم عليه البحث عن مقر جديد للإمامة، فوقع اختياره على مدينة فاس الذي قام أبوه بتأسيسها فعمل على توسيعها حتى أصبحت رمزاً حضارياً وثقافياً وسياسياً، تمثل في نشر الاسلام واللغة العربية في المغرب، وأصبحت القبائل البربرية الضاربة حول المدينة تتكلم اللغة العربية، وتقاطرت الوفود العلمية صوب المدينة، وقصدها التجار بقوافلهم التجارية المحملة بمختلف البضائع والأمتعة، وأصبح أهلها على جانب كبير من الرخاء(٧٢)، إلى جانب تقدمهم العلمي. فهي لليوم تعد مناراً من المنارات العلمية في المغرب الكبير، ومركزاً حضارياً امتاز بحفظ التراث الحضاري للشعبين المغربي والأندلسي.

(٧١) عمد الامام ادريس الثاني إلى تأمين حدود دولته من ناحية الشرق ليمنع المد الخارجي الممثل بالدولة الرستمية القائمة في المغرب الأوسط، وقد استطاع بفضل جهود ابن عمه داود بن القاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر من القضاء على قبائل نفزة البربرية التي تعد من أقوى عصبيات القبائل البربرية التي اعتمدت عليها الدولة الرستمية وأصبحت المناطق الممتدة من السوس الأقصى بالمغرب إلى نهر شلف بالمغرب الأوسط (الجزائر) تحت سلطانه.

راجع، سعد زغلول، **تاريخ المغرب**، جـ ٢، ص ٤٥٥، العدوي أحمد ابراهيم، **بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي** القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٠٤.

(٧٢) راجع، الحميري، **الروض المعطار**، ط ٢ سنة ١٩٨٥، مادة فاس، ص ٤٣٤.

ضريبة العشور

د. حمدان عبد المجيد الكبيسي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

المقدمة

شكلت ضريبة العشور أحد موارد الدولة العربية الاسلامية المهمة، ذلك أن هذا المورد رفد بيت المال سنوياً بمبالغ مالية طائلة، وأسهم، ولو بشكل غير مباشر، في تسيير ادارة الدولة وتحقيق أهدافها.

يهدف هذا البحث إلى التركيز على نقطتين أساسيتين؛ هما: عشور الزرع والثمار، وعشور التجارة حصراً. ومن القراءات المتأنية للروايات التاريخية سوف نجد أن النهج الاقتصادي العربي الاسلامي أوجب العشور على انتاج أنواع محددة من الزرع والثمار التي تنتج في الأراضي التي اصطلح على تسميتها في الاقتصاد العربي الاسلامي بـ «الأراضي العشرية». وعلى الرغم من أن خلفية وأصول هذه الأراضي كانت على عدة أنواع، إلا أنها أخذت تسميتها هذه من مقدار الضريبة التي فرضت عليها. وإن هذا المقدار كانت له علاقة وطيدة بمواقف أهل تلك الأراضي من الدولة العربية الاسلامية، وكيفية انضوائهم تحت لوائها.

أما عشور عروض التجارة فقد جاء تحصيلها متأخراً نسبياً، قياساً على القسم الأول. وهي الأخرى اختلف مقدارها باختلاف عقيدة دافعها وانتمائه الوطني.

ومهما يكن الأمر، فإن هذا البحث سوف يميط اللثام عن أحد موارد بيت المال المهمة، ويظهر أن النهج الاقتصادي العربي الاسلامي استهدف ايجاد نوع من الموازنة بين من يملك، وبين من لا يملك، وعندئذ عمل على تضييق ما بينهم من فوارق، وفق مقاييس دقيقة، تتفق مع مصلحة جمهور المسلمين، ونهج الدولة وعقيدتها.

المبحث الأول: عشور الزرع والثمار

لقد تلمس النهج الاقتصادي العربي الاسلامي الأهمية الكبرى للتعاون والتآزر بين أفراد المجتمع، فأرسى أسسه باعتباره من أولى مقومات نجاح العمل الجماعي. لذلك بادر المسؤولون في الدولة العربية الاسلامية الى ارساء وتعميق أسس التعاون، ورسم سبله، وتحديد مجالاته. وعندئذ استطاع النهج الاقتصادي للدولة أن يضعف الأنانية الفردية، ويقوي الميل الاجتماعي الذي جبل عليه الإنسان، وبذلك اتجه نشاطه نحو تحقيق مصلحة المجموع[1].

ويتصف النهج الاقتصادي العربي الاسلامي باعتماده نسبياً على الضرائب المباشرة؛ مثل ضرائب الدخل على الأفراد، وبخاصة موارد الانتاج الزراعي. والمبدأ الذي تستند عليه هذه السياسة: هو مدى قابلية الفرد على الدفع، أي مقدار عائداته، أو موارده من الانتاج الزراعي الخاضع لدفع الضرائب المستحقة. وهو ما يمكن أن ندعوه الانتاج الكلي للفرد المسلم.

وبلا ريب، فانه مع استقرار الأمور في الدولة العربية الاسلامية، وتراخي حركة التحرير والفتوح نسبياً، أصبحت الأراضي الزراعية، بأنواعها المتعددة، تشكل المصدر الأساسي للضرائب التي ترفد موارد بيت المال، كما أنها كانت أكثر الموارد المالية انتظاماً وتدفقاً[2].

(١) يحيى بن آدم، **الخراج**، ص ٦٣.

(٢) الجهشياري، **الوزراء**، ص ٢٨١ ـ ٢٨٨. اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، جـ ٢، ص ١٦٩، قدامة، **الخراج**، ص ٢٤٠ ـ ٢٥١.

وهناك فرق بين الأراضي العشرية التي وجبت عليها ضريبة العشر، والتي ملكها العرب المسلمون، ودخلت تحت لواء الدولة العربية الاسلامية بدون قتال، وتولت إدارة ثابتة تابعة لديوان الضياع - أي ديوان الأملاك - أمر جباية العشر من هذه الأراضي[٣]، وبين الأراضي الخراجية التي انضوت تحت لواء الدولة عنوة وحرباً من جهة ثانية، والتي أمكن تحديد خراجها تبعاً لمقدار المحصول، وبنسبة مئوية تتفاوت بتفاوت خصب الأرض، وطبيعة مقدار الانتاج الزراعي، وطريقة سقيه، وبعده أو قربه من الأسواق والفرض، والتحوّل في قيمته الأساسية، وتدعى «المقاسمة»[٤]. أو على أساس وحدة الاستثمار التي تتغير بتغير المردود، أو ظروف العمل. وهذا ما يسمى بـ «حساب المساحة». فكانت الوسيلتان تستخدمان سواء بسواء، ولم تتغلب احداهما على الأخرى إلا في حالات نادرة[٥].

وتجبى العشور من الملكيات التي منحها الرسول ﷺ، أو الخلفاء، لبعض المواطنين المنتفعين، والتي سمّيت بـ «القطائع». وهي غير الاقطاع، ولو أنها من نفس الاشتقاق. إذ هي أرض محدودة المساحة تقطعها الدولة أو أحد المسؤولين فيها، من أملاكها، دونما تحديد، وبدون بدل. وفي الأعم الأغلب يتم المنح الى رجل مسلم يمارس فيها عملياً جميع امتيازات المالك، ولكنه في الوقت نفسه يتحمل أيضاً جميع أعباء المالك المسلم؛ ومنها أداء عشر انتاجه[٦]، وعليه أن يستثمرها، وإلا نزعت منه رقبة الأرض ومنحت لمنتفع آخر قادر على استثمارها. ويرى (أبو يوسف) أن هذا النوع من الأراضي كان يعامل على عشر انتاجه فيما إذا سقيت سيحاً، في حين كان يؤخذ نصف عشر ما سقي منها بالدلو والغرب والسانية[٧]، لمؤونة الدلو والغرب والسانية[٨].

وفي حالة اقطاع الخليفة من أراضي الخراج، وجب عليها الخراج إلا أن يصيّرها الامام عشرية. إذ من حق الخليفة أن يصير عليها عشراً، أو عشراً ونصفاً، أو عُشرين. وتشير الروايات التاريخية إلى أن الرسول ﷺ أقطع لأناس من مزينة، وأقطع الخلفاء من بعده لمن رأوا في اقطاعه صلاحاً[٩].

ويرى جمهور الفقهاء؛ أن مما يجب فيه العشر على ما يبقى في أيدي المزارعين، وليس على الخضر التي لا بقاء لها، ولا على الأعلاق، ولا على الحطب عشر[١٠].وأما ما يبقى في أيدي الناس؛ فيكال **بالقفيز**[١١]، ويوزن بالأرطال، فهو مثل الحنطة والشعير والذرة والرز والتمور والسمسم والعنب واللوز والبندق والجوز والفستق والزعفران والزيتون والكمون والبصل والثوم وما أشبه ذلك. فإذا بلغ الانتاج النصاب؛ وهو خمسة أوسق، أو أكثر، ففيه العشر، إذا كان يسقى سيحاً، أو سقته السماء. أما إذا سقي بغرب، أو دالية، أو سانية، ففيه نصف العشر، وإذا نقص عن خمسة أوسق لم يكن فيه شيء[١٢].

وقد تكون القطيعة أحياناً أرضاً واسعة المساحة نسبياً، وأحياناً أخرى محدودة المساحة[١٣]. وبذلك نرى أنها لا تشبه أبداً مصطلح «الاقطاع» في الغرب الأوروبي، الذي كان صاحبه حراً من كل ضريبة، وقادراً على ممارسة السلطة الادارية فيه، ومتمتعاً بامتيازات سياسية وعسكرية ومالية وادارية واجتماعية واسعة. ومهما يكن من أمر؛ فإن رقبة الأراضي العشرية، في النهج الاقتصادي العربي الاسلامي، لا تمت بصلة لديوان الخراج المكلف فقط بادارة وجباية ما يترتب من حقوق على الأراضي الخراجية.

ومن الأراضي الزراعية التي يجب فيها العشر: الأراضي الموات «غير المستثمرة» التي يأذن المسؤولون بالدولة لأحد أفراد المجتمع باحيائها[١٤]. وكانت الدولة قد شجعت مواطنيها على احياء الأراضي الموات، وحثتهم على استثمارها لئلا تبقى ثروة الأمة الطبيعية معطلة ولم تستثمر فيحصل هدر في اقتصاديات الدولة. على شرط أن يكون الاحياء في أرض لم يكن فيها أثر بناء

---

(٣) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٩.
(٤) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٠ و ٧٥.
(٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٢٥، و ٣٥ - ٣٦.
الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ١٤٧ - ١٤٨.
(٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٩ - ٦٠.
(٧) السانية: الناعورة. أو الناقة التي يسقى عليها من البئر (المنجد ص ٣٥٩). أو هي الحيوان يرفع بواسطته الماء من البئر أو النهر. (مسلم ٣/٦٧).
(٨) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥١. البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٥٥.
(٩) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٠.
(١٠) ابن آدم، **الخراج**، ص ١٤٦.
(١١) القفيز: مكيال يستعمل في العراق. (انظر: هنتز، **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ص ٦٦).
(١٢) ابو يوسف، **الخراج**، ص ٥١ - ٥٢ و ٥٦ و٧٠. زنجويه، **الأموال**، جـ ٣ ص ١٠٣٩. ابن آدم، **الخراج**، ص ١١٣ و١١٦. الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٣٠.
(١٣) ابن آدم، **الخراج**، ص ٧٧ - ٧٨.
(١٤) ابن آدم، **الخراج**، ص ٧٨.

ولا زرع، ولم تكن فيئاً لأهل قرية، ولا موضع مقبرة، ولا موضع محتطبهم، ولا مرعى دوابهم وأغنامهم، وليست بملك لأحد، ولا في يد أحد[١٥]. وإنما يؤخذ «العشر» من هذا النوع من الأراضي، لأن الشخص الذي منحت له هذه الأرض ملزم بتسويتها واصلاحها وتهيئتها للاستزراع، وحفر السواقي والأنهار، وبناء القناطر. وفي هذا مؤونة عظيمة[١٦]. أي أن مثل هذه الأعمال تتطلب نفقات كبيرة، وجهداً كبيراً. إلا أن الإحياء لا يكون مشروعاً إلا بإذن الإمام. قال الرسول ﷺ: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، وليس لعرق ظالم حق»[١٧]. وعن الزهري وسعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال على المنبر: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين»[١٨]. وهذا دليل على أن ملك الأرض مقيّد بالاحياء.

ويرى جمهور الفقهاء؛ أنه من أحيا أرضاً من أرض الموات وجب عليه دفع عشر انتاجه، إن سقي زرعه بالمطر، أو سقي غيلاً (سيحاً)، ولا يجوز أن يضرب عليه الخراج[١٩]. وقد جعل النبي ﷺ، على أرض اليمن العشر في السيح والمطر، ونصف العشر في الدالية، لمؤونة الدالية والسانية[٢٠].

ووفق سياقات النهج الاقتصادي العربي الاسلامي، اعتبرت الأراضي التي انضوت تحت لواء الدولة العربية الاسلامية سلماً أراضي عشرية. قال الرسول ﷺ: «من أسلم على شيء فهو له»[٢١]. ويروي (أبو يوسف)[٢٢]: أن كل أرض أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو غيرهم، فهي لهم، يؤدون عنها العشر، كما هي الحال: أرض المدينة، وأرض اليمن وغيرها.

وثمة حالة أخرى من الأراضي التي وجب في انتاجها العشر، هي الأراضي التي حررت، أو فتحت عنوة وحرباً، ورأى المسؤولون بالدولة ضرورة توزيعها على المقاتلين الذين أسهموا في تحريرها، أو فتحها، باعتبارها غنيمة، وقام هؤلاء المنتفعون باستثمارها، فعلاً. فحينئذ وجب عليهم أن يؤدوا عشر انتاجها إذا بلغ النصاب[٢٤].

وفي حالة من أحيا أرضاً مواتاً، مما كان المسلمون حرروها أو فتحوها، مما كانت في أيدي أهل الشرك عَنوة، وقسمتها الدولة بين الجند المقاتلين الذين أسهموا في هذا التحرير أو الفتح، وأخذت الدولة خمسها منها. فإن الجزء الذي قسم بين المقاتلين يصبح ضمن أراضي العشر، وإنَّ مستثمريها هؤلاء يؤدون عنها عشر انتاجها إن بلغ النصاب. أما الجزء الذي هو ضمن الخمس الذي أخذته الدولة، فإن كان جزء منه مواتاً (غير مستثمر) ومنحه الخليفة لأحد المسلمين فقام باحيائه واستثماره فيجب عليه فيه العشر، على شرط أن يكون سقيه من ماء بئر احتفرها فيه أو عين استخرجها منه، أو قناة استنبطها له. أما في حالة سقيه من مياه أرض الخراج؛ فيجب عليه دفع الخراج لا العشر[٢٥].

ويؤخذ العشر من الأراضي التي استصفيت من ممتلكات الساسانيين في العراق والمشرق، وممتلكات البيزنطيين في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية، والتي أصفى بها الخليفة نفوس بعض المقاتلين فمنحهم إيّاها، وعندئذ وجب عليهم أداء عشر إنتاجها[٢٦].

ولاعتبارات سياسية اكتفى الرسول ﷺ بأخذ العشر من مستثمري الأراضي الزراعية المحيطة بمكة المكرمة، على الرغم من أن المسلمين دخلوها عنوة، غير أن الرسول ﷺ رأى ألا يغنم أموال قريش وممتلكاتهم[٢٧]. وكان الرسول ﷺ قد ظهر على غير دار من مشركي العرب، مثل البحرين، واليمامة وغيرهما، وترك أرضهم في أيديهم يدفعون عنها العشر[٢٨]. وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أضعف (ضعّف) على بني تغلب الصدقة عوضاً عن الخراج والجزية[٢٩].

---

(١٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٣. ابن آدم، **الخراج**، ص ٨١.
(١٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٨.
(١٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٤. ابن آدم، **الخراج**، ص ٨٤ و٨٦ و٨٨.
(١٨) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٥. ابن آدم، **الخراج**، ص ٩٠ ـ ٩١.
(١٩) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٩، مسلم، **الجامع الصحيح**، جـ ٣، ص ٦٧.
(٢١) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٩، زنجويه، **الأموال**، جـ ٣، ص ١٠٤٨ ـ ١٠٤٩.
(٢٢) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٢٤ و٥٩ و٦٣.
(٢٣) **الخراج**، ص ٥٩ و٦٣ و٦٩.
(٢٤) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٣ و٦٩. ابن رجب الحنبلي، **الاستخراج في أحكام الخراج**، ص ٣١.
(٢٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٥ و٦٧.
(٢٦) ن. م، ص ٥٧.
(٢٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٨، قدامة، **الخراج**، ص ٢٦٧. ابن رجب الحنبلي، **الاستخراج في احكام الخراج**، ص ٣٠.
(٢٨) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٦٨.
(٢٩) ن. م، ص ٦٧.

وأخذ النهج الاقتصادي العربي الاسلامي بنظر الاعتبار الجهد المبذول في استثمار الأرض العشرية، ومقدار النفقات التي تتطلبها طريقة الري والانتاج. ففي ضوء ذلك تم تحديد مقدار ضريبة العشر المفروضة على الأراضي العشرية، إذ فرض فيما: «سقت السماء، أو سُقي غيلاً (أي سيحاً) العشر، وفيما سقي بالغرب (نوع من الدلو) نصف العشر»[٣٠].

والعشر يكون على الزرع دون المساحة، ويقترن العشر عادة بمقدار الانتاج الزراعي، وحالة السقي[٣١].

وتشير الروايات التاريخية الى أن ضريبة العشور تجب كذلك في أرض الخراج إذا أسلم مستثمرها، أو اشتراها المسلم. ففي هذه الحالة يجتمع فيها العشر والخراج معاً، ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر[٣٢]. فالخراج يقع على الأرض الخراجية، أما العشر فيجب على نصيب، أو وارد المسلم الذي استثمر الأرض الخراجية، لأن نصيبه هذا بلغ النصاب، فعندئذ وجب فيه العشر. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾[٣٣]. فأوجب الانفاق مما تنتج الأرض مطلقاً، سواء كانت الأرض خراجية أو عشرية، والوجوب هذا تم عند بلوغ الناتج النصاب. وبذا يتضح أن العشر والخراج حقان بسببين مختلفين لمستحقين، فلم يمنع أحدهما الآخر؛ لأن العشر وجب بالنص، فلا يمنعه الخراج الواجب بالاجتهاد[٣٤]، وذلك:

١ ـ إن الأرض الخراجية ليست ملك المسلم، وإنما هي ملك الأمة، لأنها فيء محبوس، لا ملك موروث.

٢ ـ ولدينا ما يؤكد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد جمع بين العشر والخراج وأخذهما من الرجل المسلم المستثمر لأرض خراجية. ذلك أن الخراج يُباين العشر؛ لأن الخراج «وجب عقوبة» بينما العشر «وجب عبادة»[٣٥].

٣ ـ ومعلوم أن العشر يفرض على انتاج الأرض، بينما الخراج يجب على الأرض نفسها، سواء زرعها مستثمرها أم أهملها، وبخاصة عندما يكون الخراج، خراج مساحة، كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[٣٦].

٤ ـ ويرى جمهور الفقهاء أن يلزم المسلم الذي استأجر أرضاً خراجية فزرعها، بدفع العشر عن نصيبه من الانتاج، إن بلغ النصاب. في حين يلزم صاحب الأرض الأصلي أن يدفع خراجها، لأن العشر حق الانتاج الزراعي الذي تخرجه الأرض[٣٧].

٥ ـ أما إذا استأجر الذمي أرضاً عشرية فزرعها، فليس على الذمي عشر ولا خراج، وليس على المسلم شيء في زرع لا يملكه. وإذا اشترى الذمي أرضاً عشرية فيلزم أن يدفع العشر المضاعف. وإن أسلم؛ عليه أن يدفع العشر فقط[٣٨].

ويرى (أبو يوسف) أن «كل أرض من أرض العشر اشتراها نصراني تغلبي فإن العشر يضاعف عليه، كما يضاعف عليهم في أموالهم التي يختلفون بها في التجارات»[٣٩]. والرجل والمرأة من بني تغلب سواء، لأن هذه الضريبة ليست على رؤوسهم، وإنما هي على أرضهم[٤٠]. في حين يرى (أبو حنيفة) ضرورة وضع الخراج على الأرض العشرية إن اشتراها رجل من أهل الذمة، سوى نصارى بني تغلب، وإذا رجعت رقبتها الى مسلم بشراء، أو أسلم النصراني الذي امتلكها، تعود اليها ضريبة العشر، وليس عليها شيء غير ذلك[٤١].

٦ ـ أما إذا زرع ذمي أرضاً عشرية، رقبتها لرجل مسلم، على أن يكون للأول نصيب معين من الانتاج الزراعي. فعلى المسلم عشر فيما يصيبه من الانتاج إن بلغ النصاب، وليس على الذمي شيء[٤٢].

(٣٠) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٢ و٥٩. البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، مسلم، **الجامع الصحيح**، جـ ٣، ص ٦٧.
(٣١) الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٣١.
(٣٢) ابن آدم، **الخراج**، ص ٢٤.
(٣٣) سورة البقرة، آية ٢٦٧. انظر: البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٤٣ مسلم، **الجامع الصحيح**، جـ ٣، ص ٦٦.
(٣٤) سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٣٥) ابن آدم، **الخراج**، ص ٢٤ و٣٠ و١٦٥.
(٣٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٣٦.
(٣٧) ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٠ و١٦٥.
(٣٨) ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٠.
(٣٩) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١.
(٤٠) ابن آدم، **الخراج**، ص ٦٧.
(٤١) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١. ابن آدم، **الخراج**، ص ٦٦.
(٤٢) ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٠.

الأصناف التي يُدفع عنها العشر

تحصر رواية (محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى) أخذ العشر من إنتاج الحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب فقط، مع مراعاة طريقة السقي[٤٣]. وأكدت ذلك رواية عمر بن عثمان عن موسى بن طلحة: أنه كان لا يرى وجوب دفع العشر إلا في الحنطة والشعير والتمر والزبيب، مستنداً الى كتاب النبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل حين أرسل الى اليمن لجباية عشر انتاج الأرض العشرية هناك[٤٤]. فرواية (ابن طلحة) هذه تؤكد أنه لا عشر في الخضر الرطبة والبطيخ والقثاء والخيار، وإنما العشر في النخل والحنطة والشعير والكرم[٤٥]. وأضاف (ابن عمر): أنه ليس في الخضر عشر[٤٦].

ويروي (قيس بن الربيع الأسدي) عن الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه قال: «ليس في الخضر عشر؛ كالبقل والقثاء والخيار والبطيخ وكل شيء ليس له أصل»[٤٧]. وكذلك قال الإمام أنس بن مالك[٤٨]. وقال (أبو يوسف) مخاطباً الخليفة هارون الرشيد: «ولست أرى العشر إلا على ما يبقى في أيدي الناس، ليس على الخضر التي لا بقاء لها، ولا على الأعلاق، ولا على الحطب عشر. والذي لا يبقى في أيدي الناس هو مثل البطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والبقول والرياحين وأشباه هذا، فليس في هذا عشر. وأما ما يبقى في أيدي الناس مما يكال بالقفيز، ويوزن بالأرطال؛ فهو مثل الحنطة والشعير والذرة والرز والحبوب والسمسم واللوز والبندق والجوز والفستق والزعفران والزيتون... والبصل والثوم وما أشبه ذلك»[٤٩]. ولا تحسب منه أجرة العمال ولا نفقة البقر إذا كان يسقى سيحاً أو تسقيه السماء. وإن كان يسقى بقرب، أو دالية، أو سانية، ففيه نصف العشر[٥٠].

ويرى (أبو يوسف)[٥١]: أنه لا يحق للامام أن يزيد العشر أو ينقص منه، وبخاصة الذي سبق أن فرض على أرض الحجاز، ومكة، والمدينة، وأرض اليمن وبقية أرض شبه جزيرة العرب التي ظهر عليها الرسول ﷺ في حياته لأنه شيء قد جرى عليه أمر رسول الله ﷺ وحكمه، فلا يسع الامام، ولا يحل له أن يحوله الى غير ذلك[٥٢].

وذهب جمهور الفقهاء الى أن العشر يجب في العسل، لأنه وإن لم يصح في إيجابه حديث، إلا أنه جاء فيه آثار يقوي بعضها بعضاً، لأنه متولد من نَوْر الشجر والزهر، ويكال ويدّخر، فوجب فيه العشر كالحب والتمر، ولأن الكلفة فيه دون الكلفة في الزرع والثمار. على أن يكون في أرض العشر[٥٣]. أما إذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء[٥٤]. وبعض الفقهاء (كأبي حنيفة) لم يشترطوا نصاباً له، فقالوا يؤخذ العشر من انتاجه سواءً كان قليلاً أم كثيراً. في حين اشترط فيه النصاب فقهاء آخرون (كأحمد بن حنبل)، وحدّدوا نصابه: من كل عشر قرب قربة[٥٥].

المبحث الثاني: عشور التجارة

منذ قيام الدولة العربية الاسلامية، بقيت علاقاتها التجارية مع الدول الأخرى قائمة، وعلى جانب كبير من الأهمية[٥٦].

ومن المؤكد أن التبادل التجاري لم ينقطع بين الدول العربية الاسلامية وبين الدولة البيزنطية. إذ نجد بعد عام ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م أن التبادل التجاري بين اقليم بلاد الشام وبين بيزنطة أصبح أوسع من ذي قبل، ذلك أن الدولة العربية الاسلامية استبقت الكثير من التقاليد والأعراف التجارية السابقة، وبذلك لا يمكننا أن نبخس الفعالية التجارية في صدر الدولة[٥٧].

كما أن الوحدة السياسية التى حققها الاسلام قد حلت محل

(٤٣) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣. ابن آدم، **الخراج**، ص ١١٣ و١١٥. الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٢٩. زنجويه، **الأموال**، جـ ٣، ص ١٠٤٠.
(٤٤) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٤، ابن آدم، **الخراج**، ص ١١٥.
(٤٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٥، الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٢٩.
(٤٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٥. الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٢٩.
(٤٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٥.
(٤٨) ن. م.
(٤٩) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٥٠) ن. م، ص ٥٢.
(٥١) **الخراج**، ص ٥٨.
(٥٢) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٨.
(٥٣) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٥ و ٧٠. ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٢.
(٥٤) ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٢.
(٥٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٥ و٧٠. ابن آدم، **الخراج**، ص ٣٢.
(٥٦) ابن آدم، **الخراج**، ص ٤٨ و٥١. متز، **الحضارة الاسلامية**، جـ ٢ ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٥٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ ٨، ص ٦٢٩. البخاري، **الجامع الصحيح** ١٠٥/٣. ابن الأثير، **الكامل**، جـ ٦، ص ١٠٦.

التجزئة التي كانت قائمة في الوطن العربي قبلئذٍ، فأصبحت والحالة هذه عاملاً دافعاً للتبادل التجاري. على الرغم من أن هذه الوحدة السياسية لم ترافقها وحدة في الموازين والمقاييس والمكاييل، ولم تقضِ قضاء مبرماً على الضرائب الداخلية(٥٨).

وتشير الروايات التاريخية الى أن العديد من التجار الأجانب قصدوا ربوع الدولة العربية الاسلامية بغية تصريف بضائعهم في الأسواق العربية، وربما استغرقت رحلة بعض التجار قرابة سنة كاملة، كما هو الشأن في التجارة مع جنوب شرق آسيا(٥٩). ففي مثل هذه الحالة أصبحت جلّ عروض التجار لا تؤمن نفقاتها ما لم تتضمن عروضهم سلعاً مرتفعة أسعارها بالنسبة إلى وزنها وحجمها، أي أنها سلع نفيسة، وذات قيمة عالية(٦٠).

وهذا لا يعني أن التجارة مع المناطق البعيدة، وبخاصة مع الشرق الأقصى، اقتصرت فقط على السلع الكمالية الغالية الثمن؛ كالأحجار الكريمة والتوابل التي استخدمت في الغذاء وفي صنع بعض العقاقير الطبية، والعطور، وأدوات الزينة. وربما استعمل الخشب الثمين والحرير والورق الصقيل في مثل هذه الأغراض(٦١). إذ احتاج الزبائن أيضاً الى غيرها من البضائع التي كانت أقرب الى الاستعمال اليومي؛ كالمواد الغذائية التي تتحمل النقل البعيد. وفي هذه الحالات بات من المؤكد أن تعتمد التجارة الواسعة على التوفيق بين هذين اللونين من البضائع. وفي الاتجاه المعاكس صدّر التجار المسلمون الى الهند والشرق؛ المرجان والعاج اللذين استخرجا من غرب المحيط الهندي وأفريقية الشرقية، فضلاً عن الزيت واللؤلؤ المستخرج من الخليج العربي، والأقمشة التي لاقت رواجاً هناك(٦٢).

وجلب من غرب البحر المتوسط، وجنوب أوروبا، الحديد والمعادن وبعض الأقمشة والأخشاب والزجاج. ومن الشمال نقل تجار (دار الحرب) براً وبحراً، العسل والشمع والفراء. ومن أفريقية العاج. إن هؤلاء التجار الأجانب كانوا ملزمين بدفع ضريبة العشر عن قيمة البضائع التي كانوا يحملونها الى دار الاسلام(٦٣).

ويمكننا أن نتصور كثرة واردات بيت المال من هذا المورد إذا ما علمنا أن تجارة المرور أخذت تتفوق في العصور العباسية المتأخرة على بيع الانتاج المحلي. وعلى الرغم من أنه لا توجد بين أيدينا إحصائية دقيقة توضح الموازنة بين الاستيراد والتصدير، غير أنه من المؤكد أن الدولة العربية الاسلامية في تلك الحقبة لم يكن في حسابها أن تحصل على ما نسميه بـ «ميزان الصادرات» ملائم لمصالحها الاقتصادية والمالية، بل ربما كان الأمر بالعكس؛ حيث سعى المسؤولون الى تشجيع الاستيراد على حساب التصدير خوفاً من فقدان السلع في الأسواق، لأنهم كانوا مدركين لحجم الانتاج المحدود، وبخاصة في بعض السلع آنذاك. ولكن بعد أن شعر المسؤولون أن زيادة الاستيراد تؤدي حتماً الى نزيف نقدي بدأوا يخشونه بسبب نضوب بعض مناجم الفضة والذهب(٦٤).

وأوجب النهج الاقتصادي للدولة العربية الاسلامية على التجار القادمين من خارج البلاد أداء ضريبة العشر التي كانت تختلف باختلاف طوائفهم. فكان على التاجر الأجنبي، أو من اصطلح على تسميتهم بـ «تجار دار الحرب» دفع مبلغ مقداره عشرة في المائة من قيمة البضاعة التي جلبها(٦٥). وتشير الروايات التاريخية الى أن هذا المقدار حُدّد على أساس مبدأ التعامل بالمثل، وبخاصة مع تجار الدولة البيزنطية التي كانت تستوفي النسبة نفسها من التجار المسلمين عند ذهابهم بتجاراتهم الى أسواق بيزنطة(٦٦). ولا يؤدي الذمي الذي هو من مواطني الدولة العربية الاسلامية إلا خمسة في المائة، أي نصف العشر. في حين يؤدي التاجر المسلم ربع العشر، أي اثنين ونصف في المائة من قيمة البضاعة التي يتاجر بها(٦٧).

(٥٨) ابن آدم، **الخراج**، ص ٧١ ـ ٧٤. (انظر: متز، **المكاييل والأوزان الاسلامية**، ص ٩ ـ ١١ و١٩ ـ ٢٠ و٣٠ ـ ٣١ و٤٥ ـ ٤٦ و٥٨ وما بعدها.

(٥٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٤٨١.

(٦٠) النويري، **نهاية الأرب في فنون العرب**، جـ ١، ص ٢٢٠ و٢٣٠ وما بعدها.

(٦١) الجاحظ، **التبصر بالتجارة**، ص ٢٠ ـ ٢١. العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة**، ص ٢٣٠. فيصل السامر، **الأصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية مع الشرق**، ص ١٧ ـ ١٨.

(٦٢) زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص ١٩ ـ ٢١. سرور، **تاريخ الحضارة الاسلامية**، ص ١٤٧.

(٦٣) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، ص ١٣٧.
حتي، **تاريخ العرب**، جـ ٢، ص ٣٧٩.

(٦٤) متز، **الحضارة**، جـ ٢ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٦٥) ابن آدم، **الخراج**، ص ١٧٢. قدامة، **الخراج**، ص ٢٤٢.

(٦٦) ابن آدم، **الخراج**، ص ١٧٣. قدامة، **الخراج**، ص ٢٤٢.

(٦٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١ و١٣٣. قدامة، **الخراج**، ص ٢٤٢.

وتجبى العشور من عروض التجارة؛ ونقصد بها الأموال المعدة للاتجار، وهذه العروض عادة أموال نامية. وأوجب النهج الاقتصادي العربي الاسلامي دفع عشور التجارة لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾(٦٨). قال مجاهد، نزلت هذه الآية في التجارة. وعن النبي ﷺ أنه قال: «.. وفي البز صدقة»(٦٩). ونعني بالبز الثياب، لا سيما الحرير منها، المعدة للبيع عند التجار. وعندئذ أجمع الفقهاء على وجوب العشر في عروض التجارة. ومن هنا يتضح أنه من ملك عرضاً للتجارة، أيّاً كان نوعها، فحال عليه الحول، وبلغ النصاب الشرعي، قومّه مالكه في آخر الحول، فإذا بلغت قيمة ما يملك النصاب المحدد شرعاً وجب عليه أن يؤدي الضريبة التي سميت مجازاً هنا «العشر»، لكنها في الأصل «ربع عشر قيمة البضاعة المقوّمة»، إذا كان التاجر عربياً مسلماً، ونصف العشر من الذمي، والعشر من التاجر الذي هو من أهل دار الحرب. ويضم عادة الربح الحاصل في أثناء الحول الى الأصل، لأنه يقع ضمن مقدار النماء المتصل، وهو زيادة قيمة عروض التجارة. فعلى التاجر المسلم في المائتي درهم، خمسة دراهم، وعلى الذمي في المائتين عشرة دراهم، وعلى الحربي في المائتين عشرون درهماً(٧٠). ولا يأخذ منهم العاشر شيئاً حتى يحول الحول، وإن مروا به غير مرة(٧١).

وتشير أولى الروايات التاريخية بوضوح الى تحصيل ضريبة عشور التجارة في عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما كتب اليه الوالي أبو موسى الأشعري يقول: «إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب اليه عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً، وليس دون المائتين شيء»(٧٢). وروى عمرو بن شعيب: «أن أهل منبج(٧٣)، وراء البحر، كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا. قال: فشار عمر أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه به. فكانوا أول من عشر من أهل الحرب»(٧٤). وفي ضوء ذلك عيّن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) زياد بن حُدير الأسدي على عشور العراق والشام، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر(٧٥).

وفي رواية لزياد بن حُدير الأسدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أقام من تجار أهل دار الحرب ستة أشهر متتالية في دارالاسلام، أخذ منه العشر، ومن أقام سنة، أخذ منه نصف العشر وفرضت عليه الجزية(٧٦).

وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عامله على عشور مصر أن يأخذ من التجار المسلمين؛ من كل أربعين ديناراً ديناراً، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً، فإن نقص عن العشرين فليس على صاحبها شيء. أما التاجر الذمي فيأخذ العاشر من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً، فما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرة دنانير، فإن نقصت عن ذلك فليس فيها شيء(٧٧).

المبحث الثالث: جباية العشور

لقد تولت الدولة، عن طريق موظفيها، أمر استيفاء العشور، وبخاصة في القرنين الأول والثاني الهجريين، منطلقةً من رواية عبدالله بن عباس عن معنى قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾(٧٨).

(٦٨) سورة البقرة، آية ٢٦٧.
(٦٩) السيوطي، **الجامع الصغير**، جـ ٢، ص ٧٧.
(٧٠) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٢١ و١٣٣. قدامة، **الخراج**، ص ٢٤٢.
(٧١) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٣. **الشافعي**، **الأم**، جـ ٢، ص ٣٩.
(٧٢) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٥.
انظر: ابن آدم، **الخراج**، ص ١٧٣.
(٧٣) قوم من أهل دار الحرب.
(٧٤) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٥.
(٧٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٥.
ابن آدم، **الخراج**، ص ٦٦ و٦٨ و١٧٣. الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٣٩.
(٧٦) ابن آدم، **الخراج**، ص ٢٥ و١٧٢.
(٧٧) أبو يوسف، **الخراج**، ص ١٣٧.
ابن آدم، **الخراج**، ص ١٧٣.
الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٣٩.
(٧٨) سورة الأنعام، آية ١٤١.
انظر: أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٦. ابن آدم، **الخراج**، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

وكان أولئك الموظفون على جانب كبير من الكفاية والأمانة والنزاهة. وأنهم احتفظوا بسجلات خاصة لهذا الغرض. وعمل هؤلاء الموظفون على جعل بعض الموارد المحلية تغطي جميع نفقات الاقليم، وإرسال البعض الآخر الى العاصمة ليصب في بيت المال المركزي مع تقديم بيان يشير الى ذلك مفصلاً. وهذا الأمر تطلب انشاء دوائر مالية في الإقليم تشبه الدوائر المالية في مركز الخلافة(٧٩).

وأحياناً كانت الدولة تؤثر أن تلجأ الى أناس ضامنين، ولا سيما في عصورها المتأخرة. وفي الأعم الأغلب يكون هؤلاء الضامنون ميسورين ويتكفلون بجمع أموال الجباية ـ وبضمنها العشور ـ مستبقين لأنفسهم بعض الربح، فيؤدي هؤلاء للدولة مسبقاً المبلغ المتفق عليه، وهو أدنى من دخل ضريبة العشور المقررة على منطقة ما من أقاليم الدولة. لكن ميزة هذا المقدار أنه يتوفر للحكومة مباشرة، وهي بحاجة ماسة إليه أحياناً. وعادة يعقد الضمان مدة سنتين أو ثلاث. وينبغي ألا نخلط بينه وبين إجراءات أخرى كالقبالة والمقاطعة(٨٠).

تقدير النصاب

حرصاً على أموال المسلمين، وضماناً لاستيفاء موارد بيت المال بالكامل، جرت العادة على أنه إذا أزهى النخل والأعناب، وبدا صلاحها، اعتبر تقدير النصاب فيها بالخرص (أي التخمين) دون الكيل، وذلك بأن يحصي الخارص الأمين العارف، ما على النخل والأعناب، من الرطب والعنب. ثم يقدره تمراً وزبيباً، ليعرف مقدار العشر فيه. فإذا جفت الثمار، أخذ العشر الذي سبق تقديره منها(٨١).

ويفضل الفقهاء إجراء الخرص في وقت مبكر تلافياً لما قد تتعرض له هذه الثمار من الأكل. فكان من الضروري تقدير العشر قبل أن تؤكل الثمار، أو تقطع، من أجل أن يتصرف أربابها بما يشاؤون ويضمنوا قدر العشر(٨٢).

وأوجب النهج الاقتصادي العربي الاسلامي على الخارص أن يترك في الخرص الثلث، أو الربع، توسعة على أرباب الأموال، ومساعدة لهم، لأنهم يحتاجون الى الأكل منه؛ هم وضيوفهم ومعارفهم، وربما جيرانهم(٨٣). وفي الوقت نفسه أخذ النهج الاقتصادي العربي الاسلامي بنظر الاعتبار احتمال أن تنتاب الثمر، أو الانتاج، النوائب، أو الآفات الزراعية؛ من الطير والمارة، وما تسقطه الريح فلو أحصى العشر من الانتاج كله، دون استثناء الثلث أو الربع، لألحق ضرراً بالمزارعين. عن سهل بن أبي حَثمة؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا خرصتهم فخذوا، ودعوا الثلث، فإن لم تدعوا الثلث، فدعوا الربع»(٨٤).

وعن مكحول قال: «كان رسول الله ﷺ، إذا بعث الخراص قال: خففوا عن الناس، فإن في المال العَريّة والواطئة والآكلة»(٨٥). وعن بشير بن يسار قال؛ «بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا حثمة الأنصاري على خرص أموال المسلمين، فقال: إذا وجدت القوم في نخلهم قد خرفوا [أي أقاموا في نخلهم فصل الخريف] فدع لهم ما يأكلون، لا تخرص عليهم»(٨٦). وأشار المسعودي الى أن حذيفة بن اليمان كان يكتب خرص الحجاز(٨٧). ويرى بعض الفقهاء أنه يجوز لصاحب الزرع أن يأكل من زرعه، إذا جنى، أو حصد الزرع، وصفى الحب، أخرج العشر المقرر(٨٨).

جواز ضم أنواع الزرع والثمار

اتفق جمهور الفقهاء على جواز ضم أنواع المحاصيل الزراعية المنتجة، بعضها الى بعض عندما يراد استيفاء عشورها، وإن اختلفت في الجودة واللون. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يضم أنواع الحنطة بعضها الى بعض، وكذلك سائر الحبوب. واتفق الفقهاء أيضاً على أن عروض التجارة تضم الى الاثمان، وتضم الأثمان اليها. وفي الوقت نفسه اتفقوا أيضاً على أنه لا يضم

زنجويه، **الأموال**، جـ٢، ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤.
الشافعي، **الأم**، جـ٢، ص ٣١ و٣٩.
(٧٩) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ١١٣.
(٨٠) الصولي، **الأوراق**، ص ٢٧٦. (طبعة القاهرة ١٩٣٥).
(٨١) البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ٢، ص ١٥٤ ـ ١٥٥. ابن شبة، **تاريخ المدينة** ١/ ١٧٧ و١٧٩.
(٨٢) زنجويه، **الأموال**، جـ٣، ص ١٠٧٠.
(٨٣) زنجويه، **الأموال**، جـ٣، ص ١٠٧٣.
(٨٤) زنجويه، **الأموال**، جـ٣، ص ١٠٧٣. سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٤.
(٨٥) زنجويه، **الأموال**، جـ٣، ص ١٠٧٣ و ١٠٧٩.
(٨٦) سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٤.
(٨٧) المسعودي، **التنبيه والاشراف**، ص ٢٨٢.
(٨٨) سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٥.

جنس الى جنس آخر في تكملة النصاب في غير الحبوب والثمار. فلا يضم الشعير إلى الحنطة، ولا هي اليه. ولا التمر الى الزبيب، ولا هو اليه. ولا الحمص الى العدس(٨٩).

ويرى (أبو يوسف)؛ أنه إذا بلغ انتاج أرض عشرية نصف خمسة أوسق حنطة، ونصف خمسة أوسق شعير، وجب على صاحب الأرض دفع عشر مجمل انتاجه من هاتين المادتين(٩٠).

وكذلك لو أن صاحب أرض عشرية زرع عدة أنواع من الغلال في أرضه هذه، فأخرجت قدر وسق واحد من الحنطة، وقدر وسق من الشعير، وقدر وسق واحد من الرز، وقدر وسق واحد من التمر، وقدر وسق واحد من الزبيب. وتم ذلك خمسة أوسق، كان في ذلك العشر. أما في حالة كون نقص الناتج عن خمسة أوسق، فلم يكن فيه عشر، سواء كان ذلك النقص وسقاً أم أكثر(٩١). ويستثني (أبو يوسف) من هذه القاعدة الزعفران، إذ يرى أنه لا يستوفى عشره بموجب كيله، وإنما بموجب وزنه. فإذا زرع في أرض العشر وكانت قيمة انتاجه تساوي خمسة أوسق من قيمة أدنى نوع ما تخرج الأرض من الحبوب، مما عليه العشر، ففيه العشر، مع الأخذ بنظر الاعتبار طريقة سقيه. أي يؤخذ منه العشر إذا كان يسقى سيحاً، أو سقته السماء، وإذا سقي بقرب أو دالية؛ فنصف العشر. وإن لم يبلغ قيمة ذلك خمسة أوسق فلا شيء فيه(٩٢).

وفي رواية عن حماد عن ابراهيم النخعي أنه قال: «ما أخرجت الأرض من قليل أو كثير من شيء ففيه العشر»(٩٣). ومن هذا المنطلق أفتى (أبو حنيفة) بأن يؤخذ العشر من الأرض العشرية مهما كان مقدار الانتاج، قليلاً أم كثيراً. في حين قال غيره من الفقهاء: «لا صدقة فيما تخرج الأرض حتى يبلغ خمسة أوسق»(٩٤)، مستندين في ذلك على ما رُوي عن النبي ﷺ(٩٥).

وفي رواية عن أنس بن مالك عن الرسول ﷺ أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق من البر والشعير والذرة والتمر والزبيب صدقة»(٩٦). والوسق ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ(٩٧). فالخمسة أوسق ثلاثمائة صاع، والصاع خمسة أرطال وثلث(٩٨). قال الشافعي: إذا زُرع أكثر من محصول في أرض واحدة، خلال سنة واحدة، وهذه المحاصيل من نوع واحد يضم بعضها الى بعض، وفي هذه الحال يمكن أن يجبى العشر أكثر من مرة من أرض ما خلال سنة واحدة(٩٩).

والنهج الاقتصادي العربي الاسلامي راعى واقع الظروف الموضوعية، والارث الحضاري، والعرف والتقاليد، وبذلك أقر: فيما إذا أنتجت أرض عشرية ثلاثمائة صاع (أي خمسة أوسق) من الغلال التي يجب فيها العشر؛ فأكل رب الأرض من إنتاجه هذا مقداراً ما، أو أطعم أهله، أو جاره، أو صديقه، أو أحد أقربائه، فصار ما بقي عنده ينقص عن ثلاثمائة صاع كان فيما بقي العشر، إذا كان يسقى سيحاً أو بالمطر، ونصف العشر إذا كان يسقى بغرب، أو سانية، أو دالية. ولم يكن عليه فيما أطعم، أو أكل، أو منح شيء. وكذلك لو سرق بعض انتاجه كان عليه فيما بقي العشر، أو نصف العشر، حسب نوع السقي. وَيَعُدّ (ابو يوسف) هذه الحالة قاعدة، وعليها تجري معاملة ما يشبهها لأن فيها صلاح الرعية، ووفراً لبيت المال(١٠٠).

ويجب العشر في الزرع إذا اشتد الحب وصار فريكاً، ويجب في الثمار إذا بدا صلاحها. ويعرف ذلك بتلون البلح، وجريان الحلاوة في العنب. ولا يخرج العشر الا بعد تصفية الحب وجفاف التمر. واذا باع الزارع زرعه بعد اشتداد الحبِّ وبُدُوِّ صلاح التمر، فعشور زرعه وتمره عليه، دون المشتري، لأن العشر في الذمة لا في العين نفسه(١٠١).

(٨٩) ابن آدم، **الخراج**، ص ١١٣.
الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٤٠. سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٥.
(٩٠) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٢.
(٩١) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٢.
(٩٢) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٢.
(٩٣) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣.
(٩٤) البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٥٦.
(٩٥) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣. البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٩٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣. ابن آدم، **الخراج**، ص ١٣٥.
(٩٧) منتز، **المكاييل والأوزان الاسلامية**، ص ٧٩.
(٩٨) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣. ابن آدم، **الخراج**، ص ١٣٩ و١٤١.
(٩٩) الشافعي، **الأم**، جـ ٢، ص ٣١ ـ ٣٢.
(١٠٠) أبو يوسف، **الخراج**، ص ٥٣.
(١٠١) البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٥٦، سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٦.

وإذا استقر وجوب دفع العشر في الانتاج، بأن حال عليه الحول، أو حان حصاده، وتلف الانتاج قبل أداء العشر، أو تلف بعضه؛ فالعشر كله وجب في ذمة صاحب المال، سواء التلف بتفريط منه، أم بغير تفريط. ويرى (أبو حنيفة) أنه: إن تلف الانتاج كله بدون تعدٍ من صاحبه سقط العشر، وإن هلك بعضه سقطت حصته. أما إذا هلك الانتاج بسبب تعدٍ واهمال وتقصير متعمد من المالك، فإن العشر لا يسقط، وإنما يجب عليه أداؤه. وقال الشافعي: إن تلف النصاب قبل التمكن من الأداء سقط العشر، وإن تلف بعده لم يسقط. ورجح (قدامة) سقوط العشر بتلف الانتاج، إذا لم يفرط في الأداء. ومعنى التفريط أن يتمكن من إخراجه فلا يخرجه، وإن لم يتمكن من إخراجه فليس بمفرط، سواء كان ذلك لعدم المستحق، أم لبعد انتاجه الزراعي عنه. ولو عزل العشر ليدفع الى مستحقيه، فضاع كله، أو بعضه، فعلى صاحب العشر وجب دفعه، لأنه في ذمته حتى يوصله الى من أمر بإيصاله اليه[102]. ومن هنا يتضح أن تلف المقدار المخصص للعشر، بأية صورة كانت، لا يجزي عن صاحب الانتاج، بل عليه إخراجه ثانية.

وذهب جمهور الفقهاء الى أن من ملك نصاباً، من أي نوع من أنواع المال، أو الانتاج الخاضع للعشر، فباعه قبل الحول، أو وهبه، أو أتلف جزءاً منه، بقصد الفرار من دفع العشر، لم يسقط العشر عنه، ويؤخذ في آخر الحول، إذا كان تصرفه هذا عند قرب الوجوب. ولو فعل ذلك في بداية الزرع، لم يجب العشر لأن ذلك ليس بمظنة للفرار[103].

اخراج الطيّب

أكد النهج الاقتصادي العربي الاسلامي على ضرورة اخراج الطيّب والجيّد في العشور، ونهى عن التصدق بالرديء. إذ لا يجوز للمالك أن يخرج الرديء عن الجيد الذي وجب فيه العشر، نصاً في التمر، وقياساً في سائر أجناس الانتاج الزراعي التي يجب فيها العشر. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم، ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمَّمُوا[104] الخبيث[105] منه، تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا[106] فيهْ. واعلموا أن الله غني حميد﴾[107]. وعن البراء؛ قال في قوله تعالى: ﴿ولا تيمَّمُوا الخبيث من الطيب﴾ نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، فيأتون بالرديء. فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تيمَّمُوا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾[108]. ومهما يكن من أمر؛ فإن دفع العشور استهدف منه كفاية الفقير وسدّ حاجته، فيعطى من العشور القدر الذي يخرجه من الحاجة الى الكفاية.

الخلاصة

لقد وردت آيات قرآنية كثيرة تحث المسلمين على وجوب دفع عشور الزرع. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾[109]. وقال عز وجل: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾[110]. وقد فسر الفقهاء، ومنهم «ابن عباس» هذه الآية؛ وجوب دفع العشر.

ولدينا في الأحاديث النبوية الشريفة ما يؤكد ضرورة دفع عشر انتاج الرز. إذ روي عن الرسول ﷺ قوله: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[111]. وروى (ابن عمر) عن النبي ﷺ قوله: «فيما سقت السماء والعيون وكان عثرياً[112]، وفيما سقي بالنضح نصف العشر»[113].

وقال أغلب الفقهاء على وجوب العشر في الحنطة والشعير والتمر والزبيب وبما أن هذه الأنواع من الزروع نامية حقيقة في الخارج من الأرض العشرية، إذن وجب فيها العشر. وأجمع الفقهاء على أنه لا عشر فيما ينبت في المباح الذي لا يملك، أي الذي ينبت في البراري، لأنه لم يكن في حيازة شخص معين.

(١٠٢) سابق، **فقه السنة**، ص ٣٢٢.
(١٠٣) ن. م، ص ٣٢٤.
(١٠٤) تَيَمَّمُوا: اي تقصدوا.
(١٠٥) الخبيث: اي الرديء.
(١٠٦) تغمضوا: تتغاضون عن أخذه.
(١٠٧) سورة البقرة، آية ٢٦٧. (انظر: ابن آدم، **الخراج**، ص ١٣٢ ـ ١٣٣).
(١٠٨) سابق، **فقه السنة**، ص ٣٠٦.
(١٠٩) سورة البقرة، آية ٢٦٧.
(١١٠) سورة الأنعام، آية ١٤١.
(١١١) مسلم، **الجامع الصحيح**، جـ ٣، ص ٦٧.
(١١٢) العثري: ما يسقيه المطر أو السيح.
(١١٣) البخاري، **الجامع الصحيح**، جـ ٢، ص ١٤٦.

وحصر فريق من الفقهاء وجوب العشر في الحنطة والشعير والتمر والزبيب باعتبارها مواد أساسية تشكل قوت عامة الناس. وعدوا ما عدا هذه الأنواع من الزرع والثمار لا عشر فيها.

في حين رأى فريق آخر من الفقهاء وجوب العشر فيما يكال أو يوزن، ويمكن خزنه مدة من الزمن دون أن يتعرض للتلف، على أن يزرع في أرض مملوكة. وبذلك أضاف أصحاب هذا الرأي الى الأنواع الأربعة السابقة: الباقلاء والعدس وغيرهما من الحبوب التي تطبخ، والتي يمكن أن يستعمل فيها: «الكيل والبقاء». وقد استبعد أصحاب هذا الرأي الفواكه والخضر التي تتعرض عادة للتلف بسرعة. واستندوا في حكمهم الى حديث الرسول ﷺ: «ليس في حب ولا تمر صدقة [عشر] حتى يبلغ خمسة أوسق». ووجه الاستدلال من هذا الحديث أن الزرع يكال بالوسق، وهو الذي يجب فيه العشر.

ويوجد فريق ثالث (أبو حنيفة) يرى أن العشر يجب في كل ما يقصد بزراعته الكثرة والنماء، إلا الحطب والقصب والحشيش.

والراجح من استقراء الآية الكريمة ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾، وهذا يشمل الزرع والثمار التي فيها نماء، وحقه أداء عشره. ولا يشترط في الانتاج الزراعي حولان الحول لوجوب العشر، وإنما أكد على النصاب فقط، لأن الزرع يكمل نماؤه باستحصاده، لا ببقائه، بخلاف غيره من الأموال الأخرى، باعتبار الحول فيها أمراً لا بد منه.

وأوجب النهج الاقتصادي للدولة العربية الاسلامية على التجار القادمين من خارج حدود الدولة أداء عشرة في المائة من قيمة البضاعة التي جلبوها الى أسواق الدولة العربية الاسلامية. أما التاجر الذمي الذي هو من مواطني الدولة فقد ألزم بدفع نصف عشر قيمة البضائع التي يتاجر بها. في حين ألزم التاجر المسلم بدفع ربع العشر من قيمة بضاعته. وجبيت هذه الضريبة مرة واحدة في السنة، واشترط في البضاعة المتاجر بها أن تبلغ نصاباً محدداً لهذه الفئات الثلاث من التجار. وقد شكلت عشور التجارة هذه موارد مالية جيدة لبيت المال.

صلات تجارية
بين البصرة والمغرب الاسلامي
من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع

د. سوادي عبد محمد

كلية الآداب ـ جامعة البصرة.

مقدمة

يمكن القول، بأن التجارة في العالم الاسلامي خلال الفترة من القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن الرابع، هي تجارة متكافئة ومتوازنة[1] من حيث الواردات أو الصادرات، لأن جميع بلدان هذا العالم، متشابهة تقريباً في التطور الاقتصادي العام، حيث لا توجد بلدان صناعية متقدمة وأخرى زراعية متخلفة، لكي يكون الاتجار من جانب واحد كما هو عليه الآن[2].

وما دام التوازن، هو الذي يتحكم في حجم النشاط التجاري سواء ما يتعلق بمزاولة الأفراد أو الدول أحياناً،فإنه يترتب على القوى الاقتصادية عموماً لكي تنشط في تجارتها، أن تتيح لانماء الزراعة والصناعة ليكونا الرافدين المهمّين لتغذية النشاط التجاري وادامته؛ وتبعاً الى ذلك يصح قولنا بأن التجارة والعلاقات القائمة عليها، هي صورة واضحة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية[3] في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة، كما أنها الأساس أو الغرض الأول الذي كان يوجّه الحياة الاقتصادية.

أما الفترة التي عُني فيها هذا البحث بتوضيح بعض ملامح النشاط التجاري بين البصرة وبلدان المغرب الاسلامي، فهي فترة استغرقت ثلاثة قرون تقريباً، قد اقتفتها ظروف البحث في توضيح أكثر للتبادل التجاري ونشاطه وتقديم التفصيلات المفيدة عن الصلات التجارية بين أهم مركز تجاري مشرقي هو البصرة وبلدان المغرب، فضلاً عن أن معلوماتنا بهذا الصدد، نستقيها من اشارات قليلة ومشتتة وفي فترات تاريخية متقطعة، تضطرنا على تتبعها، كما أن معظم المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين والرحالة، لم يقدموا لنا معلومات كافية عن الموضوع تنحصر في فترة معينة. وقد يجوز لنا أن نعزو ذلك الى أن الصلات التجارية، المباشرة وغير المباشرة لم تتوثق بصورة تلفت نظر المؤرخين والبلدانيين وربما انها لم تتكرر كثيراً في خلال تلك الفترة.

ولعل من المفيد أن نذكّر أنَّ التجارة بين البصرة وبلدان المغرب، كانت تنقل عبر مراكز تجارية متعددة وربما كانت تغيّر محطاتها بين حين وآخر، فالاتجار مع القيروان أو أودغست أو فاس أو تونس أو تاهرت أو المهدية أو سجلماسة أو مع أي مركز آخر، كان يستغرق وقتاً طويلاً، ويحتاج الى تتبع السلع والبضائع وانتقالها من محطة الى أخرى، وذلك من خلال المصادر والنصوص المتوفرة لدينا. يضاف الى ذلك، معرفة ما إذا كانت الطرق التي تنقل فيها التجارة خلال القرن الثاني الهجري من البصرة الى هذه المراكز عن طريق بغداد وبلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الى الاسكندرية أو عن طريق عمان وشرق افريقيا، وهي طرق يذكرها البلدانيون، قد استمرت حتى في القرنين التاليين أم حدث تغيير في مسالكها واتجاهاتها؟ ولا غرو فإن توضيح هذا الأمر يفيدنا في ترسم المسالك الثابتة للتجارة بين هذه البلدان حتى مستهل القرن الخامس الهجري، حيث شهد ظروفاً جديدة في نشأة المراكز التجارية وتطورها وعملية نقل السلع والمتاجر بينها.

---

(١) وقولنا في الوقت الحاضر، التوازن التجاري ونعني «الميزان التجاري».

(٢) يشذ عن ذلك في العصر الحديث بعض البلدان غير الصناعية التي تتعاطى تجارة البترول (وهي مادة أولية ليست مصنّعة) تصدرها الى الدول الصناعية المتقدمة.

(٣) يقول آدم متز، أن التجارة مظهر من مظاهر ابهة الاسلام، «**الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري**، بيروت ط ٤ ـ ١٩٦٧، جـ ٢ ص ٢٧١».

البصرة وأهميتها التجارية

توضح النصوص المتوفرة لدينا، أن البصرة كانت فرضة[٤] العراق[٥] في هذه الفترة[٦]، وأنها مركز من مراكز التجارة الدولية، فهي مرفأ لاستقبال السفن المحملة بالسلع والبضائع الخاصة بالتجارة الشرقية؛ وقد اظهر كل من الجاحظ وابن الفقيه الهمداني والمسعودي، المكانة التي كانت تتمتع بها في هذا المجال، فيشير الجاحظ الى نشاط التجار البصريين وتحملهم المشاق في نقل تجاراتهم والحصول عليها من أماكنها البعيدة فقال: «ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من اطراف الدنيا، الا وانت واجد به البصري والمدني»[٧]. ويؤكد ابن الفقيه الهمداني، شهرة تجار البصرة وكسبهم في الاتجار مع بلاد المغرب ومنها السوس الأقصى[٨]. وكذلك مع المشرق حتى وصلوا الى فرغانة القصوى[٩]، فيذكر أن «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى، فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً»[١٠] وقال في مكان أخر من كتابه: «وقالوا: أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بّد من أن يُرى بها بصرئي أو خوزئي أو حيرئي»[١١]؛ كما يصف المسعودي مراكب البصريين التي كانت تختلف للتجارة في مرافىء بلاد المغرب[١٢]، وخاصة في مرفأ ترشيش (تونس) بأنها «بيضاء ومشحمة بالشحم والنوره»، أي أنها كانت متميزة ومعروفة بين مراكب التجار الآخرين. وجاء في رسائل المعري ما يشير الى تحمل البصريين من التجار، شدةالتغرب في البلاد البعيدة، بسبب قلة حنينهم الى أوطانهم، مما يساعدهم على البقاء مدة أطول للحصول على السلع والبضائع التجارية أو مبادلتها فيروى: «أن أهل البصرة ـ سلمهم الله ـ ينسبون الى قلة الحنين اليست قد مرّت به هذه الحكاية، وهي أنه وجد على حجر مكتوب:

ما من غريب وإن أبدى تجلّده
الا سيذكر عند العلة الوطنا

وقد كتب تحته عبارة «إلا أهل البصرة» فإذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم»[١٣] كما جاء عن ابن الفقيه الهمداني، انه قرىء على باب خان طرسوس:

ما من غريب وإن أبدى تجلّده
الا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو، أن توصف البصرة بأنها باب بغداد ومنفذ العراق الى العالم لتصدير المنتجات الزراعية والصناعية، إذ إن ارتباطها ببغداد في بداية العصر العباسي، زاد في نشاطها التجاري، نتيجة التوسع في الزراعة والصناعة، كما وصفت بأنها «قبة الاسلام»[١٤] و «باب العراق»[١٥] ومحط التجارة الشرقية وملتقى القوافل الآتية من الصحراء، حتى قيل بحق أن «العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق»[١٦]، لذلك أولى العباسيون اهتمامهم الى أرض السواد التي كانت تحاذي البصرة في حدودها الشمالية، فأصلحوا الأراضي التي أغرقتها مياه البطائح»[١٧]،

---

(٤) خليج من الماء لرسو السفن ومحط حمولتها من التجارة التي تأتي من البلدان والآفاق.

(٥) المقصود، مرفأ البصرة الذي كان يستقبل سفن التجارة من عدن والهند والصين وشرق افريقيا والخليج العربي.

(٦) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن، بريل ١٩٠٩) ص ١٢٨ «يقول عنها بأنها فرضة البحر ومطرح البر».

(٧) **كتاب البخلاء** (طبعة مصر ـ ١٣٢٣ هـ) ص ١٦٠.

(٨) وهي بلاد السوس التي تقع في منطقة المغرب الأقصى وهناك مدينة تعرف بهذا الاسم وكذلك مدينة «ايجلي» التي هي قاعدة بلاد السوس «البكري، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب** (تحقيق دي. لان، الجزائر ـ ١٨٥٧) ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٨؛ ويذكر ابن حوقل، أن السوس الأقصى ليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيراً منها «**صورة الأرض**» (منشورات مكتبة الحياة).

(٩) اقليم يقع في أقصى بلاد ما وراء النهر، وهو عمل عريض موضوع على سعة مدنها وقراها؛ وهناك مدينة بهذا الاسم تقع على شط نهر الشاش ايضاً (ابن حوقل، **صورة الأرض** ص ٣٨١، ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(١٠) **مختصر كتاب البلدان** (ليدن، بريل ـ ١٣٠٢ هـ) ص ٥١.

(١١) المصدر نفسه ص ١٩١.

(١٢) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٤) حـ ٨ ص ١٢٨.

(١٣) **رسائل أبي العلاء المعري** (اكسفورد، طبعة مارجليوث ـ ١٨٩٨) ص ٧٥ ـ ٧٦.

(١٤) الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والاسلام** (دمشق ـ ١٩٦٠) ص ٣٥٣.

(١٥) د. عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** (بيروت ـ ١٩٧٤) ص ١٣٥.

(١٦) الثعالبي، **لطائف المعارف** (باعتناء دي يونك، بتافيط ـ ١٨٧٦) ص ١٠٢.

(١٧) وهي المنطقة التي غمرتها مياه نهر دجلة نتيجة لتغيير النهر لمجراه حيث تكررت الفيضانات (البلاذري، **فتوح البلدان** (طبع دي غوية ليدن ـ ١٨٦٦) ص ٢٩٢؛ كما يحدد ابن رسته البطائح قائلاً: «فالبطائح مجتمع هذه المياه وهي ثلاثون فرسخاً في ثلاثين فرسخاً حدّ منها جزيرة العرب وحدّ منها ارض ميسان (قرب البصرة) وحدّ منها دجلة بغداد وحدّ منها مصب الفرات والنهروان وهي خزانة أهل البصرة يجتمع فيها المياه وينبت فيها القصب لمنافعهم ومنها سمكهم من الطري والمالح» **الاعلاق النفيسة** (ليدن، بريل ـ ١٨٩١) ص ٩٤، ١٨٥؛ انظر أيضاً قدامه بن جعفر، **كتاب الخراج وصنعة الكتابة** (دي غوية، ليدن ١٨٨٩) ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

وفيضانات دجلة والفرات المتكررة، وشقوا القنوات للري وأعادوا العمران الى المزارع المهجورة والقرى الخربة، فضلاً عن سياستهم الزراعية بتخفيض الأعباء المالية على الفلاحين تشجيعاً لهم على مزاولة الزراعة والعناية بحقولهم، وقد ترتب على سياسة العباسيين هذه زيادة انتاج المحاصيل الزراعية من القمح والشعير والأرز والتمر والسمسم والقطن، إضافة الى الخضروات وانواع الفاكهة والزهور، وأسهم هذا الانتاج بدوره في ازدهار البصرة، فأصبحت مركزاً لتجارة المواد الغذائية، فحملت السفن منها حاصلات العراق الى شواطىء شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي لافتقارها الى المواد الغذائية، كما وفرّت للمسافرين والتجار بحراً، ما يحرصون على التزوّد به من المؤونة اللازمة لرحلاتهم من هذه المواد[١٨].

والى جانب ذلك ظهرت في البصرة طبقة من كبار التجار الأثرياء استثمروا أموالهم واعدّوا الصفقات التجارية الكبرى وامتلكوا السفن والمراكب؛ كما انتقل اليها تجار «دارين» الواقعة في البحرين، وشاركوا زملاءهم البصريين، نشاطهم التجاري، فضلاً عن إقبال تجار المسلمين الآخرين على تجارة البصرة، فقصدوها وأقاموا في مبانيها[١٩].

وكان سوق المربد، مركز نشاط البصرة التجاري على طرف الصحراء، ولم يكن مصادفة أن يسمى «عين البصرة» حيث كانت تجري فيه العمليات الاقتصادية التجارية، فضلاً عن أنه كان مسرحاً للأدب والشعر واللغة، ومجمعاً للنحاة والفصحاء والبلغاء[٢٠].

وقد شبّه آدم متز، تجار البصرة واليمن في هذه الفترة (بالشوابيين في المانيا وبالسويسريين) الذين اشتهروا على ما يبدو بحذقهم والمامهم بالتجارة وفنونها، نظراً لأنهم كانوا من أحسن تجار البلاد الاسلامية[٢١].

ومن الجدير بالإشارة أن الأهمية التجارية والاقتصادية للبصرة قد لفتت نظر الخلفاء العباسيين، لكونها تدر موارد غير قليلة على خزينة الدولة، سواء عن طريق مزاولتها النشطة للتجارة أو من اختلاف عدد كبير من التجار الغرباء، أصحاب الثروات اليها أو الاقامة فيها، مما حفّز الخلفاء على ادخال بعض الاصلاحات اليها واستحداث الخدمات العامة، ومنها انتقاء خيرة الولاة لإدارتها ومداومة الاشراف عليها وإيصال المياه العذبة من نهر دجلة اليها[٢٢] فيشير البلاذري الى ذلك من طرف خفي حيث يقول: «ووقف محمد بن سليمان على صنيعة له على أحواض اتخذها بالبصرة، فغلتها تنفق على دواليبها وإبلها ومصلحتها»[٢٣] وقال أيضاً: «وكانت الولاة والاشراف بالبصرة يستعذبون الماء من دجلة ويحتفرون الصهاريج»[٢٤].

ولعل مما زاد في أهمية البصرة التجارية كذلك، هي أنها ورثت نشاط الأبلة[٢٥] التجاري، فقد تحول عدد كبير من تجار هذا المرفأ ونقلوا ثرواتهم الى البصرة، فزاد عمرانها وتوسعت حدودها حتى أصبحت الأبلة وعبادان أشبه بضواحي للبصرة؛ ويؤكد المقدسي ذلك بقوله: «أما البصرة فمن مدنها الأبلة وأبو الخصيب وعبادان والقندل والجعفرية»[٢٦].

ويبدو أن رخاء العراق الذي كان يعتمد على ازدهار الزراعة والصناعة في بداية القرن الثالث الهجري، قد أمدّ البصرة بكثير من بضائع التبادل التجاري ومنها: الخز والبز والحلل النجرانية والعبادات الواسطية والمناديل الحريرية الكوفية والجواهر واللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحمر والماس والتمور والحنّاء والستور والمكاييل وكثير غيرها من صناعات بغداد والموصل

(١٨) سليمان ابراهيم العسكري، **التجارة والملاحة في الخليج العربي** (القاهرة ـ ١٩٧٢) ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٩) ابن حوقل، **صورة الأرض** ص ٢٣٦؛ الأفغاني، **أسواق العرب** ص ٣٥٧ «ظهر المربد في أول أمره سوقاً للجمال، وقد مرّ بأربع مراحل: الأولى ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م كان فيه سوقاً للبدو تباع فيه التمور والجمال والأسلحة وغنائم الحرب والثانية ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م كان مركزاً للتجارة والأدب والثالثة أصبح مركزاً للأعمال التجارية ومقصداً لأهل الأدب والشعر أما المرحلة الرابعة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م فقد أمسى بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة (د. عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ١٣٦).

(٢٠) الدوري، المصدر السابق ص ١٣٦.

(٢١) كتابه **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري**.

(٢٢) يذكر ابن الفقيه، أن الأحنف بن قيس طلب من الخليفة عمر بن الخطاب قائلاً: «إنا نزلنا ارضاً نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ناحيتها من قبل المشرق، البحر الأجاج ومن قبل المغرب الفلاة، فليس لنا زرع ولا ضرع يأتينا» فأمر عمر بن الخطاب ابا موسى الأشعري الذي كان والياً عليها آنذاك، أن يحفر لهم نهراً، فقيل إنه احتفر خور دجلة العوراء وقاده ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة، فكان طول نهر الأبلة أربعة فراسخ» **مختصر كتاب البلدان** ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢٣) **فتوح البلدان** (القاهرة ـ ١٩٥٦) جـ ٢ ص ٤٥٤.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٤٥٥.

(٢٥) وهي الميناء العراقي الرئيسي للتجارة مع الهند قبل الاسلام، وقد سمي عند اليونانيين باسم «ابولوجوس» Apologus وكان قد أعاد بناؤه كسرى أردشير، وظل قائماً طوال العصر الساساني واستوطنه العرب والهنود فسماه العرب «أبله» غير أن أهميته تضاءلت بعد تأسيس البصرة في العصر العباسي.

(٢٦) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ص ١١٤.

والكوفة والجزيرة الفراتية.. لا يخامرنا شك في أن التجار البصريين والبغداديين، كانوا يحملون هذه السلع والمواد الى جميع الآفاق والبلدان ومنها بلاد المغرب، حيث نسمع بوجودها خلال هذه الفترة هناك، وكان المغاربة يحصلون عليها بين حين وآخر ويقتنونها.

ويُفهم من إشارة ابن حوقل، بأن البصرة موجودة في جميع الأماكن[٢٧] نشاط تجارها وتأكيد أهميتها الاقتصادية التجارية، وقد زاد هذا المصدر في تحديد نشاطها التجاري بقوله: «وأما ارتفاعها وقتنا هذا من وجوه أموالها كلها وجباياتها من أعشارها وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراكب، فإنه زاد وكثر وغلا وغزر»[٢٨].

ويمكن القول بأن كتاب «التبصر بالتجارة» الذي وضعه الجاحظ هو مرآة تصور النشاط التجاري المبكر لمسقط رأسه البصرة[٢٩]، ويذهب الدكتور عبد العزيز الدوري الى أنه ليس مصادفة أن يكون مؤلف أول كتاب في التجارة هو الجاحظ الذي توفي سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م من أهل البصرة[٣٠]. وهذا أمر له أهميته في موضوع التجارة في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة. كما لاحظ الباحث سليمان ابراهيم العسكري في دراسته عن التجارة والملاحة في الخليج العربي أن الجاحظ كان قد شاهد عياناً ما كان يصدّر عن البصرة من شتى السلع والمتاجر الى مختلف الآفاق وبلاد افريقيا خاصة[٣١]، كما أن حديث الجاحظ عن متاجر الأحجار الكريمة والطرائف الثمينة والجواهر واليواقيت والعطور والعقاقير وما كان يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة الى البصرة[٣٢]، ربما كان قد استقاه من معاينته لأحداث البصرة ونشاطها في المجالات الاقتصادية والتجارية.

الطريقان التجاريان

اتخذت التجارة بين البصرة والمراكز التجارية في المغرب، منذ القرن الثاني الهجري، الطريقين التجاريين اللذين ظلا المنفذين الرئيسيين بين المشرق والمغرب، وقد تابع التجار والمسافرون والرحالة، سلوكهما حتى أواخر العصور الوسطى؛ ويمكن القول، إن هذين الطريقين أصبحا المسلكين التقليديين اللذين يشير اليهما المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب والمسلمون وغيرهم. الطريق الأول، يبدأ من البصرة الى بغداد عن طريق دجلة، ومن بغداد يتفرع الى طريقين، الأول الى الأنبار على نهر الفرات ثم يصعد مع النهر الى مدينة الرقة حيث تتفرع منه طرق الى بلاد الروم «آسيا الصغرى» شمالاً وطرق الى بلاد الشام (دمشق) غرباً أما الطريق الآخر، فهو البري، على جانبي دجلة الى الموصل وبلاد الجزيرة الفراتية ومنها الى نصيبين وحلب وقنسرين وحماة حتى يصل الى دمشق فيلتقي بالطريق الأول، ليكوّن الطريق الرئيسي الذي يصل الى بحيرة طبرية ثم منها الى الرملة والفسطاط والاسكندرية ومنها الى برقة والى بلاد افريقية (المغرب)[٣٣]. وقدا شار إلى هذه الطرق، قدامة بن جعفر بقوله «إن القوافل تأتي من بغداد والبصرة الى بلاد المغرب مارة بالأنبار وهبت والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والاسكندرية والفسطاط ومنها الى برقة ثم الى الدولة الرستمية ودولة بني مدرار»[٣٤] كما ذكر اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ، الطرق الممهدة من مصر الى برقة وأقاصي المغرب حيث ينفذ من الفسطاط ثم الى ساحل برقة الذي يسمى «طلميثه» ثم يصير الى العقبة وهي على ساحل البحر ويمر بوديان ومدن صغيرة حتى يصل الى مدينة برقه، وهي مدينة عليها سور وابواب حديد وخندق وتشرف على ساحل يقال له «طلميثه» ترسي فيه المراكب ثم يؤدي الى مدينة برنيق التي تقع على الساحل، ولها ميناء عجيب في الاتفاق والجودة تحوّز فيه المراكب؛ ثم الى اجدابية ثم الى سُرت الواقعة على ساحل البحر المتوسط، ومنها الى مدينة سوق ابراهيم ثم الى مدينة تاهرت حيث تتصل بمرسى يقال له فروخ تصله المراكب بالتجارات المختلفة. وكانت تاهرت تسمى «عراق المغرب»[٣٥]. لكثرة المشارقة من العراقيين وخاصة البصريين والبغداديين والكوفيين. وجاء في جنيزة القاهرة[٣٦] أن

(٢٧) **صورة الأرض** ص ٢١٤.
(٢٨) **صورة الأرض** ص ١٤.
(٢٩) كتاب **التبصر بالتجارة** تحقيق حسن حسين عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، لبنان ـ ١٩٦٦).
(٣٠) **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ١٣٥.
(٣١) **التجارة والملاحة في الخليج العربي** ص ١٠٠.
(٣٢) **التبصر بالتجارة** (باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والأحجار وغير ذلك).
(٣٣) يمكن تتبع التفصيلات التي جاءت عن هذا الطريق عند ابن خرداذبه **المسالك والممالك** (طبع بالأوفسيت لمكتبة المثنى ـ بغداد) ص ٧٢، ٨٧.
(٣٤) **الخراج وصنعة الكتابة** (نشر دي غويه، ليدن ـ ١٨٨٩) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.
(٣٥) اليعقوبي، **كتاب البلدان** (ليدن، طبعة بريل ـ ١٨٩١) ص ٣٥٢.
(٣٦) المقصود بكلمة «جنيزة» حجرة تتخذ كمخزن يلحق بالمعبد اليهودي أو أي مكان تخزن فيه الأوراق المكتوبة بالخط العبري أو غيره، ويعتقد بأنه يجب أن لا تقطع أية ورقة يسطر عليها «اسم الله» وإنما تحفظ في مكان أمين؛ وجنيزة القاهرة هي جنيزة كنيسة الفسطاط (مصر القديمة) والجنيزة القريبة من جبانة البساتين بالقاهرة، وقد عرفت هاتان الجنيزتان باسم جنيزة القاهرة وقد ضمت عقودات ومحاضر للجلسات والخطابات والتقارير؛ وربما تكتشف

بعضاً من تجار افريقية يعملون في تجارة الهند جاءوا من مدن كبرى في بلاد المغرب الاسلامي مثل برقة وطرابلس والقيروان والمهدية وتلمسان وفاس وطنجة أو من مدن صغيرة مثل جبل نفوّسه وأربوس ودرعه[٣٧]. لا بدّ انهم كانوا يسلكون هذا الطريق عبر البحر المتوسط وبلاد الشام والعراق والوصول الى البصرة لإتمام صفقاتهم التجارية مع بلاد الهند عبر مراكز الخليج العربي أو عن طريق سيراف ثم الى مكران، ومنها الى السند ثم الى الهند[٣٨]؛ ومن المستبعد الاعتقاد، بأنهم كانوا يسلكون الطريق البحري من المغرب الى شرق أفريقية ثم الى بحر القلزم (الأحمر) وعدن ومنه الى عمان ثم الى المراكز الموصلة الى الهند.

أما الطريق الرئيسي الثاني، فهو الطريق البحري الذي يبدأ من البصرة عبر الخليج العربي الى عمان حتى يصل الى مراكز البحر الأحمر ومنها الى شرق افريقية ثم يصعد الى القيروان وتونس ومنها الى تاهرت وسجلماسة وغيرها من المراكز التجارية، وقد نقلت عبره تجارات الهند والصين ومراكز الخليج العربي، فضلاً عن سلع العراق والجزيرة الفراتية وبلاد الشام؛ وكان هذا الطريق صالحاً في جميع فصول السنة على ما يذكر ابن رسته، ولكنه كان أحياناً مهدداً بالأخطار التي كانت تتأتى من القرصان وقطاع الطرق[٣٩]، مما يتوجب وضع مقاتلة ونفاطين في كل مركب[٤٠] لحمايته، وجاء أن أخطر نقطة في هذا الطريق هي «سقطري» حيث يمر بها التجار المشارقة في طريقهم الى سواحل شرقي أفريقية للوصول الى سفاله «موزمبيق»[٤١].

وكانت البصرة في هذه الفترة، مبدأ الطرق البحرية، حيث يذهب أولها الى الهند والى شرق افريقية ومنها الى المسالك البرية قاصدة أصقاع المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ويشير ابن حوقل الى سلوك تجار البصرة والمشرق عموماً الطريق البحري الثاني الذي يبدأ من البصرة الى عمان وباب المندب ثم الى البحر الأحمر حتى يصلوا بتجاراتهم الى «مدينة تشمس» التي وصفها بأنها مدينة «لطيفة قديمة أزلية جاهلية» ثم يعودون عن طريق البحر المتوسط الى مصر ثم بلاد الشام ويصلون الى العراق بالطريق البري؛ وفي هذا الطريق «يحمل أهل البصرة تجاراتهم في المراكب ثم يخرجون الى البحر المحيط ويعودون الى البحر العربي فيسيرون من حيث شاؤوا»[٤٢].

ومن المفيد أن نذكر أن «المنار»[٤٣] الذي كان على هيئة بيوت أنشئت فوق جذوع نخل منصوبة في نهاية الخليج العربي وبداية البحر العربي يبلغ ارتفاعها حوالي الخمسين قدماً فوق سطح الماء، وقد رتب فيها قوم يوقدون بالليل لكي تسترشد به السفن والمراكب القادمة الى البصرة أو تتباعد عن الأماكن الضحلة؛ إن هذا المنار يدلك على مدى حجم التجارة البحرية التي كانت البصرة وميناؤها الأبلة من مراكزها المهمة ويوضح الأهمية التي كانت تنطوي عليها تجارة شرق أفريقية وشمالها وكذلك تجارة الهند والصين.

ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤكد النشاط الفعّال الذي تميّز به مرفأ الأبلة في مجمل الحركة التجارية في البصرة[٤٤] وخاصة ما يتعلق منها بتجارة بلاد المغرب، فهذا المرفأ يقع على نهر الأبلة المرصوف بالسفن وقد أنشئت أدراج صخرية على ضفافه ليمكن النزول الى مستوى النهر الواطىء في حالة الجزر وذلك تسهيلاً لشحن السفن بالبضائع أو تفريغها، ويذكر اليعقوبي، أن «البصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها وأموالها»[٤٥] ويؤكد ابن خرداذبه هذا النشاط من خلال كلامه عن مسلك التجار اليهود الراذانية من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً مارين بالأبلة حيث كانت الطرق

جنيزات أخرى في المستقبل في مدن تونس والبصرة وبغداد (س. د جواتياين، **دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية** (ترجمة د. عطية القوصي ـ الكويت ١٩٨٠) ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٣٧) **دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية** ص ٢٦٩.

(٣٨) ابن خرداذبه، **المسالك والممالك** ص ١٥٤.

(٣٩) ابن رسته، **الاعلاق النفيسة** ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٤٠) المقدسي، **احسن التقاسيم** ص ١٢.

(٤١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** جـ ١ ص ٨٨ ـ ٨٩ ثم انظر ايضاً، د. عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ١٤٩.

(٤٢) **صورة الأرض** ص ٨٠.

(٤٣) رآه ناصر خسرو ووصفه بالخشّاب، وهو يتكون من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المناجيق ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعاً وله سقف من حجارة وقرميد يقف تحته الحراس، وقد بناه تاجر كبير؛ والغرض منه ارشاد السفن لكي لا ترتطم بالأرض وكذلك لمعرفة الملاحين الاتجاهات وليروا القرصان ان وجدوا. وهناك خشاب آخر ولكن ليس على سطحه قبة لانهم لم يستطيعوا إكماله (سفر نامه، ص ١٥١ ـ ١٥٢) ثم انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** جـ ١ ص ٢٨٠؛ المقدسي، البشاري، **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ص ١٢.

(٤٤) المقدسي، **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ص ١٢٨.

(٤٥) **كتاب البلدان** ص ٣٢٣.

متصلة اليها ببعضها بعض[٤٦] تجارات أهل البصرة مع بلاد المغرب.

لعل اهتمام التجار البصريين بتجاراتهم مع بلاد المغرب الاسلامي في هذه الفترة، كان يحتل الأولوية في نشاطاتهم الاقتصادية لأنها كانت على ما يبدو، تجارة مربحة وتعود عليهم بفوائد جمَّة لذلك نسمع بوجود جالية من تجار البصرة كانت لها جلبة كبيرة في مدينة تاهرت حاضرة الدولة الرسمية، حيث أقامت منهم طائفة كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم وأسواقهم الخاصة، فيؤكد ابن الصغير المالكي وجود ثلاث جاليات متميزة من التجار في مدينة تاهرت هي جالية أهل الكوفة وجالية أهل البصرة وجالية أهل القيروان بقوله: «وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته حتى داراً الاّ قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين»[٤٧].

ويمكن أن نستنتج بما جاء عند ابن الصغير المالكي حول المساعدات من الأموال التي جاء بها اباضيو البصرة لزملائهم إباضيي المغرب عند قيام الدولة الرستمية الأباضية[٤٨] وحضور البصريين الى تاهرت والتعرف عليها في المرة الأولى ثم عودتهم اليها بعد ثلاث سنين وهم يحملون الأموال أيضاً لإعانة زملائهم، فوجدوا تاهرت قد تبدلت اذ أقيمت فيها «قصور مشيدة ودور منظمة وأبنية مبهجة وقباب مرتفعة وأسواق مزدحمة ومساجد متعددة بمنارات عالية، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسوّمة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء»[٤٩]. إن ذلك على أغلب الاحتمال، مهَّد لتجار البصرة التعرف على هذه البلاد والقيام بنقل تجاراتهم الى تاهرت وحواجز المغرب الأخرى ووضع الأساس لتبادل تجاري منظم في المستقبل، كما أتاح لهم معرفة الطرق والمسالك الآمنة اليها ومكن من انتقاء السلع والبضائع التي يزمعون مبادلتها بسلع هذه البلاد.

كما أشار هذا المصدر كذلك الى اهتمام أئمة بني رستم بتجارة المشرق فشاركوا فيها واشرفوا عليها بأنفسهم وأولوا التجار رعايتهم وكفلوا لهم الحماية والأمان، وكذلك فإننا لا نعدم وجود صلات تجارية بين أهل البصرة وأهل سجلماسة، فقد كانت قوافل التجار المشارقة ومنهم أهل البصرة تجتاز بلاد المغرب الى سجلماسة حاضرة الدولة المدرارية التي غصت هي الأخرى بالعراقيين من بغداد والكوفة والبصرة، وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق الى بلاد المغرب وتعود محملة بالمتاجر السودانية في صحبة أهل سجلماسة فيذكر ابن حوقل قائلاً: «إن القوافل كانت تجتاز بالمغرب الى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة الى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الاسلام سعة حال»[٥٠].

أما برقة فكان يختلف اليها التجار والغرباء من جميع الآفاق ومنهم تجار البصرة والمشارقة الذين كانوا يطلبون ما فيها من التجارة وأنواع المتاجر، وقد وصف بعض هؤلاء بأنهم عابرون عليها مغرِّبين ومشرِّقين، اي أنهم جعلوها مركزاً لتجارتهم في مدن المغرب التي كانت تجاورها، حتى أصبحت أسواقها نشطة من المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب، فقد ذكر ابن حوقل عنها قائلاً: «إن بها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغرّبين ومشرقّين ذلك أنها تتفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهؤلاء، ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص جميع الأغذية»[٥١].

ويزودنا البكري بمعلومات مفيدة عن المدن التي كان التجار المشارقة من أهل العراق وايران يترددون اليها بتجاراتهم أو يتزودون منها بالبضائع الخفيفة، فيذكر مدينة «صفاقس» التي كان يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتاع والزيت وهي محط السفن[٥٢]، ومدينة «تلمسان» التي كانت دار مملكة قبيلة زناته احدى اكبر القبائل البربرية، وهي كذلك

(٤٦) **المسالك والممالك** ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٤٧) ابن الصغير المالكي، **سيرة الأئمة الرستميين** ص ١٢، ١٣.

(٤٨) كانت المساعدة الأولى ثلاثة أحمال من المال وست غرائر، أما المساعدة الثانية فهي عشرة أحمال من الذهب، وكان إباضيّو البصرة قد جمعوها من إباضيي المشرق لتمكين الدولة الإباضية الفتية وارساء دعائمها (المصدر نفسه ص ١٣، الباروني **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، ص ٨٥.

(٤٩) ابن الصغير المالكي، المصدر نفسه ص ١٣.

(٥٠) **صورة الأرض** ص ٦٥.

(٥١) المصدر نفسه ص ٦٩.

(٥٢) وقال ان من زيتها يمتار كذلك أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم، وتقابلها في البحر جزيرة تسمى «فرفنه» تردها السفن من الاسكندرية والشام وبرقة ولعل أكثر هذه السفن كانت تقل أهل العراق من التجار البصريين والبغداديين (**المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٠**).

موسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق[٥٣]، ومدينة «أغمات» التي كان ينزل بها التجار والغرباء من المشارقة وكان ساحلها رباط فوز على البحر المحيط وفيه تنزل السفن من جميع البلاد[٥٤].

وليس أدل على أهمية تجارة أهل المشرق بمن فيهم البغداديون والبصريون لبلاد المغرب وللدولة الرستمية التي قامت في المغرب الأوسط سنة ١٤٠ ـ ٣٥٤ هـ من اخراج الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن أبي اليقظان ابنه أبا حاتم في جيش من وجوه زناته ليجوزوا قوافل قد اقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى قد خافوا من قبائل زناته[٥٥]، وكذلك بالنسبة لدولة الأغالبة التي قامت سنة ١٨٤/ ٨٠٠ م في المغرب الأدنى حيث كانت القوافل التجارية والتجار يسيرون في الطرق آمنين»[٥٦]، ويلقي ابن الصغير، ضوءاً مفيداً على طبيعة النشاط التجاري الذي كان يزاوله التجار المشارقة والمغاربة، حيث اتخذوا لهم مراكز لنقل تجاراتهم في السودان لاتمام صفقاتهم التجارية من الذهب، فيذكر استعمال «السبل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة بضروب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنتين أو اقل من ذلك أو اكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون»[٥٧].

واجتهد تجار البصرة في نقل بضاعات الهند الى المغرب لغرض الحصول على أرباح كبيرة لرواجها وأهميتها هناك، فيشير الدمشقي الى أن الاسفاط الهندية التي كان يحملها البصريون بالمغرب مخالفة لقيمتها باليمن وقيمة المرجان بالمشرق غير قيمته بالمغرب وذلك لأجل القرب من المعادن وكذلك الأمكنة المشهورة كل مكان فيها يختص بفن من الفنون لا ينطبع في غيرها مثله فإن قيمة ذلك الشيء المنوع في معادنه مخالفة لقيمته في الأماكن التي يستظرف فيها»[٥٨].

والمؤسف أن معلوماتنا عن أسماء تجار البصرة الذين كانوا يختلفون الى حواضر المغرب ومراكزه أو عن أسماء التجار المغاربة الذين كانوا يترددون الى البصرة، معدومة، سوى ما يتعلق بتاجرين من البصرة هما نصر بن منصور بن الحسن بن العطار الذي ذكره ابن الساعي[٥٩] وحمّاد بن هبة الله بن حمّاد الذي أشار اليه سبط ابن الجوزي[٦٠]. وكذلك الجهبذان العراقيان يوسف بن فنجاس وهارون بن عمران اللذان جاء ذكرهما عند آدم متز[٦١]، والتاجر العراقي ابن الجصاص الذي كان يتعاطى بيع الجواهر[٦٢].

بضائع التجارة

يمكن أن نفهم بأن عمليات التبادل التجاري بين البصرة وبلدان المغرب الاسلامي خلال هذه الفترة في السلع والمواد، إنما تعني أولاً، الصادرات، وهو ما يحمله التجار سعياً الى بلاد المغرب واقاصيه سواء أكانت سلعاً عراقية أو مشرقية يقوم بمبادلتها تجار البصرة والكوفة وبغداد، فتتزود مدينة أودغست «بالنحاس المصنوع وثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة»[٦٣] كما تتلقى سجلماسة وتاهرت السيوف الردينية والسمهرية والنبال الخشبية والساج والمنسوجات والخز والبز والسيجان والديباج، ويشير ابن حوقل الى جلب التجار للخزف العراقي المتقن والحسن الصنع الى مدينة ترشيش (تونس) وذلك عندما استحدثوا فيها البنيان والبساتين والحيطان[٦٤].

وأشارت جنيزة القاهرة الى أن تونس كانت تتلقى من الهند والمشرق عموماً عن طريق البصرة، التوابل الشرقية والعطور والفلفل والدارصيني (القرفة) والقرنفل والزنجبيل والمرّ والمسك والكافور ونباتات الصبغة والنيلة والبقم والدهانات والنباتات الطبية والعقاقير وملح الأمونيوم والسكر ومربى الورد[٦٥]، ولعل ذلك كان يتم بمساعدة التجار البصريين والعراقيين عامة.

غير أن الثياب البصرية البراقة والتمور وماء الورد والبنفسج

(٥٣) المصدر نفسه ص ٧٧.
(٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣.
(٥٥) ابن الصغير المالكي، **سيرة الأئمة الرستميين** ص ٥٠.
(٥٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** حـ ٦ ص ٥.
(٥٧) ابن الصغير المالكي، المصدر السابق ص ١٣.
(٥٨) **الإشارة الى محاسن التجارة** (مصر ـ ١٣١٨ هـ) ص ١٠ ـ ١١.
(٥٩) **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير** (تحقيق مصطفى جواد، ١٩٣٤ ـ بغداد) ص ١٤.
(٦٠) **مرآة الزمان** (حيدر آباد الدكن، الهند ـ ١٣٧٠ هـ) حـ ٨ قسم ٢ ص ٤٠٣.
(٦١) **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** حـ ٢ ص ٣٨٤.
(٦٢) التنوخي، **نشوار المحاضرة** (القاهرة ـ ١٩٢١) حـ ١، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٦٣) البكري، **المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، ص ١٥٩.
(٦٤) **صورة الأرض** ص ٧٥.
(٦٥) س. د. جواتياين، **دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية** ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

والحناء والمناديل البلّية (نسبة الابلّة) والعمائم، كانت في مقدمة ما يحمله التجار البصريون الى المغاربة ليبادلوها بالذهب[٦٦]، كما أن أغلب البضائع التي كان يجلبها التجار من الصين والهند الى البصرة كانت تتخذ سلعاً للتبادل التجاري مع بلاد المغرب ومنها التوابل والأحجار الثمينة ونسيج الذهب وأسنان الفيل[٦٧] والمسك[٦٨] والعود[٦٩] والحرير الذي اشتهرت به بلاد الصين؛ ونقل التجار كذلك، الفلفل من الهند الى البصرة، ثم واصل البصريون نقله الى المغرب، فيشير القزويني الى أن «الفلفل يحمل من أقصى المشرق الى اقصى المغرب»[٧٠] فضلاً عن العطر والأفاويه والنارجيل وأنواع الياقوت والماس والبللور والسنباذج (الذي يعالج به الجوهر)[٧١] والقصدير وخشب الساج وقرن الكركدن[٧٢] الذي كان من السلع النادرة، يتحف بها المشارقة، أهل المغرب، وكذلك الهيل والقرنفل والدارصيني[٧٣] وورق التنبول[٧٤] (لتقوية الاسنان واللثة وازالة الرطوبة المؤذية والرائحة الكريهة من الفم) والزمرد والكبريت الأبيض والأصفر والحديد الخام والفضة والذهب[٧٥]، ونعال كنباية الذي يصنع في الهند ويتهافت عليه أهل المغرب[٧٦] والخضاب والطاووس والقردة[٧٧] والأنماط والوسائد والستور[٧٨] وكذلك الوشي ودهن البنفسج[٧٩] والطيالسة من الصوف والموازين[٨٠] والحصر والطنافس[٨١] والشراب والمعاجن والكحل والسكر والكاغد[٨٢] والقطيفة والرصاص القلعي (التنك)[٨٣] والغضائر[٨٤] والميازر[٨٥] والأحذية والقنا[٨٦] والعصائب[٨٧] والفواكه المجففة المقددة[٨٨] وزيت الزيتون والزجاج والأدوات الزجاجية[٨٩].

والى جانب ذلك، فقد كان المغاربة يستهلكون «فستق الشام»[٩٠] الذي كان يصل اليهم مع الأصناف الأخرى على ما يبدو بواسطة التجار البصريين، وكذلك الأقمشة المذهبة المنقوشة، العراقية والخراسانية والمصرية واليمنية والشامية[٩١] فضلاً عما يرد اليهم من جنوه وفرنسا وميلان ولمباردي[٩٢].

على أننا نلمس إضافة الى هذه السلع والمواد والتجارات

(٦٦) ابن حوقل، المصدر السابق ص ٦١.

(٦٧) ابن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** (دار احياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٩٥٤) جـ ١ ص ٢١٦، جـ ٢ ص ٩١٣ جـ ٣ ص ٣٤١؛ القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الانشا** (المطبعة الأميرية، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٢) جـ ٤ ص ٣٤، ٤٠٨، ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار** (دار صادر، بيروت ـ ١٩٦٠) جـ ١ ص ١٧٣.

(٦٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** جـ ١ ص ١٥٨.

(٦٩) اليعقوبي، **التاريخ** جـ ٢ ص ٣٦٧.

(٧٠) **آثار البلاد واخبار العباد** (بيروت ـ ١٩٦٩) ص ١٢٣.

(٧١) ابن خرداذبه، **المسالك والممالك** ص ٦٤.

(٧٢) المسعودي، المصدر السابق جـ ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٧٣) اليعقوبي، المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٧٤) المسعودي، المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٩.

(٧٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٥.

(٧٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ١١٦.

(٧٧) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٧، ٣٧٧.

(٧٨) الجاحظ، **التبصر بالتجارة** ص ٣٢؛ الثعالبي، **لطائف المعارف** ص ١١١.

(٧٩) ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان** ص ٢٥٣؛ الثعالبي، **لطائف المعارف** ص ١١١.

(٨٠) المقدسي، **أحسن التقاسيم** ص ١٤٥.

(٨١) الجاحظ، **التبصر بالتجارة** ص ٢٩ ـ ٣٢.

(٨٢) المقدسي، المصدر السابق ص ٢٢٤.

(٨٣) ابن خرداذبه، **المسالك والممالك** ص ٧١.

(٨٤) الجاحظ، المصدر السابق ص ٢٦.

(٨٥) المقدسي، المصدر السابق ص ١٨٠.

(٨٦) الجاحظ، المصدر السابق ص ٢٦.

(٨٧) المصدر نفسه ص ٢٧.

(٨٨) المقدسي، المصدر السابق ص ١٤٥.

(٨٩) المصدر نفسه ص ١٨٠.

(٩٠) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار** (الاسكندرية ـ ١٩٥٨) ص ١٥٤.

(٩١) عز الدين احمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي** (بيروت ـ ١٩٨٣) ص ٣٢٨.

(٩٢) المصدر نفسه ص ١٢٨.

المتنوعة نشاط التجار البصريين والبغداديين والمشارقة عموماً في تجارة المواد الخام (الأولية) مع بلاد المغرب، حيث تدخل هذه المواد في صناعات المغاربة وفنونهم، فقد استقبلت مدن المغرب ومنها بجّاية وسبته وغيرها كثيراً مما كان يجلبه هؤلاء التجار وخاصة القطن والكتان والحرير والجواهر والياقوت[٩٣].

أما الواردات فيمكن القول بأن على رأس ما يستجلبه تجار المشارقة والبصريون خاصة الى العراق، ما أشار اليه الجاحظ من تجارة المغرب وهي النمور والقرظ (وهو ورق السلم تدبغ به الجلود) واللبّود والبزاة السود والسنط (ويعتصر منه الأقاقيا وهو ما يتداوى به)[٩٤] إضافة الى ما ذكره ابن حوقل حيث يجلب من تونس، القنب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت والماشية[٩٥]، وكذلك المولدات الحسان الروقة كالتي استولدهن بنو العباس وغيرهم[٩٦]، «والغلمان الروقه والعنبر والحرير والأكسية الصوف الرفيعة والدنيّة وجباب الصوف وما يعمل به الانطاع والحديد والرصاص والزيبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة»[٩٧] ومن مدينة أودغست، العنبر المخلوق الجيّد[٩٨] ومن سفاقس يمتار تجار البصرة والمشارقة عن طريق برقة وجزيرة فرفته التي تقابل سفاقس في سفنهم، المتاع والزيت[٩٩].

ويذكر الاصطخري من تجارات المغرب الى المشرق ما يؤتى به من السودان والأندلس وكذلك اللبّود المغربية والبغال والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحرير والسمور ويقول أيضاً «والذي يقع من المغرب الخدم السود والبيض من بلاد السودان والأندلس»[١٠٠].

ويبدو، أن السجاد الذي اشتهرت به القيروان والمنسوجات والثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع[١٠١] وآلات السلاح[١٠٢] والسروج المفضضة واللجم المذهبة وأثواب الحرير والسيوف المحلاة[١٠٣] كانت تشغل اهتمامات التجار المشارقة ومنهم البصريون، فقد كانوا يجدّون في الحصول عليها أو مبادلتها ببضائعهم وامتعتهم لتشكل حجر الزاوية في تجاراتهم الى بلدانهم.

وذكرت جنيزة القاهرة، أن التجار المشارقة وغيرهم كانوا يترددون الى تونس للحصول على البضائع لكي ينقلوها الى بلدانهم، فذكرت الحرير بكل أنواعه وأشكاله المصقولة ومنسوجات سوسه من الكتان والقماش الحريري المشجر والمعادن والفضة والرصاص والصفيح وبعض الأشكال من الزئبق والحديد والزيت ومستخرجاته مثل الصابون والشمع والزعفران وقشر اللوز وسمك التونة الملح والقمح وجلود الحيوانات «النطع» وعقود المرجان المنظومة وغير المنظومة والمنسوجات الأندلسية والصقلية والسرقسطية، ولعل هذه الأصناف الأخيرة وردت الى تونس من بلاد أخرى لإعادة تصديرها الى المشرق والعراق والهند. كما اهتم التجار بنقل الكتب والمؤلفات والمصنفات باللغات العربية والعبرية وخاصة من القيروان إذ يحصل عليها هؤلاء التجار الشغوفون بمؤلفات كبار العلماء من مكتباتهم[١٠٣].

تجارة الذهب والنقود الى البصرة

استهدفت بعض قوافل تجار البصرة من وراء تجاراتها الى بلاد المغرب ومراكزه الاقتصادية الحصول على المتاجر السودانية الرائجة والعودة بها في صحبة أهل سجلماسة الى المشرق[١٠٤] ونسمع أن أهم هذه التجارات تتركز حول الذهب السوداني؛ فيشير الاصطخري الى أن عماد تجارة المغرب الى المشرق هو الذهب الذي ينقل من بلاد السودان[١٠٥] وأن تجار التبر الذين

(٩٣) عز الدين احمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي** ص ٣٢٩.
(٩٤) **كتاب التبصر بالتجارة** ص ٣٤.
(٩٥) **صورة الأرض** ص ٧٥.
(٩٦) مثل سلامة البربرية ام الخليفة أبي جعفر المنصور وقراطيس أم الخليفة الواثق بالله وقتول أم الخليفة القاهر بن المعتضد بالله (المصدر نفسه ص ٩٤ ـ ٩٥).
(٩٧) المصدر نفسه ص ٩٥.
(٩٨) البكري، **المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ص ١٥٩.
(٩٩) المصدر نفسه ص ٢٠.
(١٠٠) **المسالك والممالك** ص ٣٧ يقول بهذا الصدد: «والجواري المثمنات تأخذ الجارية من غير صناعة على وجوههن بألف دينار واكثر».
(١٠١) البكري، المصدر السابق ص ٣٤.
(١٠٢) ابن عذارى، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب** حـ ١ ص ١٣٨.
(١٠٣) جواتياين، **دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية** ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(١٠٤) ابن حوقل، **صورة الأرض** ص ٤٣.
(١٠٥) **المسالك والممالك** ص ٣٧.

أشار اليهم البكري يسلمون بضاعتهم الى التجار المشارقة ومنهم البصريون في مدينة القيروان[١٠٦].

ويذهب الدكتور محمود اسماعيل استناداً الى ابن الفقيه والقلقشندي وبعد أن يفصِّل في منافذ بلاد السودان وموانئه الداخلية، الى القول بأن قوافل المدراريين والرستميين تخرج الى هذه المنافذ محمّلة بالملح والنحاس والودع لتعود بالذهب والأبنوس وسن الفيل والجلود الشركية الى سجلماسة وتاهرت، حيث يستلمها تجار المشرق فيقومون بنقلها الى ديارهم[١٠٧]؛ ولكن البكري يؤكد بأن تجار البصرة والمشارقة عموماً يجعلون في رأس اهتماماتهم الحصول على ذهب أودغست «الذهب الأبريز الخالص يأخذونه خيوطاً مفتولة وهو أجود ذهب أهل الأرض وأصحه»[١٠٨].

ولعل من اليسير القول، بأن اليهود في سجلماسة كانوا يحتكرون استغلال مناجم الفضة والذهب في منطقة الجريد، قسطيلية وغيرها[١٠٩] وقد أوجدوا لهم وكلاء من التجار المشارقة وربما كان الكثير من هؤلاء الوكلاء البصريين، أودعوهم بضائعهم من الذهب ليروجوها في انحاء المشرق بأرباح وفيرة، أو أنهم كانوا يحملونها بأنفسهم الى هناك. كما أن اليهود في مدينة تاهرت الذين عاشوا في أحيائهم الخاصة المسماة ـ جيتو ـ هيمنوا على كثير من مناشط التجارة ومنها تجارة الذهب، وكانوا يسمون بالرهادنة[١١٠] ولعلهم هم أنفسهم التجار اليهود الراذانية[١١١]، ويُلقي ابن خرداذبة ضوءاً مفيداً على هؤلاء التجار الذين كان يسميهم «الراذانية»[١١٢] وعلى نشاطهم في نقل التجارة بين المغرب وبلاد الهند والسند والصين من جهة وبين المغرب والقسطنطينية وبلاد الفرنجة من جهة أخرى، وكانوا يسلكون الطريقين التجاريين اللذين أشير اليهما، الأول من المغرب عن طريق البحر المتوسط الغربي ثم يتحولون الى الطرق البرية الى البحر الأحمر ثم يسلكون السواحل الشرقية الى جدة ثم الى البصرة ومنها الى الهند والسند والصين؛ والطريق الثانية توصلهم من المغرب الى القسطنطينية ثم الى انطاكية ومنها الى نهر الفرات حتى تصل بهم بغداد ثم يتحولون عن طريق دجلة الى أبلة البصرة ومنها الى عمان والسند والهند والصين، حيث يحمل هؤلاء التجار بضاعاتهم وامتعتهم وأهمها الذهب والنقود[١١٣].

أما ابن الفقيه الهمداني فيسميهم «تجار البحر الراهدانية» ويقول عنهم بأنهم كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب وبالعكس، حيث يتاجرون بالذهب والديباج والخز الفائق الذي يأتون به من بلاد الأفرنج الى الفرما ثم يركبون البحر المتوسط متجهين الى الصين ثم يعودون محملين بالدارصيني والماميران ومتاع الصين الى الفرما والبحر المتوسط ثم الى القسطنطينية فيبيعون المسك والعود وجميع ما معهم هناك، وبعد ذلك يصلون الى انطاكية ثم يعودون الى بغداد ومنها الى أبلة البصرة[١١٤].

ويذكر آدم متز، أن اليهود الراهدانية كانوا يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، وكان المسلمون يطلقون عليهم اسم «تجار البحر»[١١٥] ولتسهيل عملية نقل التجارة الى الهند والصين، فقد أقام قسم منهم في مدينة البصرة، حيث كانت لهم أحياؤهم

(١٠٦) كما اكد صاحب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** شهرة بلاد السودان بالذهب، فقال: «بأنها بلاد التبر وأنه أكبر غلّة عند السودان وأنهم عليها يعوّلون صغيرهم وكبيرهم (الادريسي) (طبعة دوزي ص ٨).

(١٠٧) **الخوارج في المغرب الاسلامي** ص ٢١١؛ نقلاً عن ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان** ص ٨٧ والقلقشندي، **صبح الأعشى** حـ ٥ ص ١٦٤.

(١٠٨) **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ص ١٥٩.

(١٠٩) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار** ص ٢٠٢.

(١١٠) ابن الصغير المالكي، **سيرة الأئمة الرستميين** ص ٤٦، ٥٧.

(١١١) ولعل اسم «الرهدانية» أو «الراهدانية» أو «الراذانية» اشتق من اسم نهر الرون فنسبوا اليه. راجع آدم متز، **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** حـ ٢ ص ٣٧١ هامش رقم (١) نقلاً عن سيمونسن الذي يقول انها نسبة الى نهر الرون، ولكن دي غويه لا يوافق على هذا التفسير الغريب ويرى أنه غير وجيه.

(١١٢) يذكر المقدسي أن التجار اليهود هم من أهل مدينة اليهودية وهي قصبة مدينة اصفهان. (**احسن التقاسيم** ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩).

(١١٣) يذكر، ان هؤلاء التجار، كانوا يتكلمون العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية، وأنهم كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً. يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فتحة القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى «الجار وجده» (والمقصود هنا جدة) ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يُحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملون الى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك وإن شاءوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الأبلة ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (**المسالك والممالك** ص ١٥٣ ـ ١٥٤).

(١١٤) **مختصر كتاب البلدان** ص ٢٧٠.

(١١٥) **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** ص ٢ ص ٣٧١.

ومساكنهم[١١٦] ويذهب الدكتور عبد العزيز الدوري الى القول بأن البصرة قد احتوت في هذه الفترة على كتلة يهودية مهمة[١١٧]. ومن المحتمل جداً أن يشكل الذهب الحجر الأساس لتجاراتهم مع بلاد السودان والمغرب من جهة وبلاد الافرنج والقسطنطينية والهند والصين من جهة أخرى.

وقد كشفت جنيزة القاهرة، أن عائلات يهودية كانت تمتهن التجارة في بلاد المغرب والاسكندرية وخاصة بعد تحول الفاطميين الى مصر في منتصف القرن الرابع الهجري، وكان لها فروع في العراق وخاصة في بغداد والبصرة وكذلك في فلسطين وشمال افريقية[١١٨] كما جاء أن هذه التجمعات اليهودية قد تعاونت فيما بينها على تبادل الصفقات التجارية والمشاركة مع التجار المسلمين والهندوس والمسيحيين[١١٩] للرواج في تجارات مربحة، وكان لهذا أثره في ازدياد النشاط التجاري بين هذه المدن والمراكز في جميع أنحاء العالم الاسلامي.

ومن المفيد أن نذكر أن الإتجار بالعملة وخاصة الذهبية كان أحد الأشكال الرئيسية في التجارة الدولية في هذه الفترة، وكان النشطاء من التجار المشارقة وخصوصاً أهل البصرة أكثر التجار مقايضة للذهب وكانت تجري في بلاد السودان مصدر الذهب[١٢٠] بواسطة التجار المغاربة حيث يلتقي بهم تجار البصرة والعراق فيبادلونهم بضاعتهم.

ويبدو أن يهود المشرق، كانوا يفضلون امتهان تجارة الذهب على غيرها من البضائع لسهولة الإتجار بها وخفتها ولما تدره من أرباح وفيرة. ويؤكد آدم متز أن يهود المشرق اختصوا بهذه الحرفة من حرف التجارة دون غيرها[١٢١].

أما تجارة الإئتمان التي كان يقوم بها التجار في ميناء البصرة العظيم لتسهيل عملية التجارة مع بلاد المغرب والهند والصين، فكان الصيارفة يسلفون الأموال للتجار ويتسلمون منهم الودائع؛ ويزيدنا ناصر خسرو بياناً حول ذلك بقوله: «كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكاً ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف فلا يستخدم المشتري شيئاً غير صك الصرف طالما يقيم في المدينة»[١٢٢] ويطلق الدكتور عبد العزيز الدوري على أساليب المعاملات التجارية التي كانت تجري في ميناء البصرة طريقة التعامل المزدوج وهو أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد، ويقول بأن هذه الطريقة وصلت حد الكمال في البصرة حيث كانت العملية بوجهيها تتم عن طريق الصرافين دون الحاجة الى استعمال النقود فعلاً[١٢٣].

الخلاصة

تشير المعلومات المستخلصة من نصوص قليلة ومشتتة الى أن هناك صلات تجارية بين البصرة والمغرب الاسلامي، نسمع بوجودها منذ القرن الثاني الهجري؛ وتتبدى أهميتها بسبب أنها تقدم صورة عن التطورات الاقتصادية والاجتماعية خلال هذه الفترة، ليس في العراق والمغرب فحسب، وإنما في جميع العالم الاسلامي.

إن التباعد الجغرافي بين هذه البلدان وتنائي المغرب عن البصرة، يكسب الصلات التجارية التي كانت تربطها أهمية استثنائية، حيث كانت تنقل تجاراتها عبر مراكز تجارية متعددة حتى تصل الى مستقرها، كما يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. فكان لهذا تأثيره في تنشيط التجارة في جميع المحطات التي تمر بها.

وقد سلك التجار والمسافرون، سواء البصريون منهم أو المشارقة عامة أو اليهود الراذانية «تجار البحر»، الطريقين التجاريين اللذين ترسم البحث مواضعهما في البلاد التي يمر بها استناداً الى مصادر البلدانيين والجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين فضلاً عن مصادر المؤرخين المعاصرين، حيث نقلت عبرهما سلع العراق والخليج العربي وايران والسند والهند وبلاد الصين. وكذلك من الجهة الثانية جرى اهتمام هؤلاء التجار وأقرانهم من التجار المغاربة، بتزويد أهل هذه البلدان ببضائع المغرب وأمتعته وخاصة ذهب السودان الذي كان يستجلب الى هذه البلاد أو ذهب أودغست.

(١١٦) لا نعرف فيما اذا كان لهم ـ جيتو ـ في المدينة كما هو الحال بالنسبة الى مدينة تاهرت.
(١١٧) **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ٣٣.
(١١٨) جواتياين، **دراسات في التاريخ الاسلامي** ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(١١٩) اوضحت وثائق الجنيزة عدم وجود أي أثر للعداء الطائفي، إذ كان الإحساس بأن خسارة أي فرد من الأفراد هي خسارة للجميع ارادها الله وقد ساهمت هذه الروح في ازدياد روابط الأخوة بين التجار» المصدر نفسه ص ٢٧٧.
(١٢٠) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار** ص ٢١٩.
(١٢١) **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** حـ ٢ ص ٣٨٣.
(١٢٢) **سفرنامة** ص ١٤٦.
(١٢٣) **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** ص ١٥٤.

بحوث التاريخ القديم والآثار

الوعد الإلهي في العهد القديم بعودة الفلسطينيين الى أرض فلسطين

د. محمد عبد السلام منصور

كلية الآداب ـ جامعة قاريونس.

مقدمة

تستند الصهيونية العالمية في إقامتها للدولة الاسرائيلية على الأراضي الفلسطينية الى **اسس تاريخية وسياسية وحربية ودينية**.

والأسس التاريخية تتلخص في أنه كانت لهم دولة سابقة أو كيان سياسي سابق في ما يعرف بفلسطين الحالية، وهذه الدعوى يمكن رفضها على أساس أن هذا الكيان السياسي السابق لا يخص الصهاينة ولكنه يخص بني اسرائيل، وهؤلاء كما سنبين فيما بعد في هذا البحث لا يعرف أحد اين هم الآن.

اما **الأسس السياسية** فتتلخص في وعد بلفور في إقامة دولة يهودية لهم في فلسطين وامتداد هذا الوعد في صورة قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولكن هذه الدعوى يمكن رفضها ايضاً على أساس أن القانون الدولي العام لا يعطي للدولة الوصية حق التصرف في الدولة الموصى عليها بالتنازل. كما أن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة سياسية كانت أو غير سياسية هي مجرد توصيات غير ملزمة لأحد وخاصة لمن لا يقبلها، والشعب الفلسطيني لم يقبل هذه القرارات حتى الآن.

وأما **الأسس الحربية** فهي ظاهرة في نجاحهم الباهر في استخدام العنف لإقامة دولتهم وفي فرضها على الشعب الفلسطيني، وعلى كافة الدول المحيطة بهم. ولكن هذه الدعوى يمكن أن ترفض أيضاً على أساس أن القانون الدولي العام فيما عدا حالة الدفاع عن النفس لا يبيح استخدام العنف في سبيل الوصول الى تحقيق أية أغراض سياسية كانت أو غير سياسية.

بقيت أمامنا إذن **الأسس الدينية** للدعوة الصهيونية، وهذه الأسس هي في الواقع أسس لاهوتية تتلخص في ادعائهم بأن الله سبحانه وتعالى قد وعدهم في كتابهم المقدس «أي التوراة» بأرض فلسطين، ومهمة هذا البحث تتلخص في مناقشة هذه الدعوى وبيان بطلانها مستندين في ذلك الى نفس الأسس التي تستند إليها الصهيونية العالمية في إقامة هذه الدعوى ألا وهي كتابهم المقدس أي التوراة، ذلك لأن الدراسة الجادّة المحايدة لما ورد في التوراة بهذا الخصوص ستثبت لنا أن الصهيونية العالمية قد خدعت الرأي العام العالمي عن طريق اعطائها صورة ناقصة ومشوّهة لنصوص التوراة، ومن ثم استطاعت الصهيونية العالمية أن ترسخ في الأذهان القصة السياسية المشوهة القائلة بأن أرض فلسطين قد وعدوا بها في التوراة.

ففي هذا البحث نحاول أن نثبت أن القبائل المؤابية والعمونية هي من نسل لوط عليه السلام، وكانت اقامتها في الجهة الشرقية من نهر الاردن منذ زمن لوط وحتى الآن.

كما نحاول أن نثبت أيضاً أن بعض هذه القبائل المؤابية والعمونية قد نزحت الى غرب نهر الأردن وامتزجت بالقبائل الفلسطينية وغيرها من القبائل التي تسكن أرض كنعان بعد أن ورثت ملك داود وكوّنت الشعب الفلسطيني.

«فهل المؤابيون والعمونيون النازحون للجهة الغربية من نهر الأردن هم الفلسطينيون الآن؟ إذا صح هذا فهؤلاء لهم وعد إلهي في العهد القديم بعودتهم الى أرضهم!!.

إن اليهود يدعون أن حقوقهم في فلسطين ترتكز أساساً على ما جاء في التوراة وخاصة سفر التكوين[1]. وهو وعد من الرب الى

(١) سفر التكوين ـ الاصحاح الخامس عشر ـ آية ١٨.

ابراهيم الخليل عليه السلام غير أن الرب وعد أيضاً اسحق ثم يعقوب بنفس الوعد قائلاً[2]:

«والأرض التي أعطيتها لابراهيم ولاسحق من قبلك اعطيها لك ولنسلك من بعدك» ولتوضيح هذه القضية سوف نحاول عرض وتقرير بعض الحقائق عن الديانة اليهودية.

لقد نزلت التوراة على موسى حوالى عام ١٣٠٠ ق. م. ثم توالى الوحي بعد ذلك على أنبياء بني اسرائيل. ولقد بدأ تدوين بعض أسفار العهد القديم منذ منتصف القرن التاسع ق. م، أي بعد قرابة ثلاثة قرون ونصف من نزول التوراة، واستمر التدوين حتى ٥٨٦ ق. م. وهي السنة المعروفة بالسبي البابلي وزوال ملك اليهود وانتهاء الطور الأول للّغة العبرية والشعب اليهودي.

وعند رجوع اليهود من السبي البابلي الى أرض كنعان حوالى ٥٣٦ ق. م جُمع رجال المجمع الأكبر[3] ـ وكان مؤلفاً من ١٢٠ عضواً، مهمتهم النظر في الشؤون الدينية للشعب اليهودي ـ فقاموا بوضع الصلوات اليومية المتبعة حتى الآن ـ وما كتب من أسفار العهد القديم، واستمر التدوين والتجميع الى أن اكتملت أسفار العهد القديم في سنة ٣٦ ق. م، وهذا ما يسمى بالطور الثّاني للّغة العبرية التي كانت نهايتها ختاماً للعهد القديم وختاماً لطور ديني بالغ الأثر في حياة اليهود.

أما المؤلفات التي أُلفت بعد ذلك التاريخ فليست لها علاقة بالإلهام الديني، ولا تُعد من كلام الوحي ولهذا تسمى باسم «سفاريم حيصونيم» أي الأسفار التي لم تضم الى مجموعة العهد القديم[4].

ونحن نعرف أن هذا الكتاب المقدس المسمى بالعهد القديم (او التوراة) قد حرّفه اليهود كما جاء في القرآن الكريم: ﴿افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾[5]... وجاء أيضاً: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[6]. وأيضاً: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[7].. صدق الله العظيم.

وبالرغم من هذا فإن التوراة ما زالت كتاب اليهود المقدس الذي يمكن أن نستقي منه المعلومات كمصدر أساسي، وعلينا أن ندرس ما جاء فيه من الناحية المنطقية، خاصةً وأن قصصه مختلفة في تفصيلها عن قصص القرآن الكريم. ولقد اخترنا من العهد القديم قصة شعبي مؤاب وعمون[8]. منذ نشأتهما وحتى الآن، ولقد أيّدنا رأينا ببعض المصادر الأخرى الى جانب العهد القديم لكي نثبت وجود هذين الشعبين في شرق نهر الأردن منذ زمن لوط عليه السلام، بل إن بعض قبائل هذين الشعبين قد ورثت[9] ملك اليهود في أرض كنعان بعد أن نزحوا الى غرب نهر الأردن مع غيرهم من القبائل الفلسطينية في غزة، والقبائل الأخرى في أرض كنعان، وذلك بعد السبي الآشوري للاسرائيليين في سنة ٧٢٢ ق. م، ثم السبي البابلي لليهود في سنة ٥٨٦ ق. م. ولما عاد اليهود من السبي مرة ثانية الى أرض كنعان امتزجوا بهذه القبائل التي حلت محلهم[10]، ولكنهم فقدوا ملكهم السياسي وانتقلوا فقط بسلطانهم الديني بعد بناء الهيكل مرة ثانية وترميم اسوار أورشليم، وبعد تشتيت اليهود وتدمير الهيكل مرة ثانية في سنة ٧٠ ق. م. على يد تيتينوس الروماني، نزحت بعض قبائل مؤابية وعمونية أخرى وغيرهم من القبائل الأخرى مرة ثانية لتسكن أرض كنعان وامتزجت بسكان الأراضي الأصليين كالمرة الأولى. وهؤلاء هم الفلسطينيون الآن الذين ينطبق عليهم سبي مؤاب وعمون.

فالسبي باللغة العبرية يسمى «إشفوت» والسبي في مفهوم العهد القديم هو نقل الشعب المغلوب الذي كان صاحب الأرض الى مكان آخر، مع ضياع سلطانه السياسي بل واحلال اقوام غريبة مكان أصحاب الأرض. وهذا ما حدث في سبي آشور لبني اسرائيل أي المملكة الشمالية سنة ٧٢٢ ق. م.[11]، وكذلك سبي بابل لليهود أي المملكة الجنوبية سنة ٥٨٦ ق. م[12]، وهو ما ينطبق على الفلسطينيين الآن.

(٢) سفر التكوين ـ الاصحاح ٣٥ ـ آية ١٣.
(٣) الدكتور هلال فرحي: **كتاب أساس الدين** ـ القاهرة ١٩٢٧ ـ ص ٨.
(٤) اسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ص ٩٥.
(٥) سورة البقرة ـ آية ٧٥.
(٦) سورة البقرة ـ آية ٧٩.
(٧) سورة المائدة ـ آية ٤١.
(٨) سفر التكوين ـ الاصحاح ١٩ ـ الآيات ٣٠ ـ ٣٨.
(٩) سفر أرميا ـ الاصحاح ١٢ ـ آية ٥ ـ والاصحاح ٤٩ ـ آية ١ ـ ٢.
(١٠) سفر نحميا ـ الاصحاح ١٣ ـ آية ٢٥.
(١١) سفر الملوك الثاني ـ الاصحاح ١٧ ـ آية ٦.
(١٢) سفر الملوك الثاني ـ الاصحاح ٢٤ ـ آية ١١ ـ ١٧.

لوط[١٣]

لقد ذكرت التوراة في سفر التكوين أنه ابن أخ لإبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد نزح بعد وفاة أبيه هارون من مدينة أور الكلدانية في العراق القديم، مع جده تارح وعمه ابراهيم الذي كان قد تزوج من سارة، الى أرض كنعان. ومكث مع عمه ابراهيم بعد أن توفي جده تارح. وعقب رحيلهما الى مصر وعودتهما مرة ثانية الى أرض كنعان. كان كل منهما قد صار غنياً بما يملك من المواشي والفضة والذهب والعبيد، فلم يتمكنا من التعايش معاً، فدب نزاع بين رعاة مواشي ابراهيم ورعاة لوط، أدّى بهما الى أن يعتزل أحدهما الآخر. فارتحل لوط الى كل المدن المحيطة بنهر الأردن، ونقل خيامه الى مدينة سدوم، في حين بقي ابراهيم الخليل في أرض كنعان[١٤].

ومن هنا تبدأ قصة لوط: لما استقر لوط في أرض مدينة سدوم شرق نهر الاردن وكان أهلها أشراراً، فجاء ملكان الى سدوم ذات مساء على هيئة رجلين حيث استقبلهما لوط. وهنا اجتمع كل أهل المدينة أمام بيت لوط ونادوه لكي يخرج اليهم الرجلين، فخرج اليهم لوط ونصحهم الا يفعلوا الشر بهما، وعرض عليهم أبنتيه، ولكنهم لم يستجيبوا له، وهموا بكسر الباب، فأدخل الملكان لوطاً الى البيت، وقالا له: عليك أن تجمع كل أهلك وأن تخرج من المدينة لأننا سنهلك هذا المكان وكل ما حوله من المدن، فهرب هو وزوجته وابنتاه فقط من كل أهله الى مدينة صغيرة تسمى صوغر وقد اتفق مع الملكين أن يهرب اليها هو ومن معه من أهله ومنها الى الجبل[١٥]. ثم أمطر الرب مدينتي سدوم وعمورة كبريتاً وناراً وقلب كل تلك المدن وسكانها ونباتها وعندما نظرت امرأة لوط من ورائها مسخت عمود ملح.

وقد أكد القرآن الكريم هذه القصة[١٦]: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا ارسلنا الى قوم مجرمين، الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين، الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين﴾[١٧].

وجاء في القرآن الكريم: ﴿ولوطا أتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين، وادخلناه في رحمتنا انه من الصالحين﴾.

غير أن التوراة ـ سفر التكوين ـ قد انفردت بسرد القصة التالية التي ملخصها الآتي: أن لوطاً قد ارتحل هو وابنتاه فقط الى المدينة الصغيرة المسماة «صوغر» ومنها ارتحل هو وابنتاه للسكن في الجبل. وهنا قالت البنت البكر للصغيرة أن أباهما قد شاخ ولم يبق في الأرض رجل ليتزوجهما كعادة أهل الأرض، وقالتا هلم نسقِ أبانا خمراً ونضطجع معه فنجني من أبينا نسلاً، فسقتاه خمراً، واضطجعت الواحدة بعد الأخرى معه ولم يعلم لوط بذلك، فحملتا من ابيهما، فولدت البكر ابناً وسمته مؤاب، وهو أبو المؤابيين الى اليوم. أما الصغرى فولدت أيضاً إبناً وسمته بن عمي، وهو أبو بني عمون الى اليوم[١٨].

ويبدو أن مثل هذه الأمور في العصور الغابرة كانت أموراً عادية على ما جاء في سفر التكوين، فقد تزوج ابراهيم الخليل عليه السلام السيدة سارة اخته من أبيه[١٩]. كما تزوج يعقوب من اختين شقيقتين وهما ليئه وراحيل[٢٠]. كما أن التاريخ المصري القديم يشير الى زواج حتشبسوت ملكة مصر من أخيها تحتمس الثالث.

وكما انقطعت الصلة بين لوط وابراهيم عليهما السلام، فقد انقطعت الصلة أيضاً بين نسليهما، أي بين المؤابيين والعمونيين من جهة وأبناء يعقوب حفدة ابراهيم من جهة أخرى. وزادت بعد أن نزح يعقوب وأبناؤه الى مصر زمن يوسف عليه السلام، ومكثوا بها حتى خروجهم على يد موسى النبي عليه السلام.

وعند دخول بني اسرائيل «العبرانيون» أرض كنعان بعد التيه في الصحراء من ناحية شرق نهر الأردن، وقف المؤابيون والعمونيون ضدهم ورفضوا أن يمدّوهم بالخبز والماء بل استأجروا من يلعنهم، ولهذا فقد حرم الرب دخولهم في جماعة الرب المؤمنة الى الأبد، وقد ذكرت التوراة[٢١]: «لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب المؤمنة والى الأبد» وذلك لأنهم لم يمدوا الاسرائيليين بالخبز والماء عند خروجهم من مصر.

ولكن على الرغم من هذا فقد أوصى الرب الاسرائيليين بألّا يشنوا حرباً ضد كل من مؤاب وعمون لأن أرضهما ملك لهما من

(١٣) سفر التكوين ـ الاصحاح ١١ ـ الآيات ٢٧ ـ ٣٣.
(١٤) سفر التكوين ـ الاصحاح ١٣ ـ الآيات ٥ ـ ٩.
(١٥) سفر التكوين ـ الاصحاح ١٩ ـ الآيات ١ ـ ٢٢.
(١٦) سورة الحجر ـ الآيات ٥٧ ـ ٧٤.
(١٧) سورة الأنبياء ـ الآيات ٧٤ ـ ٧٥.
(١٨) سفر التكوين ـ الاصحاح ١٩ ـ الآيات ٣٠ ـ ٣٨.
(١٩) سفر التكوين ـ الاصحاح ٢ ـ الآية ١٢.
(٢٠) سفر التكوين ـ الاصحاح ٢٩ ـ آية ١٦.
(٢١) سفر التثنية ـ الاصحاح ٢٣ ـ الآيات ١ ـ ٢.

قبل الرب حيث قال: «لأني قد أعطيت (مؤاب وعمون) بني لوط أرضهما ميراثاً لهما»[٢٢].

وهذا يثبت أن لهؤلاء الأقوام وعداً من الرب مثل وعد الرب لبني اسرائيل. وعلى الرغم من وصية الرب فقد ذكر الكتاب المقدس أن الحرب نشبت بينهم وبين المؤابيين والعمونيين في زمن الملك شاؤل[٢٣]، وهو أول ملك للاسرائيليين، ثم في عهد الملك داود عليه السلام الذي كان من نسل السيدة راعوث المؤابية التي تزوجها بوعز اليهودي، فانجبت عوبيد هو ابويس أبو داوود[٢٤]، فقد حارب المؤابيين واستولى على أرضهم وأخضعهم لسلطانه، وأصبحوا يقدمون له الهدايا[٢٥]. ثم حارب داوود أيضاً العمونيين وانتصر عليهم وأخضعهم لسلطانه[٢٦].

كما حارب الفلسطينيين أيضاً وانتصر عليهم. فالفلسطينيون كانوا من أقوى القبائل في أرض كنعان قبل دخول الاسرائيليين أرض كنعان. ولهذا فقد سميت الأرض باسمهم بعد ذلك. ومنذ دخول الاسرائيليين أرض كنعان كانت الحرب سجالاً بينهم وبين الفلسطينيين، وكثيراً ما انتصر الفلسطينيون على الاسرائيليين[٢٧]، بل وهزموا الاسرائيليين وقتلوا الملك شاؤل أول ملك لهم مع أبنائه الثلاثة[٢٨] حتى جاء سليمان فخضعت عاصمة ملكهم غزة وما حولها له.

وهؤلاء الفلسطينيون هم الذين اختلطوا بقبائل مؤاب وعمون التي نزحت بعد ذلك من شرق نهر الأردن لترث مُلك داوود وسليمان بعد انقسام المملكة وتدميرها، وكونت الشعب الفلسطيني كما سنتكلم عنه فيما بعد.

وقد استقر المُلك في زمن سليمان، فأحبّ نساء كثيرات من بينهنّ مؤابيات وعمونيات[٢٩]. والمعروف أن المؤابيين كانوا يعبدون الأصنام، وكان الههم يسمى «كاموش» في حين أن العمونيين كانوا يعبدون الصنم المسمى ملكوم، ومن ثم فقد عبدت زوجات الملك سليمان من عمونيات ومؤابيات أصنامهم[٣٠]. وكانت عبادة الأصنام هذه سبباً في غضب الرب وتمزيق مملكة سليمان بعد موته[٣١].

بل إن رحبعام الذي ملك بعد أبيه سليمان والذي انقسمت المملكة في أيامه الى مملكة اسرائيل في الشمال والى مملكة يهودا في الجنوب كانت أمه عمونية[٣٢].

وفي عهد الملك يهو رام بن اخاب ملك مملكة اسرائيل الشمالية، انشق عليه الملك (ميشع) ملك مؤاب واستقل بمؤاب وعمون.

ويقول اسرائيل ولفنسون[٣٣]: «إن قبائل مؤاب وعمون كانت قبائل متحضرة، وانهم كانوا في أول أمرهم بدواً، ولكن لما شاهدوا عمران الحضر طمعوا فيه فنزحوا من الصحراء الى الأمصار المتاخمة للجزيرة وفتحوها وعاشوا فيها عيشة حضرية»، كما قال: «لقد عدت طوائف عمون ومؤاب من أقارب بني اسرائيل وكان لعمون ومؤاب بلاد خصبة من الناحية الجنوبية من شرق نهر الأردن».

هذا وقد عثر في مدينة «ديبان» في شرق نهر الأردن على نقش للملك «ميشع» ملك مؤاب الذي كان يعيش حوالى ٨٥٠ ق. م. وفيه يقص هذا الملك خبر انتصاره في حرب كانت بينه وبين بني اسرائيل، فيقول اسرائيل ولفنسون[٣٤]:

«يتضح من هذا النقش أن الملك «ميشع» كان في بادي أمره تحت حكم ملوك بني اسرائيل، ثم ثار عليهم، وبعد نضال عنيف وفّق الى ما كان يرمي اليه من تحرير قومه، ثم أخذ يتوسع شيئاً فشيئاً الى أن شاد لنفسه مُلكاً عظيماً وحصّن الحصون وعمّر المدن واصلح من شأن المعابد حتى ذاع صيته بين قومه ونحت تاريخ حياته على هذا الحجر».

(٢٢) سفر التثنية ـ الاصحاح ٢ ـ الآية ٩ ـ الآية ١٩.
(٢٣) سفر صموئيل الأول ـ الاصحاح ١٤ ـ آية ٤٧.
(٢٤) سفر راعوث ـ الاصحاح ٤ ـ الآيات ١٣ ـ ٢٢.
(٢٥) سفر صموئيل الثاني ـ الاصحاح ٨ ـ آية ٢.
(٢٦) سفر أخبار الأيام الأولى ـ الاصحاح ٢٠.
(٢٧) سفر القضاء ـ الاصحاح العاشر ـ آية ٨ والاصحاح ١٤ ـ آية ٤.
(٢٨) سفر صمويل الأول ـ الاصحاح ٣١.
(٢٩) سفر الملوك الأول ـ الاصحاح ١١ ـ آية ١.
(٣٠) نفس المرجع ـ آية ٢٣.
(٣١) نفس المرجع ـ آية ٥ ـ ١٣.
(٣١أ) نفس المرجع ـ آية ٥ ـ ١٣.
(٣٢) نفس المرجع ـ الاصحاح ١٤ ـ آية ١٢.
(٣٣) تاريخ اللغات السامية ـ ص ١٠٣ ـ ١٠٥.
(٣٤) نفس المرجع ـ ص ١١٠.

وقد أكّد سفر الملوك الثاني[٣٥] ما جاء في هذا النقش من خروج هذا الملك وانشقاقه على الاسرائيليين، ولكن الله قد وعد الاسرائيليين في هذا السفر بأنه سيدفع مؤاب الى أيديهم فيخربون مدنهم.

وبعد تدمير مملكة اسرائيل في الشمال عام ٧٢٢ ق. م. وسبي الاسرائيليين الى آشور ثم تدمير مملكة يهوذا في الجنوب ٥٨٦ ق. م. على يد الاسرائيليين نزحت بعض القبائل المؤابية والعمونية من شرق نهر الأردن والقبائل الفلسطينية الموجودة في غزة وسكنوا مملكة داوود[٣٥].

وبعد أن رجع اليهود مرة ثانية من السبي البابلي زمن كورش الفارسي ٥٣٦ ق. م. الى أرض كنعان، تزوجوا من نساء عمونيات ومؤابيات وغيرهن من سكان أرض كنعان، ولهذا فقد غضب منهم النبي نحميا وخاصمهم واستحلفهم بالله قائلاً: «لا تعطوا بناتكم زوجات لبنيهم، ولا تأخذوا من بناتهم زوجات لبنيكم أو لأنفسكم»[٣٦].

بل إن أهل كنعان من مؤابيين وفلسطينيين وغيرهم من الذين استقروا في أرض كنعان لما سمعوا أن اليهود قد عادوا وبدأوا بترميم أسوار أورشليم وتحصين مدنهم بعد عودتهم من السبي تجمعوا لمحاربة اليهود[٣٧] والسبب في هذا أن هؤلاء الأقوام في أرض كنعان قد أصبحوا أصحاب الأرض بعد سبي اليهود ونفيهم الى بابل، وظلوا كذلك حتى بعد رجوع اليهود اليها.

ويؤكد هذا ما جاء ضمناً في تاريخ اللغات السامية[٣٨]:

«لقد كان الخط القديم عند بني اسرائيل يعرف بالقلم العبري، وهو الذي كان يستعمل منذ أقدم الأزمنة الى عهد السبي البابلي. ثم استبدل اليهود بهذا القلم قلماً آخر يشبه الآرامي وعرف عندهم بعد أن ارتقى بالخط المربع أو الآشوري وهو يستعمل الى الآن.

ولقد اختلفت آراء العلماء في الأسباب التي حملت اليهود على ترك خطهم القديم، ولكن أغلبهم يميل الى ترجيح أن اليهود نفروا من السامرة التي جاءت الى منطقة نابلس واستوطنتها بعد حروب بني اسرائيل والآشوريين سنة ٧٢٢ ق. م. ثم تهوّدت واتخذت اللغة العبرية لساناً لها، كما اتخذت الدين الموسوي ديناً لها، واقتبست القلم العبري ايضاً، فكره اليهود أن يكونوا على قدم المساواة في كل شيء فتركوا خطهم وكتبوا مصاحفهم بالخط الجديد.

وهذا يؤكد ما جاء في التوراة من أنه بعد السبي الاسرائيلي الى آشور سنة ٧٢٢ ق. م. ثم السبي اليهودي الى بابل سنة ٥٨٦ ق. م. قد حلّ أقوام آخرون مكان مملكة سليمان وأصبحوا على مر الزمن هم أصحاب أرض كنعان..

ونحن نعتقد بأن هؤلاء الأقوام الذين استوطنوا أرض كنعان بعد زوال ملك داوود وسليمان قد نزحوا من بين القبائل المؤابية والعمونية الساكنة في شرق نهر الأردن. ودليلنا على هذا ما جاء في سفر النبي أرميا حين هدد العمونيين الذين ورثوا أرض اسرائيل فقال[٣٩]:

«يقول الرب عن بني عمون، كيف يرث الملك جاد (ملك بني عمون) وشعبه مدن (اسرائيل) الم يكن للاسرائيليين أبناء أو حتى وريث لهم».

لذلك يقول الرب ستأتي الأيام واسمع الساكنين في (ربه عامون) (عاصمة دولتهم) صوت بوق الحرب وستصبح مدينتهم تلاً خَرِباً، وستُحرق بناتها بالنار، وبهذا سيرث الاسرائيليون الذين ورثوهم».

ومثل هذا التهديد ينطبق على مؤاب في نفس سفر أرميا[٤٠]:

«سيأتي هلاك مؤاب قريباً، وستكون مصيبتها سريعة جداً. في الحقيقة هذا الوصف ينطبق على الفلسطينيين الآن.

وبالرغم من كل هذا فقد وعد الرب على لسان النبي أرميا نفسه[٤١] أنه سيرد سبي كلٍ من شعب مؤاب وشعب عمون في آخر الأيام المحددة لسبيهم[٤٢]. أي أن هذين الشعبين موجودان

---

(١٣٥) سفر الملوك الثاني ـ الاصحاحات ٢٤، ٢٥.
(٣٥) سفر الملوك الثاني ـ الاصحاح ٣.
(٣٦) سفر نحميا ـ الاصحاح ١٣ ـ آية ٢٥.
(١٣٦) سفر نحميا ـ الاصحاح ٤، آية ٧.
(٣٧) تاريخ اللغات السامية ـ ص ١٠٠.
(٣٨) سفر ارميا ـ الاصحاح ٤٩ ـ الآيتان ١، ٢.
(٣٩) سفر ارميا ـ الاصحاح ٤٨ ـ آية ١٦.
(٤٠) سفر ارميا ـ الأصحاحان ٤٨، ٤٩.
(٤١) سفر ارميا ـ الاصحاح ٤٨ ـ آية ٤٧ والاصحاح ٤٩ ـ آية ٦.
(٤٢) سفر التكوين ـ الاصحاح ١٩ ـ آية ٣٨ و ٣٧.

الى اليوم[٤٣]، كما سيظلان موجودين الى الأبد. ولهذا فإننا لا نتفق مع د. اسرائيل ولفنسون الذي يعد القبائل المؤابية والعمونية من بين الأمم البائدة[٤٤]، حين يتساءل أين هي هذه الأمم الآن أو متى انقرضت أو متى تم امتزاجها بغيرها من الأمم السامية، فيقول[٤٥]:

«إننا لنعتقد أن الحروب الطاحنة التي نشبت بين مصر وآشور وبابل والفرس على التوالي بين ٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق. م. هي التي أدّت الى القضاء على هذه الشعوب لأنها كانت تسكن في طريق الجيوش المترددة بين مصر وبين هذه الممالك، ولم يكن في المستطاع أن تقف هذه الشعوب على الحياد أثناء تلك الحروب وهي واقفة في طريق الجيوش المغيرة، فكانت تشترك تارةً في الحروب وطوراً تكتفي بارشاد الجيوش الى الطريق بين الجبال والوديان، وأحياناً تقف في وجه هذه الجيوش وتقدمها لتمنعها من المرور والتقدم، فأصابها من جراء ذلك ما أضعف قوتها، واضطر الكثير من هذه الشعوب أن ينسحبوا الى أرض الجزيرة ويتفرقوا بين شعوبها حتى أدّى ذلك الى تبديل السنتهم وانحلال قوميتهم وسهل اندماجهم في غيرهم الى أن فنوا تماماً».

ثم قال أيضاً:

«وفي تلك العصور التي كان العراق «بابل وآشور» ينازع مصر السيادة على العالم أنفسح المجال أمام التأثير الآرامي فانتشر في كل الأرجاء التي كانت تسود فيها اللهجات العبرية، انتشاراً كبيراً أدى الى موت تلك اللهجات فحجبت من جراء ذلك قبائل بني أدوم ومؤاب وعمون، وأصبحت تلك البلاد من المناطق الآرامية الخالصة».

ولكنني أعتقد أن التأثير الآرامي «اللغة الآرامية» على قبائل مؤاب وعمون لم يعن محو هذه القبائل من الوجود، بل لقد أثرت اللغة الآرامية عليهم لكونها لغة رسمية ولغة تجارة، كما أثرت على غيرهم من شعوب المنطقة وذلك بسبب توسع آشور والفرس واتخاذ هذه اللغة لغة رسمية لهاتين الدولتين.

بل إن اللغة الآرامية نفسها قد أثرت على لغة اليهود الذين عادوا بعد السبي البابلي على الرغم من أن أحبار اليهود بذلوا قصارى جهدهم في سبيل الابقاء على لغتهم ومكافحة الآرامية وحمل اليهود على كرهها، وهذا ما يسمى بالطور الثاني للغة العبرية. وما كاد ينتهي القرن الرابع قبل الميلاد حتى غدت العبرية في عداد اللغات الميتة في التخاطب[٤٦].

وكما أثرت الآرامية على شعوب المنطقة أثّرت أيضاً اللغة الاغريقية والثقافة الاغريقية على الأقاليم التي خضعت للاغريق[٤٧] ثم الفتح الاسلامي وما تلاه من سيطرة اللغة العربية والثقافة الاسلامية على هذه المناطق وشعوبها[٤٨].

ونخلص من هذا الى أن انتشار اللغات بسبب الفتوحات لم يعن فناء القبائل والشعوب. بل إن هذه القبائل قد وقعت تحت سيطرة الدولة الفاتحة، وتحت تأثير لغتها وثقافتها.

معنى هذا أن القبائل أو الشعوب المؤابية والعمونية قد تأثرت لغتها وثقافتها بسبب هذه الفتوحات فخضعت للدول المسيطرة ولكن أصولهم لم تمحَ أو تتغير.

وبالإضافة الى هذا يقول الكاتب اليهودي يهودا بورلا، وهو من أشهر الكتاب السفارديم (أي اليهود الشرقيين) في قصته القصيرة (بين شفاطي عراب)[٤٩] أي بين القبائل العربية، يقول فيها إنه أثناء الحرب العالمية الأولى جند في الجيش التركي العثماني وذهب الى قلعة الكرك في أرض مؤاب الموجودة في شرق نهر الأردن. وقد نقل الى هذه القلعة لأن الأتراك يشكون في أنه صهيوني، ويخشون من مؤامرات الصهيونية على فلسطين. ولما سمع أن القدس قد سقطت في يد الجيش البريطاني هرب من أرض مؤاب بمساعدة بعض البدو العرب. وذلك من خلال الجبال الوعرة معرّضاً حياته إما للموت جوعاً وعطشاً أو للقتل على يد قطاع الطرق حتى وصل الى القدس.

وهذا يؤكد أن الكرك كانت ولا زالت مكان مؤاب. وإن كان المؤابيون يطلق عليهم الآن عرب شرق الأردن. وفي اللغة العبرية الحديثة يطلق على مدينة عمان عاصمة شرق نهر الأردن الحالية (ربة عامون) وهو نفس الاسم القديم الذي ورد في العهد القديم[٥٠]. وكذلك وعد الرب لهما في التوراة «اني أعطيت مؤاب وعمون «بني لوط» ارضهما ميراثاً لهما».

---

(٤٣) **تاريخ اللغات السامية** ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٤٤) نفس المرجع.
(٤٥) د. ربحي كمال: **دروس في اللغة العبرية** ـ بيروت ١٩٨٢، ص ٣٩.
(٤٦) د. عبد العزيز برهام: **مدارج القراءة والانشاء في اللغة العبرية**. لجنة البيان العربي ـ ١٩٤٩، ص.
(٤٧) د. ربحي كمال ـ ص ٣٩.
(٤٨) **بين شفاطي عراب، من قصص الحرب ١٩٢٦** ـ أعمال يهوذا بورلا ـ تل أبيب ١٩٢٧.
(٤٩) سفر نحميا ـ الاصحاح ٤٩ ـ آية ٢.
(٥٠) سفر أرميا ـ الاصحاح ٤٩ ـ الآيتان ١ ـ ٢ وكذلك الملوك الثاني ـ الاصحاح ١٧ ـ آية ٢٤.

فإذا صح هذا فإن القبائل العمونية والمؤابية هي التي ما زالت تعيش في شرق نهر الأردن وأن قبائل مؤاب كانت وما زالت تسكن مدينة الكرك وما حولها، في حين أن بني عمون يسكنون عمان وما حولها، هذه هي الإجابة على الشطر الأول.

أما الشطر الثاني:

فإن بعض القبائل المؤابية والعمونية قد عبرت نهر الأردن وورثت ملك داود (أي أرض كنعان) مع غيرهم من الفلسطينيين وسكان الأرض الأصليين وامتزجوا معاً وكوّنوا من يطلق عليهم الآن اسم «الفلسطينيون» «أو الشعب الفلسطيني».. وهؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في العهد القديم، والذين وعدهم الرب بأنه سيرد سبيهم، كما سنوضحه من خلال كتاب اليهود المقدّس، أي كتاب العهد القديم.

مما سبق اتضح أنه بعد السبي الاسرائيلي على يد أسرحدّون ملك أشور عام ٧٢٢ ق. م، ثم السبي اليهودي على يد نبوخذ نصر ملك بابل عام ٥٨٦ ق. م. قد امتزجت قبائل من مؤاب وعمون لتقطن مع الفلسطينيين وغيرهم أرض كنعان، فأصبحوا على مر الزمن أصحاب أرض كنعان[٥١].

ولما عاد اليهود الى أرض كنعان بعد السبي البابلي سنة ٥٣٦ ق. م. اختلطوا بهذه الأقوام عن طريق التزاوج، فلم يعد لهم ملك سياسي، بل أصبح لهم ملك شبه ديني. حيث أعادوا بناء الهيكل مرة ثانية ورمموا أسوار أورشليم، وأصبحوا تابعين للفرس حتى عام ٣٣٣ ق. م. حين دخل الاسكندر المقدوني بلادهم، وأخضعها لسلطانه واستمروا على هذه الحال حتى عام ١٦٥ ق. م حيث ظهر فيهم أثناء حكم اليونان أسرة حكمتهم حتى عام ٣٦ ق. م. وكان لها بعض الأثر في تاريخهم السياسي في الوقت الذي كانت فيه حياتهم السياسية في انحطاط مستمر، فاستطاعوا أن يُغيروا على أعدائهم من وقت لآخر كما انتصروا كثيراً على الجيوش السورية.

ولما زال حكم اليونان أعقبه حكم الرومان على تلك المناطق، وفي عهدهم ظهرت الديانة المسيحية في أرض فلسطين وانتشرت فيها وفيما جاورها من بلدان.

وفي خلال حكم الرومان لفلسطين قام تيتوس القائد الروماني سنة ٧٠ م[٥٢] بمحو مدينة القدس وحرق الهيكل اليهودي وسبى بعض اليهود وهرب الباقون من بلادهم الى الأقطار الأخرى.

وكان تدمير أورشليم وما جاورها من ملك اليهود سبباً في نزوح القبائل القريبة من المنطقة ومن بينهم مؤاب وعمون وفلسطين وغيرهم من الأجناس القديمة أصحاب أرض كنعان ليرثوا أرضهم القديمة وملك اليهود للمرة الثانية بعد عام ٧٠ م.

هذه القبائل المؤابية والعمونية التي امتزجت بغيرها من القبائل الفلسطينية والأصلية في أرض كنعان ظلت في هذه المناطق حتى القرن السابع الميلادي، حيث انتشرت الديانة الاسلامية، وظلت جزءاً من أرض الشام حتى وعد بلفور سنة ١٩١٧ م، والانتداب البريطاني على فلسطين، حيث نزحت العصابات الصهيونية الغربية التي تدّعي أنها ما زالت الجنس اليهودي السامي النقي واغتصبت الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨ م.

هذه العصابات العنصرية البيضاء والتي تشبه العصابات العنصرية الأخرى التي استولت على روديسيا في شرق افريقيا، وغيرها من العصابات التي استولت على جنوب افريقيا وحتى الآن والتي كانت نتيجة الرأسمالية الأوروبية والاستعمارية التي سيطرت على العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي لعبت دوراً خطيراً في إنشاء مثل هذه الجيوب الاستعمارية في كل من فلسطين وروديسيا وجنوب افريقيا. والتي شكلت فيها فيما بعد دولاً من بقايا الاستعماريين[٥٣].

هذا وقد أكّدت الجمعية العامة للأمم المتحدة على أن الصهيونية شكل من أشكال التفرقة والتمييز العنصريين، حيث وافقت في قرارها الصادر بتاريخ ٨ ذو القعدة عام ١٣٩٥ هـ. الموافق ١١ نوفمبر ١٩٧٥ م والذي ينص على هذا بأغلبية (٧٢) صوتاً ضد (٣٥) صوتاً وامتناع (٣٢) دولة عن التصويت[٥٤].

وعندما اغتصبت العصابات الصهيونية أرض فلسطين بحجة أنها أرضهم التي وهبها الرب لهم والتي انتزعوها من قبل من الكنعانيين واتخذوها لهم وطناً قومياً لإقامة دولة يهودية عنصرية، هرب معظم أهل فلسطين تحت ضغط ارهاب العصابات الصهيونية ومن تبقّى صار تحت سيطرتهم. وهذا يفسر سبي مؤاب وعمون الذي ورد ذكره في العهد القديم على لسان أنبياء بني اسرائيل.

فالسبي الذي حدث الآن لم يحدث للشعوب المؤابية والعمونية الساكنة في شرق نهر الأردن والتي لم يعترف التاريخ بسببها حتى

(٥١) د. عبد العزيز برهام ـ ص ١١.
(٥٢) **الصهيونية العنصرية** ـ إدارة البحوث والتخطيط والمتابعة، المؤسسة العامة للصحافة ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ١٩٧٦/٢/٢٢ ـ ص ١.
(٥٣) نفس المرجع.
(٥٤) سفر يشوع ـ الاصحاح ٦ ـ آية ٢١ والاصحاح الثامن ـ آية ١.

الآن. وكل ما نعرفه أن هناك بسببهما آيات متفرقة جاءت على لسان أنبياء اليهود في أسفار العهد القديم، وإنما حدث للقبائل المؤابية والعمونية الفلسطينية التي امتزجت بشعوب أرض كنعان القديمة وكوّنت الشعب الفلسطيني. وهذه القبائل هي التي كانت تسكن غرب نهر الأردن الى البحر الأبيض المتوسط، ومن جنوب لبنان حتى خليج العقبة جنوباً، أي فلسطين المحتلة الآن وليست منطقة شرق الأردن.

هذا السبي يُسمى أيضاً في العبرية الحديثة «جالوت» أي النفي، وهو ما ينطبق الآن على الفلسطينيين حيث تركوا ديارهم هاربين من القتل والتعذيب على يد العصابات الصهيونية الحاكمة والتي شريعتها كما جاءت في العهد القديم هي قتل أهل كل مدينة معادية من رجال ونساء وأطفال عند فتحها بحد السيف[55]. وهذا يسمى في اللغة العبرية «ها حرما» أي التحريم، ومعناها الإبادة والتدمير. وقد طبقت العصابات الصهيونية هذه الشريعة على الفلسطينيين في مذبحة ديرياسين وغيرها من المذابح الأخرى. فالفلسطينيون الهاربون من أوطانهم الآن هم مؤاب وعمون الذين يسكنون غرب نهر الأردن، وهم الذين ينطبق عليهم الآن سبي مؤاب وعمون في العهد القديم. ولعل العهد القديم استخدم لفظي مؤاب وعمون ربما لأن الاسرائيليين قد غلبوا كل سكان أهل كنعان من كنعانيين وحثّيين وفوزيين وجرجاشيين وأموريين ويبوسيين[56] وكذلك الفلسطينيين وغيرهم[57]. وتسلّطوا على الممالك المجاورة لهم زمن سليمان عليه السلام». وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من نهر (الأردن) الى أرض فلسطين والى تخوم مصر، وكانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان طوال أيام حياته[58]....

أو ربما لأن هذه القبائل هي التي ورثت كلاً من مملكة اسرائيل في الشمال[59] وكذلك مملكة يهوذا في الجنوب[60]. والاعتقاد الثاني هو الأرجح لأن هذه القبائل هي أقرب القبائل الى أرض فلسطين الحالية وذلك بعبورهم نهر الأردن فقط. هذا فضلاً عن أن هذه القبائل كانت موجودة قبل وبعد رجوع اليهود الى أرض كنعان من السبي البابلي ٥٣٦ ق. م. كما جاء في كتابهم المقدس والذي أشرنا اليه أعلاه، وربما استوطنت هذه القبائل أرض كنعان للمرة الثانية بعد طرد اليهود منها سنة ٧٠ م وامتزجت بأصحاب أرض كنعان الأصليين من فلسطينيين وغيرهم.

أما نبوءات سبي مؤاب وعمون فقد جاءت في أسفار الأنبياء، الآتية:

١ ـ تنبؤ النبي أشعيا بخراب مؤاب[61].

٢ ـ تنبؤ النبي عاموس بسبي عامون[62]، كما تنبأ بحرق مؤاب[63].

٣ ـ تنبؤ النبي حزقيال أيضاً بخراب مؤاب وعمون[64].

٤ ـ تنبؤ النبي صفنيا بخراب مؤاب وعمون، وإن مؤاب ستكون خراباً كسدوم، وعمون ستكون خراباً كعمورة... خراباً الى الأبد[65].

٥ ـ تنبؤ النبي أرميا بالآتي:

أ) بهلاك مؤاب[66] وسبي هذا الشعب[67]، ولكنه النبي الوحيد الذي تنبّأ برد سبي مؤاب فقال: «يقول الرب ولكنني أرد سبي مؤاب في آخر الآيام الى هنا قضاء مؤاب[68]. كما تنبأ أيضاً:

ب) بتخريب عاصمة بني عمون، وأنها ستصير تَلاً خرباً، وتحرق بناتها بالنار (فيرث اسرائيل الذين ورثوه)[69] كما أن ملكهم سيذهب الى السبي وكهنته ورؤساؤه معاً[70].

---

(٥٥) سفر يشوع ـ الاصحاح الثالث ـ آية ١١.
(٥٦) سفر الملوك الأول ـ الاصحاح ٤ ـ آية ٢٢.
(٥٧) سفر الملوك الأول ـ الاصحاح ٤ ـ آية ٢٢ (نفس المرجع).
(٥٨) سفر أرميا ـ الاصحاح ٤٩ ـ الآيتان ١ ـ ٢.
(٥٩) سفر نحميا ـ الاصحاح ١٣ ـ آية ٢٥.
(٦٠) الاصحاح ١٥، ١٦.
(٦١) الاصحاح الأول ـ آية ١٥.
(٦٢) الاصحاح الثاني ـ الآيات ١ ـ ٣.
(٦٣) الاصحاح الخامس والعشرين ـ آية ٤، آية ١٠.
(٦٤) الاصحاح ٢ ـ آية ٩.
(٦٥) الاصحاح ٤٨ ـ آية ١٦.
(٦٦) الاصحاح ٤٨ ـ آية ٤٦.
(٦٧) الاصحاح ٤٨ ـ آية ٤٧.
(٦٨) الاصحاح ٤٩ ـ آية ٢.
(٦٩) نفس الاصحاح ـ آية ٣.
(٧٠) نفس الاصحاح ـ آية ٥.

وقال أيضاً:

«يقول السيد اله الجنوب هأنذا أجلب اليكم خوفاً من جميع المحيطين بكم وتطردون من أمام كل رجل وليس هناك من يجمع التائهين[٧١].

في الواقع هذا ما ينطبق بحق على الفلسطينيين الآن، فقد أصبحوا مشردين ومطرودين في كل مكان. ولكن النبي أرميا هو أيضاً الوحيد الذي تنبأ برد سبي بني عمون فيقول: «يقول الرب بعد ذلك أرد سبي بني عمون[٧٢].

مما سبق يتضح أن هؤلاء الأنبياء قد تنبأوا جميعاً بسبي كل من مؤاب وعمون. أما أرميا فقد انفرد بردّ سبيهما بناء على قول الرب كما هو مذكور أعلاه.

والمعروف أن أرميا يعتبر من أكبر أنبياء اليهود فقد تنبأ بزوال مملكة يهوذا[٧٣] كما تنبأ بزوال ملك بابل[٧٤] وغيرها من الممالك، ثم بعودة اليهود من السبي البابلي[٧٥].

فكل التنبؤات التي تنبأ بها أرميا قد تحققت ولم تبق الأنبوءتا رد سبي مؤاب وعمون الساكنتين غرب نهر الأردن وهم الفلسطينيون الآن.. فإذا صح هذا فإن الشعب الفلسطيني سيعود الى أرضه وذلك عندما يأذن الرب وبعد أن تنتهي أيام سبيهم المحددة من قبل الرب وحده... وقد يثير هذا سؤالاً آخر وهو أن الله وعد أيضاً بردّ سبي اليهود، ولكن الإجابة أنه قد تم هذا وحدث فعلاً بأن الرب رد سبيهم على يد كورش الفارسي سنة ٥٣٦ ق. م. وعادوا اليها وظلوا فيها حتى سنة ٧٠ م حين دمر الرومان مدينة القدس وحرقوا الهيكل الثاني وتشرد اليهود في أنحاء العالم منذ ذلك التاريخ، فالمعروف أن النبوءة تتحقق مرة واحدة. أما هذه المرة فقد ارتبطت عودتهم بمجيء السيد المسيح عليه السلام.

وهناك في العهد القديم ما يشير الى هذا.. فقد جاء في سفر أشعيا النبي قوله[٧٦]:

«ويخرج قضيب من جذع (نسل) يس (أبو داوود عليه السلام) وينبت غصن من أصله وتحل عليه روح الرب التي هي روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب، ويمتعه بلذة مخافة الرب فلا يحكم بما يرى ولا يقضي بما يسمع، بل يحكم بالعدل للمساكين كما يحكم بالإنصاف لبائسي الأرض. ولهذا فصولجان فمه سيضرب الأرض، بنطق شفتيه سيموت المنافق، ويكونان البر والأمانة، منطقه... فيسكن الذئب مع الحمل، وسيرقد النمر مع الجدي، وسيسوق صبي صغير العجل والشبل والثور المعلوف معاً، وسترعيان، البقرة والدبة، معاً، وسيرقد نسلهما معاً، وسيأكل الأسد التبن كالبقرة، وستمتلىء الأرض من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر».

هذه هي العلامات التي وعد الرب بأنه سيرسل فيها المسيح عليه السلام ليخلص اليهود والبشرية من عذابها، ويجمع شمل اليهود والعالم، ولهذا سيسود الحق والعدل والاحسان في العالم، وستبطل الحرب والشقاق، ولهذا يقول[٧٧]:

«فيقضي بين الأمم وينصف شعوباً كثيرة.. فلا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد».

وقد أكّد ذلك النبي زكريا في سفره حين قال[٧٨]:

«ابتهجي جيداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا ابنة أورشليم، هوذا مليكك يأتي اليك وهو عادل ومنصور ووديع، ويمتطي حماراً جحشاً ابن أتان».

أي أن المسيح عليه السلام سيكون مسيحاً وملكاً، ورجل سلام وليس برجل حرب، فالمعروف أن المسيح في العبرية تسمى «ما شيح» وهي مشتقة من الفعل «ماشح» أي مسح بالدهن أو الزيت المقدس، حيث كانت العادة أن يمسحوا الملك أو الكاهن الأكبر بالزيت المقدس[٧٩] كما أن عقيدة الايمان بمجيء المسيح تعتبر عقيدة أساسية بين الثلاث عشرة عقيدة التي وضعها العالم اليهودي موسى بن ميمون في القرون الوسطى، وهي العقيدة الثانية عشرة والتي تقول[٨٠]:

«أنا أؤمن إيماناً تاماً بمجيء السيد المسيح حتى لو تأخر،

(٧١) نفس الاصحاح ـ آية ٦.
(٧٢) الاصحاح ٢٤ ـ آية ١، ٤ والاصحاح ٣٤ ـ آية ٢٢.
(٧٣) الاصحاح ٥٠ ـ آية ٢.
(٧٤) الاصحاح ٣٠ ـ آية ٣ والاصحاح ٥٠ ـ آية ٤.
(٧٥) الاصحاح ١١.
(٧٦) سفر أشعيا ـ الاصحاح ٢ ـ آية ٤.
(٧٧) سفر زكريا ـ الاصحاح ١٩ ـ آية ٩.
(٧٨) سفر صمويل الأول الاصحاح ٢ ـ آية ١٠ وكذلك الاصحاح ٩ آية ١٦ والاصحاح ١٥ ـ آية ١ وكذلك الاصحاح ١٦ ـ آية ١٤.
(٧٩) د. هلال فرحي ـ ص ٣٨.
(٨٠) سفر ارميا ـ الاصحاح ٤٨ ـ آية ٤٧ وكذلك الاصحاح ٤٩ ـ آية ٦.

أني سأنتظر مجيئه».

أي أن رد سبي اليهود سيكون مرتبطاً بمجيء المسيح عليه السلام الذي سيكون مجيئه للمرة الأولى بالنسبة للعقيدة اليهودية، في حين سيكون مجيئه للمرة الثانية بالنسبة لكل من العقيدة المسيحية والعقيدة الاسلامية. فالمعروف أن اليهود لم يعترفوا بالسيد المسيح عيسى بن مريم مسيحاً لهم. إذاً، فقيام دولة اسرائيل في الأرض المحتلة الآن هو مخالف تماماً من الناحية الدينية، بل إن قيام دولتهم كان نتيجة لحركة صهيونية عنصرية سياسية معتمدة على القوة مثل سائر الحركات العنصرية في أجزاء العالم التي تعطي لنفسها الحق في إبادة أصحاب الأرض الأصليين وانتزاع ملكيتهم لها. ولهذا فإننا نعتقد بالعدل الإلهي بعودة أصحاب الأرض الأصليين الذين مكثوا فيها حتى عام ١٩٤٧ ولهذا سيحق فيهم ما جاء في كتاب اليهود المقدس: «سأرد سبي مؤاب وعمون «أي الفلسطينيين» هكذا قال الرب[٨١].

الخاتمة والخلاصة

في هذه الدراسة يتضح أنه لا يوجد أساس موضوعي لادعاء اليهود بملكيتهم الوحيدة والمطلقة لأرض فلسطين.. وإن من له الحق فيها من وجهة سياسية دولية هم الفلسطينيون الحاليون أنفسهم. وذلك بنص التوراة التي هي المصدر الأساسي لكل ادعاء يهودي.

إنه من ناحية واقعية ديموغرافية (سكانية) فإن الاختلاط الذي حدث بين الفلسطينيين (مؤاب وعمون وفلسطين وغيرهم) واليهود القدامى هو اختلاط وامتزاج جذري وعميق بحيث لا يمكن الفصل بينهما كشعبين مستقلين. وإن كان هناك فصل يمكن أن يقام على أسس ديموغرافية فهو بين الفلسطينيين واليهود الشرقيين من جهة وبين اليهود الغربيين من جهة أخرى الذين هم أساس العصابات الصهيونية الغربية الداخلية. هذه العصابات التي انبثقت من المؤتمرات الصهيونية المتوالية بعد مؤتمر بازل الأول في سويسرا على يد زعيمهم الصهيوني[٨٢] هرتزل سنة ١٨٩٧ م، والتي كُللت بوعد بلفور المشؤوم بمنح أرض فلسطين وطناً قومياً لليهود، بعد أن نبذتهم المجتمعات الغربية لغدرهم وخيانتهم. وقد سهل هذا وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تقسيم العالم العربي الى دويلات وامارات حتى يتحقق المخطط الصهيوني الامبريالي في المنطقة[٨٣].

(٨١) Howard M. Sachar, *The Course of Modern Jewish History* New York, 1958, P. 272.

(٨٢) رجيتا الشريف، ترجمة أحمد عبدالله: **الصهيونية غير اليهودية** (الكويت ١٩٨٥ ـ ص ١٥٠ ـ ١٧٤).

اليمن وصلاتها الفنية في العصر الاسلامي

د. غازي رجب محمد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

المعروف أن الفن الاسلامي ولد بمولد الاسلام وانتشر بانتشار تعاليمه وقد حرص المسلمون على تطبيق جميع تلك التعاليم في حياتهم الروحية والعملية بحيث كان ما ينتجه أي صانع مسلم لا يتعارض مع المبادىء الجديدة التي قدّسها وسرت في عروقه وتفاعلت مع كيانه.

وابرز فن تأثر بالإسلام تأثراً واضحاً في عصره الأول كان الفن العماري وخاصة عمارة المساجد التي انشئت وتطورت تطوراً طبيعياً تدريجياً حسب حاجة الجماعة الاسلامية ومتطلبات الشعائر الجديدة.

وكان لحياة التقشف التي سادت في العصر الأول أثر في فن العمارة الذي تميز بالبساطة وبملاءمته لطبيعة تلك الفترة لكن هذا الفن ازدهر ازدهاراً كبيراً مع ظهور الدولة الأموية واستمرارها في تحرير الأقطار التي كانت رازحة تحت سيطرة القوى الأجنبية، للامكانات الهائلة التي تفجرت نتيجة للخلفية الحضارية للعرب والاتصال بالثقافات والحضارات المعاصرة آنذاك إضافةً الى انتعاش الحياة الاقتصادية واستقرار الكثير من العرب في المدن والأقطار التي حرروها.

وبمجيء العباسيين الى السلطة واستقرار دولتهم ازدادت الفنون تطوراً وازدهاراً وخاصة عند بناء مدينة سامراء في القرن الثالث الهجري حيث تكاملت هذه الفنون وأصبحت ذات سمات وصفات ثابتة وكان تأثيرها فاعلاً في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية.

فقد انتشر الفن الاسلامي الذي اتسم بالوحدة والتشابه في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في مختلف العصور والأزمنة سواء أكان ذلك في زمن الرسول محمد ﷺ أم في زمن الخلفاء الراشدين من بعده أم في زمن الأمويين أم العباسيين إذ كانت الولايات الاسلامية مولعة أبداً بتقليد العاصمة حيث يقيم الخلفاء وأركان الدولة.

ولعبت اليمن دوراً ريادياً وفاعلاً في التاريخ العربي القديم، والاسلامي، في جميع المجالات والميادين، لموقعها الجغرافي المتميز ولمكانتها الحضارية والسياسية بالنسبة للجزيرة العربية وللدول المجاورة عموماً والتي كانت على علاقة طيبة وودية معها، فقد كانت بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عرضةً لتأثيرات حضارية متنوعة دفعت الى ازدهار الصناعات والفنون فيها وبلوغها درجة كبيرة من الرقي والتقدم وخاصة في عصورها الاسلامية ابتداءً من زمن الرسول ﷺ الذي أرسل دعاته اليها للتبشير بالاسلام وبناء المساجد، كما أدت الى ازدهار الفنون المختلفة في الاتجاه الاسلامي الصحيح في فترة قوة الدولة في العصر الراشدي والأموي والعباسي.

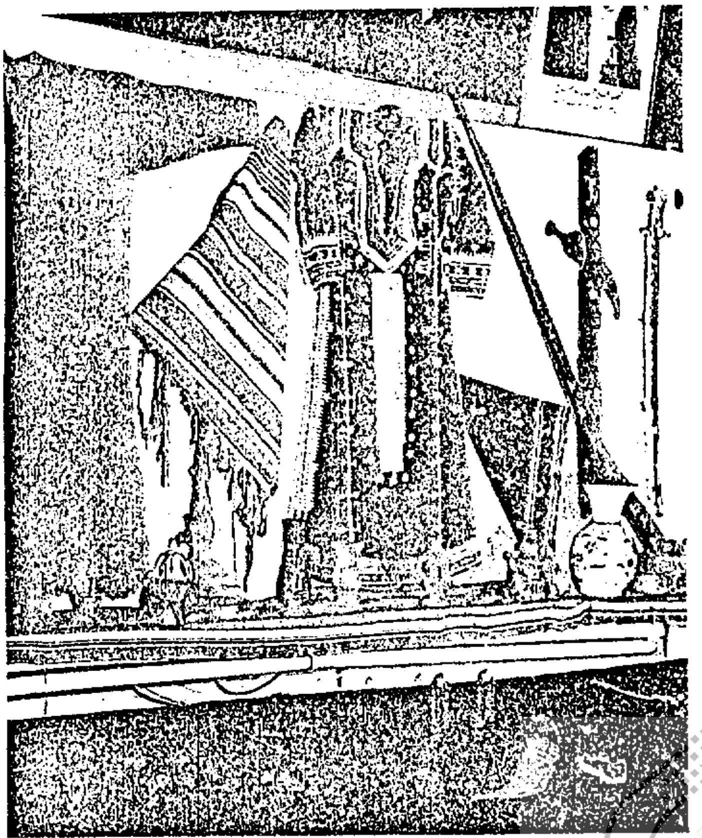
وقد شهدت اليمن وبتأثيرات متعددة قيام عدة دول مستقلة عن الدولة العباسية التي ضعفت قوتها وسيطرتها ابتداءً من القرن الثالث الهجري وقد بلغ عددها عشرة دول أو تزيد، بعضها مستقل استقلالاً ذاتياً مع اعترافه بسلطان الخلافة العباسية كالدولة الزيادية في زبيد والدولة اليعفرية في صنعاء ودولة بني نجاح في زبيد.

وفي زمن الدولة الصليحية[١] (٤٣٩ ـ ٥٣٢ هـ/ ١٠٤٧ ـ ١٣٣٧ م) التي أسسها علي بن محمد الصليحي الذي أظهر الدعوة للخليفة المستنصر الفاطمي سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م.

(١) نسبة الى الاصلوح من بلاد حراز في اليمن انظر: العرشي: **بلوغ المرام** ص ٢٥.

قويت علاقة اليمن مع الفاطميين في مصر وخاصة في ولاية السيدة بنت احمد الصليحي[٢] التي حكمت بلادها بالحزم والثبات والحكمة واعترفت بخلافة المستنصر وابنه المستعلي الفاطمي[٣].

ورغم العلاقات الودية بين الصليحيين والفاطميين في هذه الفترة فقد ابتعد خلفاء الفاطميين عن التدخل في شؤون اليمن السياسية. لكن ولاء الصليحيين للأئمة الفاطميين جعلهم يخضعون لرغبتهم وسمحوا بنشر دعوتهم ومبادئهم كما كانت عليه الحال في البلاد المصرية[٤]. وقد رأى الخلفاء الفاطميون أن منح الألقاب للصليحيين كان خير وسيلة لاكتساب ودهم وولائهم، كما أن المجاملات التي كانت تحدث بين الطرفين في بعض المناسبات كالتعزية والتهنئة بالأعياد وبالمواليد والهدايا التي يقدمها الخلفاء الفاطميون في مثل هذه المناسبات كان لها الأثر الأكبر في توثيق تلك الصلات[٥]. وبالمقابل فقد قدم الصليحيون هدايا للخلفاء الفاطميين ومنها سبعون سيفاً قوائمها من العقيق اهداها علي بن محمد الصليحي الى الخليفة المنتصر الفاطمي[٧] (شكل ١).



شكل (١) صناعات يدوية يمنية

ورغم الحروب والقلاقل وعدم الاستقرار الذي أصاب اليمن بعد زوال الدولة الصليحية وقيام دويلات أخرى فيها فقد استطاع الأيوبيون الذين خلفوا الفاطميين في حكم البلاد المصرية أن يبسطوا سلطانهم على اليمن (٥٦٩ ـ ٦٢٦ هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٢٦ م) التي حظيت في حكمهم بوحدة شاملة وبنوع من الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي بعد أن قضت على كل الدويلات المستقلة المتصارعة في اليمن، وخطب على جميع المنابر للخليفة العباسي[٨]، إلا أن هذا الاستقرار والهدوء لم يدم طويلاً فقد عادت القلاقل والاضطرابات الى اليمن مرة أخرى. مما مهّد السبيل لقيام دولة بني رسول (٦٢٦ ـ ٨٥٩ هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٤٥٤ م) التي أسسها عمر بن علي بن رسول وحصل على تفويض من الخليفة العباسي لحكم اليمن.

وبلغت اليمن في زمن بني رسول وخاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين مكانة عظيمة رفيعة جعلت حكام البلاد الأخرى يحرصون على كسب ودها والتقرب الى حكامها الذين ذكر عنهم «انهم لم يزالوا مقصودين من آفاق الأرض»[٩] فأرسلت اليهم الصلات والهدايا العديدة من اقطار العالم: شرقه وغربه، مسلمين وغيرهم، وشملت غرائب التحف والنفائس ومنها آنية الصيني والتحف المعدنية والمنسوجات وكذلك العبيد والحيوانات الغريبة والنباتات[١٠]، ومنها الهدايا التي أرسلت من

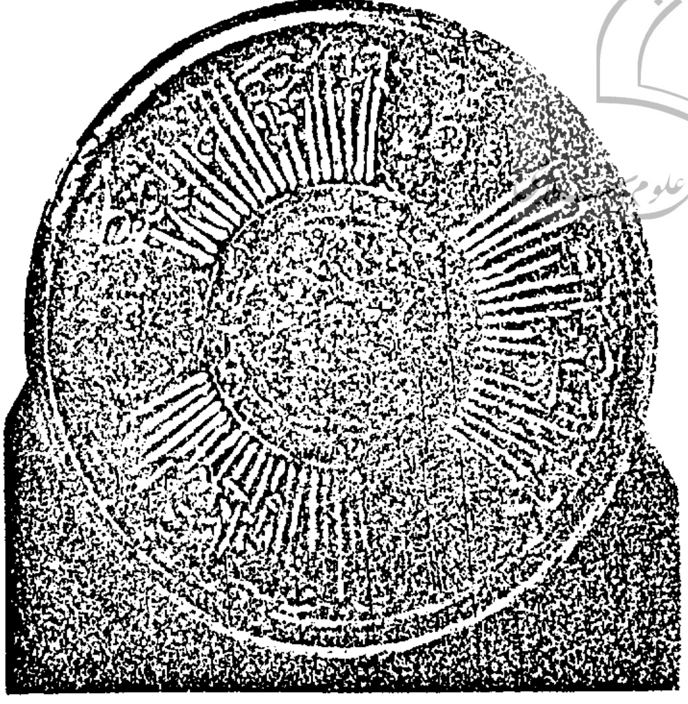
(٢) اسمها سيّدة بنت احمد بن جعفر بن موسى الصليحي (عمارة: **تاريخ اليمن** ص ١٣٧، ١٣٨؛ الربيع: **قرة العيون** ق ١ ص ٢٦١؛ العرشي ص ١٦، ٢١) واشتهرت باسم اروى (عمارة ص ٩٩ حاشية ٤؛ الجرافي: **المقتطف** ص ٦٨) اشهر القابها السيدة الحرة (أبو الفدا: **المختصر** حـ ٢، ص ١٨٣؛ عمارة ص ٣٢٧ حاشية ١٠).
(٣) صالح: **الدولة الاسلامية وحضارتها** ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٤) الهمداني: **الصليحيون** ص ١٩٢ ـ ١٩٣؛ المخلاف السليماني حـ ٢ ص ٤٥.
(٥) صالح: المصدر السابق ص ٢١٥ ـ ٢٢٠.
(٦) نفس المصدر ص ٢٢١.
(٧) دحلان: **تاريخ الدول** ص١٧٣؛ ناصر خسرو: **سفر نامة** ص ٧٩؛ القلقشندي: **صبح الأعشى** حـ ٥ ص ٣٧.
(٨) صالح: المصدر السابق ص ١٦١.
(٩) القلقشندي حـ ٥ ص ٣٦.
(١٠) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية** حـ ١ ص ٣٥٠ و ٣٦١ وحـ ٢ ص ١٣٥، ١٣٩، ١٨٦، ٣٠٢ مجهول: **تاريخ اليمن في الدولة الرسولية** ص ٣١، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٤...؛ الربيع ق ٢ ص ٩٦؛ يحيى: غاية حـ ٢ ص ٥٦٥؛ القلقشندي حـ ٥ ص ٣٧٦.

الديار المصرية سنة ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م والتي تضمنت أنواع التحف الفضية والمعدنية وشملت الآنية والأدوات المنزلية المختلفة من طشوت وأباريق ومجامر وسواري العود والصندل والاكر والقرابات والمسك والعنبر وآنية من فخار الصيني واليشم ما لم يمكن وصفه من الحسن إضافة الى الخدم والفرش والثياب والأطباق والصناديق المملوءة بالمسك وكذلك بعض الوحوش المكسوة بالحرير والأطلس الملمع بالذهب[١١] (شكل ٢).



شكل (٢) حلي وأدوات زينة يمنية

وقد وصلنا عدد لا بأس به من التحف المعدنية المكفتة صنعت لسلاطين اليمن وهي تحمل اسم صانعها الذي يحمل لقب «الموصلي» وتاريخ صنعها والمدينة التي صنعت فيها، وهذا اللقب لا يدل أبداً على أن اصل القطعة من صناعة الموصل أو أنها زخرفت على الطراز الموصلي، فالمعروف أن الموصل اشتهرت وبرزت في صناعة تكفيت التحف المعدنية وعندما تعرض العالم الاسلامي للغزو المغولي تأثرت به مدن وأقطار كثيرة ومنها مدينة الموصل التي هجرها كثير من صناعها وفنانيها واتجهوا صوب مصر وبلاد الشام واليمن وغيرها من الأقطار ونشروا صناعاتهم وفنونهم في المدن التي استقروا فيها ومنها القاهرة حيث ازدهرت على ايديهم صناعة تكفيت المعادن التي شغف بها الملوك والسلاطين من بني رسول. ومن هؤلاء الصناع حسين بن احمد بن حسين الموصلي الذي نزح الى القاهرة في أواخر القرن السابع الهجري وصنع تحفاً جميلة باسم سلاطين بني رسول في اليمن، ومنها صينية محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك باسم السلطان الرسولي المؤيد داود بن يوسف (٦٩٦ ـ ٧٢١ هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٣٢١ م)[١٢]. وفي متحف الفنون الزخرفية بباريس ابريق من النحاس المكفت بالفضة عليه اسم صانعه علي بن حسين بن محمد الموصلي وأن التحفة صنعت في القاهرة سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م باسم السلطان الرسولي الملك المظفر يوسف[١٣]. ووصلتنا تحف أخرى عليها كتابات وزخارف ذات اسلوب مملوكي تؤكد الصلة الحميمة والوفاق الذي كان يربط بني رسول في اليمن والمماليك في مصر منذ القرن السابع الهجري (شكل ٣) كما نجد عليها صورة زهرة اللؤلؤ Marguerite ذات

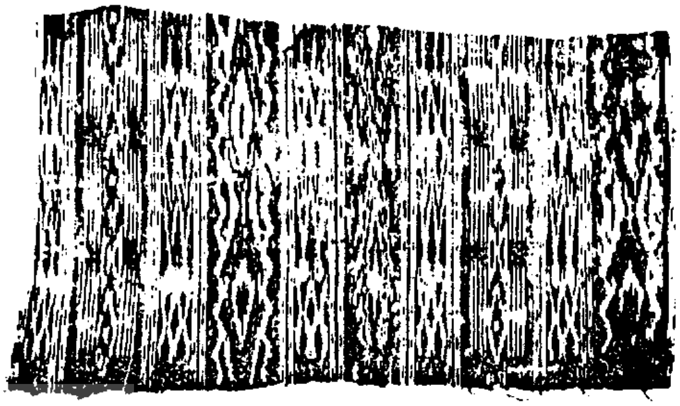


شكل (٣) صينية من النحاس المكفت بالفضة باسم السلطان علي بن داود من بني رسول
(متحف اللوفر بباريس)

(١١) الخزرجي حـ ١ ص ٣٦١، حـ ٢ ص ١٣٩؛ مجهول ص ٣١، ٣٧.
(١٢) الديوه جي: **اعلام الصناع** ص ٩٢؛ **تاريخ الموصل** ص ٤٠٩؛ حسن: **فنون الاسلام** ص ٥٦٢.
(١٣) حسن: **فنون** ص ٥٦١؛ الديوه جي: **اعلام الصناع** ص ٩٨.

التويجات الخمسة والتي كانت شعاراً لبني رسول[١٤]. فقد كان شعار سلاطين اليمن في هذه الفترة وردة حمراء في أرض بيضاء[١٥].

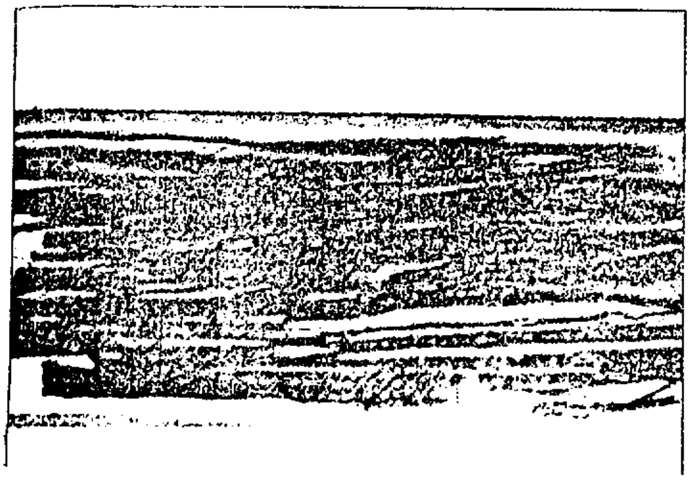
واشتهرت اليمن بصناعة الأقمشة منذ العصور القديمة ومنها صناعة المنسوجات الحريرية التي كانت مزدهرة فيها في القرن الثاني الهجري. ففي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة قطعة من نسيج الحرير الملحم (شكل ٤) عليها كتابة باسم الخليفة المعتمد



شكل (٤) قطعة نسيج من القطن من اليمن في القرن التاسع أو العاشر (متحف الفن الاسلامي بالقاهرة)

على الله العباسي (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٩٢ م) يرجح أن تكون صناعتها قد تمت في صنعاء التي كانت فيها دار للطراز (طراز صنعاء أو طراز الخاصة بصنعاء) تزود الخلافة بما تحتاجه من هذه المنسوجات. وقد تم اكتشاف هذه القطعة مع قطع أخرى من النسيج مصنوعة في طراز صنعاء، في حفائر مدينة الفسطاط في مصر ممّا يدل على الترابط القوي بين البلدين منذ بداية العصر الاسلامي وعلى تزويد اليمن لمصر بما تحتاجه من الأنسجة منذ ذلك الوقت[١٦] (شكل ٥).

وكانت سوق الحرير في صنعاء تعج بخيوط الحرير المستورد من بلاد الشام[١٧] لينسج ويعرض على شكل أقمشة في سوق صنعاء[١٨]. ومن أهمها ما يعرف بالسباعيات بعضها مصنوع من الحرير الخالص والبعض الآخر ممزوج بالكتان[١٩] ونوع آخر



شكل (٥) قطعة من نسيج الحرير الملحم من صناعة اليمن في القرن الثالث الهجري
(متحف الفن الاسلامي بالقاهرة)

يعرف بـ «شقف الحرير»[٢٠] واشتهرت زبيد في القرن الخامس الهجري بانتاج القماش والموشّى بالحرير[٢١].

ورغم التقدم في صناعة المنسوجات الحريرية وغيرها فقد وصل الى اليمن نساجون متخصصون في صناعة المنسوجات وزخرفتها من أقطار أخرى، ومنهم يوسف بن عبدالكريم بن هبيل الموصلّي الذي هجر الموصل إثر الغزو المغولي واتخذ من اليمن دار اقامة له في أيام بني رسول في حدود سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١م حتى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م وكان متخصصاً في نسج الحرير الموشى. ومن جميل شعره ما قاله في وصف قطعة من الحرير كان قد طرزها ووشاها وقدمها الى الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن (٦١٩ ـ ٦٩٤ هـ/ ١٢٢٢ ـ ١٢٩٤ م):

يا امام الزمان في كل فن
وبديعاً قد بزّ شأو البديع
قد رفعنا الى معاليك روضاً
من حرير في غاية التوشيع

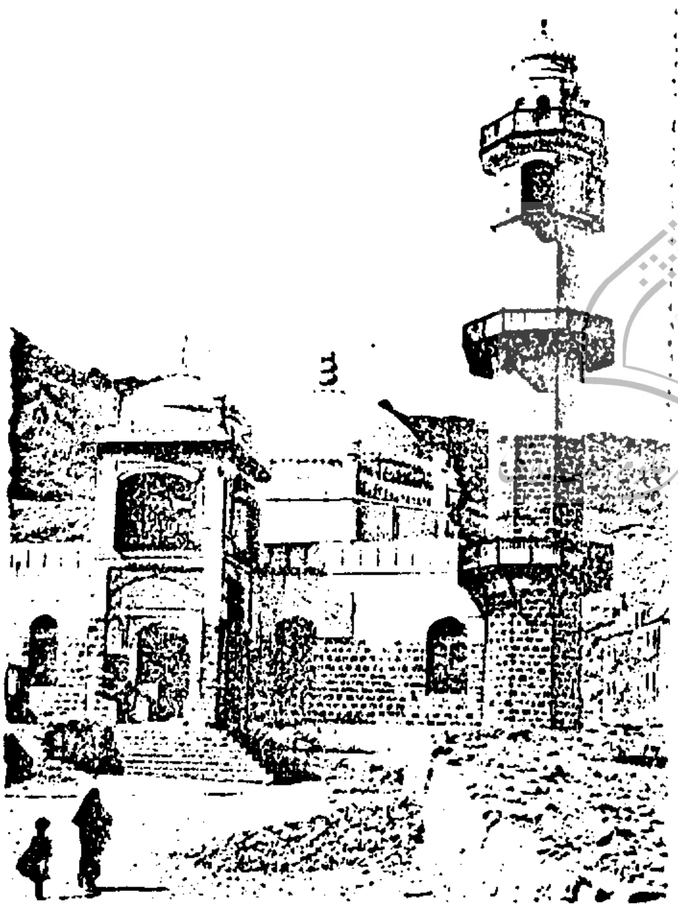
(١٤) حسن: **فنون الاسلام** ص ٥٦٢؛ **اطلس الفنون الزخرفية** ص ١٧٧، ٤٦٦.
(١٥) القلقشندي جـ ٥ ص ٣٤.
(١٦) خليفة: **«مناسج الطراز...»** ص ٤٥ ـ ٤٦.
(١٧) خليفة: نفس المصدر ص ٤٩، ٥١.
(١٨) نفس المصدر ص ٥٠.
(١٩) الحبشي: **«جوانب من الحياة الاقتصادية...»** ص ٨٤ و٨٥.
(٢٠) خليفة: المصدر السابق ص ٥١.
(٢١) نفس المصدر والصفحة.

دوحة في أواخر الصيف فاختر
ها كما جاء في زمان الربيع[٢٢]

كما وصل الى اليمن من الديار المصرية سنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م جماعة من عمال الحرير بالاسكندرية ليشاركوا بمهارتهم في انتاج المنسوجات التي زادت الحاجة اليها في اليمن[٢٣]، مما أدّى دون أي شك وبالتعاون مع الفنانين الآخرين أمثال ابن هبيل الذي وصل اليها من الموصل الى ازدهار صناعة المنسوجات الحريرية والى تطور أساليبها الفنية والزخرفية.

ويبدو أن المعاملة الطيبة التي لاقاها الصناع والفنانون الغرباء في بلاد اليمن، بعدما أصابهم من مصائب على أيدي المغول، كان لها أثر كبير في انتقال اعداد كبيرة منهم اليها وساهموا في تنشيط وازدهار الصناعات والفنون فيها. فقد أشار ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» إلى أن ملوك اليمن في زمانه (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) لا تزال «تستجلب من مصر والشام طوائف من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها... وصاحب هذه المملكة أبداً يرغب في الغرباء ويحسن تلقيهم غاية الاحسان ويستخدمهم بما يناسب كلاً منهم ويتفقدهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم ويوطنهم عنده. وذكر في «مسالك الأبصار» عن ملوك هذه الدولة: إنهم لم يزالوا مقصودين من آفاق الأرض قل أن يبقى مجيد في صنعة من الصنائع إلا ويصنع لأحدهم شيئاً على اسمه ويجيد فيه بحسب الطاقة، ثم يجهزه اليه ويقصده به فيقدمه اليه فيقبل عليه ويقبل منه ويحسن نزله ويسني جائزته ثم إن أقام في بابه أقام مكرّماً محترماً أو عاد محبواً محبوراً. يجزلون من نعمهم العطايا ويثقلون بكرمهم المطايا. ما قصدهم قاصد إلا وحصل له من البر والإيناس وتنويع الكرامة ما يسليهم عن الأوطان.....»[٢٤]. وقد شجع هذا الأسلوب في معاملة الصناع والفنانين وذوي الحاجة على انتقال الكثير منهم مع صناعاتهم وأساليبهم الفنية التي كانت مزدهرة في العراق ومصر والشام وغيرها الى اليمن وساهموا في تطورها في تلك البلاد ولا بد من أن يكون اليمنيون أنفسهم قد تتلمذوا على أيدي اولئك الصناع الوافدين وانتجوا معهم تحفاً لا تقل روعة وجمالاً عن نتاجات اساتذتهم الجدد، إلا اننا لا نعلم بالضبط مدى تأثيرهم في هذا الميدان لقلة التحف التي وصلت الينا والتي يمكن نسبة صناعتها الى اليمنيين الذين ربما كانت منتوجاتهم من الدقة والاتقان بحيث يصعب معهما تمييزها عن تلك التي صنعت خارج اليمن.

وكانت تحف الهند (شكل ٦) والطاف الصين وغيرهما من الأقطار مما تعج بها خزائن سلاطين وولاة اليمن، لها تأثير كبير على أسلوب الصناعة والفنون المحلية في اليمن[٢٥] إذ أن كلاً من الأساليب الصناعية الجديدة شق لنفسه جدولاً خاصاً به يمتاز بلونه وطعمه. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى تلاقت هذه الأساليب وكونت نهراً تصبّ فيه جداول مختلفة الألوان والعناصر، وكانت اليد اليمنية الصانعة هي الأداة المعبرة عن الروح العربية اليمنية التي لا تلتبس بغيرها.



شكل (٦) جامع ادريس في عدن
وعليه بعض التاثيرات الهندية

(٢٢) الديوه جي: اعلام ص ٤٧ و٦٧؛ **تاريخ الموصل** ص ٤٠٥.
(٢٣) الخزرجي حـ ٢ ص ١٨٦ و١٣٥؛ مجهول ص ٤٤، ٤٧.
(٢٤) القلقشندي حـ ٥ ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٢٥) القلقشندي حـ ٥ ص ٣٦؛ **عمارة** ص ١٩١.

المنسوجات والملابس
في الجزيرة العربية والخليج العربي
في القرنين الأول والثاني

د. صلاح حسين العبيدي

جامعة الأنبار

لا بد لنا قبل التعرض لدراسة المنسوجات والملابس في الجزيرة العربية والخليج العربي من أن نشير الى أن صناعة النسيج التي نشأت مع الانسان كانت وليدة حاجته الى الوقاية من الطبيعة وتقلباتها، ولستر جسده.

وبعد أن دخل الانسان مضمار الحضارة والمدنية صار يطوّر في منسوجاته وملابسه ويحسّن من صناعة النسيج، فاهتدى الى الياف النبات، فنسج منها ما يحتاج اليه من ملابس.

لقد تميزت المنسوجات والملابس في أول أمرها بالبساطة ثم تدرجت مع رقي الانسان في سلم التطور. واستمر الانسان في تطوير منسوجاته حتى عرف غزل الخيوط ونسجها.

وقد يكون من العبث أن نحاول رسم صورة واضحة لكيفية معرفة واهتداء الإنسان الى فكرة النسج والمنسوج اذ تعوزنا المصادر التاريخية والآثار المادية التي توضح الوسائل والطرق التي كانت متبعة في غزل الخيوط وتلوينها ونسجها وحياكتها.

ولقد أولى الانسان صناعة النسيج والحصول على المواد الأولية للمنسوجات اهتماماً بالغاً منذ أقدم العصور إذ هي أحد الأركان الثلاثة التي ترتكز عليها حياته: المأكل والملبس والمسكن.

وفي اطار الحديث عن المنسوجات لا بد من التعرف على عملية النسيج التي عن طريقها نحصل على المنسوجات المطلوبة. والنسيج عبارة عن تقاطع خيوط طولية متجاورة تسمى بخيوط السداة مع خيوط أفقية تسمى خيوط اللحمة ويكون هذا التقاطع في الغالب منتظماً ويحدث نتيجة تكرر التقاطع المذكور في عدد من خيوط السداة واللحمة للحصول على منسوج ذي متانة ومرونة تقل أو تزيد تبعاً لطبيعة وخواص المواد الأولية المستخدمة في نسجه[1].

ويطلق على المواد الأولية المستخدمة في صنع المنسوج اسم خامات النسيج. وتكون بعض خامات النسيج التي استخدمها الانسان نباتية مثل القطن والكتّان والبعض الآخر حيوانية مثل الصوف والشعر والحرير. واستخدم النساج في تنفيذ الزخارف بالمنسوجات على اختلاف أنواعها أربع طرق، **الأولى** الرسم على المنسوج أو طباعته.

والطريقة **الثانية** من طرق تنفيذ الزخارف بالمنسوجات تطريز الأشكال المرسومة على النسيج بخيوط تختلف ألوانها عن لون القماش بواسطة الابرة[2].

والطريقة **الثالثة** التي تحدث الزخرفة فيها نتيجة تجاور لحمات ملونة تنسج غير ممتدة في عرض المنسوج احداها تمثل الأرضية واللحمات الأخرى تمثل الزخرفة ويجاور بعضها بعضاً في المساحات المحددة لكل منها وبذلك يتم التكوين الزخرفي للمنسوج[3].

والطريقة **الرابعة** والأخيرة هي استعمال تراكيب نسيجية مختلفة في أرضية المنسوج وزخرفته، ينشأ عنها التكوين الزخرفي المطلوب وهو ما يعرف بالزخرفة بواسطة خيوط السدى واللحمة[4].

---

(١) خليفة، سيد خليفة، **تاريخ المنسوجات** (مطبعة النهضة بمصر ١٩٦١ م) ص ١١.

(٢) العبيدي، صلاح، **الفنون الزخرفية العربية الاسلامية** (مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٦) ص ٢٠٢.

(٣) غالب، محمد عبد المنعم مراد، **هندسة التشغيل والانتاج** (ط ٣) مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٠م ٢ ص ٢٠ ـ ٢١).

(٤) غالب، المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١.

أما بالنسبة الى تلوين المنسوجات فقد استخدم النساجون مختلف الأصباغ، وكانت تسبق عملية الصبغ عملية أخرى هي القصر.

ومصادر الأصباغ ثلاثة هي النبات والحيوان والمعدن، وكانت معظم الأصباغ نباتية: فالورس يعطي لوناً أصفر.

وصبغة الزعفران التي تؤخذ من شجرة الزعفران تعطي اللون البرتقالي المائل للحمرة. أما صبغة الفوه فإنها تؤخذ من جذور شجرة الفوه وهذه الصبغة تستعمل لكل أنواع الحمرة.

أما اللون الأزرق فكان يحصل عليه من نبات النيلة.

ويؤخذ اللون الأصفر من جذور شجرة الكركم أو من نبات قشور الرمان.

أما اللون البني (القهوائي) فيؤخذ من نبات العفص، واللون الأحمر الذي يعرف بصبغة القرمز يؤخذ من حشرة تعرف بحشرة القرمز[5].

إن معلوماتنا التي وردت عن أنسجة وملابس الجزيرة العربية والخليج العربي في القرنين الأول والثاني الهجريين جاءت الينا قليلة لا تتعدى ما ذكر في كتب اللغة والأدب والتاريخ والمعاجم. وتكاد الأمثلة المادية لانسجة وملابس هذه المدن تكون معدومة، لذا فإن جميع معلوماتنا وما تنطوي عليه من مادة سوف تكون مستمدة من هذه المصادر، وهي معلومات ليست في مثل وضوح المعلومات المستمدة من نماذج مادية ملموسة. فمن أمثلة هذه المعلومات الواردة في الكتب أن قطر اشتهرت منذ العصور الاسلامية الأولى بانتاج مختلف أنواع النسيج والألبسة.

وكان يطلق على المنسوجات التي تنتجها قطر: القطرية، وهي ضرب من البرود، وهذه البرود حمر لها أعلام تأتي من قبل البحرين، وقيل قطر وربما تكون النسبة الى قطر أقرب من غيرها[6]، وعن البكراوي قال: البرود القطرية حمر لها أعلام بها بعض الخشونة وأنشد[7]:

كساك الحنظلي صوف وقطريا فأنت به تفيد

وقد خص بعضهم المنسوجات القطرية بأنها حلل، قال خالد بن جبنة هي حلل قال وهي جياد وقد رأيتها حمر تأتي من قبل البحرين[8].

ويبدو أن المنسوجات القطرية كانت من أحب الثياب عند الرسول ﷺ فقد جاء في الحديث أن الرسول ﷺ كان متوشحاً بثوب قطري[9].

ومن المنسوجات القطرية صنعت الملابس المختلفة مثل الدروع، وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) قال أيمن دخلت على عائشة وعليها درع قطري ثمنه خمسة دراهم[10]. والدرع قميص تتخذه المرأة لباساً لها تجوب وسطه وتجعل له يدين وتخيط فرجيه.

ويبدو أن كلمة درع لا تنطبق الا على قميص المرأة ويكون قصيراً تلبسه الجارية في بيتها[11].

وهناك نوع من الدروع يمتاز بوجود كيسيم صغير طوله شبر يخاط جانباه تلبسه ربات البيوت ويسمونه السبجة أو السبيجة، ويبدو أن المرأة تتخذه في ساعات العمل تشد به وسطها. وورد أيضاً أنه من الجلود[12].

والأزار لباس آخر من ألبسة البدن التي اشتهرت بانتاجه قطر، والإزار والمئزر والإزارة بمعنى واحد وهي ما يلتحف به ويستتر به البدن من أسفله[13] بينما يرى دوزي[14] أن الإزار غير المئزر فالأول يدل على الغطاء الكبير أو الرداء الواسع الذي تلتف به نساء الشرق، كما أنه يعني نوعاً من الثياب لتغطية الأرداف والأعضاء الطبيعية (العورة) في حين أن كلمة مئزر تعني قطعة القماش التي تستر العورة والتي تلبس من السرة الى اسفل.

والذي أراه غير ذلك فالتبان يفصل ويخيط في حين أن المئزر ليس له مثل هذه الصفة عليه فإننا نرى أن الإزار والمئزر

---

(٥) العبيدي، المصدر السابق ص ٢٠٤.
(٦) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، دار صادر، بيروت (١٣٧٤ هـ) حـ ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٧) ابن منظور، المصدر السابق، حـ ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٨) ابن منظور، المصدر السابق، حـ ٥ ص ١٠٦.
(٩) ابن منظور، المصدر السابق، حـ ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(١٠) ابن منظور، المصدر السابق، حـ ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(١١) العبيدي، صلاح، **الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والاثرية**. منشورات وزارة الثقافة والاعلام (بغداد ١٩٨٠) ص ٢١٦.
(١٢) العبيدي، المصدر السابق ص ٢١٨.
(١٣) العبيدي، المصدر السابق ص ١٨١.
(١٤) دوزي، رينهارت، **المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب**. ترجمة الدكتور أكرم فاضل (مطبوعات وزارة الاعلام العراقية ١٩٧١ م ص ٣١).

يحملان مفهوماً واحداً ويختلفان في الوقت نفسه عن التبان.

ويروي محمد بن عبدالله الأسدي عن سفيان عن سعيد الحريري عن أبي عثمان أنه قال «أخبرني من رأى عمر (رضي الله عنه) يرمي الجمرة عليه ازار قطري مرقوع برقعة من أدم[١٥].

لقد تميّزت أزر قطر باختلاف طولها فالذي وصل الينا أن الامام علياً (رضي الله عنه) كان يأتزر الى نصف الساقين، فيروي جرموز «رأيت علياً وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان ازار الى نصف الساق ورداء مشمر قريب منه[١٦].

ومن النص المتقدم عرفنا نوعاً أخر من الملابس القطرية هو الرداء وهو من ملابس البدن الخارجية والأردية من الملاحف ومفردها رداء ويعرف ابن منظور: الملحفة عند العرب الملاءة السمط[١٧].

ومما وجدناه في النصوص الصريحة أن الرداء لم يكن ليلتحف به وحسب وإنما كان يُرتدى كلباس مفصل على الجسم أيضاً[١٨]. وغالباً ما يذكر هذا النوع من اللباس مقروناً بالازار.

وجاء ذكر القميص من بين الألبسة القطرية والقميص من لباس البدن الداخلي، فقد ذكر الجاحظ أن القميص والسروال هما الشعار وسائر الثياب الدثار[١٩].

ويروي قدامة بن عتاب: رأيت علياً يخطب في يوم من أيام الشتاء وعليه قميص قهز وازاران قطريان مُعْتَماً بسبب كتان مما ينسج في سوادكم[٢٠].

واحب قبل أن اترك الحديث عن منسوجات وملابس قطر أن أشير الى أن كلمة القهز تعني: ضرب من الثياب تتخذ من صوف كالمرعزى وربما خالطها حرير. قال رؤبة[٢١]:

وادرعت من قهزها سرابلا
اطار عنها الخرق الرعابلا

أما البحرين فقد ذاع صيتها بانتاج المنسوجات والملابس المختلفة، وقد أشار المؤرخون الى السمعة الطيبة التي بلغها البحرين في هذا الميدان، فيروي الطبري عن «هناد وأبو كريب عن وكيع عن يزيد بن ابراهيم عن ابن سيرين أن ابا موسى كسا ثوبين من معقدة البحرين[٢٢].

ويروي ابن منظور «وروى ابن سيرين أن أبا موسى كسا في كفارة اليمين ثوبين: ظهرانياً ومعقداً. قال النضر الظهراني ثوب يجاء به من مر الظهران قرية من قرى البحرين[٢٣].

ولم تكن قطر وحدها قد اختفت بانتاج البرود بل قاسمتها الشهرة مدينة هجر، وكان يطلق على البرود التي تنتجها هجر اسم المعقد، والمعقد برد من هجر وقيل هو منسوب الى الظهران وهو وادٍ بين مكة وعسفان[٢٤].

واشتهرت هجر أيضاً بإنتاج ما يسمى بالبز الذي صنعت منه بعض انواع الملابس، فيروي سفيان عن سماك بن حرب عن سويد بن قيس انه قال: «جلبت أنا ومخرمة العبدي بزاً من هجر فأتينا به مكة فجاء رسول الله ﷺ يمشي فساومنا بسراويل فبعناه، وثم رجل يزن بالأجر فقال له رسول الله ﷺ وارجح»[٢٥].

ويروي ابن سعد ان الرسول ﷺ بعث سليط العامري الى هوذة الحنفي فقبل هذا الاسلام واجاز سليط بن عمر بجائزة وكساه أثواباً من نسيج هجر فقدم بذلك على النبي وأخبره به[٢٦].

وذاع صيت قُبطر في انتاج المنسوجات أيضاً والقُبطرية بالضم ضرب من الثياب، قال ابن الرقاع:

كأن زرور القُبطرية علقت
بنادكها منه بجذع مقوم[٢٧].

---

(١٥) العلي، صالح، الأنسجة في القرنين الأول والثاني، مجلة الأبحاث، تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت (دار الكتاب ايار ١٩٦١ ـ تشرين أول ١٩٦١) ص ٥٧٦.
(١٦) العلي، المصدر السابق ص ٥٧٦.
(١٧) ابن منظور، المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٢٤.
(١٨) العبيدي، صلاح، **الملابس** ص ٢٦١.
(١٩) الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م. جـ ٢ ص ٧٧.
(٢٠) العلي، المصدر السابق ص ٥٧٦.
(٢١) ابن منظور، المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٩٨.
(٢٢) العلي، المصدر السابق ص ٥٧٤.
(٢٣) ابن منظور، المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٢٩.
(٢٤) ابن منظور، المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٢٩.
(٢٥) العلي، المصدر السابق ص ٥٧٥.
(٢٦) ابن سعد، محمد بن سعيد، **الطبقات الكبرى** (ليدن ١٣٣٨ هـ) ١/٢/١٨.
(٢٧) ابن منظور، المصدر السابق جـ ٥ ص ٧٠.

وقد حدّد ابن سيده[28]، وابن منظور[29]، مادتها ولونها، فقيل أنها ثياب كتان بيض وقيل ثياب بيض وضرب من الثياب وانشد:

كـأن لـون القـهـز في خصـورهـا
والقُبطـري البيض في تـأزيـرهـا

وبرزت مدن أخرى من الجزيرة العربية والخليج العربي الى جانب ما ذكرناه في انتاج النسيج، ومن بين هذه المدن نجران التي كانت تصنع فيها أنواع من الثياب تعرف بالنجرانية، وفي الحديث انه كفن في ثلاثة أثواب نجرانية هي منسوبة الى نجران وهو موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن[30].

أما عمان فقد كانت من المدن التي راجت فيها صناعة المنسوجات وانتاج اللباس المختلف. ويروي ابن سعد أن النبي ﷺ كان له إزار من نسيج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر[31].

ويذكر ابن سيد الناس عن ابن فارس أن الأزر العمانية كانت من بين اللباس الذي تركه الرسول ﷺ بعد وفاته حيث قال: «ترك رسول الله ﷺ يوم مات ثوبي حبرة وازاراً عمانياً»[32].

ويروي ابن حنبل عن «محمد بن جعفر عن شعبة عن عمارة بن ابي حفصة عن كرمة عن عائشة انها قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان غليظان توشح فيهما فيثقلان عليك، وإن فلاناً قد جاءه بزفاً بعث اليه يبعك ثوبين الى الميسرة[33].

أما مكة فقد اشتهرت هي الأخرى بنوع من الثياب يطلق عليها الخوخة وهي ضرب من الثياب الخضر يسميه أهل مكة الخوخة[34].

أما المدينة فقد عرف من منسوجاتها نوع يطلق عليه (انبجاني). وفي الحديث ائتوني بانبجانية ابي جهم، وهو كساء منسوب الى منبج المدينة، يتخذ من صوف له خمل ولا علم له هي من أدون الثياب الغليظة[35].

وأخيراً أننا بما قدمناه نرجو أن نكون قد نجحنا في إلقاء الاضواء على بعض جوانب من تراث أمتنا العربية في الجزيرة العربية والخليج العربي الذي نعتز ونفتخر به.

---

(28) ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل **المخصص** (طبعة بيروت) ٤/٧٢.
(29) ابن منظور، المصدر السابق حـ ٥ ص ٧٠.
(30) ابن منظور، المصدر السابق حـ ٥ ص ١٩٥.
(31) العبيدي، صلاح، **الملابس** ص ١٧.
(32) ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن أحمد، **عيون الأثر في عيون المغازي والشمائل والسير** حـ ٢ ص ٣١٩.
(33) العلي، المصدر السابق ص ٥٧٥.
(34) ابن منظور، المصدر السابق حـ ٣ ص ١٤.
(35) ابن منظور، المصدر السابق حـ ٢ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

عمارة العرب في الجزيرة العربية
في ضوء مكتشفات الحجر

د. طاهر مظفر العميد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

مقدمة

إن منطق تطور الحضارات البشرية، منذ أن خُلق الإنسان على ظهر الأرض، لا يترك مجالاً للشك في أن العرب في تلك الحقبة التأريخية كانت عندهم إحساسات فنية لا بد وأن تكون قد أثرت بطريقة ما في تطورالفن العربي في العالمين العربي والاسلامي، منذ أن بدأ العرب، في فجر الإسلام، حملات التحرير والفتوح، وأفلحوا في إقامة دولة كبيرة وعظيمة، على الأرض العربية المحررة والأراضي التي إعتنقت شعوبها الإسلام، رسالة العرب الإنسانية نحو الخير والنور والحضارة. فمن الواضح أن العمارة والفنون العربية، التي بدأت تتشكل ملامحها، في مستوطنات متناثرة من جزيرة العرب، قد أخذت تتطور، مع مضي الزمن، قبل الإسلام، وتفصح عن تطورها بنماذج فريدة، يكتشفها علماء الآثار أو الباحثون عن كنوز الأرض[١]، في فترات متفاوتة من القرن التاسع عشر والقرن العشرين. والملاحظ أن ملامح العمارة العربية هذه قد أثرت، مع غيرها من الفنون العربية الأخرى المحلية في العراق والشام ومصر، في بواكير الفنون العربية منذ اللحظات الأولى من العصر الإسلامي. الذي بدأ يتكوّن له طابع خاص واضح في بلاد العرب، وفي الأقطار التي دخلها العرب ونشروا فيها الإسلام[٢].

ولسنا هنا في حاجة لأن نذكر أقوال الآثاريين والباحثين الغربيين، وما كتبوه في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين عن عمارة العرب، وعن جهودهم في البناء، وتخطيط المدن، وما توصلوا اليه، من وجهة نظرهم، من نتائج وأفكار عن عمارة العرب قبل الإسلام، والمصادر التي استقى العرب منها أصول عمارتهم في العصر الإسلامي[٣]. لسنا بحاجة

(١) نشر فيلبي وبعض رجال شركة أرامكو صُوراً فوتوغرافية اثناء بحثهم عن البترول، لكتابات ونقوش عثروا عليها في موضع يقال له «قرية الفأو» على الطريق الموصل الى نجران، وقد عثروا على آثار أبنية ضخمة، يظهر أنها بقايا قصور كبيرة، ووجدوا كهفاً منحوتاً في الصخر مزداناً بالكتابات والتصاوير يدعوه الناس هناك «سرداباً». وعند هذا الموضع عين ماء وآبار قديمة. وكتب اسم الصنم «ود» بحروف بارزة. (انظر، جواد علي، **تأريخ العرب قبل الاسلام**، ١٤٣/١). وتدل كل الدلائل على أن هذا الموضع الذي تغلبت عليه الطبيعة الصحراوية الآن كان مدينة ذات شأن. ويرجح المرحوم الدكتور جواد علي في كتابه المشار اليه ١٤٢/١ ـ ١٤٣. أن هذا الموضع هو «القرية» أو قرية بني سدوس ابن ذهل بن تغلبة كما سميت في الكتب العربية، فهو على قرن جبل، وفيه قصر مبني بصخر منحوت، وعلى مقربة منه آبار وعين ماء، وهو على الطريق الذي يصل الى «العروض» و «نجد» بمنطقة نجران.

(٢) انظر: شافعي (فريد)، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، المجلد الأول، **عصر الولاة**، القاهرة ١٩٧٠، صفحة ٥١.

(٣) مع تقديرنا الكبير لكل الباحثين والمستشرقين وعلماء الآثار الذين أسهموا في أعمال الحفر والتنقيب في مختلف المواقع الآثارية العربية والإسلامية، وشاركوا في البحث عن المدن العربية، وعاونوا في الكتابة عن كثير من اللقى والتحف، فضلاً عن مشاركتهم في توضيح مختلف أوجه الحضارة العربية الإسلامية، وعرّفوا العالم بسمات هذه الحضارة ومقوّماتها، فإننا نسجّل عليهم هنا مع كثير من الأسف، بأن قسماً كبيراً من أبحاثهم ومؤلفاتهم وآرائهم واستنتاجاتهم وتعليقاتهم، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق منها بالعمارة، يغلب عليها طابع التحيّز لغير العرب، وإنكار فضل العرب في تشكيل الفنون المعمارية قبل الإسلام وبعده. وفي وسعنا أن نشير الى قسم قليل من هذه الأبحاث والمؤلفات التي يظهر فيها التحيّز واضحاً:

جيروترود بل ـ في كتابها باللغة الإنكليزية «**الأخيضر**» صفحات ١٤٥ ـ ١٤٨. Bell- «... **Ukhaidir.**» PP. 145-148

ـ كريزويل في كتابه: «**العمارة الإسلامية الأولى**» ج ١ صفحة ٦ وصفحات ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

= Creswell- **Early Muslim Architecture**, 1, P. 6, PP. 388-389.

الى ذلك، لأن ما نقدمه من دلائل أثرية وشواهد معمارية، كافية لأن تشير، بصورة قاطعة، إلى أن العرب، روادٌ في البناء والعمارة قبل الإسلام، ومؤثرين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في عمارة العديد من شعوب العالم.

بعد هذه المقدمة الوجيزة، سوف نتناول في هذا البحث النقاط التالية:

أولاً: الجزيرة العربية مصدر العمارة

ثانياً: اعمال التنقيب في الجزيرة العربية.

ثالثاً: الحجر في ضوء المكتشفات الآثارية.

أولاً: الجزيرة العربية مصدر العمارة

إننا نعتبر الأسلوب المعماري الذي نما وإزدهر في العصور الإسلامية المختلفة كان استمراراً للأسلوب المعماري الفني الذي نراه في اليمن وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية، وعلى هذا الأساس، فإننا نرى أن الجزيرة العربية كانت المصدر الأكثر تأثيراً والذي استقى المسلمون منه أصول فن البناء والعمارة. ولكننا - في نفس الوقت، لا نهمل التيارات الفنية المعمارية المحلية للأقاليم التي حرّرها العرب مثل العراق والشام ومصر، فمن المعروف، أن شعوب هذه المناطق، وخاصة العراق ومصر، قد أرست حضارات عريقة أصيلة لا زالت آثارها الشاخصة، أو مبانيها التي أظهرتها أعمال الحفر والتنقيب تشهد بالدور الرائد الذي مارسته، عبر عصور تأريخية مختلفة في مجال العمارة[٤].

فالمعروف أن العرب في فترات مختلفة من العصر السابق للإسلام، قد أقاموا مدناً في أقاليم مختلفة من أراضيهم، أورد المؤرخون والبلدانيون العرب أسماءها وطبيعة مبانيها[٥]. وما دمنا نتحدث عن عمارة العرب في الجزيرة العربية، فإننا سوف نقتصر الحديث عن مدن العرب وعمارتهم في هذه المنطقة دون التوسع الى مناطق أخرى.

وجهود العرب في البناء تعد جزءاً من حضارتهم الأصيلة، التي تمتد جذورها الى الجزيرة العربية قبل الإسلام، كما كان لهم فن قديم، ترجع أصوله الى العرب القدماء، إزدهر قبل الاسلام وبعده، وأصبح له شأن كبير في العصور الإسلامية المختلفة، بحيث غدا فناً متميزاً بطابعه العربي، ونمطاً حضارياً أصيلاً[٦].

واذا أردنا الوقوف على بداية نشاط العرب المعماري والفني في الجزيرة العربية، فإننا سنواجه صعوبة الإستدلال على هذا النشاط بصورة دقيقة ومفصلة، ذلك أن الجزيرة العربية بقيت لفترة طويلة بعيدة عن أعمال التنقيبات الأثرية، مع أن هناك من المعلومات الكثيرة ما يدل على وجود مستوطنات سكانية في العديد من المواقع والمواضع المنتشرة في الجزيرة العربية، وأن أصحاب هذه المستوطنات من العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون فيها ضمن ظروف تساعد على قيام حضارة أو حضارات لها معالم وخصائص يمكن أن تحددها مخلفات العمارة والفنون لو امكن العثور عليها والكشف عنها[٧]. وتشير الدلائل الآثارية منذ العصور الحجرية القديمة، وبسبب الطبيعة الصحراوية الجافة والحارة في هذا العصر أصبحت الواحات مراكز تجمعات سكانية كثيفة في شبه الجزيرة، ومن الواحات المشهورة ما يقع على إمتداد الحافات الشرقية لسلسلة جبال السراة في منطقة الحجاز

= وكتابه «**المختصر**» صفحة ١٤٢.

Ashort Account of Early Muslim Architecture, P. 142.

- وبريجز في كتابه: «**العمارة المحمدية في مصر وفلسطين**، صفحة ٤٧.

Briggs- **Mohammadan Architecture in Egypt and Palestine**, P. 41.

وفي بحثه عن العمارة في كتاب: «**تراث الإسلام**»، ترجمة الدكتور زكي محمد حسن، صفحة ١١٢.

- ريتشموند: في كتابه «**العمارة الاسلامية**»، صفحة ٩.

Richmond- **Moslem Architecture**, P. 9.

- فريجسون: في كتابه «**تاريخ العمارة**» الطبعة الثالثة، الجزء الثاني صفحة ٥١٤.

Fergusson: **History of Architecture**, 3rd. ed. 11, P. 514.

(٤) لقد أكدنا هذا الرأي في الباب الأول من رسالة الماجستير التي قدمت الى قسم الآثار بكلية الآداب عام ١٩٦٤، الموسومة: «بغداد مدينة المنصور المدورة» عند تناولنا نقد آراء العلماء والباحثين في العمارة الاسلامية، صفحة ٣٤.

(٥) للتوسع في المعلومات عن هذه المدن ومبانيها تراجع المؤلفات التأريخية والبلدانية التالية: - كتاب «**الإكليل**» للهمداني، كتاب «**معجم البلدان**» لياقوت الحموي، كتاب «**مسالك الممالك**» للاصطخري، كتاب «**فتوح البلدان**» للبلاذري، كتاب «**البلدان**» لليعقوبي. وغيرها عشرات.

(٦) معروف (الدكتور ناجي)، **عروبة المدن الاسلامية**، صفحة ١١.

(٧) شافعي (الدكتور فريد)، مصدر سابق، صفحة ٥٣.

مثل يثرب والعلا ومدائن صالح وتيماء[٨]. وقد أورد الدكتور تقي الدباغ أسماء ثلاثة وسبعين موقعاً أثرياً في المملكة العربية السعودية ترجع الى العصور الحجرية[٩]. وقد وردت الإشارة الى بعض الأودية وبقايا عاديات وخرائب، ومخلفات السكنى في بعض بقاع شبه الجزيرة العربية، وكلها لم تدرس بعد، وكذلك آثار الترسيبات التي تمثل قيعان الأنهار. ويتضح من ذلك أن هذه الأودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الأيام، وانها كانت تستضيف عدداً كبيراً من الأحياء[١٠]. ويؤيد هذا الإستنتاج ما ورد في مؤلفات الإغريق والرومان من وجود انهار طويلة في بلاد العرب كالذي ذكره هيرودوتس من أمر نهر سماه «كورس»، وقال عنه أنه من الأنهر العظيمة، وأنه كان يصب في بحر الأريترية[١١]، ويقصد به البحر الأحمر، وأن العرب يقولون أن ملكهم عمل على جلب المياه من ذلك النهر العظيم، واستخدم لهذا الغرض ثلاثة أنابيب صنعت من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات تمتد الى الصحراء، فتصب في مواضع منقورة تستعمل لخزن المياه[١٢].

وهناك موضع على مقربة من ساحل البحر الأحمر إسمه «قرح» على مسافة ٤٣ كيلومتراً من «الحجر». وكان في الأزمنة السابقة من المحلات المزروعة وبه بساتين عدة تعرف باسم بساتين «قرح»[١٣].

وهناك العديد من الأودية أورد ذكرها المرحوم جواد علي عن الكُتاب الإغريق والرومان، منها وادي «الحمض» يصب في البحر الأحمر عند موضع في جنوب قرية «الوجه»[١٤]. ووادي «أضم» في الحجاز الذي ورد ذكره في أشعار العرب قبل الاسلام، وفي أخبار سرايا الرسول عليه الصلاة والسلام[١٥]. ووادي القرى، يقع بين العلا والمدينة (يثرب). وكان هذا الوادي كثير العمران، به مياه غزيرة، وتشاهد فيه اليوم آثار المدن والقرى. وكان بين سبأ والشام قرى متصلة، فكان أفراد القوافل لا يحتاجون الى زاد يحملونه من وادي سبأ الى الشام[١٦].

ثانياً: أعمال التنقيب في الجزيرة العربية

بقي تاريخ الجزيرة العربية يستند الى وقت قريب على مجموعة المصادر التأريخية من المدوّنات العربية والسريانية وأبعد منها زمناً بعض الإشارات المتفرقة عن تاريخ العرب القديم في المصادر المدوّنة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، وأن أفضل الكتابات التأريخية اعتمدت الروايات الشفهية وتذرعت بالأساطير في رسم كثير من الأحداث، ولكن هذه الكتابات التأريخية لا تخلو من فائدة، كما تكون الإفادة من كتابات البلدانيين العرب عميقة ومؤثرة، لأنها جاءت عن أبناء المنطقة، واكثر الناس خبرة بأرضها وناسها وزراعتها ومناخها. ولكن الدراسات التأريخية والحضارية المعتمدة على المصادر المدوّنة، لم تتجاوز في أحسن الأحوال، النظرة السطحية والسريعة لتأريخ العرب، وتأثرت كثيراً بواقع العرب في حدود تأريخ العرب القريب ليحكموا على فترات تأريخ العرب القديم. لذلك يجد العاملون والمهتمون بشؤون الدراسات الأثرية في الجزيرة العربية ضرورة إعادة النظر في كثير من فقرات تأريخ العرب القديم، وهم ينطلقون لتحقيق ذلك في ضوء المعلومات الواسعة والمثيرة التي تقدمها أعمال المسح والإستكشاف والتنقيب الأثرية في عموم أرجاء الجزيرة العربية[١٧].

أشرنا فيما سبق، إلى أن الجزيرة العربية، بقيت لفترة طويلة بعيدة عن أعمال التنقيبات الأثرية، كما أن المناهج الدراسية في الكليات الناشئة في العقد السادس من هذا القرن، كانت تخلو من الدراسات الآثارية، وقد بدأت بوادر الإهتمام بالآثار في جامعة الرياض، بكلية الآداب/ قسم التأريخ، وفي قسم التأريخ بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وكان نواة هذا الإهتمام تدريس، تأريخ العرب قبل الإسلام، مع الإشارة الى النواحي الحضارية لهذه الفترة. ثم انتقل الإهتمام الى تأريخ الشرق القديم، الذي يتضمن منهجه التركيز على الحضارتين الكبيرتين، حضارة العراق وحضارة مصر.

---

٨) الدباغ (الدكتور تقي)، **الوطن العربي في العصور الحجرية**، هيئة كتابة التاريخ، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة، ص ٤٩.
٩) الدباغ، (الدكتور تقي)، مصدر سابق، صفحات ١٤٦ ـ ١٤٧ و ١٥٣ ـ ١٥٤.
١٠) علي (الدكتور جواد)، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ٩٧/١.
١١) علي، الدكتور جواد، مصدر سابق ٩٧/١. الهاشمي (رضا جواد)، **آثار الخليج العربي والجزيرة العربية**، بغداد ١٩٨٤، صفحة ٢٤١.
١٢) علي، الدكتور جواد، مصدر سابق ٩٧/١. شافعي، مصدر سابق، صفحة ٥٣.
١٣) نفس المصدر، ٩٨/١.
١٤) نفس المصدر ١٠/١١.
١٥) نفس المصدر، ١٣٢/١، اليعقوبي، **البلدان** ٣٥٩/٣.
١٦) لسان العرب ٣٨/١٩. شافعي، مصدر سابق صفحة ٥٤.
١٧) الهاشمي، رضا جواد، **آثار الخليج العربي والجزيرة العربية**، صفحة ٢٥ ـ ٢٦.

وتطور الإهتمام في الجامعات السعودية لعلم الآثار، عندما ضمت كلية الشريعة بمكة المكرمة الى جامعة الملك عبد العزيز بعد أن فصلت عن وزارة المعارف. ووضعت مناهج جديدة لأقسام الكلية، ومن ضمنها قسم التأريخ، الذي تتضمن مناهجه مواد تتعلق بالآثار الإسلامية اضافة الى حضارة الشرق القديم.

وطورت كلية الآداب بجامعة الرياض مناهج قسم التأريخ فيها فأصبح يهتم بالنواحي الآثارية والفنية الإسلامية، اضافة الى التأريخ القديم. وازداد إهتمام الجامعات السعودية بالآثار، فأرسلت العديد من خريجي أقسام التأريخ والآثار للتخصص في مختلف الجامعات الأوروبية والأمريكية والمصرية، بهدف تكوين ملاك تدريسي جامعي من العلماء يأخذ على عاتقه، تدريس مختلف التخصصات الآثارية والحضارية والعمل في المواقع التأريخية للكشف عن آثارها وما تكتنزه من لقىً تميط اللثام عن العديد من المستوطنات الحضارية في المملكة العربية السعودية[١٨].

وقد تحققت خطوة جريئة وجادة في مجال البحث الأثري في المملكة العربية السعودية عندما تبنت جامعة الملك سعود بالرياض مشروعها الطموح للإضطلاع بمسؤولية التنقيب والكشف عن قدم واصالة تراث الأمة العربية التي استقرت منذ أزمان بعيدة. ففي عام ١٩٧٢ بدأت جامعة الملك سعود التنقيبات في موقع عاصمة كندة المعروف اليوم بقرية الفأو الذي يقع في قلب الجزيرة العربية على بعد ٧٠٠ كيلومتر الى الجنوب الغربي من الرياض[١٩].

وليس في وسع الباحث، أن يعذر المتخصصين الغربيين الذين أخفقوا أيما إخفاق في تناولهم عمارة العرب قبل الإسلام، بحجة عدم إطلاعهم على نتائج التنقيبات الآثارية للعديد من المواقع والمدن العربية، أو أن مباحث تأريخ العمارة العربية، قبل الإسلام وبعده، لا زالت بحاجة الى توسع كبير كما يذكر باتيسيه[٢٠]. كما أن «لوبون» أثناء حديثه عن الطراز العربي قبل ظهور النبي محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) يرى بأن هذا الطراز لا يزال مجهولاً، خلا ما يستشف من بقايا مباني اليمن القديمة، ومن بقايا المباني التي أقيمت في الممالك العربية السورية القديمة[٢١].

وأملنا كبير في أن ينشط الآثاريون والمؤرخون العرب في إغناء التراث العربي في مجال العمارة وبناء المدن، فينصرفوا الى هذا الجانب الحيوي والمهم من حضارة العرب، ويولوه عناية خاصة في البحث والتنقيب والدراسة والمقارنة والإستنتاج والتحليل، حتى تتكشف للعيان كنوز فن البناء والمدن عند العرب، وتتم معرفة الصلة الوثيقة التي تربط بين حضارتي العرب في العمارة قبل الإسلام وبعده. وأن تنشط المؤسسات العلمية والثقافية الآكاديمية، وعلى وجه الخصوص، مؤسسات الآثار وفرق البحث والتنقيب الآثاري، بإصدار نتائج الأعمال الآثارية المتعلقة بالتنقيب في مواقع المدن والمستوطنات العربية المختلفة قبل الإسلام، حتى تغنى معلوماتنا بالمزيد من الحقائق العلمية التي أمست الدراسات المعمارية العربية في حاجة كبيرة لها[٢٢].

ثالثاً: الحجر في ضوء المكتشفات الآثارية

من الدراسات الحديثة التي تتناول نتائج التنقيبات في مواقع المدن العربية القديمة، الكتاب الذي صدر عن قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب في جامعة الملك سعود والموسوم: **«مواقع أثرية وصُوَر من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية ـ العُلا (ديدان) الحجر (مدائن صالح)**. اعداد الدكتور عبد الرحمن الأنصاري والدكتور احمد حسن غزال. والدكتور جفري كنج. وتعد هذه الدراسة خطوة أولى في البحث عن موقع مدينتي العلا والحجر.

الذي يعنينا في هذه الدراسة المستندة على الاكتشافات الآثارية، ما ورد عن الحجر (مدائن صالح)، وما كشف فيها من البقايا المعمارية، مع العلم، انه لا يزال هناك العديد من المشاكل العلمية الخاصة بمدينة الحجر، لم تتوفر، حتى الوقت الحاضر، معلومات دقيقة عنها، منها تحديد فترات الإستقرار السكاني

(١٨) **مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية**، اصدار ادارة الآثار والمتاحف ـ وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.

(١٩) صالح (الدكتور عبد العزيز حميد)، **صور من ملابس العرب في ضوء حفائر الفاو السعودية**، بحث غير منشور، على الآلة الكاتبة ـ صفحة ٣ ـ ٤. ويشير الدكتور عبد العزيز حميد بأن حفائر الفاو أماطت اللثام عن الكثير من المعلومات الجديدة وسلطت الأضواء على جوانب في غاية الأهمية من تراث الأمة العربية والفضل في ذلك كله يعود الى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري رئيس قسم الآثار والمتاحف في كلية الآداب بجامعة الملك سعود الذي تراس بعثة التنقيب في ذلك الموقع خلال جميع المواسم. والفضل يعود اليه أيضاً لنشره نتائج الحفريات أولاً بأول في المجلات العلمية المختلفة ثم في كتاب شامل وجامع يعتبر بحق واحداً من الإسهامات العلمية الأصيلة في حقل الآثار العربية القديمة. (المصدر السابق، صفحة ٤).

(٢٠) أورد هذا النص لوبون في كتابه، **حضارة العرب**، ترجمة محمد عادل زعيتر، طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م، صفحة ٥٢١.

(٢١) لوبون، مصدر سابق، صفحة ٥٤٨.

(٢٢) العميد (الدكتور طاهر مظفر)، **الآثار العربية في الحجاز، في ضوء مكتشفات العلا (ديدان)**، بحث سينشر في مجلة سومر.

الأول للمنطقة، أما المعلومات الواردة في الدراسة، فتقدم تسلسلاً زمنياً لتطور تأريخ وعمارة المدينة، معتمدة في الأساس على إجتهاد علماء الآثار المعاصرين، وإستنتاجاتهم، في ضوء النصوص التأريخية المتوفرة، أملاً أن ما سوف يكشف من اثارها مستقبلاً، سيجيب على تلك المشاكل العلمية وتتوضح معلوماتنا، وقد يعاد النظر في بعض ما قدم[٢٣].

إن ما يتوفر لدينا من المعلومات عن الإستقرار السكاني المبكر في الحجر (مدائن صالح) محددة وقليلة، رغم وجود مجموعة من التواريخ على الآثار النبطية الثابتة في الموقع، توضحها سلسلة من النقوش يؤرخ أقدمها من آذار ـ نيسان (مارس ـ ابريل) ١ ق. م، ويؤرخ أحدثها من مايس ـ حزيران (مايو ـ يونية) ٧٥ م. ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن بداية الاستقرار في الموقع ترجع الى تأريخ سابق لأقدم تأريخ مكتوب. ولذا علينا أن ننتظر نتائج الحفائر الآثارية مستقبلاً لكي نحدد تأريخ هذه البداية[٢٤].

وإذا رجعنا الى حديث الجغرافيين العرب عن الحجر التي تقع الى الجنوب من دومة الجندل فأن الأصطخري يقول عنها: بأنها ديار ثمود الذين قال الله فيهم «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد»[٢٥]، ويشير[٢٦] بأنه رأى تلك الجبال ونحتهم الذي قال الله تعالى عنه: «وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين»[٢٧].

وقال عنها ياقوت: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. وأن جبالها اذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها»[٢٨].

والآثار الباقية الشاخصة في الحجر (مدائن صالح) ذات الواجهات المعمارية الضخمة، المنحوتة في واجهات المنحدرات الجبلية المنحوتة في واجهات المنحدرات الجبلية الرملية، حمراء اللون نتيجة التكوينات الصخرية، وهي تنتشر حول السهل الذي كانت تقوم فيه المدينة القديمة[٢٩].

لقد ذكرنا، قبل قليل، بأنه لم تتوفر معلومات دقيقة عن تحديد فترات الإستقرار السكاني الأول لمنطقة الحجر، وقد ناقش بعض الباحثين هذا الجانب، من الاستدلال بالنقوش المعينية المكتشفة. التي يتعامل معها الباحثون بحذر، ومن دراسة الخطوط اللحيانية المكتوبة على منحدرات صخور جبل أثلب.

ويرعى «وينيت» بوجهة النظر التي تقول بوجود استقرار سكاني معيني ـ لحياني سبق الإزدهار النبطي في الموقع[٣٠]. ويؤيد «جروهمان» هذا الرأي[٣١]. ويرى «كاسكل» بأنه توجد نقوش لحيانية مبكرة وأيضاً أخرى متأخرة[٣٢].

ويؤيد «موسيل» الرأي القائل بأن اللحيانيين قد اقاموا فعلاً في الحجر (مدائن صالح) بالإضافة الى العلا (ديدان). وعند وصف «سترابوت» للحملة الرومانية بقيادة ايليوس جالوس الى الجزيرة العربية في عام ٢٤ ق. م، وأوضح بأن قوة من الأنباط قد إمتدت قبل هذه المرحلة من عاصمتهم البتراء جنوباً الى شبه الجزيرة العربية ويذكر أيضاً أن الدولة النبطية كانت تسيطر على قرية ساحلية تسمى الحجر[٣٣].

(٢٣) الأنصاري (د. عبد الرحمن وآخران)، **مواقع أثرية وهو رمز حضارة العرب في المملكة العربية السعودية**، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م، صفحة ٤.

الهيئة العربية العليا
لكتابة تاريخ الأمة

خواطر حول اعادة كتابة التاريخ العربي: الكتاب المدرسي

علي الحوسي

لقد حاول وسيحاول المتناولون الكلمة في هذه الندوة كما حاول البعض من قبلهم في مقالات وكتب نقد أساليب كتابة التاريخ بصفة عامة، والتاريخ العربي بصفة خاصة، وأن يضربوا الأمثلة عن تفسيرات خاطئة أو مزوّرة لبعض وقائع التاريخ القريبة منها لإعادة كتابة التاريخ العربي بصفة خاصة، وسيشرحون أحدث النظريات ويقدمون أنجع الاقتراحات وهم بذلك والحق يقال يكونون ببحوثهم هذه قد عملوا على رد اعتبار التاريخ العربي، وقدموا أجلّ الخدمات للحقيقة، ونظفوا التاريخ العربي ممّا لحقه من افتراءات وأخطاء وجفاف وسطحية وخلط، وخرجوا به الى علم صحيح مؤسس على قواعد سليمة خضعت للاختبار والتمحيص والأمانة والدقة والموضوعية.

لقد اكتفى بعض المؤرخين القدماء - والى وقت قريب - في كتاباتهم بنقل الأحداث كما هي دون مناقشة وتدبر واستنتاج، فكتبوا وألّفوا عن كل فترات التاريخ قديمة ووسيطة وحديثة، ولم يكن للواحد منهم تخصص في فترة تاريخية معيّنة، واعطوا لمؤلفاتهم عناوين مختلفة، وغرقوا في عملية اجترار وتكرار، ونقلوا ما كتبوه في الكتاب الواحد الى مجلدات وأجزاء إسماً لا فعلاً.

وكتب صنف آخر من وجهة نظر ذاتية قصيرة أو متحيّزة.. وزيّف صنف ثالث الحقائق عن قصد لأمر في نفسه.. وخشي البعض صولة حاكم فخضع لإرادته على حساب الأمانة التاريخية.

الا أنني أيها السادة سأنظر للموضوع من زاوية أخرى، هي في نظري أخطر لتأثيرها المباشر والفعلي. إنها كتابة التاريخ لتلاميذ المدارس الإبتدائية والثانوية..

وسأعرض عليكم بعض الخواطر حول كتابة التاريخ المدرسي، إنها خواطر فحسب لذلك لا تنتظروا مني تبويباً وتخطيطاً وعودة الى مصادر ومراجع وبحثاً معمقاً.

لقد درسنا وتعلمنا كما تعرفون أو يعرف البعض منكم على الأقل في كتب - ان وجدت - قد حشيت معلومات وأحداثاً وتواريخ مرقّمة بأسلوب جامد جاف دون أن تحرك في أنفسنا السؤال والحيرة والنقد والمقارنة والاستنتاج وربط النتائج بالأسباب.. وهي كتب كان من المفروض أن تنحت شخصيتنا وتكوننا تكويناً سويّاً.. ولكنها لم تفعل.

لقد خلت هذه الكتب التاريخية المدرسية من كل وسائل الإيضاح والترغيب.. كانت مجرد أوراق مسوّدة بمعلومات ألقيت على عواهنها دون تدبّر واختبار ودون هدف وغاية.. معلومات قد تكون لا رابط لها ببعضها.

وكان المدرس، الذي لم يكن مختصاً إلّا في ما ندر، في جمود الكتاب.. يطالبنا بدراسة الكتاب من صفحة كذا الى صفحة كذا.. هذا اذا لم يملِ علينا الدرس دون شرح وتفسير.. وكنا نعود الى الكتاب لنقرأ المطلوب، ولنقوم بالواجب، ولكن سرعان ما نغلق الكتاب الذي فتحناه لا كسلاً منا ولكن تلك الخطوط المطبعية التي لم تراعِ حتّى الذوق تبدو لنا وكأنها طلاسم، وحدّث عن انعدام الوسائل البيداغوجية ولا حرج، فتنقبض النفس ويقل الحماس للتعلم إن لم نقل ينعدم، وقد لا نعود الى الكتاب الا قبيل الامتحان لنأخذ في تسجيل سطحي غبي سريع دون فهم واستيعاب ينطمس بعيد الامتحان مباشرة.

لقد كان الكتاب مثبطاً للعزائم، قاتلاً للحماس، فضعفت ثقافتنا لا بالتاريخ فحسب بل ضعفت ثقافتنا العامة، ذلك أن التاريخ، أيها السادة، من أهم العلوم الاجتماعية، يمس كل علم فيأخذ من كل واحد بطرف.. التاريخ يدرس السلوك البشري ماضياً وحاضراً ومشروعاً للمستقبل، والسلوك البشري متعدد الجوانب.

لقد صنفت كتب التاريخ المدرسية وكأنها موسوعات، فالمؤلف

يثبت وفي نفس الحجم كل ما عرض له في الكتاب المدرسي من أحداث تاريخية هامة أو تافهة دون اعتبار لتوجيهات وأهداف المناهج الرسمية، ودون اعتبار لقابلية التلميذ.

وتشعر من خلال الكتاب بأن المؤلف يعيش في عزلة تامة فلا تحس بوجوده من خلال ما كتب ونقل وحبّر.. لا نقد لحادثة ولا تحليل لرأي ولا دعم لفكرة.. بل هو مجرد ناقل لحوادث ومحبّر لصفحات.

ويبدو أن هدفه الوحيد تبليغ أكبر كمية ممكنة من المعلومات التاريخية الى التلميذ ظناً منه بأن هذا الأخير سيأخذ القليل إن لم يأخذ الكثير، ولم يدرك بأن التلميذ بنفوره من هذا الكتاب لن يأخذ شيئاً، وإن علقت بذهنه أشياء فإنها ستكون مشوّشة وغير مركزة، وقد يعلق بذهنه التافه ويحيد عن الجوهر والمهم.

وهكذا عودتنا هذه الكتب على الكسل الذهني، فلا هي اعتمدت الطرق البيداغوجية سبيلاً للتبليغ، ولا هي راعت الأهداف والغايات ولا هي امتثلت للتوجيهات الرسمية ولا هي اختبرت ميولات التلاميذ ومستواهم الذهني ومدى قابليتهم لتقبل المادة المدروسة.

وقد تستمر الدراسة بذلك الكتاب المقرر لمدة سنوات عديدة دون أن يظهر كتاب أحدث يعوّضه، ولا يستبعد أن يكون الكتاب الذي درس به مدرسك هو نفس الكتاب الذي درست به أنت.

أما الأسلوب الذي كتبت به هذه الكتب التاريخية المدرسية فهو أسلوب سردي جاف وجامد يجانب الهدف ولا يخدمه، وقد يصاغ بلغة أدبية تستعمل فيها الاستعارات والمحسنات اللفظية فتطغى على الحدث التاريخي، فلا دقة في الأحداث ولا اختصار لها ولا تمييز بين المهم منها والأهم وغير المهم.

وقد توجد في الكتاب صُوَر ورسوم رجا المؤلف منها الخروج عن المألوف أكثر من خدمة الهدف فإذا هي صور ورسوم ساذجة باهتة قد شح لونها، لا تثير اهتمام التلميذ ولا تلفت نظره.

ولو واصلنا ذكر مساوىء تلك الكتب المدرسية ـ على أهميتها في ذلك العهد ـ لحبرنا الصفحات العديدة.

ولعل بعضكم قد رجعت به الذاكرة الى كتبه المدرسية التي كانت أوراقها ذابلة بعيدة عن النصاعة والبياض.

لقد تذكرت كتبي المدرسية أنا أيضاً، وحاولت مقارنة كتب التاريخ المدرسية اليوم بكتب الأمس. ولعلني أفاجئكم عندما أقول لكم بأنني لم أر كبير فرق، وأن كل ما وضع من تحسينات لتلك الكتب ـ رغم طول التجربة ـ لم تكن سوى توشيح وتزويق وترقيع لم يمس الجوهر. وظل بعض مؤلفي كتب التاريخ المدرسية اليوم، رغم تطور طرق التأليف ووسائل التقنية الحديثة، يقلد من سبقه في التأليف دون خلق وابداع، مستسيغاً هذه العملية السهلة، ومدّعياً في ذات الوقت حقوقاً للتأليف.

لم أر أيها السادة باحثاً تربوياً قد طبق في تأليفه أسساً سليمة وتصوراً واضحاً ونموذجاً لما يجب أن يكون عليه الكتاب المدرسي عامة وكتاب التاريخ خاصةً بعد دراسة معمقة لأفضل طرق تأليف الكتب المدرسية، وأحدث أساليب البيداغوجيا، ونفسيات التلاميذ وقابلياتهم الذهنية لتقبل المعرفة، وردود فعلهم، ودور اللغة في بساطتها ودقتها في أداء المعنى بأمانة وصدق دون أن تطغى اللغة الأدبية على الموضوع، أو يقدم بأسلوب جاف جامد لا يثير التلميذ.

ورغم البحوث العديدة في تقنية الكتب المدرسية التي تجعل اهميّة بالغة لوسائل الايضاح البصرية من رسوم واضحة ومعبرة، وصُوَر ملوّنة ومختارة، وخرائط تاريخية مجسمة، وخطوط بيانية دقيقة، ونصوص قصيرة مرتبطة عضوياً بالموضوع، وأسئلة موضحة وهادفة، وتمارين مثيرة للتفكير، وخطوط مطبعية واضحة سهلة الإقراء تتماشى ومستوى التلاميذ، وأرضيات للأوراق ملونة قد صبّ فيها كل ذلك، وفرز للكلمات المفاتيح للموضوع، وغير ذلك من وسائل الإيضاح خلقاً للتفاعل والتكامل بين الكلمة وتجسيدها، وجعل كل ذلك في غير افراط ولا تفريط ولا مبالغة أو تقتير في خدمة الموضوع الذي يجب أن يكون نصه قصيراً مركّزاً موضوعياً بعيداً عن الأهواء وعن كل تحيّز، مبرزاً القضايا الجوهرية التي تخدم الهدف المرجو. فقد تكون الصورة أبلغ من ألف كلمة كما قيل، وقد يثير سؤال ذكي ما لم تثره صفحات محبّرة.

رغم تلك البحوث فإنني لم أعثر على تجسيم لها في كتاب التاريخ المدرسي وظلت بحوثاً نظرية ولم يطبق منها النزر القليل.

إن كتابة التاريخ لتلامذة المدارس الابتدائية والثانوية ليست بالأمر السهل، وليست هي مجرد تدوين أحداث مشحونة بتواريخ وأرقام، ذلك أننا نقدم أحداثاً تاريخية لم يعشها التلميذ ولم يشاهدها فيأخذها كمسلمات وحقائق، والعهدة علينا طبعاً.

إن دراسة ظاهرة تاريخية حدثت في زمن ما وفي مكان ما تتطلب معرفة كاملة ودقيقة لا فقط بتلك الظاهرة وملابساتها ونتائجها بل بظواهر وأحداث تلك الفترة والتي سبقتها، وبظروف ذلك المكان وظروف الأماكن المجاورة، ومع ذلك فكل حادثة تاريخية مهما تشابهت مع غيرها من الأحداث والظواهر تظل فريدة في حد ذاتها.

ولن يتوفر ذلك الا لمن سيطر على المادة سيطرة كاملة، وتمرس في تجربة التعليم وأعاد تكوين نفسه باستمرار، واطّلع على تجارب الآخرين، وتخلى عن انتماءاته الشخصية لفائدة الأمانة

العلمية رغم ما قيل عن الإنسان من أنه حيوان متحيّز لجنسه ومعتقده...

لذلك كان تأليف كتب التاريخ المدرسية عملية معقدة، تتوقف على تضافر جهود عدة عناصر تتكامل مع بعضها لتؤدي دورها وتحقق أهدافها، بعكس ما يمكن أن يقدمه كتاب مدرسي علمي من تجارب محسوسة يجريها التلميذ بيده ويستنتج خصائصها بنفسه.

لذلك فإنني ادعو الى أن تتكون لجنة من ذوي الاختصاص لتأليف كتب التاريخ المدرسية تحسيناً لمردودها وتحاشياً لكل تحيّز وتفادياً لكل أقليمية ضيقة وابتعاداً عن الأحكام الذاتية وحصولاً على المعلومات الدقيقة والأساسية، وإحكاماً للاخراج الذكي لتحقيق ما رسم من أهداف نبيلة لتكوين أجيال المستقبل تكويناً سليماً، وربما استعنا في هذه اللجنة بمختصين في اللغة والفنون والإخراج.

على أن الكتاب المدرسي يجب أن لا يعمر أكثر من ثلاث سنوات اذ هو عمل بشري مهما تعدد المشاركون في اعداده، وكل عمل بشري منقوص، والاختراعات العلمية والتقنية في هذا العصر تكاد تكون يومية لإيصال المعرفة الى الانسان بأخصر وسيلة وأدقها وأبسطها.

إن هذه السنوات الثلاث كفيلة بأن تعطي فكرة واضحة عن سلبيات الكتاب وإيجابياته حيث تجري في السنة الأولى تجربة الكتاب، وتقدم في السنة الثانية استبيانات وأسئلة لكل المدرسين المختصين والتلاميذ عن كل محاور الكتاب موضوعاً ولغةً ووسائل ايضاح واخراجاً، ثم يقيم كل ذلك لمعرفة مدى خضوع الكتاب لأسلوب البحث العلمي وجوانبه: الإيجابية فيحافظ عليها، والسلبية فيتخلى عنها، وتخصّص السنة الثالثة للتأليف بناء على استنتاجات التقييم.

وهكذا يكون الكتاب الجديد مطبوعاً وجاهزاً في مفتتح كل سنة رابعة.

وهكذا يصبح الكتاب المدرسي صديقاً للتلميذ بحق وآلة طيّعة في يده يعود اليه متى شاء ليساعده على التعليم الذاتي والاستيعاب والتفكير والخلق وفقاً لقدراته الذهنية.

ذاك جانب أيها السادة هو جانب الشكل.

أما عن الموضوع فإنني أقول كما قال غيري بأن التاريخ مشروع للمستقبل، والمستقبل هو مصير أبنائنا.. هو مصير امتنا العربية من محيطها الى خليجها.

لقد حدثت في العالم تطورات مهولة قاربت بين أجزائه، وجعلت من الدول التي أحكمت التستر وأغلقت الحدود مكشوفة كأنها في قبة من زجاج، وأصبحت الأحداث والوقائع الإقليمية عالمية الصدى والتأثير تتجاوب معها الشعوب في جميع أصقاع الأرض وتتفاعل معها سلباً أو إيجاباً، كقضايا التحرر في العالم ومشكل الحريات وحقوق الانسان والتمييز العنصري والأزمات الاقتصادية والاكتشافات والاختراعات والصراع بين العملاقين، والحروب الساخنة والباردة بين الشعوب وغير ذلك من الأحداث والقضايا.

وهكذا نلاحظ بأن تاريخ العالم اصبح يميل الى الوحدة، وأن تاريخ قطر ما لم يعد تاريخ دائرة مغلقة لا يتأثر بغيره ولا يؤثر في غيره..

واعتبر التعصب للتاريخ الاقليمي تعصباً ضد الحياة وتعلقاً بالموت..

ومن هذا المنطلق وحيث أن مصير الأمة العربية مصير مشترك، شاء من شاء وكره من كره، لأفرادها هوية واحدة ومصلحة واحدة ومستقبل واحد وآمال واحدة.

وحيث أن المستقبل للتكتلات الكبرى وأن الشعوب الصغيرة المتقوقعة على نفسها ستدوسها حوافر الكتل القوية وتفرض عليها الانصياع والتبعية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً.

وشعوراً بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا كمربّين ومؤرخين إزاء أجيال المستقبل ومصير الأمة بأسرها.

وإنقاذاً لتاريخنا من التشرذم.

وبناء على أن تاريخنا العربي في عمومه تاريخ واحد، وأننا لا يمكن أن نعزل حادثة وقعت في قطر عربي ما عن الأحداث التي وقعت في أقطار عربية أخرى، ويبرهن ما نسب لأحد خلفاء بني العباس موجهاً كلامه لسحابة عابرة: «امطري حيث شئت فخراجك لي»، على تكامل الأقطار العربية وتأثرها بظواهر وأحداث بعضها منذ القدم، وبأنه لا يمكن أن نقول اليوم بأن العدوان على العراق ليس عدواناً على الأمة العربية بأسرها، وأن القضية الفلسطينية لا تعني الأمة العربية بل تعني الفلسطينيين فقط، وأن ثورات التحرر بأجزاء المغرب العربي منفصلة عن بعضها لم تتكامل ولم تنسّق خططها ولم تدعمها دول عربية أخرى تربطها بها مقومات مشتركة دموية ودينية وتاريخية ومصيرية، وأن ثورة ١٩٢٠ بالعراق لم تتأثر بثورة ١٩١٩ بمصر، والقائمة تطول في ذكر الأحداث المشتركة والمؤثرة والمتأثرة.

وحيث أن غاياتنا تكوين أجيال تتحمس لمشروع المستقبل والمصير الواحد وتنبذ الإقليمية. فإنني أدعو الى ايجاد كتاب تاريخي مدرسي موحد لكل تلامذة الأقطار العربية يحتوي على التاريخ العربي المشترك، ويتجاوز التاريخ الاقليمي الضيق

ويحدد القضايا المصيرية المشتركة فتنفتح الأقطار العربية على بعضها وتتوحد المشاعر وتحفظ الكرامة، على أنني أريد أن أسوق استطراداً بعض الملاحظات:

١ ـ لا بد من رد الاعتبار للتاريخ العربي الاسلامي الذي مسخه الاستعمار التوطيني والثقافي،

٢ ـ تحرير تاريخنا من أساليب البحث الاستعمارية التي صغرت من قيمته في حين أظهرت تاريخ الاستعماريين بمظهر التاريخ البطولي والمسيرة المتلاحمة المباركة والملحمة العظيمة،

٣ ـ إن بعض أبنائنا الذين تعلموا بالغرب وتحصلوا على شهائد عليا قد انطلت عليهم مع الأسف اللعبة فنصبوا أنفسهم وكلاء للدفاع عن تاريخ الغرب وأساليب بحثه.

ومن أجل ذلك لا بد من إيجاد لجنة من ذوي الاختصاص يمثل أفرادها كل الأقطار العربية تعمل للخروج بموقف مشترك لكل القضايا وكتاب تاريخ موحد لكل الأقطار العربية، ذلك أن أية وحدة في أي مجال مهما صغر المجال هي أمنية وكسب لكل عربي.

منهج كتابة التاريخ العربي

عبدالله بن محمد البابطين

دارة الملك عبد العزيز ـ المملكة العربية السعودية.

الباب الأول

الفصل الأول

أ ـ معنى التاريخ

يدل لفظ (التاريخ) على معان متفاوتة فيعتبر بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها، عن نشأة الكون كله بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض وما جرى على سطحها من حوادث الانسان[1].

وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الانسان والزمان، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للانسان وفي الزمان[2] وكلمة (تأريخ) بمعنى التاريخ العام أي تسجيل أهم حوادث الأمم وبمعنى الحوليات أي تدوين الحوادث عاماً عاماً بمعنى الأخبار مرتبة بحسب العصور[3]. وكلمة (تأريخ) لفظ عربي بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت أي تحديد الوقت وأن أصل كلمة تاريخ هو الأصل السامي العام لكلمة (ورخ)[4]. وكلمة التأريخ من حيث الاصطلاح تعني الزمان والحقبة[5].

ب ـ أهمية دراسة التاريخ

لا يستطيع الانسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضي، ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة[6] ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل[7].

لذلك فإن دراسة التاريخ لها أهمية كبيرة حيث أنه ينتفع به في الاطلاع على أخبار العلماء والزهاد والفضلاء والملوك والأمراء والنبلاء وسيرهم ومآثرهم في حربهم وسلمهم، وما أبقى الدهر من فضائلهم أو رذائلهم، حيث تُتبع الأمور الحسنة من آثارهم ولا يسمع منهم فيما تنفر عنه العقول المستحسنة من أخبارهم[8].

فحوادث التاريخ عبرة وموعظة، وتجربة توقف الباحث على عثرات الماضين وأسباب انقراض الدول والحضارات وتدفع أصحاب المثل للاقتداء بالشخصيات البارزة[9].

ومن فوائد دراسة التاريخ ما يقوله ابن الأثير[10].

«أما الفوائد الأخروية فمنها أن العاقل اللبيب اذا تفكر فيها ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها الى أعيان قاطنيها وأنها

١) حسن عثمان، **منهج البحث التاريخ** ص ١١.
٢) السخاوي، **الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** ص ٧.
٣) كب، **علم التاريخ** ترجمة ابراهيم خورشيد واخرين ص ١٥.
٤) بلير، **مادة التاريخ** دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية مجلد ٤ ص ٤٧٣.
٥) فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين** ترجمة د: صالح العلي ص ٢٣.
٦) حسن عثمان، المصدر السابق ص ١٣.
٧) نفس المصدر، ص ١٣.
٨) عبد العزيز سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب** ص ٢٧.
٩) نفس المصدر، ص ٢٩.
١٠) **الكامل في التاريخ**، بيروت ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥ ص جـ ١ ص ٨.

سلبت نفوسهم وذخائرهم وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم فلم تُبقِ على جليل ولا حقير ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير زهد فيها وأعرض عنها وأقبل على التزود للآخرة.

ومنها التخلق بالصبر والتأسي، وهما من محاسن الأخلاق، فإن العاقل اذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه ابن مكرّم وملك معظم بل ولا أحد من البشر، علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم».

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته[11]: «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرونه في أحوال الدين والدنيا».

الفصل الثاني

نشأة التاريخ العربي

العصر الجاهلي

لم يكن هناك أي نوع من الكتابة التاريخية في العصر الجاهلي حتى في البلدان المتحضرة مثل اليمن والحيرة وغسان وكان تاريخها نسياً منسياً لدى العرب سكانها وغير سكانها[12].

أما الأخبار التي وصلت الينا عن هذه الفترة فقد سجّلها المؤرخون في مدوناتهم لأول مرة في العصر الأموي، فقد كانت مشوّهة لا تعدو أن تكون أخباراً يغلب عليها الطابع الأسطوري، أو اخباراً أدخلها المغرضون ممن اعتنقوا الاسلام من أهل الكتاب[13] لا سيما ما كان يتعلق منها بتاريخ اليمن وأخبار ملوكهم.

أما التاريخ الجاهلي القريب من الإسلام والذي وصل الينا في المصادر العربية فأقرب بكثير الى الواقع التاريخي من الروايات التي سجلها الإخباريون عن عصر الجاهلية الأولى المغرقة في القدم[14].

ولا عجب من أن علم التاريخ عند العرب قام على أساس من الرواية الشفوية بسبب انتشار الأميّة قبيل الإسلام، وفي بداية العصر الاسلامي من ناحية، وطبيعة المجتمع القبلي في بلاد العرب وما كان يسود هذا المجتمع من مفاخرة الأفراد والقبائل بحسبها ونسبها من ناحية أخرى[15].

وهذه الأخبار التي تسمى «أيام العرب»، ظلت تُتداول.. على الألسنة جيلاً بعد جيل، الى أن دُوّنت في العصر الأموي عندما ثُبتت دعائم الدولة الاسلامية واستقرت أركانها، وبدأ العرب يُعنون بأخبارهم القديمة وقد دخل فيها الكثير من عناصر القصص، ولم تُدَوّن هذه الأخبار قبل العصر الأموي لعوامل ثلاثة:

أولاً: إن العرب بعد الاسلام نظروا الى العصر الجاهلي على أنه عصر انحطاط اخلاقي فلم يهتموا برواية أخباره الاهتمام الكافي.

ثانياً: أن العرب شغلوا بالدعوة الاسلامية في حياة الرسول ﷺ كما اشتغلوا بالفتوحات الاسلامية والتنظيمات الادارية والاقتصادية والدفاعية للدولة العربية الاسلامية.

ثالثاً: أما العامل الثالث فانه يرجع الى أن المواد التي كان يسجل عليها العرب اخبارهم كانت سهلة الكسر سريعة الضياع[16].

وعلى الرغم مما في بعض هذه الأخبار من خيال وغموض وعدم تقيد بالدقة فقد كان لها تأثير كبير في نشأة علم التاريخ عند العرب.

ولم تترك الفترة الجاهلية أدباً مكتوباً فهي كما ذكرنا سابقاً فترة ثقافية شفوية أما الشعر العربي في الجاهلية، فقد كان له أهميته في إفادتنا عن الأحوال الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام، فهو ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر[17].

ظهور الاسلام

بظهور الاسلام جمع أشتات القبائل العربية المتناثرة في شبه الجزيرة العربية وانتشر الاسلام بسرعة وأثار العقول في كل ناحية حل بها واستنهض العزائم واستجاش الهمم، وأنه لما

(١١) **مقدمة ابن خلدون**، مصر جـ ١ ص ٩.

(١٢) حسين نصار، **نشأة التدوين التاريخي عند العرب** ص ٥.

(١٣) عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص ٤١.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

(١٥) سيدة كاشف، **مصادر التاريخ الاسلامي** ص ١٢.

(١٦) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٤٢.

(١٧) المصدر نفسه ص ٤٢.

هدأت فورة الغزوات الاسلامية الظافرة، وتوقفت حركة الفتوح المتوالية كثر القاصّون والرواة والاخباريون والمؤرخون الذين يفصّلون أخبارها ويتحدثون عن وقائعها ومشاهدها ويصفون أبطالها وقادتها[١٨].

وقد شهد القرنان الأول والثاني للهجرة عناية بتنمية الأخبار المختلفة عن العرب في العصر الجاهلي والاسلام، وأخبار الأمم والشعوب التي اتصلت بهم أو اتصلوا بها وتألفت من مجموعة هذه الأخبار مجموعة من الكتابات التاريخية التي تهتم بأخبار العرب قبل الاسلام، ومن هؤلاء الكتّاب (عبيد بن شريه الجرهمي)، و (وهب بن منبه) و (محمد بن السائب الكلبي) و (ابي محنف الأزدي).

وقد ذكر ابن النديم صاحب الفهرست مئات الكتب لهؤلاء المؤلفين ومع ذلك ضاعت كلها تقريباً ولم يبق الا القليل منها.

كذلك كان للدين الاسلامي أثر كبير في ايجاد علم التاريخ عند العرب وتطوره، فقد عُني المسلمون ولا سيما الصحابة منهم بحفظ القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فالقرآن الكريم، هو المصدر الأول لدراسة علم التاريخ عند العرب ويليه الحديث والسنة، وعلى هذا الأساس. فإن علم التاريخ العربي الاسلامي عند نشأته يقوم على دراسة سيرة النبي، وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها[١٩] فالقرآن الكريم أكثر من الاشارة الى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه عن السابقين مثل عاد وثمود وموضوع سيل العرم وقصة لقمان وعن قصة عيسى وموسى ويوسف عليهم السلام، وأصحاب الفيل وبعض أخبار ملوك اليمن[٢٠].

وكان الحديث النبوي من عوامل تدوين التاريخ، إذ عُني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن الكريم، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكانت من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة الناس والصحابة فجمعت فيما جمع وكانت أساس كتب السيرة والمغازي في ما بعد[٢١].

كما أن موضوع التقويم الهجري في ذلك الوقت المبكر من عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ادخل عنصراً حيوياً على الفكرة التاريخية الاسلامية[٢٢].

ومن عوامل تدوين التاريخ الاسلامي، تشجيع الخلفاء والحكام على تدوين الأحداث السابقة ليأخذوا العبرة منها ويستنيروا منها فقد روى المسعودي[٢٣] عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله «يستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها.. ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ عليه غلمان».

وكان مروان بن الحكم يدني مجلس حكيم بن حزام ليسمع منه أخبار المغازي وكان كتاب السيرة لابن اسحاق قد كتب بطلب من الخليفة المنصور لتثقيف ابنه المهدي.

ومن العوامل المساعدة لانتشار التدوين التاريخي عند العرب هو ظهور الورق الذي عرفت صناعته في العالم الاسلامي منذ أوائل القرن الثاني للهجرة وقد ساعد على تثبيت الفكر وفي نشره وفي توسيع مادته. ولا شك أن رخص الورق عن البردى والجلود والحرير جعله أوسع انتشاراً واسهل استعمالاً، وقد واكب تزايد المادة التاريخية الاسلامية والرغبة في تدوينها كما نما وانتشر معها[٢٤].

وتلك العوامل التي ساعدت على انتشار علم التاريخ الاسلامي لم تأت كلها مجتمعة في وقت واحد، ولكن سبق بعضها البعض على مدى يزيد على قرنين ما بين أواسط القرن الأول الهجري حتى أواسط القرن الثالث الهجري.

بعد انتشار التدوين في القرن الثاني للهجرة أصبح المؤرخ المسلم يعتمد في كتابته التاريخية الى جانب الذاكرة والحفظ، على الكتب التاريخية التي سبقه في كتابتها المؤرخون الأولون، ولم يلبث المؤرخ المسلم أن تحرر تدريجياً من طريقة الاسناد التي كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد اخباري أي ناقل للخبر، الى الكتابة المرسلة التي تُعنى بالخبر في ذاته ومناقشته، فقد كان الطبري ومن سبقه من الإخباريين يهتمون اهتماماً خاصاً بالاسناد وتسلسل الرواة، الا أنه ظهر فريق من المؤرخين المسلمين ابتعدوا في كتاباتهم عن طريقة الإسناد ومن هؤلاء اليعقوبي والمسعودي[٢٥].

(١٨) علي أدهم، **بعض مؤرخي الاسلام** ص ٢٢.
(١٩) عبد العزيز سالم، المصدر السابق، ص ٥٣.
(٢٠) سيدة اسماعيل كاشف، المصدر السابق، ص ١٥.
(٢١) حسين نصار، **نشأة التدوين التاريخي**، ص ٨.
(٢٢) شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، جـ ١ ص ٦٥.
(٢٣) المسعودي، **مروج الذهب**، جـ ٢ ص ٥٢.
(٢٤) شاكر مصطفى، المصدر السابق ص ٧٣.
(٢٥) عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص ٧٦.

وإن طريقة اسناد الروايات إلى أصحابها عبر الأجيال المتلاحقة تدعو الى فحص ما في الكتب القديمة بدقة، وتمحيص شخصيات الرواية وفقاً للمنهج العلمي الفريد في (الجرح والتعديل) المعروف لدى علماء الحديث[٢٦].

كما تطورت الكتابة التاريخية من حيث الطريقة ومن حيث الأسلوب، فبعد أن كان التاريخ يُجمع في معظمه في صورة جمل قصيرة جافة لا ترتبط فيما بينها بصلة، أصبح الأسلوب التاريخي مرسلاً بسيطاً وواضحاً في آن واحد. ومن أمثال هؤلاء ابن حيان وابن الأثير وابن طباطبا.

ثم غزت الكتابة التاريخية في العصور المتأخرة الفاظ أعجمية وعامية فشاعت في كتابات المؤرخين المتأخرين في القرنين التاسع والعاشر ومن هؤلاء المؤرخين ابن اياس[٢٧] في كتابه **(بدائع الزهور في وقائع الدهور)** فهو يقول «وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل» ومثل: «وقيل أن جاني بيك لما رأى أن الأمير طومان باي الدوادار محطاً عليه سأل السلطان وباس رجله بأن يعفيه من التحدث»[٢٨].

ومن المؤرخين المتأخرين الذين خالطت العجمة والعامية أساليبهم، المؤرخ أبو المحاسن صاحب «كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**» وابن الفرات في كتابه «**تاريخ الدول والملوك**» فهو يقول:.... فقال له السلطان ايش هذا الذي جرى لك يا يليفا كفودك»[٢٩] والحق أن عجمة هؤلاء المؤرخين وعاميتهم لم تدخل عليهم من ناحية أجناسهم غير العربية وحسب ولكنها دخلت عليهم من ناحية العصر وتأثيره والبيئة وأثرها فيهم[٣٠].

لقد سلك المؤرخون العرب في كتاباتهم التاريخية منهجين هما:

١ ـ التاريخ الحولي أو التاريخ حسب السنين

فقد وجد من المؤرخين المسلمين من أرخ للأحداث سنة بعد سنة فنجد أن الطبري يؤرخ للحوادث سنة سنة فيجعل لكل سنة تاريخاً قائماً بذاته، ويأخذ بسرد ما حدث فيها من أحداث.

وقد انتقد المؤرخ ابن الأثير هذه الطريقة بقوله «**رأيتهم أيضاً** يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يُحصل منها على غرض»[٣١].

ثم طرأ تطور على كتابة التاريخ الحولي في العصور الاسلامية المتأخرة وذلك عندما أحس المؤرخون في هذه العصور بحاجتهم الى ترتيب اضافي للمادة التاريخية. فنجد أن الذهبي في كتابه **(تاريخ الاسلام)**، اتبع نظام العقود، أي من السنة الأولى الى السنة العاشرة للهجرة وهكذا.

وأن توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام صفة انفرد بها المؤرخون المسلمون عن نظرائهم من اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى، وهذا ما تؤكده الدكتورة سيدة كاشف فتقول: «لم يكن للكتابة التاريخية السريانية تأثير على المؤرخين المسلمين، وذلك على الرغم مما نعرفه من أن السريان كانت لهم مدرسة مشهورة في الرها ونصيبين... وتضيف أيضاً أن التأثير الأجنبي الذي نلمسه عند بعض المؤرخين المسلمين القدماء إنما كان في كتب التاريخ الفارسية فيما يختص بالتاريخ الايراني القديم»[٣٢].

٢ ـ التاريخ حسب الموضوعات

وهو التزام المؤرخ طريقة التاريخ: إما للدول أو لعهود الخلفاء أو الحكام، وإما للسير أو للطبقات.

أ ـ التاريخ للدول

وُجد فريق من مؤرخي العرب كان يُؤثر الكتابة التاريخية على حسب الأسرات الحاكمة أو الدول أو العهود، فنجد بعضهم يكتب في تاريخ الدول والأسرات الحاكمة مثل أبو حنيفة الدينوري في **(الأخبار الطوال)** وأبو شامة في **(الروضتين في أخبار الدولتين)**[٣٣] كذلك نجد بعضهم يكتب في تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين مثل البلوي في سيرته (لاحمد بن طولون) والصولي في **(اخبار الراضي)**، وابن شداد في سيرة **(صلاح الدين)**[٣٤].

ويتميز هذا النظام في الكتابة التاريخية بالاهتمام الخاص بالمسائل الأخلاقية والادارية.

---

(٢٦) محمد رشاد خليل، **المنهج الاسلامي لدراسة التاريخ** ص ٦٠.
(٢٧) ابن اياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، جـ ٤ ص ٣٥٩.
(٢٨) نفس المصدر، ص ٣٨٠.
(٢٩) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق مجلد ٩ جـ ٢، ص ٤٠٨.
(٣٠) محمد عبد الغني حسن: **علم التاريخ عند العرب**، ص ١٤٥.
(٣١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١ ص ٥.
(٣٢) سيدة كاشف، المصدر السابق، ص ٥٠.
(٣٣) عبد العزيز سالم المصدر السابق ص ٩٥.
(٣٤) نفس المصدر السابق ص ٩٥.

ب ـ التاريخ حسب الطبقات

ارتبط التاريخ حسب الطبقات بعلم الحديث، كما ارتبط بالعلوم الدينية، فطبقات ابن سعد لا تعدو أن تكون تراجم لشخصيات محدِّثة هامة، فالتاريخ حسب الطبقات اسلامي اصيل لم تكن له علاقة في الأصل بطريقة التاريخ حسب السنين.

جـ ـ التاريخ حسب الأنساب

اصبح للقرشيين وللعلويين ولأبناء الصحابة الأولين مكانة كبيرة في الاسلام فقد ساعد ذلك على الاهتمام بدراسة الأنساب، وخاصة نسب قريش، فظهر من النسابين فريق اهتم بفضائل قريش وذكر مزاياهم ومآثرهم، وأقدمهم مصعب الزبيري الذي صنف كتابين أحدهما بعنوان «**النسب الكبير**» والثاني بعنوان «**نسب قريش**» ثم البلاذري الذي الف كتاباً بعنوان «**أنساب الأشراف**» وهو كتاب عُني فيه بدراسة نبلاء العرب[٣٥].

ومن مؤرخي العرب والاسلام من حاول كتابة التاريخ على حسب الموضوعات لا على حسب السنين كما فعل الطبري. ومن هؤلاء المؤرخين ابن الأثير صاحب كتاب (**الكامل في التاريخ**) وشهاب الدين النويري صاحب موسوعة (**نهاية الأرب**)، فنجد أن ابن الأثير كما تحدثنا عنه سابقاً يخشى التفريق في ذكر الحوادث، ويجمع التجمع فيها لأن ذكر الحوادث حسب السنين يفرق المادة ولا يجمعها وقد يؤثر ذلك في قيمتها ككتلة خبرية مترابطة.

أن ابن الأثير لم يستطع أن يقوم بذلك على أكمل وجه، فإن ابقاء اتّباعه لطريقة ذكر السنين ودخولها سنة سنة، قد اضطره آخر الأمر الى تقطيع بعض الحوادث التي دارت على مدار سنوات كثيرة[٣٦].

الباب الثاني

الفصل الأول

بداية حركة الاستشراق

بدأت حركة الاستشراق منذ العصور الاسلامية الأولى، عندما وصل الإسلام الى الأندلس وبدأ يزيل الظلام الدامس في هذه البقعة التي كانت غارقة في الجهل والتخلف، وظهر شموخ الاسلام فيما يدعو اليه في مجال العلم والعقيدة، وأكتسح كل ما سبقه من حضارات وأصبح العرب حملة مشاعل الحضارة من الشرق الى الغرب وصاروا أساتذة للأوروبيين وصارت الجامعات الاسلامية في اسبانيا تضم الكثير من الطلبة الأوروبيين ليدرسوا كل ألوان العلم. ودفعهم ذلك الى تعلّم لغة العرب ليقتبسوا من حضارتهم وعلومهم التي ظهرت في الشرق الاسلامي، فصاروا يحاولون أن يصبغوا ثقافتهم بالصبغة الشرقية الإسلامية ومن هنا عرفوا بالمستشرقين[٣٧].

والمستشرقون تخصصوا في الدراسة والبحث في الثقافة الاسلامية بوجه عام، وأكثرها مكتوب باللغات الشرقية، وتمثل حضارة البلاد التي يحاولون بسط نفوذ الغرب عليها. وهم يركزون على النقاط التي يشوهون بها الاسلام ويوجهون اليها الطعون بأسلوبهم، وكان من اهتمامهم باللغات الشرقية والثقافية الإسلامية إنشاء كراس خاصة بذلك في جامعاتهم وجمع الكتب والمخطوطات الاسلاميةً والشرقية وطبع بعضها ونشرها مع تعليقاتهم المسمومة[٣٨].

واهتمت الدول الأوروبية بارسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس لدراسة العلوم والفنون والصناعات نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الاسلامية الزاهرة. كما بعث الملك فيليب النافاري الى الأمير الأموي بالأندلس (هشام الأول ـ ١٧٢/ ١٨٠ هـ) يسأله السماح له بإيفاد هيئة لاستطلاع حالة الأندلس ودراسة نظمها وشرائعها والثقافات المختلفة فيها ليتمكن من نقل هذه الصورة الى بلاده[٣٩].

وقد بدأ الاستشراق أول ما بدأ بدراسة العلوم الاسلامية ولكنه كان استشراقاً عفوياً لا يُضمر أي قصد سوى الاستفادة من حضارة المشرق باعتبارها نموذجاً جديداً للحضارات.

ثم تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى هي مرحلة الاستشراق من أجل دافع معين وهدف معين.

الفصل الثاني: دوافع وأهداف الاستشراق

أولاً: الدافع الديني

أول من بدأ به هم رجال الكنيسة، فحين أصبحت الحضارة الاسلامية متنفساً للمفكرين المتمردين على سلطان الكنيسة ومهدت لهم الفرصة للتفكير والتخلص من قيود الكنيسة واظهار

---

(٣٥) عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص ٩٦.

(٣٦) محمد عبد الغني حسن، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٣٧) عبد الكريم باز، **افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الاسلامي** ص ١٧.

(٣٨) عطية صقر، **الاسلام في مواجهة التحديات** ص ٣٠.

(٣٩) مصطفى عاطف، المستشرقون في الاسلام العدد الثالث والرابع للسنة الثانية من مجلة الدارة ص ٢٠٣.

اعجابهم بالإسلام كان همّ الكنيسة أن تطعن في الاسلام وتشوّه محاسنه وتحرّف حقائقه لتثبت لجماهيرها التي تخضع لسلطانها أن الاسلام هو الخصم الوحيد للمسيحية وهو دين لا يستحق الانتشار، ثم اشتدت حاجتهم الى هذا الهجوم بعد أن رأوا أن الحضارة الاسلامية قد زعزعت أسس العقيدة الدينية عند المسيحيين، فلم يجدوا غير تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة[٤٠].

ثانياً: دافع استعماري

بعد نهاية الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمتهم وهي حروب دينية في ظاهرها وحقيقتها، لم ييأس الغربيون من العودة الى محاولة احتلال بلاد العرب والمسلمين فاتجهوا الى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات وحضارة ولهجات شعوبها، ولما تم الاستيلاء العسكري على بلاد الشرق، بدأوا في تنشيط الاستشراق وإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم فيتم للمستشرقين ما يريدون من خضوع المسلمين لحضارتهم وثقافتهم خضوعاً لا تقوم لهم من بعده قائمة[٤١] وذلك عن طريق التشكيك في فائدة ما في أيديهم من تراث وعقيدة وقيم انسانية حتى يفقدوا الثقة في أنفسهم..

ثالثاً: دافع اقتصادي

ومن الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق رغبة الغربيين في التعامل مع المسلمين لترويج بضائعهم وشراء مواردهم الطبيعية الخام بأبخس الأثمان لفتح أسواق تجارية لصناعتهم وقتل النشاط الصناعي والتجاري في الشرق[٤٢].

رابعاً: الدافع العلمي

وهذا لا يقصد منه الا البحث والتمحيص ودراسة التراث العربي والاسلامي دراسة تبيّن لهم بعض الحقائق الخافية عنهم وهذا الصنف قليل عدده جداً، لأن العالم الاسلامي يُعد كنزاً حضارياً لا نظير له في بقاع العالم الأخرى، ففيه شُيّدت حضارات وثقافات، ونشأت لغات وفلسفات، وولدت علوم وفنون. وقد أثارت هذه القيم علماء الغرب فاهتموا بدراستها واكتشاف أسرارها[٤٣].. وهم مع اخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إمّا لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الاسلامية التاريخية على حقيقتها، فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتهم ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والدينية التي تفرق بين البيئة التاريخية التي يدرسونها وبين البيئة الخاصة التي يعيشونها[٤٤].

وهذه الفئة هي أسلم الفئات في أهدافها وأقلها خطراً، ومن هؤلاء من يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق الى اعتناق الاسلام والدفاع عنه مثل المستشرق الفرنسي (دينيه) الذي عاش في الجزائر، فأعجب بالاسلام وأعلن اسلامه، وتسمّى باسم (ناصر الدين دينيه) وكتب كتاباً اسمه (**اشعة خاصة بنور الاسلام**) بيّن فيه تحامل قومه على الاسلام ورسوله[٤٥] أما أهدافهم[٤٦] فتتلخص فيما يلي:

(١) تشكيك المسلمين بنبيهم وقرآنهم وشريعتهم وفقههم، ففي ذلك هدفان: ديني وسياسي.

(٢) تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، فهم يدّعون أن الحضارة الاسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون الا نَقَلة تلك الحضارة وآثارها.

(٣) إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم وتزييف تاريخهم وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عُليا.

(٤) اضعاف روح الإخاء الاسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم، عن طريق احياء القوميات التي كانت لهم قبل الاسلام.

الفصل الثالث: موازين البحث عند المستشرقين وبعض أفكارهم حول التاريخ العربي، والرد عليهم

يعتمد أغلب المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن القضايا الاسلامية وبالأخص قضية التاريخ العربي على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي، فمن المعروف أن العالِم المخلص يتجرّد من كل هوًى وميلٍ شخصي عندما يريد البحث العلمي في أي موضوع، فيتابع النصوص والمراجع الموثوق بها حتى يصل الى الحقيقة العلمية المطلوبة.. لكن أغلب هؤلاء

(٤٠) السباعي، **الاستشراق والمستشرقون** ص ١٦.
(٤١) نفس المصدر ص ١٧.
(٤٢) عبد الكريم باز، المصدر السابق ص ١٩.
(٤٣) احمد سما يلوفتش، **فلسفة الاستشراق** ص ٥١.
(٤٤) عبد الكريم باز، المصدر السابق ص ٢٣.
(٤٥) السباعي، المصدر السابق ص ٢٤.
(٤٦) انظر السباعي، ص ٢٣ المصدر نفسه.

المستشرقين كانوا على نقيض من ذلك، فهم يضعون في أذهانهم فكرة معيّنة ويبدأون في تصيّد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة، لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، ويحللون القضايا والشخصيات الاسلامية على ضوء وجهة نظرهم(٤٧).

وسوف نستعرض بعض أفكار المستشرقين عن التاريخ العربي والرد عليهم، يقول (فيليب حتي)(٤٨) في حديثه عن خلافة أبي بكر: «ولعل مبايعة أبي بكر كانت مطابقة لمشروع دُبّر قبل ذلك، بينه وبين عمر بن الخطاب وابي عبيدة بن الجراح».

يفهم من كلامه أن المبايعة كانت نتيجة اتفاق مسبق، وردّنا عليه أن (فيليب حتّي) لم يقدم دليلاً واضحاً يدعم به رأيه ولعل ادعاءه هذا واضح في عبارته فهو لم يجزم ولكنه قال «ولعل» ويبدو أن (حتّي) قد اعتمد في رأيه على آراء بعض المستشرقين الذين قالوا بهذا الرأي دون أن يقدموا لنا أي دليل أيضاً، أمثال الأب (هنري لامنس) من أعداء الاسلام(٤٩). كذلك فإن واقع العصر يأبى ما ادعاه (حتّي) فلم يكن عصر الصحابة رضي الله عنهم ذلك العصر الذي يدفع أبناءه للتهافت على المناصب أو لإحراز الجاه، وإنما كان عصر ايمان ومثل. فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أذهله موت الرسول ﷺ، وقالت الشهود ان عمر حين بلغه خبر الوفاة خرج وقال: «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات، وأنه والله ما مات، ولكنه ذهب الى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايديهم وأرجلهم، زعموا أنه مات»(٥٠) هذا هو عمر أحد ثلاثة يزعم المستشرقون أنهم أطراف الاتفاق فهل يتصور عاقل أن يصدر هذا القول عن عمر؟ الذي قالوا عنه انه قد ابرم عهداً أو ميثاقاً مع اثنين آخرين أحدهما هو الخليفة، ان وقع الخبر عليه كالصاعقة التي أخرجته عن طبيعته فكيف يتم له ولأمثاله أن يقر اتفاقاً على شيء لم يكن يتصوره ولم يخطر بباله؟ وما ينفي هذه الادعاءات في رواية لابن سعد أن عمر فاتح أبا عبيدة، فقال له: أبسط يدك لأبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ. فقال له أبو عبيدة ما رأيت لك فهمة قبلها منذ أسلمت، اتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين اذ هما في الغار.. فإذا صحّت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة ابي بكر وتعاقب الخلافة بعده(٥١).

أما عن الدولة العباسية فيذكر (حتّي) في حديثه عن البرامكة وقصة العباسة اخت الرشيد وزواجها الصوري من جعفر البرمكي ليحل له النظر اليها، وما اسفر عنه الزواج من انجاب طفل دون علم الرشيد ويجعل (حتّي) هذه القصة سبباً من أسباب النكبة.

وللرد على هذه القصة نقول ان السبب الرئيسي لنكبة البرامكة لم يستطع احد أن يعرف حقيقته الى الوقت الحاضر وكل ما ذكر من أسباب ليس الا توهمات وتوقعات، بل إن معظم الذين ذكروا هذه القصة لم يؤكدوا صحتها فيقول ابن كثير(٥٢): «ومن العلماء من انكر ذلك».

وفي الواقع ان نكبة البرامكة قد اذهلت الناس خاصةً أن الرشيد لم يذكر لها سبباً، حتى مات ودفن سره معه، فهو القائل «لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته» وأبطلها ابن خلدون(٥٣) حيث قال «إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية».

فلو كان سبب القتل تدنيس شرف وهتك عرض لما انتظر الرشيد كل هذه المدة التي تتراوح بين خمس سنوات وبين ست ولو نظرنا الى المسألة من زاوية العقل والمنطق السليم لرأيناها متنافية مع الواقع، والرشيد الرجل الفاضل الصالح الذي ذكر الرواة صلاحه وقوة ايمانه وانه كان يصلي من كل يوم مائة ركعة الى أن مات ويتصدق من صلب ماله ويحج عاماً ويغزو عاماً(٥٤).

يقول كارل بروكلمان(٥٥) عن الحجر الأسود وهو يتكلم عن الكعبة «وفي ركنها (الكعبة) الشرقي الحجر الأسود الذي هو بحق أقدم وثن معبود هناك». يحاول بروكلمان أن يثبت وجود العبادة الوثنية في هذه البقعة من الأرض الاسلامية والمعروف أن الوثنية والاسلام ديانتان أو عبادتان متباعدتان كل البعد عن بعضهما فكتب التاريخ مليئة بتلك الحروب التي خاضها المسلمون ضد الوثنية، فكيف يكون في أرض الاسلام ومنبته وثن أو عبادة وثن؟

فالحجر الأسود موجود مع وجود الكعبة، ولم يتجه اليه أحد

(٤٧) السباعي، المصدر السابق، ص ٤٣.
(٤٨) **تاريخ العرب المطول**، الترجمة العربية ص ١٩١.
(٤٩) عبد الكريم باز، المرجع السابق ص ٤٧.
(٥٠) البخاري، حـ ٤، ص ١٩٥، **الكامل**، ج ٢، ٢١٩، **البداية والنهاية** ج ٥، ص ٢٤٢.
(٥١) عبد الكريم باز، المرجع السابق ـ ص ٤٩.
(٥٢) **البداية والنهاية**، حـ ١٠، ١٨٩.
(٥٣) **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٥.
(٥٤) عبد الكريم باز، المرجع السابق ص ٨٧.
(٥٥) **تاريخ الشعوب الاسلامية**، ص ٣١.

من العرب بالعبادة ولم يكن يوماً من معبودات العرب فهو حجر لم تقدّسه العرب، ولهذا لم يعرف ضمن الأصنام ولا الأوثان التي كان العرب يعبدونها، ومن أجل ذلك لم يأمر النبي بتحطيمه كما حُطمت الأصنام والأوثان لأنه لم يخطر على بال احد من العرب انه يُعبد كما تُعبد الأصنام والأوثان، وعلى كل حال ففكرة وثنية الحجر الأسود هي فكرة غربية بثتها حركة الاستشراق في كتب التاريخ الاسلامي وسعت لترويجها منذ زمن بعيد[٥٦].

وسوف نذكر على سبيل المثال لا الحصر عدداً من أصحاب الكتب التاريخية الذين تأثروا بآراء المستشرقين وأفكارهم ونشروها في كتبهم وهم:

(١) طه حسين (**على هامش السيرة**) و (**علي وبنوه**)
(٢) عبد المنعم ماجد (**التاريخ السياسي للدولة العربية**).
(٣) احمد شلبي (**التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية**).
(٤) علي الخربوطلي (**الدولة العربية الاسلامية**).
(٥) حسن ابراهيم حسن (**تاريخ الاسلام السياسي**).
(٦) بنت الشاطىء (**نساء النبي**).

الفصل الرابع: دور رجال التاريخ العربي في الرد على تلك الأفكار

اذا كانت هذه الآراء والافتراءات قد وُجدت في كثير من كتب التاريخ العربي فلا بد من العمل لإزالتها بالوسائل التي يمكن اتخاذها لنتخلص من هذه الافتراءات والأفكار وتطهير الكتب التاريخية وعقول الشباب العربي المسلم من آثارها وهذا يرجع الى الأمور الآتية[٥٧]:

الأمر الأول: بالنسبة لكتب التاريخ القديمة، وما حوته من أخبار وأفكار واهية وقضايا ضارة بالإسلام فهذه تحتاج الى جهد كبير لا يستطيع القيام به فرد أو جماعة لإزالة هذه الآراء والأفكار الا اذا تضافرت الهيئات العلمية لإعادة كتابة التاريخ العربي من جديد وتمحيص قضاياه وتسهيل الحصول على المراجع الجديدة التي خلت مما وضعه خصوم الإسلام، لتحل محل الكتب القديمة بوسائلها الحديثة في الاستدلال على زيف ما وضعه المستشرقون بالأدلة القاطعة من الأخبار الصحيحة والمنطق والعقل.

الأمر الثاني: مراجعة ما ألف وطُبع حديثاً من قِبَل الكتّاب العرب الذين درسوا على أيدي الأساتذة الغربيين، الذين كانوا قد تصيدوا بعض الأخبار المزيفة في كتب التاريخ العربي...

الأمر الثالث: اختيار أساتذة ومدرسين للتاريخ الاسلامي ممن سلمت عقائدهم، لأن هؤلاء يستطيعون ان يرجعوا الى الكتاب والسنة وسيرة الصحابة فيعالجون بها ما يرونه غير متفق مع الكتاب والسنّة، فإذا وجد هؤلاء الأساتذة بهذه الصفة يمكن تربية جيل جديد ينهض بهذه الأعباء ويتحمل مسؤولية تصحيح الأخطاء والرد على الأفكار التي اصطنعها المستشرقون.

الأمر الرابع: ان يجعل للتاريخ العربي في الجامعات العربية والاسلامية قسم خاص منفصل عن بقية أقسام التاريخ الأخرى حتى تتميز شخصية التاريخ العربي باساتذته وطريقة تدريسه ومراجعه التي تعتمد أول ما تعتمد على الكتاب والسنّة، ثم على المراجع الموثوق بها والروايات الصحيحة التي لا يستطيع أن يميّزها من غيرها سوى العلماء الذين لهم نصيب وافر من الدراسات الاسلامية.

الأمر الخامس: أن تقوم الهيئات العلمية بتأليف لجان من أعلام التاريخ العربي الذين لهم خلفية دينية وغيرة على الاسلام، بمراجعة الكتب المقررة على طلاب المدارس والجامعات حتى لا تنتشر هذه الآراء والأفكار التي تشكك الطلاب في ماضيهم المجيد.

خاتمة

وفي نهاية هذا البحث لا بد للباحث من أن يعرف سيرة المؤلف لتبيّن ميوله وأهوائه وأثرها في كتاباته فقد يكون المؤلف تابعاً لمذهب أو لحزب أو لفئة معينة ممن يكتب عنهم فيناصرهم عن قصد، أو يذهب في ذلك لتعمد الكذب في الرواية او الى تحريف الحقائق وحذف بعضها ليقود القارىء الى نتائج معينة ترفع من شأن الذين يشايعهم أو يناصرهم.

وكذلك يجب على المؤرخ أن يبتعد في كتابته عن التحيّز لمذهب معيّن أو لفئة معيّنة سواء كان عن قصد أو عن غير قصد، وإلى تحريف في الرواية أو تزوير في الحقائق، فعليه أن يكون منصفاً وصادقاً في كتاباته وأن يأتي بالحقيقة كما هي وهذا ما لم يفعله المستشرقون في كتاباتهم عن التاريخ العربي عندما سلكوا طرق البحث والتأليف العلمي والأكاديمي والذين كانوا يعملون للهدم لهذه الأمة في عقيدتها وثقافتها وتاريخها..

ولعلنا لم نأتِ بجديد في هذا البحث لعلمنا اليقين بأن هناك أساتذة يشاركون في هذه الندوة ممن هم أقدر منّا على طرح الأفكار النافعة فيما يتعلق بمنهج كتابة التاريخ العربي، ولكن الهدف من وراء تقديم هذا البحث الموجز، هو المشاركة فقط في إبداء الآراء والأفكار استناداً على ما هو متوفر بين أيدينا من مراجع ومصادر تبحث في هذا الموضوع العلمي الشيق..

والله من وراء القصد..

(٥٦) عبد الكريم باز، المرجع السابق، ص ٩٣.
(٥٧) انظر عبد الكريم باز، المرجع السابق ص ١٤٠ والسباعي، المرجع السابق ص ٢٣.

منهجية البحث التاريخي عند العرب

د. نوري حمودي القيسي

عميد كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

من الحقائق التاريخية الثابتة في كتابة التاريخ أن النشأة الأولى لهذا العلم اقترنت بكتابة السيرة والمغازي والفتوح، وأن هذه النشأة اعتمدت الأسلوب العلمي الخالص والالتزام بالشروط التي التزم به المحدِّثون وان أوليات هذه العلوم اختصت بالرسول عليه الصلاة والسلام وأكتسبت قدسيتها وأهميتها من الأهمية التي أوليت لكل عمل من أعمال الرسول عليه الصلاة والسلام حرص المسلمون على تدوينه أو روايته، وأن حرصهم هذا حملهم على متابعته متابعة دقيقة، وتوثيقه توثيقاً سليماً وأخذه عن أفواه الصحابة وروايته بما سمعوه. وقد حملتهم هذه الدقة على تثبيت بعض الملاحظات التي يمكن أن تُثار أحياناً بشأن خبر يُختلف به أو رسم يأتي عن طريق روايتين أو مكان لا يتوثقون من تحقيقه. وقد حفلت كتب المغازي والسير والتاريخ بنماذج من هذا الحديث، حيث تذكر الحدث ثم تأتي على صيغة (وقيل)، وهو أسلوب يؤكد حالة الرواية التي تؤخذ عن الأفواه عن طريقين أو خبرين حين لا يجد المؤلف طريقاً غير هذا. وهي مأثرة من مآثر علماء الحديث الذين عُرفوا بالأمانة في نقل الحديث، وفرضوا وجوب تحرّي النص، والتزموا توخي الدقة حفاظاً على سلامة ما سمعوا، بعد أن أصبح تحري الرواية والمجيء باللفظ منهجاً متّبعاً وقاعدة متعارفاً عليها بعد أن أجمع جماهير أئمة الحديث والفقه على وضع الضوابط المشروطة بمن يُمتحن بروايته، واتفقوا على أن يكون عدلاً ضابطاً لما يرويه، عاقلاً سالماً من خوارم المروءة، متيقظاً غير مغفّل. حافظاً ان حدّث من حفظه، عارفاً بالمعاني التي يذكرها حتى سمّي بالثقة البعض ممن اشتهرت عدالته بين أهل النقل أو نحوهم من أهل العلم وشاع الثناء عليه بالأمانة. وقد هيّأت هذه اللوازم لعلم التاريخ قاعدةً كبيرةً أسهمت في تنشيط حركة التأليف لتصبح بداية تنطلق منها، وسمةً ينفرد بها ومنهجاً متخصصاً بضوابطها، واقترنت رواية الخبر التاريخي بمصطلحات الحديث من سماع وقراءة وإجازة ومناولة ومكاتبة، أو إخبار أو وصية أو وجادة ولكل مصطلح من هذه المصطلحات دلالة توحي بطريقة الرواية وتوثق أسلوب السند الذي اعتمد النصوص المدوّنة، عدا الحالتين الأوليين اللتين اعتمدتا الحفظ، وهذا يؤكد الاهتمام الكبير بالتدوين والإلتفات اليه في وقت مبكر، وأن أدلة كثيرة توثّق هذه الحقيقة، وهي تشير الى الألواح التي كان الكتّاب يملؤونها والصحف التي استعملوها والأوراق التي أشاروا اليها. وقد حفلت كتب الطبقات بأخبار كثيرة عن الوسائل التي وثّقوا فيها أخبارهم.

أما الرحلات الشاقة التي قام بها المؤرخون طلباً للعلم، فقد أخذت جانباً أكبر، وصولاً الى رواية عدد أوسع من الأخبار، وجمع أشمل حصة من الكتب والأحاديث، وقد حرص المؤلفون على استخدام مصطلح كتاب أو الكتابة أو المكاتبة، وهي اشارات تؤكد النقل عن طريقها وتُثبت المعلومات التي أخذت عنها، وقد أصبحت هذه الطريقة معروفة عند الباحثين بعد أن تيقّنوا من أساليب النقل، وعرفوا طريقة المصادر، فإذا ذكر الطبري في تاريخه اسناداً وقال حدّثنا ابن حميد قال: حدّثنا سلامة: قال: حدّثنا ابن اسحاق، فإن الطبري كان يقتبس اقتباساً حرفياً من كتاب المغازي لابن اسحاق، واذا ذكر في تفسيره للقرآن: حدثنا محمد بن عمرو الباهلي قال: حدثنا أبو عاصم النبيل قال: حدثنا عيسى بن ميمون عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، فإنه يقتبس من تفسير القرآن الكريم الذي وصل الينا لمجاهد[1]، ومن مراجعة سريعة لهذه المصادر ومطابقة لما أوردته وما ذكرته هذه المصادر تتضح لنا صحة ما ذهبنا اليه، لأن أمانة البحث ودقة النقل والحرص على سلامة النص لا تترك له مجالاً غير هذا ولا تبيح له

(١) فؤاد سركين. **تاريخ التراث العربي** ـ ٢٤٩، فهمي أبو الفضل.

الخروج عن هذا التوجه العلمي الذي أصبح منهجاً يلزم المؤرخين وطريقاً يسلكه الثقاة من الباحثين.

وما يقال في المنهج التاريخي الذي تأثر بروايته الحديث يمكن أن يقال بمنهج الأدب، لأن كثيراً من رواة الأدب كانوا من رواة الحديث، وإنْ كانت شهرتهم بالرواية الأدبية قد طغت على شهرتهم برواية الحديث وغطّت عليها، فالرواية عند هؤلاء العلماء في القرن الثاني، سواءً كانت رواية حديث أم رواية أدب وأخبار، كانت ذات إسناد يرتفع حيناً الى الطبقات الأولى وإلى الصحابة[٢]. ونرى هذا في أسانيد أبي الفرج في كتاب الأغاني، فإذا قال: أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب، فيما كتب اليه عن محمد بن سلام، أو أخبرني أبو خليفة إجازةً عن محمد بن سلام، كان النقل من كتاب طبقات فحول الشعراء للجمحي وهكذا في معظم الأخبار التي رواها والمصادر التي اعتمدها.

إن الحقائق التي تؤكدها منهجية التاريخ تعني أن المؤرخين وأغلبهم من رواة الحديث قد ساروا على وفق مناهج المحدّثين والفقهاء، وقلّدوا علوم الحديث والفقه بعد أن نضجت هذه العلوم وأرسيت أصولها وقواعدها وعُبّدت سبلها وطرائقها، والتُزم فيها بالتحقيق والتدقيق في السند والمتن.

ويمكننا، بعد أن عرضنا لهذا المنهج، أن نقول أن المادة التاريخية التي اعتمدها المؤرخون هي الرواية التي تعدّ الأساس الثابت لما يقدّمه من معلومات، وأن أية محاولة لا تستند الى ذلك لا يصح اعتمادها وقد أشار الى هذه الحقيقة الطبري في مقدمة كتابه حيث قال:

وبعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه انما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها الى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستُنبط بفكر النفوس الا اليسير القليل منه، اذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من انباء الحادثين، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، الّا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه الينا، وأنّا انما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي الينا.

واذا كانت الرواية قد أخذت هذا الاهتمام فإن حرص المؤرخين على السند كان يمثل ركناً آخر من أركان المنهج وهو سند موصول الى صاحب الرواية وعلى الطريقة التي أسلفنا ذكرها، فأصبحت قاعدة واضحة وهي أن النقل عن الكتاب اقترن بذكر اسم المؤلف وهو اكثر وروداً دون ذكر الكتاب حتى أصبحنا نجد في السند أسماء ابن الكلبي ومحمد بن اسحاق والواقدي وغيرهم ممن عرفت كتبهم وشهدت مؤلفاتهم..

أما الرواية الشفهية فكان لها مصطلحها المحدد في «حدثني فلان». واذا اشترك في السماع اكثر من واحد كانت الصيغة «حُدّثنا».

وتأخذ بقية مصطلحات الحديث صورتها في النقل وهي تتوافق مع الطريقة التي تلازم المؤلف بين (كتب اليّ) أو حدثت عن فلان، أو (ذكر عن فلان)، أو (ذكر) أو ذكر لي بعض أصحابي أو ذكر من رآه وشاهده أو حدثني جماعة من أهل... وهي ضوابط لا تترك مجالاً للشك، وأحكام لا تسمح بتسرّب الحيرة الى النص وإنما تحدد طريقته بما أخذت به أو جاءت عليه.

وعلى الرغم من تفاوت المؤرخين واجتهادهم بطريقة ايصال الأخبار التاريخية والتزامهم بمناهج مختلفة الّا أنهم ظلوا حريصين على دقة الأداء وسلامة الحرص وأمانة النقل لأن هذه الخصائص كانت تشريعاً يحفظ تطبيقه المؤرخ ليأخذ مكانته في عالم يتوخى الدقة ويحرص على الضوابط المتفق عليها. وبمقدار ما كان الوسط العلمي حريصاً على تطبيق هذه القواعد فإن الأخبار والوقائع التي لا تمرّ عبر هذه القنوات كانت لا تجد لها طريقاً ولا تُحمل على محمل الجد ولا تكسب ثقة العارفين بالأصول.

وتبقى أنظمة مسلسل الأحداث على وفق المناهج التي اختيرت علامة أخرى تميز بها كل رائد من أولئك الرواد وهم يتابعون تأليفهم فمنهم من أخذ نفسه بنظام الحوليات وهو ضابط انفرد به المؤرخون العرب دون غيرهم من الأمم. ومنهم من أخذ نفسه بتاريخ الأسر كما فعل البلاذري. واتجه آخرون الى مناهج أخرى حاولوا من خلالها أن ينقلوا الأخبار ويردّوا الأحداث.

لقد اكتسبت هذه المنهجية وضوحاً في الممارسة وتجربة في المعالجة وتنسيقاً في الاختبار وأمانة في النقل حتى أصبح الخبر الواحد يُروى عن طريق مجموعة من الأسانيد، وقد تبدّد فيه الاختلافات من حيث التفاصيل أو الإضافات التي لا يأتي عليها أحد النصوص أو يتجاوزها لأسباب أو يطيل في ذكرها لتوافر الأخبار وتعدد المصادر وكثافة الروايات، وهي مادة تترك للمؤرخ مجال التوسع ليضع أمام القارىء أو الباحث ما يمكّنه من الإحاطة الشاملة، واخضاع ما تقدم بعد أن يخضع لنقدٍ داخلي

(٢) ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي: ٢٥٧.

وتوثيق يترك له أخبار الاعتماد. ويحرص المؤرخ وهو يروي هذه النصوص التي تعدّدت مصادرها أن ينسبها بسندها ومضمونها الى أصحابها أو الكتب التي نقل عنها أو الأشخاص الذين سمع منهم، واذا كانت هذه الأمانة قد رسخت قواعد البحث العلمي ورسخت قواعد المنهجية التاريخية فإنها حفظت لنا أعداداً كبيرة من نُقُول الكتب الضائعة والنصوص التي اختلفت رواياتها في المصادر التي تلتها؛ وإن هذه النقول بحد ذاتها تمثل حصيلة من الكتب في كل تخصص وثروة تراثية خالدة، يمكن الاعتماد عليها في تجميع ما فقد أو ترميم ما ضاع أو توحيد ما توزع.

تؤكد أوليات المنهج التاريخي عند المؤرخين العرب أنهم استطاعوا أن يرسخوا مجموعة من التقاليد العلمية الثابتة التي أصبحت أصولاً معتمدة وقاعدة لكثير من التآليف التي اهتمت بتاريخ العرب القديم وشُغلت بموضوعات مختلفة فيه؛ واعتمدوا الكتب المترجمة التي أغنت معلوماتهم عن الأمم الأخرى، وقد احتفظت الأسفار التاريخية الكبيرة بنقول عن هذه الكتب. ولم يغفلوا النقوش والكتب العربية القديمة التي يمكن الافادة منها، للتعرف على تاريخ الأقوام، بعد أن أدركوا قيمتها وما تؤكده من أخبار وصلت اليهم، وقد حملهم هذا الاهتمام على معرفة تاريخ العالم. ويمكن اعتبار كتاب تاريخ العالم، للهيثم بن عدي، من أوائل الكتب التي اعتمدت الترتيب الزمني.. بعد أن أصبح منهجاً لكل الذين التزموا به وعرضوا مادتهم التاريخية على وفق السنين، كما صنع عبدالله بن أبي بكر وموسى بن عقبة وأبو معشر السندي والطبري وابن الأثير وغيرهم. ولم يغفل المؤرخون النصوص التي قرأوا فيها معالم الأمم والكتب التي دوّنت أخبارها وما وجدوه فيها من تواريخ، فالخيبصي (من رجال القرن الثالث الهجري) عُرف بتدوين التاريخ الحِمْيَري، وأفاد من النقوش التي عثر عليها.. ويمكن اعتبار كتب السيرة بدايات التأليف التاريخي عند العرب، لما وجدوه في تدوينها من الالتزام والاخلاص والوفاء لشخصية الرسول الكريم وتقديس لما بَشّر به ودافع عنه وأوحي به اليه من الخالق وبلّغ نشره بين المسلمين، وما عمله في حياته الخاصة والعامة ليكون سنّةً متبعة وتشريعاً ملزماً وسلوكاً لكل المؤمنين.. ويمكن ملاحظة اهتمام المؤرخين القدامى بالأنساب حتى لا نكاد نجد أحداً منهم دون أن يعرف بهذا الضرب من التأليف، فجبير بن مطعم أحد مشاهير علماء الأنساب عند العرب[3]، وكان الناس يأخذون عن عقيل بن أبي طالب الأنساب في مسجد المدينة، وهو أحد الثلاثة الذين كلفهم عمر بن الخطاب بتدوين أنساب العرب[4]. وكان مخرمة بن نوفل من بين من أسهموا في إعداد وتثبيت أنساب العرب. وصحار بن العباس كان نسّابة[5]، ويُنسب اليه كتاب النَسَب الذي ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان وهو يطلب أحد أربعة قرشيين كانوا علماء بالشعر والأخبار والأنساب[6]. والنحار كان خطيباً ونسّابة.

وتقترن تآليف كتب الأنساب بمعظم المؤرخين، وهي ظاهرة تؤكد أن المؤرخ لا بد أن يكون نسّابة متميزاً، لتكتمل في ذاته فكرة المعرفة وقدرة الاستنباط وسلامة السيرة التي يتحدث عنها وادراك البعد الزمني للوقائع، وبناء الأحكام التي تستمد أصولها من الاعتزاز بالمآثر، وهو منهج ألزم المؤرخون به أنفسهم ليتمكنوا من ذلك ويستوعبوا الأحداث، أما التوثيق وصحة الأسانيد، ومعرفة الثقاة والعدول في الرواية، ومطابقة الأخبار ومقارنة ما يقفون عليه منها، فهي مسألة أخرى يمكن أن تعطي الخبر صورته.. وتوثق وقائعه وتعزّز صحته بما يتوافر للمؤرخ من معارف.. وقد أعطى هذا البعد المعرفي للرواية التاريخية آفاقاً رحبة، وهيّأ لها من وسائل التدقيق والتحقيق ما جعلها أكثر صلة بالزمن الذي نشأت فيه والرجال الذين عاصروه والأسماء التي تذكر في سياقه.

واذا كانت الأنساب قد امتدت مساحتها هذا الامتداد حتى أصبحت مصدراً رئيسياً من المصادر المعتمدة، فإن الأمثال قد أخذت نصيبها لأنها في الأصل تمثّل موجزاً للحكاية أو حكاية لها جذورها في الواقع، أو حادثة اقترنت بأخبار أو رواية عبرت عن حدث.. وهي تضم أخبار الرجال والأمم والقبائل وتتصل بمجموعة من القيم التي استخلصت منها أو قيلت بشأنها أو صاحبت نشوءها.. وهي مصادر أساسية تضيء طريق التاريخ وتفسّر بعض أحداثه وتوجز العبر التي تستخلص من كل واقعة من وقائعه. ويأتي تأليف كتب الأمثال مصاحباً لكتب الأنساب فصحار بن العباس ألف كتاباً في الأمثال (ابن النديم)، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي[7] المتوفى في حدود سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ للهجرة وضع كتاباً في أمثال حِمْير، وأبو عبيدة معمر بن المثنى[8] وضع كتاباً في الأمثال، كذلك صنع الأصمعي[9]

(٣) فؤاد سزكين ـ **تاريخ التراث العربي** ص ٢٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٥) المصدر نفسه ص ٣١.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٤.
(٧) ابن النديم. **الفهرست**: ١٠٩.
(٨) ابن النديم. **الفهرست**: ٥٩٠.
(٩) ابن النديم. **الفهرست**: ٦١.

والتـوزي[10] والمفضـل الضبي[11] وسعـدان بن المبـارك[12] وابن السكيت[13] وأبـو عبيـد القـاسم ابن سـلام[14]، وثعلب[15]، وأبـو محمـد القاسم الانبـاري[16]، ونفطويـه[17]، ومحمـد بن حبيب[18]، والـزيادي[19]، وعُيَيْنَـة بن المنهـال[20]، وحمـزة بن الحسن الـذي صنع كتاباً للأمثال على أفعل، وكتاب الأمثال الصادرة عن ثبـوت الشعر[21].

وقد وجدت وأنا أتابع أخبار هؤلاء المؤرخـين أنهم اتجهوا الى تـدوين تاريـخ العالم وأخبـار الخليقة ونشـأتها وذكـر الأنبيـاء السابقين وقصصهم وأخبارهم ووقائعهم. وربما كان هذا الضرب من التـأليف نتيجة لـلاهتمـام بـالمغـازي والسـيرة، وان طبيعـة الأحداث كانت تحملهم على أن يقدموا بهذه المقدمات التـاريخية التي تتـواصل فيهـا حلقات التـاريـخ، وتتـدرج أسبـاب الكـون والخليقـة، وتتوارث الأمم من خـلالها مـا مرت بـه وما صـادفها لتأتي أخبار المغازي متوافقةً أو متممةً لتـاريخ البشريـة، ولتظهر السيرة والمغازي بالمظهر المناسب. وكانت المعرفة بالشعر وأخبـار العرب وتاريخ الأمم من المستلزمات الأساسية التي تؤهل المؤرخ لمهمته، وتقدم له المادة الأساسية التي يعتمدها، وتـوفر المصـادر التي يستمد منها معلوماته.

وقد مهدت كتب المغازي لعلم التاريخ، وحدّدت الخطوط العامة التي يمكن أن يأخذ منهـا المؤرخ وهو يـدوِّن حياة الـرسول ﷺ وسـيرته (ومغـازيه)، بعـد أن أصبـح التـأليف في هـذا الضرب التاريخي جزءاً من تاريخ الأمة، وبداية لحركة التغيير، وتفصيلاً لما يجب أن تكون عليه الدولـة من حيث التشريع والادارة وتنظيم العـلاقات، ومن الطبيعي أن تكـون كتب المغازي الأولى صغـيرة، ومقتصرة على بعض الجوانب، الا أنها كانت النواة الأولى للتطور الذي شهدته الكتب المتناظرة، وقد حفظ الطبـري قطعاً من هـذه المغازي، وانتفع منها ابن اسحاق في سـيرته، وتكـاد تتفق قائمـة المؤرخين على أنهم ألّفوا في المغازي، وعـدوا ذلك مسـألة مهمـة، ابتداء من شرحبيل بن سعيـد، وسهيل بن أبي خيثمـة، وعبدالله بن كعب، والشعبي، وأبان بن عثمان، وعروة بن الزبـير، وعاصم بن عمـر، والزهـري، والسبيعي، ويعقوب بن عتبـة، وعبدالله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، وأبو الأسود، وأبو المعتمر، وموسى بن عقبـة، ومعظم المؤرخين الـذين وجدوا في كتب المغـازي مادة لما يريدون أن يكتبوا عنه، وبدايةً لما يمكن أن يؤرخوا له، ومنهجاً لما يجب أن يسلكوه وهم يتابعون اخبار الدولة، ويواصلون الحـديث عن مسـيرتها، وهي تمتـد من الجزيـرة وتجابـه أحداثـاً كالـردة وانسياحاً في الفتوح واتساعاً في قيام الدولة العـربية، وتغيّـراً في أسـاليب الحكم وادارة شؤون النـاس وأمـانـة نشر الـرسـالـة ومـواجهة قـوى الشرك.. إن هذا الامتـداد التاريخي قـد وضـع القـواعد العـامة التي يمكن أن يُبنى عليهـا المنهج التـاريخي في الكتابة، ورسمت الخطوط العامة التي تعطي هذا المنهـج وضوح الأساليب.

إن هذه السمات التي وقفت عليهـا من خلال متـابعتي لأخبار المؤرخين، تضع المنهج الثابت الذي أصبح قاعدة لهـذه الطبقات المتلاحقة، بعد أن أصبحت المصادر المعتمدة في كتاباتهم مصادر مشتركة يستقون منها مادتهم، وبقيت مسألة يمكن الاشارة اليها بتحفظ، والوقوف عندها وقـوف المتسائـل، بعد أن أصبحت كتب (المثالب) جزءاً من تأليف هؤلاء المؤرخين بعد أن ألف فيها عـدد لا يستهـان به. وحـين يذكـر بعض المؤرخين، يُقـال عنـه: عـالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثـر والانساب. ولعلّ هذه المعرفة كانت تبصّرهم بأحوال الناس وتعينهم عـلى التعريف بهم، أو التمييـز بينهم، أو الوقـوف عند أخبـارهم بحـذر، أو أسبـاب أخـرى تجعلهم أكثر درايـة بمهماتهم وأشمـل توفيقـاً في إعطاء الصـورة التي تبصرِّهم بحقيقة الأحـداث. وصـدق الخصـائص وتوثيق الرواية التاريخية.

(١٠) ابن النديم. **الفهرست**: ٦٣.
(١١) ابن النديم. **الفهرست**: ٧٥.
(١٢) ابن النديم. **الفهرست**: ٧٧.
(١٣) ابن النديم. **الفهرست**: ٧٩.
(١٤) ابن النديم. **الفهرست**: ٧٨.
(١٥) ابن النديم. **الفهرست**: ٨١.
(١٦) ابن النديم. **الفهرست**: ٨١.
(١٧) ابن النديم. **الفهرست**: ٩٠.
(١٨) ابن النديم. **الفهرست**: ٦٣.
(١٩) ابن النديم. **الفهرست**: ٦٣.
(٢٠) ابن النديم. **الفهرست**: ١٢.
(٢١) ابن النديم. **الفهرست**: ١٥٤.

سيرة مؤرخين

أولاً: الدكتور عبد العظيم رمضان

الاسم: الدكتور عبد العظيم رمضان

الاسم الكامل: الدكتور عبد العظيم محمد رمضان

تاريخ ومحل الميلاد: ١٨ أبريل/ نيسان سنة ١٩٢٥ ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية

الحالة الاجتماعية: متزوج

المؤهلات العلمية: ليسانس في التاريخ من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بتقدير جيد (١٩٥٨)، ماجستير في التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بتقدير «ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة» (١٩٦٤)، دكتوراه في التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة (١٩٧٠).

الوظائف الجامعية: ـ أستاذ مساعد في التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة قسنطينة بالجزائر (١٩٧٣).

ـ مدرس التاريخ الحديث بكلية التربية بشبين الكوم جامعة عين شمس (جامعة المنوفية حالياً) (١٩٧٤).

ـ أستاذ مساعد في التاريخ الحديث بكلية التربية بجامعة المنوفية (١٩٧٨).

ـ أستاذ التاريخ الحديث بكلية التربية بجامعة المنوفية (١٩٨٢).

ـ رئيس قسم التاريخ بكلية التربية بجامعة المنوفية (١٩٨٢).

ـ عميد كلية التربية بجامعة المنوفية (١٩٨٤).

ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين (١٩٨٥).

الوظائف العامة الحالية: ـ عضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر (١٩٨٨).

ـ عضو مجلس ادارة هيئة الكتاب (١٩٨٨).

ـ رئيس اللجنة العلمية المشرفة على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (١٩٨٧).

ـ عضو لجنة التراث الحضاري الآثاري بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والاعلام التابع لرئاسة الجمهورية (١٩٨٧).

ـ رئيس تحرير سلسلة كتب «تاريخ المصريين» التي تصدر عن هيئة الكتاب (١٩٨٦).

الأوسمة والنياشين: ـ وسام الجمهورية من الدرجة الثانية (١٩٨٥).

أهم الندوات والمؤتمرات العلمية: ـ ندوة وثائق تاريخ العرب الحديث ٧ ـ ١٢ مايو ١٩٧٧ بجامعة عين شمس.

ـ ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩ بجامعة عين شمس.

ـ سمنار المثقفين والتغيير الاجتماعي في العالم العربي ٣ ـ ٦ ديسمبر ١٩٧٩ بجامعة عين شمس.

ـ ندوة الحركات الاجتماعية المتطرفة، يناير ١٩٨٠، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

ـ ندوة الثورة العرابية، ٧ ـ ٩ ديسمبر ١٩٨١ بجامعة عين شمس.

ـ مؤتمر الولايات العربية في العصر العثماني ـ بين ١٣ ـ ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ بتونس.

ـ مؤتمر الحياة الاقتصادية في الولايات العربية في العصر العثماني ـ ٢٠ ـ ٢٥ يناير ١٩٨٤ ـ بتونس.

ـ مؤتمر قضايا الساعة الأمنية تحت المجهر ١٠ ـ ١٢ أغسطس ١٩٨٧ بأكاديمية الشرطة، معهد القادة لضباط الشرطة.

ـ الندوة الدولية عن «مصر في القرن التاسع عشر» بجامعة بروفانس ٤ ـ ٨ ـ ١٩٧٩.

ـ الندوة العلمية عن البترول والأمن في الخليج العربي وحرب الخليج، مركز الدراسات العربية بلندن (ديسمبر ١٩٨٠).

ـ المؤتمر الدولي السادس عشر للدراسات التاريخية بشتوتجارت بألمانيا الغربية ٢٥ أغسطس ـ أول سبتمبر ١٩٨٥.

ـ الندوة الدولية عن العلاقات الهندية المصرية، بنيودلهي ـ الهند ٢ ـ ٤ مارس ١٩٨٦.

ـ مؤتمر العلاقات المغربية المصرية، مدينة سلا بالمملكة المغربية، ١٦ ـ ١٩٨٨/٨/٢٤.

النشاط الفكري الوطني والقومي: كاتب سياسي شارك بفكره في مجلات: المصوّر، وروز اليوسف، وصباح الخير، وأكتوبر. وفي صحف: الأهرام، والجمهورية، والوفد (حالياً: مقال أسبوعي بكل من مجلة أكتوبر وصحيفة الوفد) ـ في خارج مصر: مجلات: العربي بالكويت، والدوحة بقطر، والمجلة بلندن، والمجلة التاريخية المغربية بتونس. وفي صحف: الشرق الأوسط بلندن، والعرب بلندن، والاتحاد بأبي ظبي، والهدف والوطن بالكويت، و «لوموند ديبلوماتيك» بفرنسا.

العنوان ورقم التليفون: ١٢ نخلة المطيعي شقة ٤ مصر الجديدة ـ القاهرة. ت. ٢٤٥٤٨٩٠.

أهم الأعمال العلمية المنشورة

(١) **تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨ ـ ١٩٣٦)**
(القاهرة: دار الكاتب العربي ١٩٦٨).

(٢) **تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩٣٧ ـ ١٩٤٨)** ـ مجلدان.
(بيروت: دار الوطن العربي ١٩٧٣).

(٣) **الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر، من ثورة يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤.**
(القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٧٥).

(٤) **عبد الناصر وأزمة مارس.**
(القاهرة: دار روز اليوسف ١٩٧٦).

(٥) **الجيش المصري في السياسة** (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦).
(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧).

(٦) **صراع الطبقات في مصر** (١٨٣٧ ـ ١٩٥٢).
(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨).

(٧) **الصراع بين الوفد والعرش** (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩).
(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩).

(٨) **الفكر الثوري في مصر،** قبل ثورة ٢٣ يوليو.
(القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٨١).

(٩) **المواجهة المصرية الاسرائيلية في البحر الأحمر** (١٩٤٩ ـ ١٩٧٩). (القاهرة: دار روز اليوسف ١٩٨٢).

(١٠) **الاخوان المسلمون والتنظيم السري.**
(القاهرة: دار روز اليوسف يناير ١٩٨٣).

(١١) **الصراع بين العرب وأوروبا، من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية.**
(القاهرة: دار المعارف ١٩٨٣).

(١٢) **حرب اكتوبر في محكمة التاريخ.**
(القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٨٤).

(١٣) **مذكرات السياسيين والزعماء في مصر.**
(القاهرة: دار الوطن العربي ١٩٨٤).

(١٤) **تحطيم الآلهة، حرب يونيو ١٩٦٧.** (جزءان)
(القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٨٤).

(١٥) **الغزوة الاستعمارية للعالم العربي، وحركات المقاومة.**
(القاهرة: دار المعارف ١٩٨٤).

(١٦) **مصر في عصر السادات.**
(القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٨٦).

(١٧) **مذكرات سعد زغلول،** تحقيق، الجزء الأول (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧).

(١٨) **مصطفى كامل في محكمة التاريخ،** (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة تاريخ المصريين رقم ١ سنة ١٩٨٧).

(١٩) **أكذوبة الاستعمار المصري للسودان** (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨).

(٢٠) **مذكرات سعد زغلول**، تحقيق، الجزء الثاني (القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨).

مع آخرين:

(١) **مصر والحرب العالمية الثانية**، مع الدكتور جمال الدين (...) والدكتور يونان لبيب رزق.
(القاهرة: مؤسسة الأهرام ١٩٧٨).

(٢) **تاريخ أوروبا في عصر الرأسمالية**، مع د. يونان لبيب رزق ود. رؤوف عباس.
(القاهرة: دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

(٣) **تاريخ أوروبا في عصر الامبريالية**، مع د. يونان لبيب رزق ود. رؤوف عباس.
(القاهرة: دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

كتب مترجمة:

(١) **تاريخ النهب الاستعماري لمصر** (١٧٩٨ ـ ١٨٨٢) تأليف جون مارلو. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦).

ثانياً: الدكتور محمود محمد متولي

المهنة: أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، جامعة المنيا.
الوظيفة: رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة المنيا.
التخصص العام: أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
التخصص الدقيق: أستاذ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

المؤهلات:

- ليسانس في الآداب، جامعة عين شمس.
- ليسانس في الحقوق، جامعة القاهرة.
- دبلوم معهد الرأي العام والإعلام بمرتبة الشرف الأولى.
- دبلوم معهد السياحة العالي بدرجة جيد جداً.
- ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس بدرجة الامتياز.
- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى.

المؤلفات:

- الأمم المتحدة والسلام العالمي.
- الفكر التاريخي.
- المذاهب الاقتصادية والاجتماعية.
- حادث ٤ فبراير في التاريخ المصري المعاصر.
- التنظيمات الشعبية في جمهورية مصر العربية.
- اتفاقية رودس بين العرب واسرائيل.
- افريقيا في العلاقات الدولية.
- افريقيا والسيطرة الغربية.
- افريقيا المعاصرة.
- ثورة الجزائر.
- الامبراطورية العثمانية وعلاقتها بمصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.
- مصر والحياة الحزبية والنيابية قبل سنة ١٩٥٢.
- اسرائيل الحقيقة والمستقبل.
- مأساة العصر في تاريخ مصر.
- تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية.
- مصر والحركة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية.
- دراسات في تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي.
- مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، ج ١.
- الفيلسوف الاقتصادي الراحل.
- طغاة التاريخ.
- طوائف العالم الاسلامي.
- الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية.
- مناهج البحث التاريخي.

الخبرة العلمية:

- التدريس في الجامعة.
- الأمين الفني للجنة تسجيل وثائق ثورة ٢٣ يوليو.
- مشرف في مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة.
- مدير مركز الدراسات التاريخية بمؤسسة التحرير والنشر بالقاهرة.

عضوية الجمعيات العلمية:

- عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو بالجمعية الجغرافية بالقاهرة.
- عضو بجمعية الاقتصاد والتشريع السياسي بالقاهرة.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.

المواد التي يدرِّسها:

- تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر.
- تاريخ افريقيا المعاصرة.
- تاريخ العرب الحديث والمعاصر.
- تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر.
- تاريخ مصر الحديث والمعاصر.
- منهج البحث التاريخي.

العنوان:

ـ الإقامة: جمهورية مصر العربية، القاهرة، مصر الجديدة، الميرغني، ٥ ش محمد أنيس، دور ٥، شقة ٥، تليفون ٦٦٥٤٣٦.

ـ العمل: رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة المنيا، جمهورية مصر العربية، محافظة المنيا.

ثالثاً: الدكتور يحيى بو عزيز

ولد الدكتور يحيى بو عزيز يوم ٢٧ ماي ١٩٢٩ بقرية الجعافرة، في دائرة برج بوعريريج، من ولاية سطيف/ الجزائر، حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادىء اللغة العربية، على والده: الحاج عبد الرحمن، وفي عام ١٩٤٧ التحق بمدينة عنابة وزاول تعلمه الابتدائي هناك في مدرسة خاصة، وفي أواخر عام ١٩٤٩ التحق بمعهد الزيتونة في تونس، حيث حصل على شهادة الأهلية بامتياز وجائزة عام ١٩٥٣ وكان الأول في سائر المملكة التونسية آنذاك، وعلى شهادة التحصيل في أواخر عام ١٩٥٦.

وفي خريف عام ١٩٥٧ التحق بجامعة القاهرة في مصر، واختص في دراسة التاريخ، وحصل على شهادة الليسانس في مطلع عام ١٩٦٢.

وعندما عاد إلى الوطن حصل على شهادة دكتوراه الطور الثالث في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر في اكتوبر ١٩٧٦.

اشتغل خلال وجوده بتونس، في ميدان الصحافة، في اطار نشاط جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ونشر عشرات من المقالات في الصحف والمجلات التونسية، ونشر كتاباً عن كفاح الأمير عبد القادر. وكان عضواً في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ورئيس اللجنة الثقافية في تونس.

وفي القاهرة شارك في اذاعة حصص من اذاعة صوت العرب عن كفاح الشعب الجزائري، وترأس اللجنة الثقافية، وتحرير مجلة الطالب الجزائري، التي كان يصدرها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (فرع القاهرة).

وعندما عاد إلى الوطن بعد الاستقلال عام ١٩٦٢ اشتغل في مهنة التدريس وعين عضواً في لجنة التأليف المدرسي الوزارية في صيف عام ١٩٦٣ بالعاصمة، وكلف عام ١٩٦٩ بوضع كتاب مدرسي في التاريخ الحديث للسنة الأولى من التعليم الثانوي مع زميلين آخرين، وأنجزه.

وألّف كتاب: **الموجز في تاريخ الجزائر**، ونشر عدداً كبيراً من المقالات والبحوث الوثائقية التاريخية عن تاريخ وحضارة الجزائر خاصة عن الكفاح التحريري في القرنين: التاسع عشر، والعشرين، وبعد ذلك نشر ما يقرب من عشرة كتب عن تاريخ وحضارة الجزائر.

وهو الآن أستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر في معهد العلوم الاجتماعية بجامعة وهران، وعضو في مجلس البحث العلمي بنفس المؤسسة، وعضو في اتحاد الكتاب الجزائريين. وشارك في معظم ملتقيات الفكر الاسلامي التي تعقد سنوياً بمدن الجزائر، وفي ملتقيات علمية خارج الجزائر منهامؤتمر المستشرقين الألمان الواحد والعشرون ببرلين الغربية في أواخر شهر مارس ١٩٨٠، والملتقى الدولي الثاني لتاريخ المغرب وحضارته بتونس في آخر نوفمبر ١٩٨٠ وملتقى رد فعل تونس على الاحتلال الفرنسي لها عام ١٨٨١ في آخر شهر ماي ١٩٨١ وملتقى تاريخ التجارة عبر الصحراء بمدينة طرابلس الليبية فيما بين ١ و٤ اكتوبر ١٩٧٩، وملتقى صيانة جزيرة جربة بنفس الجزيرة فيما بين ٧ و١١ أبريل ١٩٨٢م، وملتقى تاريخ العلاقات العربية التركية بطرابلس الغرب فيما بين ١٣ و١٨ ديسمبر ١٩٨٢م، وملتقى التراث والمعاصرة بالجزائر في جويلية ١٩٨٤. والملتقى الدولي عن صدى الثورة الجزائرية بالخارج في أواخر شهر نوفمبر ١٩٨٤، وملتقى الحركة الوطنية وحروب التحرير ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠ بالجزائر في أوائل ديسمبر ١٩٨٤.

رابعاً: الدكتور موسى لقبال

مكان وتاريخ الولادة: بربكة/ الجزائر/ ١٩٣٤.

التخصص العام: التاريخ الاسلامي.

التخصص الدقيق: المغرب الاسلامي في القرون الثلاثة الأولى.

العنوان الدائم: ص. ب رقم ٩٤ البريد المركزي ـ الجزائر.

عنوان الوظيفة: معهد التاريخ/ الخروبة/ جامعة الجزائر.

عضو مؤسس لاتحاد المؤرخين العرب.

عضو مجلس رابطة المؤرخين الجزائريين.

حامل وسام المؤرخ العربي.

الكتب المؤلفة:

١ ـ المغرب الاسلامي.

٢ ـ الحسبة المذهبية.

٣ ـ التيسير في أحكام التسعير.

٤ ـ عقبة بن نافع الفهري.

٥ ـ الجزائر في التاريخ.

البحوث المنشورة

له مجموعة من البحوث منشورة في المجلات الآتية: المجاهد الثقافي، ومجلة الأصالة، ومجلة الثقافة، والمجلة التاريخية وحولية جامعة الجزائر، ومجلة كلية الآداب ومجلة الموسم الثقافي ومجلة المؤرخ العربي.. ومجلات أخرى.

الندوات والمؤتمرات التي شارك فيها: المؤتمر الأول لتاريخ المغرب/ تاريخ شرق الجزيرة/ الدوحة، مؤتمر التاريخ العسكري/ بغداد، ندوة تأسيس اتحاد المؤرخين العرب/ بغداد، ملتقى ابن منظور/ تونس، ملتقى طبنة/ الجزائر، اسبوع ثقافي/ الدوحة/ جامعة قطر.

المؤتمرات والندوات

قصيدة الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد(*)

صدقَت، ولو لم تَصدق الأيّامُ
ما أتأمتْ بك أيُّها الضرغامُ
ما أنجبتكَ، وبعد ألف مَهولةٍ
وضعَتْ، فكانَ وليدَها صدامُ!

* * *

أبشِرْ صلاحَ الدين.. كلُّ عظيمةٍ
ولها بأرضكَ صانعون عظامُ
من عهد سومَر والعراقُ مؤزَّرٌ
بالكبرياء، تحفُّهُ الأعلامُ
لِشذا البطولةِ كلِّها في أرضِهِ
بدءٌ، وليس لها عليه ختامُ!

* * *

يا صانع التاريخ، شفرةُ سيفِهِ
أملَتْ، وخطَّت بعدها الأقلامُ
لو لم تكن أنت الرجولة كلَّها
لطوتْك طيَّ سجلِّها الأيام
لَعَدتْ عليك العادياتُ جميعُها
صهيون، ثمَّ الغربُ، والأعجامُ
لمحوا، وحاشا، كلَّ حرفٍ قلتَهُ
وأزيلَتْ الوديانُ والآكامُ
كيلا يُرى لهيب خطوكَ فوقَها
أثرٌ، ولا تُحصى له أقدامُ!
لكنْ كَبُرْتَ على جميع صَغارهم
وعبرتَ من حيثُ السُّدودُ تُقامُ
أثبتَّ، والتاريخُ يفعلُ فعلَهُ
أنك الكبير، وأنهم أقزامُ!

أرأيت نابليون؟.. زار بقضِّهِ
وقضيضهِ مثواك حيث تنامُ
ليقول جئنا يا صلاح، وإنّما
كانت تضجُّ بقلبه الأورامُ
واللهِ ما جاءوا لو أنّك واقفٌ
ومهيبُ سيفِكَ حوله الإسلامُ!

* * *

انظرْ صلاحَ الدين، كيف تبدَّلتْ
سنَنُ الحياة، ومالت الأحكامُ
كيف العروبةُ، وهي عندَ بيوتِنا
منذُ الخليل، رضاعةٌ وفطامُ
صارتْ تُباع بكلِّ سوقِ نخاسةٍ
علناً، وسَوْمَ الأرذلين تُسامُ
بل كيف تطعنُها أكفُّ تدَّعي
عند التَّعاتب أنَّها أعمامُ
فإذا ندبْتَ تَقطَّعتْ أسبابُهم
وتفرَّقتْ عن بعضها الأرحامُ
أنظر إلى القدس التي حرَّرتها
ولديك فيها حرمةٌ وذمامُ
ماذا خَؤونُ الشام أبقى حولها
بل ما الذي بقيَتْ عليه الشامُ!
وانظرْ للبنانَ الخضيبةِ عرَّشَتْ
وتأبَّدَتْ في أرضها الآلامُ
وكأنَّها ممّا تُقطِّعُ بعضَها
تقتصُّ من آثامها الآثامُ!
وعلى فجيعتها يبيع ويشتري
بدمائها في جلَّق الحاخامُ!

* * *

(*) ألقى الشاعر هذه القصيدة في حفل الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بتاريخ ٢/١٠/١٩٨٨، وذلك بمناسبة يوم عيد المؤرخ العربي.

الحمدُ لله الكريم فلم يزلْ
للعرب، دون العالمين، خيامُ!
الحمدُ لله الكريم، ولم تزل
لهمو سيوفٌ جُلُّهنَّ كهامُ!
لأطارَ كلُّ رأسَ أقربِ أهلِهِ
ولطاحَ منهم غاربٌ وسَنامُ!

* * *

يا سيّدي، ولأنّ أرضَكَ جمرةٌ
لم تبقَ فوقَ أديمها أسقامُ
حرقَتْ شوائبها جميعاً وانثنتْ
ولها على أقصى البلاد ضرامُ
هذا حفيدُكَ.. أنت تسمعُ صوتَهُ
وتراهُ كيف نَمَتْ به الأعوامُ
فغدا، ومن أعمارنا عمرٌ لهُ،
أملًا ترفرفُ حوله الأحلامُ
وكأنّه ممّا تكاملَ بَدرُهُ
لجميع نقصانِ الزّمان تَمامُ!

* * *

صدّام، يا زهوَ العروبة كلّها
يا واحداً عظُمَتْ به الأرقامُ!
شخصَتْ إليه المكرُماتُ جميعُها
فلها قعودٌ عندَهُ وقيامُ
يا ملتقى قوسِ الزّمان بأهلِهِ
حدَّ انطلاقِ السَّهم حيثُ أغاموا
فَلَهُ بريقٌ، ثم رعدٌ هائلٌ
وله انهمارٌ بعد ذاك سجامُ!
يا مُزهراً لم ندرِ أيُّ زهورِهِ
أدنى إليهِ، وكلُّها أكمامُ
تتفتّحُ الدُّنيا على أضوائِهِ
وتظلُّ تحملُ عطرَهُ الأنسامُ
يا مَن صلاحُ الدين بارك بيتَهُ
والأرضُ حُبلى، والزّمانُ غُلام
حتى إذا وضعتْهُ أزهرت الدُّنا
وزها على صدر الحياة وسامُ
ألفٌ من الأعوام أسمع صوتَها
ممّا براها الذُّل والإرغامُ
ندبَتْهُ من عُمقِ الزّمان مروعةٌ
صدّام، يا صدّام، يا صدّامُ!
فأتى ورايتُهُ يشعُّ هلالُها
وحسامُهُ بين السيوف حسامُ!
شطرَ الدُّجى شطرين، فانبلجت بهِ
شمسُ الهدى، وانهارت الأصنامُ

صدام، سمَّيتَ الأوابدَ باسمها
فالفجرُ فجرٌ، والظلام ظلامُ!

* * *

يا أُسرةَ التاريخ، ميتٌ معدَمٌ
من ظنَّ أنّ الميّتين رمامُ!
للأرضِ، ما مرَّ الزّمانُ، مروءةٌ
تندى، وذاكرةٌ لها، وذمامُ
كلّ الذي زرعوا بها، أو قطّعوا
منها، له بترابها أرحامُ
تتوالدُ الأحداثُ... يُخصبُ بعضُها
بعضاً... ويُضحي فوقها، ويُغامُ
لكنّهنَّ يلدنَ مهما أعسرَتْ
أحمالُهُنَّ وأحجمَ الإحجامُ!
للأرضِ، وهي أعزُّ أنثى، حكمُها
ألّا يُعثّرِ خِصبَها إجرامُ
فهي الولودُ، وإنّما أحداثُها
أولادُها، وسواهم الأيتامُ
ما القادسيةُ غيرَ غضبةِ غاضب
للأرض حين طغت بها عيلامُ!
فأعادها للدَّرب عودةَ مرغَمٍ
من بعدِ ما سرحتْ بها الأوهامُ!

* * *

يا أسرة التاريخ.. كم من قائل
ما ينفع التأريخ وهو كلامُ؟!
سبحانك اللهم، أنت بدأتَها
صوتاً لجبريلٍ عليه سلامُ
بدءُ الخليقةِ كان صوتاً... إنّما
تبقى تحار بكنهِهِ الأفهامُ
ولأنَّ للأحداثِ رَجعاً بعدها
فلَها، برغم غيابها، أحكامُ
سِيَرُ الأنام تظلُّ تفعلُ فعلَها
وكأنّها بين الأنامِ أنامُ!
فتُكبّرُ الأحداث وهي صغيرةٌ
وتُصغّرُ الأحداث وهي جسامُ
ونظلُّ نغضبُ، أو نتيهُ ونزدهي
ما لامستْ تاريخنا الأقلامُ!

* * *

يا أسرة التاريخ، ألف تحيةٍ
لكمو، يحفُّ أريجها الإكرامُ
فبفضلكم تبني الحقيقةُ صرحَها
وبكم موازين الزّمان تُقامُ!

* * *

أضواء تاريخية على قمة طوكيو

د. سعد أبو دية

كلية الآداب ـ جامعة اليرموك.

مقدمة

تعتبر قرارات قمة طوكيو أبرز رد فعل بعد الهجوم الأميركي على ليبيا حيث أدانت الارهاب وحددت ليبيا بالاسم كمسؤولة عنه، ولولا حذر اليابان وبعض دول أوروبا للصقت كلمة «الارهاب» بالشرق الأوسط العربي، جاءت قمة طوكيو واجراءاتها نتيجة جهد دبلوماسي أميركي مكثف على المستويين الاقتصادي والسياسي حيث كان صانع القرار الأميركي مشغولاً بأمور اقتصادية ترتبط بتخفيض سعر الفائدة والنفط والدولار وكان تحت تأثيرات أخرى ترتبط بضرورة توسيع مهام حلف الاطلسي واظهار **وحدة دول المنظمة (الحلف) خلال الأزمات**. ونلاحظ أن الجهد الأميركي خلال السنوات الماضية تركز حول هذه الأمور وقد نجح الأميركيون في جر بريطانيا لتأدية مهام للقوات الأميركية المهاجمة لليبيا ثم نجحوا في قمة طوكيو بجر اليابان التي، بالرغم من تحفظها، أدانت الارهاب (الليبي)...

والواقع أن ريغان ظهر وكأنه تحت تأثير فكرة رد الهيبة للمواطن الأمريكي وللسياسة الأميركية، وان هذه الظاهرة اصبحت ملفتة للنظر في الولايات المتحدة عند المواطن الأميركي، حيث لا يفرق النظام الأساسي في الولايات المتحدة بين الجريمة العادية والارهاب السياسي، ومن جهة ثانية فإن الادارة الأميركية ظهرت كمناهض للارهاب العالمي، واخذ السلوك الأميركي الخارجي يعكس هذه الظاهرة. وتزامن الهجوم على ليبيا مع مشروع قدمه السناتور الأميركي الجمهوري (أرلن سكتار) في منتصف شباط وينص على تجريم كل من يعتدي على أي مواطن أميركي في العالم[1].

هذه هي الظروف التي هاجمت فيها الولايات المتحدة ليبيا وهي الظروف نفسها التي ظهرت فيها قرارات واجراءات قمة طوكيو التي شملت نواحي اقتصادية وعسكرية وسياسية واجتماعية. والأكثر من ذلك فإن صيغة البيان بيّنت أن هذه الإجراءات هي طريق لعمل محدد صارم، طويل النفس، بعيد عن الأضواء، تتعاون فيه الجهود القومية مع الجهود الدولية. ولقد تضمن البيان بحث الإجراءات اللاحقة والتعاون الوثيق لتطبيق الأهداف المرتبطة برفض تصدير الأسلحة للدول التي ترعى الارهاب، وتقييد حجم البعثات الدبلوماسية وتحسين اجراءات تسليم المجرمين وفرض رقابة على اجراءات الهجرة... الخ (انظر النص الكامل لبيان طوكيو في نهاية الدراسة).

الخلفيات التاريخية ـ الاقتصادية لمؤتمر طوكيو

يعتبر هذا المؤتمر تاسع مؤتمر تعقده الدول الصناعية السبع (الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، المانيا الغربية، اليابان، كندا، ايطاليا) وكانت هناك ثمانية مؤتمرات قد سبقت هذا المؤتمر خلال الأعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢م أي أن هذه المؤتمرات عقدت بشكل سنوي تقريباً، استهدفت المؤتمرات الثمانية التنسيق ومعالجة المشاكل الاقتصادية.

يلاحظ أن المؤتمرات قد توقفت بعد مؤتمر فرساي الذي عقد في الفترة الواقعة بين ٤ ـ ١٩٨٢/٦/٦ بمدينة فرساي الفرنسية الذي اعتبر بأنه كان فاشلاً وفيما يلي نبذة عنه:

مؤتمر فرساي (جو المؤتمر والأولويات الأميركية)

عقد هذا المؤتمر وسط جو مشحون بالتوتر السياسي فهناك

(١) سليم نصار، «ماذا حدث في قمة طوكيو»، المستقبل ـ عدد ٤٨٢ السبت ١٩٨٦/٥/١٧.

أزمة حرب فوكلاند وهناك احتلال اسرائيل للبنان، بتاريخ ٦/٦/١٩٨٢، الذي ألقى مزيداً من التوتر على جو المؤتمر. ورغم اعتداء اسرائيل على سيادة لبنان فإن المؤتمرين في فرساي لم يدينوا اسرائيل وإنما شجبوا العنف بشكل عام في الشرق الأوسط وأيدوا قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النار(٢)...

كان للمؤتمرين أولويات أخرى اجتمعوا من أجلها أصلاً وهي الأمور الاقتصادية المرتبطة بالصادرات للاتحاد السوفياتي والمساعدات لدول العالم الثالث وقيمة العملات.. الخ.

كانت الأولويات الأميركية ترتبط بحجم التبادل التجاري بين دول أوروبا وبين الاتحاد السوفياتي، وبالرغم من أن البيان الصادر عن المؤتمر يوم ٦/٦/١٩٨٢ أعلن عن تقدم نسبي في المحادثات حول الأمور السابقة، وبخاصة موضوع حجم التبادل التجاري مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية فإن «رونالد ريغان» وزير الخزانة الأميركي أعلن عن عدم قناعته وتبين أن سقف وحجم التبادل التجاري مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية قد تُرك مفتوحاً، وتُرك الأمر لكل دولة أن تقرر ما تراه مناسباً. وتمت الموافقة على لقاء نصف سنوي لمراجعة حجم القروض للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية(٣).

ومن جهة أخرى واصل الأميركيون ضغطهم على حلفائهم الأوروبيين بخاصة اليابان والمانيا الغربية في المجالات التالية:

١ ـ تخفيض سعر الفائدة.
٢ ـ تخفيض سعر الدولار.
٣ ـ تخفيض العجز الخارجي (الذي فاق المليار دولار في السنة) وتحسين الميزانية الأميركية(٤).

وفي سبيل ذلك فإن الأميركيين نشطوا اقتصادياً، وكانت السياسة الأميركية في منتهى الفعالية من أجل تقليص الدعم الخارجي، وإبقاء سعر الدولار منخفضاً لمحاربة اليابان والمانيا الغربية لتحسين ميزانيتها والاستفادة من الأسعار الجديدة للنفط وانخفاض سعر الفائدة.. ونظراً لعدم قناعة الأميركيين في قمة فرساي بالموقف الأوروبي الذي تلى القمة تجاه الاتحاد السوفياتي فإن الآمال الكبيرة كانت معلّقة على قمة طوكيو، وكان الأميركيون قد بدأوا يعبئون الجهود لمطالبة الآخرين بالتزام أكثر، ولقد سبقت قمة طوكيو قمتان مصغّرتان هما:

(١) **قمة نيويورك**: في ٢٣/٩/١٩٨٥، التقى ممثلو الدول الصناعية (الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا واليابان والمانيا الغربية) حيث قرروا تخفيض أسعار البترول واتخذت كل دولة مجموعة إجراءات محلية(٥).

(٢) اجتماع «٦ ـ ٧» آذار ١٩٨٦ اتفق ممثلو الولايات المتحدة واليابان والمانيا الغربية وفرنسا على تخفيض سعر الفائدة وكان قد سبق ذلك تخفيض سعر الدولار(٦).

الضغط الأميركي في قمة طوكيو وموقف اليابان

واصلت الولايات المتحدة ضغطها على المانيا واليابان وفي قمة طوكيو استمر الضغط الأميركي ليس من أجل القضية الساخنة المرتبطة بالدولار الأميركي وانخفاض سعره أمام سعر الين الياباني، وإنما كان الضغط الأميركي في موضوع الارهاب وواجه اليابانيون موقفاً صعباً تمثل في انفجارات داخلية عكّرت صفو الأمن، وبصعوبة استطاع ناكاسوني أن يدير المفاوضات تجاه ليبيا وأن يخفض الضغط الأميركي عليه في موضوع الارهاب وبخاصة ان الانتخابات اليابانية على الأبواب(٧).

يضاف لما تقدم أن لليابان موقفاً ووضعاً خاصاً تمثل بما يلي:

١) **ثقافياً وسياسياً**: اتبعت اليابان سياسة محايدة مع العرب منذ عام ١٩٧٣ بعد استخدام العرب لسلاح النفط.

تستورد اليابان نفطها من الخارج على عكس الولايات المتحدة وكان استيراد اليابان عام ١٩٧٨ ٨٦٪ من طاقتها من خارج اليابان مقارنة مع ٢٢٪ من صادرات أميركا للطاقة الأجنبية(٨).

أما في الوقت الحاضر فإن واردات اليابان هي ٦٥٪ من نفطها تأتي من الشرق الأوسط.

٢) ليس لليابان أي مصلحة في التورط في الصراع المشحون

---

(٢) Facts on file vol. 42 no 2169 June, 11 1982 pp. 413-417.

(٣) Ibid.

(٤) الاكسبرس الفرنسية، مرجع سابق.

(٥) Facts on File vol. 45-no 2340 Sept 27-1985. p. 705.

وانظر «من فرساي إلى طوكيو، قمة بلا نتائج» مترجم عن الاكسبرس في صوت الشعب ٢٧/٥/١٩٨٦.

(٦) Facts on File vol. 46 no. 2364 March 14, 1986 p. 182.

(٧) **ملاحظة**: تحدث رئيس وزراء اليابان عن الارهابيين اليابانيين وقال إنهم لا يزيدون عن ٥٠ شخصاً في العالم وهو عدد ضئيل في بلد سكانها ١٠٠ مليون نسمة، والشيء نفسه ردّده المستشار الالماني الذي قال بأن ضحايا الارهاب في المانيا لم يزيدوا عن ٢٤ شخصاً، خلال السنوات ٧٠ ـ ١٩٧٨. وتضاعف الرقم في السنوات الأخيرة بصورة غير خطرة لا تستدعي لاستنفار واشنطن.

(٨) هيروكو ياماني، «الموقف الياباني في قمة طوكيو مجاملة أم تغيير نهج». هيرالد تربيون ـ مترجم في صحيفة الرأي الأردنية ٢٨/٥/٨٦.

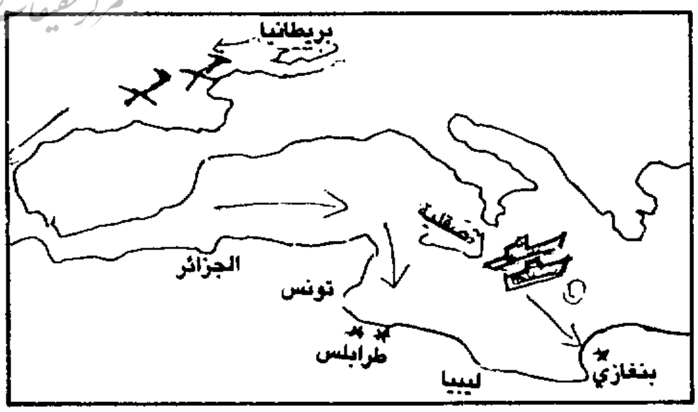
بالعواطف في الشرق العربي، بخاصة انها ليس لها علاقات ثقافية أو دينية في الشرق الأوسط بل إنها تنظر للأمر باعتبارات اقتصادية، جعلت الأميركيين عام ١٩٧٩ خلال أزمة الرهائن الأميركيين في ايران ينظرون لليابان وكأنها غير مبالية بالمصالح الأميركية حيث انتقد سايروس فانس وزير الخارجية الأميركية الموقف الياباني غير المبالي[٩].

الاستجابة البريطانية: أسبابها

يضاف لما تقدم أن الدول الأوروبية الأخرى ليس لها مصلحة مثل المصلحة الأميركية، وان المسؤولين الأوروبيين لم يخفوا امتعاضهم من الضغط الأميركي الذي مارسه عليهم الرئيس الأميركي ريغان[١٠].

ويمكن القول إنه باستثناء بريطانيا فإن الدول الأوروبية الأخرى بدت متحفظة. بيد أن الانجليز كانوا قد استجابوا للأميركيين، ولأسباب ترتبط باتفاق عسكري سري يعود لأيام هاري ترومان، وونستون تشرشل، يتيح للأميركيين استعمال القواعد البريطانية (يوجد الآن في بريطانيا ٣٥ الف أميركي موزعين على ٧٥ قاعدة معظمها في مقاطعة سافولك الريفية[١١].

غير أن الاستجابة البريطانية ارتبطت بالمادة ١ من ميثاق الأمم المتحدة حيث ربط البريطانيون تدخلهم في اطار هذه المادة التي تنص على حق الدول في الدفاع عن نفسها واستخدام القوة حتى يتخذ مجلس الأمن الاجراءات اللازمة.



خارطة تمثل الهجوم الأميركي[١٢] على ليبيا والمساعدة التي قدمتها بريطانيا ويلاحظ ان الأسطول الأميركي المرابط شرق صقلية يستطيع ان يؤدي المهمة لوحده

(١) اقلعت ١٨ طائرة أميركية من قاعدتين بريطانيتين الساعة ٧ مساء.

(٢) تزودت الطائرات الأميركية بالوقود فوق اسبانيا.

(٣) الساعة الواحدة صباحاً من فجر الثلاثاء ١٥/٤/٨٦، ضربت أهدافاً في طرابلس منها ثكنة العزيزية العسكرية مقر القذافي.

(٤) قامت طائرات اميركية من الأسطول السادس بقصف مواقع في بنغازي منها ثكنة الجماهيرية العسكرية (مقر القذافي في بنغازي).

(٥) عادت ١٧ طائرة أميركية إلى بريطانيا.

وأثناء الهجوم الأميركي على ليبيا فإن بريطانيا قدمت للولايات المتحدة ما يلي:

أ ـ عند اقلاع الطائرات الأميركية وعددها ثماني عشرة طائرة نوع اف ١١١، مساء ١٤/٤/١٩٨٦، فإن الأميركيين استخدموا قواعد لايكنيهيث وابدهايفورد.

ب ـ زودت طائرات الصهاريج المنطلقة من قواعد ميلدنهال وفيرفورد، زوّدت الطائرات الأميركية بالوقود في خمس مناسبات قبل أن تعود لقواعدها[١٣].

والواقع أن نظرة واحدة لخارطة العمليات الأميركية تثبت ان الأميركيين أرادوا دعماً أوروبياً حتى لا يبدو أن الهجوم اميركي، ومن جهة أخرى فإنهم استخدموا الدبلوماسية نفسها في اليابان في قمة طوكيو.

خاتمة

يبدو واضحاً وجلياً أن الأميركيين قد ضغطوا على حلفائهم منذ مؤتمر فرساي لتحقيق استجابة أوروبية توافق الأولويات الأميركية سواء أكانت هذه الأولويات اقتصادية أم سياسية أم عسكرية...

منذ عام ١٩٨٢ ونظراً لعدم قناعة الأميركيين بمواقف حلفائهم تجاه الاتحاد السوفياتي فإن الضغط الأميركي استمر على الحلفاء، في سبيل أولويات أميركية ارتبطت بسعر الدولار والفائدة والنفط وتقليص العجز وتحسين الميزانية.

(٩) المصدر نفسه.
(١٠) سليم نصار، مرجع سابق.
(١١) الصياد، مرجع سابق.
(١٢) الصياد، مصدر سابق.
(١٣) المصدر السابق.

ولم يكتف الأميركيون بالضغط على الحلفاء في سبيل الأولويات المرتبطة بسعر الدولار، بل إنهم أرادوا توسيع مهام حلف الأطلسي، وضغطوا على حلفائهم في موضوع الصراع مع ليبيا وأرادوا أن يبدو الهجوم الأميركي على ليبيا أوروبياً وليس أميركياً. ولم يستجب لذلك إلا بريطانيا التي ترتبط بالولايات المتحدة بعلاقات خاصة. وفي قمة طوكيو فإن الأميركيين استمروا في ضغطهم على الحلفاء واليابان، ليس في سبيل أولويات اقتصادية أو عسكرية أميركية، وإنما في سبيل أولويات أميركية ليست على مستوى الأولويات الأوروبية. وكان حجم الاستنفار الأميركي أكبر بكثير من حجم المشكلة المطروحة للبحث...

ولا شك أن ذلك يقودنا لمواضيع أخرى ترتبط بتساؤلات عن أسباب هذه الأولويات أمام قضايا ساخنة أخرى أكثر فائدة للمواطن الأميركي، مثلاً: قضايا سعر الدولار وتخفيض العجز الأميركي بتخفيض الصادرات الألمانية واليابانية، حيث يتوجب على ألمانيا واليابان أمام ارتفاع أسعار عملاتهما أن يعوّضا الأسواق التي فقداها في الخارج، بنمو في الداخل، حيث نصحت الولايات المتحدة اليابان وألمانيا بانعاش اقتصادهما الداخلي...

ويلاحظ بأن الأميركيين في كافة الأحوال قد ضغطوا على حلفائهم حتى لا تبدو تصرفاتهم شاذة وحتى يبدو الموقف موحداً: سواء أكان عسكرياً أو سياسياً. ولاحظنا أن المساعدة البريطانية غير ضرورية في النواحي العسكرية فيما يتعلق بالهجوم على ليبيا، وان الأميركيين كان بإمكانهم الاستغناء عنها بسهولة. وان هذا يقودنا للاستنتاج بأن الولايات المتحدة ترمي لوحدة مواقف، وحتى لا يبدو هجومها على ليبيا أميركياً خالصاً بل أوروبياً. وأن الشيء نفسه والدبلوماسية ذاتها قد أعادت استخدامها في اجتماع طوكيو.

النص الكامل لبيان قمة طوكيو حول الارهاب

طوكيو ـ اف. ب ـ فيما يلي النص الرسمي الكامل/ مترجماً إلى اللغة العربية عن اللغة الفرنسية للبيان الخاص بالارهاب الدولي الصادر عن مؤتمر قمة الدول الصناعية السبع الكبرى أمس في طوكيو:

١ ـ نحن رؤساء دول أو حكومات الديمقراطيات السبع الكبرى وممثّلي المجموعة الأوروبية المجتمعين هنا في طوكيو نكرر بقوة ادانتنا للارهاب الدولي بكل صوره وأشكاله والمتواطئين معه ومن يرعونه ويساندونه بما فيهم الحكومات. ونحن نشجب ونستنكر منذ لقائنا الأخير تصاعد الارهاب واستخدامه السافر والشائن كأداة سياسية حكومية. والارهاب غير مبرر اطلاقاً وهو لا يستشري إلا باستخدام وسائل بغيضة تحتقر قيمة الحياة الانسانية والحرية والكرامة ولذلك ينبغي مكافحته بإصرار لا هوادة فيه.

٢ ـ ونحن إذ نعترف بضرورة الكفاح المستمر ضد الارهاب كمهمة ملقاة على عاتق المجتمع الدولي بأسره نتعهد ببذل أقصى الجهود لمكافحة هذا البلاء.

والارهاب حتى يمكن مكافحته بفاعلية ينبغي التصدي له عن طريق عمل محدد صارم طويل النفس بعيد عن الأضواء تتعاون فيه الجهود القومية مع الجهود الدولية. وبناء عليه نحن ندعو بإلحاح كافة الدول التي تشاركنا رأينا للتعاون معنا في اطار المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة والمنظمة الدولية للطيران المدني والمنظمة البحرية الدولية والاستعانة بخبرتها لتحسين وتوسيع نطاق الاجراءات والتدابير لمكافحة الارهاب ومن يرعونه ويساندونه.

٣ ـ ويتفق رؤساء الدول أو الحكومات على تكثيف تبادل المعلومات بين الأجهزة المختصة حول التهديدات الحالية أو الممكنة الناجمة عن النشاط الارهابي ومن يرعونه ويساندونه وسبل درئها ومنع وقوعها.

٤ ـ وفيما يلي نورد ذكر الاجراءات التي يمكن أن تتخذها أي حكومة تعتبر نفسها معنية، لتفويت الفرصة على الارهابيين الدوليين وانتزاع السبل التي تكفل لهم اصابة أهدافهم ومعرفة هوية مرتكبي مثل هذا الارهاب وردعهم.

وقد قررنا اتخاذ هذه الاجراءات في اطار القانون الدولي والنظام القانوني المعمول به على المستوى القومي ضد كل دولة يثبت بجلاء مساندتها أو رعايتها للارهاب الدولي وخاصة ليبيا، ما لم تتخلّ الدولة المعنية عن تواطئها أو مساندتها له.

وفيما يلي بيان بهذه الاجراءات:

- رفض تصدير أسلحة للدول التي ترعى أو تساند الارهاب.

- تقييد صارم لحجم البعثات الدبلوماسية أو القنصلية والهيئات الرسمية الأخرى في الخارج والتابعة للدول المتورطة في الارهاب وفرض رقابة على تنقلات أعضاء بعثاتها أو منظماتها واجراء خفض كبير لعدد أعضاء هذه البعثات أو المنظمات بل غلقها إذا اقتضى الأمر.

- حظر دخول أي شخص بمن فيهم الدبلوماسيون يكون قد طرد أو استبعد من دولة منا للاشتباه في تورطه في الارهاب الدولي أو ادانته في أي عمل ارهابي.

- تحسين اجراءات تسليم المجرمين مع احترام اجراءات القانون الداخلي المعمول بها في كل دولة لمحاكمة ومقاضاة كل من يرتكب مثل هذه الأعمال الارهابية.

● وفرض رقابة أشد على اجراءات الهجرة واستخراج تأشيرات الدخول لرعايا الدول التي ترعى أو تساند الارهاب.

● تحقيق أوثق تعاون ممكن على الصعيد الثنائي والمتعدد الأطراف بين أجهزة الشرطة والأمن وبين السلطات المختصة بمكافحة الارهاب.

وتتعهد كل دولة منا بالعمل في اطار المنظمات الدولية المعنية التي هي عضو فيها لاعتماد اجراءات مماثلة بحيث يوافق عليها ويطبقها أكبر عدد ممكن من حكومات الدول الأخرى.

٥ ـ ونحن سنعمل بتعاون وثيق فيما بيننا لتطبيق الأهداف التي نص عليها هذا البيان وبحث الاجراءات اللاحقة.

ولقد اتفقنا على اكساب البيان الصادر في بون عام ١٩٧٨ مزيداً من الفاعلية ليشمل كافة صور الارهاب في مجال الطيران المدني. ونحن على استعداد سواء على الصعيد الثنائي أو متعدد الأطراف لتشجيع كل تحرك لاحق يمكن القيام به في اطار المنظمات الدولية والهيئات المختصة لمكافحة الارهاب الدولي بكافة صوره وأشكاله.

دور الوثائق والمخطوطات

دار صدام للمخطوطات في بغداد

المخطوطات العربية وثيقة التأريخ العربي الاسلامي وتراث حضاري متميز بين حضارات العالم خلّفته لنا الحضارة العربية الاسلامية متمثلاً في فنون المخطوط والابداع في صناعته وتزويقه والعناية به.

ولقد حظيت المخطوطات في مختلف الحقب الزمنية من تأريخنا الخالد بالعناية المتميزة وأقيمت لها الخزائن التي اشتهرت في التأريخ وأهمها خزانة المنصور، وبيت الحكمة ودار العلم، والخزانة الأزهرية، والخزانة المستنصرية والبشيرية والعصمتية. وقد تعرضت خزائن الكتب هذه خلال الغزو الأجنبي للتلف والضياع والدمار على أيدي الغزاة الأجانب حيث أحرق طغرل بيك السلجوقي خزانة دار العلم، كما تعرضت خزانة كتب المستنصرية وخزائن الكتب الأخرى في بغداد إلى الدمار والضياع. إلا أن خزائن الكتب كانت تعمر بعد كل كارثة، وتنال عناية الغيارى من أبناء الأمة فتزخر بالمخطوطات ثانيةً.

ومثلما نالت المخطوطات عناية الأمة في الفترات التاريخية المزدهرة. نالت كذلك العناية اللازمة بعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز المجيدة في العراق. فشرعت القوانين اللازمة لحمايتها وحفظها ومنع الاتجار بها وخصصت المبالغ اللازمة لاقتنائها وجمعها باعتبارها ثروة قومية خلفتها الحضارة العربية الاسلامية. وقد بلغ ما تم جمعه واقتناؤه نحو ٤٠ ألف مخطوط، بينما كانت قبل الثورة لا تزيد على (٤) آلاف مخطوط. وكذلك تم تسجيل المخطوطات التي بقيت محفوظة في الخزائن الخاصة والعامة والأفراد في سجلات الحيازة وقد بلغ عددها نحو ٥٣ ألف مخطوط وتقوم دائرة الآثار بصيانتها والإشراف على حفظها وتنظيم حيازتها وسبل الانتفاع بها.

إن هذه الالتفاتة الرائدة للمخطوطات في العراق كان لها أن تقترن بتوفير المكان والمناخ المناسبين لحفظ هذه المخطوطات وتيسير الانتفاع بها. فكانت دار صدام للمخطوطات التي استدعتها مقتضيات الحفاظ على هذا التراث العظيم وتستعيد بغداد بها أمجاد خزانة المنصور ودار الحكمة والخزانة المستنصرية وتكون قبلة للدارسين والباحثين في العراق والوطن العربي والعالم كما كانت في سالف عهدها.

وقد خصصت لهذه الدار إحدى الدور التراثية الكبيرة في شارع حيفا ببغداد، وقد تم تكييف قاعات الدار لاستيعاب ذلك العدد من المخطوطات وتزويدها بالأجهزة التي تحافظ على درجة الحرارة والرطوبة المناسبتين ومقاومة التأثيرات المناخية، كما خصصت قاعة للمطالعة، ووحدة لصيانة وترميم المخطوطات اضافة إلى قسم للمايكروفيلم لتصوير المخطوطات وأجهزة التصوير الدقيق. وفي الباحة الرئيسية للدار أقيم معرض عرضت فيه نماذج من المخطوطات الفريدة والمصوّرات والأدوات التي كانت تستخدم في الخط والاستنساخ، وتشرف الدار كذلك على المخطوطات الموزعة في المكتبات الخاصة والعامة المنتشرة في محافظات القطر. وتعمل الدار على تبادل صور المخطوطات مع المراكز المماثلة العربية والأجنبية وخصوصاً مراكز الاستشراق والجامعات. ويجري ذلك من خلال التعامل بالمثل.

وقد أصدرت الدار في الفترة القصيرة منذ افتتاحها في ١٨ تموز ١٩٨٨ إلى الآن خمسة كتب من مخطوطاتها، قام بتحقيقها جملة من الأساتذة المحققين وهي: **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم** لموسى بن هارون بتحقيق الدكتور حاتم الضامن، **المعونة في الحساب** لابن الهائم تحقيق الأستاذ خضير عباس المنشداوي، **مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء** للغزالي بتحقيق الأستاذ محمد جاسم الحديثي، كتب: **خلق الانسان**. تحقيق الدكتور نهاد حسوبي، **شرح فصيح ثعلب** تحقيق الدكتور مهدي عبيد. كما أصدرت الدار أول فهرس لمخطوطاتها

وهـو فهرس مخطـوطات الحـديث النبوي الشريف وعلـومه اعـداد أسامـة النقشي وطمياء محمـد عبـاس إكمـالاً للفهـارس الأخرى التي صدرت لمخطـوطات الـدار عندمـا كانت جـزءاً من مكتبة المتحف العراقي، والتي صدرت منها ثمـانية أجـزاء. ومن مشـاريع الـدار لعام ١٩٨٩ إصـدار خمسة عشر نصـاً محققـاً وفهرس مخطوطات علوم القرآن الكريم.

كما تعمل الدار على انجاز الفهرس البطاقي الموضوعي لكافـة مخطوطات الدار، وفهرس بطـاقي آخر للمخطـوطات العـربية في العـراق أنجز منـه نحـو ٣٥ الف بطـاقـة. وسيتم الانتهـاء من الفهـارس البطاقيـة للمخطوطـات في العراق في نهـاية هـذا العام (١٩٨٩) وبذلك يستطيع الباحث والمحقق معرفة ما هو موجود في العـراق من المخطـوطـات من خـلال دار صـدام للمخطـوطـات. وستعمل الدار خلال الفترة المقبلة على تصوير كـافة المخطـوطات في العراق وتكوين مكتبة فلمية مركزية للمخطوطات العراقيـة. كل ذلك من أجل حماية هذا التراث العربي الخالد وتيسير الانتفـاع به.

عروض الكتب

كتاب «ناحية بني كنانة»

تأليف: د. محمد عدنان البخيت
عميد البحث العلمي - الجامعة الأردنية.

عرض: د. حسين محمد القهواتي
اتحاد المؤرخين العرب

صدر في عمّان في مطلع عام ١٩٨٩ كتاب «ناحية بني كنانة» شمالي الأردن في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي/ تأليف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت عميد البحث العلمي في الجامعة الأردنية، وهو من منشورات الجامعة المذكورة.

والكتاب عبارة عن دراسة جادة اعتمدت على المتوفر من سجلات الدولة العثمانية والسجلات والدفاتر في عهد الحكومة الأردنية وعلى المصادر والمراجع العربية المختلفة، إلى جانب التقصي الميداني الدقيق للمواقع والأمكنة المتعلقة بالدراسة. وكانت الحصيلة بالإضافة إلى الدراسة الأصيلة، اعداد خارطة دقيقة أنيقة لناحية بني كنانة وما جاورها في القرن السادس عشر، وترجمة وثائق هامة واحصاءات تخص السكان والرسوم، والثروة الحيوانية والمزارع والأراضي والأوقاف وتنظيم قوائم توضيحية بأسماء الإقطاعات (الخاص، الزعامت والتيمار) وتعريفات منظمة بقرى ومواقع ناحية بني كنانة، بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع التي تنير الدرب للقارىء العام والخاص.

وينبغي لي الاعتراف بأني عندما أنجزت قراءة هذه الدراسة، ذُهلت لأني واجهت خلالها عالم رياضيات بارعاً يتعامل مع النصوص التاريخية والأرقام بصبر وروية وحذر متسلّحاً بمنهج قويم، فهو لا يتركك تغفل ولو لحظة واحدة، لا لأنه يسوق لك المعلومة الجديدة الواحدة تلو الأخرى فحسب، وإنما لأنه يتحفك باستمرار بالاستنتاجات الدقيقة، تارة مبرراً وأخرى مبرهناً، وطوراً معللاً أو مفسراً لما هو مبهم أو غامض، فعليك والحالة هذه أن تكون متأهباً للتلقي المستمر، فالباحث على سبيل المثال يتابع السجلات العثمانية من سنة إلى أخرى ليبين مقدار تأرجح انتاج كميات الحنطة والشعير في الناحية، ويوضح النقص والزيادة في القيمة المحصلة للدولة، وأخيراً ليعلل أسباب نقص انتاج الحنطة وثبات انتاج الشعير قائلاً: (لعل هذا يفسر لنا حاجة الدولة إلى الشعير لتوفير العلف لدواب جيوش الدولة أو دواب قافلة الحج) ونقرأ العديد من هذه الاستنتاجات الصائبة بين ثنايا هذه الدراسة الفريدة. وبخصوص ترجمة دفاتر الطابو العثمانية الخاصة بناحية بني كنانة، والملحقة بالدراسة أقول: يعرف قيمة هذه الترجمة من اطلع على أصول دفاتر الطابو العثمانية أو من ينظر إلى مصوّراتها على صفحات هذا الكتاب، والتي هي أقرب إلى الرسوم والزخرفة منها إلى الكتابة، ليرى مقدار الجهد والصبر المبذولين لتحويلها إلى أرقام واضحة، ومعلومات جليّة يستفيد منها الباحثون بسهولة.

أتمنى للأستاذ الجليل الدكتور محمد عدنان البخيت التوفيق والرفعة وطول العمر ليتحفنا دوماً بمثل هذه الدراسات الرائدة التي غابت مع الأسف الشديد في الآونة الأخيرة، عن المكتبة العربية، وأكبر بإجلال دور الجامعة الأردنية ورئيسها القدير الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي الذي عرفناه مربياً فاضلاً وإدارياً بارعاً وعالماً فذاً، وأخيراً لا آخراً مهتماً بالدراسات التاريخية الجادة الصبورة.

ختاماً، أدعو المهتمين بالدراسات التاريخية بشكل عام والمعنيين بدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدن والأقطار العربية، في العهد العثماني بشكل خاص، وطلبة الدراسات التاريخية العليا، بشكل أخص، لقراءة هذا الكتاب للاستفادة من معلوماته وأسلوبه ومنهجه وإخراجه.

أزمنة التاريخ الاسلامي

(الطبعة الأولى: ١٤٠١ هجرية (١٩٨١م) دولة الكويت.
مجلدان أول وثان صفحاتهما ١٠٩٢ صفحة).

تاليف وتصنيف: د. عبد السلام الترمانيني
مراجعة وتحقيق: د. شاكر مصطفى
ود. أحمد مختار العبادي
عرض: معالي عبد الحميد حمودة
عضو رابطة الأدب الاسلامي العالمية.

يعتبر كتاب «أزمنة التاريخ الاسلامي» من أهم الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة عن التاريخ الاسلامي. وإذا كان الكتاب يحمل عنوان: أزمنة التاريخ الاسلامي، إلا أنه ليس تأريخاً ـ كما قال مؤلفه ومصنّفه ـ وإنما هو سجل لأحداث التاريخ الاسلامي، وضعت بترتيب ازمانها من العام الأول للهجرة النبوية (٦٢٢م) إلى عام ٢٥٠ للهجرة (٨٦٥م) اي منذ قيام الدولة الاسلامية إلى الزمن الذي تناهت في صعودها، ثم أخذت من بعده في الهبوط والانقسام.

وعندما نجد بين أيدينا كتاباً يعتبر سجلاً لأهم الأحداث السياسية والاجتماعية والعمرانية والعسكرية، كي يكوّن خطاً بيانياً يساعد على استيعاب مسيرة التاريخ الاسلامي والتأمل بأحداثها ونتائجها، فإن الأمر يستلزم أن نلقي بعض الضوء على هذا العمل العلمي الكبير (أزمنة التاريخ الاسلامي) هذا العمل الذي لم يأخذ حقه من التعريف.

طبع الكتاب بمعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ويتكون من جزئين، من خمسة اقسام:

يشتمل المجلد الأول على قسمين:

● القسم الأول: يشتمل على الأحداث التاريخية في الفترة الزمنية الواقعة بين السنة الأولى للهجرة ومنتصف القرن الثالث للهجرة.

● القسم الثاني: يشتمل على بيان يوضح الأحداث التاريخية ويربط بينها.

أما المجلد الثاني فيشتمل على أقسام ثلاثة.

● القسم الثالث: تراجم مشاهير الرجال والنساء ممن قادوا الركب الاسلامي في تلك الفترة من السنين وحملوا لواءه في ساحات الدعوة والجهاد والحكم والسياسة والعلم. كما يشتمل هذا القسم كذلك على تراجم رجال من غير المسلمين، من أباطرة وقادة وكتّاب وشعراء وحكماء وعلماء.

● القسم الرابع: يشتمل على تعريف بالبلدان والمواقع.

● القسم الخامس: خرائط تبين أقطار العالم الاسلامي ومواقع البلدان في كل قطر.

الجزء الأول: المجلد الأول

مهّد المؤلف لكتابه بذكر أهم الأحداث التي جرت في بلاد فارس والروم في المائة سنة التي سبقت الهجرة، وقد كان هذا التمهيد التاريخي لازمة هامة حتى يتمكن القارىء من الإلمام بوضع هاتين الدولتين قبل الإسلام، وما كان بينهما من حروب متصلة أدت إلى ضعفهما السياسي والاقتصادي، وكانت من أسباب تصدعهما ومن ثم انهيارهما أمام الكتائب العربية الاسلامية المجاهدة.

بعد هذا التمهيد يسجل المؤلف في كتابه الأحداث التاريخية من السنة الأولى للهجرة إلى منتصف القرن الثالث للهجرة، وقد ضمّن المؤلف هذه الأحداث على هيئة صحف تاريخية بالغة الأهمية ـ جداول تاريخية ـ كما في المثال الآتي:

سنة ١ هجرية = ٦٢٢م/٦٢٣م

الأحداث	الوقائع العسكرية	الوفيات

وقد وضع المؤلف في هامش كل صحيفة كل سنة من السنين، بداية السنة الهجرية (اليوم والشهر) وما يقابلها من السنة الميلادية، وبداية السنة الميلادية وما يقابلها من السنة الهجرية (اليوم والشهر). وميّز المؤلف أحداث السنة الهجرية، الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية والعمرانية، وبيّن الأحداث

العسكرية بما فيها من غزوات وحروب وثورات وانتفاضات، وكتب أسماء من توفى من أعلام الرجال والنساء في كل سنة، لتكون كل صحيفة ـ أو جدول ـ في السنة التي تحملها، صورة شاملة لما تضمنته من أحداث ووقائع ووفيات.

ومن المهم الإشارة إلى عمل علمي جديد، أضافه المؤلف، وهو أنه ترك بعض المساحات الخالية في كل صحيفة (ليضيف إليها القارىء ما يرى اضافته) وهذا العمل بادرة علمية على قدر كبير من الأهمية ليشارك القارىء في تدوين المزيد من الأحداث، وهو ما يجعل القارىء غاية في الارتباط بالتاريخ الاسلامي وأحداثه.

أما القسم الثاني من المجلد الأول فهو بعنوان (بيان وايضاح لمسيرة الأحداث) وينقسم إلى فصول ثلاثة:

● الفصل الأول: أحداث المائة عام السابقة للهجرة، وأحداث العهد النبوي والخلفاء الراشدين، ويتناول مؤلف ومصنف الكتاب أحداث المائة عام السابقة للهجرة، حيث يستعرض الدور الذي لعبه الروم والفرس، ومطامعهما، والحروب التي دارت بينهما. ثم يؤرخ المؤلف لحالة المجتمع العربي عشية البعثة النبوية، فيتناول الجاهلية، والاضطراب السياسي الذي تجلى في الحروب التي أثارتها ظروف الحياة الطبيعية والاجتماعية بين القبائل العربية، ثم نفوذ الروم والفرس، والقلق الفكري المتمثل في اضطراب العقائد والأديان. ويتناول المؤلف مولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبعثته، ثم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم أحداث العصر النبوي من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

بعدها يؤرخ المؤلف لعصر الخلفاء الراشدين فيتناول خلافة أبي بكر الصديق (١١ ـ ١٣هـ) ثم خلافة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ) ثم خلافة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هجرية) ويختتم هذا العصر بالتأريخ لخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الخلفاء الراشدين (٣٥ ـ ٤٠ هجرية).

● الفصل الثاني: أحداث العصر الأموي والعصر العباسي الأول.

وهذا الفصل من تأليف الدكتور شاكر مصطفى، ويتناول بالتحليل التاريخي العلمي أحداث العصر الأموي والعصر العباسي الأول، وعبر نقاط مرتبة ترتيباً تاريخياً. يحلل المؤلف أحداث العصر الأموي، ثم الفترة السفيانية (فترة معاوية) ثم الفترة المروانية الأولى (فترة عبد الملك بن مروان) ويتناول بعدها سقوط الحكم الأموي وأسباب هذا السقوط.

بعدها يتناول المؤلف بالتحليل (الدولة العباسية: العصر الأول) ويتحدث عن حكم هذه الفترة، وصراعاتها المتعددة، والنشاط الاقتصادي، والتطور العلمي الكبير الذي حدث في هذا العصر. وقد قسّم المؤلف الدولة العباسية في عصرها الأول إلى فترات:

● فترة المنصور (التأسيس).

● فترة الرشيد (الاستقرار).

● فترة المعتصم (القلق).

أما الفصل الثالث من القسم الثاني من الجزء الأول فهو بعنوان (أحداث مصر الاسلامية والمغرب والأندلس) وهذا الفصل من تأليف د. أحمد مختار العبادي، ويسير المؤلف عبر نقاط مرتبة ترتيباً تاريخياً في تبيين الأحداث التاريخية السابقة لفتح مصر، ثم فتح العرب لمصر، وأعمال عمرو بن العاص رضي الله عنه، ثم تكوين مصر العربية الاسلامية. ويتناول المؤلف بعد ذلك بعض مظاهر الحضارة في مصر في الفترة الاسلامية الأولى حتى سنة ٢٥٠ هجرية (٨٦٥م).

بعدها يؤرخ المؤلف لأحداث المغرب والأندلس من الفتح حتى سنة ٢٥٠ هجرية، ويشير المؤلف إلى فتح العرب للمغرب، وأحداثه التاريخية، ومواقعه، وحروبه. ثم يشير بعدها إلى فتح العرب للأندلس، ويتناول في خلفية تاريخية خضوع اسبانيا (قبل الفتح) للدولة القوطية. ويسجل بعدها الفتح العربي تاريخياً، ثم غزوات المسلمين في فرنسا، هذه الغزوات التي بدأت في الفترة من ١٠٢ ـ ١٠٧هجرية (٧٢١ ـ ٧٢٦م) والتي وصلت إلى بلاد الغال لأن فرنسا كاصطلاح جغرافي لم توجد كوحدة سياسية إلا في عهد شارل الأصلع (٨٤٣ ـ ٨٧٧م).

ويحلل المؤلف ـ بعد ذلك ـ الفتن الداخلية في المغرب والأندلس، ثم يختتم المؤلف هذا الفصل ـ والجزء الأول من الكتاب ـ بتراجم للأمير عبد الرحمن الداخل (الأول) ١٣٨ ـ ١٧٢هـ (٧٥٦ ـ ٧٨٨م) ثم الأمير هشام الرضا ١٧٢ ـ ١٨٠هـ (٧٨٩ ـ ٧٩٦م) والأمير الحكم الربضي ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ (٧٩٦ ـ ٨٢٢م) ثم عبد الرحمن الثاني أو الأوسط ٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ (٨٢٢ ـ ٨٥٢م).

وينهي المؤلف صفحات الفصل الثالث، بالحديث عن الدويلات التي قامت في المغرب منذ القرن الثاني الهجري فيتحدث عن:

● الدولة المدرارية (١٤٠ ـ ٣٤٩هـ).

● الدولة الرستمية (١٤٤ ـ ٢٩٦هـ).

● الدولة الادارية (١٧٢ ـ ٣٦٣هـ).

● دولة الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ).

الجزء الأول: المجلد الثاني

يتكون المجلد الثاني (من الجزء الأول) من أقسام ثلاثة كما ذكرنا في المقدمة:

القسم الثالث: تراجم مشاهير الرجال والنساء.
القسم الرابع: تعريف بالبلدان والمواقع.
القسم الخامس: خرائط تبين أقطار العالم الاسلامي ومواقع البلدان في كل قطر.

وبالنسبة لتراجم مشاهير الرجال والنساء، فقد ترجم المؤلف لعدد كبير من الرجال والنساء تراجم موجزة مفيدة، وهم من الذين حملوا لواء الدعوة في الجهاد والحكم والسياسة والعلم، ولم يكتف المؤلف بمن ترجم له من مشاهير الرجال والنساء من العرب المسلمين، لكنه أورد تراجم رجال من غير المسلمين، من أباطرة وقادة وكتّاب وشعراء وحكماء وعلماء.

وقد قمنا بحصر عدد تراجم مشاهير الرجال فبلغت ٩١١ ترجمة. أما تراجم النساء فبلغت ٨٦ ترجمة وقد سار المؤلف في التراجم وفقاً للحروف الأبجدية، تحت حرف الألف، ثم الباء وهكذا...

وذكر المؤلف اسم المترجم له، ثم التاريخ بالهجري والميلادي للميلاد والوفاة، وأسرة المترجَم له، ومكان وتاريخ الولادة، ونبذة تاريخية عنه، ثم تاريخ الوفاة.

أما القسم الرابع فهو تعريف بالمواقع والبلدان، وقد ذكر المؤلف في هذا القسم أسماء أشهر المواقع والبلدان والقرى، والجبال، والأنهار والبحار وغير ذلك.

أما القسم الخامس فهو بعنوان: الخرائط المبينة للمواقع والبلدان، ويختتم الكتاب صفحاته بإيراد استدراك ما سقط من التراجم.

وبعد..

فإن كتاب أزمنة التاريخ الاسلامي كتاب يحتاجه كل متخصص ومثقف ودارس علم وقارىء. وهو سجل لأحداث التاريخ الاسلامي من العام الأول للهجرة النبوية الشريفة (٦٢٢م) إلى عام ٢٥٠ للهجرة (٨٦٥م)، كما ضم الكتاب تحليلاً تاريخياً للأحداث التاريخية، وكذا تراجم تاريخية متعددة ومفيدة، موثقة توثيقاً علمياً بالعديد من المصادر والمراجع.

وتلك كانت الكلمة عن كتاب: أزمنة التاريخ الاسلامي.

كتاب رحلة إلى بلاد عربية

تشويه لتاريخ المغرب

عرض أ. د. خليل سمعان
جامعة ولاية نيويورك.

عُرض مؤخراً على ادارة مطابع جامعة الاباما في تْسَكالوزا، ألاباما، الولايات المتحدة الأمريكية مخطوط ترجمة انجليزية لكتاب عبري محقق عن مخطوط باللغة العبرية عنوانه «مسّاع بعبرف ـ تْرافيلْزْ إنْ أَنْ اَرَبْ لانْدْ ـ متاعب في بلاد عربية» نقله إلى اللغة الانجليزية «يديدا ك. سْتِلْمانْ» وزوجها «نورمَنْ أ. سْتِلْمانْ». والمخطوط المذكور أُرسل كما تقضي التقاليد إلى حَكَمين غير متخصصين في علم التاريخ أو الأدب أو الدراسات المغربية، فأوصيا بطبعه وقبلت ادارة مطابع جامعة الاباما توصيتاهما. وانفضح أمر هذا العمل عندما قدمت نسخة المخطوط إلى دائرة الدراسات الكلاسيكية والشرق أوسطية في جامعة ولاية نيويورك ببنغمتين بناء على عريضة قدمتها «يديدا» المذكورة طالبة فيها الحصول على أستاذية اللغة العبرية، بعد أن استعملت النسخة ذاتها، بدون علم أستاذ الدراسات العربية، لترفيع زوجها «نورمن أ. ستلمان» إلى استاذية التاريخ واللغة العربية، (كذا)، وذلك في جلسة سرية لم يطّلع على عقدها أو يشترك فيه سوى عصبة قليلة العدد انتخبت على أساس ايمانها بالعقيدة الصهيونية وخدمتها لمبادئها ـ خرقاً صريحاً لقوانين دولة ولاية نيويورك والعرف الأكاديمي الأمريكي. وعند عرضها على أساتذة دائرة الدراسات الكلاسيكية والشرق أوسطية لم يكن هنالك مناص من افتضاح أمر المخطوط الذي نحن بصدده على يد أستاذ الدراسات العربية كاتب هذا المقال الذي قرأ نسخته بإمعان وتمحيص ففنّد مساوئها، في تقرير رفعه للجان ورؤساء المصالح ورئيس الجامعة بالذات مقرراً:

(١) إن المخطوط «متاعب» ليس سوى أوراق بيضاء مترجمة من كتاب عبري نُقل عن أوراق صفراء كتبها أوروبي منذ حوالي المئتي سنة فضمنها أفكاره العرقية ـ الدينية، تلك الأفكار السائدة في أوروبا القرن الثامن عشر المتعجرفة المتعطشة للاستعمار والسيطرة على التراب الأفريقي ـ الآسيوي، أفكار لا قيمة لها البتة من الناحية التاريخية ولا يمكن أن يقال في لغتها انها أدبية.

(٢) إن المترجمين «نورمن أ. ستلمان» وزوجته «يديدا ك. ستلمان» أساءا ليس الترجمة من حيث ركاكة اللغة فحسب، بل وأيضاً فهم العبارات العبرية والعربية فضمّنا ترجمتهما الكثير من التصحيف وحتى التزوير، وعلى سبيل المثال، فإن ترجمتهما للعنوان بالذات، «مسَاعْ بِعَرَفْ» هي تزوير، إذ إن الكلمة العبرية وهي اسم مفرد بمعنى «ترحال» والحرف العبري /بـ/ المتصل بالاسم العبري «عرف» يؤدي معنى «ترحال في [بلاد] العرب» وليس «متاعب في أرض عربية ـ تْرافيلْزْ إن أَنْ اَرَبْ لانْدْ» كما ترجماه.

(٣) أموراً أخرى ادارية بالنسبة لعريضة «يديدا ك. ستلمان» ونقداً مختصراً للمخطوط مفصلاً كما يلي:

يقول المترجمان أن الأصل العبري طبع في برلين عام ١٧٩٢ وظهر بعد ذلك في تسع طبعات مختلفة (كذا) كما نُشرت مقتطفات منه باللغة الايطالية والألمانية والفرنسية، وبأن هنالك مختصراً له باللغة الانجليزية، ذكرت في كتاب بعنوان «إي هِسْتْري أفْ ذي دْجوزْ أفْ نورْثْ أفْريكا ـ تاريخ ليهود شمالي افريقيا» لـ «اِتْشْ زدْ هِرْشْبِرْغْ» نُشر في لايدن عام ١٩٨١ دون أن يعطيا المعلومات الكافية ببليوغرافياً كما يقتضي علم التاريخ.

كما يقولان بان «رومانِللي» كاتب المخطوط العبري الأصلي هو «صَموئيل رومانِللي» المولود في «ماتُوا» من أعمال مقاطعة «اللومباردي» في ايطاليا بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ (كذا) واسم والده هو «موسِزْحَيْ» ووالدته «كونسولا رومانللي» من عائلة «بورتاليوني» اليهودية المعروفة (كذا) وكأن يهود ايطاليا كانوا يُعرفون باسم أُمهاتهم... ويلي ذلك القول الهراء ميتولوجيا مطولة عن حياة «رومانللي» المدرسية والدينية ومغامراته، الخ. إلى أن

يذكر المترجمان في الصفحة (x) من المخطوطة التي لم تطبع بعد أنه، وقد وجد نفسه فقيراً معدماً في جبل طارق (كذا)، قَبِلَ وظيفة عرضها عليه تاجر غني أراده مرافقاً ومترجماً له في رحلةٍ تجارية إلى «الامبراطورية الشريفية في مراكش» وذلك عام ١٧٨٦. وقد عاش رومانللي هذا في المغرب الأقصى محصّلا معاشه من عمله كخطيب في المعابد اليهودية، ومعلِّم للغة الاسبانية ومترجم للبحارة في موانىء (كذا) بلاد المغرب وذلك خلال الفترة التي ملك فيها المغفور له السلطان سيدي محمد الرابع المتوفي في «١٣ يونيو ١٧٩٠». ويلي هذا سفسطات لا علاقة لها بالموضوع إلى أن يقول المترجمان ان رومانللي هذا مات في ١٧ اكتوبر ١٨١٤ عن ٥٧ عاماً في كاسالي مونْفرّاتو الواقعة شمالي مدينة السّانْدريا وذلك بسبب «بذاءة لسانه وحدته لأنه كان مهملاً حتى لأقل فروض الدين (اليهودي) ولأنه كان يعيش حياة بوهيمية (كذا). ويظهر بأن وفاته لم ينتبه إليها أحد من معاصريه (ص XIV)... وقد أهمل اهمالاً تاماً من قبل (مؤرخي) الأدب العبري في ايطاليا»... وهنا لا بد من السؤال: أهذه سيرة حقيقية لمؤرخ وشاعر؟

أما المخطوط العبري المنسوب لرومانللي هذا فيقول المترجمان وصفاً بأنه «كتاب عن اليهود ولليهود» (ص XII) وأن «شطارة» كاتبه ساعدته على النجاة من بطش حاكم مَغادورْ المسلم - وانه وقع في حب ابنة صاحب البيت الذي استضافه... وانه وصف خروجه من المغرب بأنه كان خروجاً أشبه «بخروج العبرانيين القدماء من أرض مصر (كذا)»...

وتتوالى السفسطة فيقول المترجمان بأن رومانللي هذا أعطى صورة اثنوغرافية عن المغرب وحقيقة واقعية عن حياة اليهود في مجتمع اسلامي تقليدي حيث يُجبر اليهود على الخروج من معابدهم حيث يؤدون صلاة السبت ليعملوا مُكرهين في سخرة السلطان المسلم (ص XIX) وبأن ما يترجمانه هو خال من الرومانطيقية التي تتغنى بكرم المغاربة وحكامهم في معاملة مواطنيهم من اليهود. هذا وبالرغم من أن أحد المترجمَيْن، يديدا، مولودة في فاس حيث نشأت فيها قبل هجرة أهلها إلى فلسطين المحتلة (اسرائيل) فإن الترجمة لا تخلو من عبارات التحقير الموجهة للمغاربة اليهود كالزنى وخفة العقل والخبث وتصوير اليهودي المغربي بصورة المادي المجرم الجشع الذي لا يتورع «عن نكران أبيه وأمه وحتى بنيه». عندما تدعو مصلحته الشخصية إلى ذلك (ص XX).

والواقع هو أن الترجمة هذه - وهي نقل عن كتاب باللغة العبرية نشر في تل أبيب مؤخراً - هي «سلطة» من الأوهام التي تعوّدنا قراءتها في كتابات الامبرياليين الأوروبيين من كهنة ومبشّرين وسياسيين في حديثهم عن الشعب العربي والشعوب المسلمة وعن الأقليات اليهودية والمسيحية القاطنة في البلاد العربية، ونظراً لأن المترجمين تفننا في ايجاد مرادفات باللغة الانجليزية لمجموعة الشتائم والاساءة إلى أقدس مقدسات العرب والمسلمين، الرسول صلعم، والدين الحنيف، ففي اعطاء نماذج منها كفاية يجب غض النظر عن الكثير من البذيء منها: ويُتبع في هذا كرم الخلق العربي وما علمه الرسول الأعظم صلعم من مبادىء حياتية نبيلة كان هو مثالها من إيثار حق الدفاع عن الجار وإكرامه، واحتراماً لكرامة اخواننا المواطنين الموسويين يُذكر أولاً ما ورد في الترجمة التي هي على وشك رؤية النور من سباب وشتائم.

بغداد
خلفاؤها - ولاتها - ملوكها - رؤساؤها

تأليف المرحوم/ المحامي/ باقرامين الورد
عرض: معتز محي عبد الحميد

يكاد هذا الكتاب أن يكون سجلاً اميناً «مختصراً» لرجالات الحكم الذين تعاقبوا على هذه المدينة الخالدة التي بقيت غرة بيضاء في جبين الزمان من عهد مؤسسها الأول أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الحازم إلى عهد باني مجدها الحديث سيادة الرئيس القائد صدام حسين. وما بين سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م ووصولاً إلى سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤ نلتقي بأسماء الخلفاء والولاة والباشوات والملوك - والرؤساء الذين تعاقبوا المسؤولية في مدينة السلام فوصل العهد بأحدهم وهو الخليفة الناصر لدين الله إلى أن يتولى الحكم زهاء سبع وأربعين سنة، بينما لم يدم الحكم بيد ابن المعتز إلا يوماً وليلة قتل فيها.

وخلال فترة بلغت ١٢٥٥ سنة هجرية بلغ عدد الذين تسلموا سدة الحكم في دار السلام حوالى(٢٠٨) أشخاص ترجم لهم المؤلف ترجمة موجزة ذكر فيها أهم الأحداث التي دوّنها المؤرخون وأهم الانجازات التي تمت على أيديهم، وبغداد تجتاز فترات من الشدة والرخاء، من الأمان والاضطراب، من السلم إلى الحروب، وما أكثر الغرباء الذين شددوا قبضتهم على هذه البلدة الوادعة التي كانت زهرة المدائن ومجمع العلماء. فما أن انقضى العصر العباسي الأول وحلّ العصر العباسي الثاني حتى وجدنا الحكم ثنائياً فيه، كان الخليفة الشرعي في بغداد له السلطة الدينية وللأتراك السلطة الدنيوية وبيدهم زمام الأمور، وقس على ذلك فترة السيطرة البويهية والسلجوقية ثم ما تلا ذلك من ظهور المغول والذي انتهى بسقوط الخلافة العباسية ثم بدأ الحكم الأجنبي الذي استمر قروناً عجافاً إلى قيام الحكم الأهلي سنة ١٣٤٠هـ = ١٩٢١ على أثر ثورة العشرين الخالدة التي هزت الامبراطورية العجوز من أعماقها هزاً. ومع ذلك بقي النظام متأرجحاً بين الاستقلال والتبعية، وبيد غير عراقية تنفك تارة وتتقيد تارة أخرى لينتهي الحال بقيام الحكم الجمهوري الوطني سنة ١٩٥٨، حيث تولى الحكم ببغداد أبناؤها بعد مرور ٧٠٠ سنة من التشرد والتمزق والضياع.

ويا لله ما شهدته هذه المدينة العظيمة من أحداث.. ولكن تلك الأحداث زالت وبقيت ابنة الرافدين شامخة الهامة مرفوعة الجبين، ولقد كتب عنها من أبنائها الكثيرون، ومنهم من تعلق بها وهام بها حباً فلم يتمكن من مبارحتها أكثر من أيام ليعود إليها ملتصقاً بثراها الخصب المعطاء، كتب عنها الخطيب البغدادي وطيفور وابن انجب الساعي البغدادي وابن النجار والكازروني وابن الفقيه الهمداني وابن حوقل والكثيرون ممن لا حصر لهم ولا عد، والكتابة عن بغداد تبقى بعد ذلك طرية تخلب الألباب وتجتذب الأقلام. في سنة ٢٢١هـ = ٨٣٦م هاجرت الخلافة إلى سامراء حسب تعبير الأستاذ المؤلف وبقيت هناك مدة ست وخمسين سنة وذلك على أثر ظهور قوة الجنود الأتراك في عاصمة العباسيين بغداد، فكان ذلك إيذاناً ببداية انحلال الخلافة وسريان الوهن إليها، بسبب جبروت وجهالة هؤلاء المرتزقة الذين أفضى نفوذهم المتزايد في شؤون الامبراطورية العربية إلى نكبات متوالية.

وفي سنة ٢٧٧هـ = ٨٩٢م عادت الخلافة إلى بغداد فعادت الآمال إلى القلوب وتطلعت الأنظار إلى درة العواصم العربية لتقتبس من اشعاعها فيضاً عربياً ونوراً إسلامياً، ولكنها - لسوء الطالع - داهمها أحمد بن بويه الديلمي وذلك سنة ٣٣٥هـ = ٩٤٦م وفي سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م وصل الجيش السلجوقي بقيادة طغرلبك إلى بغداد، وخلال هذه العهود كان الخليفة آلة بيد المتسلطين على النظام من بويهيين وسلاجقة غرباء فأهملت المدينة وانتكس التاريخ وأصيبت الحضارة بردة رجعت ببغداد القهقرى حقباً من الزمان.

وفي سنة ٥٧٥هـ = ١١٨٠م ظهر الخليفة الحازم الإمام الناصر لدين الله الذي قام بإجراء محاولة لإنعاش الخلافة

وإعادة الهيبة إليها بمساعدة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولكن حاكم خوارزم المدعو (تكش) قد تعرضت بغداد على يديه لهزات عنيفة فيعود الخور والضعف إلى جسد المدينة الغالية، وفي سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م تهب جحافل المغول الايلخانيين لتجتاح الحضارة وما بنت الأيدي العربية على ضفاف دجلة والفرات من فن وعمران وأدب وثقافة وأصالة انسانية رائعة، وفي غفلة من العين العربية تتهاوى بغداد لتصبح بلدة منعزلة عن الدنيا تعيش في زوايا الظلام وتحت أقبية القرون الوسطى.

حتى إذا جنحت شمس المغول إلى الأفول تلقف كرسي الحكم الشيخ حسن الكبير وهو السلطان الجائر الأول الذي قيّد بغداد واحتكرها لبنيه وأحفاده طيلة ثلاث وسبعين سنة تخللها ارهاب بشع صبه على جبين المدينة الزاهرة جلاوزة تيمورلنك صباً. وفي غضون سبع وخمسين سنة عاث رجال الخروف الأسود (قره قوينلو) في سواد بغداد فساداً حتى إذا انحدر بهم مصيرهم الأسود إلى الفناء ظهر خروف جديد ولكنه أبيض ـ حسب تعبير الأستاذ المؤلف ـ وعرف باسم آق قوينلو لا يعرف من أمر الحكم غير لغة السيف، فجال وصال في مناحي بغداد وهدم معالم العلم فيها، واغمد السيف في رجالها. ثم انقرضت دولة الخروف الأبيض بعد أربعين عاماً لتشهد بغداد بعينيها المتعبتين جموع الصفويين وعلى راسهم الشعوبي الحاقد (لاله حسين) يجتاح مدينة السلام، كان ذلك سنة ٩١٤هـ = ١٥٠٨م ولكن العثمانيين أجهزوا عليه سنة ٩٤٠هـ = ١٥٣٤م بقيادة الوالي العثماني سليمان باشا أول الولاة العثمانيين الأتراك، وعلى يده صارت بغداد ولاية عثمانية.

ولكن الكتاب يبقى، بعد ذلك، اضافة كريمة وجهداً طيباً يؤكد على نجاح الأستاذ المؤلف في كتاباته المعجمية والطريقة التي اختطها لنفسه.

نيابة بيت المقدس
في العصر المملوكي

د. يوسف غوانمة
كلية الآداب ـ جامعة اليرموك.
د. شحادة علي الناطور

صدر حديثاً عن دار الحياة في الزرقاء كتاب «تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي» للدكتور يوسف غوانمـه، والكتاب من حيث الكم يقع في ٢١٣ صفحة من الحجم المتـوسط، ومعدل كـل صفحة عشرين سطراً. وهو جيد الطبع، ذو غلاف ملوّن هو عبارة عن صورة لأحد الأمـاكن التي تمثل العمـارة الاسلاميـة في ذلك العهد.

يحتـوي الكتـاب خمسـة فصـول، تنـاول في الفصـل الأول: تأسيس نيابة بيت المقدس، ودار النيـابة، وقـد ركز البـاحث على ابراز أهمية تـاريخ القـدس في تاريخنـا الوسيط، وتمثـل ذلك في تصـديه للقضيـة السابقـة بروح علمية، معتمداً عـلى الـوثـائق الدامغة بروح علمية، وخلص بـأن بيت المقدس كـانت فيه نيـابة مستقلة كغيره (ص ١٦)، وليس كما يزعم بعض المستشرقـين من أنهـا كانت مهملـة، فلم تلق الاهتمام والعنـاية الكـافيـة في ذلـك العصر (ص ٢١).

وقد استطاع البـاحث ـ بعد البحث والتقصي ـ تحـديد مـوقع دار النيابة، وذلك في الزاوية الشمالية الغربيـة من سور المسجـد الأقصى (ص ٢٢).

وتحدث الفصل الثاني عن الوظائف المتعددة في النيـابة، وقـد قسم الباحث هذه الوظائف إلى عسكرية ودينية وديوانية، وأخيراً الولايات التابعة للنيابة. (ص ٢٩ ـ ٦٦).

ويشمـل الفصل الثـالث الحياة الاقتصـادية في النيـابـة، من زراعـة وتجارة، ومكـاييل وأوزان وسكّـه، وأخـذ البـاحث بعـين الاعتبار الموارد المالية للنيابة وكذلك الأوقـاف واتفق الباحث مـع الـدكتور الـدوري بأن البـويهيـين هم الـذين بـدأوا بـالإقطـاع العسكري واستمر ذلك حتى عهد المماليك، إلا أنـه أضاف بـأن الإقطاع لم يكن وراثياً، وإنما محدّد بمـوت صاحبـه أو الانتزاع منه.

واستعرض الباحث المحـاصيل المتنـوعة، والطـرق الزراعيـة، والأسواق والأبنية والصناعات المتعـددة، ووسـائـل النقل وأدوات الكيل والوزن (ص ٩٥) والسكه (ص ٩٧).

وخصص الفصـل الرابـع للحـديث عن النشـاط السكـاني والمؤسسـات الاجتماعيـة في النيابـة وتناول فيـه ديمـوغـرافيـة السكان، فبحث سكان المدينة المقـدسة، وحـدد سكانهـا، واشار عدة مرات إلى التخلخل السكاني في المدينة، وعلّـل ذلك بـأسباب عدة، كالظـروف السياسيـة والحربيـة نتيجة الغـزوات الصليبية (ص ١١٦)، هـذا إلى جـانب الأوبئـة وبخـاصـة الطـاعـون (ص ١١٧)، والقحط والجفاف.

والمبحث الثاني في هذا الفصـل عناصر السكـان، من مسلمين ونصـارى ويهـود، وقـد أشـار البـاحث إلى أن عـدد اليهـود في فلسطين، كان نادراً، وأنه لم يكن هناك أحد في المـدينة المقـدسة. كما حظي نصارى النيابة لديه بـاهتمام خـاص، فاهتم بـأصلهم وعددهم، وبخاصة العرب منهم، فرأى أنهم كانوا يعاملون معاملة خاصة، بحيث أعفوا من الضرائب والمصادرات اكراماً لتعـاونهم وإخلاصهم (ص ١٢٥).

ثم يتركنا الباحث ليحدثنـا عن الحجاج من كـافة الطـوائف، والاحتفالات في المواسم والأعياد (ص ١٢٦) وينهي هذا الفصـل بالحديث عن طبيعة المدينة، فيعدد الحـارات والشوارع والـدور، والحوانيت والأسواق، وأخيراً أبواب المدينة السبعة (ص ١٣٠).

ونالت المؤسسات الاجتماعية حظها في الكتاب، فتحدث المؤلف عن تأسيس البيمارستانات (المستشفيات)، والمهمات التي كـانت تؤديها في المدينة، والحمامات وما كان يستفاد منهـا من النـاحيـة الاجتماعية إلى جانب النظافة.

أما الفصل الخامس والأخير، فقد أفرده البـاحث للحديث عن

الحياة العلمية، فذكر ازدهار الحركة العلمية في القدس بتلك الحقبة. وقد مهّد لها بالحديث عن رواد الفكر منذ الفتح الإسلامي للمدينة حتى العصر المملوكي، وأشار إلى التأثيرات التي أصيبت بها المدينة خلال العقود المختلفة سلباً أو ايجاباً، ولاحظ الكاتب أن المدينة كانت أحد مراكز الإشعاع العلمي والفكري والحضاري في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ = ١٢٥٨ (ص ١٤٥).

ونالت المدارس اهتماماً في النيابة، وأثبت الباحث حقيقة رائدة حول سبق بلاد الشام في تأسيس المدارس النظامية (ص ١٤١ - ١٥١).

وتناولت الدراسة المدارس ومؤسسيها، فحدّثنا المؤلف بإسهاب عن ثلاث وثلاثين مدرسة وحدد أماكنها وعيّن مواقعها، كما اكتفى بذكر ست مدارس وعشرين زاوية ودار كانت لتعليم العلوم الدينية فقط.

وأثرى الباحث الكتاب بعشرة ملاحق (ص ١٨٤ - ١٩٥)، وتناولت مضامين متعددة كتعيين الولاة والأمراء، والوقف... وغيرها، وكذلك اشتمل على ثمان وعشرين صورة لأماكن متعددة، ومخطط لدار النقابة ومدينة القدس.

أما الأخطاء المطبعية، فهي نادرة، فقد بلغت ست كلمات موزعة (ص ٤٥، ٤٦، ١١٧، ١١٨، ١٤٥، صورة ١٥).

هذا ولا بد من الإشارة إلى أهمية هذا الكتاب وإلى الجهود التي بذلها الباحث والتي تتمثل في اطلاعه على اثنتي عشرة مخطوطة في القدس (١)، والقاهرة (٦) والاسكندرية (٣)، وبرنستون (٢)، وكذلك استفادة الدراسة من وثائق المتحف الاسلامي في القدس والبالغة حوالى ثمانمائة (٨٠٠) وثيقة، كل ذلك بجانب اثنين وسبعين مصدراً وأربعة وخمسين مرجعاً بالعربية واثنين وسبعين مصدراً بالانجليزية (ص ١٩٨).

ولم يكتف الدكتور غوانمه بسعة اطلاعه، وإنما زار القدس (صيف ١٩٨٠)، وقام بدراسة ميدانية جعلته يجمع بين النظرية والواقعية.

لقد مكنت المعطيات السابقة، وقدرة الباحث في السيطرة عليها، بجانب دأبه المستمر وصبره من القاء الأضواء على المسميات فتوصل إلى نتائج تاريخية قيمة ولأول مرة، نجملها فيما يلي:

١) دحض الباحث آراء المستشرقين وأثبت أهمية المدينة لدى المسلمين في العصور كافة بإبراز المدينة ونيابتها (ص ٢١)، والدراسة هي أول دراسة مستقلة حول الموضوع.

٢) أثبتت الدراسة عدم وجود أي يهودي في القدس في منتصف القرن السادس الهجري (١٢ ميلادي).

٣) توصل الباحث إلى أن بلاد الشام قد سبقت المشرق الاسلامي (نيسابور) بقرن من الزمن بإيجاد المدارس النظامية في القرن الرابع الهجري (ص ١٥٠).

إن هذه الدراسة للكتاب لا تغني عن قراءة هذا السفر الثمين الذي نقلنا فيه الباحث إلى العصر المملوكي، وقد همس المؤلف بين صفحات الكتاب برؤيا تاريخية حتمية حول موضوع القدس الحالي.

وإني، وإن كنت أوصي وبكل أمانة بضرورة قراءة هذا الكتاب، فإنني أتطلع إلى أبحاث جادة للدكتور غوانمة.

رسائل الماجستير في التاريخ والآثار(*)

(*) نوقشت مؤخراً في الجامعات العراقية، وقد عرضها ادمحمد باقر الحسيني.

رسالة: قصر المعشوق في سامراء الأثرية

للطالب: عباس فاضل عبد العبيدي

قصر المعشوق من القصور الضخمة التي بنيت في سامراء من قبل الخلفاء الثمانية الذين حكموها كعاصمة للدولة الاسلامية وكان آخرها هذا القصر المعشوق الذي بناه الخليفة المعتمد على الله ما بين عام ٢٦٣ و٢٦٩ هجرية. وقد أوضح الطالب في رسالته المشرفين على بنائه والأثر الكبير لطبوغرافية الموقع على بناء القصر على مصطبة ضخمة، وكذلك معرفة واستظهار مخطط القصر الكامل وابعاده الدقيقة، كما انفرد الطالب بدراسة القيم العمارية المختلفة لكثير من القصور التي سبقت المعشوق عن طريق مقارنة عناصرها المعمارية سواء كان ذلك في الشكل العام أو في تفاصيله الداخلية والخارجية حتى تلك المداخل المتميزة التي جمعت في تصميمها بين شكل اللولب أو الحلزون والشكل المنحني فضلاً عن استخدام مادة اللبن الجصي بصفتها مادة بنائية رئيسية كونت نسبة كبيرة من مواد بناء القصر، كما أوضح الطالب أن التقسيم الداخلي الشائع هو التقسيم الثلاثي وخلو القصر من نظام الدواوين، هذا النظام العراقي المتميز الذي اصطلح على تسميته بعض الباحثين بالنظام الحيري حيث لم يتسنّ له العثور على مثل هذا النظام سوى في جزء صغير بين أقسام القصر الكبير. هذه الدراسة تمّت بعد تقسيم البحث إلى خمسة فصول، شمل الفصل الأول مبحثين، تناول الأول الأسباب التي دعت الخليفة المعتمد على الله إلى بناء قصر المعشوق لإعطاء فكرة واضحة عن طبيعة البناء والغرض من انشائه فضلاً عن تعدّد الآراء وتضاربها حول السبب في بنائه، كما تعرف الطالب على المشرفين على البناء وتوصل في المبحث الثاني إلى تاريخ يكاد يكون دقيقاً (حسب قوله) لبناء القصر فضلاً عن التعرف على طبوغرافية الموقع وأثرها على تصميمه.

والفصل الثاني خصص لتتبع الحفائر الأثرية التي جرت في قصر المعشوق ابتداءً من عام ١٩٠٨م من المهندس فيوله وتنقيبات البعثة الألمانية التي توصلت إلى نتائج دفعت دائرة الآثار والتراث إلى الاهتمام به والكشف عن مخططه الكامل كما هو عليه الحال في الوقت الحاضر وتمكن الباحث من اعداد مخطط جديد للقصر مستعيناً بمخطط الدائرة أعلاه.

وفي الفصل الثالث كانت التفاصيل المعمارية للقصر حيث قسمه إلى خمسة مباحث: الأول منها لدراسة سور القصر الخارجي والخندق وتوصل الطالب إلى نتيجة مهمة مفادها الشك الكبير في وجود هذين العنصرين في القصر. وخصص المبحث الثاني للحديث عن جدران القصر والتي جرى التركيز فيها على الجدران الخارجية للقصر، وفي المبحث الثالث تناول الطالب مداخل القصر الخارجية للأهمية البالغة التي تحتلها في تصميم القصر، وكانت بحق واحدة من الأمور أو العناصر المعمارية التي انفرد بها قصر المعشوق، أما المبحث الرابع فقد خصصه لدراسة الأقسام الداخلية، وجرى التركيز فيه على العناصر المهمة التي ضمها القصر كالفناء الرئيسي المكشوف والوظائف العديدة والمهمة التي يؤديها فضلاً عن القاعة الرئيسية المربعة ذات الأربعة مداخل ومن ثم الأجنحة السكنية التي ضمها قصر المعشوق فضلاً عن الممرات المخفية الموجودة في جانبي القصر الشرقي والغربي، أما المبحث الأخير فكان عن مواد البناء الرئيسية المستخدمة في القصر ولاسيما مادة اللبن الجصي والتي حاول الطالب من خلالها التوصل (كما يقول) إلى تاريخ تقريبي لاكتشافه.

أما الفصل الرابع فقد خصص للتعرف على الزخارف الجصية التي زينت القصر والطرق المتبعة في تنفيذها ولم يستطع الطالب التعمق (كما يقول) فيها لقلة القطع الزخرفية التي تم العثور عليها بسبب الخراب الكبير الذي أصاب القصر.

وكان نهاية الفصول هو الخامس وهو دراسة مقارنة للعناصر المعمارية والتخطيطية للقصر مع غيره من القصور التي سبقته، وصولاً إلى الأصول التي تأثر بها والعناصر التي انفرد بها وحده.

الرسالة الموسومة (الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي)

للسيد محمد حسين سلامة محاسنة

تأثرت الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام خلال العصر الأموي بالحياة السياسية والظروف الطبيعية واتجه خلفاء بني أمية بعد توقف حركات التحرير والفتح واستقرار الدولة العربية الى تشجيع النشاط الاقتصادي والاهتمام بالزراعة والصناعة، فتغيرت نظرة العرب للزراعة عما كانت عليه من قبل وأقبلوا على التملك والعمل بالأرض، وزاد اهتمامهم بإقامة مشاريع الري، فحفروا الأنهار وشقوا القنوات وقاموا ببناء السدود وعمل الحواجز المائية من أجل توفير المياه اللازمة لري الأراضي الزراعية مما درَّ على الناس خيرات زراعية وفيرة. وأدخلت إلى بلاد الشام أصناف متعددة من المزروعات وتم تشجيع استثمار الأرض والعمل الزراعي، وصارت بلاد الشام مليئة بالضياع والجنائن التي تحتوي على ضروب من الأشجار وأصناف كثيرة من الثمار.

كما انتشرت المصانع في بلاد الشام فملأت المدن وشكل أصحاب الصناعات والحرف أحياء خاصة بهم وأصبحت الشام ومدنها مضرب المثل في انتاج أفخر الأثاث وأنفس المنسوجات وأجودها حتى لتجد الكثير منها وانواع الثياب الفاخرة ما ينسب إلى المدن الشامية، فصارت هذه الأسماء تدل دلالة واضحة على جودة المصنوعات التي تحمل هذه الأسماء. وما أسماء (الدمقس) و (الانبجاني) إلّا أمثلة واضحة لذلك، كما نسبت إليها السيوف المشرفية المتقنة الصنع، وراجت فيها صناعة العطور لكثرة ما اشتملت عليه حدائقها وبساتينها من ضروب الورد والرياحين الجميلة التي تغنى بها كثير من الشعراء والأدباء.

وكان للأسطول البحري العربي الذي أنشىء في موانىء بلاد الشام دور بارز فيما بعد في الميدانين العسكري والاقتصادي.

وشجع الأمويون التجارة بشق الطرق وحماية القوافل التجارية وتوفير الأمن في الداخل، وتزويد الطرق بمحطات الاستراحة، وكل ما يحتاج إليه المسافر خلال رحلاته وأسفاره، وصارت دمشق ملتقى التجار يؤمونها من كل حدب وصوب ويحملون إليها أجود البضائع وأنفسها.

واشترك السكان بالنشاط الاقتصادي، فكثرت الأموال وزادت الخيرات خصوصاً مع كثرة ما كان يصل إلى دمشق من الأموال التي ترسلها اقاليم الدولة العربية الاسلامية من موارد الخراج، فكان كل أقليم يبعث إلى دمشق حصة من وارداته إلى بيت المال المركزي، وكان لذلك أثر كبير في دفع حركة النشاط الاقتصادي في بلاد الشام إلى الأمام، وأثر تأثيراً ملموساً في زيادة الدخل وارتفاع مستوى المعيشة، وانعكس ذلك على حياة الناس العامة والخاصة وعاشوا يتمتعون بمباهج الدنيا ونعيمها، وتأثروا بالشعوب الأخرى في المأكل والمشرب والملبس خاصة تلك الفئة التي زاد دخلها، فأصبحت تقتني أفخر الملابس وأجودها، كما اهتمت ببناء القصور الشامخة وأنفقت الأموال الكثيرة في هذا المجال، فانتشرت قصورهم في المدن والبوادي وأحضروا لها أمهر البنّائين وأقدر الرسامين من مختلف البلاد، ولا يزال بعض هذه القصور شاهداً على ذلك إلى اليوم بصور حياة الرخاء والترف الذي كانوا يعيشونه.

وانفق الأمويون الأموال في بناء المساجد أيضاً فوازنوا بين مطالب الحياة الدينية والدنيوية، فكانت الجوامع التي أشادها الأمويون دليلاً واضحاً في حرصهم على التمسك بأمور الدِّين ورغبتهم في أن تصطبغ الدولة العربية بصبغة اسلامية، وقد أنفق الأمويون الأموال الطائلة في أمور أثرت على حياة الناس ولم يتحقق الاستقلال الاقتصادي الا في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وقد مكّن هذا التطور الأمويين من أن يجدّدوا نفوذهم وأصبحت الدولة العربية في عهدهم ذات قوة ومنعة وسطوة فتحقق بعد ذلك الرفاه الاجتماعي والتقدم العلمي وانعكس ذلك بدوره على الأحوال الاقتصادية وتم بناء قوة عسكرية أتمت حركة الفتح التي بدأها الراشدون.

كـان هذا الاستنتـاج من الباحث في رسـالته نتيجـة دراسته الأكاديمية وبعد أن قسم البحث إلى خمسة فصول. فكان الفصل الأول عن جغـرافية بـلاد الشام بـدأ من تعريفـه حدود المنطقـة وطبيعتهـا الجغرافيـة كما عـرفها الأقـدمون، ثم دراسـة توزيـع السكان وحالة المياه التي تشكل عاملاً أساسياً للزراعـة ولحياة كل مجتمع من المجتمعات.

وفي الفصل الثاني دراسة للنشاط الزراعي وحديث عن ملكيـة الأراضي الزراعية وأنواعها من أراضي الخراج والأراضي العشرية وأراضي الموات والصوافي.

أمـا الفصـل الثـالث فكـان عن أسـاليب الـزراعـة المتبعـة والمحاصيل الـزراعية التي كـانت تجود زراعتهـا في بلاد الشـام ومناطق زراعتها، ثم الإشارة إلى أهم الأدوات الزراعية المستعملة ووسائل الري التي كانت مستخدمة في بلاد الشام آنذاك.

وكـان الفصل الثـالث عن النشاط الصنـاعي، وأهمية العمـل والتخصص اضـافـة إلى الصنـائـع والحـرف وأهم الصنـاع والحرفيين، ثم ما هو دور الـدولة الأمـوية في النشـاط الصناعي، وإشرافها على الحرف الصناعية المختلفة ومراقبتها مراقبة دقيقة بحيث أبعـد عنهـا احتمـال الغش، ثـم أشـار البـاحث لأهـم الصنـاعات الشـامية كصنـاعـة النسيـج والملابس وصنـاعـة الأخشاب والسفن والصناعات المعدنية والغذائية وغيرها.

وخصص الفصل الرابع لدراسة النشاط التجـاري، فكان عن أصناف التجار ومعـاملاتهم وعـوامل تطـور التجارة ومـا قدمتـه الدولة الأموية من خدمات لتنشيط الحركة التجارية، وكـذلك عن دور الأسـواق في النشاط التجـاري، ثم دور الحسبـة والمحتسب فضلاً عن الحديث عن التجـارة الداخليـة والخارجيـة. والفصل الخامس كان عن الموارد الماليـة والنفقات فكـان مركّـزاً على بيت المال وتطوره وأهم موارد بيت المال من الخراج والجزيـة والغنائم والضرائب الأخـرى، والوجـوه التي تنفق عليها دولـة الخـلافـة الأموية من بيت المال المركزي بدمشق.

وقـد أشار البـاحث في مقدمتـه إلى أن هذه الـدراسة لم تكن سهلة وقد واجه بها بعض الصعوبة لكـون المادة كـانت متناثـرة هنـا وهنـاك فكـان لا بـد لـه من البحث والتنقيب للـوصـول إلى الهدف.

شملت هذه الرسالة (٢٨١) صفحة مع ملحق مختصر بـاللغة الانكليـزية بصفحتـين، وقد أرخت في رمضـان ١٤٠٦هـ/ أيـار ١٩٨٦م.

الرسالة الموسومة
(المسكوكات الحمدانية)

للسيدة ايمان عدنان العزاوي

بدءاً أشير إلى أهمية المسكوكات العربيـة كونهـا تعد من أهم المصادر وادقها في اعادة كتابة التاريخ كونهـا لا تقبل الخطـأ في نصوصها لأنها تصدر من جهة رسمية، ولو حصل ذلـك لانعكس على أصحابها وتسقط هيبتهم وبالتـالي سلطانهم في الحكم لـذا لا يمكن الطعن بهذه النقود بسهولة إذا صحت أثريتها.

وأهمية المسكوكات تبرز في كونها أحد أركان الـدولة، وشـارة من شاراتها وعنـوان مجدهـا. تتصل بـاقتصاديـاتها وتشريعهـا وسائر أوضاعها وعلاقاتها بالـدول المجاورة والمعـاصرة لها، فهي تميط اللثام عن قضايا كثيرة وتعـد صفحة كـاشفة عن حكـومات الدول المتعاقبة لا يستغنى عنها في تأريخ حياة الدولـة وفي تعيين ميـزانيتها ولـو على وجـه التقريب. فهي وسيلـة المعرفـة ذلك ان الميزانيات غير مدوّنة في الغالب والإحصـاءات مفقودة نـوعاً مـا. وهنـاك مجاهيـل عـديـدة تتعلق بـالمـال، والنتف القليلـة لا تفي بالغرض، فالمسكوكات تقوم بقسط كبـير من المهمة التـاريخية في كشف هذه الخفايا وتعد من المصادر المهمة بل من أجلّها.

وقد يعتقد البعض أن المسكوكات منذ ظهورهـا اقتصر ضربها على التعامل والتبادل التجاري، ولم يتجاوز ذلك الضرب بأي حال من الأحوال إلى اغراض أخرى، إلا أن الدراسات العلمية أثبتت أن للنقود دوراً آخر لا يقل أهمية عن الدور التجاري وهـو الدور الإعـلامي حيث كان دور هـذا النوع من النقـود شبيهاً بـالـدور الذي تلعبه الصحافة والاذاعة والتلفزيـون والمؤتمرات في الـوقت الحاضر.

وقد يعتقد البعض الآخـر أن المسكوكـات اقتصر ضربها عـلى التبادل التجاري والاعـلامي فحسب، في الوقت الـذي تعد هـذه المسكوكات مدرسة للتصوير في مراحلها المختلفـة ومدرسـة للخط العربي وتطوره بأنواعه، ومدرسـة للعناصر الـزخرفية بـأنـواعها (الهندسية والفلكية والنباتيـة والحيوانيـة والأدبية) ولا ننس مـا تضم دراسة المسكوكات من كنى والقاب ومـدن ضرب وشعارات تستوعب كل منها معجماً خاصاً بها وتسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية، ويمكن القول باختصار إن المسكوكات تمثل وحدة علمية تضم بـين جوانحهـا مختلف علوم المعـرفة ولا يستغنى عنهـا في إبراز حضارتنا وكتابة تاريخنا بصدق وأمانة.

وبعد هذا العرض السريع أشـير إلى أن المتخصصين في هـذا الميدان (المسكوكات العربية) قلة لا في العالم العربي والاسـلامي فحسب بل في العالم أجمع حيث لا يتجاوز عـددهم أصابـع اليد الـواحدة لأسباب ربما تتعلق بصعـوبة الخـوض فيه ومتـابعته وصغر حجمه اضافة إلى قلة المشرفين عليه.

أقول في رسالة الباحثة عن المسكوكـات الحمدانيـة نتائـج قد توصلت إليها بعد جهد كبير منها أن فلسطين والكوفـة كانتـا من المدن التابعة للحمدانيين لعثورها على مسكوكات ضربت في هـاتين المدينتين، وهو ما لم تذكره المراجع، كمـا أكدت أن سيف الـدولة الحمـداني دخل حلب عـام (٣٣٢هـ) وليس بتـاريـخ (٣٣٣هـ) الذي أشارت إليه المراجع، اضافة إلى ظهور مسكوكات حمـدانية ضربت لأول مرة في مدن (القلعـة وبيزنطية وخزانـة ابي تغلب). والباحثة أشارت أنها قامت بدراسة (٤١٣) مسكوكة، (٩٠) منها ذهبية وهي دنانـير و (٢٢٣) فضية وهي دراهم و (٩) نحـاسية وهي فلوس. ومن هذا المجموع الكلي (٣٠٠) مسكـوكة محفـوظة في المتحف العـراقي والبـاقي مـوزعـة في متـاحف القطـر وبقيـة البلدان العربية.

لقد قسم البحث إلى خمسة فصول تناول الفصل الأول تاريـخ الحمدانيين منذ بدايـة ظهورهم عـلى مسرح الحوادث السيـاسية والإدارية والتي لعبها العديد من القادة الحمدانيـين في الوقـوف ضد الغزو الاعجمي، كمـا ورد فيه عن الامـارة الحمـدانيـة في حلب.

والفصل الثاني كان عن المسكوكات قبل العصر الحمداني بدءاً من قبل الاسلام مروراً في صدر الإسلام والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وصولاً إلى الدولة الحمدانية.

أما الفصل الثالث فكان يضم دراسة تفصيلية للدينار الحمداني وعدد الطرز والقوالب لكل سنة من سنوات ضرب الدنانير الحمدانية.

وفي الفصل الرابع تفاصيل عن الدرهم الحمداني من ناحية الطرز والقوالب أيضاً.

والفصل الخامس كان عن مدن ضرب الدولة الحمدانية، حيث ظهرت لها العديد من المدن الجديدة، كما أوضحت هذه المدن مدى نفوذ الحمدانيين ووصولهم إلى أماكن بعيدة.

وفي الرسالة جدولان **الأول** عن مدن الضرب، **والثاني** عن السنوات التي ضربت فيها هذه المسكوكات. والرسالة مكونة من (٣٤٩) صفحة و (٤٢) صفحة لصورة المسكوكات المدروسة، إضافة إلى ملحق ملخص باللغة الانكليزية بثلاث صفحات.

الرسالة الموسومة (اتجاهات الكتابة التاريخية في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري)

للآنسة ضمياء محمد عباس السامرائي

يتميز القرن الثامن الهجري بأنه القرن الأكثر تداعياً في حياة الأمة العربية بعد أن نجح المغول في احتلال بغداد وتهديد بلاد الشام ومصر. وهو أمر رافق بدء انتقال أوروبا إلى مرحلة تاريخية جديدة. مع ما ورثت الأمة من اختراقات للعناصر الأجنبية وهي عوامل أضيفت إلى تدني الوعي الاجتماعي لتسهم في شيوع حالة من التخلف والجهل والبدع والانقسامات المذهبية والطائفية.

وتكتسب بلاد الشام أهمية خاصة في هذا القرن لأنها أصبحت مركزاً للصراع بين المغول والافرنج من جهة وبين المماليك من جهة أخرى وزاد من أهميتها تضاؤل دور بغداد مركز الثقافة القائد، بعد احتلالها من قبل المغول وهجرة معظم علمائها واستقرارهم في دمشق أو القاهرة أو مكة وبقية المدن العربية.

وتكتسب الكتابة في الثقافة عموماً وموقع التاريخ منها بشكل خاص، أهمية ذات أرجحية لدور المثقفين في حياة الأمة ودور المؤرخ بشكل خاص في تسجيل هذه الحياة ومتابعة ظواهرها وتطوراتها ولمعرفة تطور الكتابة التاريخية وما حدث من تغيير في اتجاهاتها وأساليبها فضلاً عن أن الفكر التاريخي في هذا العصر شكل عاملاً مهماً في طرد الاحتلال وتعزيز وحدة الأمة بعد اعتماده مادة أساسية في التربية، وعامل وعي في التميز عن المحتل.

وانطلاقاً من تقديرها لقيمة المرحلة التاريخية والكتابة التاريخية منها بشكل خاص موضوع دراستها حددتها في نطاق الدراسات الفكرية التي تتصدى لدراسة ثقافة قرن بكامله وبشكل أكثر تحديداً، التاريخ وموقعه في الحركة الثقافية، أي أن الدراسة تتناول الفكر وتأريخه بشكل عام والفكر التاريخي بشكل خاص، وهي مسألة مهمة وجديرة بالبحث (فالفكر في حد ذاته قوة تأريخية) إذن يفترض أن نقف على طبيعته لكي نحدد موقعه في عصره ودوره في صنع وتوجيه أحداث العصر لا سيما وأن التاريخ يمثل أحد المكونات المهمة في الثقافة العربية الاسلامية، فضلاً عن قلة الدراسات العلمية التي تناولت الفترة بنظرة شمولية دقيقة وعلى مدى القرن الثامن بأكمله حيث اقتصرت الدراسات التي سبقت دراستي على فترة زمنية محددة بعصر سياسي أو تناولت التاريخ ضمن دراستها للحركة الفكرية بشكل عام مثل دراسة عبد اللطيف حمزة الموسومة (الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي) ودراسة محمود رزق سليم (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي) و (دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ـ المصادر التاريخية) لأحمد أحمد عبد الرزاق (تناول السنوات ٦٩٤ و٦٩٩ و٧٠٥هـ) وأجد أن توفي الباحثة تلك الدراسات بما كتبه عبد علي الطويل في رسالته الموسومة (المؤرخون الدمشقيون في عهد عبد الناصر محمد بن قلاوون) وقد تناولت الباحثة بالدراسة النصف الأول من القرن الثامن الهجري (١٤م) كما أن هناك بعض الدراسات التي تناولت مؤرخي القرن الثامن ضمن دراستها للمؤرخين والكتابة التاريخية بشكل عام في دمشق وغيرها منها دراسة صلاح الدين المنجد الموسومة (المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن ٣هـ إلى القرن ١٠هـ) ودراسة صلاح مدني الموسومة (النصوص التاريخية المحللة بين القرنين الثاني والعاشر الهجري) و (التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان) لعباس العزاوي، ولا يمكن أن نستثني من تلك الدراسات إن لم تكن من أهمها كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) لفرانز روزنتال، رغم أن محور الكتاب لم يتناول الكتابة التاريخية في القرن الثامن، إلا أنه من خلال دراسته لتطور التاريخ والكتابة

التاريخية تناول هذا القرن بكثير من العمق حتى كان في أولوية المراجع التي اعتمدت عليها الباحثة في الفصل الرابع.

وتقول الباحثة انها واجهتها عدة مشكلات أثناء إعدادها لهذه الرسالة في مقدمتها امتداد البحث على مساحة مكانية وزمانية واسعة شملت بلاد الشام في القرن الثامن الهجري (١٤م) وهي فترة طويلة نسبياً بحكم التفاصيل الدقيقة للأحداث والأفكار التي تتطلب مناقشتها والوقوف عندها فضلاً عن الصعوبة في الدراسات الفكرية ذات الطابع التاريخي التي لا يمكن اقتطاع فترة زمنية ودراستها بشكل علمي دون العودة إلى امتداد الفكرة ودراسة عمقها التاريخي، لأن الثقافة هي عملية تراكم للخبرات والمعارف والأفكار والمنجزات المادية للإنسان لذا كانت العودة في كثير من الأحيان إلى الفكرة وامتدادها الزمني وتبلورها في هذا القرن صعوبة بالغة التعقيد والجهد فضلاً عن دراسة مثقفين ومؤرخين خارج نطاق القرن الثامن وبلاد الشام اقتضته ضرورة البحث (كما أشارت الطالبة) غير أن الصعوبة الأكبر تعقيداً تحددت في أن أغلب المصادر التي تناولت هذه الفترة إما مفقودة أو مخطوطة اصلاً وموزعة في مكتبات خارج القطر، وأصل المشكلة طبيعة العلاقات بين المكتبات العربية وقصور تعليمات الدراسات العليا عن النهوض بدراسة عليا حقيقية، أو تسهيل مهمة تأمين مصادرها (لا يزال الكلام للباحثة) لذا فإن ماحصلنا عليه منها يُعد أقل من القليل بالنسبة لما نطمح إليه.

أما المنهج الذي اعتمدته الباحثة في بناء الرسالة فهو المنهج القومي في كتابة التاريخ الذي يرى في التاريخ زمن الأمة العربية التاريخي الذي شهد رسالتها واستمراريتها وتواصلها، لذلك لم أنظر للموضوع (كما تقول) نظرة جزئية يوحي بها العصر الذي ساده الإحتلال ومحصلته التجزئة، انما نظرت له نظرة قومية شاملة تعي أن التجزئة حالة طارئة تجسد منهج البحث في دراسة الثقافة في الوطن العربي في القرن الثامن ومراكزها وصانعيها ومشكلاتها ضمن دراسة الأوضاع العامة وقد عبرت الباحثة عن استيعابها لها في دراسة أوضاع بلاد الشام التي كانت جزءاً مقتطعاً من ذلك الاستيعاب، بعد أن وجدت وحدة الثقافة ومشكلاتها، واستطاعت أن تقول في البحث ان الحديث عن بلاد الشام ينسحب على الوطن العربي مع بعض الفوارق البسيطة في التفاصيل، وقد فرضت على هذه المنهجية طريقة تحليلية للوصول إلى الحقائق الموضوعية (بضوء التصور العلمي الثوري الذي يستقرىء الأحداث ويفهمها) والذي يقوم على نظرة ترفض الاصطناع انما تتطلع إلى التاريخ من الداخل لكي لا تتحول إلى نظرة وضعية بل إلى نظرة متفاعلة مستوعبة متمثلة.

وقد اعتمدت الباحثة بشكل أساسي في بناء الرسالة على جملة من المصادر التي تناولت هذه الفترة مؤكدة بعض المصادر التاريخية لاسيما تلك التي يدخل مؤرخوها ضمن محور البحث مشروع الدراسة، وقد تناولتها بشيء من التركيز بما قدمته من مادة تاريخية تختص بالقرن الثامن أولاً ومنهجية المؤرخ ثانياً منها كتب الذهبي والحسيني في (ذيل العبر) والصفدي في (الوافي بالوفيات) وابن كثير في (البداية والنهاية) وابن رافع السلامي في (الوفيات) فضلاً عن مجموعة أخرى من المصادر اغنت الباحثة في موضوع الدراسة منها معظم ما كتبه ابن تيمية، خاصة رسائله وفتاواه. وتقول (الباحثة) وقد لازمها ابن خلدون مع (المقدمة) في معظم فصول الرسالة وكذلك المقريزي في (اغاثة الأمة في كشف النعمة) و (السلوك لمعرفة دُول الملوك) و (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ويحتل ابن حجر مكان الصدارة في المصادر التي اعتمدت عليها الباحثة والتي غطت القرن الثامن بأكمله خاصة كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) وبشيء اقل (أنباء الغمر بأنباء العمر) والمؤلف قدم بنظرة شمولية حركة علماء القرن الثامن وأعيانه ومختلف النشاطات الثقافية عبر رصده لمؤسساته الثقافية وفعاليات علمائه. وفي هذا الموضوع (المؤسسات الثقافية) كان اعتمادنا على كتاب (الدارس في أخبار المدارس) لعبد القادر النعيمي لما يتعلق بدمشق وابن الشحنة في (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) بالنسبة لمدينة حلب، وفيما يتعلق بالتاريخ والكتابة التاريخية كان السخاوي في (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) خير منهل لها.

وقد عولت الباحثة على بعض الدراسات المعاصرة منها معظم ما كتبه د. سعيد عبد الفتاح عاشور في دراسات حول الحروب الصليبية والمجتمع الشامي والمصري وعصر المماليك في مصر وبلاد الشام، واستنفدت الباحثة ما كتبه (فرانز روزنتال) في (علم التاريخ عند المسلمين) ود. شاكر مصطفى في (التاريخ العربي والمؤرخون...) حول التاريخ والكتابة التاريخية.

وقد انقسمت الرسالة إلى خمسة فصول تناول الفصل الأول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأمة العربية. وقد حاولت الباحثة فيه التركيز على محور بلاد الشام لإبراز اضطراب السياسة الداخلية وتأثير التحديات الأجنبية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية وما خلفته ظروف الاحتلال وتجزئة الأمة من تداعيات في المجتمع ومحاولة خلق بؤرة للصراع داخل الوطن الواحد وتفتيت الوحدة الوطنية بتشجيع الخلافات الطائفية والتي جسدتها حوادث حرق المساجد وهدم الكنائس التي شكلت مؤشرات ملموسة لبواكير النشاطات الاستعمارية التخريبية في المنطقة العربية. وفي المبحث الثاني تناولت الحالة الاجتماعية والاقتصادية في هذا القرن بدراسة التركيب السكاني للمجتمع من حيث توزع القبائل العربية والعناصر غير العربية والأقليات المذهبية والطائفية ثم دراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي شهدت حالة من التذبذب والاضطراب طيلة

القرن بسبب الفتن والحروب وتكرر ظاهرة الغلاء والقحط، وبلوغ الدولة حالة العجز المالي، مما أوجد أنماطاً من العلاقات الاقتصادية فرضتها حاجة العصر منها نظام الاقطاع الذي فرض صيغاً من الاضطهاد والظلم الاجتماعي وارتباك التجارة التي كانت أهم أوجه النشاط الاقتصادي في القرن الثامن.

تناول الفصل الثاني الحالة الثقافية في بلاد الشام من خلال رصد أهم مؤسساتها الثقافية وأوجه نشاطها وطبيعة النظام التعليمي وغاياته وأهدافه، وشكّل المبحث الثاني من الفصل مشاكل العصر الثقافية التي جسدتها الخلافات المذهبية ونشاط حركات الغلو والفرق الصوفية وموقف العلماء منها ودعوتهم لتجاوز الخلافات المذهبية والطائفية لإدراكهم خطورة التحديات التي تواجه الأمة في الخارج والداخل التي استخدمت من الأمة تراثها وفكرها وثقافتها وتجسدت هذه المواقف في رفضهم للعلوم العقلية لاسيما الفلسفة بجذورها اليونانية وما اشاعه التنجيم والفلك من الغيبيات ودعوتهم للتمسك باللغة وصيانتها من التحريف أو التشويه لما دخل عليها من مؤثرات بفعل الاختلاط، لأنها أبرز عناصر الشخصية القومية وأداة الأمة وثقافتها.

أما الفصل الثالث وموضوعه التاريخ والمؤرخون وموقعهم في ثقافة العصر والذي تمحور حوله المؤرخ وطبيعة مكوناته الثقافية وهي مسألة يحددها الاتجاه الثقافي العام واستعداد المؤرخ الذاتي ونشاطه العلمي، فقد تناولت الباحثة موقع التاريخ بين علوم العصر بوصفه جزءاً منها، نما وتطور معها رغم أنه لم يبلغ تلك الاستقلالية التي بلغتها بقية العلوم حتى النصف الثاني من هذا القرن، حيث بدأ يسترعي اهتمام المؤرخين لإدراكهم قيمته وأهميته في تنمية الوعي بالتميّز عن المحتلّ وتعزيز وحدة الأمة واستعادة عمقها الحضاري وهو ادراك يعكس مفهومهم للتاريخ وتحديدهم غاياته ووظيفته باستخدامه استخداماً تربوياً يعكسه مفهوم (العبرة) لأن الماضي لديهم مثّل عالماً اخلاقياً متكاملاً جسدته تجارب رجاله.

وفي الفصل الرابع تناولت الباحثة موضوعات الكتابات التاريخية التي رصدت مختلف الجهود الإنسانية والفكرية التي أفرزتها الحاجات السياسية والاجتماعية والثقافية في ظل واقع انساني متغير سلباً وايجاباً بفعل حدة المتغيرات السياسية والاجتماعية وتنوع اسبابها ونتائجها. وركزت في المبحث الثاني منه على مناهج الكتابة التاريخية التي عبرت عن وحدة الفكر العربي وشموليته وعمقه التاريخي من خلال تواصل مناهج الكتابة التاريخية زماناً ومكاناً والتي لم تشهد تغييراً جذرياً في بلاد الشام عن أي جزء من الوطن العربي وبقيت على نفس الأسس التنظيمية التي استقرت عليها الكتابة التاريخية في القرون الأولى الا ما يخص تبلور منهجية نقدية لدى مؤرخي القرن الثامن برفضهم بعض النصوص كمسلمات نهائية واخضاعها للنقد والتحليل العقلي دون الالتزام بالسند في الرواية وتنامي دور الوثيقة التاريخية في دعم المادة وتوثيقها.

وتضمن الفصل الخامس نظرة تقييمية لتطور الكتابة التاريخية في القرن الثامن الهجري في بلاد الشام وتلك الاستنتاجات الجزئية التي خلص إليها البحث في محاولة لتكوين استنتاج مركزي عام وشامل يحقق غرض الدراسة.

وفي خاتمة شملت نهاية البحث أوردت الباحثة ملخصاً عاماً، فأشارت بأن التحديات الأجنبية تركت تأثيراتها على واقع الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية حيث شهد هذا العصر تغيير أوجه الصراع في المنطقة من حيث كونها مباشرة إلى أساليب غير مباشرة تنسجم ومجمل التطورات العامة، عبرت عنه النشاطات التبشيرية مستغلة الاقليات الطائفية لتحقيق امتدادات استعمارية في المنطقة. وايضاً فقد استهدفت هذه التحديات تفتيت وحدة البناء الاجتماعي والثقافي للأمة عن طريق تغلغل العناصر غير المعروفة واستقرارها وسيطرتها وامتلاكها للسلطة، واخطرها تدخلها في توجيه الثقافة ورجالها باستلابها طاقاتهم واهتماماتهم وتوجيهها لخدمة وتبرير وجود المحتل.

وعلى الرغم من أن بلاد الشام اصبحت مركزاً ثقافياً متميزاً لوجود هذا العدد الكبير من المؤسسات الثقافية والمثقفين الا أن الثقافة بشكل عام كانت تعاني من أزمة سببها طبيعة التحديات الأجنبية التي مارست نشاطاتها بشيء من السرية **أولاً** وتغذيتها لبعض الاتجاهات السلبية في الثقافة. **وثانياً** بتعميقها (الخلافات المذهبية ودعمها لنشاطات الغلاة والفرق الصوفية) والتي تركت آثارها سلبياً على الثقافة بتحويلها العلاقات السياسية والاجتماعية إلى خلافات فكرية. إضافة إلى طبيعة الثقافة ذاتها بسبب انغلاقها وجمودها وانطفاء روح الإبداع فيها واقتصارها على علوم الدين واهمالها العلوم العقلية، لكننا نجد إلى جانب ذلك مواقف خلاقة لعلماء العصر وظفت امكاناتها لطرد الاحتلال وحاولت تجاوز الخلافات والارتقاء بالفكر فوق مستوى تلك الخلافات الجانبية وقدمت نتاجاتهم فكراً دفاعياً أمام محاولات الطمس والتشويه التي تعرضت لها الثقافة، عبرت عن مواقفهم الرافضة للفلسفة ومحاولاتهم المحافظة على اللغة وكيانها وحيويتها رغم جدب مفرداتها بسبب ظروف الاحتلال والتخلف.

وتمثل الاهتمام بالتاريخ لدى مؤرخي العصر بإدراكهم لأهميته في كونه مثّل جانباً متميزاً عن المحتل ووسيلة لبث الوعي وتعزيز الانتماء للأمة واستعادة عمقها الحضاري وهذا يعكس مفهومهم للتاريخ وتقديرهم لقيمته وغايته ووظيفته باستخدامه استخداماً تربوياً يعكسه مفهوم (العبرة).

وأدى تنوع اهتمامات المؤرخين وتوزيع نشاطاتهم ومساهماتهم في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية

والسياسية مكونين حضوراً واعياً ومتفاعلاً مع أحداث العصر ليس على نظرتهم للتاريخ وتقديرهم لأهميته وفاعليته بين علوم العصر بل على تنوع الموضوعات التاريخية ومناهجها وأساليب كتابتها. فلم تخرج الكتابة التاريخية عن الأطر التقليدية التي استقرت عليها أسس الكتابة في القرون الأولى إلا في نطاق محدود من حيث التنظيم، إذ تبلور تنظيم التراجم على القرون وصار نواة فيما بعد لكتاب ابن حجر (الدرر الكامنة) وتحت تأثير ظروف العصر الثقافية والاقتصادية ازداد حجم المختصرات والذيول زيادة كبيرة ولغايات تعليمية بحتة عرف نوعاً من التواريخ المنظومة.

وقد تنامى استخدام بعض الأساليب التنظيمية أكثر من غيرها. فنجد اهتماماً بكتابة التاريخ العام وكتب التراجم محققين من خلالها نوعاً من الإحاطة والشمول بأبعاد الزمان والمكان ومؤكدين فيها على تواصل تجارب الأمة وامتداد خبراتها.

وحققت الاتجاهات النقدية لدى بعض المؤرخين تطوراً نوعياً في مجال الكتابة التاريخية في هذا القرن برفضهم بعض النصوص التاريخية من حيث كونها مسلمات نهائية فأخضعت تلك النصوص للتحليل العقلي والمنطقي وإن لم يشكل هذا الاتجاه خطاً عاماً لدى جميع المؤرخين.

بحوث باللغة الانكليزية

submerged by the native influence.

The new style tended to fashion the statues after a more realistic intention[19]. The brutal strain of realism which runs through most of the portrait statues in hard stone of Dynasty XII culminated in the statue of Lady Sennuwy which demonstrates a peculiar civilized note in the midst of that barbaric burial. The beautiful proportioned figure of a woman, as well as the delicate face and the smooth finish given to the black granite make it one of the marvellous masterpieces of the period.

The two statues represent two different periods. Mankaura statue represents the Old Kingdom and that of Lady Sennuwy represents the Middle Kingdom. They exhibit certain similarities as well as certain differences. They share a common action in their seated postures facing the on-looker. Both of them have the arms bent at the elbows with the left hand on the left thigh and the right hand on the right thigh, but His Majesty has his right thumb up and holds a handkerchief, while Her Highness has the thumb closed and holds a flower. The male statue gives a majestic expression and the female statue gives a reflection of the same meaning. Emphatic parts in both cases are the facial features, but while the male figure reflects strength and vigour, the female statue reflects tenderness and happiness. Both of them are official images: the female figure represents royalty, the male figure represents royalty and religious significance. Thus the king adds a devine character because he was thought to be the son of Ra, the Sun God. The two works are made of hard stone, but the male statue is made of translucent alabaster, while the female statue is made of black granite. Both of them show traces of polishing with rubbing stone, and drilling with a copper drill. The statue of the Princess is well proportioned but the statue of the King lacks balance because of the small head over the gigantic body. The female statue bears the inscription of Kheperkara (Sesostris I), but no trace of any inscription could be observed on the male statue. The male statue is oversize but the female statue is life size.

This comparative demonstration points out to the direction in which the revived Old Kingdom style gradually began to loose vitality in the Middle Kingdom. The statues that the Middle kingdom followed along the old lines lost something of the strength and vigour which made the royal sculpture of the Old Kingdom so impressive. In the Old Kingdom the sculptors worked in the idealistic funerary tradition, while those of the Middle Kingdom followed a more realistic official style. It is true that the private statues of Kheperkara leave the impression of oversmoothing and conventionality, but they lack the invention and the freshness of the Old Kingdom style, and they loose the sureness of balance which gives a pleasing appearance to the average statues of the Old Kingdom[20].

(19) Aldred, C., 1956, P. 16-17.
(20) Smith, W., op. cit., P. 77-78.

facial resemblance may be noticed on Ankhhaf head[11], Shepseskaf head[12], and the slate pair[13], though the face of the king in the latter is of severe type. This stresses the idea that the sculptors of Dynasty IV practiced a general tradition, but each followed his own technical style.

During the long reign of Pepi II in the Sixth Dynasty, signs of decay began to appear, and suddenly after his death the Old Kingdom disintegrated.

The period that followed the collapse of the Old Kingdom used to be called the Feudal Age, Seventh to Eleventh Dynasties. It is now more usually given the name of the First Intermediate Period 2258–2052 B.C.). Serious political upheavals took place, and the central authority of the Pharoah had been challenged and temporarily over thrown by the feudal nobility, who brought war and anarchy to the whole country[14].

This period was brought to an end by the conquest of the whole of Egypt, by force of arms by princes of Thebes. Political stability and the unity of the State were eventually restored by a Pharoah of the Eleventh Dynasty, Mentuhotep; war was resumed after the death of this Pharoah and the real founder of the Middle Kingdom (2052-1786 B.C.) was Amenemhet I, who had been a minister under his predecessor.

During the Middle Kingdom there was a slow revival of Egyptian artistic traditions. Middle Kingdom art may have lacked the fresh inventiveness of earliest centuries, but there is much to admire in the little that has survived. In the sculpture at least one sees the introspective disposition which prevailed at the time most ably expressed[15]. The portrait statues of the Middle Kingdom monarchs differ from the serene majesty of those of the Old Kingdom.

The second piece is the granite statue of Lady Sennuwy, wife of Hapzefa, the Egyptian governor of Kerma in Sudan during the reign of Sesostris I of Dynasty XII (1991-1786 B.C.), who ruled fourty three years (1971-1928 B.C.) in which art and culture reached climax.

The statue was excavated at Kerma, 1913-1916, and was found in her husband's burial room in an Egyptian outpost in Sudan[16]. It is now in the Boston Museum of Fine Arts, No. 14.720[17].

The statue is life-size; it is made of black granite. It represents a reflection of royal image, but it does not seem to have any funerary significance. Lady Sennuwy is sitting on a seat, bearing the inscription of Sesostris I on either side of the block and on the base in front of her feet. She wears a long garment ending above the feet. She holds a flower in her right hand. The hair is carefully made. It is combed and it descends on either side of the face down to the breasts forming a beautiful frame to the face. The mathematical proportion is well arranged. The relation of the major parts combines a restrained sense of form with excellent workmanship and a high finish. The axis goes down the center of the figure and the space does not enter into the composition. The treatment of the surface is plastic. This may be observed on the breasts projecting forward in beautiful roundness with prominent appearance caused by a carved depression in between. Turning to the back, we see a vertical cut in the middle defining muscle formation. The roundness of the shoulders and the frail muscles of the feminine arms and hips are excellently finished. The bony structure of the knees and the shins is treated in a realistic fashion. The feet are delicately made and carefully cut showing the arch and the roundness of the heel and the beauty of the toes and nails. The neck is straight, slightly convexed on the front side and pouched below the chin. The face is round and the facial features are the most emphatic part of the statue. The forehead is flat. The eyebrows are rendered by protrusions which get thinner as they grow towards the temples. The nose is round; a short vertical cut reaches between the nose and the mouth giving the impression of smiling and expression of happiness. Traces of drilling suggest the use of metal drill, probably of copper. Stone was used for polishing. The entire figure shows no evidence of barborous local style. It gives expression of happiness, youth, and royal position of the princess.

During the reign of Sesostris I (Kheperkara), Prince Hapzefa was appointed as governor of Kerma. He brought with him from his native city Assiut his entire household which included artists and craftsmen of every sort[18]. The arrival of these newcomers must have affected the local art and acted as a considerable stimulus to it. The result was the growth of a school of art having its own particular style which continued to make itself felt although gradually

(11) Aldred, C., Old Kingdom Art in Ancient Egypt, 1949, Pls. 23, 24.
(12) Aldred, C., Middle Kingdom Art in Ancient Egypt, 1956, Pl. 29; Smith, W., op. cit, Fig. 24.
(13) Aldred, C., op. cit., Pl 26; Smith, W., op. cit, Fig. 20.
(14) عبد الحميد زايد. نفس المصدر ص ٢٩٠ - ٣٤٨.
(15) Lloyd, S., op. cit., P. 128.
(16) Lloyd, S., op. cit., P. 119, Fig. 81; Aldred, C., 1956, Pl. 24.
(17) Boston Museum of Fine Arts, No. 14.720.
(18) Smith, W., op. cit., P. 82.

more plastic treatment of the face. Considerably over life size.

The material is translucent alabaster restored in plaster. The plaster is well observed on the lower parts of the legs, the feet except for the toes of the right foot, the arms except for the wrists and the hands, the upper part of the chest, the shoulders, the rear, and the upper parts of the rumps.

The function shows an image of a devine personified god drawn from religious conception concerning life after death. Representation in sculpture was employed as a magical means by which life could be recreated for the dead. Statues were made and put in tombs in order to provide permanent residence for the soul of the dead and to substitute in case the body itself should be destroyed(9). The kings being as representations of Horus and from the time of Khafra as the sons of Ra, the sun god, were believed to take their place among the gods after death. In order to assist the kings to achieve this end, the priests composed a long series of magic texts and spells which were inscribed on the walls of the burial chambers in their pyramids(10).

The King is sitting on a throne made of heavy oblong block of alabaster facing the on-looker. The arms are bent at the elbows, the left hand flat with palm resting on the left thigh, and the right fist closed with a rising thumb resting on the right thigh. The legs descend down attached to the throne behind, with resting feet on the base.

The royal head-dress is peculiar. Its folds above the head and below the neck on either side suggest a textile material which is adorned with a pig-tail descending on the back, while the front side has linear decoration of carved horizontal lines with protrusions on either side of the neck above the shoulders. Slightly above the forehead the head-dress is decorated with what seems to be feather-like design, with a small rectangle in the center consisting of several short horizontal carvings.

Around the waist there is a belt rendered by a stripe which is about ten centimeters wide. It marks the upper end of the loin-cloth, which is well defined between the thighs by linear representation, being horizontal carved lines, vertical lines above to the right, and semi-vertical lines above to the left. The variation of the direction of the lines is caused by the foldings of the dress.

The axis goes right down the figure. The volume is heavy and covers all details. The proportion is unbalanced due to the small size of the head over the gigantic shoulders. The surface treatment of all individual forms is plastic. The roundness of the shoulders is well defined. The chest is wide, fleshy, and projected in an impressive appearance by a slight depression between and below the breasts and by the roundness of the waist. A well shaped vertical depression is seen in the middle of the back between the shoulders. Although the legs are rendered in profile, they seem rough. The feet are crude and lack the curvature of the palm of the foot. The toes, even those of the right foot which are preserved in plaster, are also roughly cut and badly shaped. The neck is straight. The modeling of the cheeks, the mouth, the nose, and the chin is remarkable. The round nose is chipped of especially at the right end. The nostrils are rendered by holes. The mouth is represented by a horizontal carved cut, with a full drooping lower lip. The eyes are almond-shaped and bulging. They are encircled by carved lines in black paint representing the eyelids. The eyebrows are rendered in protrusions of the archaic form. The conventional beard is rendered by an oblong projection descending down the chin. It consists of fifteen short carved horizontal lines. The modeling of the ears is remarkable as far as carving is concerned.

The surface was shaped by abrasion with a stone implement while rubbing stone served for polishing. The nostrils show traces of the use of metal tool, probably the common bow-drill with a wooden top and a copper point, but more probably the hand drill.

The entire figure is drawn from environment giving a majestic expression of a mighty king. The emphatic parts are the facial features.

The seated attitude is usual in stone statues of Dynasty IV. These statues were probably made by individuals or groups who followed the same traditions but differed in sculpturing the details. The sculptor or group of sculptors who worked for Khafra and then for Mankaura created a form more acceptable to the Egyptian court of that time for conveying the correct impression of royalty. Khafra, for whom the first work was executed by this new school, had twenty-two life size statues in his Valley Temple alone, and probably as many more in his Pyramid Temple while many fragments of smaller statues indicate a total number between 100 and 200. Mankaura had perhaps even more. Thus between 200 and 400 statues and statuettes, mostly of alabaster and diorite, were carved probably by a single generation of sculptors. Khafra seated figures present similar forms to our statue. Furthermore the same modeling may be observed in the Louvre head of Radedef. The

(9) Smith, W., op. cit., P. 25.
(10) Smith, W., op. cit., P. 27

OBSERVATIONS ON TWO EGYPTIAN PORTRAITS

Taki AL - Dabbagh

The first statue belongs to the old kingdom, ca. 3200-2258 B.C.[1]. It is the alabaster statue of King Mankaura son of King Khafra.

He was one of the famous kings of the Old Kingdom, Dynasty IV, 2680-2565 B.C. He ruled twenty eight years[2], 2599-2571 B.C.[3] The historical events of the Old Kingdom indicate that he did not succeed his father immediately, because the descendents of Radedef, a son of the lesser wife of Khofu made several attempts to seize the throne. According to the reconstructed Turin Papyrus, one of them, Bakara might have been able to rule for one year at the close of the reign of Khafra, before his son Mankaura had succeeded in getting control of the country[4].

From the earliest times, the function of Egyptian art was to express religious abstractions in comprehensible form and to create religious conditions in lasting materials for persons and events[5]. The Pharoah was the God manifest on earth[6]. As a consequence of being God, all Egypt was subject to him, and all authority derived from him. He owned all the land and his ministers only held office at his pleasure, and all spoke in his name. In all the sculptures of royal victories, he is depicted as of superhuman size.

Thus the king combined in himself enough functions to make him the most supreme ruler whose word was law beyond any questioning; he was the fount of all power, natural and political, and he was the source of justice. He possessed certain immorality, and was able to ensure immorality for those of his subject who served him to the end and were burried under his protection.

The nature of the devine characters of the monarch and the strict religious conceptions of the State and the society implied a restrictive discipline for the artist who lacked feedom of action, lost individual status, and faced limitations imposed on him by convention. But he possessed creative ingenuity which enable him to overcome such disabilities.

The alabaster statue of king Mankaura was found fragmented at his Pyramid Templ at Giza[7]. The head was found outside the northern wall opposite room No. 20, the left shoulder was found with the head, a fragment of the body was found near the drain, three fragments of the body together with the other shoulder were found burried in sand in the inner end of the drain hole in room No. 20, and large fragments of the knees and part of the base were found in room No. 15. The statue being put together is now exhibited in Boston Museum of Fine Arts (No. 09.204)[8]. It is the best preserved colossal statue of the Old Kingdom, and it is one of the masterpieces of the new school, with its

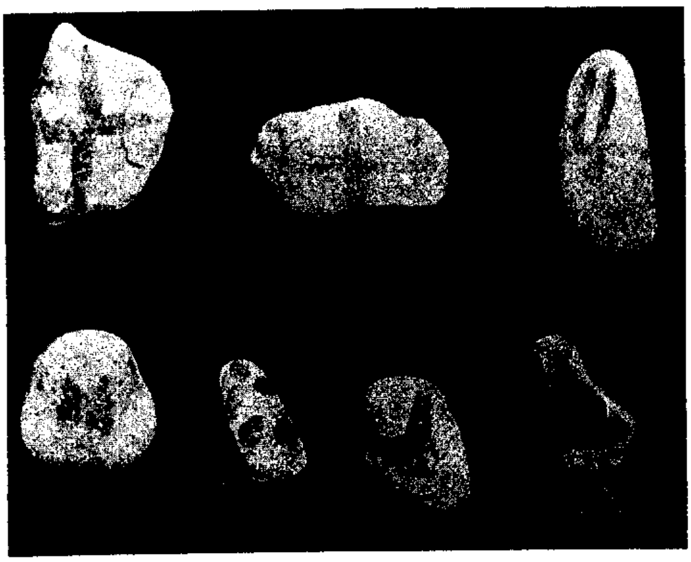
(1) Smith, W., Ancient Egypt as Represented in the Museum of Fine Arts, Boston, 1952, P. 171-172.
(2) عبد الحميد زايد. مصر الخالدة ١٩٦٦ ص ٢١٦.
(3) Smith, W., op. cit., P. 172.
(4) عبـد الحميـد زايـد. مصر الخـالـدة ١٩٦٦ ص ١٨٤ و٢٠٥. وانـظر احمـد فخري. مصر الفرعونية ١٩٥٧ ص ٨٤ - ٨٦.
(5) Lloyd, S., The Art of the Ancient Near East, 1961, P. 52.
(6) ادولف أرمان. ديانة مصر القديمة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر والـدكتور محمد أنور شكري ص ٦٦ - ٦٧.
(7) Hall, H., The Ancient History of the Near East, 1913, 127.
(8) Boston Museum of Fine Arts, No. 09.204.

GHASSULIAN PAINTINGS

Religious practice can be noticed by paintings which have suggested religious cults especially the star mural paintings, and it has been suggested that the cornet drinking cups may have served a ritual function and that the fenestrated bowls in both basalt and ceramic were offering atands or incense burners.

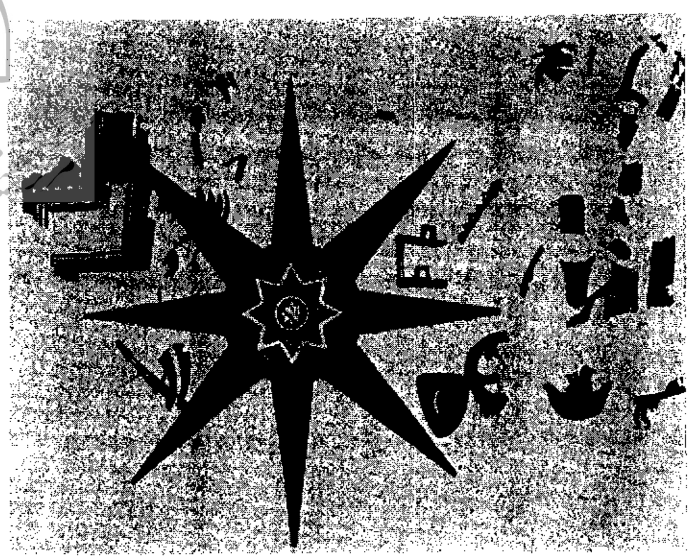
Small limestone fiddle-shaped figurines suggests the fertility or the mother-goddess cult, as do the numerous small clay animal figurines.

Coloured paintings: The excavations in Beer-Sheba uncovered coloured red pebbles.



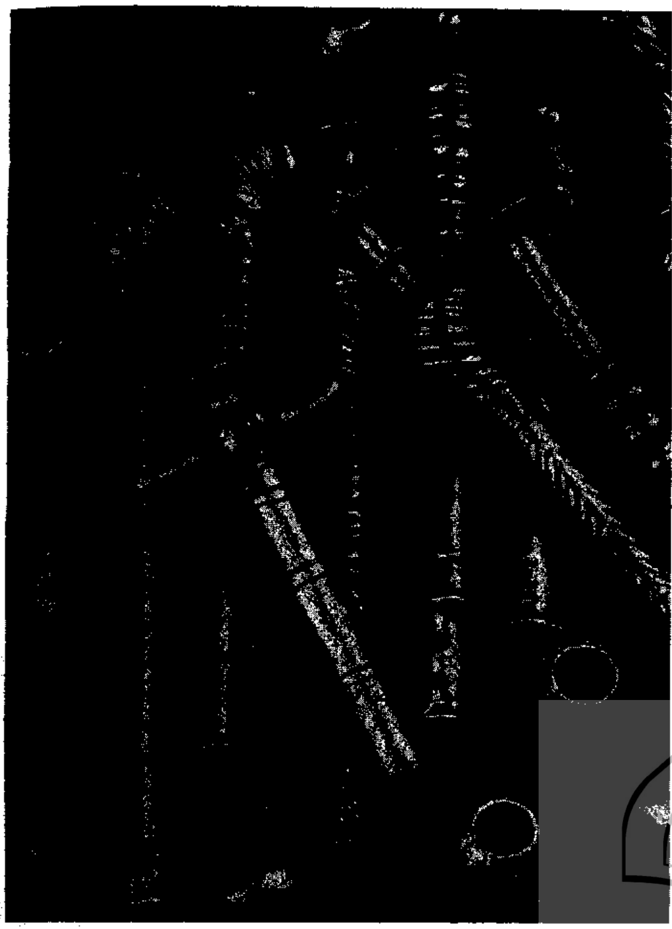
[Coloured Pebbles. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

Paintings: Across the stump of one wall stretched the remnant of a mural that had been over thirteen feet long and the rays of the sun and seven pairs of fleet, diminishing in size from left to right perhaps representing a religious rite.

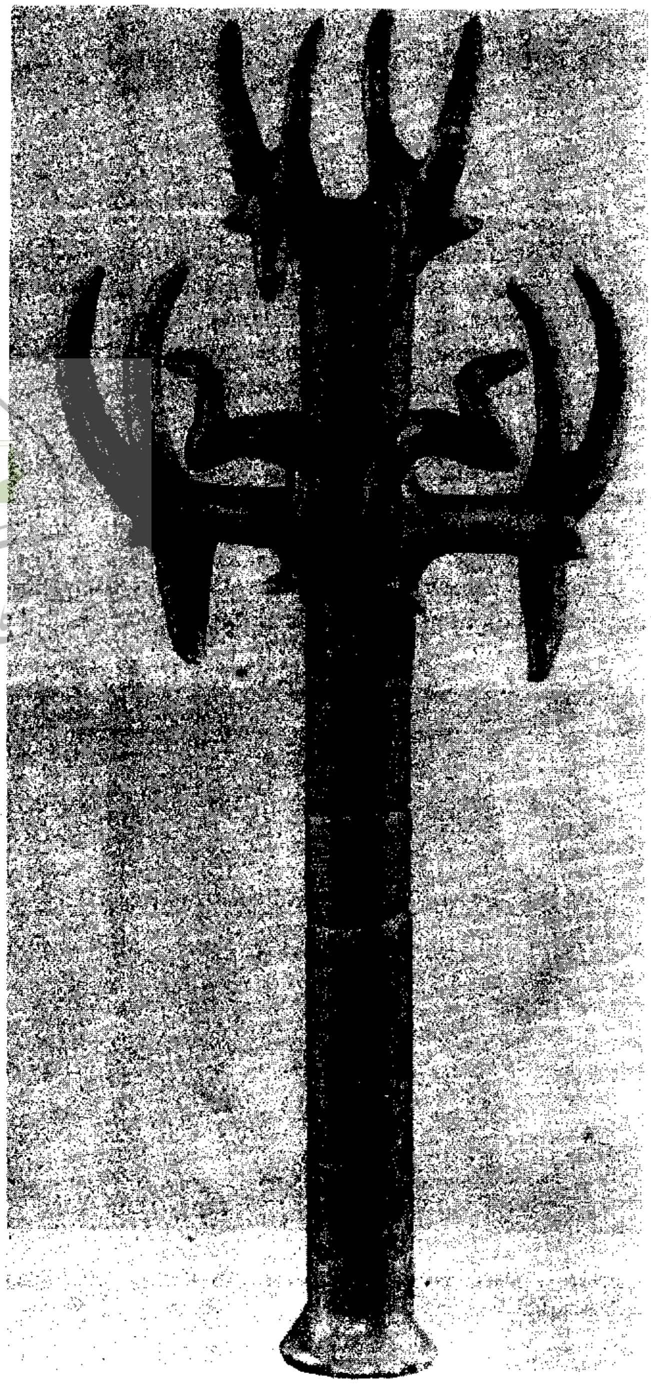


[A Drawing Made After The Renowned Fresco Found In Fragments Of Plaster From the Wall Of A Ghassulian Building. The Star Is Over Six And A Half Feet In Diameter].

Burials of infants mostly interred in jars fragments have been discovered beneath house floors. A study of the remains indicates that the population was tall, robust, and generally well-fed, and normally expected high mortality rate.



[A part of the enormous copper objects found in Judaean hill. Cave in Nahal Mishmar. Now known as the Cave of the Treasure, about 4000 B.C. Palestine Museum. Jerusalem].

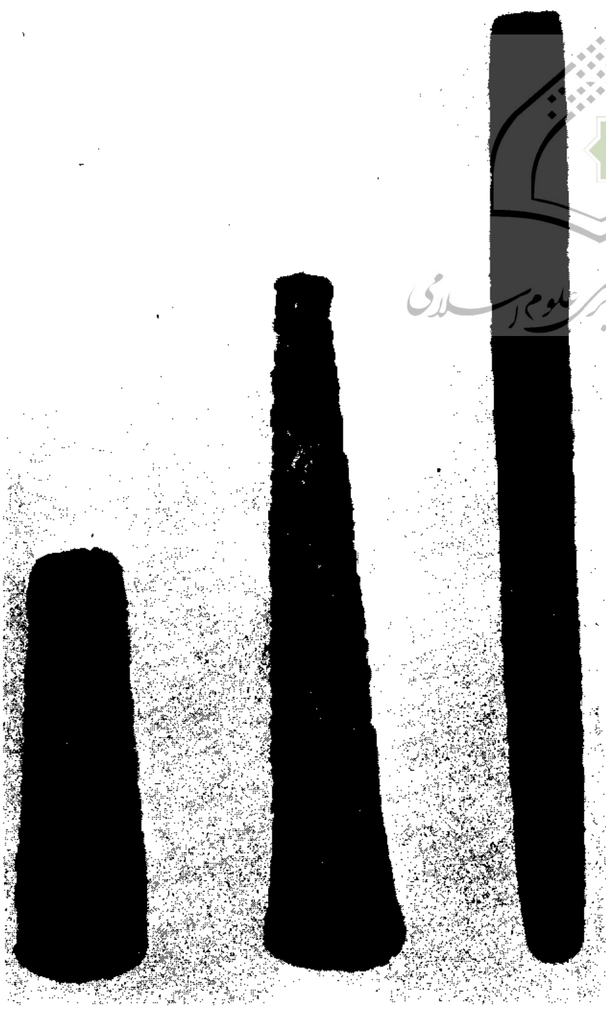


[Copper stand with ibex heads. C. 3500 B.C. from the so-called Treasure Cave in the Dead Sea. C. six miles to the south of Ein Gedi].

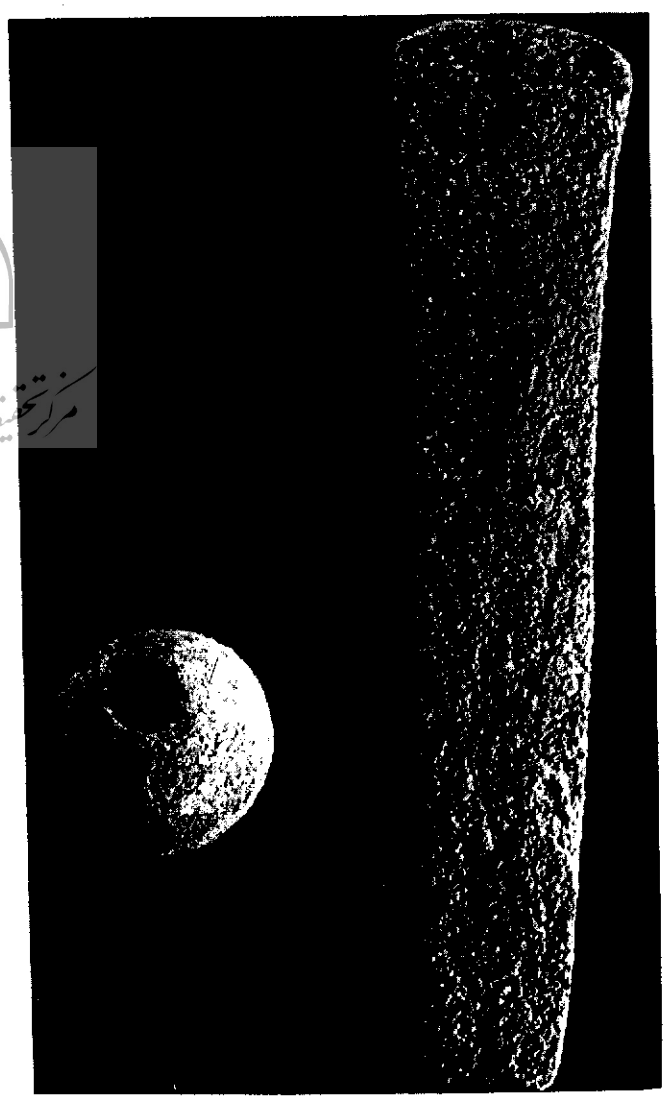
Rams' heads on a copper stand from the Cave of Treasure.

METAL INDUSTRY

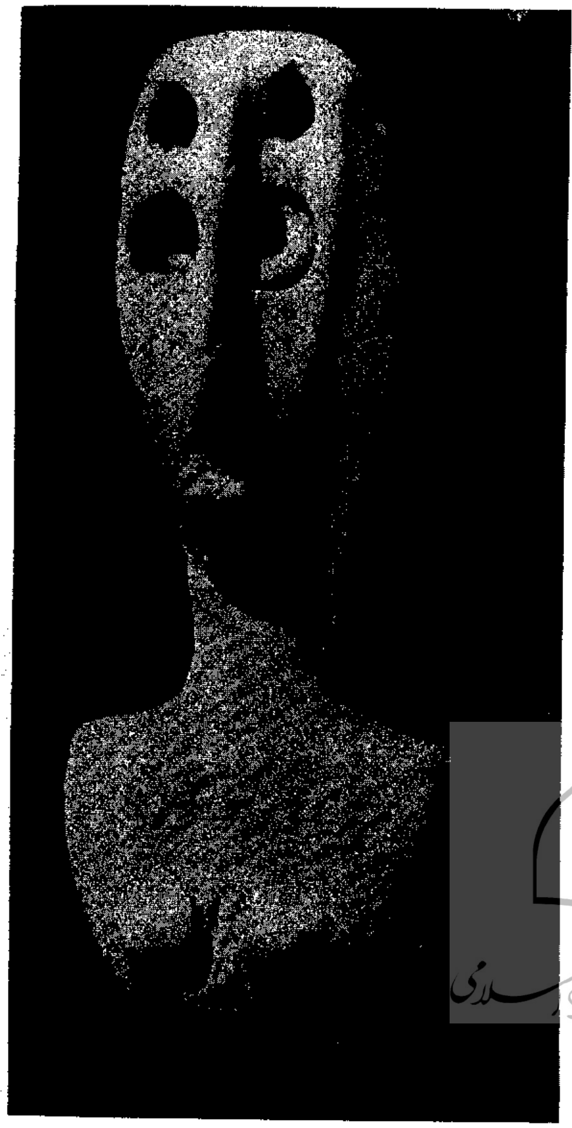
Metal industry in the Beer-Sheba Culture is characterised by copper implements.



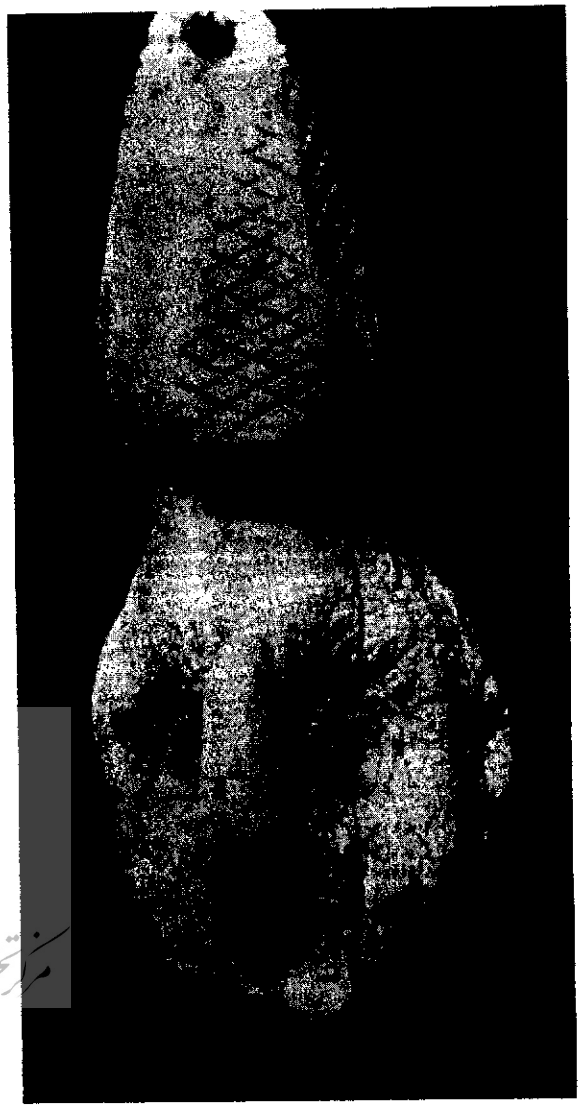
[Axe and Chisel. Copper. Safadi. Beer-Sheba Culture. Palestine Museum. Jerusalem].

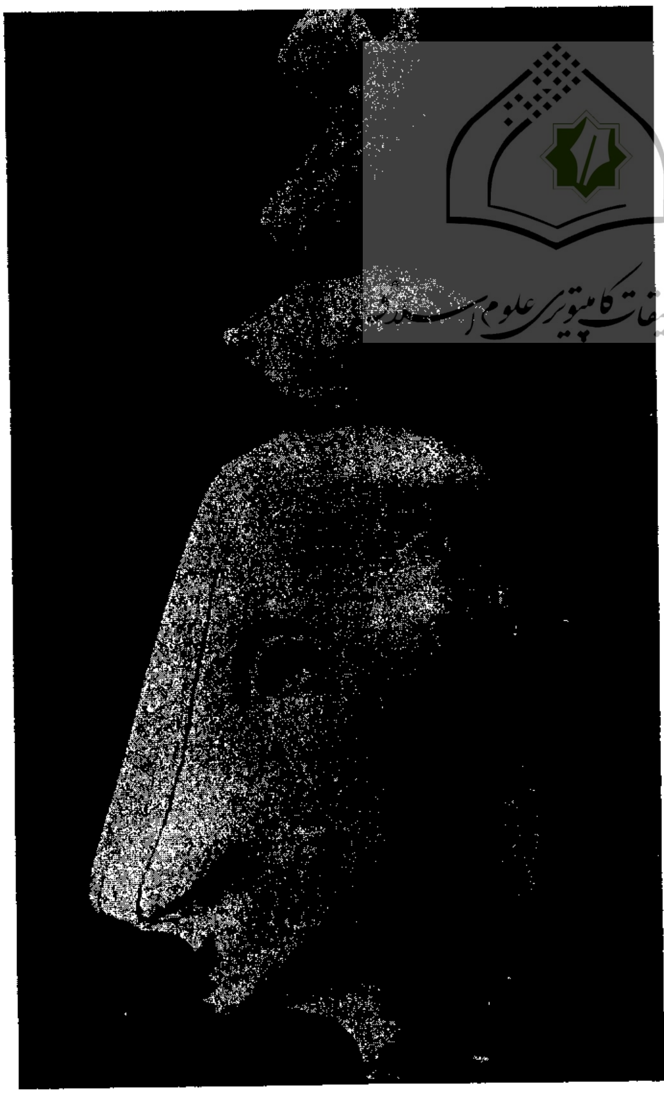


[Chisel and Mace, Copper. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Louvre. Paris].



[Ivory Pendant. Abu Matar.
Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C.
Palestine Arcaeological Museum.
Jerusalem].





**[Heads of Ivory Statues, Safadi.
Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C.
Palestine Archaeological Museum.
Jerusalem].**

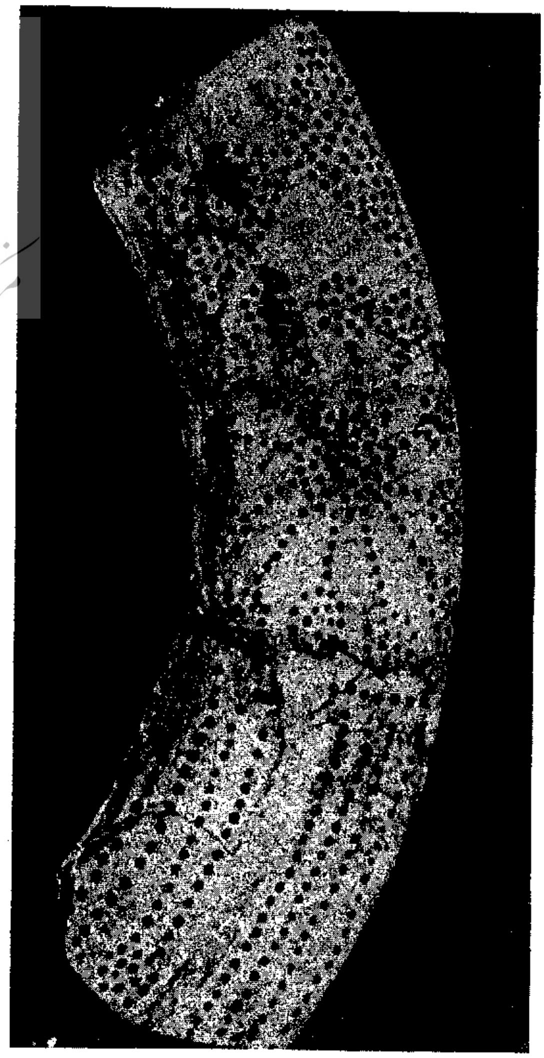
Ivory Vases:



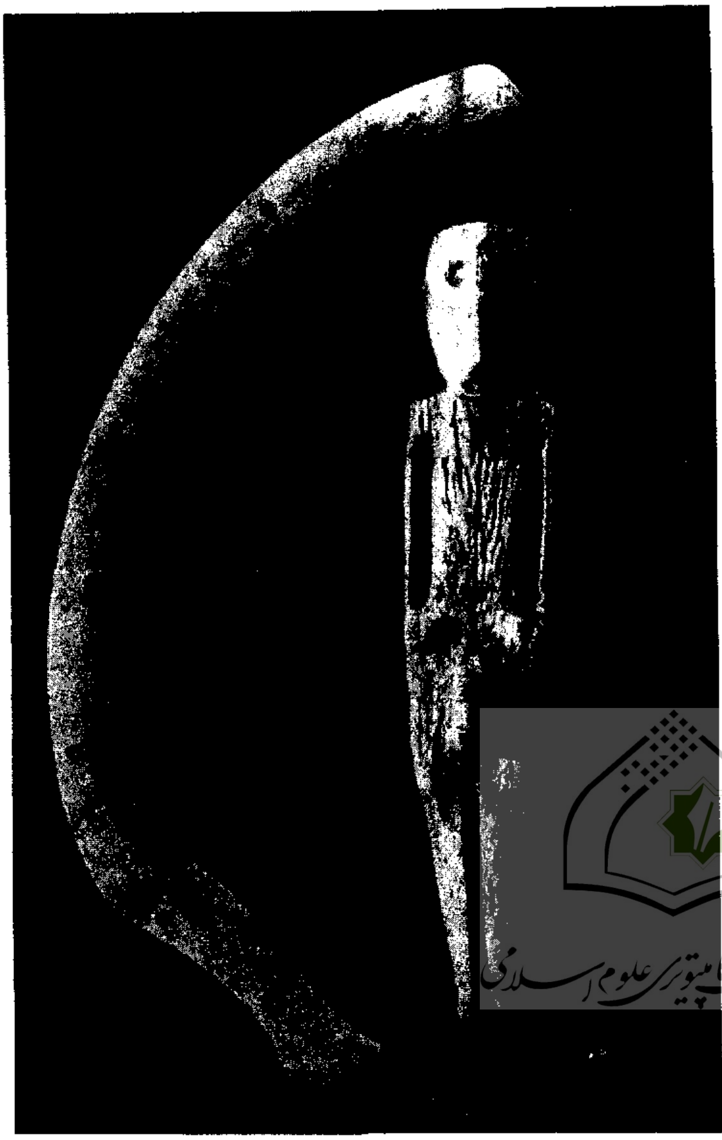
[Small Ivory Vase. Safadi.
Beer-Sheba Culture.
About 3500 B.C. Palestine
Archaeological Museum. Jerusalem].

Ivory Pendants:

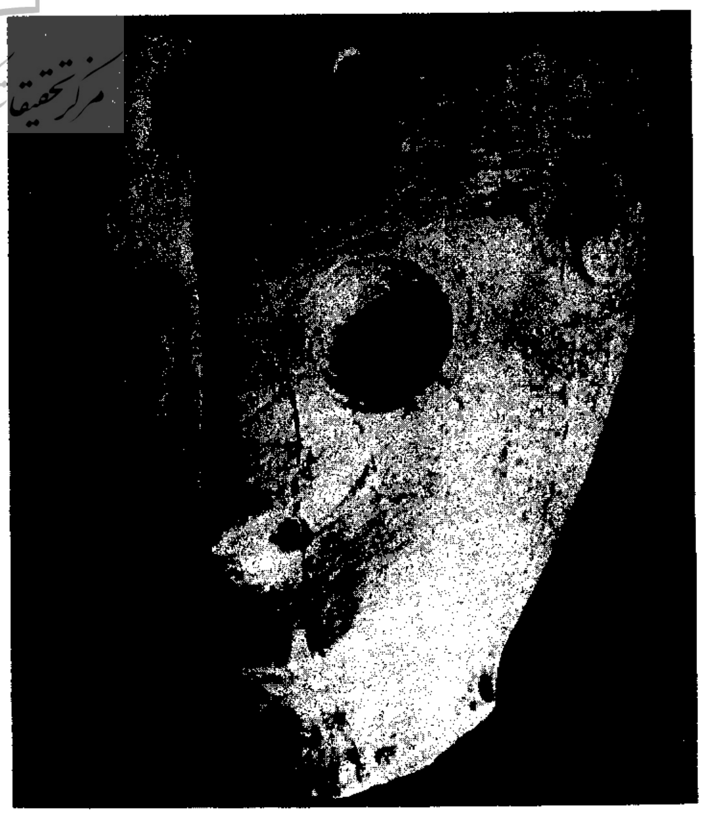




[Ivory Pendants. Safadi.
Beer-Sheba Culture.
About 3500 B.C. Palestine
Archaeological Museum.
Jerusalem].



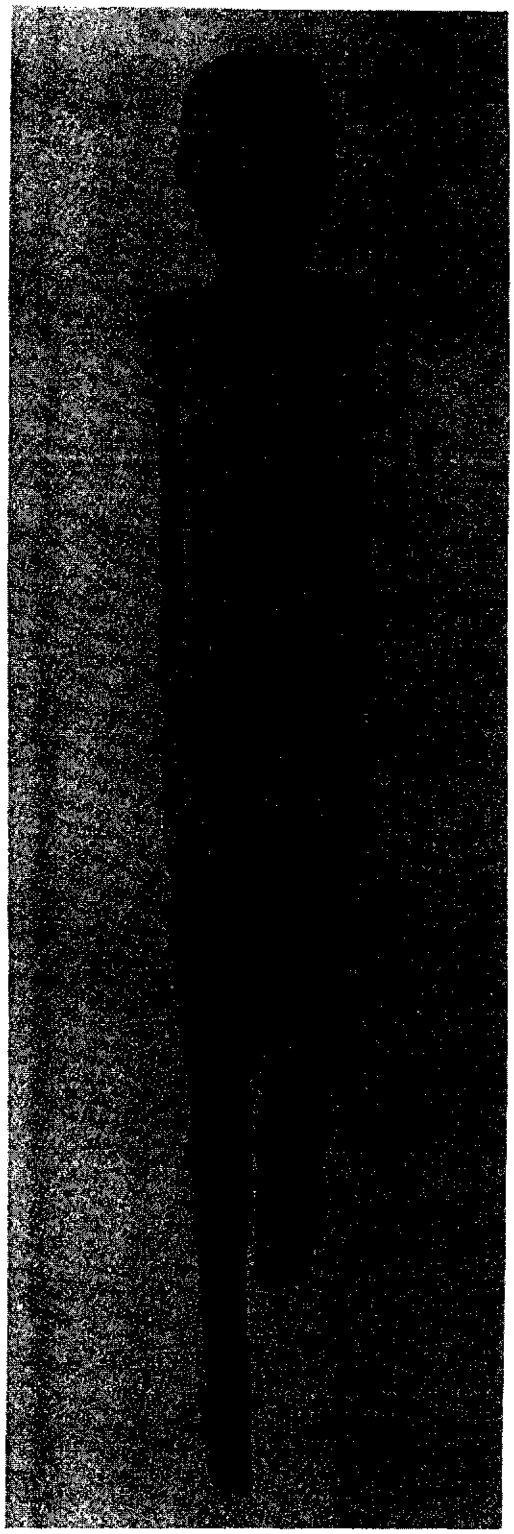
[Ceremonial Sickle (?) and figurine ivory. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Louvre. Paris].



[Head of ivory Statuette. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Museum. Jerusalem].



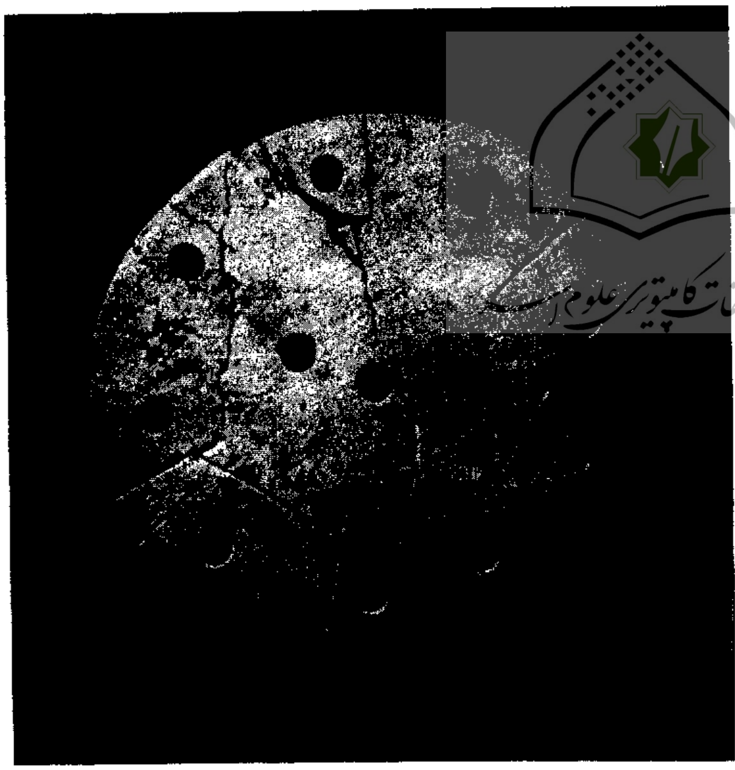
[Female Figurine.Ivory. Safadi. Beer-Sheba Culture.
About 3500 B.C. 4 ⅜
Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



Female Figurine. Ivory. Safadi.
Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C.
Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

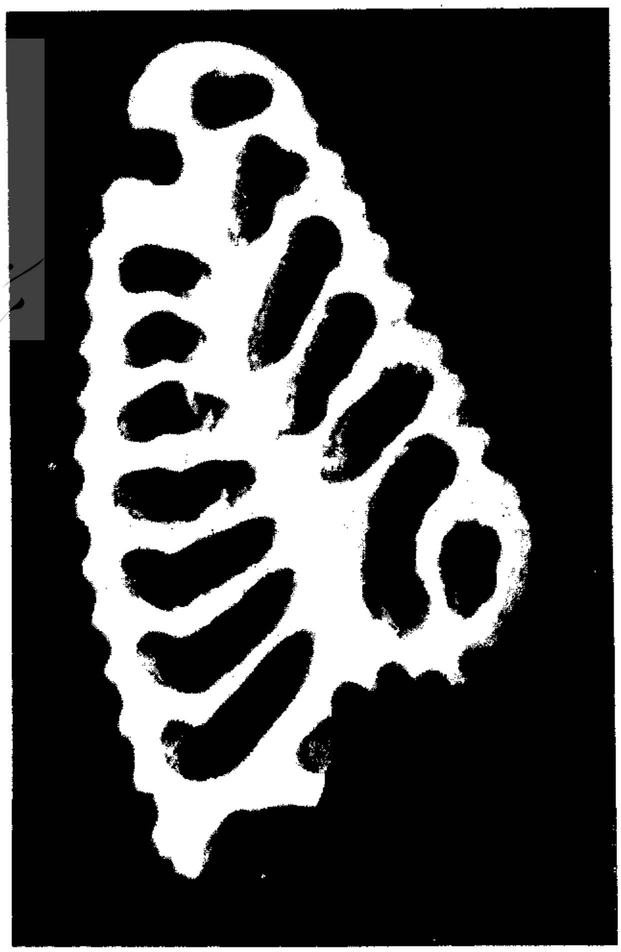
IVORY IMPLEMENTS

Ivory Implements:



[Ivory Rounded. Safadi, Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

Ivory Figurines:



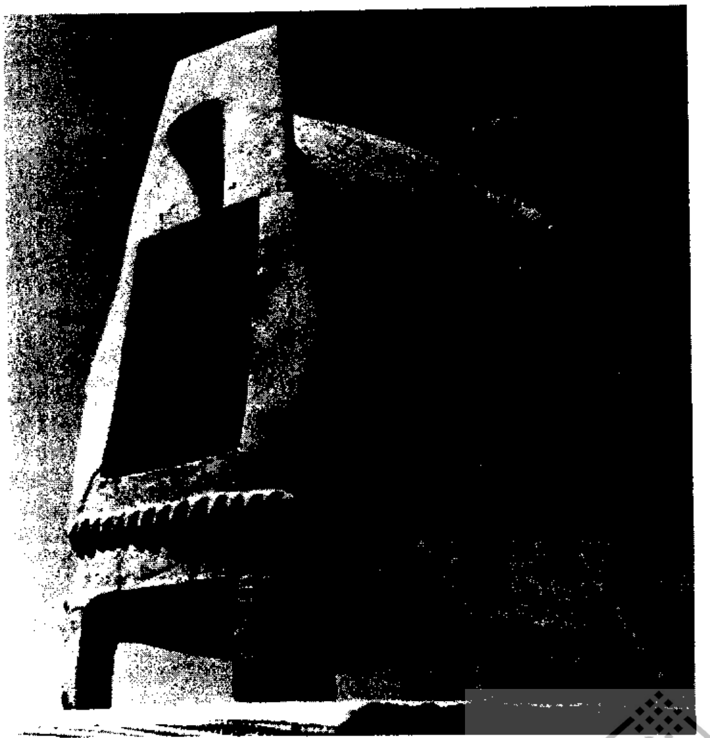
[Fragments Of An Open Work. Ivory Ornament. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



[Ossuaries Found In Situ In Sepulchral Cave At Azor. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine. Archaeological Museum. Jerusalem].

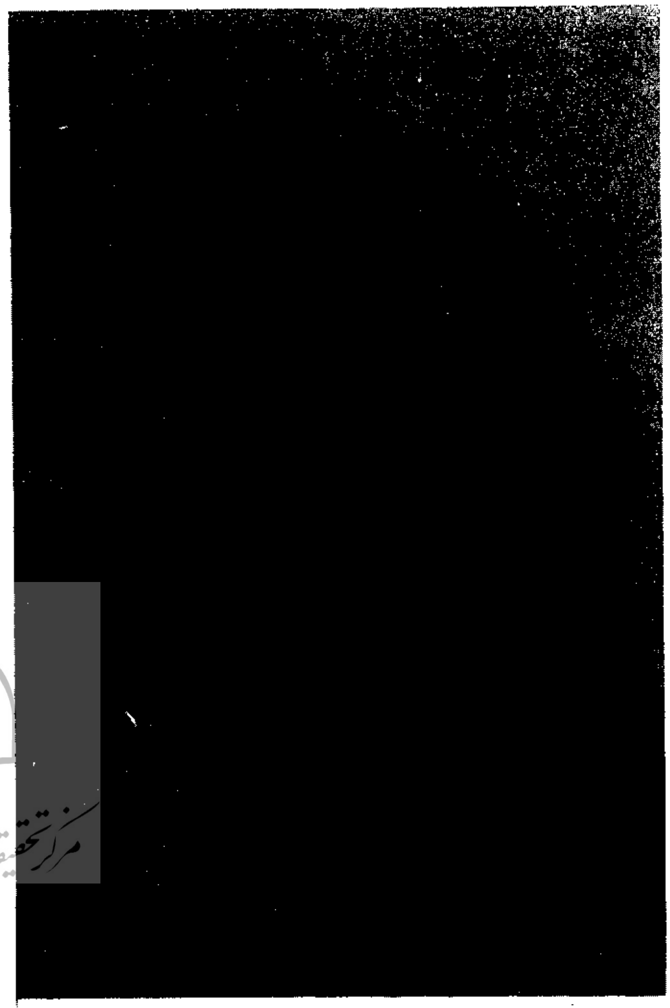


[Stone Ossuaries In Situ In Sepulchral Cave At Ben Shemen. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



[Ossuary In The Form of A House, Azor. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

Some of the Ossuaries are in the form of void jars with a opening, others are zoomorphic.



[Ossuary jar. Azor. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestir Archaeological Museum. Jerusalem].

Almost all the Ossuary openings are decorated in som 'anthropomorphic schem'. Each one was intended t contain the bones of a single person.

Small Ossuaries, probably models, were also found i most sites.

The Ossuary houses of Khudeirah are unique. They ar long enough to hold the longest bone in the human body the high bone. And the aperture in one of the ends is ju: large enough to recieve the skull.

The facade of the model house extends about the body c the run. Its crown is usually decorated with prominentl projecting noses, singly or in pairs.

THE OSSUARIES

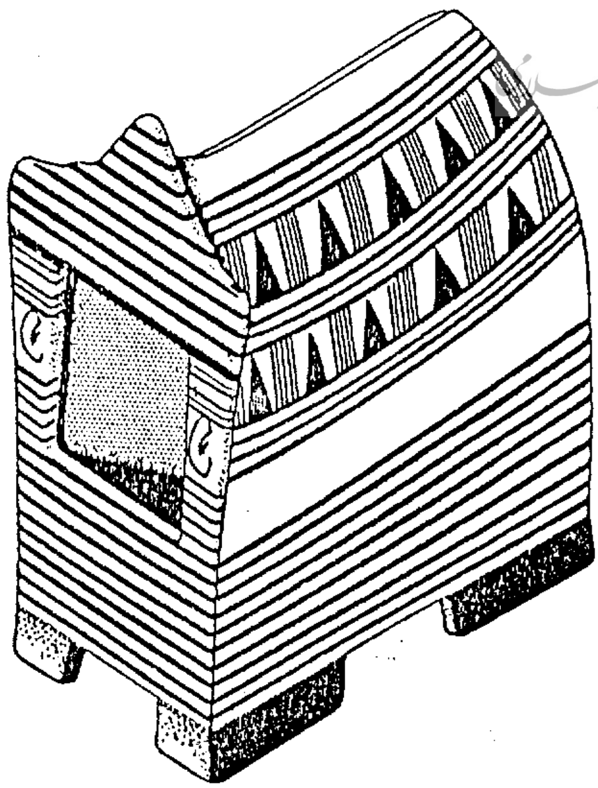
The Ossuary houses were found at burial caves in many sites of Ghassulian culture; Khudeirah, Azor, and Ben Shemen. Most of them take the form of a house and are made of poor backed clay.

The average area is 60 cm. long, 30 cm. wide and 50 cm. high.



[Clay Ossuary In The Form Of A House. Azor. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

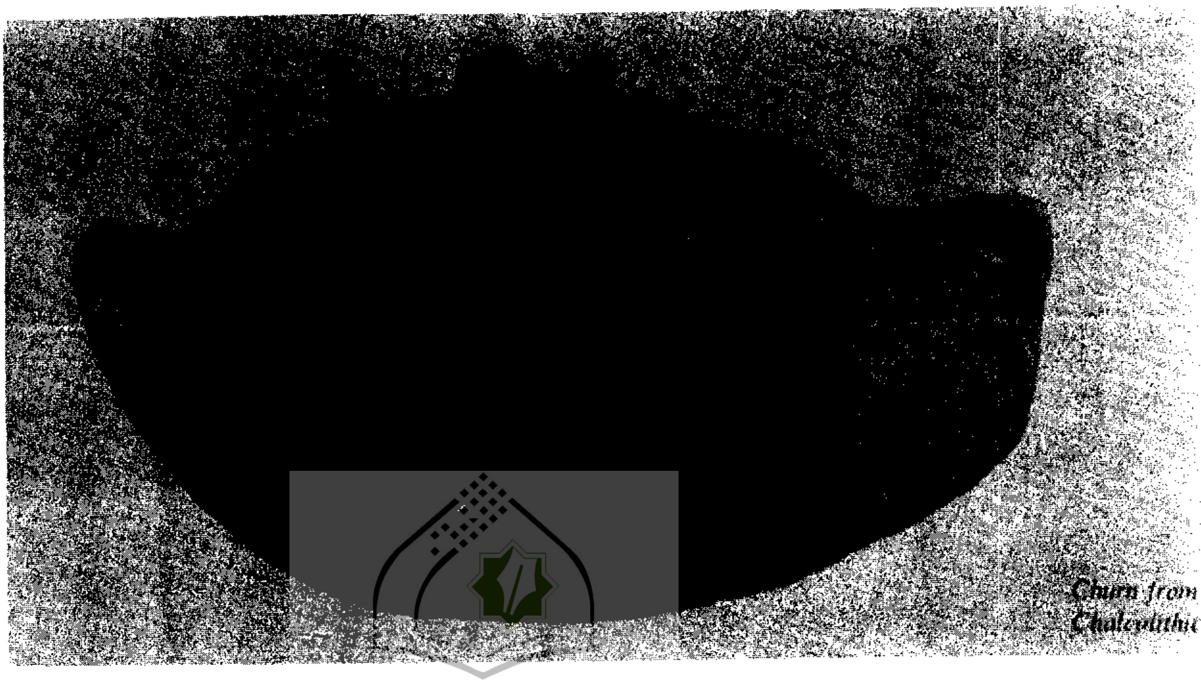
Large glaring eyes are often painted on either side of the nose. Frequently pairs of large knobs like beam ends or nail heads also project from the facade.



[House-urn burial from the Chalcolithic of Khudheirah].
[Several Ossuaries are house-shaped with a door and a window].

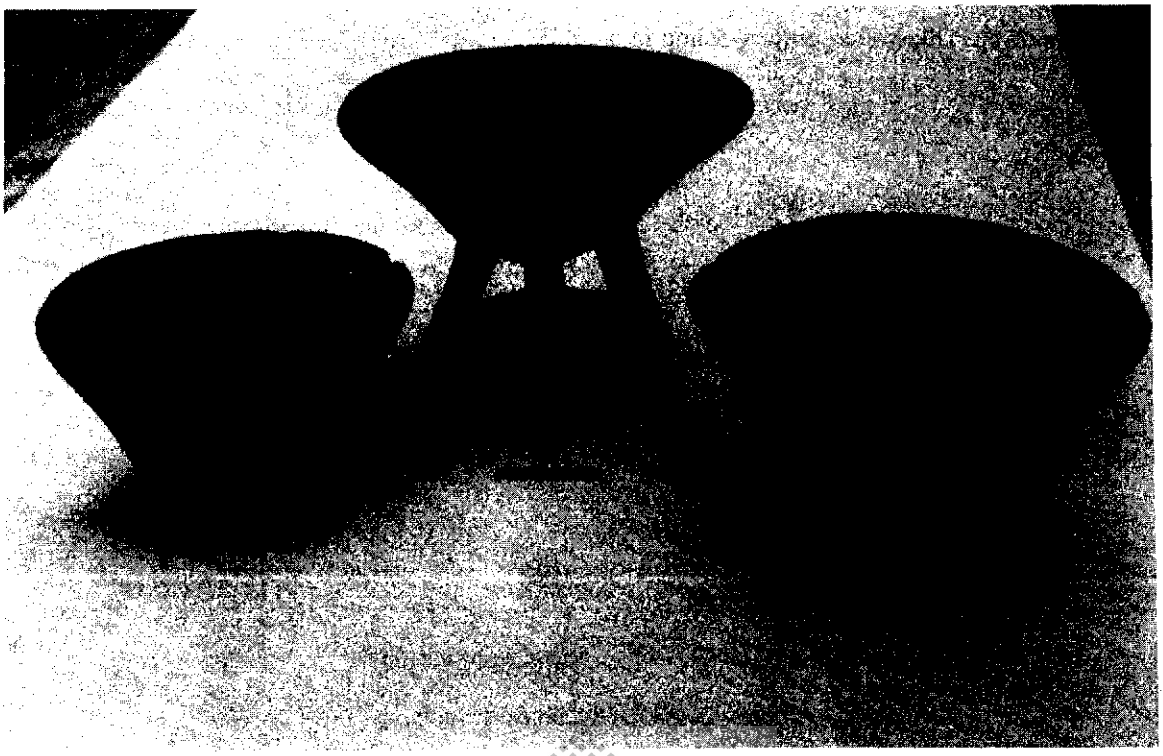
The other variants of the Ghassulian pottery found in a number of sites are remiscent of a stylized submarine, or a representation of a boat bird. This object became known as a 'bird vessel'.

[Shrum from Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

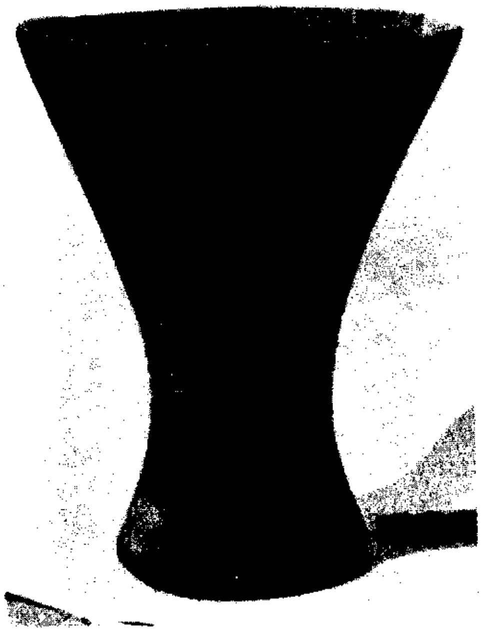




[Jar In The Form Of Water-Skin. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



[Basalt bowl. Abu Matar, Beer-Sheba Culture, about 3500 B.C. Louvre. Paris].



[Basalt vase with open work base.
Western (Negeb). Beer-Sheba Culture.
About 3500 B.C. Palestine Museum Jerusalem].

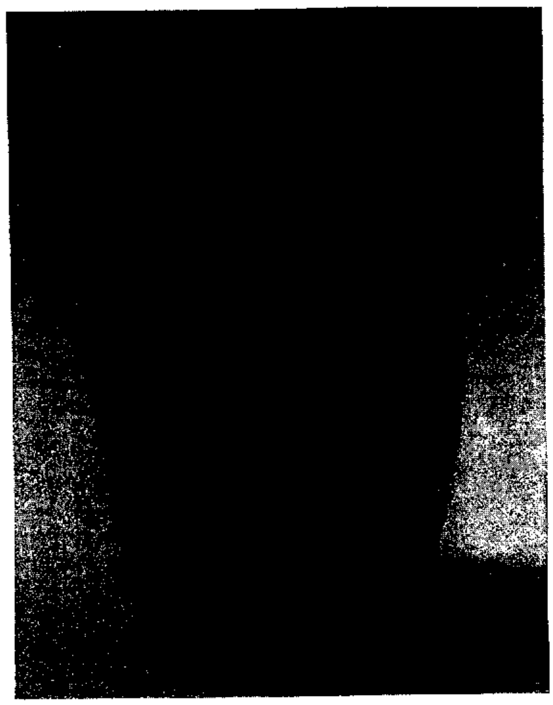


[The Base of This Vase From Tuleilat El Ghassul,
Shows The Imprint Of Basket Work].

The stand has been fenestrated; that is, hollowed out, with section of the sides removed to form a series of 'windows' an ingenious and attractive way of reducing the weight of the vessel. It was an incense burner and its basic design, translated into pottery would persist in the Near East for many thousands of years.

[Vases from the sepulchral caves of Azor and Ben Shemen. Beer-Sheba Culture. About 355 B.C. Palestine Museum. Jerusalem].





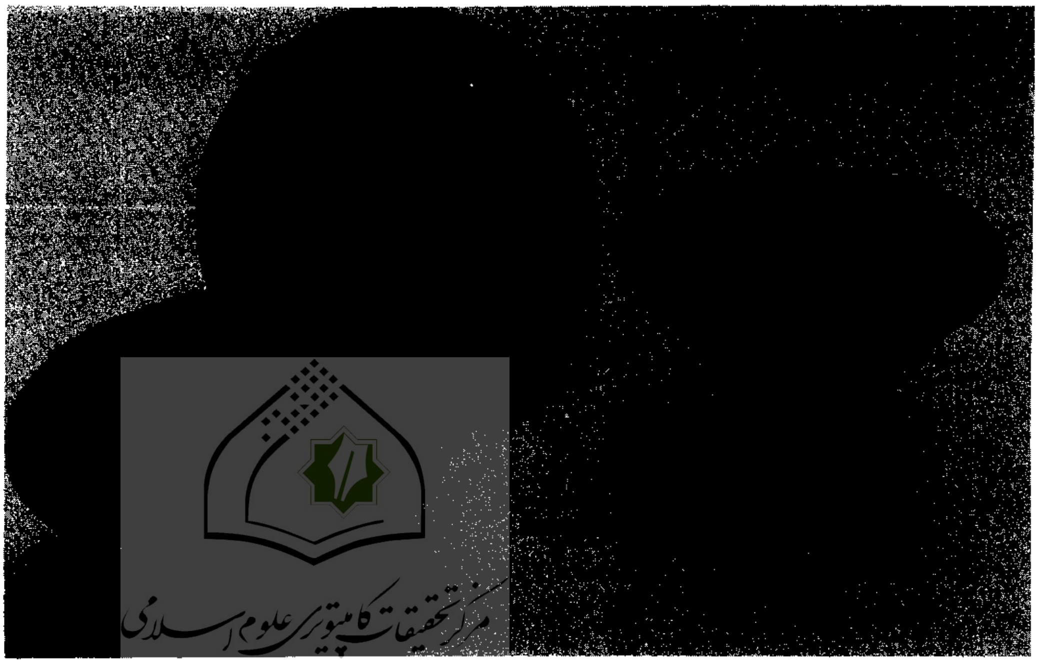
[Ogival vase, or oil lamp with double opening on shoulder from sepulchral cave at Ben Shemen. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Museum. Jerusalem].

A survey of the Chalcolithic pottery must perforce include clay objects, such as ossuaries, outside the range of domestic utensils. Cemeteries or burial caves containing ossuaries have been excavated at a number of coastal sites. While most of the ossuaries were shaped like houses or animals, jars were used as well.

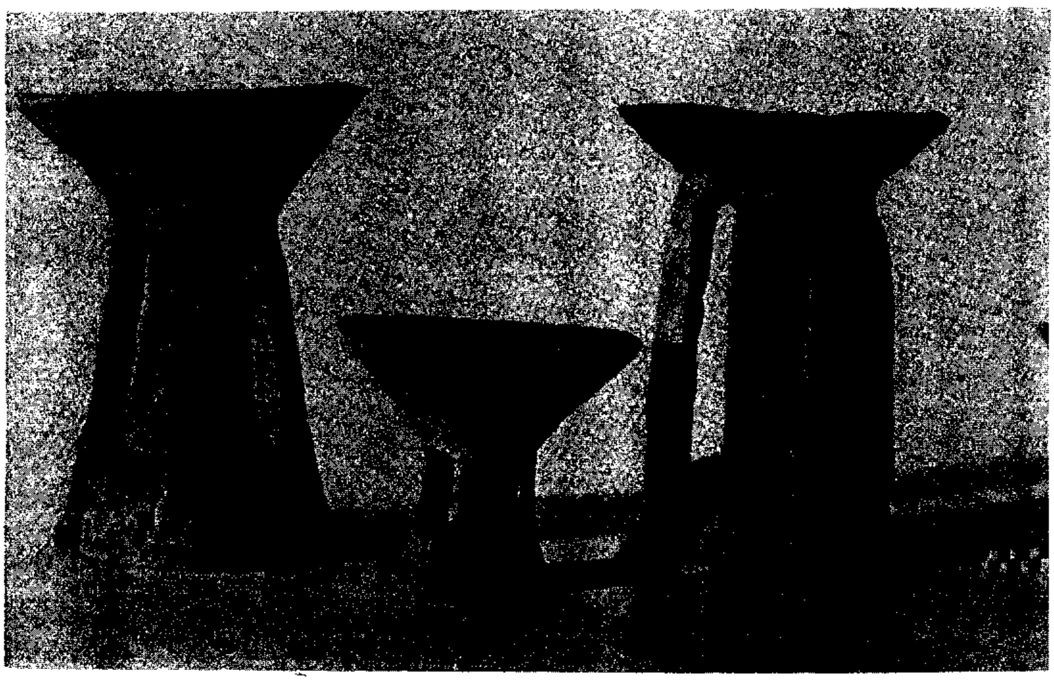
The potter transformed the jar into an ossuary by pinching together the neck and mouth of the vessel, when it was 'leatherhead' into the characteristic knob found at the top of an ossuary, and by cutting an openning into the wall of the jar introducing the bones.

The nature of Ghassulian pottery has been defined: it added two elements-plastic and painted decoration. The combination of these four elements three of which are decorative and fourth functional, determines in character of Ghassulian pottery.

Vases and Cups:



[Pottery earthern bowls (vases). Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



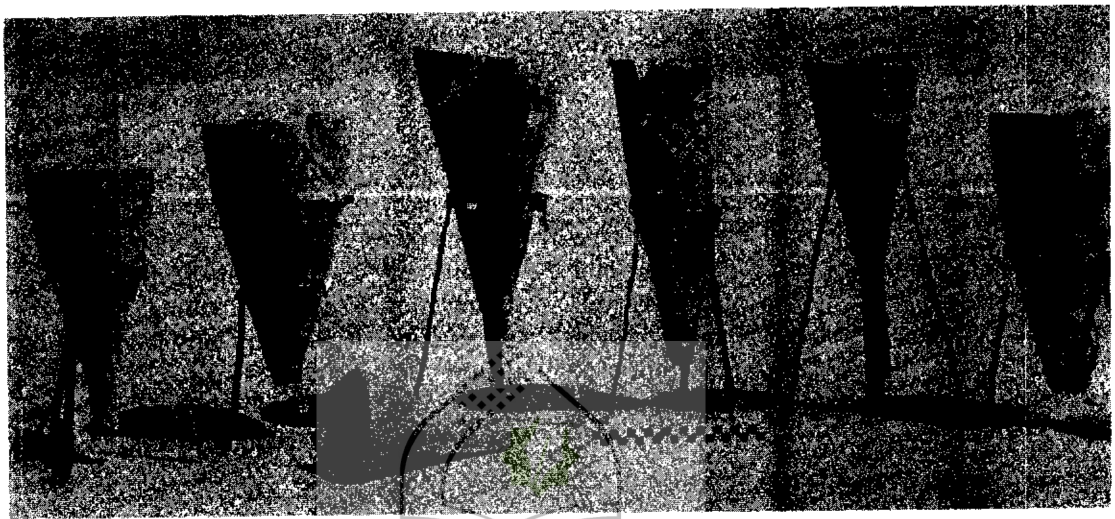
[Cup with Open-Work Base. Azor. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

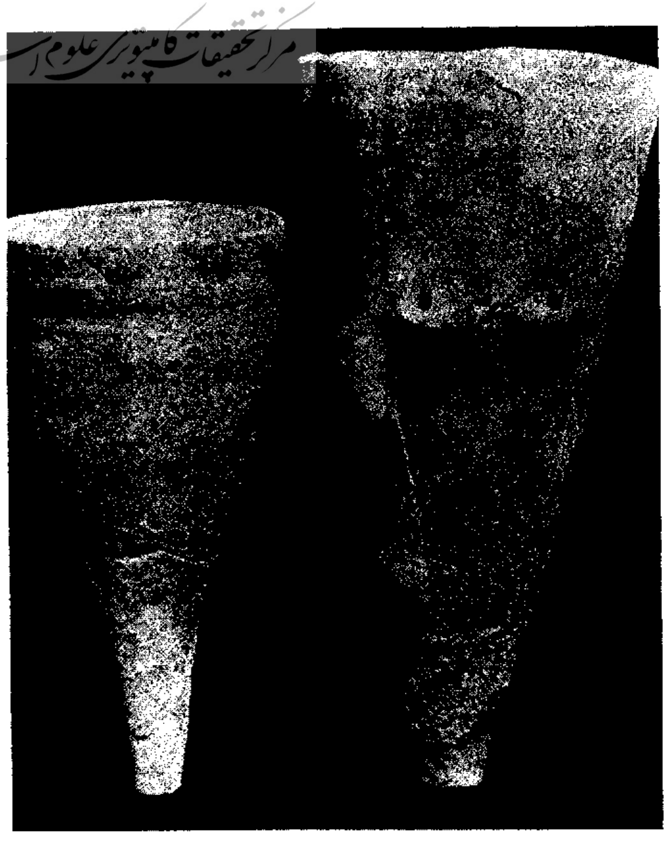
Most of the pottery uncovered in Beer Sheba culture was hand-made. Signs of the potter's wheel proper (tournette) was already in use.

The dominant pottery forms are the open one such as bowls, basins and high footed bowls.

The closed forms include hole mouth jars, pithoi, and store jars.

[Cornets (drinking horns). Tuleilat Ghassul. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].





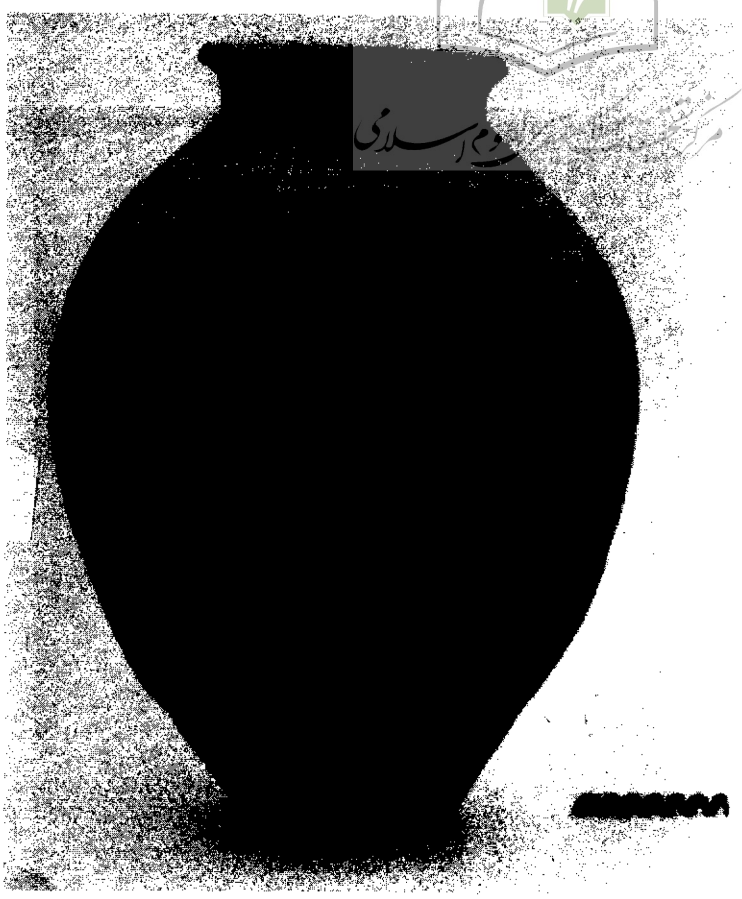
[Pottery Earthern Bowls (Vases) Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C]. [Cornets From Ghassul Were Possibly Used As Drinking Cups].

POTTERY INDUSTRY

Pottery industry: The pottery is another distinctive type of Ghassulian people. It forms the most elaborate and varied repertories in Palestine history. It is generally well made, thin, and well fired. There is evidence that the wheel was used during this period. The pots were sometimes set out to dry on straw mats and picked up the mat impression on the bases.

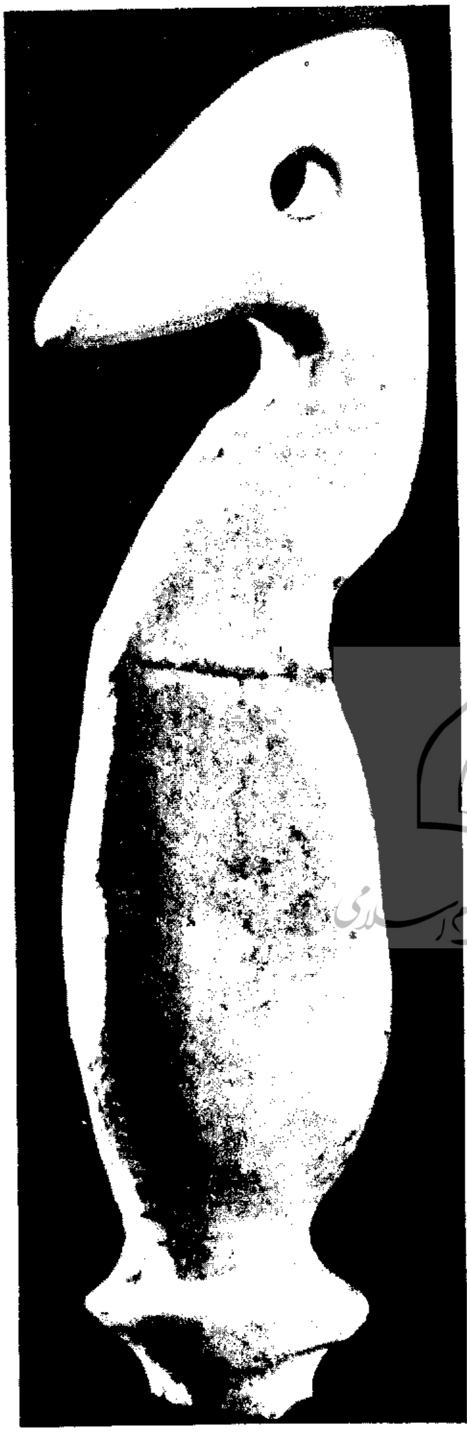
The pottery of Ghassul is painted, modeled, incised, and impressed. The repertory includes hole - mouth jars (an innovation), pithoi and storage jars of various sizes.

V-shaped bowls, cups particularly those of the distinctive cornet shape, churns (bird vases), strainer jars, and spoons. Some times slips are used, and red-painted decoration is common in both geometric and naturalistic patterns.



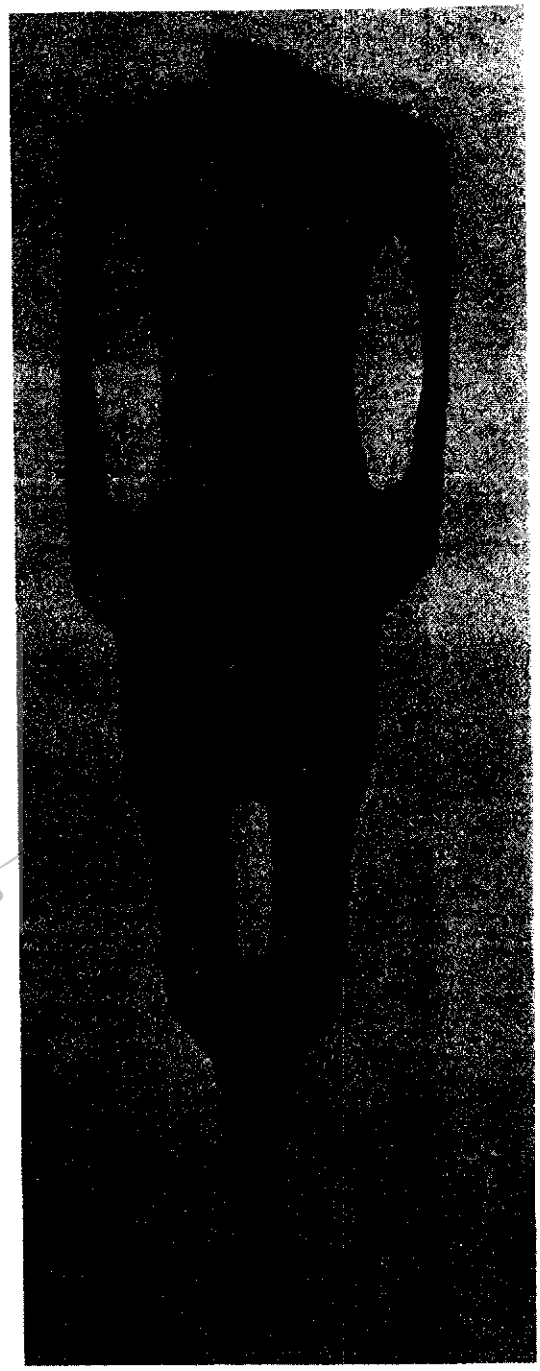
**[Small jar with painted decoration.
Safadi, Beer-Sheba Culture.
About 3500 B.C.
Palestine Archaeological Museum,
Jerusalem].**

Bone Arts: Figurines:



[Head of a bone pin or burin, perhaps representing a pelican. Abu Matar. Beer-Sheba Culture, about 3500 B.C. Hieght 2 ¾. Palestine Archaeological Museum, Jerusalem].

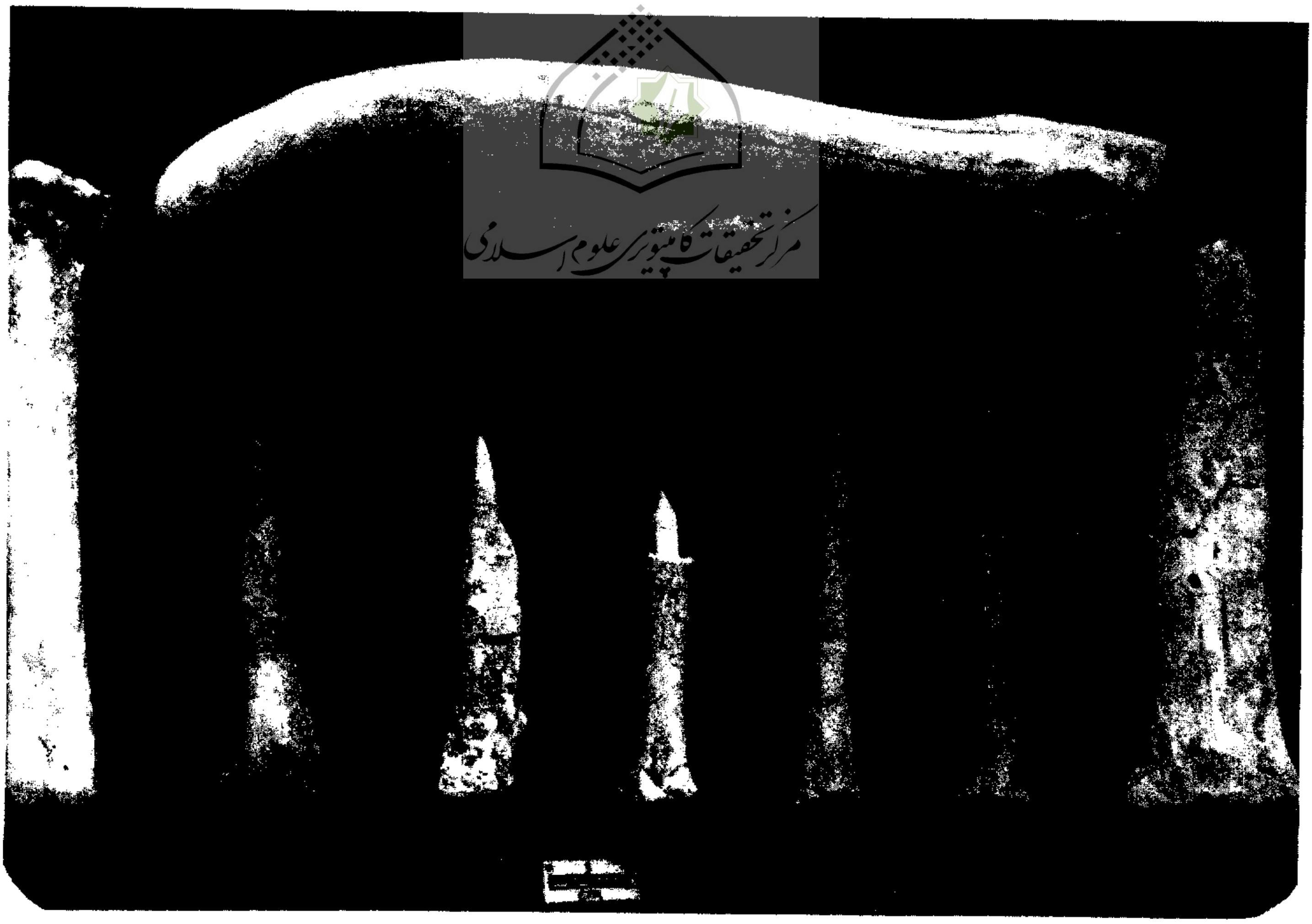
Bone Figurines:



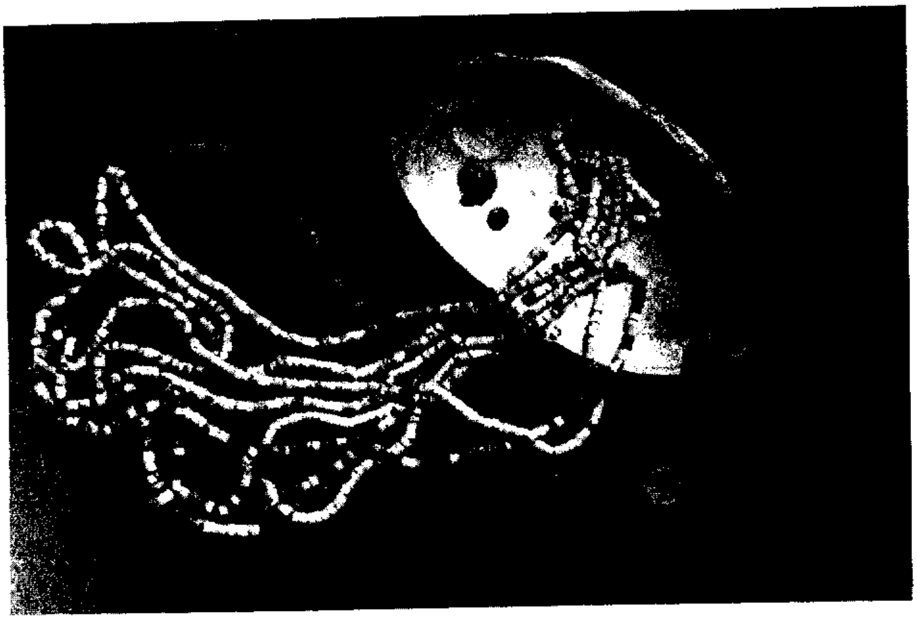
[Bone hair pin repesenting a woman. Safadi. Beer-Sheba Culture, about 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum, Jerusalem].

BONE INDUSTRY

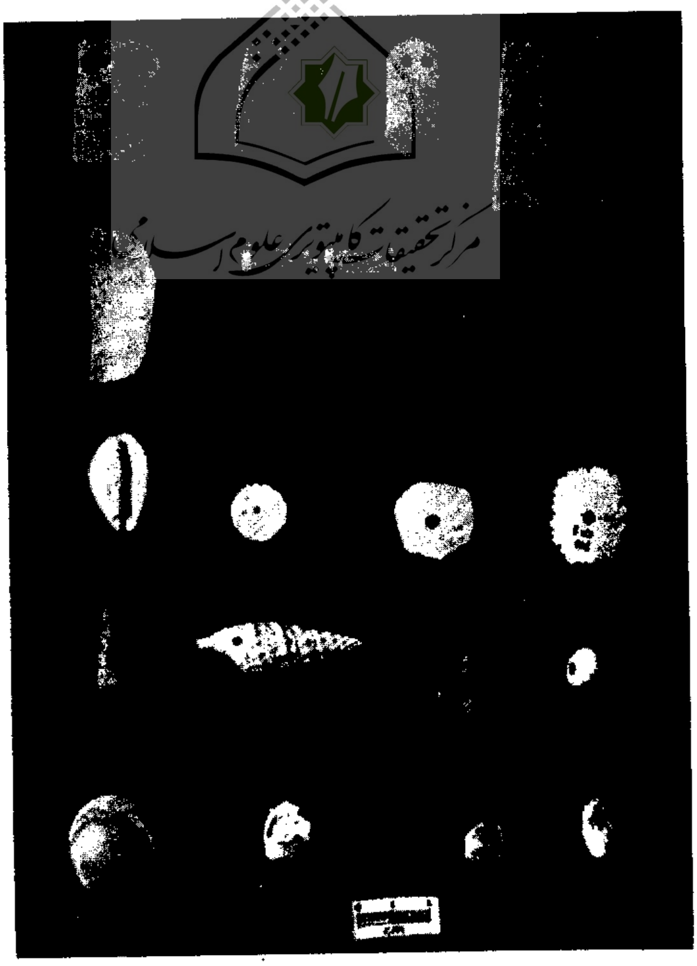
Bone Implements: A variety of implements used during the Chalcolithic period were made from bones.



[Bone Implements were used In Ghassulian Culture].



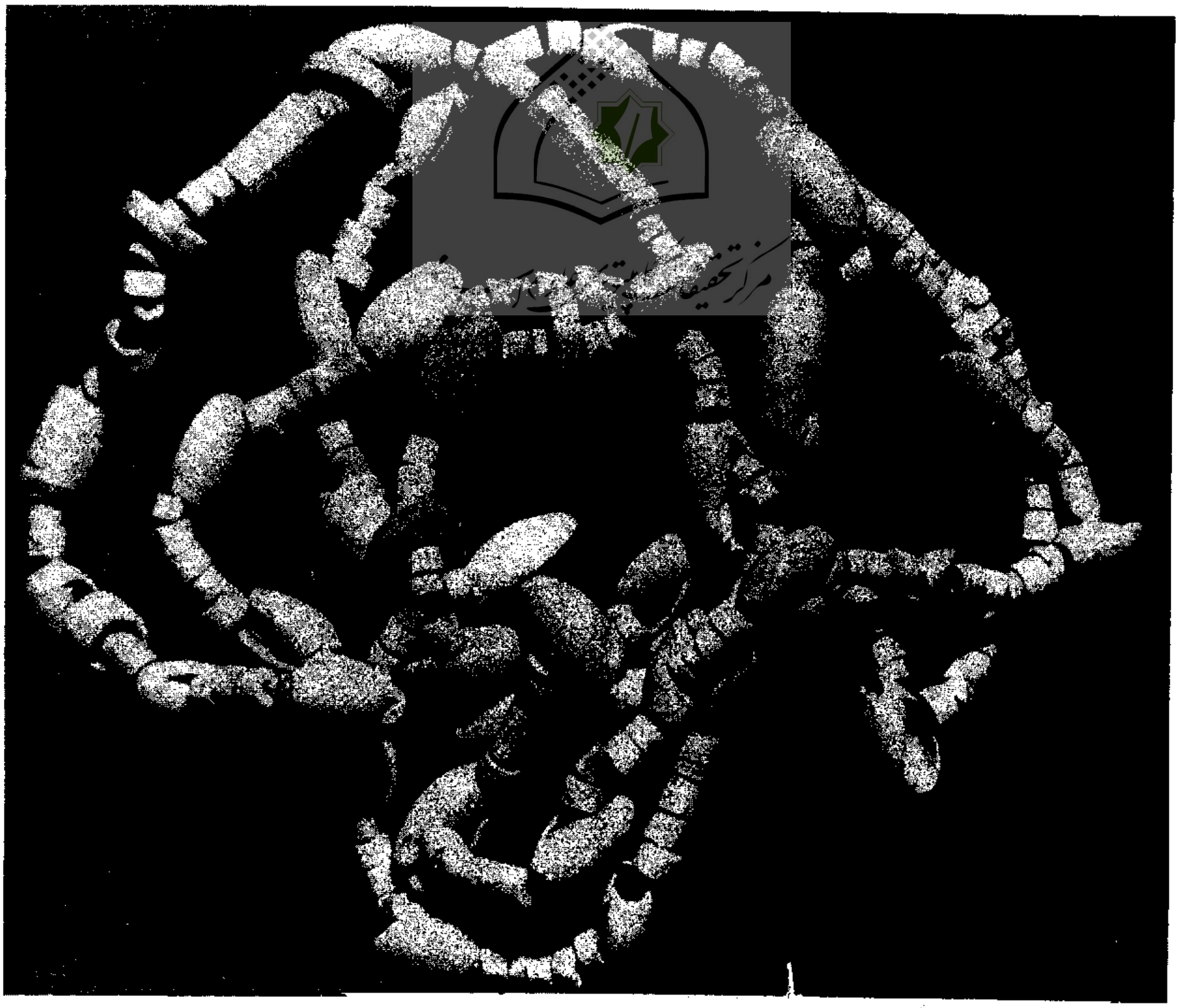
[Shells and Beads. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



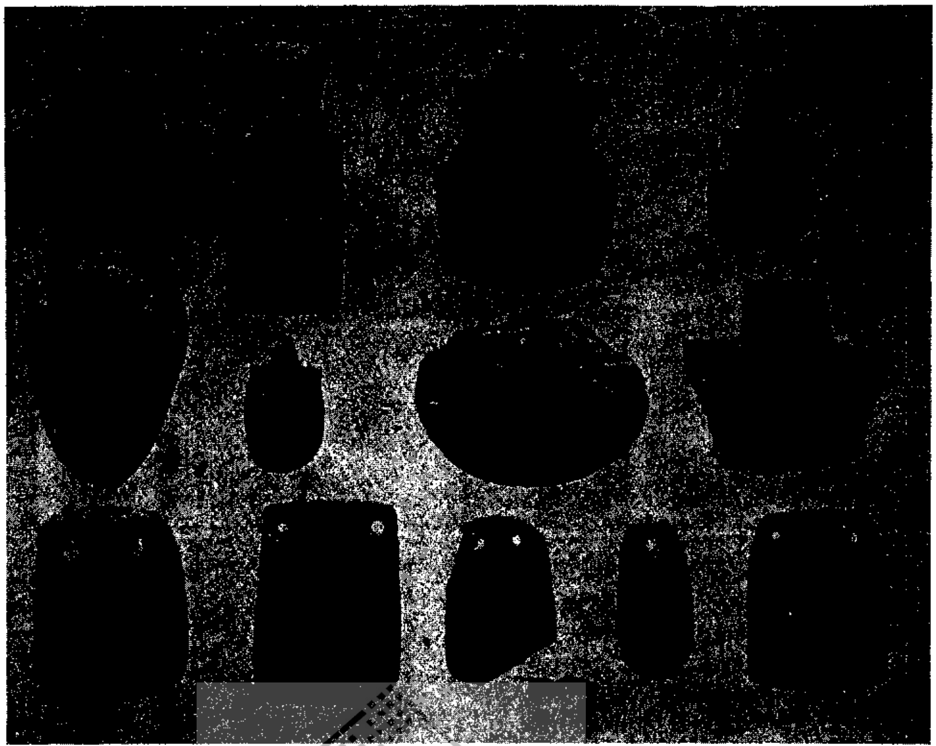
[Pendants and Ornaments. Safadi Culture. About 3500.B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

PENDANTS & NECKLACE

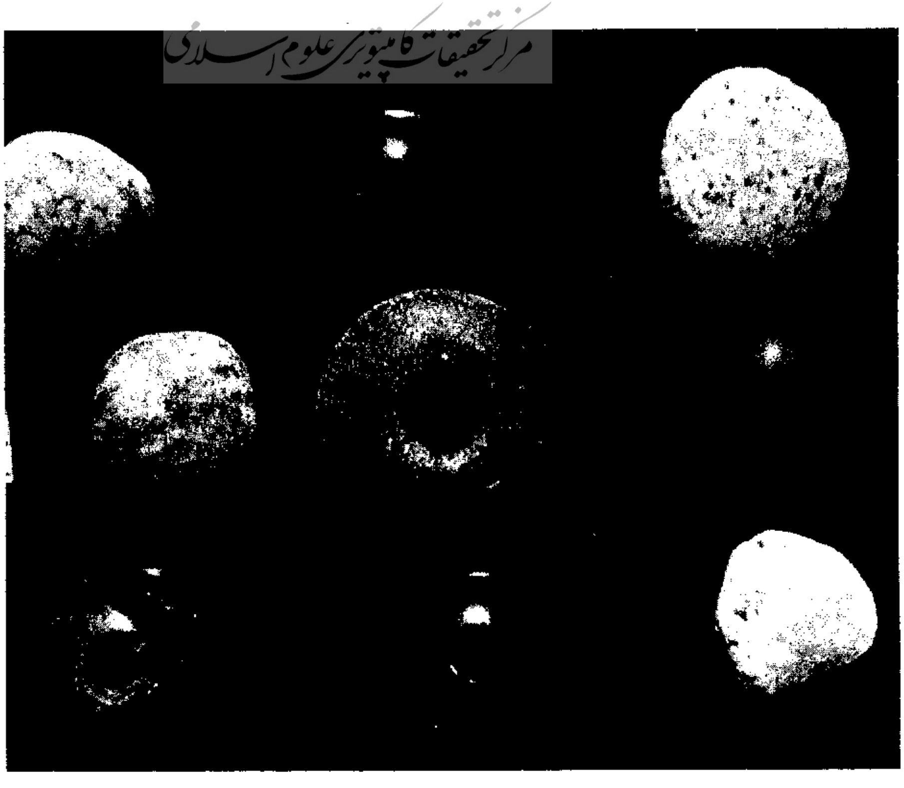
Pendants and Necklace



[Necklace From Shells and Beads. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



[Human Figurines. Tuleilat el Ghassul. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].



[Mac. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

STONE ARTS
Figurines

One of the most common Ghassulian tools is the fan-shaped tabular flint scraper knife, propably used for skinning animals and scraping the hides.

The flint assemblage also includes scrapers, knives, denticulates, double notches, perforators, and choppers. Other stone finds are a single bladelet of obsidian, as well as limestone amulets, mace heads cosmetic pallets, mortars. and a rare V-shaped bowl.



[Schematic Figurine Stone (Negeb). Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C.]



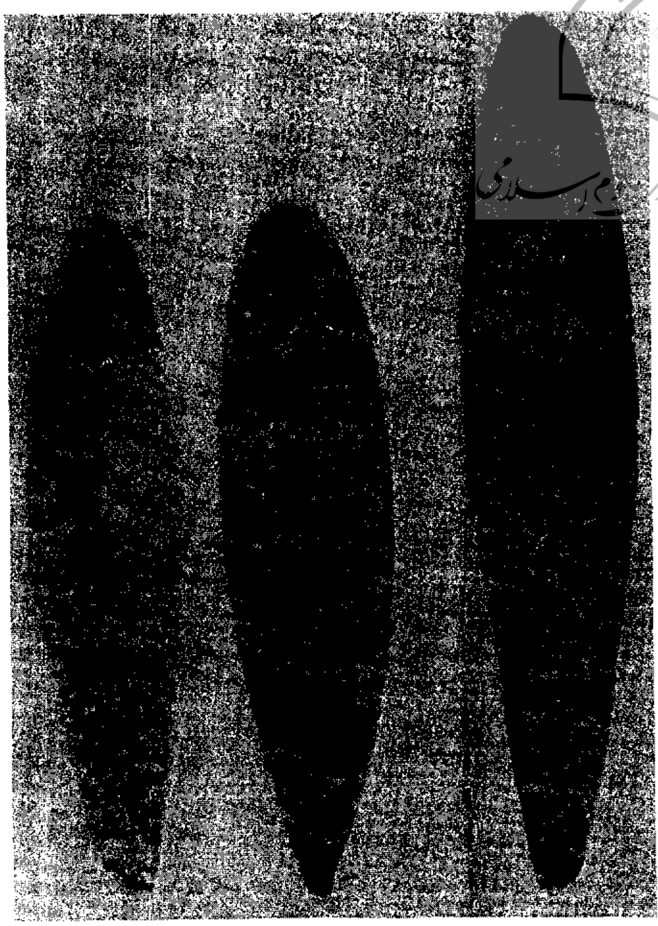
[Schematic Figurine of A Person Squatting On His Heels. Limestone. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C.]

[Palestine Archaeological Museum. Jerusalem].

STONE INDUSTRY

The Ghassulian industry includes stone, copper, pottery, bone, ivory implements, beside unique models of arts.

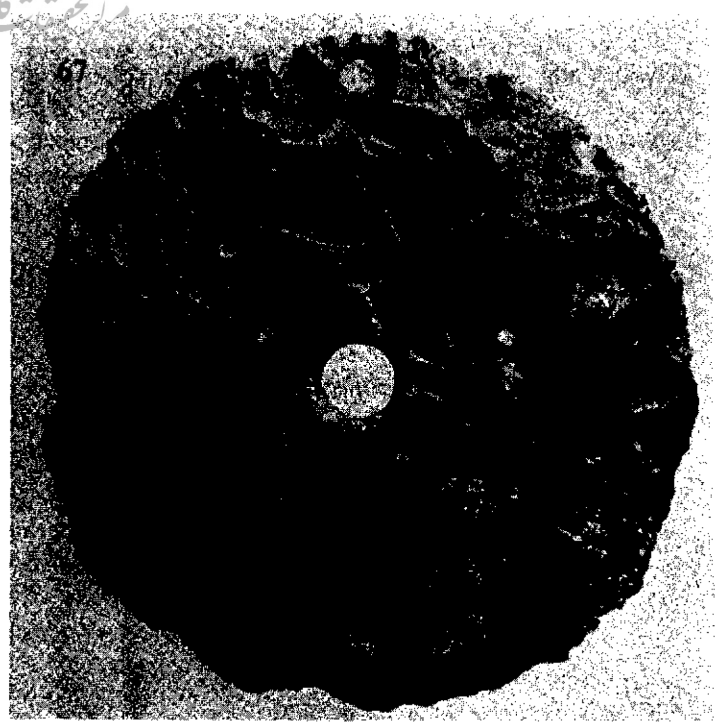
Stone Industry: The Ghassulian period is the last one in which flint artifacts assume a major importance in the economy, except for knives and sickle blades, which continue in use. For most other purposes copper begins to replace flint.



[Flint Knives. From Negeb].

At al Ghassul this includes hundred of bifacially worked tools loosely called chisels. Many of these tools have ground and polished working edges. B-cked, rectangular, truncated blades, commonly with edge luster, occur in large numbers. These have been hafted for use as sickle tools, further proof of agriculture.

Flint tools were still common, most of the implements consist of scrapers, tools for cutting and boring. Others include trenches, sickle blades, chisels, and some axes. Arrow heads are very rare.



[Perforated discoid mace flint. Safadi. Beer-Sheba Culture. About 3500 B.C. Palestine Archaeological Museum. Jerusalem]

GHASSULIAN INDUSTRY AND ARTS

The excavations at Ghassulian sites revealed a number of singular aspects:

– The local metal industry and the implements found in Ghassulian sites were: copper, malachite, axes, flint tools and sickle blades.

– Among the varied remains of the stone implements there were copper axes and ivory tools, which indicate to a new technological revolution.

– Ornaments figurines; pendants, shells and ivory were also found.

– There were artists among these people who were specialized in decorating the plaster walls of some Ghassulian buildings with polychrome frescoes of exceptional artistry. Their remains were found on stumps of walls, and on plaster fragments around them.

– The Archaeological clues include an odd assortment of objects; pots, butter chruns, burial urns-and noses. The road littered with these bits of evidence carries Palestine into the metal age and the dawn of recorded history.

– The economy of this culture was based to a great extent on *agriculture*.

The various sites were characterised of their own pattern. The variation lies mainly in the architectural plan of the houses, major industries, mode of life and burial customs.

BEER–SHEBA CULTURE

Beer-Sheba culture includes; Safadi, Abu-Matar, the prehistoric settlements in Nebeband and others which are situated several kilometers on both banks of the Beer-Sheba valley.

The settlements of Beer-Sheba culture consisted of subterranean dwellings. These dwellings were cut into the sandy loam on the terrace above the valley.

This type of inhabitation is found today in the Negeb and was very likely used in the Bronze Ages (Canaanite period) as well.

After the collapse of the first subterranean constructions round or oval rooms of unbaked bricks were built on stone foundations. The rooms were covered by crossed beams as ground level and the ceilings were lined with ponded earth.

Then rectangular houses were built of sun dried mud bricks on pebble foundations. The average size of these houses is 7 by 3 meters, some of them reaching a length of 10 meters.

Access to the dwellings was through an included shaft entered generally from shallow depression used as a courtyard, where fireplaces and basins were found. In the floors of the subterranean rooms, bell-shaped silos were dug. Hand and foot holds were cut in the shaft walls to facilitate ascent and descent.

The excavations revealed at the most ten dwellings situated around one big room not used for dwelling purposes in each of the occupation phases at Beer-Matar and Beer-Safadi.

The population of each of these settlements could not have numbered more than two hundred persons at one time.

B–MARGE IBEN–AMER PLAIN

Afula

Afula site is situated within the modern town of the same name. Its mound stands above the surrounding area in Marge Iben-Amer plain.

The excavations indicated that the settlement was not continuous. Stratum X can be reconstructed of Chalcolithic or the beginning of early Bronze age to the late Middle Ages.

C–JORDAN VALLEY

Beth–Shean

Beth-Shean is a mound in the valley of Harod (Jalud River) situated on high ways between Marge Iben-Amer (Jezreel) and the Jordan valley. The ancient site is to be identified with Tell El Husn, north of modern town. It stood at the junction of important roads, that were important in all periods giving access in all four directions; the road running the length of the Jordan Valley. The roads lead from Marge Iben-Amer valley to Gilead, and a main branch of the road to the sea passed at the foot of the mound. Although the mound of Beth-Shean rises some 80 meters above the bed of the Harod, it is 350 ft. below sea level.

The excavations revealed that Beth-Shean is one of the largest essentially unbroken occupation at any site in Palestine. The beginning of the settlement was at the Chalcolithic period levels XVIII-XVII, the remains were of plano - convex brick walls (i.e. with one surface plane and the other convex) of houses were found.

The Chalcolithic remains dated to 3500 B.C. and revealed gray burnished ware, copper implements were also found.

D–COASTAL PLAIN

Yazur (Azur)

Tel Azor is situated about 6 kilometers east of Jaffa.

The excavations in Tel Yazur revealed remains from Chalcolithic, Bronze, and Iron Ages. The Chalcolithic remains were found at Ossuary tombs. The man-made burial cave in which the Ossuaries were found is located at the center of the modern settlement.

Hearth, pottery, and other objects were also found. Some one hundred and twenty intact or fragmentary Ossuaries were found in the burial cave.

The discoveries at Yazur have added much to the knowledge gleaned from the cemeteries at Bene-Berak and Khederah.

E–KHIRIYYEH (BENE–IBRAQ, BENE–BERAK)

It is situated about 4 kilometers south of the modern city, east of Jaffa.

The excavations at Bab El Hawwah (Tel Abu Zeitun) revealed a number of Chalcolithic graves, the bones of the dead were placed in house-shaped clay Ossuaries after the flesh had decomposed. It uncovered also burnt clay Ossuaries containing human bones, and potsherds.

The Ossuaries are all house shaped and identical in form and decoration with those first found at Khederah.

The ceramic finds included pots, hole mouth jars, and incense burners, all typologically related to the Ghassulian-Chalcolithic ware.

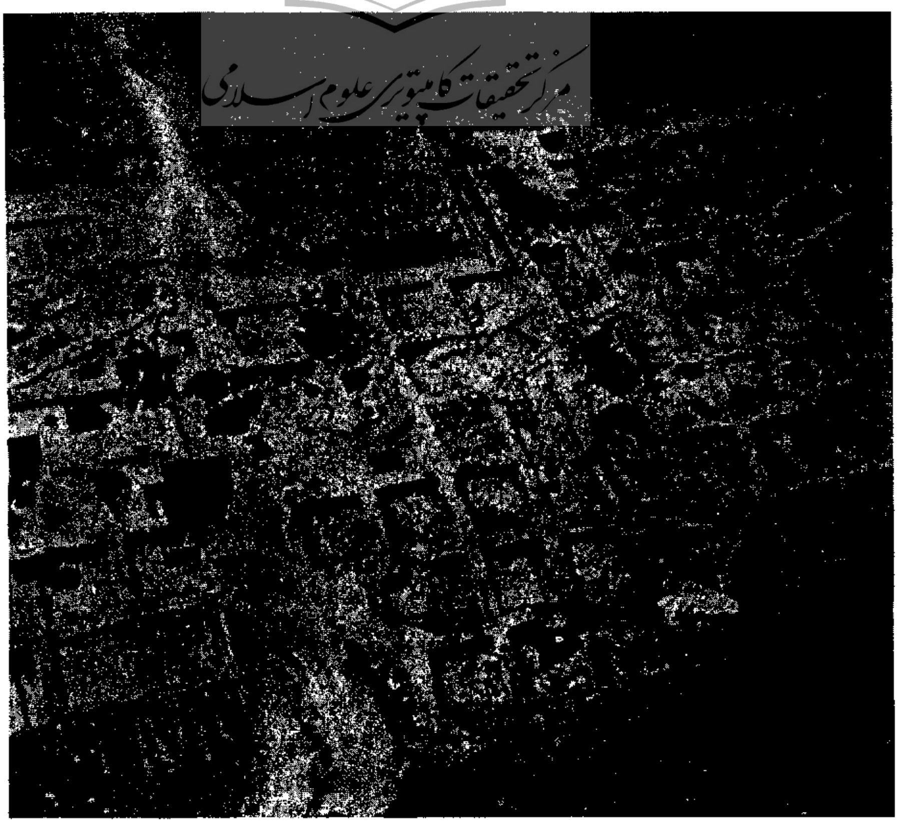
GHASSULIAN SITES
IN
PALESTINE

A–NEGEB (NEGEV) AREA

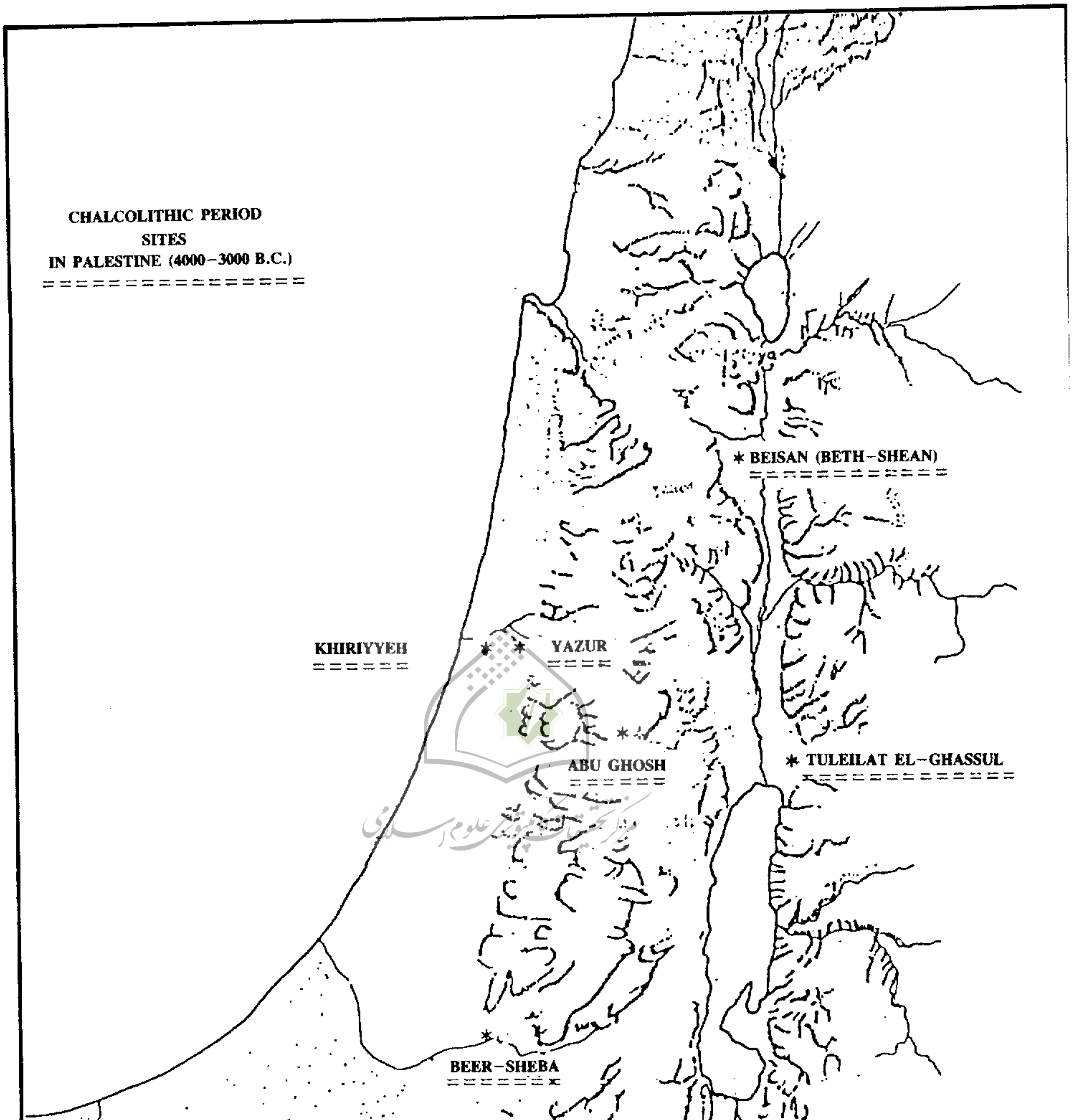
The topography of Negeb is known as the Palestine desert. Most of the central and southern parts are mountainous. The central part is zigzagged by deep wadis and craters, which form a serious obstacle to transportation. For this reason no important international trade routes traversed the Negeb from north to south.

Archaeological surveys and excavations have shown that in the Chalcolithic period, Negeb was of little economic importance, agriculture was also practised to some extent.

The first permanent settlements flourished in the valleys of the northern Negeb, in the second half of the fourth millennium B.C. They were highly developed culture callee the Beer-Sheba culture.



[General View of Under Ground Village Of Safadi. Beer-Sheba]


CHALCOLITHIC PERIOD
SITES
IN PALESTINE (4000-3000 B.C.)
BEISAN (BETH-SHEAN)
KHIRIYYEH
YAZUR
ABU GHOSH
TULEILAT EL-GHASSUL
BEER-SHEBA

CHALCOLITHIC PERIOD
IN
PALESTINE

Dr. Izzed-Deen Gharbiyyeh

GHASSULIAN CULTURE 4000 – 3000 B.C.

The Chalcolithic is a term for the period which extends around (5000/4000-3000B.C.) in Ancient Near East when man used copper tools beside the stone implements.

In Palestine it is known as Ghassulian culture, because it was discovered for the first time at Tuleilat El Ghassul in the eastern side of the Jordan valley. The Ghassulian is undoubtedly the major cultural assemblage in the period which dated around 4000-3000 B.C. in Palestine, and parallels have been found in other sites in Syria and Lebanon.

Tuleilat El Ghassul combines few small mounds of chalky marl occupying an area of some seven acres in the Jordan valley opposite to Areha (Jericho), about 2 miles north-east of the Dead Sea and 850 ft. below sea level. The place is called Tuleilat El-Ghassul, or 'Little Mounds of the washing plant' - for people used to come there to make a coarse type of soap by boiling goat tallow with the caustic ashes of desert sage.

The excavations revealed a village which flourished mainly in the Chalcolithic period. The houses consisted of one large room, with one or more smaller ones attached to it. The walls were plastered or made with white washed mud bricks and in some cases they were also decorated with multicoloured wall paintings. Inside the house there were large jars, ovens and benches built of brick which were sunk into the ground.

The Climate of this period in Palestine and Near East generally was less severe than it is today. During sub-boreal times, the rain fall regime was probably more conducive to a more luxuriant vegetation, either in the amount of precipitation or in its distribution.

The *domestication of plants and animals* was well advanced, which helps define quite closely the course of the everyday life of the inhabitants, as well as their annual round of activities. It can be said that they were horticultural and pastrol people. An analysis of the seed-remains found in the excavations has revealed three categories of plants; fruits, cereals, and pulses. These are represented by carbonized olive pits (olea europaea) and date pits (phoenix dactylifera), barely (hordeum vulgare) and wheat, and lentils (lens culinaris). Flax was probably also grown, since fragments of linen were discovered in the excavations.

Animal bones discovered include only domesticated species, emphasizing the probability that little hunting was practiced by the Ghassulians. Among the found remains are sheep (ovine? aries) goat (capra hircus), and pig (sus scrofa). A few bones of equids (horse and donkey) have also been identified.

Several regions in Al Negeb (Negev), the coastal plain, and the Jordan valley were inhabited during the Ghassulian period (i.e. in the second half of the fourth millennium).

The remains of the Ghassulian culture were found in: Tuleilat El-Ghassul, Negeb: Beer-Sheba culture (Safadi, Abu-Matar, Negeb). Marge Iben-Amer area, Afula, Jordan Valley, Beth-Shean, Coastal Plain, Azur, Khiriyyeh.

CONTENTS(*)

(*) Subjects in English

EDITORIAL BOARD

The Arab Historian
Quarterly

Address :
Union of Arab Historians
P.O.Box : 4085
Baghdad — Iraq
Telex :
Telephone :

Subscription Card.

Please enter my subscription for

One Year $ 150.00 for Institutions
$ 60 for Historians
$ 30 for Students of History

Please bill me ....
Check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Country ....
Date ....

المؤرخ العربي

مجلة تعنى بشؤون التراث
والتاريخ العربي والعالمي

العنــــوان :
اتحاد المؤرخين العرب
ص.ب (4085)
برقيا : مؤرخين بغداد
هاتف : 4434236
بغداد : الجمهورية العراقية

قسيمة اشتراك

ارفق طيا صكا/ حوالة مصرفية بمبلغ .... مدفوعة لأمر
اتحاد المؤرخين العرب/ الامانة العامة/ عن قيمة اشتراك بنسخة واحدة أو..........نسخ ،
لمدة سنة واحدة على ان ترسل الى العنوان الآتي :

الاسم : ....
العنوان : ....
رقم التلكس .... رقم الهاتف ....

المشاركات
50 دينارا داخل العراق و 150 دولارا في الاقطار العربية ..

The Arab Historian

AL-MUARRIKH AL-ARABI

A quarterly issued by:

The Union of Arab Historians
Baghdad

No: 43, 1990

Eleventh Year (1410) A.H. 1990

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

Office of the general secretary

Iraq - Baghdad - P.O.Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS

